



سكفن راسيمان

## تاريخ الحملات الصليبية

٣- مملكة عكا والحملات الصليبية المتأخرة

ترجمة

نور الدين خليل

\_\_\_\_\_

.....

---

## تاريخ الحملات الصليبية

٣ - مملكة عكا والحملات الصليبية المتأخرة



\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_



## المحتويات

١١	مقدمة المترجم
٢٩	مقدمة

### الباب الأول: الحملة الصليبية الثالثة

٣٥	الفصل الأول: ضمير العرب
	١١٨٧م: بنة رئيس أساقفة صور - ١١٨٩م: استخلاص القلعة وريشارد -
	١١٨٩م: إبحار الأسطول الإنجليزي - ١١٨٩م: الامبراطور فريدريك يتنقل للأنبا
	- ١١٨٩م: فريدريك في القلعة - ١١٩٠م: مفرح فريدريك بارباروسا -
	الأنبا في أنطاكية

### ٥٣ الفصل الثاني: عكسا

	١١٨٨م: الإخراج من القلعة حوى - ١١٨٨م: الثانية بين حوى وكورنارد -
	١١٨٩م: حوى يصل كسام عكسا - ١١٨٩م: صلاح الدين يتنقل إلى عكسا -
	١١٩٠م: توقف إيجيبر للفردين - ١١٩٠م: قتال مهنوش - ١١٩٠م: زواج
	كورنارد وإيزابلا - ١١٩١م: الحاجة في المعسكر الفرانسي

### ٧٣ الفصل الثالث: قلب الأسد

	الملك ريتشارد والملك تليوب - ١١٩٠م: الملك تليوب في القلعة - ١١٩٠م:
	ريتشارد يخاضر ميسينا - ١١٩٠م: مقاضات في صقلية - ١١٩١م: الأسطول
	الإيطالي يصل مياه قبرص - ١١٩١م: ريتشارد يفرق قبرص - ١١٩١م:
	وصول ريتشارد إلى معسكر الصليبيين - ١١٩١م: علامات في المعسكر -
	١١٩١م: الصليبيون يدخلون عكسا - ١١٩١م: ريتشارد يقتل الأسرى العرب -
	١١٩١م: معركة أرسوف - ١١٩١م: انتصار ريتشارد - ١١٩١م: ريتشارد
	يتفاوض مع العادل - ١١٩٢م: ريتشارد في بيت توبا - ١١٩٢م: مقاضات
	جديدة - ١١٩٢م: اقتبال كورنارد - ١١٩٢م: ريتشارد يستول على دارون -
	١١٩٢م: ريتشارد يتسحب إلى يافا - ١١٩٢م: آخر انتصارات ريتشارد -
	١١٩٢م: معاهدة بين صلاح الدين وريتشارد - ١١٩٩م: موت ريتشارد

### الفصل الرابع: المملكة الثانية

١١٧

١١٩٣م: وفاة صلاح الدين - ١١٩٣م: أبناء صلاح الدين - ١١٩٩م: الخلاصات الأيوبية - ١١٩٤م: حكومة هنري - ١١٩٧م: ملكة قبرص - ١١٩٦م: ليو الثاني الأرمني - ١١٩٤م: هنري والمقاتلون - ١١٩٨م: ترويع ليو الثاني - ١١٩٧م: موت هنري (كوف شاماني) - ١١٩٨م: زواج إيزابلا وأنثاريك - ١١٩٧م: الحملة الصليبية الألبانية - ١١٩٧م: الاستعلاف على أنطاكية - ١٢٠١م: الحرب الأهلية في القسطنطينية - ١٢٠٥م: موت الملك أنطون

### الباب الثاني: حملات صليبية شاذة

١٤٩

### الفصل الأول: الحملة الصليبية ضد المسيحيين

١١٩٩م: انبثقت ثالث الحملة الصليبية - ١٢٠١م: تعيين بونيفاس ثالثا للحملة الصليبية - ١٢٠٢م: مفاوضات مع القنطرة - ١٢٠٢م: هيب مدينة زارا - ١٢٠٣م: الحملة الصليبية لبحر قسطنطينية - ١٢٠٣م: الكوسوس الصغر اسراطورا - ١٢٠٤م: ثورة في القصر - ١٢٠٤م: هيب قسطنطينية - ١٢٠٤م: ترويع بلدوين كورت دلاسترو اسراطورا - ١٢٠٤-١٢٠٦م: الامبراطورية اللاتينية - ١٢٠٤م: انوسنت يدين الحملة الصليبية - ١٢٠٤م: التراجع الماركة على الحملة الصليبية

١٧٧

### الفصل الثاني: الحملة الصليبية الخامسة

١٢١٠م: جون (كوف برين) ملك القدس - ١٢٠٩م: الاستعلاف في أنطاكية - ١٢٠٦م: بطريق يوراني في أنطاكية - ١٢١٢م: التشرع بعملية الأطفال الصليبية - ١٢١٢م: الأطفال في مرسيليا - ١٢١٢م: معبر الأطفال - ١٢١٦م: موت القياة انوسنت ثالث - ١٢١٧م: تأخر الصليبيين - ١٢١٨م: الملك الدرو يعود إلى بلاده - ١٢١٨م: الصليبيون يتولون إلى البحر في مصر - ١٢١٨م: وصول الكاردينال بيلاجيوس - ١٢١٩م: احتلال القنطرة - ١٢١٩م: القديس فرانسيس (كوف كيسي) - ١٢١٩م: كمال يمرض شروط السلام - ١٢٢٠م: بيلاجيوس يتشهد حلقاء - ١٢٢٠م: الملك جون يقاتل الجيش - ١٢٢١م: الصليبيون يتقدمون - ١٢٢١م: بيلاجيوس يستعطف طالب السلام

٢١٩

### الفصل الثالث: الامبراطور فريدريك

١٢٢٦م: الاستعلاف الأرمني - ١٢٢٥م: زواج فريدريك وبولاند - ١٢٢٥م: معبر جون (كوف برين) - ١٢٢٨م: فريدريك يتسرع في الرحيل إلى الشرق -

١٢٢٨م: فريدريك يهبط في قبرص - ١٢٢٨م: فريدريك في عكا - ١٢٢٨م:  
المراتع المالكية الأيوبية - ١٢٢٩م: استعادة القدس - ١٢٢٩م: فريدريك في  
القدس - ١٢٢٩م: نهاية صلة فريدريك الصليبية - ١٢٢٩م: وضع القدس للقتل -  
١٢٢٩م: الملكة أليس تطلب بدمشق القدس - ١٢٣١م: إنشاء مجلس إداري  
(كروميون) في عكا - ١٢٣٢م: معركة كامبال يوت - ١٢٣٢م: معركة أحرمدى  
- ١٢٣٣م: تعيين موحسينيل وكيل

#### ٢٥٥ ..... الفصل الرابع: فرضي مقبنة

١٢٣٣م: يوهنن الحارس أمير أنطاكية - ١٢٢٩م: الكامل بعد وحدة الأمراء السورية  
الأيوبية - ١٢٣٩م: الحرب الأهلية فيما بين الأيوبيين - ١٢٣٩م: تيساند وأوف  
ستاباني وصلته الصليبية - ١٢٤٠م: نهاية صلة تيساند الصليبية - ١٢٤١م: ريتشارد  
إيرل كورنويل - ١٢٤٣م: قبول وصاية الملكة أليس - ١٢٤٣م: معاهدة مع الصليبيين  
إسماعيل صاحب دمشق - ١٢٤٤م: ضياع القدس نهائية - ١٢٤٤م: كارثة في  
لاونرس - ١٢٤٧م: ضياع عسقلان - ١٢٤٥م: بطريركية لائيبه في أنطاكية -  
١٢٥٢م: ضائع في كنيسة أنطاكية

#### قباب الثالث: المغول والمماليك

#### ٢٨٧ ..... الفصل الأول: مجي المغول

حنكيز خان - ١٢٠٦م: تظلم اميراطورية حنكيز خان - ١٢١٨م: محمد شاه  
الغوراني - ١٢٢١م: هزيمة الغورانيين - ١٢٢٢م: المغول يطعنون إلى القوقاز -  
١٢٢٧م: استتلاف كوردي - الغزو المغولي لأوروبا - ١٢٢٩م: المغول في آسيا  
الصحري

#### ٣٠٧ ..... الفصل الثاني: القديس لويس

١٢٤٨م: الملك لويس يسير من ينجو - ١٢٤٩م: الحملة الصليبية تصل أمام  
دمياط - ١٢٤٩م: لويس في دمياط - ١٢٤٩م: الصليبيون يقدمون غولنصوره -  
١٢٥٠م: معركة القنطرة - ١٢٥٠م: تورانشاه يتولى قيادة المسلمين - ١٢٥٠م:  
لويس في السجن - ١٢٥٠م: مقتل تورانشاه - ١٢٥٠م: لويس يفر في الشرق -  
١٢٥٣م: الحملة تحقق السلام بين أفراد المسلمين - ١٢٥٢م: فتاح قرقجي مع  
الخلافة - ١٢٥٤م: الآثار التي ترسب على رحيل لويس - ١٢٥٦م: حرب

القدس مسابلي - ١٢٥٨م: الملكة بليزاس في عكبا - ١٢٦١م: البيزنطيون يستعيدون القسطنطينية - ١٢٧٠م: آخر صلة صليبية للملك لويس

#### ٣٤٧ ..... الفصل الثالث: المقل في سوريا

١٢٥٤م: التحالف الأرمني مع المقل - ١٢٥٤م: وليم (ألف روبروك) في ترافورم - ١٢٥٦م: الجيش للمقل يتحرك باتجاه الغرب - ١٢٥٧م: إعادة الخشاشين في فارس - ١٢٥٨م: المقل يهربون بغداد - ١٢٥٩م: المقل يدخلون سوريا - ١٢٦٠م: سقوط دمشق - ١٢٥٩م: موت الخان الأحمس موتفكسا - ١٢٦٠م: المماليك يلقون مساعدة الفرنج - ١٢٦٠م: معركة عين جالوت

#### ٣٧١ ..... الفصل الرابع: السلطان بيبرس

١٢٦٥م: موت هولاكو - ١٢٦٦م: بيبرس يفتح الجليل - ١٢٦٦م: للمماليك يهربون كليكيا - ١٢٦٨م: سقوط أنطاكية - ١٢٦٨م: هيو، ملك قرص والقدس - ١٢٦٩م: تروج هيو - ١٢٦٩م: الحملة الصليبية لأشغال كراخون - ١٢٧٠م: قل فليب أمو موتفورت - ١٢٧١م: وصول إيلارد الإنجليزي - ١٢٧٢م: هدنة بين إيلارد وبيبرس - ١٢٧٢-١٢٧٤م: البابا جورد العاشر يجمع تشارلز عرس الحملات الصليبية - ١٢٧٤م: يجمع ليون - ١٢٧٥م: قوصاية في طرابلس - ١٢٧٦م: الملك هيو يتقاعد في كرس - ١٢٧٧م: بيبرس يهزم الأساقوس - وفاة بيبرس

#### الباب الرابع: نهاية الشرق الفرنجي

#### ٤٠٧ ..... الفصل الأول: تجارة الشرق الفرنجي

متاحات الشرق الفرنجي - التجارة العابرة - دور البحار الإيطاليين - الطرق التجارية في ظل المقل - ثروة البازونيات - ضرب العملة في الشرق الفرنجي - معجزة الشرق الفرنجي الاقتصادية

#### ٤٢٥ ..... الفصل الثاني: العمارة والفنون في مملكة الشرق الفرنجي

الثقافة البيزنطية - شلاع القرن الثاني عشر - ضعف دعامات الصلاح - عمارة الأماكن للقدسة - الكنائس في القدس - زخرفة الكنائس - القسيساء والوحوات الجبلية

### ٤٤٩ ..... الفصل الثالث: سقوط عكا

١٢٨٢م: الحرب الأهلية في طرابلس - ١٢٨١م: معركة حيس - ١٢٨٢م: انهيار قوة تشارلز وأوف ألبو - ضياع المرفأ - ١٢٨٦م: آخر أحياء الشرق الفرنسي - ١٢٨٧م: سفارة أمان سافوا - ١٢٨٩م: الختان تحت حملة صليبية - ١٢٨٧م: سقوط اللاذقية - ١٢٨٨م: لوتشيا، كوتيسة طرابلس - ١٢٨٩م: اللاتيفون من عكا - ١٢٩١م: التهافت بالملين - عكا سنة ١٢٩١م - ١٢٩١م: آخر محاولة للتفاوض - ١٢٩١م: القروب من عكا - ١٢٩١م: تهسو عكا - ١٢٩١م: موت ملكة الشرق الفرنسي

### الباب الخامس : خاتمة

### ٤٨٩ ..... الفصل الأول : آخر الحملات الصليبية

الانتقال إلى حلقاء - ريموند كليل - مقتوحات الحملة الصليبية - ١٣٠٨م: فرسان المستشفى بخلونجزيرة وروس - ١٣٠٨م: هزيمة نظام للميد الديني العسكري - ١٢٩٩-١٣٠٨م: للقول بفرزون سوريا ثانية - ١٣٥٩م: استخلاص بطرس الأول القرضي - ١٣٥٦م: الملك بطرس يخطط حملة الصليبية - ١٣٦٥م: الحملة تهاجم الإسكندرية - ١٣٦٥م: لوب الإسكندرية - ١٣٧٥م: انهيار الملكة الأرمنية - ١٣٤٤م: الاستيلاء على أرمو - تخلص السلطة العثمانية - ١٣٦٦م: انتصار السلطان - تيمور الأهرج (البحر لشتك) - ١٤٤٤م: الحملة إلى طرنة - ١٤٦٤م: البابا يبرس فتاني آخر الصليبيين

### ٥٣٣ ..... الفصل الثاني : إجمال

الحملات الصليبية والبابوية - الحملات الصليبية والإسلام - الحملات الصليبية والعالم المسيحي الشرقي - مدار بزنطة - الانتظار إلى قائد

## المرفقات:

- المرفق الأول : للمراجع الرئيسية لتاريخ الحملات الصليبية المتأخرة ..... ٥٤٩  
 المرفق الثاني : الحياة الفكرية في أوتربرجه ..... ٥٥٩  
 المرفق الثالث : شعرات الأنساب ..... آخر الكتاب  
 ١- البيوت الملكية للقدس وقصر بيت ايلين  
 ٢- بيت أمراء أنطاكية  
 ٣- بيت أسرة أموريكو  
 ٤- بيت أرمنييا الملكي (كيليكي)  
 ٥- الأيوبيون  
 ٦- بيت جنكيز خان

## المصادر والمراجع: ..... ٥٦٣

## الخرائط:

- خريطة رقم (١) : عكا وضواحيها في سنة ١١٨٩م ..... ٥٥  
 خريطة رقم (٢) : دلتا النيل زمن الحرب الصليبية الخامسة، وخطة القدس  
 لويس التاسع ..... ١٧٩  
 خريطة رقم (٣) : امبراطورية المغول زمن جنكيز خان وأحفاده ..... ٢٨٩  
 خريطة رقم (٤) : عكا سنة ١٢٩١م ..... ٤٥١  
 خريطة رقم (٥) : الشرق العربي في نهاية القرن الثالث عشر ..... ٥٣٥

## مقدمة المترجم

### منطق التاريخ

هذا هو الجزء الثالث من "تاريخ الحملات الصليبية" الذي أعدنا على عاتقنا ترجمته بأكمله ، لما نجيز به من خصائص علمية وفنية تفرد به من ما كتب في مختلف المصور عن تلك الحملات . وليس قلة شك في أن هذا التاريخ ، الذي يوفى على كل غاية للخصائص التي أسلفناها ، يتفرد تفردا عبقريا قلما يتاح لغيره في ناحية واحدة متميزة وحليقة الخطر ، تتمثل في أن كاتبه التزم فيه حيطة موضوعية علمية قلما ينسجم بها مؤرخ في تناوله للأمور نفس عقيدة أخرى غير عقيدته ، وحضارة لا ينتمي إليها. فالإنسان هو الإنسان لا يتأني له - وإن أراد - أن يخلص عن وعي أو عن غير وعي من آثار نشته الاجتماعية والدينية والسياسية . وإذا أحلنا النظر فيما يدور حولنا الآن يستبين لنا أن الصراع الدائر في شتى أرجاء العالم اتخذ في العقود الأخيرة شكلا جديدا



يمكن أن نجعله على أنه "صراع فكري" ، فالسلاح ، وقد بلغ به الإنسان مبلغا يمكن أن ينتهي بالعالم إلى أسوأ مصير ، ليس نتيجة لذلك عقبا لا يكاد يُبلغ جماعة من الناس غاية ما تريد ، فالضوابط التي تحكم استخدامه أصبحت حدودا لا يمكن تجاوزها إلا إذا أراد الإنسان أن يضع حدا للحياة نفسها . غير أن العقائد هي العقائد ، والمذاهب السياسية وغير السياسية هي المذاهب ، بالية على ما كانت عليه ، ولا بد لها من أن تصطرع محاولة لتحقيق غاياتها أو بعض غاياتها . ولم يعد في يد الإنسان بعد مسيرة الحضارات الطويلة سوى فكره كمي يقوض به غمار عالم قبيء ثم يكسده بتعلم شيئا لو تلقى درسا من ماضي أبائهم . وكلمة "فكر" في هذا السياق لا تحمل على ما فيها من إيجاب ، بل هي تقارب السلب إنما مقارنة . ومن الغريب أن هذه حال صُنِّعت فيما مضى وتصدق في أيامنا . إذ أن روح "الوأسرة" التي غلبت على سياق الحملات الصليبية في شتى مراحلها الطويلة ، هي نفس الروح التي تغلبت على الفكر السياسي في الوقت الحاضر.

ولعل أقرب مثال على ذلك ما حدث للإتحاد السوفياتي السابق الذي كان يشكل طوال خمسة وسبعين عاما قوة هائلة بحسب لها ككل حساب ، انتهى وانتهت أيامه وانتهت العقيدة التي بشر بها وطن أنها بالية إلى يوم الدين . وللفكرين السياسيين في شتى بقاع العالم يكادون يجمعون على أن ذلك الإتحاد السوفياتي إنما قضت عليه "الوأسرة" . فالعسكر الغربي الذي بنى أعماده على أسس فلسفة رأسمالية ، والذي لم يأبه باتساقية الإنسان ، إلا عندما تهددت كيانه تلك الإيديولوجية التي سادت روحا من الزمان في الإتحاد السوفياتي ، لم يتأتى لسلاحه النووي الرهيب أن يتصدى لذلك الخصم القوي أو يقضي عليه . ولم تكن له سبيل إلى ذلك إلا بإتفاق قدر هائل من المال عاظم في الإنسان غرائزه وجوهره واستطاع أن يستلب عقيدته ووطنه . وبسات من المعروف أن أمريكا انفقت ذلك المبلغ الطائل كي تجتنب الجوء إلى السلاح الذي كان سيؤدي بالضرورة إلى هلاكها إن هي أقدمت على استخدامه . ولا يتسع هذا المجال لتفصيل كل ذلك ، وإنما الذي يعنينا هو التماثل الواضح بين الأسس واليوم . فالإنسان على إدعائه الإيمان لا يستطيع في كل حال أن يقبض في يقين على ما يعتنقه ، وفي هذه العبارة مفتاح يعيننا على أن نفهم ما جرى إبان الحملات الصليبية.

فالمسلمون أصحاب عقيدة تستطيع أن تتصدى دون غيرها لتطعن عام يتفق مع فطرة الإنسان، وتترك قدراته ولا تتعامل طابع الأشياء وحقائقها ، ومع ذلك استطاع الصليبيون عبر عقود متعاقبة أن يحققوا بعض انتصار على المسلمين ، لا لأنهم كانوا

مدافعين عن عقيدة وإثنا لأنهم كانوا أصحاب ديناً وأصحاب سياسة أي أصحاب "مواطنة". والحملات الصليبية في تابعها تظهر في حلاله أنه لم يأتَ للصليبيين أن يحرقوا شيئاً من نصر إلا عندما نجحوا في أن يفتكروا المسلمين بعض حين عمّا يعتقدون . وفي اللحظات التي غلب فيها الإيمان على هوى الإنسان لم يستطع أحد عبر التاريخ كله أن يقيم من المسلمين مذبحة وإن كان يسيراً ، على كثرة العدو وقلة المسلمين . وهذا الرأي ليس رأي مسلم ، وإنما هو منطق التاريخ ، وفيه دلالة واضحة على أن ما هو صحيح لا بد أن يصح في منطق الواقع إذا التزم الإنسان كائناتاً من كان حادثة إيمانه وصبوب عقله ، أي أن التاريخ نفسه دليل ، وسوف يدل ، على صحة هذه العقيدة التي جمع الخصوم لها وتجمعون ، وحاولوا وهم يمارلون.

فقدت الإضمحلال في دورات الحضارة لا تدل على أن قوة القاهرة استطاعت أن تدمر قوة دولتها، وإنما تدل على أن فكر الإنسان وقدرته على الخديعة استطاع في غيبة الإيمان أن يبني له منفذاً عند بعض طلاب الدنيا.

#### الحظر القديم الجديد

والذي يتدبر ما أوردته والنسيمان في مجلداته الثلاثة على عقدها وخبرها، يتاح له أن يستبين في غير ما شك أن الصليبيين على اختلاف انتماءاتهم وقومياتهم وعقائدهم وعلى اختلاف أيمانهم ، لم يكونوا سوى طلاب منفعة ولم يكن للدين موضع في وجدانهم، وإنما اقتبلوه ذريعة يتعللون بها لاستغلال سيوفهم . ولعدد ، في غلة سريعة ، إلى القرن العشرين ليرى أنه في العقد الثاني منه بدأ يلوح في الأفق عدو للغرب مكين ، أتساءل عدوانته للإسلام إلى حين . وما أن دار الزمان دورته وانتهى الاتحاد السوفياتي الذي كان يقوم على فكر وضعي ، حتى عاود الغرب الإحساس بالحظر بما هو مائل بالإمكانية في الإسلام . وبدأ مفكرو الغرب يصفون استكناه التاريخ ليكتشفوا من جديد مدى ما يمكن أن يتصل في ذلك العدو القديم من خطر شديد . وعليها في هذا السياق أن تنصّر النظر على مجال واحد لتبين مدى خطورة ذلك . ففي الوقت الذي يتاح فيه لإسرائيل أن تملك السلاح النووي ، وأن ترفض في صلف التوقيع على معاهدة منع انتشار السلاح النووي ، مجال بين أية دولة إسلامية وبين أن تحاول مجرد محاولة امتلاك ذلك السلاح أو غزوه بما يوصف بأنه متقدم . ولقد نجح الغرب في ذلك كله من خلال تفاديه إلى عقول كثير من الحاكمين الذين يستهويهم ما في الدنيا من متاع

وعيسى ، بعد أن بعدت الشقة بينهم وبين ما ينبغي لهم أن يلتزموه من أسر دينهم ، وبعد أن وحدوا من يور لهم مسلكهم ويزينه.

لقد أجملتنا في نظرة عامة ما نوحى به في النهاية قراءة ما كتبه واتسمان عن الحملات الصليبية ، والذي لا بد لنا أن نستخلص منه أنه ينبغي للمسلمين إن أرادوا البقاء أن يعودوا إلى ما يفرضه عليهم دينهم . ولقد سبق أن أوضحنا في مقدمتي الجزأين الأول والثاني من هذه الترجمة كثيرا مما أعاننا واتسمان على أن نفهمه من الترجمة العامة التي رسمها في فن واقتدار للحملات الصليبية والتي أبرز فيها على نحو يتعش للتأمل كثيرا من الخصائص التي يتميز بها من يحق لهم أن يقولوا أنهم صدروا عنها فليهم عليهم ضمائرهم ومقتضيات دينهم . ونحن كراتسمان نستطيع أن نلتزم الحيدة العلمية الموضوعية غير متأثرين بالتمائم وإنما مستجيبين لمقتضيات العقل والنطق . ورغم غيبتها في عالم تنامي تاتيا يكاد يكون كاملا عما هو عقلائي أو منطقي . ولئن تعاود هنا بطبيعة الحال ذكر ما سبق أن تناولناه في مقدمتي الجزأين السابقين ، وإنما سننظر على نحو عام في عمل ما حققه واتسمان تحقيقا تاريخيا علميا ، ضارين عددا من الأمثلة للثقل التي تعمر في صدق وعمق عن واقع حال تلك الصفحات السوداء التي عطلها الصليبيون في صلب وعدوان في كتاب التاريخ .

#### هل يعيد التاريخ نفسه ؟

ولعل لنا أن نبدأ بالإشارة إلى الأحوال العامة التي كانت سائدة بين جماعات المسلمين باختلاف تسمياتها السياسية لتأمل من خلالها ما يسود العالم العربي والإسلامي الآن من أحوال مشابهة . ونحن في ذلك لا نقول مع القائلين "إن التاريخ يعيد نفسه" ، فهذه العبارة تبدو للرحلة الأولى كما لو كانت صحيحة، وواقع الحال أنها ليست كذلك إلا بعبارة واحدة . فالتاريخ لا يعيد نفسه أبدا كوقائع وأحداث ، ومن يتأمل تفاصيل أحداث التاريخ ، أو بالأحرى أحداث التواريخ ، يجد أنها لا تتماثل على الإطلاق . ونحسب أن من قال بهذه العبارة إنما يعني ما تعنيه بقولنا إن العبارة قد تكون صحيحة بعبارة واحدة يمثل في الإنسان نفسه . ذلك أن "الإنسان العاقل" - مذ كان يزحف على ظهر الأرض في بداية تكاد تلمرى من أمرها أو من أسر غيرها شيئا، وحتى عصرنا الحال الذي يقابل فيه إن الحضارة السائدة هي حضارة الإنسان المعاصر أو حضارة القرن العشرين على إطلاق - لا يكاد يثبت إزاء منطق سوي إلا من حيث

مظاهر القسرة التي تُرَفِّسُ العالمَ بالواقع الخادعة . وليس ثمة شيء يمكن أن يكون ثابتاً سوى أثر الإنسان وثباته عن القيمة ، فهذان هما العاملان الأساسيان اللذان حركتا وبجركان تواريخ الإنسان في مختلف حقب حضارته . ونحسب أن عبارة "إن التاريخ بعيد نفسه" لا تصدق أو تصح إلا بهذا المعيار . فبرغم ما نلقب فيه الإنسان من عقائد وأديان وأيديولوجيات لم يستطع في أية حال أن يفلو على أثره أو يُثبت على قيم عليا تستطع أن تدور وجودها عن منطق سوى أو عام . فلكل جماعة من البشر منطقها الذي يقوم أساساً للدفاع عن مصالحها الخاصة الملتبقة عن أثرها وفظلمها برغم ما فاتته الآلهة وما قاله الله وما نادى به الفيلسوف ، وبرغم ما تدعو إليه المسيحية من تسامح . ونقف هنا عند المسيحية بصفة خاصة لأنها تعالج "اختلالات الصليبية" . ولعل ذلك يعود بنا إلى واقعة تدل على صحة ما أسلفناه . فعندما أراد ريتشارد قلب الأسد أن يغادر عكا في لحظة للذهاب إلى القدس ، كان وجود أسرى المسلمين لديه يشكل حجر عثرة تسبب له المرح ، فلم يجد سبيلاً إلى بلوغ غايته سوى أن يخلص من أولئك الأسرى على نحو لا تحسب أن عقلاً أو إيماناً أو قلباً به مسحة من إنسانية يستطع أن يتدبر الأمر في منطق قويم يمكن أن يجد فيه مرور لما قام به قلب الأسد . ونحسن بنا أن ننقل ما جاء به واتسمان عن هذه الواقعة:

"مورجيل فيليب ثورن ريتشارد كامل زمام الجيش والمفاوضات مع صلاح الدين الذي وافق على الالتزام بالمعاهدة التي أبرمها ضباطه في عكا . وعندما انتهك الصليبيون في إعادة بناء أسوار عكا وتقويتها شرع صلاح الدين في جمع الأسرى والمال المطلوب منه . وفي الثاني من أغسطس استقبل صلاح الدين في معسكره ضباط مسيحيين يفتلون موافقة ريتشارد على اقتراحه بتجربة المفاوضات وعودة الأسرى على ثلاث دفعات شهرية ، على أن يُطلق سراح الأسرى العرب بعد تسديد الدفعة الأولى . وسمح لارائرين بمشاهدة الصليب المقدس الذي كان صلاح الدين يحتفظ به في حالة من الوقار . وفي الحادي عشر من أغسطس كرستل الدفعة الأولى من المال وأسرى الصليبيين إلى معسكر المسيحيين ، وعاد سفراء ريتشارد يؤكدون صحة الدفعة الأولى من المال ، غير أن كبار الأسرى وبخاصة من تمديدت أعمالهم لم يصلوا جميعاً ، ومن ثم فلن يطلق سراح جنود السلطان المأمورين في عكا . فعرض صلاح الدين إما قبول دفعة المال مع وهاب من الثورودات المفقودين وإطلاق

سراح رجاله، أو قبول دفعة المال وترك رهائن لديه ضمانا لإطلاق سراح رجاله، ورفض السفراء العربيين كليهما، وطلبوا دفعة المال واعطاهم مجرد تعهد بشأن الأسرى العرب. لكن صلاح الدين لا يثق في كلمتهم، ولذا رفض إعطائهم أى شيء ما لم يفرجوا عن رجاله.

وريتشارد الآن متلهف على مغادرة عكا والسير إلى القدس، لكن الأسرى العرب كانوا حجر عثرة شرجه، فسأله أن يبدد ذريعة للتخلص منهم. وفي العشرين من أغسطس، وبعد أكثر من أسبوع على عودة سفراته إليه، أعلن أن صلاح الدين قد أسبل يده، وبكل العمد وسق الإصرار لم يقتل الأسرى الباقين على قيد الحياة من حامية عكا وعددهم ألفين وسبعمائة أسير. وكما أخبرنا المؤرخون المدافعون عن ريتشارد في سرورهم - راح جنوده المتلهفون يحملون السيف ذمعا لساكني الرب على هذه الفرصة للإنتقام لرفائهم الذين سقطوا أمام المدينة. وقتلت زوجات وأطفال الأسرى إلى جوارهم، وألقوا على مجرد القليل من الوجعاء وأقرباء البنية لاستخدامهم في أعمال السخرة. وشاهد العرب في الخفر الأقرب إلى عكا ما كان يحدث فاندفعوا لإغلاق إخوانهم، بيد أنه برغم سائرهم في القتال حتى هبطت الظلام لم يتمكنوا من اختراق الصفوف إليهم. وعندما انتهى الذبح غادر الإنجليز مكان المذبحة مما فيه من جثث مرققة أوصافها وفسدت، وبات بإمكان المسلمين المحصور للتعرف على أصدقائهم الشهداء.

#### وحشية عاتقة وإسالة حلجمة

ويتبين من تفاصيل هذه الواقعة، التي لا تبدد من الألفاظ ما يعبر عن سوء ما فيها، أن قلب الأسد لم يقيم وزنا للضمير المسيحي، أو مقتضيات ضمير الإنسان كإنسان، ولم يلتزم بما ينبغي أن تفرضه عليه اليهود والأعراف، كما أنه وسفراهم لم يستجيبوا للعروض المنطقية التي عرضها صلاح الدين في المفاوضات لبلوغ حل لهذه المسألة، على ما في ذلك كله من عدم الإعتداد بما يمكن أن تصدث لكبار الأسرى المسيحيين لدى صلاح الدين، مما يتنبى عن روح مخازفة لا تقيم وزنا لحياة الإنسان حتى وإن كان من أرقاق الحارين، وإن دلّ هذا على شيء فإلما يدل على أن الأسرة التي كانت تشد

أولئك الرفاق الصليبيين بعضهم إلى بعض لم تكن تبتلع عن وازع من دين أو رغبة في الدفاع عن قيمة وإنما هي آثرة الإنسان وظلمه . ونضيف إلى ذلك أن المؤرخين الداعمين عن ريتشارد قلب الأسد حاولوا تبرير مسلكه الذي لا يتأتى لعقل أو قلب أن يقتله . بل إنهم يجاوزون ذلك إلى تمجيد الرب شكراً على اللذبة التي ارتكبتها لولايتك الذين يجاوزون الوحوش في وحشيتهم . ولا يقف الأمر عند هذا الحد وإنما يجاوزه إلى المخاطرة بعودة "الصليب المقدس" الذي كان في حوزة صلاح الدين . والأمر على هذا النحو ليس أمر دين أو أمر اعتداد بأهم رمز لهذا الدين الذي قسّمت الحيلولات الصليبية تحت رايته . وإذا وقفنا عند "الصليب" في المسيحية فإنه يمثل الفداء في أعلى صورة من وجهة نظر المسيحية التي ترى أن الرب نفسه ، تديراً عن المحبة ، يقتدى الإنسان، ذلك الخاص الذي خرج عن طاعته . فأى فداء وقد ترك المحاربون المدافعون عن الصليب لدى صلاح الدين ؟ ثم أى فداء والصليب المقدس نفسه لا يؤبه به ؟

ولنعد مرة أخرى إلى واقعة تظهر أن ريتشارد لم يكن بطبيعته ينجح إلى شيء سوى الإنجذاب في سفك الدماء ، ولشر ما يقوله وانسيما مفايرنا ريتشارد قلب الأسد بصلاح الدين الأيوبي:

"بعد خمسة أيام من القتال المستمر، قُصف أسف المدينة (مدينة دارون) واستسلمت حامية القلعة . ولم تعلم ريتشارد شيئاً من شهامة صلاح الدين، إذ قتل بعض رجال الحامية بالسيف، وألقى بالعديد من أعلا أسوار القلعة ، وأخذ البعض في عبودية سرمدية"

وليس ممة فحتى يدل على شذوذ العقل من قتل المستسلمين بالقناهم من علي ، فهذا دوك لا تنحط إليه الوحوش في محبتها.

#### منطق الدعاية وواقع التاريخ

وغن إذ تعرض لريتشارد قلب الأسد إما تعرض للقتل فرد يستطيع أن يوجه الأمور حيثما يهين له وحيثما تشاء نزواته . ولبت الأمر يقتصر على ذلك ، فإتسا إذا انتقلنا إلى نظرة عامة نجد أن الصدع بين الكنيسة الرومانية الكاثوليكية والكنيسة اليونانية الشرقية ينبثق عن نزوع إلى تعصب لا نهياً له أن يقيم وزناً لما يراه الآخرون من أكتاع نفس الدين من ناحية ، وعن تعلق بما يمكن أن نتجعه الحرب "المقدسة" من مقام ينعهم بها

أصحاب الشكّ دون اعتبار للرأي العام المسيحي الذي كان في كاتبة الكنيسة تعمل جاهدة على إقناعه بأن الحملات الصليبية موجهة في أساسها للدفاع عن الصليب. ولقد قرأ الفقرة التالية من الباب الثاني الذي عدد راسمها إلى تسميته "حملات صليبية ضالة"، إذ يقول في الفصل الأول من هذا الباب « وعنوانه "الحملة الصليبية ضد المسيحيين:"

"على أن الصليبي العادي قد لُقّن الاعتقاد الذي مفاده أن يزنطة دأبت على القيام بدور الحياة ضد العالم المسيحي طوال الحروب المقدسة. فمن الحكمة إذن واستحقاق الثواب إرغامها على التعاون الآن. وأنصح الورعين من بين رجال الجيش أن يساعدوا في سياسة من شأنها أن تعيد اليونانيين للشقيين إلى الخطورة. كما الأكثر ولما بالحياة الدنيا فرأوا يتفكسون في شراء القسطنطينية ومقاتلتها المزدهرة وتطلعون لتوقعات السلب والنهب. وربما تطلع بعض البارونات، ولهم بونيفاس نفسه، إلى نفس التوقعات، وراحوا يوزنون حساباتهم التي تقول إن الضياع على شواطئ بحر إيجه أكثر جاذبية للغاية من أية ضياع يهدونها في أراضي سوريا الفاحشة. وأسلم ما كان يحملة الغرب من الإزدراء كله منذ أمد بعيد للعالم المسيحي الشرقي، فحصل من اليسر على داندولو وبونيفاس تطويع الرأي العام وشده لمناصرتهم"

ويبدو أن الحروب على اختلاف زمانها وفنائها دواعيها تنصرف في التحليل النهائي إلى أسباب اقتصادية بالمعنى العام لهذه الكلمة، وهذا المعنى العام يشمل طبيعة الحال لزوع الفرد إلى تحقيق أمانته الجماعة وإتمام الجماعة إلى التصرف على نحو يرضى معانيها ويكفل لها أسباب الرفاهية، وإن تحقق ذلك على حساب أية قيمة وإن كانت ديناً. ولتأمل مع الدوافع الحقيقية التي تبرزها الفقرة التالية من نفس الفصل، وإن لم تكن هذه الدوافع حينذاك متمثلة إلا فيما يتعلق بأعمال أصحابها وقبل الاستيلاء على القسطنطينية، ولا شك في أن أمل الإنسان، على زيفه، يحدد مسار عظماء

"وتقرر في نهاية الأمر تشكيل هيئة ملقون من سنة من القرنين وستة من البادقة لإختيار الامبراطور بعد الاستيلاء على المدينة مباشرة. وإذا كان الامبراطور الذي سيقت عليه الإختيار فرنسياً - وهو الأفضل - فيتعين اختيار أحد البادقة لمصب الطريق. وببعض أن يكون للإمبراطور

القصر الإمبراطوري الفخيم وقصر الإقامة بلاشونا ، ووسع المدينة والإمبراطورية ؛ وأما الثلاثة أرباع الباقية فيكون نسلها للتجارة والتصرف الآخر لفرسان الصليبيين . يتسمونها إلى القطاعات لأنفسهم . ويتعين أن ينقسم قسم الولاء للإمبراطور جميع أصحاب الإقطاعيات ، فيما عدا النوج . وهكذا يكون كل شيء قد تم ترتيبه "لشرف الحرب وإليها والإمبراطور" . ولما الطفالة بأن نواصل الحملة مسبوقة في وقت ما مخافة الكثرة ، فقد غلوا عنه صراحة\*.

#### للتاريخ دلالة عامة

ولننظر حولنا الآن لندري أن الأسس البعيدة لا يختلف إلا من حيث الشكل عن برمتها هذا . فلقد نجحت القوى الإستعمارية في تقسيم العالم العربي إلى دول ودويلات ، ربما لا تتوفر لبعضها مقومات الدولة كما يراها علماء السياسة ، وكانت الغاية من وراء ذلك أن تصطبغ تلك القوى لنفسها دمي تتولى حكم هذه الدول والدويلات ، وهذه الدمي تستجيب دونما تردد لكل ما ي عليه السيد صاحب الأمر في سياسات العالم الحديث ، وتعمل في نفس الوقت على الإستماتة في الدفاع عن مصالحها الشخصية دون اعتبار لأية مقتضيات قومية أو دينية أو إنسانية . وبذلك استطاع أعداء المسلمين أن يحكموا وثاقهم وأن يسروهم نعبا لأموالهم وحسبما تقتضيه مصالحهم إلى حد يصيب كل صاحب عقل بالغرب لا يكاد يقر على قرار . ولعل لنا أن نستخلص من هذه النظرة العامة أن الإنسان - كما قلنا - هو الإنسان ، يترك التاريخ ، أو يتحرك به التاريخ طبقا للميلان الأساسيين اللذين أشرنا إليهما واللذين يمثلان في أنانية الإنسان ونزوعه إلى القتل.

ونعود هنا إلى ما سبق أن أشرنا به من أن التاريخ لا يعيد نفسه إلا من حيث دلالاته العامة . فواقعة قريش الفلسطينية التي أوردها راسيمان في نفس الفصل تدل في جلاء على أن الإنسان الذي يدعى الحضارة لم يبلغ في تحقيق ادعائه هذا أي حد بالمعنى الأخلاقي أو القيمي في القديم والحديث . فالفترة التي سوف تلي عن دخول الصليبيين الفلسطينية تجاوز قدرة الإنسان على الوصف ، وتدل في نفس الوقت على أن كراتك الصليبيين لم يكونوا سوى شرادم من العارفة لم يتبع ضم أي قدر من الحضارة وإن دفع عنهم المدافعون . فأهل البدنية على سبيل المثال لم يبلغوا في عدوانهم همجية



الصلبيين، لأنهم كانوا ما يزالون يمثلون أبناء الحضارة الإغريقية القديمة التي تدعى الحضارة الأوروبية الحديثة أنها وليدتها . ومن ثم كانوا على قدر من التقدم بالمعنى الاقتصادي والتجاري والعلمي وبقدرة على ارتداد البحار ، ولذلك بذلوا الجهد في سبيل الإبقاء على ما كانوا عليه من رفاهية وهيمنة . ولن ترضى في التعليل على ما جاء في الفقرة التالية ، فقد ألقانا والسيمان عن ذلك:

"انتهت القسطنطينية بصورة لا مثل لها في التاريخ . وتسعة قرون حلت تلك المدينة العظيمة عاصمة للحضارة المسيحية ؛ فكانت مليئة بالأعمال الفنية التي بقيت من اليونان القديمة ، والطرف المشوق الذي أبدعتها أيدي أبنائها الماهرة ؛ وكان الباقية يعرفون حقاً قيمة تلك الأشياء ، إذ أقيموا وجدوا كنوزاً كانوا يستولون عليها ويحملونها لثريين مباديين متدينينهم وكاتسها وقصورها . بيد أن الفرنسيين والبلجيكيين كانوا قد أفسدوا في قلوبهم شهوة التهرب فكانوا يتدفعون متجنهين في جماعات تعمر في وحشية في الشوارع وفي البيوت، ينتزعون أي شيء يروق أعينهم ، ويدمرون كل ما لا يستطيعون حمله ، ولا يتوقفون إلا للقتل أو الإغتصاب ، أو لتعطيل بوابات أبنية البيعة ليتعشوا ، فلم يخلص من غريبتهم دير أو كنيسة أو مكتبة . وفي كنيسة القديسة صوفيا ذاتها راح سكارى الجنود يرقون الستائر الحريرية ويجذبون الأيقونة القضيبة العظيمة ويحملونها قطعاً قطعاً ، بينما داسوا بأقدامهم الكتب المقدسة والأيقونات . وبينما كانوا يشربون الخمر في أواني الذهب جلس إحدى العاهرات على عرش البطريرك وراحت تغني أغنية فرنسية بلذبة . وهككت أعراض الرهبان في صوامع أديرتهم ، واقتحم الجنود القصور والأكواخ بسواء بسواء وحطموها . وكانت النساء الجريعات ملقيات مع الأطفال يحتضرن في الشوارع . وثلاثة أيام تواصلت المشاهد المزرقة والنهب وسفك الدماء ، إلى أن استحال للمدينة الضخمة الخيلة إلى وضع كبير بحيث صرخ المؤرخ ليستأس قاتلاً : لو أنهم العرب لكانوا أرحم . وكان على حق".

### حقيقة الإلتزام وواقع التاريخ

وتذكرنا هذه الواقعة البالغة الدلالة بما لركبته الصليبيون عندما دخلوا مدينة القدس قبل ذلك بمئات مائة عام على النحر الذي ورد في الجزء الأول من هذا التاريخ الحافل، مع فارق لا بد لنا من أن نلاحظه، ذلك أنهم كان ينبغي لبربريتهم أن نجد في قداسة مدينة القدس حائلا يحد ولو إلى بعض حد من غلوهم، إذ أنها مهد للسحبة وموضع صلب المسيح وقيامته، ولكن طبيعة الصليبيين تغالب في كل حال حسن ظن إنسانية الإنسان وما يفرض فيه من عقل وحكمة. ولستنا في حاجة إلى القول بأن دارس التاريخ، وإن كان على غير حيلة، لن يجد صورة كهذه أو حتى تقاربها، أتى بها المسلمون حينما توجه فتحهم. بل الأمر على نقض يدعو إلى كثير من التفكير، إذ كان الظلم والجهالة سائتين في كل الأصناف التي فتحها المسلمون، وجاء الفتح بإنقاذ بانقضاء كل ما ترتب على ذلك، فمرَّب القرآن كسنة أهل هاتيك الأصناف على اعتلائهم، وأتاح القادم الجديد لمقرهم أن تفكر وأن تتدبر، وخلق من أصحاب القدرة فيهم عقريات ما تزال آثارها الفكرية والعلمية ماثلة في حضارة اليوم، وبمري للصفر من الدارسين أن ما يقال إنه حضارة الغرب لم تكن تبلغ ما بلغت لولا ذلك الجهد الفائق الذي قام به رؤاد المسلمين الأول في سبيل احتياق الحق وإقامة العدل وإعمال العقل. وليس من قبيل الخروج على مقتضيات البحث أن تقول إن الحضارة الإفريقية لم تكن هي الباعث القادر في حد ذاته على أن يولد حضارة الغرب دون الجهد الذي قام به المسلمون، أي أننا لو افترضنا جدلا أن الله لم يشأ أن يبعث برسالة الإسلام لبقى العالم على ما كان فيه من جهالة قديمة راسخة.

ولنا أن نشير على عجل إلى حملة بالغة الشدوة جابت بين الحملات الصليبية لتخفى عليها مظهرها معرا غير مسسوق كملحوق في التاريخ كله، ألا وهي "حملة الأطفال الصليبية". ذلك أن تلك الحملة تعمر عن أمرين: أولهما أن نفوس الديني الذي لم يوت أكله فيما قام به الكبار، كان له أثره الوعيم على الأطفال الذين لم يتأثروا خيالهم الصغير أن يتبين ما وراء الحملات الصليبية من دوافع حقيقية. وثانيهما أن الطفل الذي يمثل قيمة لها مفرغا في كل ما ساد العالم من ثقافات قد فقد هذه القيمة إبان تلك الفترة، وفي ذلك إدانة كاملة لقسرة الصليبيين على أن يلتزموا بحادة ما تفرضه عاطفة الإنسان الشخصية المباشرة. وبدل ذلك في نفس الوقت على أن الكبار من غير ذوي المصلحة للممثلين في آباء أولادهم الأطفال كانوا من السفاحة الدينية والإجتماعية على نحو حد مهيئ، وإلا لما تركوا أولادهم يقدمون على رحلة غايبة في

المشقة تحفل بها المعاصر والأهوال . وما آل إليه أمر هؤلاء الأشرار بته رائسيمان فيما  
جورده . ولعل لنا أن نحب الآن كثيرا ونحن نرى أبناء الغرب من حفدة الصليبيين وهم  
يتصدون للعالم راغبين لواء ما يسمونه "حقوق الإنسان" و "حقوق الطفل".

#### الوهم والتاريخ

ولما أن نترك أن حملة الأشرار الصليبية تلك قامت على كثير من الوهم . ويبدو  
أن الوهم كان يلعب دورا بالغ الخطورة في تاريخ الحركة الصليبية . فالتحالف الصليبي  
المعزول الذي أفاض رائسيمان في بيانه لم يقسم من وجهة نظر الصليبيين على أسس  
تحالف قوتين معاديتين ضد عدو مشترك وحسب ، وإنما أوجد الصليبيون في إيهام  
أنفسهم بزعم أن القس جون الأسطوري ، وهو في رأيهم حشيش ، تجسّد على حين  
غرة في شخصية مغرابة ، وأن خلاص الصليبيين من المسلمين سوف يأتي من الشرق  
اليهود . ولما هنا أن تطرح سؤالا بسيطا عما إذا أن تجد سن يجيب عليه : كيف يتأتى  
لأناس يقوض أنهم يتحركون بوحى رباني أن يبدوا عونهم في قوم وثنيين ؟ على أن  
لنا أن نلاحظ كذلك أن المعزول على فراستهم وهميتهم في استخدام القتال كانوا  
أصحاب سياسة يمكن أن تتسق مع فط كبرى ساد في المجتمعات السابقة بتغل في أن  
القوة تصنع الحق . ونقول ، بين قوسين ، إن هذا النمط الفكري ما زال سائدا حتى  
الآن . ولا شك في أن عقد المقارنة بين المعزول والصليبيين يظهر أن المعزول كانوا  
أصحاب نظام يحكم علاقاتهم بعضهم البعض ، فلا زلهم يتفككون خرماتهم في  
بزامون بمرطنة تحدث عددا بينهم ، وأن هميتهم لم تستشر فيما بينهم كما  
استشرت هميتة الصليبيين ضد المسيحيين ضد غيرهم.

ولئن شتا أن نضيف إلى الوهم الصليبي شيئا ، فإن تبلغ في ذلك مبلغ رائسيمان  
عندما قال في الفصل الثاني (القديس لوي) من الباب الثالث (المعزول والماليك):

"تمت حملة القديس لوي الصليبية في توريط مسيحي الشرق  
في كارتة عسكرية مروعة، وعلى الرغم من أن بقاعه في الشرق لأربع  
سنوات قد أهدا كثيرا في إصلاح الأضرار ، إلا أن خسارة القوة البشرية  
لم تستعش تماما قط . كانت شخصيته أنبل الشخصيات من بين عظام

الصلبيين قاطبة ؛ غير أنه كان من الأفضل لمملكة ما وراء البحار ألا يغادر لويس فرنسا مطلقاً إذ كان لفشله عميق الأثر . ذلك أنه كان رجلاً طيباً يفتش الرب ، ومع ذلك ساقه الرب إلى كارثة . وفي سباق العهد كان من الممكن تفسير ما يُنتلَى به الصليبيون من بلايا على أنه عقاب إلهي على ما ارتكبوه من جرائم وشرور، بيد أنه لم يعد في الإمكان الآن الدفاع عن هذه النظرية لفظة . فقول يا ترى قد عس الرب من الحركة الصليبية برمتها؟

على أن للتاريخ منطقاً تستفيد منه دروساً جديدة بالإعصار إذا عملنا عقولنا . فالوهم الصليبي الذي التفتد به عوام الصليبيين إلى مصائر لم يكونوا ليتنوها لأنفسهم، بين منطق التاريخ حقيقته محض الزمان وتراكم النتائج التي ترتبت على الحملات الصليبية ، وتكتفي بقوله راسيمان في الفصل الرابع (السلطان «بيرس» من الباب الثالث (المغول والمالوك):

"والأسوأ من كل ذلك أن لا أحد بات يؤمن الآن في المراتب الروحانية المرموقة لم يصبح صليبياً ، اللهم سوى القليل . وبقينا فإن هذا الإنكار الذي يورده هومبرت وهو حزين كان منتشرًا انتشاراً واسعاً وظهرت قصائد شعبية عديدة تركز على ذلك ، وكان هناك الكثير من المشددين الذين أهملوا صراحة أن الرب لم يعد في حاجة إلى الحملات الصليبية . وأعلنت مقترحات هومبرت في مناقضة تلك الظاهرة وبعث روح حماسية جديدة؛ فلا جدوى في مواصلة الإدعاء - كما يؤمن القديس لويس - بأن المراتم والإمانيات تحثو شيئاً طيباً للروح ؛ وإن محاولة إقناع الرجال بأن الحملة الصليبية هي أفضل وسيلة للتوبة من آثامهم كسبت محاولة متأخرة للغاية".

#### أحداث التاريخ وموضع الظقة

ولعل ما قدمناه بين في كثير من وجوهه أن الأثر الأخلاقي للصليبية لم تكن في عمومها تتسق مع ما يدعو إليه الدين أو ما تفترضه الفطرة السليمة . وليس ذلك فحسب ، وإنما ينبغي لنا أن نلاحظ هنا أن الرأي العام الذي كان سائداً بين الشعوب على اختلافها بين في نهاية المطاف وبرغم متانة العصر حقيقة الوهم الذي به فيها

أصحاب النفوذ والقوة المهيمنة وراء القيام بالعمليات الصليبية . وما أورده وانسيما ن يدل على أن تلك الشعوب قد تحررت من الوهم بمحبت تغني المشركون مرددين خيبة الأمل التي تعين على الخلاص من الوهم . ولا تكاد تجد قرابة في ذلك ، ولكن الغريب أن أولئك الصليبيين الذين كانوا يستخدمون لفظة "كفار" وهم يشيرون إلى عامة المسلمين كانوا يوقنون في دعوتهم بأن المسلمين أصحاب قيم تحترم وتلتزم ويقام لها كل وزن ويعتد بها في كل مسلك من مسالكهم ، وليبان ذلك نورد الفقرة التالية من نفس الفصل دون تعليق:

"لما الملك هيو في قبرص فكانت له رؤية أخرى أكثر واقعية ؛ فلا هو يتنظر حملة صليبية ولا يرغب فيها ، وإنما يريد مجرد الحفاظ على المدينة مع بيس ، ومع ذلك لم تفعل المدينة سوى القليل لتحسين وضعه. وفي سنة ١٢٧٣م فقد السيطرة على إقطاعيته الرئيسية ببيروت ، فبوقلة حزن الثاني الإلبيني انتقلت لوردية بيروت إلى ابنته الكبرى إيزابيلا ، ملكة قبرص الأرملة التي تركت أرملة عذراء في سنة ١٢٦٧م ، ولكن عذريتها لم تدم طويلاً؛ ذلك أن افتقارها إلى العلة وعلاقتها بجوليان أمير صيدا بصورة خاصة تسببا في إصدار مرسوم بإبوابي حثها بشدة على الزواج مرة أخرى ، وفي ١٢٧٢م وهبت نفسها ولورديتها للإنجليزي - هامو الأجنبي - وكان أحد رفاق الأمير إدوارد فيما يبدو . وكان برتاب في الملك هيو فعندما حضرته الوفاة في العام التالي وضع زوجته وإقطاعيتها تحت حماية بيس ، وعندما حاول هيو الفوز بالأرملة وإعادتها إلى قبرص لتزوجها لأحد المرشحين ممن اختارهم ، استشهد السلطان على الفور بالمعهد الذي أوصى به هامو ومطلب عودتها ، ولم يجد الملك أية مساعدة من المحكمة العليا ، واضطرر إلى إعادة إيزابيلا إلى بيروت حيث عث حارس مملوكي لحمايتها".

وإذا كان ما سبق يعبر عما يتصور سلوك الصليبيين إزاء غيرهم بصفة عامة ، فلا بد لنا من أن نورد هنا فقرة أوردها وانسيما ن في "عاقبة كتابه" ، وهي بمثابة تعليق عام على العمليات الصليبية ، وهي فقرة تتعلق بنقطة كان لها دورها الدائم عبر الحملات الصليبية كلها ، ألا وهي طائفة "نظام فرسان المعبد الديني العسكري" . فهذا الطائفة، فضلا عن قيامها بدور الرأى المميز ، كان لها من الطفرس الحقة المريعة ما يدفعها ويصم أعلاقتها بما لا ينبغي أن نوصم به فئة تلعب دورا دينيا عسكريا بالغ الخطورة . والفقرة

التالية تبين في حلاه تام كيف أن الصليبيين من تلك الفئة المسيحية لم يكونوا على خلق يخلق وأبسط ما تنادي به القيمة الإنسانية حتى في المجتمعات البدائية ، ناهيك عما ينادى به الدين أيًا كان هذا الدين :

«أما نظام فرسان المعبود فكان أقل إقداما وأقل حلفا ، وكان دائما أكثر إثارة للعداوة من نظام فرسان المستشفى ، وإن كان هو الأكثر غنى . وقد ظل لفترة طويلة بمثابة المصرف الرئيسي ومقرض الأموال في الشرق ، يحقق النجاح في مهنة لا تلهيهم السودة ، وقد اشتهرت سياسته دائما بالأمانة والإستهانة . ورغم شجاعة فرسانه في قتالهم في أوقات الحرب ، فقد أوحدت أنشطته المالية وشيعة قري بين فرسانه والمسلمين؛ واتخذ كثير من الفرسان أميعة مسلمين ، واغتنموا بالديانة والعلم الإسلاميين . ودأبت الشاعات بأن النظام كان يدرس وراء أسوار فلاحه فلسفة خفية وأنه كان يتعرض في مقدس ملطحة بالمرطقة ؛ وقيل إنه كانت هناك مقدس تعليم لندينية بعزها الإحتشام ؛ وسرى همس عن حلقات تمارس فيها رذائل شاذة . ومن غير الحكمة رفض هذه الشاعات على أنها اختلاق من الأعداء لا أساس له، فرعا كان في تلك الشاعات ما يُبنى عمّا يكتفى لمهاجمة النظام عن اقتناع تام».

ولعل القارئ يدرك أن هذا درك في الفحش والتدنّي لا يتخطى إليه إنسان يحق له أن يدعي أنه ينتمي إلى هذا الجنس.

#### القيمة وصيغة التاريخ

ويُحمل والنسبمان التناقض مسلّك الصليبيين عبر فترات الحملات الصليبية المتعاقبة وللتباينة والتي حازرت قرنين من الزمان في عبارة بلغة إذ يقول :

«وبالمثل عصر السبت باتت الإسكندرية كلها في قبضة الصليبيين واحتفل الغزاة بنصرهم في وحشية لا مثيل لها . إن قرنين ونصف من الحرب المقدسة لم تعلم الصليبيين شيئا من الإنسانية ؛ فلم يكن هناك ما يضاهي المذابح سوى مذبحه القدس سنة ١٠٩٩ م ومذبحة القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م. ولم يكن المسلمون بهذه الوحشية لا في أنطاكية ولا في

عكا . وكان ثراء الإسكندرية ثراءً غير عادي ، وقد حُنّ جنون المنتصرين لرؤية تلك الأسلاب الوفيرة ، ولم يُفغروا على أحد ، وهباني المسيحيون واليهود نفس القدر الذي عاناه المسلمون ، وحتى التجار الأوروبيين المستقرين في المدينة شاهدوا مصائبهم وتنازلهم لتتهدد بلا رحمة ؛ وأغار المنتصرون على المساجد والمقابر وسرقوا ما تزدان به أو دسروه ؛ ولم تسلم الكنائس من تهديمهم رغم أن سيدة قطيعة كنيسية شجاعة تمكنت من إنقاذ بعض كنوز طائفتها مضحية بثروتها الخاصة ؛ ودخل الغزاة البيوت ، واستلبوا أصحابها، ومن ثواني منهم في تسليم كل ممتلكاته قتل هو وأسرت ؛ واقتاد الغزاة ما يقرب من خمسة آلاف مسجين من المسيحيين واليهود والمسلمين ليعذبهم وقتلوا . وشملت الأسلاب على ظهور الخيول والخمر والجمال التي سارت في حيط طويلاً لتصلها إلى السفن الراسية في الميناء ، وعندما انتهت الدواب من مهمتها قتلت في أماكنها . وغرقت المدينة كلها في رائحة حثث الأدميين والذئاب .

ولا بد لنا من أن نشير هنا إلى أن كل باحث محابذ لسوف يبنى الفكرة احتراماً للقدرة وحيدة واتسيمان مؤرخ الحملات الصليبية الذي بقيه فقرته السابقة كأبلغ تدليل على أن تلك الحملات لم تكن "مقدسة" ولم تنبع في غلب أية عقيدة تعمد بالإنسانية الإنسان، ونحن في ذلك كله لا نشير إلى أي دين ، وإنما نشير إلى الصليبيين الذين تنادى بهم سلوكهم عن مقتضيات دينهم ، وليس أدل على ذلك مما أصاب المسيحيين أنفسهم على أيديهم .

#### قيمة سود

وعلاصة القول أن الحملات الصليبية بعد قرنين ونصف من الزمان آذنت بانقضاء ما كان للإمبراطوريتين الغربية والشرقية من سلطان حاولتا فرضه على كبل حال باسم الإنتماء إلى عقيدة تدعو إلى التسامح وعدم اللجوء إلى القوة . وترتب على ذلك نشأة وتناسي قوة الإمبراطورية العثمانية شيئاً فشيئاً ، والتي أكرسى قواعدها عثمان بن أرطغرل وتوالى من بعده سلاطين آل عثمان الذين لم يكبد بعض بهم أكثر من قرن وربع قرن حتى استطاع محمد الفاتح أن يفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م . ولئن تعرض هنا

لأحداث أو دوافع أو ظروف سياسية ، وإنما ستجمل القول في أن الإمبراطورية العثمانية أتاحت لها مقوماتها أسباب البقاء كإمبراطورية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. وهذا يعني أنها بقيت منذ أرسى عثمان بن أرطغرل لبنائها الأولى في مستهل القرن الرابع عشر إلى الربع الأول من القرن العشرين . ولا غيب أن الإمبراطوريات المعظمى تقوم ويقدّر لها طول بقاء نتيجة لمقومات يمكن أن تنحصر في نطاق ما هو سياسي أو عسكري أو اقتصادي . خلا بد لتلك العوامل الأساسية كلها من عوامل أهم يشكّل القيمة العليا الجامعة والحركة لهذه العوامل . ونعني بهذه القيمة العليا هنا العقيدة التي تزوّد الرجال بلهجان يحبلهم إلى أبطال وأثقيان من أنهم إنما يدافعون عن قضية حق تعصّل أسباب الأرض بقيم السماء . وليس أدل على ذلك من أنه لا يحقّ لباحث أن يفترض أن تلك القيمة العليا التي أشرنا إليها قد انقضت بانقضاء الإمبراطورية العثمانية.

#### الصلبية الجديدة

والذي حدث يتلخص في أن عصوم الإسلام اجتهدوا في التناهي بالسلطين والعرب عن التقتضيات التي يلزمهم بها دينهم ، فعمدوا إلى إحياء الإجماعات العرقية والنزوع إلى تحقيق المصالح الشخصية في نفوس أناس كانوا في محل قيادة الشعوب الإسلامية والعربية . وأبين مثال على ذلك ما مثّل في شخصية قائد يصيب في العادة على المسلمين وإن كان في حقيقة الأمر أداة من أدوات التسلط والاستبعاد والتناهي عن القيمة الحقة باسم العلمانية ، ألا وهو مصطفى كمال أتاتورك الذي جاء عند نهاية الإمبراطورية لينتد بالأتراك عن كل مقوّمه تمت إلى الإسلام والذات الإسلامي بصلّة . ففضلا عن علمانيته للعلّة ، وإنشاء الدين عن إدارة الدولة ، ثم بدع اللغة التركية في حروفها التي أكسبها الإسلام لها ، شأنها في ذلك شأن كثير من الشعوب الآسيوية التي عرّبت الإسلام لسانها أو أكسبت لغتها حروف العربية وكثيرا من ألفاظها . وكان أتاتورك في ذلك حربا - حرص الشيوعيين الذين تولوا أمر عدد من تلك الشعوب - على أن تبيّن الصلة بين شكل اللغة والذات الذي تنتمي إليه ، حتى لا يتهيأ للأجيال الجديدة أو بسهل عليها سبيل دراسة العربية والعودة إلى ذلك الذات الغائى الذي يمكن أن يترك فيهم ما يساعد بينهم وبين أولئك الذين تآمروا وحاولوا أن يمتشوا شأفة الإسلام.

ولعل من الواضح أننا لم نبتعد عن الحملات الصليبية فيما أسلفناه من قورنا . ذلك



أن ما حدث منذ أيام أتاتورك وما يحدث في أيامنا إن هو إلا امتداد للحملات الصليبية يتجهج سيلاً مختلف عن سيل القتال الذي بقاء بالفشل بعد طول محاولة . فالحملات الصليبية ما تزال ممتدة حتى الآن في صليبية جديدة عن طريق انتهاج سياسات التفرقة والتبعية والإحتواء ووكذ القدرات والإمكانيات مما أدى إلى تفرق المسلمين والعرب في دول ودويلات تتناهى بهم فيها الأحابيل والسياسات عتياً يشه الإسلام من إيمان وعزيمت قادرة . غير أن هذه الصليبية الجديدة تغيب عنها حقيقة ماثلة لي نستطيع أن نجد حيلها عرجاً ، وهذه الحقيقة تتمثل في العقيدة الواحدة التي تجمع الشعوب الإسلامية والعربية على نهج واحد وتكفل لها أسباب البقاء على النحو الذي تميزه وقائع التاريخ، وما العصر الذي نعيشه بالنسبة للمسلمين إلا مرحلة من مراحل التدهل تشبه تلك الفترة التي هيأت للصليبيين أن يحاولوا محاربتهم الطويلة دون طائل حقيقي . وإعمالاً لهذا الخطة الكاملة الذي نوصيه في ترجمتنا لهذا الكتاب وفي تناولنا لما جاء به، نهى هذه المقدمة بما يحتسم به واتسمان رحلته الطويلة المكتنزة مع الحملات الصليبية :

"لما عن الصليبيين أنفسهم ، فإن ما حققوه من كوجه الفشل التي لا تفسر له . لقد كانوا يحاربون لخصرة قضية الرب ؛ ولو أن الإيمان والطلق كانوا صليبيين لانتصرت قضية الرب تلك . وفي فورة الحجاج الأولى وضعوا عنواناً لتواريخهم Gesta Dei per Francos (الفرنج قاموا بعمل الرب)."\*

وليس هناك أدنى شك في أن واتسمان يقرر في وضوح أن القضية التي حارب الصليبيون تحت شعارها ليست قضية الرب ، وإنما قضية الرب الحقيقية تتمثل في قوله : أحبوا أعداءكم!

الإسكندرية في يولية ١٩٩٨

نور الدين خليل

## ٢٨٤٤

تتجه البنية في هذا الجزء الثالث إلى تناول تاريخ الشرق الغربي والحروب المقدسة منذ إحياء المملكة الفرنجية وقت الحملة الصليبية الثالثة إلى انهيارها بعد ذلك بقرن ، مع عائلة جنر المظالم الأخيرة للروح الصليبية . وهي قصة تشابك فيها المواضيع . إن انتمحلال الشرق الغربي ، بصغار مأساهه المتعددة ، نقلته من أن لاخر بصورة دورية حملات صليبية ضخمة انتهت جميعها ، بعد الحملة الصليبية الثالثة ، إلى الانصراف عما جاءت من أجله أو أنها انتهت بكارثة . وفي أوروبا ، ورغم اعتياد ذوي النفوذ فيها على إظهار التسلق للحركة الصليبية ، فلم تستطع حتى حميا ورجع القديس لويس أن توقف تدهورها ، بينما وصلت العدواة بين العالم المسيحي الشرقي والغربي ذروتها التي تمثلت فيها كضخم فراجع العصور الوسطى ، ألا وهي تدمير الحضارة البيزنطية باسم المسيح . أما في العالم الإسلامي ، فقد أسفر حافز الجهاد المستمر عن استبدال الأيوبيين العلبيين المهزوين بالمماليك الأكثر كفاءة والأقل عاطفة ، والذين قدر لسلامتهم القضاء على ما كان في سوريا من فرنج . وأعيدا ، جاء للقول بفزهم الطغافي ، وبدأ أول الأمر أن يحياهم ينطوي على انقاذ العالم المسيحي الشرقي ، بيد أنه لم يكن لفوزهم في نهاية الأمر ، ولما كان عليه حلفائهم من سوء تدبير وإساءة فهم ، من أثر سوى الدمار . والحكاية كلها هي حكاية عقيدة وحملة ، شجاعة وحشع ، آمال وتخلص من أوهام .

ولقد أدخلت فصولا قصيرة حول التجارة والفنون في الشرق الغربي ، والمعالجة فيها من قبل أداء الواجب بالضرورة ؛ فليس في الامكان فصل التاريخ التجاري أو التاريخ الفني للدولة استعمارية مثل الشرق الغربي عن التاريخ العام للتجارة أو للحضارة في العصور الوسطى . ومن ثم حاولت ألا أتجاوز حدود مايفصل اتصالا وثيقا

### بقهم الشرق الفرنسى.

وتاريخ الحملات الصليبية موضوع ضخم ليست له حدود محددة ١ ومقابلته له لا تمثل سوى اعتبارى الشخصى. فإذا ما رأى القارئ أنى أحداث فيما منته من تركيز لشئى حواتبه ، فليس فى وسعى إلا النطق بأن للكاتب أن يكتب كتابه بالطريقة التى براها. وليس للنقاد أن يشكوا من أن الكاتب لم يكتب الكتاب على النحو الذى كانوا هم سيكتبونه لو أنهم تناولوا الموضوع . غير أن الأمل يهدونى فى ألا أكون قد حذفت ما يعد أساسيا لقهم الموضوع.

والذين الضخم الذى أنا مدين به للكثير من الثقة أمواتا وأحياء يظهر ، على ما أظن، فى الخواص التى أكتبها . وإن تاريخ قوص العظيم الذى كتبه السير جورج هيل، والتاريخ بالغ الدقة للحملات الصليبية للتأامرة الذى كتبه الأستاذ عطية، كلاهما أساسى لدراسة هذه الفترة، وعلى الطلبة أن يشعروا دوما بالامتنان للأستاذ كلود كاهن لما نجوه أعماله من معلومات عميقة الملم. ولابد لى أن أذكر ما أشعر به من أسى لوفاته م. خروست الذى كان لبعيرته ذات الرؤية الواسعة وكتابهاته النابضة بالحياة أثر كبير فى تبيان سياسات الشرق الفرنسى والحفنية الأسبوية . ومرة أخرى ، بلسأت إلى الدارسين الأمريكين ، مثل الأستاذ لا مونت الذى رحل عنا ، والسيد ب. أ. ثروب. ومرة أخرى لشكر اصدقائى فى الشرق الأدنى الذين ساعدونى أثناء رحلاتى هناك، وأخص بالذكر حركة بؤول العراق ، ومديرى مطبعة جامعة كامبريدج على فضلهم.

لندن ١٩٥٤

ستيفن والسيمان

---

## الباب الأول:

### الحملة الصليبية الثالثة



---

## الفصل الأول:

### ضمير الغريب



## ضمير الغرب

"لم تصدق ملوك الأرض وكل سطان المسكونة أن العدو  
والمنقض يدخلان أبواب أورشليم"  
(مراثي أرميا ٤ : ١٢)

تتشرف الأنبياء السبعة بسرعة . إذ أن الرسل سارعوا إلى أسراء الغرب ينجرونهم بما  
حدث ولم تكن معركة سطرن تشرف على نهايتها الفاجعة ؛ وسرعان ما تبعهم وسل  
آخرون يحملون نيا سقوط القدس . وخططت أنباء الكاثوليك على العالم للسيحى الغربى  
فأصابته بالملح . ورغم البدايات الكثيرة من مملكة القدس فى السنوات الشاعرة ، لم  
يتحقق أحد من الخطر الخاتم ، واستثناء البلاط البابوى فيما يبدو . وكان المسافرون  
باتجاه الشرق من الفرنس والحجاج قد وجدوا فى الدويلات الفرنجية حياة أكثر ترفا  
ونعماما يعرفونه فى لوطاتهم جميعها ، وسمعوا عن غرائب البسالة فى الحرب ، وروا  
التجارة وهى فى قمة ازدهارها ، وقد استعصى عليهم أن يفهموا كيف تمسك المحاصر  
بكل ذلك الإزدهار ، والآن يرونها بأن كل شيء قد انتهى؛ فاجلش المسيحى قضى  
عليه ، والصلب القدس ، كنس الأثر فى العالم المسيحى ، بات فى أيدي الكفرة ،



والقدس ذاتها ضاعت ؛ لقد انهار صرح الشرق الغربي كله في غضون أشهر قليلة ، وإذا ما كان شيء أن يُنقذ من الانقراض ، فعلا مهرب من إرسال المساعدة ، وإرسالها بسرعة.

أما اللاجئون الساحون من الكارثة ، فقد تراجوا الآن خلف أسوار صور ، وساعدتهم حمية كونراد وأوف موتشترات التي لا تعترف الكلل على التثبيت بشحاعتهم . إذ أن مصادفة وصوله السعيدة أنقذت المدينة من الاستسلام ، وراح اللوردات الذين اقتلوا من قبضة صلاح الدين ينتمون إليه في صور الواحد تلو الآخر وقبلوا زعامته بامتثال . على أنهم كانوا جميعا يعلمون أن صور لا قبل لها بالصمود دون أن يأتي الثغور من الغرب ، وأن احتمالات استعادة الأرض المفقودة معدومة . وفي فترة المدوة التي أتتحت أول هجوم لصلاح الدين على صور ثم رحيله عنها لتفتح عمال سوريا ، أرسلوا أكثرهم مهابة ، حوسياس ، رئيس أساقفة المدينة ليحضر البابا وملوك الغرب شخصيا عذرى احتياجهم إلى المساعدة احتياج اليأس . وفي ذات الوقت تقريرا أرسل الساحون من النظامين العسكريين نفس القصة المقلقة للتأثير على إصوتهم الغربيين<sup>(١)</sup>.

#### ١١٨٧ م : بعثة رئيس أساقفة صور

أمر رئيس الأساقفة من صور في أواخر صيف ١١٨٧ م ، وبعد رحلة سريعة وصل إلى بلاط الملك وليم الثاني ملك صقلية الذي كان في شدة الكآبة لما أتبع عن الكارثة . وعندما سمع وليم من رئيس الأساقفة بما وصلت إليه من مدى ارتداد ولاء من الجيش واعتزل الناس أربعة أيام ، كتب بعلها إلى زملائه الموعول بفتحهم على الانتقام إليه في حملة صليبية ، وأنه هو نفسه قد أعد العدة لإرسال حملة إلى الشرق في أسرع وقت ممكن . وقد سبق له أن حارب بيزنطة عام ١١٨٥ م عندما حاول جنوده احتلال نيسابولنيكي وهزم هزيمة بشعة . على أن أسطوله الآن ما يزال مبحرا في المياه القروصية يساعد أيزاك كومنينوس اللورد الذي اغتصب قبرص في تمرد على الاسم أطوار أيزاك

(١) عن رحلة حوسياس انظر Tronst, pp. 247-8 و Terence ترويس من فرسان الصليبية إلى الموت في المعركة في 13-14, Benedict of Peterborough, و بعد تقرير فرسان الصليبية في 2-4, Ansbet, Expedition Friderici, كما كتب ترويس إلى هنري الثاني Benedict of Peterborough, II, pp. 40-1.

أنتيلوس . ويسرعة سالم الامبراطور ، واستدعى الأدميرال الصقلي مرجاريوس وأوف بريتيزي لإعادة تهيئة سفنه والإبحار إلى طرابلس بصحبة ثلاثمائة فارس . وفي ذات الوقت وأصل رئيس الأساقفة جوسياس طريقه لرفاقه سفارة صقلية إلى روما<sup>(٢)</sup>.

وهناك فهم البابا أيضا مدى خطورة الأتباء ؛ إذ سبق أن أرسل أتباء جنوا بالمعمل تقريرا إلى البلاط البابوي<sup>(٣)</sup>، في عهد البابا السابق ، إيربان الثالث ، الذي كان رجلا مريضاً ولم يشمل الصدمة فمات كمنا يوم ٢٠ أكتوبر<sup>(٤)</sup>. لكن حليفته البابا حريجيوري الثامن أرسل على الفور رسالة عامة إلى جميع المخلصين في الغرب يخبرهم بخطورة الحسارتين : الأراضي المقدسة والصليب المقدس؛ وذكرهم بأن ضياع أرضها قبل أربعين سنة كان ينبغي أن يكون بمثابة الإنذار ، أما الآن فالمطلوب عدم ادخار أي جهد؛ فليجأ كل فرد إلى التوبة من آثامه ، وليدخر في السماء كنزا يساعده الصليب . ووعد بمنح غفران عام لجميع الصليبيين؛ وسوف يصون بنبأة أبدية في السماء ، وسوف تحفظ مقتنياتهم التي على الأرض في حماية الكرسي البابوي . واعتزم رسالته بالأمر بالصوم أيام الجمعة خمس سنوات تالية والامتناع عن أكل اللحم أيام الأربعاء والست ، وسوف يصوم الذين تحت إمرته ، وكذلك تحت إمرة كاردينالاته أيام الإثنين أيضا . وانطلق رسل آخرون من روما يحملون لكافة أمراء العالم للسبحي امرا بهذنة مدتها سبع سنين ؛ وقيل إن الكاردينالات أنفسهم جميعا أن يكونوا من بين أولئك الذين يأخذون الصليب ، وسوف يتبرعون أنفسهم رهبانا متسولين<sup>(٥)</sup> ويقودون الجيوش المسيحية إلى فلسطين<sup>(٦)</sup>.

و لم يقدر للبابا حريجيوري أن يشهد نتائج جهوده، إذ مات في بيزا يوم ١٧ ديسمبر ، بعد أن شغل البابوية لشهرين تاركاً العمل لأسقف برايتست الذي انتخب بعده يرومين على أنه كلمنت الثالث . وبينما سارح كلمنت بالاتصال بملطاء عواهل

(٢) Ernos, loc. cit.

(٣) Benedict of Peterborough, II, pp. 11-13.

(٤) *Annales Romani in Watterich, Pontificatus Romanorum Vitae*, II, pp. 682-3.

(٥) (الزوجه): mendicant friar: شبيبا كانت توجد بعض الألقمة الدينية بعض أفرادها على الصلوات فقط ولا يتكلمون شيئا.

(٦) ترد 15-19 Benedict Peterborough, II, pp. 15-19. ومع ذلك ، فإن الشاعر الروماني Gimai يصر أن نشاط البابا لم يكن كافيا وانظر Throop, *Criticism of the Crusades*, pp. 29-30.

الغرب ، ارتحل الامبراطور فريدريك بارباروسا ورئيس أساقفة صور عسكر جبال الألب لقنابلة ملكي فرنسا والمجلد<sup>(٧)</sup>.

ولقد سبقته آباء بعثته قبل أن يرسل . ذلك أن هنري ، بطريق أنطاكية للسن ، كتب في سبتمبر رسالة إلى الملك هنري الثاني يخبره فيها بما يعانيه الشرق من عن ، وأرسلها مع أسقف باناس لتسليمها بيده<sup>(٨)</sup> ، وقبل أن يصل جوسياس رئيس أساقفة صور إلى فرنسا كان أكبر أبناء هنري ، ريتشارد كونت بوانو ، قد أخذ الصليب<sup>(٩)</sup> . وكان هنري نفسه يحارب فيليب أوغسطس الفرنسي حروبا متقطعة لسنوات كثيرة . وعندما وصل جوسياس في يناير ١١٨٨ م وجد الملكين في حيسور على الحدود بين نورماندي والأراضي الفرنسية ، حيث تقابلا لتقشة الهدنة . وساعدته فصاحته في لقاءهما بالاتفاق على السلام والوعد بالذهاب في حملة صليبية بأسرع ما يمكنهما . وسارع فيليب كونت فلاندرز بمخو حلوهما ، وربما كان يشعر بالاحراج لخلعه الصليبية التي أجهضت قبل عشر سنوات ، وأقسم الملكين من كبار النبلاء على مرافقة الملكين . وتقرر أن تبصر الجيوش معا على أن يضع الجنود الإنجليز صليبا حمراء ، والفرنسيون صليبا بيضاء ، والقلاوندون صليبا حمراء . ومواجهة نفقات الحملة فرض الملكان كلاهما ضرائب خاصة<sup>(١٠)</sup> ، وفي نهاية يناير اجتمع مجلس الملك هنري في لاسان La Mass لاختار قرار بدفع عشرة صلاحي الدين ، وقدرها عشرة في ثلاثة ضريبة على الإيرادات والنقولات لتحمل من كل فرد من رعابا الملك من العوام في كل من المجلدوا وفرنسا . ثم عبر هنري إلى المجلدوا لإعداد مزيد من الترتيبات للحملة الصليبية التي دأب رئيس أساقفة كانتريري - بلدون - على التبشير بها بشوا متحمسا . وشرع رئيس أساقفة صور في رحلة العودة وهو متعمم بالأمال<sup>(١١)</sup>.

وبعد مؤتمر حيسور مباشرة كتب هنري رده على بطريق أنطاكية قائلا إن الغوث

(٧) *Annales Rotenari* in Watterich, op. cit. II, p. 692 .

(٨) Benedict of Peterborough, II, pp. 36-8 .

(٩) Ambroise, *L'Estoire de la Guerre Sainte*, col. 3; *Itinerarium Regis Ricardi*, p. 32; Rigged, pp. 83-4. ومن ناحية السياسة قتل لوثر الذي عقد في حيسور .

(١٠) Benedict of Peterborough, II, p. 30; Ambroise, cols. 3-4; *Itinerarium*, pp. 32-3 .

(١١) Benedict of Peterborough, II, pp. 30-2 .

قادم على جناح السرعة<sup>(١٢)</sup> على أنه لم يكن هناك ما يبرر تفاؤله، وقد جمعت عشور صلاح الدين بما يمت على الرضا برغم محاولة أحد فرسان المبد، جيلبرت (أوف هاستون) أن ياكل الأموال التي جمعها ؛ بينما كان وليم الأسد ، ملك الاسكتلنديين ومن أشاع الملك هنري ، عاجزا تماما عن اقتاع باروناته المشرقيين بالاسهام بنس واحد، ووضعت ترتيبات حكم البلاد أثناء غيبة الملك ووريثه في الشرق<sup>(١٣)</sup>. غير أن الحروب اندلعت مرة أخرى في فرنسا قبل أن يتجمع الجيش بوقت طويل ؛ إذ تمرد بعض أنباع ريتشارد عليه في بواتو ، وفي يونيو ١١٨٨م تورط في نزاع مع كونت تولوز . وغضب الملك الفرنسي للإعتداء على تابعه ، فياندر بفزو بيري Berry ، فغزا هنري بلوره أراضي فيليب ، وتواصلت الحرب طوال الصيف والخريف . وكانت مشاعر البتوة لدى ريتشارد مزعزعة ، ولذا انضم في يناير ١١٨٩م إلى فيليب في محرم ضد هنري ، وارتاع الكثير من المسيحيين الطيبين من هذه الحرب التي لا تنتهي ، ورفض بعض أتباع فيليب ، كونت فلاندرز وكونت بلوا ، حمل السلاح إلى أن تنطلق الحملة الصليبية<sup>(١٤)</sup> وكان البابا قد أرسل في خريف ١١٨٨م أسقف ألبانو ، ثم أرسل في الربيع التالي - بعد وفاة الأسقف - الكاردينال جون (أوف أناني) ، بأمر للكنيسة بمقعد السلام بينهما ولكن دون جدوى . وأخفق بلدوين رئيس أساقفة كنتربري بنفس القدر. وكان فيليب وريتشارد قد توغلا في أراضي هنري الفرنسية طوال بدايات الصيف ، واستمر فيليب يوم ٣ يولية على قلعة تور العظيمة ، وفي اليوم التالي وافق هنري ، الذي كان آنذاك في حالة مرضية يائسة ، على عقد سلام بشروط مهينة ، وبعد يومين اثنين ، وقبل التصديق على معاهدة السلام ، مات هنري يوم ٦ يولية في شينون<sup>(١٥)</sup> Chinnon.

#### ١١٨٩م : استخلاص الملك ريتشارد

هذا الوضع يحوت الملك المجزؤ . ومن المشكوك فيه ما إذا كان قد خطر بباله قسط

(١٢) . *Ibid.* pp. 38-9.

(١٣) . *Ibid.* pp. 44, 47-8.

(١٤) . *Ibid.* pp. 34-6, 39-40, 44-9; Rigord, pp. 90-3.

(١٥) . Benedict of Peterborough, II, pp. 50-1, 59-61, 66-71; Rigord, pp. 94-7; Roger of Wendover, I, pp. 154-60.

علي نحو جاد أن يرى نفسه ذليلاً في حملة صليبية ، على خلاف وريثه ريتشارد الذي كان عاقد المزم على الوفاء بقسمه ، ورغم أنه قد ورت حتما نزاع أبيه مع الملك فيليب ، إلا أنه كان على استعداد لقبول أية تسوية تمكنه من حرية الانطلاق إلى الشرق ، لاسيما أن فيليب سيتنضم إلى الحملة الصليبية . أما فيليب فكان ما يشعر به من رغبة حيال ريتشارد أقل منها إزاء هنري ورأى من سوء السياسة تأجيل الحملة الصليبية أكثر من ذلك ، وسرعان ما عقدت معاهدة ، وعمر ريتشارد إلى إنجلترا كمي يُؤجج ويحول شؤون الحكم<sup>(١٦)</sup>.

وحدثت مراسم التتويج يوم ٣ سبتمبر ، اعتقبتها أعمال اضطهاد بين اليهود في لندن وبورك ، إذ كان الرعايون غيورين مما أسبقه عليهم الملك الراحل من محبة ، ودائما ما كانت الحملة الصليبية توفر ذريعة لقتل أعداء الرب . وعاقب ريتشارد مشي الشعب وسمح لليهودي كان قد تحول إلى المسيحية نفاذا للقتل بأن يعود إلى يهوديته . وأذعن المؤرخين التعليق الذي قاله بلدوين رئيس الأساقفة أنه إن لم يكن رجل الرب فالأفضل له أن يكون رجل الشيطان . ومكث الملك في إنجلترا طوال الحريف بعيد تنظيم إدارة البلاد ، ومكث المناصب الكنسية الشاغرة . وبعد إجراء بعض التغييرات الأولية ، تم تعيين ولهم لوتشامب ، أسقف إيلي ، مستشارا وقاضيا لجنوب إنجلترا ، بينما عُيِّن هيو ، أسقف دورهام ، قاضيا لشمال إنجلترا وألبا وكيلا في ويندسور . وشجعت الملكة الأم إليانورا سلطات نائب الملك لكنها لم تكن تنوي البقاء في إنجلترا . وشجع أخو الملك ، جون ، اقتطاعات ضخمة في جنوب غرب البلاد وقد سبق أن صدر بحقه حظر ، له ما يبرره ، من دخوله إنجلترا وشجب هذا الحظر على وجه السرعة . وبعث الضياع الملكية بجمع المال ، واجتمعت ألقابها مع الهدايا وعشور صلاح الدين لتوفر للملك ثروة ضخمة ؛ وأرسل ولهم ملك اسكتلندا عشرة آلاف جنيه نظير تحريره من الولاء للنجاح الإنجليزي واستعادته لمدينتي بيرويك وروكسبورج اللتين سبق أن قددهما في عهد هنري<sup>(١٧)</sup>.

وفي نوفمبر جاء روثارد ، كونت بوش ، من فرنسا ليعلم أن الملك فيليب كاد أن يستكمل استعداداته للحملة الصليبية وأحضر عن رغبة الملك في مقابلة ريتشارد في

(١٦) . Benedict of Peterborough, II, pp. 74-5; Roger of Wendover, I, pp. 162-3.

(١٧) Benedict of Peterborough, II, pp. 80-8, 97-101; Roger of Wendover, I, pp. 164-7, Ambrose, cols 6-7.

فيزيلاي يوم أول أبريل لماثشة وحيالها معا<sup>(١٨)</sup>. وفي نهاية عام ١١٨٨م وصلت إلى البلاط الفرنسي رسالة من عملائه في القسطنطينية مفادها أن الناسك القديس دانيال تنبأ بأنه في السنة التي يقع فيها عيد البشارة<sup>(١٩)</sup> في يوم أحد الفصح سوف يستعيد الفرنج الأراضي المقدسة ، وسوف يهدت اقتران اليرمين هنا في عام ١١٩٠م . وأضاف التقرير أن صلاح الدين يواجه اضطرابات نظرا للتزاوجات الدائرة في عائلته ومع حلفائه، حتى برغم مساعدة الامبراطور إيزاك عديم التقوى، وسرت شائعة بأن صلاح الدين نفسه قد هزم هزيمة نكراء بالقرب من أنطاكية<sup>(٢٠)</sup>. ولم تكن الأخبار الواردة إلى فرنسا في العام التالي تمثل هذا التفاؤل الكبير ، غير أنه عرف أن الفرنج بدأوا بأخذون زمام المحكوم، بفضل المساعدة الصقلية<sup>(٢١)</sup>. وبفضلا عن ذلك ، كان الامبراطور الفرنسي فرديريك بارباروسا في طريقه بالتفعل إلى الشرق<sup>(٢٢)</sup> وقد حان الوقت للملكي الفرنسي واتخذوا ليطلقا.

ووافق الملك ريتشارد ، مسترشدا بنصيحة بهلسه ، على أن يكون تجمع القوات في فيزيلاي ، وعاد إلى نورماندي في عيد الميلاد وأعد العدة للانطلاق إلى فلسطين في أواخر الربيع ، على أنه في اللحظة الأخيرة تقرر تأجيل كل شيء لوفقة ملكة فرنسا ايزابيلا وألف هينو في وقت مبكر من شهر مارس<sup>(٢٣)</sup> وحدث اللقاء في فيزيلاي يوم ٤ يوليو لا قبله ، بين الملك وفرسانه ومشائته ، استعدادا للانطلاق في مشروعهم للقديس<sup>(٢٤)</sup>.

#### ١١٨٩م : إبحار الأسطول الإنجليزي

ومضت ثلاث سنوات على نكبة حطين التي حلت بمملكة القدس ، ومن حسن

(١٨) Benedict of Peterborough, II, pp. 92-3.

(١٩) وترجم: Annunciation بشارة تلك حويل تريم بحالها بالبحر.

(٢٠) Ibid. II, pp. 51-3.

(٢١) Ibid. II, pp. 51-3.

(٢٢) نظر اثناء (ص ٤١).

(٢٣) Benedict of Peterborough, II, p. 108; *Itinerarium*, p. 146; Rigord, pp. 97-8.

(٢٤) Benedict of Peterborough, II, p. 111; *Itinerarium*, pp. 147-9; Ambroise, cols. 8-9; Rigord, pp. 98-9.

حظ القربح أن كان هناك صليبيون آخرون ليسوا على هذا القدر من التسهيل ؛ إذ أن الإستجابة الفورية من الملك ولهم الصقلي أخذت صور وطرابلس من الضياع . ومات ولهم يوم ١٨ نوفمبر ١١٨٩ ، وكان على حليفته تكريمه أن يواحه اضطرابات في بلده<sup>(٢٥)</sup> على أنه وصل في سبتمبر أسطول يخالف من سفن دائرية وفلمنكية (فلاتنرز)، بالفت التواريخ المتعاقبة في تقدير عددها بأنه خمسمائة سفينة، قيادة الشياطين السوري؛ وجاء في نفس الوقت تقريباً جيمس ، لورد ألبيسن ، أنشجع فرسان فلاتنرز<sup>(٢٦)</sup> وحتى الإنجليز، لم يتطروا جميعاً ملكهم لكي يتركوا، وإذا أثير أسطول صغير من أباء لندن، مغادرا نهر التيمز في أغسطس، ووصل في الشهر التالي إلى البرتغال حيث واقتوا، كما فعل وفاتهم قبل أربعين سنة ، على الانحياز بأعمال مؤقتة لدى ملك البرتغال، وبفضل مساعدتهم تمكن الملك ساكرو من أن ينتزع من الاسلام قلعة سيلفيس الواقعة شرق رأس القديس فينسنت . وفي يوم عيد ميخائيل كبير الملاكات (٢٩ سبتمبر) وأصل اللندنيون إيمانهم خلال مطبق جيبيل طارق<sup>(٢٧)</sup> . غير أن أنضم قوة كانت قد شرعت فعلاً في الرحيل إلى الأراضي المقدسة هي جيش الإمبراطور فريديك بارباروسا .

وكان لأبناء الكوارث التي حلت بفلسطين عميق الأثر لدى فريديك . فمنذ أن عاد مع عمه الملك كونراد من الحملة الصليبية الثانية النجسة وهو يتلهف على عارمة الكفرة مرة أخرى . وقد تقدم به العمر الآن ، إذ كاد يبلغ السبعين من عمره، وأنشئ في حكم ألمانيا خمساً وثلاثين سنة . ولم تجمع السنوات شجاعته ولا حاذيقه ، وإنما تعلم الحلو من تجارة الربرة الكثيرة . ولم تكن هناك روابط شخصية كثيرة تربطه بفلسطين التي لا تضم من المستوطنين من أصل اللاتيني سوى القليل ، وأدى خلافه الطويل مع البابوية إلى أن تحجم الحكومة الفرنجية عن طلب مساعدته ، على أن آل مونفرانت كانوا دائماً من بين مناصريه ، وربما أدت شجاعة كونراد في الدفاع عن صور إلى تحريك مشاعره . وبسبب زواج ورثة هنري مؤخرًا من الأميرة الصقلية كونستانس ، أصبح على علاقة وثيقة بنورماندي الجنوب ؛ وبوفاة البابا ايربان الثالث في عريف عام

(٢٥) انظر Chaldean, *Domination Normande en Italie*, II, pp. 416-18. ويرد موت ولهم في كتلة التواريخ الأنجلو-رومانية والفرنسية على أنه كثر.

(٢٦) Benedict of Peterborough, II, p. 94; *Itinerarium*, p. 65; Ambrose, cols. 77-8.

(٢٧) Benedict of Peterborough, II, pp. 116-22; Ralph of Diceto, II, pp. 65-6; *Narratio litteris Navalibus ad Terram Sanctam*, passim.

١١٨٧م تمكن من التصالح مع روما . وكان جريغوري الثامن شغولاً بالتصالح مثل هذا الخليفة الرابع لإتاحة العالم المسيحي ، كما كان كلجمست الثالث ودودا بنفس القدر<sup>(٢٨)</sup>.

في اليوم السابع والعشرين من مارس ١١٨٨م، أمضى فريديريك الصليب في ميتر من يد الكاردينال أليانو. وكان ذلك اليوم رابع أيام الأحد في فترة الصوم الكبير Lent الذي يعرف من صلاة القديس الافتتاحية على أن<sup>(٢٩)</sup> Laetare Hierusalem. يد أنه انقضى ما يزيد على عام قبل أن يهبط للرحيل إلى الشرق . ومُنحت الوصاية على املاكه لإبنه الذي سوف يصبح هنري السادس . أما غريمه الكبير في ألمانيا - هنري أمسد ماكسونيا - فقد صدرت له الأوامر إما أن يتخلى عن حقوقه في جزء من أراضيه ، أو ينضم إلى الحملة الصليبية على حساباته الخاص ، أو يُبقي ثلاث سنوات ؛ فاعتذر الحبل الأحمر وتقاعد في بلاط زوج أنه هنري الثاني في إنجلترا<sup>(٣٠)</sup> . وبفضل التعاطف البابوي ، هدأت الكنيسة الألمانية بعد سلسلة طويلة من المشاحنات . وتعززت الحدود الغربية لألمانيا بإنشاء منطقة عسكرية جديدة<sup>(٣١)</sup> Margravine . وبينما كان فريديريك يجمع جيشه كتب إلى حوافظ الأراضي التي سوف يهزمها، ملك هنغاريا والإمبراطور إريك آتيميلوس والسلطان قلع أرسلان السلجوقي ؛ وأرسل إلى صلاح الدين سفيرا ، هنري رافوف ديتز، برسالة متخفة بقلبه فيها باعادة فلسطين كلها إلى المسيحيين وبتجدهاء في معركة في ساحة زوان<sup>(٣٢)</sup> في نوفمبر ١١٨٩<sup>(٣٣)</sup> . وقد رد ملك هنغاريا والسلطان السلجوقي برسائل تمد بتقديم المساعدة ، في عام ١١٨٨ وصلت سفارة بيزنطية إلى

(٢٨) لا أدري أفضل رواية عن حياة فريديريك الأول العاشق هي التي أوردها Kaiser in Fritz Friedrich I. وأورد Ambert حنة الحكمة إلى الشرق في Expediño Friderici وكذلك في تلك القديس في Historia Peregrinarum. Epanola de Monte Friderici Imperatoris. ونشرت كل Chroust, Quellen zur Geschichte des Krenztzger Kaiser in Friedrichs I.

(٢٩) Hefele-Leclercq, Histoire des Conciles, v, 2, pp. 1143-4.

(٣٠) Benedict of Peterborough, II, pp. 55-6.

(٣١) Hefele-Leclercq, op. cit. p. 1144, with references.

(٣٢) (الترجمة): Zoan: التسمية في لفظها كتاب القديس على مدحة تانيس Tanis بذلك مصر القديس.

(٣٣) Ambert, Expediño Friderici, p. 16. وأورد نسخة من رسالة فريديريك إلى صلاح الدين في تاريخ Benedict of Peterborough, II, pp. 62-3. ويؤكد زاندا أن يكون بعيدا.



نورموج للترتيب لتفصيلات مرور الصليبيين عبر أراضي ايراك<sup>(٢٤)</sup>. على أن رد صلاح الدين كان كئيباً متعالياً إذ عرض الإفراج عن أسرى الفرنج وإعادة الأديرة اللاتينية في فلسطين إلى أصحابها، لا أكثر، وإلا فهي الحرب.

#### ١١٨٩ م : الامبراطور فريديريك بغادر ألمانيا

في باكورة شهر مايو ١١٨٩، انطلق فريديريك من والنسيون ، بصفته ابنه الثاني فريديريك (أوف سوابيا) وكثيرون من كبار أتباعه ، وكان جيشه أكبر قوة تجتمع حتى ذلك الوقت لتنتقل في حملة صليبية ، وكان جيد التسليح والإعتناء<sup>(٢٥)</sup>. ورحب به الملك بيلا ترحيبا ودودا أثناء عبوره هتجاريا ولم يذعر جهدا في تقديم كل ما يقبله من تسهيلات . وفي ٢٣ يونيو عبر نهر الدانوب عند بلغراد ودخل الأراضي البيزنطية<sup>(٢٦)</sup>، فبدأ سوء التفاهم . إذ أن الامبراطور ايريك أنجيلوس لم يكن بالرجل الذي يبالغ موقفا يتطلب المهارة والصبر والشجاعة . لقد كان ذكيا ، ولكنه كان من رجال الحاشية ضعيف الإرادة ووصل إلى العرش مصادفة . وبقي دائما وجود ألداء له في فراضيه ، لقد كان مرتابا في مسؤوليته جميعا لكنه لم يفرق على مرفئتهم مراقبة صارمة . كما أن القوات المسلحة للإمبراطورية وعزائنها لم تترأ من الاستنزاف الذي فرض عليها إيمان عهد الملك الزائف لماثيويل كومنينوس ، وأما محاولة الامبراطور أندرونيكوس إصلاح الإدارة فقد انتهت بسقوطه ، وباتت الآن أكثر فسادا من أي وقت مضى ، وكانت الضرائب الباهظة الفائلة تسبب الإضطراب في القلقان ؛ فكانت فرص ثائرة تحت ايريك كومنينوس ، وضاعت كيليكيا للأرمن ، وكسان الأتراك يقتطعون من الأقاليم الإمبراطورية في وسط الأناضول وجنوبها الغربي ، وقد شن القورمانديون هجوما ضخما على إبيروس ومقدونيا، وكانت هزيمة اللورمانديين هي النصر العسكري الوحيد الذي تحقق في عهد ايريك أنجيلوس ، أما فيما عداه فكان يستند إلى الدبلوماسية ؛ فدخل في تحالف وثيق مع صلاح الدين مما أثار رعب فرنج الشرق ؛ ولم تكن دوافعه

(٢٤) Aschert, *Expedition Friderici*, p. 15; Hefele-Lectercq, loc. cit.

(٢٥) يذكر Arnold of Lubek أن اسماء امري للبحر عند عبوره نهر ساف، فكان هناك خمسون ألف فارس ومائة ألف راجل (pp. 130-1) ويذكر المؤرخون أن كان أن قوام الجيش كله كان مائة ألف.

(٢٦) Aschert, *Expedition Friderici*, p. 26.

لم يكن الجيش الألماني يبعد نهر الدانوب حتى بدأت الحفائر ، وإذ قطع الطرقات الصرب والبلغار يهاجمون الجماعات الفاشية ، وارتاع الفريزيون وتوجهوا من الأتراك الذين اتهموا البيزنطيين في الخلل بالحرص على تلك العداوة ، ولم يتخلقوا من أن ألك أن أضعف من أن يتضع كما للمنتاب . وكان فريديك صليبا معني إلى مصداقة زعماء التمرد ، بعد سنتين منراوة أمير الصرب من أخيه فراسيريل إلى مدينة نيش لنحية العامل الألماني أثناء مروراه بالبلدية في يولية ، وأرسل زعميا التمرد البواري، الأموان للاح ، إيفان أوسيت ، ورسائل إلى العمل الألماني باعتباره بتقديم المساعدة . وتسميت تلك الأقسام في الشارة مشاعر قلب ليست غير طيحية في البيزنطية . وقد كان ألك مرتابا من قبل في ثواب فريديك ، إذ أنه أرسل سفيره السابقين في البلاط الألماني وهما جون دوكلبي وقسطنطين كاتناكوزينوس ، لنحية فريديك عبر حدود الأراضي البيزنطية . وأقبل صديقهما القديم المورخ نيساني غوليبيتس غورا وحجما بتهزاز الفرصة وبحرسان فريديك ضد أبارك ، الذي سرعان ما علم بآثارهما . بينما كان مرقس فريديك يدرك أن مخططاته ما كان

Cognasso, 'Un Imperatore Bizantino della Decadenza, *عن اوفك العليوس اعظم* (37)  
Isacco II Angelos in Ruzovic, vol. XXX, pp. 29 ff., 246 ff.  
Bohmer, *Acta Imperii Selecta*, p. 152 في عزى الى

يشعر به فعلا من انعدام الثقة في ايزاك الذي سبق وإن نشأت من تجاربه أثناء الحملة الصليبية الثانية ، في تلك الأثناء تخلت عن ايزاك حكمته . فحتى ذلك الوقت كان نظام الجيش الألماني ، واستعدادات السلطات البيزنطية لإعادة تمويش الجيش ، قد ساعدت في التخلو من دون حدوث ما لا تحمد عقباه ، ولكن فريدريك احتل فليوبوليس ومنها أرسل مبعوثين إلى القسطنطينية لإعداد ترتيبات عبور الجيش إلى آسيا ، فما كان من ايزاك إلا أن القي بالرسول في غياهب السجن وهو يقصد الاحتفاظ بهم رهائن كي يضمن تصرفا هادئا من فريدريك . ولقد أتحق اتفاقا تاما في الحكم على فريدريك الذي أرسل ابنه على الفور ، فريدريك (أوف سوابيا) ، للاستيلاء على مدينة ديدموتريوم على شواطئ كرهينة مضادة ، وكتب إلى ابنه هنري في ألمانيا كي يمشد أسطولا لهجمة بيزنطة ، كما كتب إلى البابا ملتمسا بركانته حملة صليبية ضد اليونانيين ، قائلا إنه ما لم يتحكم الفرنج في المضائق فلن تنجح الحركة الصليبية قط . وتوقع ايزاك وصول أسطول غربي لمساعد الجيش الألماني في هجومه على القسطنطينية ، فراح يبرلغ لعدة أشهر إلى أن تراجع أخيرا وأطلق سراح السفراء الألمان . ووقع السلام ترفعا في ادرينوبل ، وأعطى ايزاك وهائن لفريدريك ووعده بتقديم السفن إذا وافق فريدريك على عبور الدردنيل وليس البوسفور ، كما وعده بتزويده بالبلون أثناء عبوره الأناضول . وكانت رغبة فريدريك هي الانطلاق مباشرة إلى فلسطين ، فكلم غبطة ووقع على الشروط.

وكان سير الجيش الألماني في البلدان بطيئا للغاية ، وكان فريدريك في شدة الخرص بحيث لم يشأن عبور الأناضول في فصل الشتاء . فأمضى شهور الشتاء في ادرينوبل بينما كان سكان القسطنطينية يرتعدون خوفا من أن يرفض اعتذارات ايزاك ويهاجم مدينتهم . وأخيرا ، تمكنت حملته كلها في شهر مارس ١١٩٠ هائلة إلى حاليبولي على الدردنيل ، وبمساعدة السفلات البيزنطية عبرت إلى آسيا فتنفس ايزاك وراحياه الصعداء<sup>(٣٨)</sup>.

تعددة فريدريك الشاطئ الآسيوي للدردنيل اتخذ تقريبا الطريق الذي طرقة الاسكندر الأكبر قبل خمسة عشر قرنا ، عابرا جراتيكوس ونهر الخلو كوميثس أثناء قيضاته إلى أن اتخذ الطريق العام البيزنطي الموصوف الذي يربط ميليتوبوليس وبقسبر

Nicetas Choniates, pp. 525-37; Ansberr, *Expedition Friderici*, pp. 27-66; (٣٨) *Gesta Federici in Expeditione Sacra*, pp. 80-4; Otto of St Blaise, pp. 66-7; *Itinerarium*, pp. 47-9; See Heftel-Lachner, op. cit. pp. 1147-9; Vasiliev, *History of the Byzantine Empire*, pp. 445-7.

الحديثة ، وعلى هذا الطريق استقر كالاموس إلى فيلاديلفيا، حيث أنهر السكان الود  
أول الأمر ، لكنهم حاربوا بعض السرقات من حرس المؤخرة وعرفوا . ووصل لاديفيا  
يوم ٢٧ أبريل ، أي بعد ثلاثين يوما من عبوره الدردنيل ؛ ومن هناك اتجه إلى داخل  
البلاد بطول الطريق الذي اتخذته مانتويل في مسيرته المهلكة إلى ميروسيغالوم . وفي  
الثالث من مايو ، وبعد مناوشة مع الأتراك ، عبر ساحة المعركة حيث كانت عظام  
الضحايا ما تزال ظاهرة للعيان . وقد غدا الآن في الأراضي التي يسيطر عليها السلفان  
السلجوقي . وكان واضحا حليّا أن تلج أرسلان لم يكن ليترك الصليبيين يمرون في  
أراضيهم سائرين - برغم ما وعدهم به . غير أنه ارتاع من حجم جيشهم ، فحشد في  
السكك حول أطرافه ، قصد المباردين وتدخل في عمليات جمع الطعام . وكثرت تلك  
التكتيكات فعاليتها ، إذ اجتمع البخور والمعلش وسهام الأتراك ، فبدأت الإصابات  
تتوالى . واضطر فريدريك إلى اتخاذ طريق ملتف حول طرف سفوح السلطان داغ ثم  
إلى الطريق القديم من فيلوميلوم شرقا فوصل فونية يوم ١٧ مايو ، حيث كان السلطان  
وحاشيته قد انسحبوا أمامه ، وبعد معركة حادة مع قطب الدين ، ابن السلطان ، تمكن  
كونراد في اليوم التالي من شق مدخل إلى داخل المدينة ، ولم يلبث بها طويلا وإنما ترك  
جيشه يأخذ قسطا من الراحة في حدائق ميوا في الضواحي الجنوبية . وبعد ستة أيام  
انتقل إلى كارامان التي وصلها بسرم ٣٠ مايو ومنها قاد الجيش خلال ممرات جبال  
طوروس دون مقاومة باتجاه ساحل سيلقية الجنوبية . وكان المبتدأ الآن تحت سيطرة  
الأرمن ، فسارع بطريق الأرمن (كاتوليكون) بإرسال رسالة إلى صلاح الدين . وكان  
الطريق يمتد بلادا وعرة وتقلص الطعام واشتد طيب حرارة الصيف<sup>(٣١)</sup>.

#### ١١٩٠م : مصرع فريدريك بارياروسا

في العاشر من يونيو هبط الجيش الضخم إلى سهل سيلقية وأعد العدة لعبور نهر  
كاليكادوس ليدخل المدينة . وتقدم الأميراطور على حواذيه مع حرسه الخاص ، ثم هبط  
إلى ناحية الياض . وما حدث بعد ذلك غير يقيني ، فلما أنه وثب من على حواذيه لينعش

(٣١) Nicetas Choniates, pp. 538-44; Ansbart, *Expedition Friderici*, pp. 67-90; *Genia Federici*, pp. 84-97; *Epistola de Monte Fridenici*, pp. 172-7; *Historical Geography of Asia Minor*, pp. 49-53. *Geography of Asia Minor*, pp. 129-30. *Beha ed-Din (P.P.T.S.)*, pp. 185-97.

نفسه في تيار الماء البارد ووجد التيار أقوى مما كان يظن ، أو أن بدنه الطاهر في السن لم يتحمل الصدمة ، أو أن جواده انزلق وألقى به في الماء حيث غرق بتقل ما كان يحمله من دروع . وفي وقت وصول الجيش إلى النهر كانت حخته قد انتشلت وبقيت ممددة على ضفة النهر<sup>(١٠)</sup>.

كان موت الإمبراطور العظيم ضربة مريرة ليس فقط لرفاقه وإنما للعالم الغربي كله، إذ أن أبناء مجيئه على رأس جيش ضخم قد شددت كثيرا من عزائم الفرنسكان الغزاة على الساحل السوري . وبدت قوته وحدها كافية لدحر المسلمين ، وباتضمام جيوش ملكي فرنسا وألمانيا إليه ، التي كان مقررا أن ترحل حالا إلى الشرق ، فإن استعادة الأراضي المقدسة إلى المسيحية بدت يقينية . وكان صلاح الدين نفسه يتخفى أن يكون تجمع الجيوش فوق عذقته . وعندما سمع أن فريدريك في طريقه إلى القسطنطينية أرسل كاتم سره ومترجم سيرته - بهاء الدين - إلى بغداد لتحضير الخليفة الناصر والدعوة إلى أن يتكفل المؤمنون للتصدي للتهديد ، واستدعى أتباعه جميعا للإلتزام إليه . وظل يجمع المعلومات عن كل مرحلة من مراحل تحرك الجيش الألماني ، ولئن عطا أن قلج لوسلان يساعد القزاة سرا . وعندما سمع المسلمون فجأة بموت فريدريك ، بدا لهم أنها معجزة مهددة اليهم من السماء ، وفي الإمكان الآن تقليص الجيش الذي تجمع لصد الألمان في شمال سوريا ، وأرسلت فصائل للإلتزام إلى قواته على الساحل الفلسطيني<sup>(١١)</sup>.

كان الخطر كبيرا على الإسلام ، وكان صلاح الدين عفا في أن يرى خلاصه في مصرع الإمبراطور . فبالرغم من هلاك عدد من الجنود الألمان ، وضياح بعض المعنات أثناء المرحلة الشاقة عبر الأناضول ، كان جيش الإمبراطور ما يزال ضخما . غير أن الألمان ، بتلفهم الغريب إلى عبادة زعيم ، عادة ما تضعف معنوياتهم باختفاء الزعيم . وهيمن الارتباك على جنود فريدريك . إذ أن دوق سوابيا الذي تولى القيادة كان يفتقر إلى شخصية أبيه . وقرر بعض الأمراء العودة مع أتباعهم إلى أوروبا ، واستقل آخرون

(١٠) Nicetas Choniates, p. 545; Ansbent, *Expedition Friderici*, pp.90-2; *Epistola de Morte Friderici*, pp.177-8; *Gesta Federici*, pp.97-8; Otto of St Blaise, p.51; *Itinerarium*, pp.54-5; Ibn al-Athir, II, p.5; Beha ed-Din, P.P.T.S. pp.183-4.

(١١) Emoul, pp.250-1; *Estoire d'Eracles*, p140; *Itinerarium*, pp.56-7; *Ambricse*, col.87; Ibn al-Athir, loc.cit.; Abu Shama, pp.34-5; Beha ed-Din, P.P.T.S. pp.189-91; Bar-Hadrassus, pp.332-4.

سفينة من سيلوقية أو طرسوس إلى صور . وواصل الدوق مسيرته مع الجيش الذي تناقص عدده بصورة كبيرة ، في حمارة لفظ الصيف في سهل كيليكيا ، يحمل معه حشة الامبراطور المحفوظة في الخيل . وقام الأمير الأرمني ليو بزيارة للمعسكر الألماني من قبيل الولاية بعد أن كان مرودا . ولم يتمكن القادة الألمان من عمل الوثنيات الكثيلة بإطعام رجالهم بما فيه الكفاية ، فاندعم الإضطباط بين الجنود ، وخاصة في غياب الامبراطور ، فكثير منهم جوعى ، وكثير مرضى ، وكلهم يربن مشاكس وعبيد ، وأصيب الدوق نفسه بمرض عضال واضطر إلى أن يمكث في كيليكيا ، واستمر عيشه بلونه ، لكي يجابه هجومًا سقط فيه ضحايا كثيرين بينما كان يعبر الثوابت السورية . وكان من وصل إلى أنطاكية يوم ٢١ يونيو مجرد جماعة من الغزاة في حالة ندحور إلى الرثاء ، وبعد أيام قليلة وصل فريديك دون سوايا بعد أن تمائل الشقاء<sup>(٤٢)</sup>.

#### الألمان في أنطاكية

ورحب الأمير يوهنند كونست أنطاكية بالألمان ترحيبا حارا . وكانوا في حالة دمار. فدون قاداتهم فقدوا حماسهم ، وبعد ما لا قوة من مشاق الرحلة كانوا على غير استعداد للتخلي عن رعاية أنطاكية . كما أن ما ألقوا عليه من إفراط في الملذات لم يكن له أثر في تقوية حالتهم الصحية . فقد اقتبط فريديك (لوف سوايا) لما لسه من ترحيب يوهنند ، وتلقى دعوة من ابن عمه كونراد (أوف مونتفرات) من صور لزيارته، جعلته متلهفا على مواصلة الرحلة . على أنه عندما غادر أنطاكية في نهاية أغسطس كان الجيش بصحته قد تقلص أكثر فأكثر ، ومن ثم لم يجد الكثير من الفرص فائدة ترحي من أي جهد يبذل لمساعدتهم ، وكان معارضو كونراد جميعا يعلمون أن فريديك ابن عمه وصفيقه ، غذأوا على المجلس بأن صلاح الدين قد دفع لكونراد ستين ألف بيزانت لكي يعمل على إبعاد فريديك عن أنطاكية ، وهي المكان الذي يستطيع فيه أن يؤدي خدمات تامة للقسيسة المسيحية . ومن الناحية الرمزية ، فشل مفعول الخيل أيضا فتحللت حلة الامبراطور ، وبغاية السرعة دفنت بقاياه في كنديالية أنطاكية ، لكن بعض العظام انتزعت من الجثة وسافرت مع الجيش على أمل طاش في أن

(٤٢) Sicard of Cremona, p. 610; Otto of St Blaise, p.52; Abu Shama, pp.458-9; Beha ed-Din, P.P.T.S.pp.207-9.

يكون هناك جزء على الأقل من فريديك بارباروسا منتظرا يوم القيامة في القدس<sup>(١٣)</sup>.  
 إن الإخفاق المروع الذي منيت به حملة الاسواطور الصليبية ، أسفر عن تزايد  
 أهمية وحيل ملكي فرنسا والنجار إلى الشرق ، ليندليا بدلوها في الصراع القصوى المبرر  
 الذي اندلع على ساحل فلسطين الشمالي.

(١٣) Abu Shama, pp. 458-60; Beha al-Din, P.P.T.S. pp. 212-14; Ercoul, p. 259

---

## الفصل الثاني:

### عكا



\_\_\_\_\_

## ٢٤

"هأنذا أرد أدوات الحرب التي بيدكم التي أتم عاريون بها ملك  
بابل والكلدانيين الذين يحاصرونكم خارج السور"  
(إرميا ٢١: ٤)

أعطى صلاح الدين في ساعة الانتصار خطأ واحدا جسيما عندما ترك نفسه  
لحاروقها من تحصينات مدينة صور ، فلو أنه زحف عليها بعد استيلائه على عكا مباشرة  
عام ١١٨٧م لغاز بها ، وكان يظن أن استسلامها قد وُثب وإن تأخر لأيام قليلة،  
وعندما وصل إلى صور كان كورنراد (أوف مونفرات) قد وصلها قبله ورفض التفكير  
في الاستسلام ، ولم يكن لدى صلاح الدين آنذاك ما يعينه على شرب حصار منظم  
حول المدينة ، فانتقل إلى أهداف أخرى أيسر في الاستيلاء عليها . وبعد سقوط القدس،  
هاجم صلاح الدين مدينة صور للمرة الثانية في شهر أكتوبر بجيش كبير وبكل ما لديه  
من آلات الحصار . غير أن الأسوار وراء البرزخ الضيق صارت الآن حصينة بعدما قواها  
كورنراد الذي حصن ما أحضره من أموال من القسطنطينية لتقوية الدفاعات كلها .  
ولم يستطع صلاح الدين النيل من الأسوار بآلات الحصار ، كما أن أسطوله دُشِر في

معركة خارج مدخل الميناء، فرغ الحصار مرة أخرى وسرح أغلب جنوده ، وقبل أن يأتى مرة أخرى لاستكمال فتح منطقة الساحل كان العدو قد وصل من وراء البحار<sup>(١)</sup>.

ولم تكن القوات التي أرسلها وليد الثاني الصقلي في أواخر الربيع من عام ١١٨٨ كبيرة ، إلا أنها كانت تتألف من أسطول جيد التسليح بقيادة الأدميرال مارحارتوس ومئتين من الفرسان المدربين . وعلى أثر وصول هذه التعزيزات وضع صلاح الدين الحصار على قلعة الكرك في يولية ١١٨٨م وأحجم عن مهاجمة طرابلس<sup>(٢)</sup> ويرضى الآن بالتفاوض على السلام . وكان هناك فارس من أسبانيا جاء إلى صور في الوقت المناسب للمشاركة في الدفاع عنها ، ولا تعرف اسمه ولكن من القدوع التي كان يرتديها كانوا يطلقون عليه الفارس الأخضر . وقد تأثر صلاح الدين كثيرا بشجاعته وإقدامه ، وقابله بالقرب من طرابلس في صيف عام ١١٨٨م أصلا أن يقتعه بالترتيب لخدمته ويخلفه بالخدمة مع العرب . لكن الفارس الأخضر أجاب بأن الفرنج لن يضعوا في اعتبارهم شيئا أقل من استعادة بلدتهم ولا سيما وأن العدو آتى من الغرب . فليحل صلاح الدين فلسطين، ولسوف يجد الفرنج بعد ذلك أكثر حلفائه أصلا<sup>(٣)</sup>.

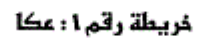
#### ١١٨٨م : الإفراج عن الملك جوي

على الرغم من عدم إمكان التوصل إلى السلام ، أبدى صلاح الدين نواياه المودودة بأن يطلق سراح البعض من أبرز سجنائه . ولقد كان من عادته أن يُمنح لوردات الفرنج من أسراه بأن يفوزوا بخرابهم بالأمر بتسليم حصونهم إليه ، فكانت وسيلة رخيصة وسهلة في الحصول على القلاع . بل إن فروسيته منعت أبعد من ذلك ؛ فعندما فشلت الميدي ستيفاني سيده منطقة الأردن في إقناع حاميي كرك ومونزيمال بالاستسلام لكي يُفرج عن ابنها همفري (أوف طورون) ، أعاده صلاح الدين إليها

(١) على اطلاع ، الجزء الثاني ، الصفحات ٥٢٢-٥٢٣.

(٢) *Itinerarium*, pp.27-8; Benedict of Peterborough, p. 54; *Estoire d'Eracles*, pp.718, 720-1. *Enacles* والفرعون الإسلاميون إن مارحارتوس امرى مقابلة مع صلاح الدين في اللاذقية.

(٣) *Enoesl*, pp. 251-2.



حتى قبل أن يستولى على القلعين العبدتين بالقوة . وكانت عسقلان هي من الإفراج عن الملك حوي ، لكن سكانها جعلوا من أنابية ملكهم فرفضوا احترام اتفاقه مع صلاح الدين . ولقد سقطت عسقلان الآن ، ولذا كتبت للملكة سيبلا مراراً وتكراراً إلى صلاح الدين تتوسل إليه أن يعيد إليها زوجها . وفي يولية أحابها صلاح الدين إلى طلبها ، وبعد أن أكرم حوي أخلفه الإيمان بأنه سوف يعيد البحر عائلاً إلى بلده وأنه لن يحمل السلاح قط في وجه المسلمين أرسل مع عشرة من أبرز أتباعه ، بمن فيهم الكونتسابل كمالريك ، إلى طرابلس للانضمام إلى الملكة . وفي ذات الوقت شجع تركيز مونتفرات السن بالذهاب إلى ابنه في صور<sup>(١)</sup>.

وتسبب ما كان عليه صلاح الدين من كرم وسخاء في أن يشعر رفاقه بالخطر . إذ أنه لم يكتف بالسماح للمواطنين الفرنج في كل مدينة تنضم له بالذهاب إلى صور أو طرابلس للانضمام إلى رفاقهم ، وإنما مضي أبعد من ذلك بأن صمّم حاسباً هاتين القلعين للمسيحيين بالإفراج عن الكثير من اللوردات الأسرى . على أن صلاح الدين كان يدري ما هو فاعل . ذلك أن مشاحنات التحزبات التي مزقت الفرنج في السنوات الأخيرة من مملكة القدس لم تلمد إلا قبل معركة حطين بأسابيع قليلة بفضل مهارة باليان (أوف ايلين) ، ثم تفجرت مرة أخرى في نفس مساء يوم المعركة ، بعد أن زادت الكارثة من مرارتهم . وراح مناصروا لموسيان و كورنشاى يلقون بمسؤولية الكارثة على ريموند أمير طرابلس ؛ بينما وجد أصدقائه ريموند - وهم آل ايلين وآل حارثيه وأغلب البلاء المحليين - أسبانياً أفضل ليلقوا باللائمة على ضعف الملك حوي ونفوة فرسان المعبد وريتلاند (أوف شاتيلون) . والألم مات ريموند وريتلاند ؛ ولكن الرأفة لم تمت . ذلك أن البلاء الذين حرّموا من أملاكهم وغلثوا محبوسين وسط الحشود وراه أسوار صور لم يكن لديهم ما يملونه سوى نقاذف الاتهامات بين بعضهم البعض . والآن وبعد أن تخلص باليان وأصدقائه من الأسر كحلوا عن قلوبهم لكونراد (أوف مونتفرات) زعيماً لهم معتبرين أنه الوحيد الذي انقذ صور ؛ أما مناصروا جنوى الذين برزوا من السجن بعد أن انتهت أسوأ مراحل الأزمة ، فلم يكن في ناظرهم سوى متطفل وغريم محتمل لملكهم . ولقد جاء الإفراج عن حوي ، وهو أسير أبعد ما يكون عن

(١) عن مشكلة الإفراج عن حوي وسكان و زمان الإفراج عنه بدلة النظر اعطاء الجزء الثاني من ١٢٢ ، ٢٠٤ مع التراجع . وراجع Emory (p. 233) وتاريخ هرقل (١٢١) Eracles وبعاء الدين P.P.T.S. (١٤٣) إلى قسم حوي بعدم حمل السلاح ضد المسلمين . ويقول تاريخ Anonymus إلى عهد بيان ببحر الملكة (p. 25) كما يقول Ambroise (col. 70) إلى عهد بامبردة غير البحر . وبعد ذلك قال حوي إلى لوفى بوفده بالذهاب من طرابلس إلى جزيرة رودس (Entaire d'Eracles, II, p. 131).

تقوية الفرنج ، ليصل بالشاححات إلى ذروتها<sup>(٢٧)</sup>.

#### ١١٨٨ م : المنافسة بين جوي وكورنراد

وانسحبت للملكة سيبلا إلى طرابلس، وربما كانت مدفوعة في ذلك بالرغبة في الغرب من الجو المعادي لزوجها . وبموت ريموند في حريف ١١٨٧ م ، انتقلت طرابلس إلى الابن الأصغر لابن عمه ، برهمند الأنطاكي الذي كان مستهزأ لا يبال بشئ ، ولذا ربما سرّه تعزيز الحماية في طرابلس ولم يعبأ بتجمع أنصارها اللوسينيين حولها . ولحق بها جوي فور إطلاق سراحه ، وعلى الفور عثر على أسيد القساوسة ليحرره من قسسه الذي تقسمه لصالح الدين . إذ كان قسما تحت الإكرام والأحد الكفرة ولذا قالت الكنيسة إنه قسم باطل . وأغضب صلاح الدين أن يسمع بذلك غير أن دعشته جاوزت كل حد . وبعد أن زار جوي أنطاكية حيث وعده برهمند وعفا مبيها بالمساعدة سار مع مناصريه من طرابلس إلى صور متربها الاستيلاء على ما تبقى له من مملكته القارية. وأغلق كورنراد البوابات في وجهه ، فكان كورنراد وحزبه يرون أن جوي قد عسر المملكة في سطون وأثناء أسره ، وقد تركها بلا حكومة ، وكان كل شئ خليقا بالضياع لولا تدخل كورنراد . ولما طلب جوي أن يجرى استقباله كملك ، كان رد كورنراد أنه يحتفظ بصور أمانة لعمال الصليبيين الآتين لإفقاد الأراضي المقدسة ، وعلى الإمبراطور فريديريك وملكى فرنسا وانجلترا أن يقرروا لمن تعطى الحكم في نهاية الأمر . وبدا الجدل عادلا ومناسب كورنراد تماما ؛ إذ ربما يهمل جوي في مطلبه بتأييد ريتشارد ملك انجلترا وهو السيد الأعلى للوسينيين في حين (محبوب غرب فرنسا) ؛ ولكن الإمبراطور فريديريك ووليب ملك فرنسا من أبناء عمومة كورنراد ومن أصدقائه . وعاد جوي مفتحا مع حزبه إلى طرابلس<sup>(٢٨)</sup> . وشر الصليبيون لإنتعاج صلاح الدين في تلك الآونة باحتضار القلاع في شمال سوريا، وقد سرح جيشه تسريحا جزئيا، ثم سرح الزيد من القضاة في يناير ١١٨٩ م. وقد أمضى هو نفسه الشهور الأولى من العام في القنس وعكا بعد تنظيم حكومة فلسطين ، ثم عاد إلى عاصمته دمشق في مارس<sup>(٢٩)</sup>.

(٢٧) ابن الأثير ١١-٧٠٧، pp. ٧٠٧-٧٠٨، باللغة سيدة صلاح الدين.

(٢٨) Ambrose, cols. 71-3; Eusebius, n. pp. 123-4; Emoul, pp. 256-7; Eusebius d'Éreux, n. pp. 123-4; Ambrose, cols. 71-3; Eusebius, pp. 59-60.

(٢٩) Abu Shama, pp. 380-1; Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 140-1.

وفي أبريل عاد جوي مع سبيل إلى صور و مرة أخرى طلب منحه السيطرة على المدينة ، ولما وجد أن كونراد شديد العداء كسابق عهده ، عسكر أمام أسوار المدينة . وفي نفس الوقت تقريباً وصلت تعزيزات قيمة من الغرب . ففي وقت سقوط القدس ، كانت مدينة بيزا وحنوا لخوضان واحدة من الحروب المتعاقبة بينهما ، ومن بين المحاربات البابا جريجوري الثامن أثناء باورجه القصيرة، مفاوضات الهدنة بينهما والوعد بأسطول من بيزا في حملة صليبية . وأمر أبناء بيزا قبل نهاية العام لكنهم أفضوا الشتاء في ميناء ميسينا الواقع شمال شرق صقلية ، ووصلت سفنهم البالغ عددها اثنتين وخمسين سفينة إلى صور يوم ٦ أبريل ١١٨٩م تحت قيادة أوبالدو رئيس أساقفتهم . ويبدو أن أوبالدو تشاور مع كونراد بعد وصوله مباشرة ، وعندما ظهر جوي ، انضم إليه أبناء بيزا . كما أنه فاز بتأييد القوات الصقلية التي انضمت إليه . وفي بداية الصيف حدثت بعض المناوشات الطفيفة بين الفرنج والمسلمين ، غير أن صلاح الدين كان ما يزال يرغب في أن تسريح جيوشه ، وكان المسيحيون ينتظرون المزيد من المساعدة من الغرب . وفيحاجة هدم الملك جوي معسكره في نهاية أغسطس وانطلق مع كتيبه جنوب الطريق الساحلي للهجوم على عكا ، وأبحرت سفن بيزا وصقلية بمحاذاته.

#### ١١٨٩م : جوي يصل أمام عكا

وكانت تلك حركة من حركات التهور اليائس ، وقرار رحيل شجاع لكنه في ذات الوقت غاية في الحساسية. فبعد أن أحبطت رغبة جوي في أن يحكم صور ، شعر بحاجة الملحة إلى مدينة يستطيع منها أن يعيد إنشاء مملكته . وكان كونراد آنذاك في شدة المرض ، ورأي جوي الفرصة سانحة لكي يظهر أنه هو القائد النشط للفرنج ، لكن المخاطرة كانت هائلة . ذلك أن حجم الحماية الإسلامية في عكا يتجاوز ضعف حجم جيش جوي كله ، فضلاً عن وجود قوات صلاح الدين النظامية في متناول اليد. ولم يكن أحد يتوقع النجاح لهذه الغامرة ، لكن للتاريخ مفاجاته . فإذا كان كونراد يطاقته الجماعة هو الذي أُنقذ بقايا فلسطين للعالم المسيحي ، فإن حماقة جوي العاتية هي التي حوكت الله وبدأت حقبة جديدة من إعادة الغزو<sup>(٨)</sup>.

كان صلاح الدين في الشلال الواقعة وراء صيدا يحاصر قلعة بروفورت عندما

(٨) Ertel, p.257; Estève d'Eraclea, II, pp.124-5; Ankerboise, cols.73-4; *Almoucarim*, pp.60-62; Bach ed-Din P.P.T.S, pp.143-4

وصلته أنباء حملة حوي . وكانت القلعة مشيدة على منحدر صخري شاهق وتبع لربنالد أمير صيدا وقد بقيت حتى آنذاك بما كان لسيدتها من مكر . إذ أنه ذهب إلى بلاط صلاح الدين وسحر السلطان وحاشيته بالظهار تقديره العميق للأدب العربي واعتنامه بالإسلام ، وللع إلى أنه إذا توفر له بعض الوقت فسوف يستقر في دمشق بعد أن يتحول إلى الإسلام . غير أن الشهور انقضت ولم يحدث شيء سوى تولية تحصينات قلعة بيوفورت . وأخيراً قال صلاح الدين في أوائل أغسطس إن الوقت قد حان لكي تستسلم قلعة بيوفورت وتبقى ثلاثة ضمان لربنالد ، الذي أخذته للسلحون تحت الحراسة حتى بوابة القلعة حيث أمر قائد الحامية بتسليمها باللغة العربية ، وأن يتكلم باللغة الفرنسية . ولم تعطى الحديقة على العرب ، لكنهم كانوا لساندي الحيلة لا يستطيعون الاستيلاء عليها بالمعوم ، وبينما كان صلاح الدين يجمع قواته لمحاصرتها ألقى برنالد في السجن في دمشق<sup>(٩)</sup> . وطن صلاح الدين بادي الأمر أن مسورة حوي تستهدف سحب الجيش العربي بعيداً عن قلعة بيوفورت ، غير أن حواسيسه سرعان ما أخبروه أن حوي يريد عكا . وعندئذ أراد صلاح الدين مهاجمة القلعة أثناء صعودهم سلم صور أو لسان النقرة ، لكن مجلسه لم يوافق وأما رأي الأفضل أن يترك الفرنج يصلون إلى عكا لكي يتقوا بين الحامية وحيش صلاح الدين الرئيسي . ولم يكن صلاح الدين على ما يرام آنذاك ، فوافق على ما ارتأه أنقلس وهو في حالة من الوهن<sup>(١٠)</sup> .

وصل حوي إلى مشارف عكا يوم ٢٨ أغسطس وضرب معسكره على تل تورون، حالياً تل القنار، الذي يبعد مسافة ميل شرقي المدينة ، على نهر يلوس الصغير كي يزود رجاله بالماء . وبعد ثلاثة أيام فشلت محاولته الأولى في الهجوم على المدينة ، فلبث ينتظر التعزيزات<sup>(١١)</sup> . وكانت عكا قد بنيت على شبه جزيرة صغيرة تامة في خليج حيفا ، فوفر لها البحر الحماية من الجنوب والغرب وكذلك حاجر الأمواج القوي . وكان هناك حاجر لمواج متهدم يمتد باتجاه الجنوب الشرقي إلى صخرة يكلها حصن يدعى برج الذباب Tower of Flies ووراء حاجر الأمواج مرفأ لا يؤثر فيه سوى رياح البحر البعيدة عن الشاطئ. وأما شمال المدينة وشرقها فقد توفر لها الحماية بأسوارها العظيمة التي تتلقى في الركن الشمالي الشرقي برابوة قائمة مع حصن يدعى البرج

(٩) Behn ed-Din, P.P.T.S. pp. 140-3, 150-3. (٩)

(١٠) Ibid. pp. 154, 175; Ibn al-Athir, II, p.6; Anbaise, cols. 74-5. (١٠)

(١١) Emsal, pp. 358-9; Envoie d'Envoies, II, pp. 125-6. (١١)



الملعون. Cursed Tower. وكانت البرابشات الأرضيات تقعان في نهاية كل سور من السورين على الشاطئ، وكانت هناك بوابة ضخمة تفتح في الرقعة، وبوابة ثانية تفتح على مرسى مخصص للرياح الغربية المستدامة. وكانت هناك في قلل ملوك الفرنج أغنى مدينة في المملكة ومكان إقامتهم المفضل، وذاك ما كان صلاح الدين يزورها خلال الأشهر الأخيرة وقد اعتنى باصلاح الأضرار التي سببها جنوده أثناء الاستيلاء عليها. والآن أصبحت قلعة قوية بها حامية جيدة ومؤن وفيرة وحديقة متقاربة طويلة<sup>(١٢)</sup>.

وكانت التعزيزات قد بدأت تصل من الغرب في أوائل سبتمبر. فحاء أولاً أسطول كبير يحمل الدانمركيين والفرنزيين (قاطنو شمال هولندا)، وهم جنود لا يعرفون الانضباط لكنهم ملاحون مهرة كانت سفنهم ذات فائدة بالغة في احكام الحصار حول المدينة من البحر، وخاصة عندما أدى موت وليسم الصقلي في نوفمبر إلى انسحاب الأسطول الصقلي<sup>(١٣)</sup>. وبعد أيام قليلة جاءت سفن من إيطاليا تشمل كتاب البحري من الفلاندرز وكتاب الفرنسيين، بقودهم القارس التقدم جيمس (أوف آفيريون)<sup>(١٤)</sup>، وكذلك كوكتات بأروبرين وبريو، وفيليب أسقف بوليه. وقبل نهاية الشهر جاءت فرقة من الألمان بقيادة لويس، الحاكم العسكري في تورينجا، الذي فضل السفر مع أتباعه بحرا على مرافقة الامبراطور. وكان معه كونت جيلدرز وفرقة من الإيطاليين بقيادة حيدر وريس أساقفة رافينا وكسقف فيرونا.

#### ١١٨٩ م : صلاح الدين ينتقل إلى عكا

شعر صلاح الدين بتخطر هذه التعزيزات، وبدأ يستدعي أتباعه مرة أخرى فحاربوا مع جزء من جيشه من يوفورت، تاركين فصيلة صغيرة لتتبع إخمضاع الحصن. ولم يفلح هجومه على معسكر بحري يوم ١٥ سبتمبر، غير أن ابن أخيه تقي الدين تمكن

(١٢) من عكا انظر Eilat ج. 29، pp. 29. Les Monuments des Croisés, vol. II, pp. 75-6. ويرد وصف للمدينة

(١٣) Etoile d'Eracles, II, pp. 127-8, Ambroise, col. 77 وذكر تيموثي بحارة من Le Marche في وسط فرنسا و Comwall أقسم حارب الفلوا. pp. 64-5. Jinnarism, pp. 64-5. في Biant انظر Expéditions des Scandinaves, pp. 277-83

(١٤) عن James of Armes لفر 94-5, Benedict of Peterborough, I, pp. 94-5. Ambroise, loc. cit. وردد الحاكم العسكري في ٧٣-٦٠ ورد ذكره في Jinnarism. ورد ذكر أسقف Bourne الحاكم العسكري في ٧٣-٦٠ ورد ذكره في الإيطاليين

من احتراق خطوط الفرنج وإقامة اتصال مع البوابة الشمالية للمدينة، وضرب معسكره هو نفسه إلى الشرق قليلا من معسكر السجيين. وسرعان ما شعر الفرنج بقدرتهم على أخذ زمام الهجوم. وبينما كان لويس (أوف تورينجيا) ساريا بعبور ألتش كونتراد (أوف مونترات) بالانضمام إلى الجيش الفرنجي، مثلما وأنه لن يكون مضطرا إلى الخضوع لأوامر جوي. وفي ٤ أكتوبر، وبعد أن حصن الفرنج معسكرهم الذي تركوه تحت قيادة جودفري أمي جوي، شنوا هجوما كبيرا على خطوط صلاح الدين. وكانت معركة مرمرة<sup>(١٥)</sup> ذلك أن بقي الدين الذي كان على ميمنة العرب انسحب نحوها لينصب كميناً لفرسان المعبد الذين كانوا قبائله، لكن صلاح الدين لم يتنه للمناورة وانطلق لانتفاذه فأضعف واسطة جيشه وكانت النتيجة أن تداهم الوسط والميمنة فاستداروا هاربين بعد أن تركت بهم خسائر فادحة، ولم يكن بعض عتات جياذهم إلى أن وصلوا إلى طرية، بل أن كونت برين توغل حتى حيمه صلاح الدين نفسه، لكن مسيرة العرب كانت متماسكة، وعندما تفرقت صفوف المسلمين لمطاردة الهاربين، هاجمهم صلاح الدين بالمسيرة وردهم وهم يفسرون في فوضى إلى معسكرهم الذي كان يتعرض في نفس الوقت لهجوم عنيف قامت به حامية عكا. وصمد جودفري (أوف لوسينان) في المعسكر، وسرعان ما أصبح الجزء الأكبر من الجيش المسيحي أمنا خلف دفاعاته، ولم يشأ صلاح الدين أن يجازف بالهجوم عليهم. وسقط الكثير من فرسان الفرنج على أرض المعركة ومن بينهم آندرو (أوف برين)، وأصيب الجنود الألمان بالذعر ولجأت بهم خسائر جسيمة، كما كانت خسائر فرسان المعبد جسيمة هي الأخرى، إذ أسر سيدهم الأعظم جيوار (أوف ويندفورث)، وهو الذي كان يمثل العبقرية الشيطانية للملك جوي في الأيام التي سبقت حملته، ودفع حياته فداء لحماقاته. ولم يفلح كونتراد نفسه من الأسر سوى تدخّل غريمه الشجاع للملك جوي<sup>(١٦)</sup>.

ولقد كان النصر في جانب المسلمين، وإن لم يكن كاملا، إذ لم يرح المسيحيون مكانهم! وأثناء الخريف جاعم المزيد من المساعدة من الغرب، فقد وصل أسطول

(١٥) Ambrose, cols. 78-81; Misseriwe, pp.68-72; Ralph of Diceto, II, p.70; Estoire (١٥) p.162-9. إذا كان حاضرا هو نفسه. ولا تطلق رواية لدا الرواية الواردة في Misseriwe، فهو لا يذكر أي خروج قامت به الحامية. ويصف المؤرخ في مسكت 415. Abu Shama, pp. 154-62. 22.

اللذنين. في نوفمبر بعد أن شد من لوزة ما أجزءه من نجاح في البرتغال<sup>(١٦)</sup>. ويتحدث المؤرخون عن مجيء صليبيين آخرين كثيرين من غلاء فرنسا ومن فلاندرز وإيطاليا، وحتى من هنجاريا والدانمارك<sup>(١٧)</sup>. وقد رفض الكثير من فرسان الغرب التفكير في أسيادهم المتناقلين. وبهذه القوات الإضافية تمكن الفرنج من استكمال حصار عكا من قبل. لكن صلاح الدين كان يلقى التعزيزات هو الآخر، إذ أن أبناء الزنغال الأسباطور فريدريك بارباروسا التي شجعت المسيحيين دفعت صلاح الدين إلى استدعاء أتباعه من سائر أنحاء آسيا، بل أنه كتب إلى مسلمي الغرب وإسبانيا قائلا إنه إذا كان العالم المسيحي الغربي يرسل فرسانه للحرب من أجل الأراضي المقدسة، فينبغي لغرب العالم الإسلامي أن يفعلوا مثله. فأجابوه بعبارة التعاطف وأثابا بالتزكيات من المساعدة الإيجابية<sup>(١٨)</sup>. ورغم ذلك سرعان ما غدا عيشه ضيقا بما فيه الكفاية لكي يتمكن بيلوره حصار المسيحيين أو يكاد، وإذن لم يمسس المخاضيون بحماضين. وفي ٣١ أكتوبر اعتذرت خمسين سفينة من سفن الأسطول الفرنجي، وأن كان ذلك يعض الحصار، وحللت الطعام وتكون إلى داخل عكا، وفي ٢٦ ديسمبر أعاد الأسطول من مصر (أرمادا) فتح المواصلات مع القرص<sup>(١٩)</sup>.

#### ١١٩٠ م : توقف إيجاري للفرجين

واجه الجيشان بعضهما طوالت الشتاء لا يقاسر أيهما بأشياء عام. وقد كانت بينهما منازعات وصراعات، غير أنه كان هناك في الوقت نفسه احتكاك ودي سرى بينهما، وبدأ الفرسان في الجائزين يعرفون ويحرمون بعضهم، وقد يحدث توقف للحرب بينما الزعماء ينتهون بمناقشة ودية، وكانت الدعوة توجه إلى حدود الأعداء لحضور الاحتفالات والسمير في كل من المعسكرين، وفي أحد الأيام أهدى صبية صغار يعيشون في معسكر العرب الصبية المسيحيين في معركة وهمية مريحة. وتميز صلاح الدين نفسه

(١٦) بورد *Itinerarium* تاريخ على أنه سيمور. على أنه إذا صحت التاريخ فهي كوردعا *Benedict* و *Ralph of Diceto* (١١٩٠)، p. 9, n. 6. يكون شهر نوفمبر هو أكثر تاريخ تستطع السفن فيه أن تعمل إلى سوريا

(١٧) *Itinerarium*, pp. 73-4; Ambrose, col. 84.

(١٨) Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 171, 173-8; Abu Shama, pp. 497-506.

(١٩) *Itinerarium*, pp. 77-9; Ambrose, cols. 84-5; Abu Shama, pp. 430-1.

بما أظهره للأسرى المسيحيين من طيبة وما كان يرسله إلى الأمراء المسيحيين من هدايا ورسائل تنصف بالود. أما الأكثر تعصبا من أتباعه فكانوا ينساقون عما حدث للجهاد الذي توسل صلاح الدين إلى الخليفة أن يشر به ، كما أن هذا الجسر القريب استمضى على فهم الواقفين الجدد من فرسان الغرب . ومن الناحية الظاهرية ، كانت الحرب حلوا من الزارة ، لكن الجانبين كليهما كانا يصران استمراراً صارماً على النصر<sup>(٢٠)</sup>.

وبرغم نوايا الكياسة هذه كانت الحياة في معسكر المسيحيين صعبة ذلك الشتاء إذ نقص الطعام ولا سيما بعد أن فقد الفرنج السيطرة على البحر . وبالقرب الأحوال الحربية الأكثر دفئا أصبحت المياه مثل مشكلة وانهارت تراثيات المرافق الصحية ، فانتشر المرض بين الجنود . ودفعت تلك الضعاف كلا من جوي وكورنارد إلى عقد اتفاق بينهما يقضي بأن يحتفظ كورنارد بصور ، وكذلك بيروت وصيدا بعد استردادهما ، على أن يعترف بجوي ملكا . وبعد أن أبرما السلام بينهما على تلك المدينة غادر كورنارد المعسكر في مارس وعاد في نهاية الشهر بسفن محملة بالطعام والأسلحة ، وأنتج أسطول صلاح الدين من ميناء عكا لاعتراضه ، على أنه بعد معركة حامية الرطيس ردت سفن العرب برغم استعدادها للتناز الأغريرية ولكن كورنارد من النزول إلى الشاطئ ومعه المليون . واستغل الفرنج المواد التي أحضرها فشيّدوا أبراج حصار خشبية حاولوا بها الهجوم على المدينة يوم ٥ مايو ، غير أن الأبراج أحرقت<sup>(٢١)</sup>.

وسرعان ما عاد ظهور المجاعة والمريض في معسكر المسيحيين الذين شعروا بتقليل من العزاء عندما سمعوا بوجود جماعة في عكا أيضا ، رغم أن السفن العربية كانت تشق طريقها حريا إلى داخل الميناء من حين لأخر حاملة معها مولانا جديدة<sup>(٢٢)</sup>. ودأبت فصائل من المسلمين طوال الربيع على الانضمام إلى جيش صلاح الدين . وفي ١٩ مايو، يوم السبت السابع<sup>(٢٣)</sup>، بدأ في مهاجمة المعسكر الذي صمد لثمانية أيام من الحرب<sup>(٢٤)</sup>. وفي يوم ٢٥ يولية ، وهو يوم القديس جيمس ، دارت رحى معركة على نطاق شامل

(٢٠) Abu Shama, pp. 412, 433, Ibn al-Athir, II, pp. 6, 9.

(٢١) *Itinerarium*, pp. 79-85; *Ambrosius*, cols. 85-92; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 178-80, Ibn al-Athir, pp. 18-21.

(٢٢) *Itinerarium*, pp. 85-6, 88, Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 181-2.

(٢٣) (الرحم) السبت السابع Whit Saturday بعد عيد الفصح ، قبل عيد الشوك القديس في عيد الحبيب أو الصخرة (Pentecost) بعد العيد القديم ، عيد الرحيل ٢١.

(٢٤) *Itinerarium*, pp. 87-8.

حدث فيها أن قام جنود الفرنج بقيادة شباط الصنف، وضد رغبة قادتهم، بهجوم جرئ على معسكر تقي الدين على مينة صلاح الدين، لهزموا هزيمة منكرة وهلك الكثير منهم، وحُف لحداتهم رالف (أوف النا ريبا)، وهو صليبي انجليزي مرسوق، ورئيس شماسية كولشيستر، وقتل في المعركة<sup>(٢٤)</sup>.

وخلال الصيف جاء إلى المعسكر صليبيون آخرون وفجئوا النسيب حيث لقوا الترحيب رغم أن كل حندي جديد كان يعني فما جديدا يتعين إعتقاده. وكان من بينهم الكثير من أعظم النبلاء الفرنسيين والبرجاليين، الذين اسرعوا بالهجرة يسبقون مليكهم. فكان من بينهم تبالد كونت بلوا، وأخوه ستيفن (أوف سانتير) والذي سبق أن عثر عن الزواج بالملكة سبيللا، ورالف كونت كليرمونت، وجون كونت فورتني، وألان (أوف سانت فاليري)، مع رئيس أساقفة بيزانسون وأساقفة بلوا وتول وعمرهم من رجال الدين البسارزين. وكانوا تحت إمرة هنري (أوف ثرووي) كونت شامباني، وهو شاب مرسوق للغاية إذ أن أمه - ابنة البشور الأكثانية من زواجها الفرنسي - كانت اختا غير شقيقة للملكي المملوكا وفرنسا، وكان كل من خاليه يقتله تقديرًا عاليًا. وفي الحال حصل على مركز خاص كمندوب للملكين ومبعوثهما. وتولى زمام عمليات الحصار البخارية التي كان يديرها حتى آنذاك جيمس (أوف الفرن) ولاند جريف (أوف نورديشيا)<sup>(٢٥)</sup> واستغل لاندجريف وصوله ليعود إلى أوروبا بعد أن كان مريضًا لبعض الوقت، وربما بالملاريا<sup>(٢٦)</sup> ووصل فريديريك (أوف سوابيا) مع بقايا جيش باريباروسا إلى عكا في أوائل أكتوبر<sup>(٢٧)</sup> وبعد أيام غلال هبطت في صور فصيلة البخارية وسارت جنوبًا إلى عكا. وكان على رأسها بالدوين، ورئيس أساقفة

(٢٤) 83-4; Ambrose, cols. 93-4; *Disseminum* pp. 89-91; ويطلق ليمورال في نهاية تاريخ معركة وتقول لها وقعت في يوم القديس جون بدلًا من يوم القديس جيمس (151). *Envoir d'Enoch*, II, p. 151; Beta ed-Din, P.P.T.S. pp. 193-6.

(٢٥) 92-4; Ambrose, col. 94; Beta ed-Din, P.P.T.S. p. 197. هنري الأول كونت شامباني. وكان تبالد (أوف بلوا) وستيفن (أوف سانتير) الأخوين الصغيرين لأبيه. وكانت همت Alix زوجة لفيو للملك لويس السابع، وأم الملك فليب الذي كان لذلك ابن حتمه من الدرجة الأولى وعنه من الدرجة الثانية.

(٢٦) مات لاندجريف في طريقه إلى الوطن ووصفه Ralph of Diceto بأنه كان على علاقة بالاعتداء وقيل منهم الأكرال (82-3). (II, pp. 82-3).

(٢٧) Abu Shama, p. 474. جاده التاريخ على أنه ١ أكتوبر 1213; Beta ed-Din P.P.T.S. pp. 209, 213; *Disseminum*, pp. 94-5.

## ١١٩٠ م : قتال منهاوش

انقضى الصيف كله في قتال منهاوش، وكل جانب ينتظر التعزيزات التي تمكنه من أخذ زمام المحوم، فبعد أن استولى رجال صلاح الدين على بسروت، انضموا إليه في عكا، لكنه كان قد أرسل جنودا للتصدي لفرينريك باريباروسا في الشمال، ولم يعودوا حتى الشتاء. وفي تلك الأثناء انقلبت المناوشات إلى احتلال ودي. ولاحظ مؤرخو المسيحيين، والرضا يأخذ بالبابهم، عدة أحداث أنهم فيها الرب على المطرلة الصليبية وحب مساعي العرب، لكن جميع محاولاتهم لتسليق أسوار عكا بايت بالفشل. وشن فرينريك (أرف سوابيا) بعد وصوله مباشرة هجوما شرسا، حاول بعده رئيس أساقفة بيسانسون دك المدينة بالآلات حصار منجنيقة متطورة شيدت حديثا. ولم يكن هناك طائل من أي من الهجومين<sup>(٣٠)</sup>، وفي نوفمبر تدير الصليبيون زحزحة صلاح الدين عن موقعه في تل قيسان الواقع على بعد خمسة أميال من المدينة، لكنه وسع قواته في موضع أقوى في تل عروبا الأبعد قليلا، وقد مكثهم ذلك من شق طريق إلى حيفا في بعدة للبحث عن الطعام خففت قليلا بعض الجوع في المعسكر. على أن كلا للمدينة والمعسكر كانا يعانيان من الجوع والمرض، ولم يكن أي منهما في وضع يمكنه من بذل أقصى جهده<sup>(٣١)</sup>.

## ١١٩٠ م : زواج كونراد وايزابيلا

كانت الملكة سيبلا من بين ضحايا المرض ذلك الحريف، وقبل وفاتها بأيام قلائل كانت البنات الصغيرتان أليسان وألتهما للملك حوي قد لقيتا حتفهما<sup>(٣٢)</sup>. والآن

(٣٩) *Itinerarium* p. 93.(٣٠) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 214-18; Abu Shama, pp. 480-1; *Itinerarium*, pp. 97-109 ويرد في *Itinerarium* أحداث معجرات شترة وفي الصفحات ١١-١٠٩ هجوم على برج القديس وفي الصفحات ١١٣-١١١ هجوم رئيس أساقفة بيسانسون ١٠٩٨-١٠٩٩ *Ambroise*, cols. 98-104.(٣١) *Itinerarium*, pp. 115-119; *Ambroise*, cols. 105-8; Abu Shama, pp. 513-14.(٣٢) Emsw, p. 267 *Estoire d'Eracles*, II, p. 151 حيث ورد أن اثنين على أنهما كيسي وماريا 2671 *Emos*, الذي يقول أنها كان لها أربعة أطفال، وترجع *Ambroise*, col. 104 تاريخ وفاتها في نهاية أغسطس.

أصبحت الأميرة أريابلا هي وريثة للملكة، وبات عرش جنوي في خطر، إذ أنه قد فاز بالتاج كزوج للملكة. فهل تبقى حقونه بعد وفاتها؟ أما بارونات الملكة السابقين على قيد الحياة، بقودهم باليان (أوف ايبيلين) فكانت تلك فرصتهم كي يخلصوا من حكمه الضعيف للشؤون. وكان مرشحهم للتاج هو كونيارد (أوف مونتفرايت). فلما أنه استطاع أن يتزوج أريابلا لصلوات مطالبته القوي من مطالبة جنوي. وكانت الصعوبات تكثف هذا الحل، إذ أن شقيقاته قد انتشرت بأن كونيارد لديه زوجة تعيش في القسطنطينية، وربما زوجة أخرى في إيطاليا، ولم يعبأ البتة بمحاولة إلغاء الزواج أو الطلاق. لكن القسطنطينية وإيطاليا بعيدتان، وإن كانت فيهما سيدتان مهجورتان في الأماكن نسبتهما. على أن المشكلة الأصغر كانت تتمثل في زواج أريابلا من همفري أمير تين الذي لم يكن على قيد الحياة وحسب، وإنما موجود أيضا في المسكر. وقد كان همفري شابا فاتنا وشجاعا ومتفقا، لكنه كان وسيما بصورة أقوى بحيث لم يكن الجنود الغلاط من حوله يترجمونه، كما لم ينس البارونات خط ضعفه الذي دفعه إلى التحلي عن لقبهم عام ١١٨٦م عندما نال جنوي التاج متحديا للشروط الواردة في وصية الملك بالدوين الرابع. فقرروا أنه لابد وأن يطلق. وكان من اليسر اقتراف همفري نفسه بالوثيقة على الطلاق، إذ لم يكن مناسباً للحياة الزوجية؛ فضلا عن أنه ابتلا رعا من المسؤوليات السياسية. غير أن أريابلا كانت أثقل انقيادا منه، إذ كان همفري دائما لطيفا معها، ولم ترغب في استبداله بمحارب مقبوت في لواسط عمره، ولا طموحات لديها للتاج. وترك البارونات الأمر لأمرها المنتشرة الملكة ماريا كوميتا، زوجة باليان. فمارست عليها سلطة الأمومة التي دفعت الأميرة العازلة في نهاية الأمر إلى أن تهجر همفري. ثم أعلنت أسماء الأساقفة المختارين أن حال الأميرة، بالدوين الرابع، قد أسوأها على الزواج وأنها لم تكن قد تجاوزت عاشرها الثامن عندما تمت تربيته الارتباط. وحيث أنها في شرخ الشباب، وبالنظر إلى ما هو معروف عن همفري من نكث، فلا بد من إلغاء الزواج. وكان الطريق هيراكليوس في شدة المرض بحيث لم يتمكن من حضور الاجتماع وعين رئيس أساقفة كنزيري ليكون محله. ولأن هذا الأخير يعلم مدى شغف سيده الملك ويشجعه بإنهاء لوسيتان، فقد رفض التلق بالبطال الزواج، وإنما ذكر زواج كونيارد السابق وأعلن أن الزواج بين

يصادق في إحدى عقرمات Emest تاريخ ١٥ يوليو. وفي وثيقة عمرية في عكا بتاريخ شهر سبتمبر ١١٩٠م ورد فيها على أنها على قيد الحياة، ووردت على أنها سنة في رسالة مورقة في ٢١ أكتوبر Epistolae Constantinae, pp. 228-9. وبقرول Heinrich في Argem. Addmonition, p.67. إنفا مات يوم ١ أكتوبر ١١٩٠.

كونراد وإيزابيلا لن يكون سوى انتماس في علاقة زنا . على أن كونراد كان قد فاز برئيس اساقفة بيزا الذي كان مندوبا بابوا، المناصرة قضيته في مقابل - هكذا قيل - امتيازات تجارية لأبناء بلدته . وقام اسقف بوليه - وهو من أبناء عمومة الملك فيليب - باستغلال موازنة المنسوب البابوي لضمان الإنفاق العام على طلاق إيزابيلا ، وقام هو نفسه بتزويجها من كونراد يوم ٢٤ نوفمبر ١١٩٠ م . وشعر أبناء لوسيتان بالخلق من هذا الزواج الذي أطاح بحق حوي في العرش ، وتماطفت معهم للغاية أتباع الملك وبتشارد القادمين من انجلترا ونورماندي وغيرهم<sup>(٣٣)</sup> . كما يلدوين رئيس الأساقفة ، وهو متحدثهم الرئيسي ، والذي راح يقذف لوامر الطرد من الكنيسة لكل من له صلة بهذا الأمر ، فقد مات فجأة يوم ١٩ نوفمبر . وبذلك للأورسون الإنجليز كل ما في وسعهم لتطليح ذكرى كونراد . ومضى حوي نفسه شاكوا بعيدا بحيث تعهدى كونراد للاقائه في زوال فردى ، لكن كونراد رفض حتى يقول مناقشة هذا الأمر ، بعدما أيقن من أن حقه المشروع قد أصبح الآن في حياته ، وقد رمى أبناء لوسيتان كونراد بالطين . غير أن كل من كان حريصا على مستقبل المملكة كان على يقين من أنه لكي يستمر الخط الملكي ، كان ينبغي لإيزابيلا أن تتزوج مرة أخرى وأن تحجب طفلا ؛ وكان من الواضح أن كونراد ، الذي اتفق صور ، هو الذي يقع عليه اختيارها . ومكث العروسان في صور حيث ولدت إيزابيلا في العام التالي بنتا سُمّتها ماريا كي تكون سميّة ببلدتها البزنطية . وكان كونراد - عفا في وقته لقب الملك إلى أن يتم تزويجه هو وزوجته ، ورفض العودة إلى المعسكر لأن حوي رفض التنازل عن أي من حقوقه<sup>(٣٤)</sup> .

(٣٣) (الترجم: Guienne, Guyenne: منطقة تاريخية تقع جنوب غرب فرنسا.

(٣٤) Errard, pp. 267-8. وترد الرواية الأكثر اكتمالا وبأسلوب يخلو من الحوى في الجزء الثاني ، الصفحات ١٠١-٤ من *Estoire d'Eracles* ، أما الروايات الواردة في 110-122 ، *Antoine, cols.* وفي 119-24 ، *Divonirion* ، فكلها مستمدة من المصدرة المبررة بإدراك كونراد ووليام والمملكة ماريا كوسينا. وقد جاء في *Historiarum* أن إيزابيلا رفضت طواعية، عندما سئل كونراد في *Eracles* أنها لم ترض إلا لأن رعاها كان راعيا لها سياسيا. واستادا إلى *Errard* ، رضي هنري بالطلاق لأنه حصل على الرشوة . فمعه إيزابيلا يحتفظ بالقبضة تدبير التي كانت في صورة حده . لم ضمها يلدوين الرابع إلى قناع . وبهذا كانت زوجة كونراد الإيطالية قد ماتت قبل زواجه من الأميرة البيزنطية نيكيتورا أماليا (Nicetas Chonates, p. 497) ومن أسلوب رواية الفروع نيكيتس بتسلي أن زوجته البيزنطية كانت قد ماتت هي الأخرى (الرجع السابق) [pp. 516-17] ولما حوي يوف سيبلس الذي عرض تحدي هنري في نزال هذا عارض القتال ، فقد أسره العرب عشية الزواج



## ١١٩١ م: المجاعة في المعسكر الفرنجي

واستمر الصليبيون في بلاياهم طوال أشهر الشتاء ، ووصلت صلاح الدين تعزيزاته من الشمال وبات الشتاء عكسا الآن حول معسكر الفرنج ، فلا الطعام يصلهم برا ولا البحر لمواقع القادر شتاءً يسمح بتوصيل الكثير إليهم في أشهر الشتاء ، بينما تستطيع سفن العرب أن تشق طريقها حرا من حين لآخر إلى الرقعة في عكا. ومن بين اللصوصيات الذين تلقوا حتفهم من المرض في المعسكر تيبالد (أوف بلوا) وأندوه ستيفن (أوف سانسير)<sup>(٣٥)</sup>، وفي ٢٠ يناير ١١٩١ م مات فرينريك (أوف سوابيا)، ووجد الجنود الألمان أنفسهم بلا قائد رغم أن ابن عمه ، ليوبولد كونت النمسا الذي وصل من فينيسيا في باكورة الربيع ، حاول تظليلهم تحت رايته<sup>(٣٦)</sup>، وكسان هنري (أوف شامباني) مريضا لأسابيع كثيرة بحيث باتت زوجته يائسة من شفائه<sup>(٣٧)</sup>، والقى الكثير من الجنود ، وخاصة الإنجليز ، باللائمة على كورنراد لما هم فيه من بؤس لأنه كان يمضي الوقت بتعذيب زوجته ورفض أن يخف لمساعدتهم . غير أنه مهما كانت ذواقه ، فمن الصعب أن تخيل ما كان يوسعه أن يفعله ، خاصة وأن المعسكر كان بالفعل مزدحما بدونه<sup>(٣٨)</sup>، ومن حين لآخر كانت هناك محاولات لتسليق الأسوار ، وبصورة ملحوظة يوم ٣١ ديسمبر ، عندما تحرك حطام سفينة الخالة عربية ليُلقَ عند مدخل الرقعة ، فصرف انتباه الحامية ، لكن محاولة الفرانج باءت بالفشل . وبعد ستة أيام انهيار جزء من سور المدينة من ناحية الر ، ولم يستطع الصليبيون انتهاز تلك الفرصة كذلك ، وهرب الكثير منهم إلى المسلمين . وبقتل مساعدة صلاح الدين ، وجهاز جواسيسه الماهر ، تمكن من إرسال قوة احتوت خطوط الصليبيين يوم ١٣ فبراير ، ودخل المدينة قائد جديد وحامية جديدة لإخلاء المقاتلين عن المدينة الذين نال منهم التعب والرهق ، لكنه تردد

(٣٥) جورد المورج Haymar Moruchus موت تيبالد وأبيه في 38، De Exagitatione decore،  
المن في التي بها الصليبيون في المصادر ١٢١-٣١، مع مقابلة من الشعر لعم  
كورنراد كما أن Ambroise، cols. 112-113 يلقى «اللائمة على كورنراد» ويذكر Beha ed-Din،  
P.T.S. p.236 موت لكونت تيبالد (Tibald).

(٣٦) جورد بهاء الدين Beha ed-Din، P.P.T.S. loc.cit. موت فرينريك (أوف سوابيا) وأندوه  
Stiphris في 96، EpistolaeFriederici وصول ليوبولد ملك النمسا مع مجموعة من أبناء فرانك  
Rhénandens من فينيسيا. وأندوه الشتاء في زارا Zara وكان ابن أخي فرينريك بارباروسا،  
هرى ملك النمسا وليوبولد كورنراد.

(٣٧) Beha ed-Din، loc. cit.

(٣٨) Dussanvian، loc. cit.

هو نفسه في شن هجوم نهائي على معسكر المسيحيين ، إذ كان الكثير من جنوده في حالة إرهاق ، وعندما وصلت التعزيزات كان قد أرسل فصائل إلى أماكن بعيدة للراحة. وبدأ أن اليوس في معسكر المسيحيين يقوم بالهبة بدلا من قيام صلاح الدين بالتمارها<sup>(٣٩)</sup>.

ومرة أخرى حازر جثم صلاح الدين حد الحكمة. وبانذار فتحة الصوم الكبير للمسيحيين بدأ أن الفرنج أن يتدبروا على البقاء طويلا . فكانت عملية البنى (الديرهم الصغير الفضي) في المعسكر ثلث عشرة حبة من الفاصوليا أو ثلثا لينة واحدة ، وكان لمن حوال الجيوب مائة قطعة ذهبية . ودُبح الكثير من أكرم الجياد سدا لأقوال أصحابها . وكان الجندي العادي يأكل العشب ويتغذى ما يجده من عظام . وحاول الأساقفة ورجال الدين تنظيم نوع من التحفيف ، لكن العملية فشلت فبما كان عليه تمار يزا من نخل ، فهم الذين كانوا يسيطرون على أغلب امدادات الطعام . على أنه في شهر مارس ، وعندما بدأ كل شيء ينعش على اليأس ، وصلت سفينة مليئة بالحبوب وتمكنت من إفراغ حمولتها على الشاطئ ، وتحسن الجو ثعتها من أخرى . فكان الرحيب بها مضاعفا ، إذ أنها لم تكن تعمل المراد الغلاتية وحسب ، وإنما كانت تحمل أيضا أبناء مفادها أن ملكي فرنسا وإنجلترا قد وصلا أعورا إلى مياه الشرق<sup>(٤٠)</sup>.

(٣٩) Abu Shama, pp. 517-18; Ibn al-Athir, ii, pp. 32-3

(٤٠) Itinerarium, pp. 136-7; Arbreus, cols. 119-20



---

## الفصل الثالث:

### قلب الأسد

---

## هتلج الأسد

«لأني أتى بئر من الشمال وكسر عظيم.  
قد صعد الأسد من غابته وزحف مهلك الأسم»  
(أرميا ٤ : ٧-٦)

هبط الملك فيليب أرفسطس إلى الر عند المعسكر أمام عكبا يوم ٢٠ أبريل ١١٩١م في يوم السبت التالي لعيد الفصح ، وبعد سبعة أسابيع ، وفي يوم السبت التالي لأحد العنصرة ، هبط الملك ريتشارد ، بعد أن انقضى ما يقرب من أربع سنوات على معركة حطين وانشاء اليايس إلى الغرب للمساعدة . ورحب الجنود المرحلون المهاجرون على الساحل الفلسطيني بالملكين وقد أخذ منهم السرور كل ما أمض بحيث غفروا أو تناسوا هذا التأخير الطويل . على أن التورخ المصري يرى شيئا من العيب في رحلة ريتشارد المتمثلة الشاكسة إلى ميدان المعركة حيث كان مطلوبا بغاية السرعة.

ومن اليسر أن تفهم ترمث الملك فيليب وإثارة عدم التحمل ، إذ ليس هو بالرجل المثالي ، وإنما ذهب يمارب حربا صليبية من متفلق الضرورة السياسية لا أكثر . ولو أنه أحجم عن المغامرة المقدسة لحسر النوايا الحسنة لا من الكنيسة وحسب ، وإنما من

أغلب وعاباه . فكانت مملكته ضعيفة مهددة ، وكان على حق لأن يرتاب في طموحات الأنجلفين<sup>(١)</sup>، ولذا لم يكن يوسع الرحيل عن فرنسا إلى أن يستوثق من أن غريمه الإنجليزي في طريقه هو الأمر . وكانت الحكمة تستدعي أن يشرعوا في الرحيل معا . كما لا يلام أي من الملكين للتأخير النهائي الذي سببه موت الملكة الفرنسية . وكان لارتشار بعض الأعداء اللعبة ابتداءً إذ أسبوه موت أبيه على إعادة تنظيم المملكة ، وفضلا عن ذلك ، كان ينوي الارتحال بحرا كشأن فيليب ، وكان الرحيل بالبحر غير عملي خلال أشهر الشتاء . على أن مسألة ما يديه الصليبي من تلف أصيل تظهر غيبة الهدف والمسؤولية كلاهما.

#### الملك ريتشارد والملك فيليب

ولقد كانت في شخصية ريتشارد عيوب جسيمة ؛ فمن الناحية البدنية كان قانئا، فارعا طويل الأوصال وقويا، ذا شعر ذهبي يجلي إلى الحمرة وملامح فيها وسامة ، وقد ورت عن أمه ليس فقط ما يتميز به آل بوالو من وسامة ، وإنما ورت عنها أيضا طريقتها الجذابة وشجاعتها وتوقها للشعر والرومانسية ، وكان استقلاؤه وعلمه يتبعونه في مهابة وتقان. وقد أخذ عن والده كليهما طبعاً حاداً وإرادة عاطفية . على أنه لم يرث عن والده شعابه السياسي ولا انتشاره الإداري ، كما لم يأخذ من الملكة إليزابيث حسنها السليم . إذ أنه قد نشأ في بيئة تربطها المشاجرات العائلية والخيانة الأسرية ؛ ولأنه كان الابن المفضل للمفضل لدى أمه فقد كرهه أباه ، وفقد الثقة في امرته رغم أنه أحب أخته الصغرى جوانا . ولقد تعلم أن يكون محاربا عبقيا لا أن يكون محاربا مخلصا . وكان شحيحا مقترراً وإن كانت به قدرة على الإتيان بالفتات سخية . وكان ولوعا بمظاهر التباهي بالتبذير . وكانت له طاقته ليس لها حدود ، غير أنه في فورة حماسه بما يشغله ينسى المسؤوليات الأخرى ؛ وكان يحب النظام لكنه كان يمتلكه الشبح من الإدارة ، ولم يكن يستحوذ على انتباهه سوى فن الحرب ، وكجندى كانت له ملكات حنيفة ، واحساس بالاستراتيجية والتكتيكات والقدرة على قيادة الرجال . وهو الآن في الثالثة والثلاثين من عمره ، في شرح الحياة ، شخصية ساحرة لها شهرة سبقته إلى

(١) (الترجمة) : Angevin نسبة إلى اللقب أنجو Anjou غربي فرنسا، أو من ينتمي إلى ملوك إنجلترا Plantagenet 1154-1399.

الشرق<sup>(١)</sup>.

أما الملك غيليب ألغسطس فكان مختلفا جدا . إذ كان أصغر من ريتشارد بنمساوي سنوات ، وأن كان قد أمضى فعلا ما يزيد على عشر سنوات كملك ، وقد علّته تجاربه المريعة المحكمة . ولم يكن ندا لريتشارد من الناحية البدنية ، وإنما كان ذا بنية جيدة وكومة من شعر أشعث وقد فقدت إحدى عينيه القدرة على البصر . ولم يكن هو شخصيا يتصف بالشجاعة ، ورغم أنه كان سريع الغضب ويطلق لأهوائه عناءها فقد كانت لديه القدرة على حبب عواطفه ، ولم يكن يحب التفاخر لا عاطفيا ولا ماديا . وكان بلائله باعثا على اللئال متشغفا ، ولم يكن يعا بالفتون ، كما لم يكن على قدر من التعليم رغم إدراكه لقيمة التعليم وكان يسعى من قبيل السياسة إلى اكتساب صداقاتهم والخطاط عليها بما له من فطنة ووثنيته البليغ . وكسياسي كان صبوراً ، يقفها ماكرا غادرا بلا ضمير . لكنه كان ذا إحساس مشاغب بواجباته ومسؤولياته . ورغم ثقته وشجته على نفسه وعلى أصدقائه كان كريما مع الفقراء ، يمدحهم من فضائلهم . كان وحلا شقرا غير محبوب ، لكنه كان ملكا طيبا . ومن بين فرنج الشرق كان يتمتع بمكانة خاصة ، إذ كان السيد الأعلى للأسر التي ألجئتهم جميعا تقريبا ، وكان أغلب الصليبيين الزائرين أتباعا له بصورة مباشرة أو غير مباشرة . لكنهم كانوا يحسون تقدير ريتشارد لشجاعته ومسالمة فروسيته وحاذية ؛ وبالنسبة للعرب بدا ريتشارد الأكثر نبلا من فرجه ، والأكثر ثراء ، والأعظم<sup>(٢)</sup>.

وانطلق الملكان معا من فيزبلاي يوم ٤ يولية ١١٩٠ م . وكان ريتشارد قد سبق وأرسل أسطول له للامحار حول الساحل الإسباني ومقاتلته في مرسيها ، لكن القوة العرية كلها تقريبا كانت معه ، ولما جيش غيليب فكان أصغر إذ أن الكثير من أتباعه قد سبق ورحلوا إلى الشرق فعلا . وسار الجيش الفرنسي من فيزبلاي بتبعه الجيش الإنجليزي على مقربة إلى أن وصلا ليون ، وبعد أن عبر الجيش الفرنسي نهر الرون ، انهار الجسر العابر للنهر تحت ثقل الجشود الإنجليزية ، وفقدت أرواح كثيرة ، وتأخر الركب إلى أن

(١) يرد في ص ١١٩ من *Normans* وصف لشخص ريتشارد ، كما من شخصيت فانظر ما كيه Norgate, Richard the Lionheart, introduction to the *Norman* *Heart*, p. 119.

(٢) يرد مديح للملك غيليب في ص ٥٢١ من *Contest of Willem the Breton* ، أما تاريخ *Normans* في كل مكان أسوأ تسمي يمكن لشخصيته ، والانتاج عليه لفر *Cartellieri* *Philip II August*, p. 521.



أعيد تنظيم النقل. وبعد أن غادر الجيشان ليون مباشرة انزلق الملكان ؛ فالتقه فيليب إلى الجنوب الشرقي عبر سفوح الألب ثم أزم الساحل بالقرب من نيس ثم بطول الساحل إلى جنوا حيث كانت السفن في انتظاره ، وأتبعه ريتشارد إلى مرسيليا حيث انضم إليه أسطول له يوم ٢٢ أغسطس . ولم تحدث حوادث في الرحلة فيما عدا تأخير بسيط في البرتغال في شهر يولية حيث ساعد البحارة للذئب سانكو في صد غزو من أسوار طور مراکش. ومن مرسيليا أبحر إلى فلسطين مباشرة البعض من أتباع ريتشارد بقيادة بلموين (كوف كنزيري)، لكن الجيش الرئيس انخرق في قوافل مختلفة إلى ميسينا في صقلية حيث كان يفترض أن ينضم إلى الفرنسيين مرة أخرى<sup>(١)</sup>.

#### ١١٩٠ م : الملك تنكريد الصقلي

كان الملك وليم الثاني الصقلي قبل وفاته في نوفمبر ١١٨٩ م قد اقترح أن يتلقى ملك فرنسا وملك إنجلترا بقواتهما في صقلية ، وذلك عند بدء تخطيط حملتهما الصليبية أول الأمر . وكان وليم الثاني قد تزوج من أخت الملك ريتشارد، جوانا الإنجليزية، لكن الزواج لم يثمر ولدا ، ولذا ورثته حالته كونستانس، زوجة هنري (كوف هوهينشتوفن)<sup>(٢)</sup> وهو أكبر أبناء فريديريك بارباروسا. ورأي الكثير من الصقليين أن فكرة وجود حاكم ألماني فكرة بغضه لديهم ، ولذا حيكمت مؤامرة قصيرة بمحاورة من البابا كليمنت الثالث - الذي شعر بالخطر من توقع أن تتحكم أسرة هوهينشتوفن في جنوب إيطاليا - وضعت على العرش بدلا من كونستانس وزوجها هنري، أحد أبناء الزنا للملك الراحل ويدعى تنكريد كونت ليكني . وكان تنكريد رجلا ضعيفا قبيحا لا يثير الإعجاب قط ، ولم يكسب مجلس على العرش حتى وجد نفسه في الحال يواجه الصاعب؛ إذ حدث تمرد إسلامي في صقلية ، وغزو ألماني لأراضيها ؛ وقد بدأ الأتباع الذين اتبعوه يغيرون رأيهم. ولذا اضطر تنكريد إلى استدعاء رجاله وسفنه من فلسطين ، ولولاهم لما تمكن من هزيمة أعدائه . ورغم أنه كان على استعداد لاستقبال الملكين الصليبيين معظماهم الشريف ومساعدتهما بالمون إلا أنه لم يكن على استعداد البتة

(١) لإخلاء على رحلة الملك هو فرنسا انظر 149-53 *Divineurives* ؛ وانظر 11 *Anthroine* ، cols. 14, *Benedit of Peterborough*, 11, pp. 111-12, *Rigord*, pp. 98-9, *William the Breton*, pp. 95-9.

(٢) (ترجم): *Hohenstufen* اسم الأسرة الحاكمة في ألمانيا (١١٣٨-١٢٠٨-١٢١٥-١٢٥٤) وفي صقلية (١١٩٤-١٢٦٨).

### لأن مصاحبهما في حثمتها الصليبية<sup>(٧٥)</sup>

وكان الملك فيليب قد غادر جنوا في نهاية أغسطس ، وبعد رحلة بسيرة على الساحل الإيطالي وصل ميسينا يوم ١٤ سبتمبر . ولنفوروه من مظاهر الأبهة ، اتخذ طريقه داخل المدينة محتاماً بثر الإسكان كي لا يتطفل عليه أحد ، لكن تتركيد أصدر أوامره باستبداله بحراسم الشريف وجعله يقيم في قصر ملكي هناك . كما الملك ريتشارد فقد قر قراره على الرحيل برا من مرسيليا ، ويبدو أنه كان عزوفاً عن الرحلات البحرية لأنه كان يعاني بلا شك من مرض دوار البحر . ونقل أسطول له جيش إلى ميسينا وانتظره خارج الميناء ، بينما سار معه حفنة صغيرة من الحراس في الطريق الجري بطول الساحل عذوقاً جنوا ثم بيزا ولومبيا إلى سالونو حيث انظر إلى أن مع أسطول له قد وصل ميسينا ، ويبدو أنه عندئذ أرسل كقلب حرسه ببرا إلى ميسينا للإعداد لوصول له ، بينما استمر هو نفسه على حواد مع رفيق واحد فقط . وبينما كان ماراً بمدينة ميليتو في منطقة كلابريا بالجانب الإيطالي حاول أن يسرق صفراً من بيت أحد الفلاحين ، وأوشك القرويون الحائزون على القضاء عليه ، ولذا كان في حالة مزاجية سيئة عندما وصل إلى مضائق ميسينا بعد يوم أو يومين ، وقد قابله رجاله على الشاطئ الإيطالي واضطحيوه في موكب فخيم إلى ميسينا حيث هبط هناك يوم ٣ سبتمبر . ومدت القمامة المفرطة لدخوله المدينة صرامة في تعارضها مع وصول فيليب المتواضع.

وأثناء مرور ريتشارد عبر إيطاليا سمع عن تتركيد الكثير مما أغضبه ، إذ كانت شقيقته الملكة الأرملة للهيسة جواراً تحت الإقامة الجبرية التكديرية وقد حُرمت من بالنتها ، وكان لها بعض النفوذ في الملكية ، وكان واضحاً أن تتركيد لم يكن يوليها ثقة . وفضلاً عن ذلك كان ولهم الثاني قد ترك ميراثاً ضخماً لخميه ، هنري الثاني ، يتألف من طلق ذهبي وأثاث ذهبي وخيمة جبرية وسفنتين كبيرتين مسلحتين والكثير من الأكياس المليئة بالكون . وغرت هنري ، افترض تتركيد أن بوسعه الاحتفاظ بالجزوات لنفسه . ومن سالونو أرسل ريتشارد إلى تتركيد يطلب إطلاق سراح اخيه والتخلي عن بالنتها وميراثها ، وكان لهله الطلبات وما ورد من أبناء عن تصرفات ريتشارد في كلابريا أن تسببت في خوف تتركيد ، فندبر أن ينزل ريتشارد في قصر خارج أسوار ميسينا ، ولكي يرضيه أرسل جواراً لتصبحها حراسة ملكية لتنظيم إلى أمهبا ودخل في مفاوضات حول مدفوعات من الأموال بدلا من البائلة والثرات . وكان الملك فيليب ،

(٧٥) عن وضع تتركيد انظر ٢٤-٢١: ١١، pp. Chalandon, *Domination Normande en Italie*.

الذي زاره ريتشارد بعد وصوله يومين ، قد عرض مساعيه المحيطة ، وعندما ذهبت اليه الملكة جواتا للإعراب عن تقديرها ، استقبلها استقبالاً بلغ من الرد القدر الذي جعل الجميع يتوقعون أن يسمعوها عن زواجهما الرشيك . على أن ريتشارد لم يكن في مزاج يساعد على الصالحة ، فأولاً أرسل فصيلة عورت المضايق واحتلت مدينة باجنرا على ساحل كلابريا حيث نصب ابنه هناك . ثم هاجم جزيرة صغيرة في مواجهة ميسينا فحاصرها بها دير القربى ، وطرد الرهبان شر طردة ليحصل جنوده مكانهم . وكانت المعاملة التي نالت من قناسة الرهبان أن جعلت الرعب يملك أهل ميسينا الذين كانوا يونانيين في أغلبهم ، بينما أثار الجنود الإنجليز حتى المواطنين الأكثر ثراء لما أقدموا عليه ازاء زواجهم وبناتهم.

#### ١١٩٠م : ريتشارد يجاهر ميسينا

وفي الثالث من أكتوبر حدثت مشادة في إحدى الضواحي بين بعض الجنود الإنجليز وجماعة من المواطنين أدت إلى أعمال شغب . وانتشرت في المدينة شائعة بأن ريتشارد ينوي غزو صقلية كلها ، وأغلقت البوابات في وجه رجاله ، ولم تفلح محاولة لسفنه في اقتحام المرفأ . وسارع الملك فيليب إلى استدعاء رئيس اساقفة ميسينا وقائد بحرية تنكريد ، مارجاريتوس ، وغيره من الوجهاء الصقليين إلى قصره وذهب معهم في الصباح التالي لتهنئة ريتشارد في مقر اقامته خارج الأسوار . وفي اللحظة التي بدأ فيها أن هناك بعض الزينيات للمصالحة ، سمع ريتشارد بعض المواطنين المتجمعين على تل وراء القنطرة يكيرون الشنائم المهيبة لإسمه ، فملكه الفياح وغادر الاحتشام وأمر جنوده بالهجوم مرة أخرى . وفي هذه المرة بوغت المواطنين وتمكن الإنجليز من احتلال المدينة في غضون ساعات قليلة وراحوا يتهبون الأحياء كلها ولم يتركوا سوى الشوارع المحيطة بالقصر الذي يتزل فيه الملك فيليب . وبالكاد تمكن مارجاريتوس والوجهاء الآخرين من الفرار مع عائلاتهم واحتل ريتشارد منازلهم ، وأحرق الأسطول الصقلي الراسي في المرفأ ، ولم يبق عصر اليوم إلا وكانت راية الدلائاجين ترفرف على المدينة.

ولم تتوقف وحشية ريتشارد وضراوته عند هذا الحد ، فبرغم موافقته على أن ترفرف راية الملك فيليب بجوار رايته ، أصر المواطنين على أن يتقنوا له برهائن يحتفظ بها ضماناً لحسن سلوك ملكهم وأعلن أنه على استعداد للاستيلاء على المقاطعة كلها ، وفي ذات الوقت شيد حصناً حليياً ضخماً خارج المدينة مباشرة أطلق عليه

"مايهرينون" أي بجام اليونانيين ، تحقروا لشأنهم.

وشعر لذلك فيليب بالقلق مما ظهر من أسلاف نظيره ، وأرسل ابن عمه دوق برجندى لمقابلة الملك تتركيد في كتابيا وتحذيره من نوابا ريتشارد ، ولكن يمرض عليه المساعدة إذا ساءت الأمور، وكان تتركيد في وضع صعب إذ كان يدرك أن هنرى (أولف هوهنتورف) على وشك غزو أراضيه، وكان مدركاً أن أتباعه غير جديرين بالثقة ، وبمسأله السريعة قرر أن ريتشارد سيكون حليفاً أفضل من فيليب ؛ إذ ليس من المحتمل أن يهاجمه فيليب الآن، ولم يكن ملوك فرنسا على علاقة طيبة بآل هوهنتورف ، فضلاً عن أن صداقة فيليب في المستقبل غير يقينية . وكان ريتشارد من الناحية الأخرى يمثل اعظم خطر مائل ، لكن المعروف أنه بمقت آل هوهنتورف وهم أعداء بنى عمومه الويلف . وهكذا رفض تتركيد عرض مساعدة الفرنسي ودخل في مفاوضات مع الإنجليز ، فعرض على ريتشارد عشرين ألف أوقية من الذهب بدلا من الثروات المستحق لهنرى الثاني ، ونفس المبلغ طوّافاً بدلا من بالتها.

#### ١١٩٠م: مفاوضات في صقلية

وفي الإسكان دائما تهددة غضب ريتشارد بمظهر الذهب ، فقبل العرض الخاص به والعرض الآخر نيابة عن أمته ، بل أنه وافق على إعطيه وريثه الصغير ، آرثر دوق برتاني ، لإحدى بنات تتركيد ، وعندما كشف تتركيد ما التزمه عليه فيليب ، وافق ريتشارد طواعية على أن تُكتب الشروط في معاهدة وعليا من البابا منحهما مؤازرته . وهكذا حل السلام ، وبناء على نصيحة رئيس أساقفة روين أعاد ريتشارد على مضض ما صادره من مقولات مستحقة لأرحامه فرنس ووجهاء موافقته مسينا.

ولقد اتحدع الملك فيليب لكنه لم يجهز بالاعراض . وفي ٨ أكتوبر ، أثناء صياغة المعاهدة ، تقابل مع ريتشارد مرة أخرى لمناقشة المرحلة المقبلة للحملة الصليبية ؛ فوضعت قواعد مراقبة أسعار المواد الغذائية ، وتحدد ولاء الرجال لساداتهم، وعصبي كل فارس نصف أمواله لاحتياجات الصليبيين ، وشُنت المقامرة على الجميع باستثناء الفرسان ورجال الدين ، وإذا أفرطوا في اليسر يعمين معاقبتهم ، وينبغي للحجاج الذين يتعمون تحت طائلة التدين أن يدفعوا ديونهم . وصادق رجال الدين على هذه اللوائح ووعدوا بمعاينة متهميكها بالطرد من الكنيسة . وكان من اليسر أن يوافق الملكان على هذه الأمور ، وإن لم تكن تسوية بعض الأمور السياسية على نفس القدر من اليسر ،

وبعد محاورات الفلق الملكان على اقتسام الغزوات المقبلة بينهما بالتساوي . وكانت المشكلة الأكثر حساسية تتصل بالأميرة آليس أخت الملك فيليب فتمتد سنوات طويلة أرسلوا هذه الأميرة المتعة وهي طفلة إلى البلاط الإنجليزي لتتزوج ريتشارد أو أحد أبناء هنري الثاني . وقد احتجزها هنري الثاني برغم نفور ريتشارد من الموافقة على زواجه المقترح منها . وسرعان ما تناقل البلاط همسات قبيحة بأن هنري نفسه قد أصبح مفرط الألفة معها . ولم يكن ريتشارد بالرجل الذي تتحه ميوله ناحية الزواج ، ولذا رفض الانقياد إلى ما أمده أبوه من ترتيبات برغم استعمال فيليب سرارا وتكرارا . وحتى بعد وفاة هنري ، لم تكن أم ريتشارد الملكة اليتيمة - التي غمرت الآن بموت زوجها - لذي ابنها القليل مقبلا بفتاة من أسرة محنتها ، بل فتاة كانت تعتقد أنها عشيقه زوجها الراحل . ولحرصها على مصالغ مواطنيها من أبناء منطقة حين التي نشأت فيها عازمت على تزويجه من إحدى أميرات ناغار ، وقد قبل اختيارها<sup>(٧)</sup> . وهكذا ، وعندما أثار فيليب مرة أخرى مسألة زواج أخته اليس ، رفض ريتشارد أن يعير الموضوع أي اعتبار فثلا إن سمع آليس تحول بينه وبين التفكير في زواجه منها . وكانت الإهانة فوق احتمال فيليب ، رغم أنه كان دائم اللامبالاة بمساعدة أسرته ، ولم يتدخل قط لمساعدة أخته البالغة أحسن أرملة الأمير المظور الكسوس الثاني البيزنطي . ولذا زادت علاقته بريتشارد برودا على برود وقرر مغادرة ميسينا في الحال إلى الشرق ، لكن عاصفة هوجاء أعادته إلى صقلية بعد يوم من انصرافه . ولأنه الآن في منتصف أكتوبر فشد قرر أن الخصافة تدعوه لفضاء الشتاء في ميسينا . ويشو أن ذلك ما كان يتريه ريتشارد دائما ، ولم توقع معاهدته مع فكره إلا في ١١ نوفمبر . وفي الوقت ذاته أرسل يطلب من أمه إرسال الأميرة برينجارية الفارارية لثلق به في صقلية .

وانصرم الشتاء هادئا في صقلية . وفي يوم عيد الميلاد أو لم ريتشارد وليلة تقطر سحابة في حصن ماتيمريون (طام اليونانيين) دعا إليها ملك فرنسا ونبلاء صقلية . وبعد أيام قليلة احتشد في مقابلة مشيرة بالراعب براعميس اللسن رئيس دير كورواو ومؤسس نظام فيوري الديني . وشرح له القديس الميكل معنى سفر الرؤيا . فقال له أن رؤوس الثنين السبعة هي : هيروود ونفرون وكونستانتيوس وعمد وميلسموت (ورما كان يعنى به عبد النعم مؤسس طائفة ال Almohad) وصلاح الدين وأخيرا المسيح القدسأل

(٧) (الموسم): تقع منطقة حين شاريفية Gaiese في جنوب غرب فرنسا المسماة حاليا الكنتان Aquitaine. فاما ناغار الفارارية Navarre فهي ملكة قديمة تقع حاليا شمال شرق إسبانيا وجنوب غرب فرنسا.

نفسه الذي ، كما أعلن ، ولد بالفعل قبل ذلك بخمسة عشرة سنة في روما وسوف يجلس على العرش البابوي . ورد ريتشارد رداً يقتصر إلى الأدب لم يلق الترحيب من القديس ، قائلاً أن المسيح الدجال ربما كان هو البابا الحالي كليتت الثالث الذي قال إنه هو نفسه بنفسه ، ولم يفتق معه القديس في أن المسيح الدجال قد ولد من قبله دان البابلية أو الأنطاكية ولا أنه سوف يحكم في القدس . على أن ريتشارد أبعده أن يسبح من بواسيسم أن المنتصر في فلسطين سيكون ريتشارد وأن صلاح الدين سرعان ما سيقتل . وفي فبراير نظم ريتشارد مباريات مبارزة رياضية لشاجر شايها مع الفارس الفرنسي ولهم (أوف بار)، لكن فيليب تمكن من مصالحتها . والواقع أن ريتشارد تصرف تصرفاً سليماً جداً إزاء فيليب ، بل أنه أعطاه بعد أيام قليلة عدة سفن كانت قد وصلت مؤخراً من إنجلترا . وفي ذات الوقت سمع أن أمه الملكة إليزابيث والأميرة بيرينجاريا قد وصلت نابلي فأرسل من يقابلهما ويصطحبهما إلى برنديزي إذ كانت حاشيتهما فائقة الضخامة بحيث لا تحملها ميسينا بمواردها المحدودة ، خاصة وأن كونت فلاندرز قد وصل ميسينا لتوه مع صحبة كبيرة للغاية.

وبالتوازي الريح تأهب الملكان لاستئناف رحلتهما . فذهب ريتشارد إلى كاتانيا لزيارة تتركيد وأنقسم معه قسم صداقة أبدي . وتفرقت مشاعر الخوف لدى الملك فيليب من هذا التحالف فلحق بهما في نورميا ، وهو على استعداد الآن لأن يسلح على عجل جميع علاقاته مع ريتشارد ، وأعلن رسمياً أن ريتشارد كامل الحرية في أن يستزوج من يرغب في اختيارها . وعندما أبحر فيليب يوم ٣٠ مارس مع كل رجاله من ميسينا كانت مشاعر حسن النية على عمومها تغلب عليه . وما أن أبحر من الميناء حتى وصلته الملكة إليزابيث والأميرة بيرينجاريا . ولم تق البتة مع ابنها سوى ثلاثة أيام ثم شددت رحلتها إلى إنجلترا متخذة طريق روما ذلك لتوقف لدى البلاط البابوي لإتمام بعض المهام لديها ، وبقيت الأميرة بيرينجاريا في صحبة دائمة مع الملكة جوناً<sup>(٨)</sup>.

وأخيراً غادر ريتشارد ميسينا يوم ١٠ أبريل بعد أن فكك حصن ماتيريقون (حمام

(٨) ترد قصة تصرفات الملك في ميسينا بالتفصيل في *Minorities*, pp. 154-77 ، وكذلك عند *Benedit of Peterborough*, cols. 14-32 ، والذي يورد أكثر الروايات اكتمالاً ويوضح أنه أكثر قليلاً من الناحية الموضوعية، أما *Bigge*, pp. 126-60 ، فإنه يقول ضمناً إن فيليب كان مثلهما على الاستمرار في الحملة الصليبية بينما كان ريتشارد يبعه العيونات . وانظر *Chalandon*, op. cit. II, pp. 435-42 ، و *Benedit* (pp. 151-5) ، والذين يوافقان على أن ريتشارد مع برانيم ، ومن الواضح أنها قصة على أساس معطيات من شخص كان صانعاً في القلعة

اليونانيين). وشعر تنكريد بالأسف لرحيله وكان له ما يبرر ذلك؛ إذ أن البابا كليمنت الثالث مات في نفس ذلك اليوم في روما، وبعد أربعة أيام تمت رسامة كاردينال سانتا ماريا في كوزميدين على أنه البابا سيلستين الثالث. وكان هنري (أوف هوهنشتوفن) في روما آنذاك، وكان أول ما فعله البابا الجديد أن قام تحت الضغط بتعيينه هو وكونستانس الصقلي إمبراطورا وإمبراطورة.

وأبحر فليپ بأسطول له الفرنسي بسلام إلى صور حيث استقبله بترحاب كبير ابن عمه كونراد (أوف مونتفرات)، ووصل مع كونراد إلى عكا يوم ٢٠ أبريل، وفي الخال تم تشديد الحصار على هذه القلعة الإسلامية. وبدأت أعمال الحصار الحربي جدّية لعليّاب بمزاحمة القصور الخلاق، فأعاد تنظيم آلات الحصار وبني الأسراج للمحاصرين، غير أنه تقرر تأجيل محاولة الهجوم على الأسوار إلى أن يصل ريشارد ورجاله<sup>(٩)</sup>.

#### ١١٩١م: الأسطول الإنجليزي يصل مياه قبرص

وكانت رحلة ريشارد أثقل أمانة. إذ سرعان ما هبت رياح قوية فترقت هذا الأسطول الصغير، وأعطى الملك نفسه يوما في ميناء جزيرة كريت، وأبحر منه في مياه عاصفة إلى جزيرة رودس حيث بقي عشرة أيام من ٢٢ أبريل إلى ١ مايو، في فترة تقاها عما يصيبه من دوار البحر. وفي تلك الأثناء ضاعت إحدى سفنه في عاصفة، بينما ألقت الرياح بثلاث سفن أخرى إلى قبرص، من بينها السفينة التي تقل الملكة جوانا وبيرينجارية؛ وتمطعت سلطنتان على الساحل الجنوبي للجزيرة، لكن الملكة جوانا لم تكن من الوصول إلى مرسى أمام ميناء ليماسول.

وكانت قبرص طوال خمس سنوات تحت حكم اسحق دوكاس كومنينوس الذي تعصب نفسه إمبراطورا بعدما نجح في طرده على بيزنطة وقت استعلاف اسحق أنجيلوس، والذي تمكن من الحفاظ على استقلاله بتحالقات هشة، فتارة مع الصقليين، وتارة مع الأرمن كيليكيا، وثالثة مع صلاح الدين فقد كان مشاكسا يكره اللاتينيين ولم تكن له شعبية على الجزيرة لما كان يفرضه من ضرائب باهظة. وكان الكثير من رعاياه لا يزالون يعتبرونه متمردا ومغامرا. ولقد كان لظهور الأساطيل الفرنجية الشحنة اسماء السوانتي القصرية أثره في احساسه بالحظر، لكنه واجه المشكلة على نحو يخلو من الحكمة. ذلك

(٩) - Eustace d'Eracles, II, pp. 155-6; Rigot, p. 108; Abu Shama, II, p. 6.

أنه عندما تمكن بحارة ريتشارد من الوصول إلى الشاطئ بعد تحطيم سفينتهم ، اعتقلهم وصادر كل ما عندهم إضافة من بضائع، ثم أرسل مبعوثاً إلى سفينة الملكة جوناثا بدعواها هي وبناتها إلى الفوط إلى الشاطئ ؛ لكن الملكة جوناثا كانت تعلم من التجارب فيمتها هي نفسها باعتبارها رهينة محتلة، فردت بأنها لا تستطيع مغادرة السفينة دون إذن أخيها ، واقتضت السماح بإرسال من يحضر لها الشاء من الشاطئ ، فرفض طلبها بطريقة قذرة تقول من الكياسة . بل أن اسحق جاء بنفسه إلى ليماسول وبني التحصينات بطول الساحل لمنع أية محاولة للهبوط إلى الشاطئ.

وفي ٨ مايو، أي بعد أسبوع من وصول جوناثا أمام شواطئ ليماسول، لاح اسطول ريتشارد على مرمى البصر . وقد كان البحارة من رودس شتيما ، وأوشكت سفينة ريتشارد ذاتها أن تتحطم في خليج أثينا ، ولم يكن للدوار البحر الشراء في تلطف مزاج ريتشارد ، وعندما سمع بما لقيته أخته وخطبته من معاملة القس على الإنتقام . وعلى الفور بدأ في إزال الفرجال بالقرب من ليماسول وزحف على الدنية ؛ ولم يلقوا اسحق وأخا انسحب إلى قرية كيلاتي على سفوح تروودوس . ولقي ريتشارد الذريح في ليماسول ليس فقط من التجار اللاتين المستقرين في المدينة ، وإنما أبدي اليونانيون صداقتهم للفرقة من معتقل بعضهم لإسحاق الذي أبدى استعداد من تم للتفاوض . وعنده الأمان جاء إلى كولوسي وذهب إلى معسكر ريتشارد حيث وافق على دفع تعويض عن البضائع التي سرقها والسماح للجنود الانجليز بشراء الخون معلقة من الرسوم الجمركية وإرسال قوة رمزية من مائة رجل مع الحملة الصليبية رغم أنه رفض مفاداة الجزيرة هو نفسه ، وعرض ارسال ابنته رهينة إلى ريتشارد.

وقد اقتنع اسحق من زيارته للمعسكر أن ريتشارد ليس بالرجل المرعب كما كان يُظن . ولذلك، وما أن عاد إلى كولوسي حتى تنكّر لانتفاقه وأمر ريتشارد بالرحيل عن أراضيه . لقد ارتكب غلطة حمقاء . وكان ريتشارد قد سبق وأرسل سفينة إلى هناك لتعلن عن وصوله الوشيك إلى قبرص ، وفي ١١ مايو، وهو اليوم الذي تقابل فيه اسحق مع ريتشارد وعاد إلى كولوسي، دخلت إلى ميناء ليماسول سفن تحمل أبزر الصليبيين للمارضين لكونراد جيما؛ فكان عليها الملك جوي وأمه جوفري، وكونت لوسينيان وهو أحد أبزر أتباع ريتشارد في فرنسا، وكان عليها يوهنند كونت التلاكيتمع ابنه ريموند، وكان عليها الأمير ليو الرويني الذي خلف مؤخرًا أساء رومين، وكان هناك همفري سيد لينين وهو زوج ابنة المطلق، كما كان هناك الكثير من فرسان القيد البارزين. ولأن فيليب انجاز إلى جانب كونراد، فقد جاءوا ليضمنوا مؤازرة ريتشارد



لجزيرتهم، وراي ريتشارد أن قوته تعاضلت بمحبتهم ، فقرر غزو الجزيرة بكاملها. ولا شك في أن زائريه أكدوا له أهميتها الاستراتيجية في الدفاع عن الساحل السوري كله ، والمخاطر الماثلة لو أن اسحق ودخل في تحالف وثيق للغاية مع صلاح الدين . لقد كان غزو الجزيرة فرصة سانحة لا ينبغي تفويتها.

#### ١١٩١م : ريتشارد يغزو قبرص

وفي ١٢ مايو احتفل ريتشارد بزواجه من بيرينجارية في كنيسة القديس جورج الصغيرة في ليماسول ، وتزوجها أسقف إيغريو ملكة إنجلترا ، وفي اليوم التالي جاءت السفن المتبقية من الاسطول الإنجليزي . أما اسحق ، الذي كان مدركا للخطر المحدق به، فقد انتقل إلى فاماغوستا ، وبعثه بعض الإنجليز برا والسافي بحرا . ولم يسلل الاسراطور أية محاولة للدفاع عن فاماغوستا ، وإنما انسحب إلى نيقوسيا . وبينما كان ريتشارد في فاماغوستا حاصره الرسل من فيليب ومن لوردات فلسطين تحفه على الاسراع إلى فلسطين . لكنه رد بغضب قائلا إنه لن يتحرك حتى يستولى على قبرص التي ركز على أهميتها لهم جميعا . وكان من المفترض أن يذهب أحد مبعوثي فيليب، وهو باتمان أمير حيفا ، إلى اسحق تأكيد التحذير . فأرسل اسحق زوجته ، وهي أميرة أرمنية ، وابنته إلى قلعة كورنيا ، ثم سار جنوبا باتجاه فاماغوستا ، وقابله جنود ريتشارد بالقرب من قرية ليرميثوس وهزموه بعد التحام شديد قبل إنه استخدم فيه سهامًا مسمومة . وهرب من ساحة القتال إلى كاتارا ، ودخل ريتشارد نيقوسيا دون مقاومة ، فقد أظهر فيارضة نيقوسيا لأمبالاتهم معصير اسحق ، بل إنهم كانوا على استعداد لمساعدة الغزاة.

وفي نيقوسيا سقط ريتشارد مريضا ، وكان اسحق يأمل في أن تصمد قلاع الأبرع الشمالية الضخمة ، كاتارا وبوقافيتو وسانت هيلاريون وكورنيا ، إلى أن يكتل ريتشارد من الحرب ويرحل بأسفوله ، لكن الملك جوي الذي كان أسرا لجيش ريتشارد زحف على كورنيا واستولى عليها ، وأسر الاسراطورة وطلقها ، ثم بدأ محاصرة سانت هيلاريون وبوقافيتو . وتلفت اسحق فوجد نفسه محروما من أسرته ، ورعاياه في حالة من الفتر أو العداوة حياله ، فقد أترانه واستسلم بلا قيد أو شرط ، واقتيد ليمثل أمام ريتشارد في سلاله الفنية الثقيلة . وبنهاية شهر مايو كانت الجزيرة كلها في قبضة ريتشارد.





في مثل هذا العدو فروسية. بيد أن صلاح الدين رد عليه ردا حذرا بأنه من غير الحكمة أن يتقابل الملوك الأعداء قبل أن يوفعوا على هدنة ، ورغم ذلك قال إنه على استعداد لأن يسمح لأبيه المعادل عقابله ريتشارد . وتقرر تأجيل القتال ثلاثة أيام واتفق على أن تتم المقاتلة في السهل الواقع بين العسكرين ، لكن المرض داهم فجأة ملكي الملوك وفرنسا وسقط كلاهما مريضا بمرض يطلق عليه الفرنج أرنالديا ، وهو حتى تسبب تساقط الشعر والأظفار . وكانت إصابة فيليب طفيفة ، أما إصابة ريتشارد فكانت شديدة استمرت عدة أيام . لكنه كان يقوم العمليات من فراش مرضه ، فأصدر أوامره بالمكان الذي يوضع فيه المنجنيق الضخم وأمر ببناء برج خشبي هائل مثل برج ماتهرينون الذي بناه في ميسينا . ولم يكد يبرأ من مرضه حتى أصر على زيارة جنوده في معسكرهم<sup>(١٢)</sup>.

وتلقى صلاح الدين كذلك تعزيزات في أوامر شهر يولية ، إذ وصل جيش سنجار في الخامس والعشرين من الشهر ، ووصل في أعقابها مباشرة جيش مصري جديد وحنود من صاحب الموصل ، وفي أوائل يولية أرسل أميراً شيزر وحماة بعض الكتاب . وعلى الرغم من هذه القوات الكثيرة لم يكن صلاح الدين يقادر على إخراجهم الصليبيين من معسكرهم ، إذ أنهم انتهزوا توقف القتال في الشتاء ونعمة الوباء بفصل الأمطار وأحاطوا أنفسهم بسدود ترابية ومنازلهم تحميها خنادق من اليسر عليهم الدفاع عنها. وبقي شكل المعركة كما هو طوال شهر يولية وأوائل يولية فدخلت آلات الحصار الفرنجية على فصف أسوار عكا ، وإذا حدث وألحق الفرنج في إسقاط ثغرة صغيرة والتدفع خلافا للفرنج ، أشارت الحامية على الدور بعلامة ما إلى صلاح الدين الذي كان يشق في الحائل هجوما على المعسكر ومن ثم يسحب المعتدين بعيدا عن الأسوار . وكانت هناك معارك بحرية من حين لآخر ، إذ أن وصول الأساطيل الإنجليزية والفرنسية قد انتزع من العرب سيادتهم على البحار ، ولذا كان نادرا أن تتمكن سفنهم من اعتزاق الحصار البحري وجلب المؤن إلى المرفأ فأخذ الطعام والمواد الخيرية في التساقص في المدينة المحاصرة فبدأ الحديث فيها عن التسليم.

(١٢) Ibid. pp. 213-25; Ambroise, vol. 123; Benedict of Peterborough, n.p. 170: "الحملات" والذي يسميه المؤرخ ليونارد "Leonard". وربما كان نوعا من الأسفريوط ، وهو داء من أمراض تورم اللثة وتزليها ، ثم مرض الشتاء القفرح الذي يصيب الجنود في الميدان. أنظرها Hahet ترجمة لابن الأثير ص ١٩٦ ملاحظة ٢.

## ١١٩١ م : مخلفات في المعسكر

وتواصل المرض والشحار في المعسكر المسيحي . ذلك أن البطريرك هيراكليس قد مات ، فحيكت المكائد حول انتصاب حليفته<sup>(١٤)</sup> . ولم يتوقف النزاع على التاج ، فقد تناصر ريتشارد الملك الحوي ، بينما شافع فيليب كورنارد ، وانضم أبناء بيزا إلى حزب ريتشارد ، ومن ثم كانت الأساطيل القادمة من جنوا تعرض عدوانها على فيليب . وعندما حطت فيليب لمحم عاصف على المدينة قرب نهاية يولية ، رفض ريتشارد أن يتعاون وحالته معه ، وربما كان مرجع ذلك إلى أنه لم يبرأ بعد بالقدر الذي يسمح له بالحرب شخصيا وحتى أن يفقد مقام النصر . وفشل المحرم لغية تباعه وأصدقائه ، وأما هجوم صلاح الدين المضاد فلم يتمكن الصليبيون من صدده إلا بشق الأنفس<sup>(١٥)</sup> . وتعددت العلاقات بين ريتشارد وفيليب عندما مات في ١ يولية فيليب كولت فلاتنبرز ، ذلك الصليبي الذي سبق أن تفاقم عن الحرب سنة ١١٧٧ م، دون أن يترك وراءه وريثة مباشرين؟ فيما كانت الملك فرنسا بعض المطالب في الوراثة الفلاندرزي، كان ملك إنجلترا عازفا عن أن يترك ذلك الإقليم المصعب ذا الموقع الإستراتيجي يقع في يد غريمه . وأثناء أن كان فيليب يستشهد بنود الاتفاق الموقع في ميسينا مطالبا بنصف جزيرة قبرص ، رد ريتشارد بطلب مضاد ألا وهو نصف فلاتنبرز، ولم يواصل أي من الجانبين مسعا لتحقيق مطالبه ، وأما ظل كل منهما في لرديده لشكوكه<sup>(١٦)</sup> .

وفي الثالث من يولية، بعدما حاول تقي الدين ابن أخي صلاح الدين بلا جدوى شق طريقه داخل المدينة، أحدث الفرنسيون ثغرة خطيرة في الأسوار ، لكنهم أحسروا على التفهقر . وبعد ثمانية أيام قام الإنجليز وأبناء بيزا في القحطة التي كان يقي الصليبيون يتناولون العشاء بتحرية حطهم فنجحوا في إكوال الأمر لكنهم فشلوا في النهاية . وأثناء ذلك كانت الحامية قد قررت فعلا الكف عن الكفاح ، وأرسلت مبعوثين إلى معسكر الصليبيين في الرابع من يولية ، يد أن ريتشارد رفض مقترحاتهم رغم أن سفرهم كانوا في زيارة لصلاح الدين في نفس ذلك اليوم يطلبون السماح بشراء القاكهة والخيلوى للتلحة ولمعون باستعدادهم لمناقشة شروط السلام . وحُذِم صلاح الدين لسماعه بأن

(١٤) انظر ملحقه Mas Latrie لتسورخ Haymer Monachus ، ملحقه xxxvi.

(١٥) Ambrose, col. 123; Rigold, pp. 108-9; Haymer Monachus, p. 35.

(١٦) Rigold, p. 113, Benedict of Peterborough, ii, p. 171.

رجالهم داخل عكا فقلدوا الأمل ، فوعدهم بالمساعدة العاجلة ، لكنه لم يتمكن من حث جيشه على شن هجوم ضخم على معسكر المسيحيين كان قد خطط لتنفيذه في الخامس من يولية. وفي السابع من يولية جاءه مبعوث سابقا من عكا يعمل آخر نداء من المدينة؛ فلم تعد الحامية قادرة على الصمود أكثر من ذلك بدون مساعدة ، وكانت معركة الحادي عشر من يولية هي آخر جهد من المحاصرين . وفي اليوم التالي عرضت الحامية التسليم ، وقُبلت شروطها . وكان على عكا أن تستسلم بكل ما فيها من سفن ومخزونات عسكرية ، وتذبح مئتي ألف قطعة ذهبية للفرنجة وقرقها أربعمائة قطعة لكونراد شخصيا . وقرر الإخراج عن ألف وجسمائة سجين مسيحي معهم مائة سجين من الجنود ، بأسمائهم الجديدة ، وإعادة الصليب الحقيقي . فإذا نفذت الحامية هذه الشروط فسوف يبق أفرادها على قيد الحياة.

#### ١١٩١م : الصليبيون يدخلون عكا

وسبح سابع من المرقا ليطلع صلاح الدين على ما اتفق عليه ، إذ تقرر أن يقوم هو بتنفيذ الشروط. وتملكه شعور بالارتياح ؛ فبينما جلس أمام عيخته تجهز ودايم الحامية من الخوض لهذه الشروط ، شاهد الرهائن القرنية تنشر على أبراج المدينة . لقد سبق السيف القتل ، وأمر ضباطه للمعاهدة باسمه ، ولكونه رجلا شريفا يستزم بها ، وانتقل بمعسكره إلى شقعة الواقعة على الطريق المذهب إلى صغورية متعبدا عن المدينة ، إذ ليس يوسعه أن يفعل شيئا لمساعدتها ، وتعد استعدادا لاستقبال سفراء الفرنج للتصديق<sup>(١٧)</sup>.

ما أن تم قبول التسليم حتى خرجت الحامية العربية خارج عكا. وتفرقت مشاعر الغزاة وهم يشاهدون المدينة وهي تقع في الأسر، فقد ملكهم الانصباب بشحاعتها وتماسكها ، وبكونها حليقة بمحصر أفضل . وعندما خرج آخر عربي دخل الفرنج وكونراد على رأسهم وقد رفع حامل الراية رايته الشخصية ورايات الملوك . واتخذ الملك ريتشارد من القصر الملكي السابق محل إقامته بالقرب من السور الشمالي للمدينة، ونزل الملك فيليب في المنشأة السابقة لفرسان المعبد المطللة على البحر بالقرب من طرف شبه

(١٧) -Disseverance, pp. 227-33; Ambroise, cols. 133-9; Benedict of Peterborough, pp.174-9; Rigold, pp. 115-16; Ernoul, p. 274; Histoire d'Eracles, II, pp. 173-4; Abu Shama, II, pp. 19-29; Bcha ed-Din, P.P.T.S. PP. 238-49; Ibn al-Athir, II, pp.44-6.

الجزيرة . وثارت مشاحنات غير لائقة شوّعت عملية تقصيص الأحياء في المدينة . ذلك أن دوق النمسا ، باعتباره قائدا للحبيش الألماني ، طالب بمكان مماثل للملكي المنفذ في فرنسا ورفع رايته بخوار راية ريتشارد ، لا شيء إلا ليراعا وقد أزعجا الإنجليز وألقوا بها في الحندق أسفل القصر . فكانت إهانة لم يفرها قط ليوپولد دوق النمسا ، وعندما عاد إلى وطنه بعد أيام قليلة كان قلبه مليئا بكرهية ريتشارد . وطالب التحار والنبلاء الفرنج ، الذين كانت لهم أسلاك في عكا من قبل ، بإعادة ممتلكاتهم إليهم ، وكانوا كلهم تقريباً من أنصار كورنارد ، ولذا لجأ إلى الملك فيليب عندما حاول الصليبيون الزائرون إغلاهم عن ممتلكاتهم ، وأسر على تلبية مطالبهم<sup>(١٨)</sup>.

وكانت أول المهام الواجب إنجازها تنظيف كنائس عكا وإعادة ما كان لها من قداسة، وأشرف على تلك المهمة المسدوب البابوي أوبلار (أوف فيرونج)، ثم اجتمع الأمراء معاً لتسوية المسألة الملكية بصورة نهائية . وبعد أن تشاوروا تقرر أن يظل حوي ملكاً إلى أن يلقى حتفه ، فينتقل النواج إلى كورنارد وإيزابيللا وذرتهما ، وفي ذات الوقت يعين كورنارد لوردا لصور وبيروت وصيدا ويقسم هو وحوي العرايد الملكية . ويضمنان المستقبل لكورنارد ، بدأ فيليب يتحدث عن العودة إلى الوطن ، ذلك أنه منذ أن جاء إلى الأراضي المقدسة وهو يعاني من مرض يكاد يكون متواصلاً ، ولقد أدى واجبه المسيحي في المساعدة على استعادة عكا ، وسوف يخلّف وراءه دوق برجندي والقسم الأكبر من جيشه الفرنسي . ومارس ريتشارد حنوطه عينا من أجل إعلان مشروكه بأن الملكين سوف يبقيا في الشرق ثلاث سنوات . وكان تقصيص ما وعد به فيليب هو عدم الهجوم على أراضي ريتشارد الفرنسية إلى حين عودة ريتشارد إلى الوطن ، وهو وعد لم يراع مراعاة تامة . وفي الحادي والثلاثين من يولية غادر عكا إلى صور بصحبه كورنارد الذي صرح بأنه ينبغي أن تدبر أمر أراضي هناك ، لكنه في حقيقة الأمر كان عازفاً عن الخدمة في جيش يسيطر عليه ريتشارد . وبعد ثلاثة أيام أبحر الملك فيليب من صور فاصداً برنديزي<sup>(١٩)</sup>.

(١٨) *Itinerarium*, p. 234; *Emoel*, pp. 274-5; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 175-6; *Chronica Regie Coloniensis*, p. 154 ويرد في تاريخ المستعمرات الملكية قصة شعاع ريتشارد مع ليوپولد دوق النمسا. ويقول *Expediio Friderici*, p. 102. *Ausbert* إن ليوپولد كان مستاءاً من هجوم ريتشارد على أسقف كورنيلوس في تونس، إذ كان ابن عم أب.

(١٩) *Itinerarium*, pp. 228-9; *Anthonis*, cols. 142-3; *Benedict of Peterborough*, II, pp. 227-32; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 179-81. ويقول تاريخ هراي *Emoel*, pp. 277-8; *Rigard*, pp. 116-17; *William the Breton*, pp. 106-90.

ونظر الإنجليز إلى رجيل فيليب على أنه تصرف الجبان وفرار الخائن . غير أنه يبدو أن صحته كانت سيئة حقيقة ، فضلا عن وجود مشاكل في الوطن كان مسؤولا عن إتهاد حلول لها ، كمسألة ميراث الملاتنوز . هذا إلى جانب ارتاب في تأمر ريتشارد عليه وأن زوجته كانت في خطر . وقد دأبت قصة غريبة تقول إن ريتشارد عندما ذهب لزيارة فيليب وهو طريح الفراش في مرضه الشديد قال له كذبا إن ولده الوحيد لويس قد مات ، إما على أنها شكل من أشكال لطمخ الخائن ، أو على أمل شريك في أن تكون الصدمة فوق احتماله . ولقد كان هناك كثيرون في الجيش المسيحي ممن يتعاطفون مع فيليب فيما يعانيه من شتات . وعلى الرغم من أن ريتشارد استأثر بإعلاص رجاله وأعصاب العرب ، إلا أن بارونات الشرق الغربي كانوا يرون في ملك فرنسا العامل الجدير بالأحلام وقد أحسوا بأنه يفهم احتياجاتهم<sup>(٢٠)</sup>.

وبرجل فيليب تولى ريتشارد كامل زمام الجيش والمفاوضات مع صلاح الدين الذي وافق على الالتزام بالمعاهدة التي أبرمها ضباطه في عكا . وبينما اتهمك الصليبيون في إعادة بناء أسوار عكا وتقويتها شرع صلاح الدين في جمع الأسرى والمال المغلول منه وفي الثاني من أغسطس استقبل صلاح الدين في معسكره ضباط مسيحيين يتفكرون موافقة ريتشارد على اقتراحه بتجربة المنفوعات وعودة الأسرى على ثلاث دفعات شهرية ، على أن يطلق سراح الأسرى العرب بعد تسديد الدفعة الأولى . وسمع للزائرين بمشاهدة الصليب المقدس الذي كان صلاح الدين يحتفظ به في حالة من الوقار . وفي الحادي عشر من أغسطس أرسلت الدفعة الأولى من المال وأسرى الصليبيين إلى معسكر المسيحيين ، وعاد سفراء ريتشارد يؤكدون صحة الدفعة الأولى من المال ، غير أن كبار الأسرى وبخاصة من فقدت أصواتهم لم يصلوا جميعا ، ومن ثم قلن يطلقوا سراح جنود السلطان المأمورين في عكا . فعرض صلاح الدين إما قبول دفعة المال مع رهائن عن اللوردات الملقودين وإطلاق سراح رجاله ، أو قبول دفعة المال وترك رهائن لديه ضمانا لإطلاق سراح رجاله ؛ ورفض السفراء العرضين كليهما ، وطلبوا دفعة المال واعطاه مجرد تعهد بتأمين الأسرى العرب . لكن صلاح الدين لا يثق في كلمتهم ، ولذا رفض إعطائهم أي شيء ما لم يفرجوا عن رجاله.

(٢٠) Envois d'Envoies, loc. cit. الذي يذكر قصة تأمر ريتشارد. ويقول، Balu ed-Din (٢٠٠) P.P.T.S. 240 إن الجميع كانوا يعرفون بسلطة ملك فرنسا، ويقول فيما بعد في صفحة 241 إن ملك لغوا كان أقل منه مكانة برغم لوزة عليه في القوة والشجاعة والشهرة.



وفي يوم الخميس الثاني والعشرين من أغسطس خرج ويتشاندو من عكا على رأس الجيش الصيني، وتُضبط كتبه من الكثر من البرابات الثقلين، وأقبلت القنسيون بقيادة هيو بونج حن على المؤخرة متكررين، فلم يكن أحد من الجنود، واقفا في مقاومة للفتنة، فحكم فيها من الرعدة والدغة طولاً والبصر، وأملى ما فيها من علم وغيره، وكم فيها من امرأة تلعب براضى الشهوة ؛ ولم يرهض ما يحرمه أن القنصلين وغيره من المدعى المسكر من النساء الفسقات قد شُبع من غرقانة الجيش في مسيرته ، غير أن قوة الشخصية لدى ويتشاندو تغلبت . وكان صلاح الدين ما يزال في شَرْقِيَّ عِصَى النجف من الطريقين الرئيسيين الأثنين من الساحل ، أجمعها يذهب إلى طبرية ودمشق ، والأخر إلى القنسى عذرا الفاصرة . على أن ويتشاندو أتمه حيلنا بطول الحقائق الساسية حيث يوفر البحر وأسطوله الحماية جناحه . ولذا تبعه يتشاندو من ساحات حربه وعسكر

[illegible]

في تل القبيون على منحدرات جبل الكرمل ومن هناك خرج لتفقد البلاد في منطقة الشاطئ جنوب الكرمل ليختار مكان المعركة.

وحارب المسيحيون حيفا ، وكان صلاح الدين قد نزع عنها أسلحتها قبل سقوط عكا بوقت قصير ، ثم تلف المسيحيون حول أنف جبل الكرمل . وكانت حركتهم بطيئة كي يظل الأسطول محاذاتهم ، وكان ريتشارد يعتقد أنه ينبغي السماح للجنود بالراحة كل ثاني يوم تقريبا ، إذ كانت الرياح في الغرب وقد وجدت السفن صعوبة في الالتفاف حول الموقع ، فكان فرسان العرب يهبطون المعركة بهيئتهم من حين لآخر وينقضون على الجيش في مسيرته ، ويعزلون الشاردين من الجيش ، ويأخذونهم إلى صلاح الدين ، ويستجوبون ، ثم يقتلون انتقاما للذلة عكا ، ولا يغنى عنهم أحد على قيد الحياة سوى القسالات . وفي تلك الأثناء قاد ريتشارد جيشه الرئيسي فوق حافة جبل الكرمل وحسبكر في مكان ما داخل البلاد بعدد قليل من قيسارية<sup>(٢٢)</sup>.

#### ١١٩٩ م : معركة أرسوف

وفي الثلاثين من الشهر ، وبالقرب المسيحيين من قيسارية ، أصبح الجيشان أقرب إلى بعضهما ، واستمر القتال في كل يوم منذئذ . غير أن ريتشارد قاد جيشه بصورة شكية ، فكان عادة في أحسن أحواله في المقدمة ، لكنه من حين لآخر كان يطلق على فرسه إلى الوراء بطول الجيش كله يشجع الرجال . على أن الجو كان في حمارة القيقظ ، والغريبيون مثقلون بالدروع ولم يهتدوا على حرارة الشمس ، فهلك الكثير منهم بضربة الشمس ، وكثيرون فقدوا الرمي وقتلوا حيلسا وقتلوا ، وكعاد دوق برجندي والجنود الفرنسيون أن يبادوا عن آخرهم أثناء قتالهم في المؤخرة خلف عرسات الموت ، لكنهم خلصوا بأنفسهم . لقد كان الحشد كله يكادح كدحا ، صارخا في ضراعة من حين لآخر "Sanctum Sepulchrum adjuva" ساعدنا أيها القبر المقدس.

وبعد أيام قليلة اختار صلاح الدين ساحة المعركة التي قرر أن تكون شمال أرسوف مباشرة حيث يتسع الوادي بما يكفي لإطلاق الفرسان ، وفي ذات الوقت تمجيده جيدا

(٢٢) Innes-Smith, pp.248-56; Anbraz, cols. 132-60; Bcha ed.Dic.,P.P.T.S.pp.275-81; Abu Shama,II, pp.33-6

الغابات التي تمتد جنوباً على مربعة ميلين من البحر - وفي الخامس من سبتمبر طلب ريتشارد التفاوض وقابل المعادل ، أحاً صلاح الدين تحت علم الهدى . على أنه ورغم حالة الانهك التي يعانيها من الحرب ، طلب تسليم فلسطين كلها ، لا أقل . وعلى الفور أوقف المعادل المفاوضات.

وفي صباح السبت السابع من سبتمبر أيقن ريتشارد أن المسلمين سيقرضون عليه معركة ، فراح ينظم رجاله استعداداً لها . وكانت أجهال المون محشة بطول الساحل بحرسها هنري (أوف شامباني) وجزء من المشاة . وكان رسالة السهام في خط المقدمة وحلقهم الفرسان ، وفرسان المعبد على اليمين في الطرف الأخير من الخط . وبعدهم كان الرينون ورجال الجيو ، وبنهم جنود جون بقيادة جوى وأخيه ، جيوغرى (أوف لوسيتان) . وفي الوسط كان الملك نفسه مع جنوده من الإنجليز والنورمان ، ثم القلمنكيون أبناء فلاندرز والبارونات المحليون تحت قيادة جيمس (أوف ألبس)، والفريسيون بقيادة هيو (أوف برندي) وفي أقصى اليسار كان فرسان المستشفى . وبعد إعداد كل شيء انطلق ريتشارد ودوق برندي على جواربهما بطول الخطوط بحثان الجنود ويشجعانهم.

وبدأ العرب هجومهم في الضحى . فكشبت الموجة تلو الموجة من مشاة الرنح والبدو حفيفي السلاح تقضى على المسيحيين ، تطرحهم بوابل من السهام والرمح ، وألقوا في بثرة الخط الأول من جنود المشاة الذين حملتهم القوضى ، بيد أنهم لم يؤثروا تأثيراً يذكر فنى الفرسان بدروعهم . وفضاة قسّم العرب جنودهم ، وانطلق الفرسان الأتراك وقد لعت سيوفهم وفؤوسهم ، وشنوا أعتف هجماتهم على فرسان المستشفى والقلمنكيين وإلى جانبهم البارونات المحليين ، وفي مأموهم الإحاطة بمناح المسيحيين الأيسر . وصعد الفرسان وبعد كل موجة كان رسالة السهام يمدون تنظيم صفوفهم . غير أن ريتشار ، ورغم ما يدعيه من حنكة عسكرية ، لم يكن يسمح لأى جزء من جيشه بالمحجم إلا بعدما يتكون الجميع على لعبة الاستعداد وبعد أن يظهر المهاجمون الأتراك علامات على الانهك وإلى أن يصبح الجيش العربى الرئيسى أقرب . ومرة بعد مرة يرسل السيد الأعظم للفرسان المستشفى إلى ريتشارد متوسلاً أن يعطى إشارة للمحجم ، قائلا إن فرسانه سيصيبهم الزهن سائماً ينسلموا زمام المحجم ، لكن ريتشارد كان لا يزال يأمر بالاضطراب ، فقام فرسان هما مارشال من فرسان المستشفى وبلندوين كاريو بالتصرف وانطلقا إلى الأعداء ، وانطلق حلقهما كليل وفائقهما ، وحلما كل الفرسان بطول الجيش حذوهم فحسوا محيوطهم بالمهايمز . وساد الإضطراب أول

الأمر ، إذ لم يكن رسالة السهام على استعداد وكانوا في الطريق حفر عشرة أسام الفرسان ، وانطلق الملك نفسه إلى وسط المرح في محاولة لإعادة بعض النظام ، وتولى زمام الهجوم . وكان كالم أسرار صلاح الدين على تل قريب يرغب روعة المشهد فغفر فاه أثناء أن كان الفرسان المسيحيون يرددون في طريقهم بالتباعد . وكان ذلك فوق احتمال الجنود المسلمين ، فاندكسرت صفوفهم وهربوا ، لكن صلاح الدين جمعهم في الوقت المناسب للدفاع عن معسكره ، بل قاد هجومًا آخر على العدو ، ولكن دون جدوى وتحول النساء كان الجيش للسيحي سيطرًا على الميدان ويواصل سيرة باتجاه الجنوب<sup>(١٢٢)</sup>.

#### ١١٩٩ م : انتصار ريتشارد

لم تكن معركة أرسوف معركة حاسمة ، لكنها كانت نصرا معنويا ضخما للمسيحيين . وكانت خسائرهم قليلة بصورة باعثة على الدهشة رغم مصراع الفارس العظيم جيبس (أوف البرن) الذي كان واقفا مع خمس عشرة حبة من حبل العرب حوله . على أن خسائر العرب كانت قليلة أيضا بنفس القدر تقريبا ، ولم يسقط أي أمير مرموق ، وفي اليوم التالي جمع صلاح الدين كل رجاله وكان على استعداد لمواجهة أخرى ، لكنها ريتشارد إذ لم يكن من القوة بما يكفي للدخول فيها . كانت قيمة النصر لكن فيما منحه من ثقة للمسيحيين . وكانت هذه المعركة أول معركة كبيرة مكشوفة منذ معركة حطين ، وأظهرت إمكان هزيمة صلاح الدين . ولكنها قد وقعت بعد الاستيلاء على عكا مباشرة ، فقد بدأ ذلك مؤشرا على أن اللد قد تحول وأن بالامكان تحرير القدس ذاتها مرة أخرى . وكانت شهرة ريتشارد في أوج ارتفاعها . ومن الحق أن هجوم الانتصار - شق بالمعاهدة لأرمره ، لكنه لم يحدث سوى قبل دقائق قليلة من اكتمال استعداداته ، إن لمالكه نفسه من قبل ، وتوجهه للهجوم من بعد أنه هزم قدره فائقة على القيادة . فكان ذلك بشرا مستقبلي الحملة الصليبية.

ومن الناحية الأخرى ، أصيب صلاح الدين بمهانة شخصية وعامة . فجيسته لم يكن ذا فعالية في عكا والآن هزم في معركة مكشوفة . وكشأن سلفه العظيم نور الدين ، كان صلاح الدين يفقد شيئا من مكانته وسيطرته على الرجال وهو يتنقل نحو

(١٢٢) *Memories*, pp.256-78; *Antenise*, cols. 160-78; *Behn ed-Din*, P.P.T.S. pp.281-95; *Abu Shama*, I, pp.36-40

الشيخوخة . كانت صحته سيئة وقد عانى من نوبات متكررة من اللاريا . وقد تراجعت قوته عما كانت عليه أيام شبابه في فرض قراراته على الأمراء المشاكسين الذين كانوا أتباعه ، وكان كثيرون ينظرون إليه على أنه حديث النعمة ومفتصب ، وإذا ما بدأ لجمه بنحدر كانوا سراعا في الظهار ثمروهم من تبعيته . لقد كان كثيرون عليه أن يقبل تعوق ريتشارد عليه في القيادة العسكرية . وفعل كل شيء ، لا ينبغي له أن يفقد القدس التي كان أسرارها أكبر انتصاراته الهيدة . وقد أخذ جيشه في نظام جيد إلى الرملة الواقعة على الطريق إلى القدس ، انتظارا لما سيقدم عليه ريتشارد في حركته التالية.

واصل الجيش الصليبي سيره إلى يافا وشرع في إعادة بناء تحصيناتها . وحتى آنذاك كان ريتشارد يتوحي أن يكون الأسطول إلى جانبته لتزويده بالذون ، ولم يكن على استعداد للوقوف داخل البلاد إلى المدينة المقدسة بدون قاعدة قوية على الساحل ، فضلا عن أن جيشه قد أصابه الكتل بعد سيرة الطويل جنوب الساحل بحيث كان في شدة الحاجة إلى الراحة . وقد أحدث حذره وتأخيره الكثير من الخيرة للمؤرخين ، إذ لو أنه اتجه بسرعة خاطفة إلى القدس لوجد بها حامية واعدة ولوجد أسوارها ضعيفة ، على أن جيش صلاح الدين كان قد هُزم فقط ولم يُهزأ ، وما زال جيشا جديرا ، وحتى لو أفلح ريتشارد في اقتحام طريقه إلى القدس ، لأصبح معزولا عن الساحل ، فكان من الحسنة التأكد من يافا قبل الشروع في مغامرة أكبر . ومع ذلك ، كان التأخير مفرطاً ، وأتاح لصلاح الدين تقوية دفاعات المدينة المقدسة . ثم إنه عيسى أن يتجه ريتشارد إلى عسقلان ويقوم بها قاعدة ، ومن ثم يقطع عليه الطريق إلى مصر التي هي بمثابة مصبيرة الرئيس من الرجال ، ولذا أخذنا قسماً من جيشه من الرملة إلى عسقلان وراح يحفلمها تحفلماً رتباً يرغم ثرائها وأزدهارها<sup>(٢١)</sup> . وفي تلك الأثناء راح الجيش اللسيحي يسبح فيما تتيحه يافا من أسباب الراحة ؛ فالحياء فيها ناعمة ، والحانات من حولها بألوان الثمار زاهرة ، والسفن تحلب للذون الوفرة ، كما تستحلب من عكها عافرات النساء ليتسلى بهن الرجال . وبقي العرب على مسافة من المدينة ، ولم تحدث سوى مناوشات قليلة بين الفرسان في سهل اللد في ضواحي المعسكر . ودأبت في الجيش حيلة التواصي والنعومة ، ولقد أخذ الكثير من الجند سيبلهم عائدين إلى عكا ، فاضطر ريتشارد إلى إرسال الملك حوى لحثهم على العودة إلى المعسكر ، لكنهم لم يعبروه التقاء فكان من

(٢١) Abu Siana, s.pp.41-4. P.P.T.S.pp.295-300, Bcha cd-Dia, P.P.T.S.pp.280-3. وتظهر أن الأمر كان صلاح الدين لأمره على خلاف رغبته فيما يتصل بعسقلان.

الضروري أن يذهب ريتشارد نفسه إلى عكا كي يجمع شملهم مرة أخرى<sup>(٢٥)</sup>. وكان لريتشارد خوفه الذي تلقاه ، إذ لم يكن راضيا عن سير الأمور في عكا وما يليها ، مما جعله يتردد كثيرا في الذهاب. كما كانت هناك اضطرابات في قبرص بعد موت ريتشارد (أوف كامبل)، وبعد الصعوبات التي واجهها روبرت (أوف تورنهام) في الحملات. وساورته المخاوف مما قد يفعله الملك فيليب في طريق عودته إلى فرنسا ، ووجد ريتشارد حلا لمشاكله في قبرص بأن يبيع الجزيرة للفرسان المعبد<sup>(٢٦)</sup>. على أنه كان متلهفا على الشروع في التفاوض مع صلاح الدين ، وهذا الأخير على استعداد لسماع مقترحاته ، فأجاب أخاه العادل للتفاوض باسمه.

#### ١١٩٩م : ريتشارد يتفاوض مع العادل

كان هينري (أوف تورون) كفضل دارس للغة العربية في الجيش ، وكان ريتشارد يميل له عاطفة عميقة . لما أن وصل ريتشارد إلى يافا حتى أرسل هينري إلى اللد حيث يتولى العادل القيادة لمناقشة الشروط الأولية لعقد هدنة ، لكن شيئا لم يقرر. وكان العادل دبلوماسيا ماعرا ، وكبح جماح أخيه في تلهفه على تسوية . وأبحت لدبلوماسيته فرصة رائعة عندما حابه صيغتون في أكتوبر من صور يسألونه إن كان على استعداد لاستقبال سفارة من كورتاد . وكانت أول مطالب ريتشارد التي لا يتنازل عنها استرداد القدس وكل البلاد الواقعة إلى الغرب من نهر الأردن وعودة الصليب المقدس . وأرسل صلاح الدين رده قائلا إن المدينة المقدسة هي مدينة مقدسة للإسلام أيضا ، ولا سبيل لإعادة الصليب بدون بعض التنازلات في المقابل . وبعد أيام قليلة تقدم ريتشارد بمقترحات جديدة . إذ أنه - كشأن الصليبيين جميعا - كان معبئا بالعادل الذين أطلقوا عليه سيف الدين ، واقترح أن يتسلم العادل فلسطين كلها التي يملكها صلاح الدين الآن ، وأن يتزوج العادل من أمت الملك - الملكة حوآنا الصغيلة - التي يتعين أن تزحف لها المدن الساحلية التي استولى عليها ريتشارد ، بما فيها عسقلان، وأن يعيش الميرسان في القدس التي ينبغي أن تتوفر للمسيحيين امكانية الوصول إليها ، وأن يسترد الصليب ، وأن يفرج عن جميع الأسرى من الجانبين ، وأن

(٢٥) *Itinerarium*, pp.283-6; *Ambrise*, cols. 187-9.

(٢٦) *Benedict of Peterborough*, u.pp.172-3; *Emoul*, p.273; *Enstre d'Enoch*, u. pp.170,189-90.

يسرد فرسان المعبد وفرسان المستشفى ممتلكاتهم الفلسطينية . ودُعب كاتم أسرار صلاح الدين في زيارة لصلاح الدين ومعه العرض ، واعتبر صلاح الدين العرض طرفه من الطوائف ووافق عليه في مرج . على أن ريتشارد ربما كان حاداً تماماً في عرضه . وأما الملكة جوانا، التي انضمت إلى ريتشارد في باغا مع الملكة بيرينجاريا، فقد ارتفعت لدى سماعتها الاقتراح ، وقالت إنه ليس فة ما يدفعها إلى الزواج من مسلم . وبعد ذلك ، سأل ريتشارد العادل إن كان يعتقد أنه أن يتفكر في أن يصبح مسيحياً . ورفض العادل في أدب هذا الشرف ، ودعا ريتشارد إلى وليمة فاعرة في القلعة في القدس من نوفمبر ، فكان مهرجاناً بهيجاً وافترقا بتأكيد مشاعر الود إزاء بعضهما وفي جمعية كل منهما كثير من القديا. بيد أنه في نفس تلك اللحظة كان صلاح الدين يتسلل في معسكره القريب بسفير أرسله كوتراد - ويخوندا الجذاب أمير صيدا - الذي غفر له السلطان أخاييله في بيوفورت.

وفي الصباح التالي استقبل صلاح الدين مبعوث ريتشارد - همفري (أوف تورون) - الذي جاء بعرض يقضي بالاعتراف بالعادل حاكماً لفلسطين كلها طالما سيكون المسيحيون نصب في القدس . وكان المأمول أن تحري ثريبات الزواج من جوانا ، رغم اعتراف ريتشارد بأن الرأي العام المسيحي قد أصيب بنوع من الصدمة من هذه الفكرة، ويعتقد ريتشارد أن تدخل النظام البابوي قد يجعل جوانا تغير رأيها ، وفي هذه الحالة يستطيع العادل أن يتزوج ابنة اخته - إليانور (أوف برتاني) - التي يمكنها الزواج دون تدخل بابوي باعتبارها تحت وصاية الملك ، وبهذا تتم تسوية كل ذلك ، سيجتمع ريتشارد إلى أوروبا . وكان عرض كوتراد أقل إثارة ، ففي مقابل حصوله على صيدا وبيروت سوف يتخاصم مع الصليبيين الآخرين ، بل اقترح عودة عكسا إلى المسلمين . على أنه عندما سألوا السفير ما إذا كان كوتراد سيحمل السلاح فعلا في وجه ريتشارد، راولغ في رده.

وعقد صلاح الدين مجلساً لقرار أي الخزيين الفرنسيين الذي تنشر معه المباحثات. وصوت العادل وأمره آخرون في جانب حزب ريتشارد ، وربما لم يكن ذلك بدافع استنطاقه وإنما لأنه سرعان ما سيغادر فلسطين ، بينما كوتراد ، وكانوا جميعاً يشعرون بشئ من الخشية حياله كان ينوي البقاء في فلسطين على الشواطئ . وقيلت مقارحات ريتشارد من حيث المبدأ ، غير أن حاشية همفري شعرت بالخزن يوماً ما عندما شاهدت ريتالد أمير صيدا يخرج في رحلة صيد مع العادل وقد بدأ الإنسان على علاقة

وعطيدة ودودة . وواقع الأمر أن العادل تدبر إطالة المفاوضات إلى أن حل الشتاء<sup>(٢٧)</sup>. وفي تلك الأونة كانت الحروب بين الجيشين متقطعة ومتفرقة . وفي أحد أيام شهر نوفمبر ، وبينما كان ريتشارد في رحلة صيد بالصقور ، سقط هو نفسه في كمين عربي ، وأوشك العرب أن يأخذوه لولا شهامة الفارس وإسم (أوف برو) الذي صاح بأنه هو الملك وحل محل الملك في الأسر ، وقد سقط بعض الفرسان الآخرين في ذلك اليوم ، على أنه بخلاف تلك المناوشات الطفيفة لم يكن هناك اشتباك حدير بالذكر<sup>(٢٨)</sup>.

#### ١١٩٢ م : ريتشارد في بيت توبا

عندما بدأت أمتار نوفمبر هطولها سرح صلاح الدين نصف جيشه وعاد مع الباقين إلى مقره الشتوي في القدس . وكانت التمريرات في طريقها من مصر . غير أن ريتشارد رفض أن يتخطى الجو عن عزمه ، ففي منتصف الشهر قاد جيشه ، الذي زاد عدده بفصائل جديدة أتت من هناك ، خارجاً من يافا حتى الرملة التي وجدها وقد هجرها العرب وفككوا حصونها ، وبقي فيها ستة أسابيع ينتظر الفرصة لملاحق على القدس ، ودأب العرب على الإغارة على عائلته الأمامية ، وكاد هو نفسه أن يقع في الأسر عندما كان يقوم بأعمال استطلاع بالقرب من قلعة بلاتشارد ، وفي اشتباك آخر وقع في الأسر أحد الوجهاء ، هو إيرل ليشستر لكنه أفرج عنه فيما بعد . وخلال الأيام الأخيرة من العام كان الجو من سوء بحيث سحب صلاح الدين فرق الإغارة التابعة له . وأمضى ريتشارد عيد الميلاد في لاترون الواقعة على حافة تلال يهودا ، وفي الثامن والعشرين من ديسمبر تمسك جيشه شمالاً في التلال دون أن يعرضه الأعداء . وهطلت الأمطار بغزارة شديدة واستحالت إلى سيول ، وغرق الطريق في الطين، وهبت رياح عاتية خلعت قوائم الخيام قبل التمكن من نصب أية خيمية . وبحلول الثالث من يناير كان الجيش قد وصل إلى بيت توبا التي لا تبعد عن المدينة المقدسة سوى اثني عشر ميلاً . ولتلا الجنود الإنجليز والفرنسيون حماساً ، وبملازمهم على هذا النحو من هدفهم الذي بات وشيكاً هانت عليهم المشاق التي عاثوها في المعسكر في هذا الارتفاع تحت الرياح المظفرة ، والدمار الذي سببته الأمطار لمخزوناتهم من البسكوت والخنازير ،

(٢٧) ٢٩٥-٢٩٦، pp. ٢٩٥-٢٩٦، *Itinerarium*، ويورد بهاء الدين ٣٥-٣٠٢، pp. ٣٠٢-٣٠٢، *P.P.T.S.* رواية منقولة عن المفاوضات

١، pp. ٤٥-٤٥، *Abu Shama*،

(٢٨) ٨-٢٨٦، pp. ٢٨٦-٢٨٦، *Itinerarium*،



وهما علمانهم الرئيسي، وما قلده حياذ كثيرة بسبب البرد وتقص التغطية، وما عانوه من كدح ورجل. على أن الفرسان من ذوي الدراية بالبلاد - فرسان المستشفى والعبد والبارونات المولودين محليا - كان لهم وجهة نظر أكثر حصانة ومنا على الأسى ذلك أنهم قالوا للملك ريتشارد إنه حتى إذا تمكن من التوغل فوق التلال الطينية عتوقا العواصف إلى القدس، وحتى لو تمكن من محاصرة جيش صلاح الدين هناك، فإن هناك جيشا عربيا آتيا من مصر سوف يعسكر على التلال خارج المدينة، وبهذا سيقع بين شقي الرمح. وأضافوا أنه حتى لو تمكن من الاستيلاء على القدس، فماذا بعد ذلك؟ فالفاروق الصليبيون سيعدون جميعا إلى أوطانهم في أوروبا بعد حجبهم، وليس الخنود الخليين بما يكفي من العدد للصدور بها في وجه قوات الإسلام المتحد. واقتنع ريتشارد. وبعد تردد دام خمسة أيام اتخذ القرار الصائب بالانسحاب<sup>(٢٩)</sup>.

وعاد الجيش أدراجه غاضبا وقد وهنت عزيمته عتوقا الخليين إلى الرملة، وتحمل الإنجليز حية الأسل بشتات، لكن الفرنسيين بطبعهم المتقلب سرعان ما شرعوا في التخلي عن الجيش فهرب الكثير منهم إلى يافا وبينهم دوق برحدي، بل ذهب البعض إلى عكا. وأدرك ريتشارد أنه من الضروري القيام ببعض النشاط حفاظا على معنويات الجنود، وفي العشرين من يناير عقد مجلسا آزره في إصدار الأوامر للجيش بالتحرك من الرملة والاتجاه إلى البين في الطريق إلى عسقلان. وهناك شرع في إصلاح تلك القلعة العظيمة التي سبق أن دثر صلاح الدين تحصيناتها قبل أشهر قليلة. وكشأن صلاح الدين، كان ريتشارد يدرك أهميتها الاستراتيجية. وحث الفرنسيين على الانضمام إليه هناك<sup>(٣٠)</sup>.

وأضى ريتشارد الأشهر الأربعة التالية في عسقلان، لم يغادرها إلا مرة واحدة زار فيها عكا. وقد جعل من عسقلان أقوى قلعة على الساحل الفلسطيني كله. ولعدم وجود مرفأ بها، لم يكن من اليسر دائما تفرغ مؤن الطعام الآتية بطريق البحر، فضلا عن أن الأسوار الخوية في ذلك الشتاء كانت دوما سيئة ولم يفعل صلاح الدين شيئا لمضايقتهم، وقد ظن البعض من أتباع ريتشارد أن قروسية صلاح الدين منعه من مهاجمتهم وهم على مثل هذه الحالة الضعيفة، الأمر الذي أثار سخط أمراءه. على أن حقيقة الأمر أن صلاح الدين كان يريد جيشه أن يسرع، وكان ينتظر التعزيزات من

(٢٩) Ibid. pp. 303-8; Ambrose, cols. 203-8.

(٣٠) Itinerarium, pp. 309-12; Ambrose, col. 208-11; Abu Shama, n. p. 51.

الجزيرة والموصل . وربما كان بعض أمراءه ساعطين حقا وأن لم يكن ذلك لإحجانه عن مهاجمة الصليبيين بالضرورة ، وهو لا يسهه المأزفة بمركة وهم على ما هم عليه من سوء الطبع<sup>(٣١)</sup>.

هذا فضلا عن أن الألباء الآتية من عكا تشير إلى تشتت الفرنج ، ففي فبراير استدعى ريتشارد كونراد إلى عسقلان للمساعدة في الأعمال الجارية ، لكن كونراد أرسل ردا غفلا . وبعد أيام قليلة تغلى هيو (أوف برجندي) وكثير من الفرنسيين عن الجيش وغروا إلى عكا . وكان الملك فيليب قد ترك للدوق قدرا زهيدا للعبية من المال لقروائب الجند ، ومنذ آنذاك وروايتهم يدفعها ريتشارد على هيئة قروض . على أن ثروة ريتشارد الضخمة بدأت تنقص ، ولذا كفى عن تمويلهم . وفي عكا اشتد التنافس بين أبناء بيزا وأبناء جنوا ، ولكل منهما الآن الكثير من الرجال والسفن الراسية ، وشيئا فشيئا تحول التنافس إلى حرب مفتوحة . وزعم أبناء بيزا أنهم يحملون باسم الملك جوى، فاستولوا على المدينة برغم معارضة هيو (أوف برجندي) الذي كان قد وصلها من فورس ، واستولوا المدينة ثلاثة أيام معتبرين أنها لا تفتح لميو ولا لكونراد ، ولا لأبناء جنوا ، وأرسلوا إلى ريتشارد يلتمسون منه الحضور لمساعدتهم . وفي العشرين من فبراير وصل ريتشارد إلى عكا وحاول إحلال السلام ، وأجرى مقابلة مع كونراد في كاسال امريت الواقعة على الطريق إلى صور ، لكن المفاوضة لم تفلح ، إذ كان كونراد لا يزال يرفض الانضمام إلى الجيش في عسقلان ، حتى عندما هدده ريتشارد بأنه إذا أمر على رفضه الانضمام إلى الجيش فسوف تُصادر أراضي جميعها ، وهو تهديد يستحيل تنفيذه. وفي نهاية الأمر تفلح ريتشارد في ترقيع هدنة هشة ، ثم عاد إلى عسقلان وقد اقتنع أكثر من أي وقت مضى بضرورة تحقيق السلام مع صلاح الدين<sup>(٣٢)</sup>.

#### ١١٩٢ م : مفاوضات جديدة

وكان ريتشارد ما يزال على اتصال بالعاذل . فأرسل مبعوثا انجليزيا هو ستيفن (أوف نورنهام)، في زيارة للفلس لمقابلة السلطان وأخيه ، وأصيب المبعوث بالصدمة لدى رؤيته وينالد أمير عينا وباليان أمير ابلين وهما يخرجان من بوابة المدينة . ولم تكن

<sup>(٣١)</sup> *Itinerarium*, pp.313-17, Ambroise, cols. 212-14

<sup>(٣٢)</sup> *Itinerarium*, pp. 319-24, Ambroise, cols. 218-21.

مفاوضات صلاح الدين مع كونراد قد انقطعت ، وكان وجود باليان نذيرا سينا ، إذ كان فارسا يخطي بتقدير كبير من صلاح الدين . على أية حال انطلق العادل على حواره في العشرين من مارس هابطا إلى معسكر ريتشارد وهو يحمل عرضا نهائيا بأن يحتفظ المسيحيون بما استولوا عليه ، ولهم الحق في الحج إلى القدس حيث يمكن للاجئين الاحتفاظ بقساوسة ، وأن يبقى معهم الصليب المقدس ، ومن حقهم ضم بيروت كذلك في حالة هدم حصونها . واستقبل الملك السفارة استقبالا حسنا حقا ، وكعلامة على التشريف الخاص طُوق أحد أبناء العادل بحزام الفروسية ، ولا شك في أن المظاهر للمسيحية المعتادة قد أُلغيت من الاحتفال . وعندما رجع العادل إلى أخيه في أوائل أبريل، بدا أنه قد تم التوصل أخيرا إلى تسوية<sup>(٣٣)</sup>.

وتأكدت ضرورة التسوية بعد أيام قليلة ، عندما وصل من القلندرا رئيس أدبرة هيرفورد ليخبر ريتشارد بأن الأمور تسير بصورة سيئة في القلندرا . ذلك أن أعا الملك ، جون ، كان يتعصب السلطة أكثر فأكثر ، وتقدم كبير القضاة ولهم أسقف إيلي متوسلا ريتشارد أن يذهب إلى الوطن على الفور . وكان ريتشارد قد أمضى عيد الفصح ، الخامس من أبريل ، في المعسكر وهو حزين لرحيل الفرنسيين الباقين بعد أن استدعاهم هير (أوف برجندي) في الشمال . والآن ، وأكثر من أي وقت سابق ، يتعين أن تُخمد المشاحنات بين الصليبيين ، ولذا أمر الملك ب عقد مجلس من الفرسان جميعا وبارونات فلسطين ، وأخبرهم بأنه سرعان ما سيغادر البلد ، ويجب الانتهاء إلى قرار فيما يتعلق بتاج القدس عارضا عليهم الإختيار بين الملك جوى و المركز كونراد . وصدمة الآ بعد موبدا واحدا لجوى ، كانوا جميعا يرددون كونراد.

وكان ريتشارد من الحكومة والأرمنية بحيث يرضع للقرار ، ووافق على الاعتراف بكونراد ملكا، وانطلقت بعثة برأسها ابن أخيه هنرى (أوف شامباني) إلى صور لتقل الأعباء الحسنة إلى المركز.

وعندما وصل هنرى إلى صور في العشرين من أبريل تقريبا كانت البهجة بالغة . وتقرر أن يجري الترويج في غضون أيام قليلة في عكا ، وكان متوهما أن كونراد سوف يرضى في نهاية الأمر بالانضمام إلى المعسكر في عسقلان . ورحل هنرى من صور على الفور إلى عكا لإعداد المدينة للاحتفال<sup>(٣٤)</sup>.

(٣٣) Behn ed-Din, P.P.T.S. pp. 328-9, Itinerary, p.337.

(٣٤) Itinerary, pp.329-38, Arabreise, cols. 225-31.

## ١١٩٢ م : اغتيال كورنراد

وكعب كورنراد على ركبته لدى سماعه الأبناء ضارعا إلى الرب قائلا إنه إن لم يكن حديرا لأن يصبح ملكا، فلا يأذن الرب بذلك . وبعد أيام ثلاث ، وفي يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من إبريل ١١٩٢ ، اضطرت زوجته الأميرة إيزابلا إلى الانتظار طويلا قبل تناول العشاء ، إذ كانت قد بقيت في حمامها مريضة تزيينا طويلا، ولذا قرر الخروج لتناول عشاءه مع صديقه القديم أسقف بوفيه . لكنه وجد الأسقف قد فرغ من تناول وجبهته . ورغم الإلحاح عليه كي ينتظر ربما يتم إعداد الطعام له ، انطلق في مرج فاصدا بيته . وبينما كان يجتاز منعطفا حادا برز له رجلان أعطاه أحدهما خطابا يقروءه ، بينما منعه الآخر في حسده . وحمل إلى قصره وهو يمتننر .

فأما أحد الرجلين فصرع على الفور ، واقتيد الثاني واعتُرف قبل اغتياله بأنه ورفيقه من الخشاشين ، كلفهما سيد الجبل، الشيخ سيبنان ، بتنفيذ المهمة . وكان الخشاشون قد توخوا حياتا هاما طوال تلك الحملة الصليبية، مما أتاح لهم الفرصة لتقوية حصونهم وتكتيس المزيد من القوة . وكان كورنراد قد أساء إلى الشيخ سيبنان بعمل من أعمال الفرقة أقدم عليه ضد سفينة تجارية محملة بنفيس البضائع كان الخشاشون قد اشتروها . ورغم اعتراضات سيبنان ، لم يرجع كورنراد البضائع ولا البحارة الذين غرقوا كلهم في الواقع . وربما كان سيبنان يمتنى من أن تعرض أراضيه للخطر في نهاية الأمر من إنشاء دولة صليبية قوية على الساحل اللباني . وقبل أن القتالين كانا قد أمضيا بعض الوقت في صور ينتهزان النهضة الموائية ، وأنها قبالا حتى التعبد تحت رعاية كورنراد وباليان . غير أن الرأي العام كان يبحث عن دوافع أعمق ؛ فقال البعض إن صلاح الدين دفع رشوة لسيبنان كي يقتل ريتشارد و كورنراد كليهما ؛ لكن بعض سيبنان من أن يؤدي مقتل ريتشارد إلى أن يصبح صلاح الدين حرا في الزحف على الخشاشين ، ولذا تولى تنفيذ المهمة الأخيرة . وهناك نظرية أخرى أكثر شيوعا وهي أن ريتشارد نفسه قد رتب الإغتيال . وليس تواملا صلاح الدين على الإغتيال حديرا بالتصديق ؛ وريتشارد - برغم كراهيته الشديدة لكورنراد - لم يستخدم قط سلاح الإغتيال هذا ، لكن أهله ، وعلى رأسهم أسقف بوفيه ، رفضوا تصديق برأيه<sup>(٣٤)</sup>.

(٣٤) *Itinerarium*, pp. 337-42; *Anthonise*, cols. 233-8; *Ernest*, pp. 288-90; *Eutire* (٣٠٠) *d'Eracles*, II, pp. 192-4; *Beha ed-Din*, *P.P.T.S.* pp. 332-3; *Abu Shama*, I, pp. 52-4

وكان مقتل كوتراد بمثابة صدمة للمملكة الوليدة . ذلك أن كوتراد اللفظ المسموح  
عندهم الخلق والذي مع ذلك حاز ثقة وانحجاب النبلاء المحليين من القرنين ٩ ، كان حرماً  
بأن يكون ملكاً قريباً مأكراً . ومع ذلك ، كان هناك بعض الجيوش لاستغلاله ؛ إذ  
توفرت حرية الاختيار لوريثة المملكة - إيزابيلا - لأن تتزوج وتضع الناح على رأس  
مرشح آخر أقل إثارة للصلوات . ولقد أسرع هنري (أوف شامباني) ، لدى سماعه  
بالإختيال ، عائلاً من عكا إلى صور حيث وجد الأميرة الأرملة وقد أغفلت على نفسها  
القلمة رافضة تسليم مفاتيح مدينتها لأي شخص عدا ممثل ملك فرنسا أو ممثل ملك  
الانجلو . وما أن وصل هنري حتى نادى به أبناء صور على أنه الرجل الذي ينبغي أن  
يتزوج أميرتهم ويرث العرش ، لاسيما وأنه كان شاباً ، وذا شهامة ، ويحظى بالشعبية،  
وأن انت كل من الملكين . ورضيت إيزابيلا لتصبح هامة الناس ، فوهبت نفسها  
ومفاتيحها هنري ، وأعلنت سميتهما بعد يومين من الخيال كوتراد . وقد رأي البعض  
أنه كان من اللائق التأخير أكثر من ذلك ، وكان من المشكوك فيه ما إذا كان التزوج  
مرة أخرى في غضون عام أمراً قانونياً من الناحية الكنسية . وكان لدى هنري نفسه  
بعض القنور ، على خلاف إيزابيلا التي كانت أسركة بالغة الفتنة في ريمها الحادي  
والعشرين غير أنها سبق أن تزوجت مرتين ، ولديها الآن طفلة وضيعة سوف ترثها .  
ويبدو أن هنري قد أسر على أن يصادق ريتشارد على الخطبة ، فأرسلت الرسل التي  
جاءت بهنري إلى عكا حيث قابل ابن أخته . وأصبح أنه أحس هنري بما يساوره من  
شكوك ، وتلقفه إلى العودة إلى الوطن حيث أراضيه الفسيحة في فرنسا . على أن الحل  
واق في عين ريتشارد وتصبح هنري بقبول اغتلاه العرش ووعده بأنه سوف يرجع يوماً  
ما بمساعدة جديدة لمملكته ، ورفض أن ينفذ له النصح حول الزواج ؛ ولكن هنري لا  
يستطيع أن يفلو ملكاً بغير زواجه من إيزابيلا . وفي الخامس من مايو ١١٩٢ - وبعد  
أسبوع واحد تماساً من التزمّل - دخلت إيزابيلا عكا وهنري إلى جانبها . وصرح  
الشعب كله لتحيتهما ، وأقيمت احتفالات الزواج بين مظاهر الفخامة والبهجة ، ثم أن  
الأميرة وزوجها اتخذوا من قلعة عكا مكان إقامتهما<sup>(٣٦)</sup>.

(٣٦) *Monarchie, pp. 342-3; Antioche, cols. 238-9* (٣٦) *Monarchie, pp. 342-3; Antioche, cols. 238-9*  
أعبر هنري ، وأبناء الفرنسيون ، لكن ريتشارد لم يكن ليأزم نفسه ؛ وأما *Ernest, pp. 290-1*  
شأنه *Abu Shama, loc. cit.* إن إيزابيلا كانت سكي عدا تزوجت هنري . ومع ذلك ربما كانت  
ليتها ماريا قد ولدت قبل مصرع كوتراد.

## ١١٩٢ م : ريتشارد يستولي على دارون

ولقد كان زواجها سعيدا ، فسرعان ما حاصت أعمام هنري بمب زوجته حتى ما يكاد تشمل غبايها عن نافرته . وهي الأخرى وجدت سحره لا يقاوم بعد أن عانت من جهامات ذلك المحرور القادم من إقليم بيدسوت الإيهشالي والذي أحمرت على الزواج منه قسرا.

وقد ثقل ريتشارد فعلا عن تلك الحوي ، بعد أن فهم أميرا أن لا أحد في فلسطين يرتقى أي نوع من ذلك المعامل السابق الذي لا خير فيه . بيد أن هناك مستقبل قيرص الذي يتعين تدبره ، وكان عازفا عن الاحتفاظ بتضابط في الجزيرة عندما يرجع إلى أوروبا ، كما أن فرسان المعبد ، الذين ساع لهم حكومة قبرص ، كانوا يقتفرون إلى الحكومة في معاملة المواطنين اليونانيين ، ولما لم يبدونها إليه ، ولذا سمح لحوي أن يشتري منهم حكومتها بعد أن طلب لنفسه مبلغا إنشائيا ، لم يدفعه حوي كاملا في واقع الأمر . وفي وقت مبكر من شهر مايو ، هبط حوي في جزيرة قبرص وله كامل السلطة ليحكمها كما يحلو له<sup>(٣٧)</sup>.

وبعدما استقرت تلك الأمور كلها ، وحثه ريتشارد الدعوة إلى هنري للانضمام إليه في عسقلان . وكانت هناك شائعة تفيد بأن أحد أبناء أصبي صلاح الدين في الجزيرة شرع في فرد عظيم ضد السلطان ، ولذا قرر ريتشارد شن هجوم مفاجئ على دارون الواقعة جنوب الساحل بعشرين ميلا ، وخاصة وأن معاهدته مع العرب لم يتم التصديق عليها بعد . غير أن هنري تلقا مع الجيش الفرنسي في عكا ، فلم ينتظرهم ريتشارد وإنما زحف بمرا وبمرا على دارون ، وفي الثالث والعشرين من مايو ، بعد حملة أيام من القتال المستمر ، قصف أسفل المدينة واستسلمت حامية القلعة . ولم تعلم ريتشارد شيئا من شهامة صلاح الدين ، إذ قتل بعض رجال الحامية بالسيف ، وألقى بالعض من أعلا أسوار القلعة ، واقتاد البعض في عيردية سرمدية<sup>(٣٨)</sup>.

طربت قلوب الصليبيين باستيلائهم ذلك اليسر على آخر قلاع صلاح الدين الساحلية ، حتى أنهم عطفوا مرة أخرى الرحف على القدس . ووصل هنري والفرنسيون إلى دارون غداة الاستيلاء عليها ، في الوقت المناسب لتضاء عيد العصرة

(٣٧) للإطلاع على بيع قبرص أنظر: Hill, *History of Cyprus*, II, pp. 36-8, 67-9.

(٣٨) *Itineraries*, pp. 352-6; Ambrose, cols. 245-51; Beha ed-Din, P.P.T.S. pp.337, Abu Shama, II, p. 54.

هناك مع الملك . ثم إن الجيش عاد بعد ذلك مباشرة إلى عسقلان ، وراح الفرنسيون والإنجليز سواء بسواء يثرون الملك على شن هجوم عاجل على المدينة المقدسة . وكان ريتشارد قد وصله ثروه المزيد من الأنبياء الثقيلة من إنجلترا ، وساورته الريبة عما إذا كانت الحملة ستكون مبدية من الناحية العسكرية ، وانصرف إلى قرائه في حيرته ، ولم يوقفه إلا إعجاب عسكر صغوه سلمه له أحد قساوسته الفرنسيين ، وأقسم على البناء في فلسطين حتى عيد الفصح التالي<sup>(٣٩)</sup>.

في السابع من يولية انطلق الجيش الصليبي مرة أخرى من عسقلان . وبحلوله الرحلة في سوره خلال بلانشجارد ، وصل لاثرون في العاشر وبيت نوبا في الحادي عشر وهناك توقف ريتشارد وبقي الجيش هناك شهرا . وكان صلاح الدين ينتظر في القدس التي وصفتها التواريخ من الموصل والجزيرة لنرها . وكان تقدم المسيحيين أكثر من ذلك في التلال بلا مخزون طعام أو دواب أمتعة أسرا يتصرف بالحملقة . وانتهى الأمر بالجنائين إلى المناوشات بينهما بدرجات متفاوتة من النجاح . وفي أحد الأيام ، وبينما كان الملك ريتشارد على حواده على التلال فوق إمارس ، شاهد على البعد فجأة أسوار وأبراج القدس ، فسارع بتغطية وجهه بترعته حتى لا يشاهد المدينة التي لم يأذن له الرب بتخليصها . بيد أنه كان هناك بعض الجوعى ففى أحد الأيام حاء إلى المعسكر أسقف اللد السوري ومعه قطعة من الصليب الحقيقي كان ينفذ بها ، وجاءه بعد ذلك بغليل رئيس الدبر البوناتي مار إلياس ، وهو رجل وقور بلحية بيضاء طويلة ، وكفزي إلى الملك بالمكان الذي دفن فيه قطعة أخرى من الصليب لكي ينقلها من الكفرة ، واستفروا المكان وأمرحوها وأعطوها لريتشارد . وكانت القطعتان هزأ للجيش عن فشله في استعادة الجزء الرئيسي لهذا الأثر الحام الذي يسمو أن صلاح الدين قد أعاده الآن إلى كنيسة القبر المقدس في القدس.

وفي العشرين من يولية ، عندما كان قواد الجيش مزودين في التحمل عن محاولة الهجوم على القدس والتوجه بدلا من ذلك إلى مصر ، جاءت أنباء بأن قافلة إسلامية ضخمة آتية من الجنوب في طريقها إلى المدينة المقدسة . وبعد ثلاثة أيام التقى عليها ريتشارد عند الخوض الدائر ، أو أبار كويقا ، في المنطقة الجنداء على بعد عشرين ميلا تقريبا جنوب غرب الخليل . ولم يكن للمسلمون على استعداد لمهاجمة هذا الهجوم ، وبعد معركة قصيرة وقعت القافلة كلها في أيدي الصليبيين ، بنفسي بضائعها ، وما كانت

(٣٩) Asseracen, pp. 356-63; Ambroise, cols. 252-9.

تحملة من مؤن الطعام الوفيرة ، وبضعة آلاف من الجياد والبغال . وعاد الجيش المسيحي منتصرا إلى بيت توبا.

وارتاع صلاح الدين من الأساء ، وعلم أن ريتشارد سوف يرحف الآن على القدس لا محالة ، فسارع بإرسال الرجال لصد كافة الأبار الواقعة بين بيت توبا والقدس وقطع جميع أشجار المأكهة . وفي أول يولية عقد مجلسا في القدس يحيطه جو من القلق ، لتناقشة ما إذا كان عليه أن ينسحب باتجاه الشرق . وقد رغب هو نفسه في البقاء هناك ، وأبدى أمرأؤه المجتمعون موكدين ولا يحسم له . غير أن الأتراك وحنود الأكراد كانوا على خلاف فيما بينهم ، ولذا لم يكن اتفاقا من صمودهم لمحرم كبير.

#### ١١٩٢م : ريتشارد ينسحب إلى يافا

وسرعان ما هدأت مخاوفه . إذ كانت هناك في المعسكر المسيحي مناقشات يشوبها القلق أيضا ، فكان الجنود الفرنسيون متلهفين على التقدم في الحال بعدما أصبح الطعام ووسائل الانتقال بتلك الوفرة الوفيرة . غير أن الكشافين التابعين لريتشارد حذروه من عدم توفر الماء . كما كانت هناك مشكلة ما تزال تقرض نفسها ، وهي كيفية الإحتفاظ بالقدس بعد عودة الصليبيين الغربيين إلى أوطانهم . وأمر ريتشارد الجيش مرة أخرى بالانسحاب من بيت توبا ، مما أثار سخرية الفرنسيين وشعورهم بالإهانة . وفي الرابع من يولية حاصرت صلاح الدين الأيوبي بأن المسيحيين قد هدموا معسكرهم وأنهم يشرعون في التحرك جنوبا باتجاه الساحل ، فخرج على رأس رجاله إلى تل مجاور لمشاهدة المركب على الماء<sup>(١)</sup>.

وما أن عاد ريتشارد إلى يافا حتى سعى مرة أخرى إلى عقد هدنة تتيح له حرية العودة إلى الوطن. وأرسل هنري (أوف شامباني) إلى صلاح الدين رسالة منقطعة بعله فيها أنه الآن وريث مملكة القدس وأنها ينبغي أن تسلم إليه كاملة . وبعد ثلاثة أيام وصل القدس سفراء من ريتشارد ، كانوا أكثر رقة ، إذ أن ريتشارد أعلن أنه يدرك ابن أخيه كي تشملته أفضال صلاح الدين ، وحسب على التوصل إلى تسوية الأمر بصورة ودية. وعقد صلاح الدين مجلسا وافق على معاملة هنري معاملة رقيقة ، وعلى

(١ -) *Itinerarium*, pp. 365-68; *Ambrrose*, cols. 260-87; *Becha ed-Din*, P.P.T.S, pp. 337-52, Abu Shama, s, pp. 56-62



السماح للقساوسة اللاتين بدخول الأماكن المقدسة ، والتنازل عن الساحل الفلسطيني للمسيحيين ، شريطة تفكيك حصون عسقلان . ورفض ريتشارد التفكير في هدم حصون عسقلان ، حتى عندما عرض صلاح الدين اللد في مقابل ذلك . وأثناء أن كانت المحادثات دائرة يحملها الرسل حبة ودعونا ، انتقل ريتشارد إلى عكسا ، وفي نيتة الاتجار حتى وإن لم تكن المعاهدة قد وقعت بعد . وكان يتوسط للتحرف للقاضي على بيروت والاستيلاء عليها ، ومنها يركب البحر إلى أوروبا<sup>(٤١)</sup>.

وتهيأت لصلاح الدين فرصة بنياه . ففى باكورة السابع والعشرين من يولية قاد جيشه حاربا من القدس ووصل مساء نفس ذلك اليوم أمام يافا وبدأ مهاجمة المدينة من فوره ، وبعد ثلاثة أيام من قصف المدينة تخلع مهندسو الأتعا في إحداث ثغرة اندفع منها الجنود العرب داخل المدينة . وكان الدفاع عن المدينة بطوليا لكنه كان عقيما . وأحيرت الحامية على التسليم وفي مفهومها أن الأعداء سوف يقتون على حياة أفرادها ، ودارت المفاوضات مع الطريق الجديد الذي تصادف وجوده في المدينة . على أن جنود صلاح الدين كانوا آنذاك خارج سيطرته ، واندفع الأكراد والأتراك في الشوارع يهينون المدينة ويقتلون المواطنين الذين كانوا يحاولون الدفاع عن بيوتهم ، ولذا تصح صلاح الدين جنود الحامية بأن يفلتوا على أنفسهم أبواب القلعة إلى أن يتمكن من استعادة النظام.

#### ١١٩٢ م : آخر انتصارات ريتشارد

وكانت المدينة، خلفه اقتراب صلاح الدين من الأسوار، قد أرسلت رسالة خاطفة إلى ريتشارد تحمل أنباء الفحوم، فخرج ريتشارد في الحال لإنقاذها، وذهب هو نفسه بحرا لتساعده سفن يبرا وجنوا بينما أرسل جيشه برا . وهبت رياح معاكسة أعاقته وقذفت به إلى نقطة جبل كارمل ، ولذا كان جيشه عازقا عن الوصول إلى يافا قبله ، فتأخر في الطريق إلى قيسارية . وفي الحادي والثلاثين، وعندما تمكن صلاح الدين من تهدئة جنوده بالقدر الذي يسمح له بإجلاء تسعة وأربعين فارسا من فرسان الحامية مع زوجاتهم ومنقولاتهم من القلعة إلى المدينة ، لاح في الأفق أسطول ريتشارد المؤلف من خمسين غالينا . فما كان من الحامية إلا أن استأنفت القتال ، وكادت في هجمة واحدة

(٤١) *Itinerarium*, pp. 398-9; *Ambrise*, cols. 287-8; *Beha ed-Din*, P.P.T.S. pp. 353-60; (٤١) *Abu Shama*, II, pp. 63-6

أن ترد المسلمين غير النظمين خارج المدينة . ولم يكن ريشارد على علم بما يحدث ، فزود في النزول إلى الر ، إلى أن سمع قس إليه ليخبره أن القلعة لم تسقط بعد . فدفع بسفنه إلى أسفل القلعة وعاض الماء إلى الشاطئ على ركن حيشه . أما في حيلة صلاح الدين ، فكانت رسل الحامية تحاول التفاوض مع صلاح الدين بالنسبة في ذات الوقت الذي شن فيه ريشارد هجومه . وبرتت العرب الذين كان أغلبهم لا يزال معتبرا في الشوارع . وترتب على الشراسة التي كان يجارب بها ريشارد ، وقد تقدم هو نفسه في المقدمة ، في ذات الوقت الذي شنت فيه الحامية هجوما آخر ، أن اندفع العرب في فرارهم لا يلبثون على شيء . وجاء كاتم أسرار صلاح الدين وهمس في أذنه بنسأ الطرمجة الشكراء . وبينما كان يحاول تعطيل زائريه بمخيمه المشيع ، جاء سبل الفارين المسلمين ليكشف الحقيقة . فاضطر صلاح الدين إلى الأمر بالانسحاب . وكان عقيدته الشاء هو نفسه في معسكره مع حفنة من الفرسان ، لكن جيشه الرئيسي هرب إلى عسير الواقعة على مبعنة حمة أميال داخل البلاد ، قبل أن يعيد تنظيم صفوفه . وهكذا استعاد ريشارد يافا بما يقرب من مائتين فارسا وأربعمائة من رمية السهام ، وربما ألفي بشار إيطالي . ولم يكن مع قواته كلها سوى ثلاثة حياذ<sup>(١٢)</sup>.

وفي الصباح التالي مباشرة أرسل صلاح الدين حاميحه أبا بكر لإستئناف محادثات السلام ، فوجد ريشارد يتفككه مع بعض الأمراء الأسرى ، حول استيلاء صلاح الدين الخاطف علي يافا وعن استيلائه عليها . وقال إنه كان بلا سلاح ولم يتوفر لديه الوقت حتى لتغيير حاله . على أنه اتفق على الفور مع أبي بكر على أن الحرب ينبغي أن تتوقف . وكانت رسالة صلاح الدين تقترح - كقفلة مساومة - أنه طالما أن يافا قد دمرت الآن ، فينبغي أن تتوقف الحيلود القرطبية عند قيسارية . وعرض ريشارد اقتراحا مضادا بأن يحتفظ بيافا وعسقلان كإقطاعيتين تحت سيادة صلاح الدين ، دون أن يقصر كيفية إدارة الإقطاعيتين عندما يكون للشك في أوروبا . وكان رد صلاح الدين هو تقديم يافا ، وأصر على الاحتفاظ بعسقلان . ومرة أخرى أثبتت عسقلان أنها بمثابة حجر عثرة ، وتوقفت المفاوضات<sup>(١٣)</sup>.

وكان الجيش القرطبي الذي استدعاه ريشارد لإنقاذ يافا يتقدم بعد أن مر بقيسارية.

(١٢) *Itinerarium*, pp. 400-11; *Ambroise*, cols. 289-300; *Beha ed-Din*, *P.P.T.S.* pp. 361-71; *Abu Shama*, II, pp. 66-71

(١٣) لم يذكر تلك المفاوضات سوى المؤرخين المسلمين، بهاء الدين (١٣٧١-١٣٧٤) *Beha ed-Din* (*P.P.T.S.* pp. 371-4) وهي شامة (II, pp. 71-3).

والآن أدرك صلاح الدين جدداً مدى ضائلة قوة ريتشارد في باقي ، فقرر أن يضرب ضربه في معسكره خارج الأسوار قبل وصول قوات جديدة . وفي فجر يوم الأربعاء الخامس من أغسطس ، وبينما كان واحد من أبناء جنوا يتحول خارج المعسكر ، سمع صهيل حيول ووقع لقدام جنود ، ورأى على البعد وميض حديد يلعب في ضوء الشمس البازغة ، فأيقظ من في المعسكر ، وعندما ظهر العرب كان ريتشارد مستعداً . ولم يتوفر له حالة الوقت الكافي ليحملوا أسلحتهم . فوضع ريتشارد رجاله خلف سياج من ألواند حيام خشية كانت مفروزة لتفريق حيول العدو، ونظمهم في أزواج بحيث يُبتوا دروعهم على هيئة سور أمامهم ، وغرسوا رماحهم الطويلة في الأرض بزاوية لتتحقق أحساد المهاجمين. وبين كل زوج من الرجال كان هناك راسي سهام . وهجم فرسان المسلمين في سبع موجات كل منها ألف رجل ، لكنهم لم يتمكنوا من اختراق سور الحديد ، وتراسل المحجوم حتى ما بعد الظهر . وعندما بدأ التعب على جناد الأعداء ، جعل ريتشارد رماحه يرمون إلى الخط الأمامي وصوبوا كل سهامهم على العدو المهاجم . وأوقف وأبلى السهام الأعداء . وعاد الرماة مرة أخرى وراء حملة الرماح الذين هجموا بتقدمهم ريتشارد على صورة جنوده . وأعجب صلاح الدين بالمشهد في برغم غضبه، وعندما تضر جنود ريتشارد وسقط به ، أرسل سائلا في خضم الاضطراب ومعه جنودين جديدين كهديّة لذلك شجاع . وزحف بعض المسلمين ملتجئين لمهاجمة المدينة نفسها ، فهرب البحارة الذين كانوا يمسكونها إلى سفنهم ، إلى أن حايهم ريتشارد على جنوده وجمعهم . وأقبلوا للنساء ، وأوقف صلاح الدين المعركة وانسحب إلى القنس، وراح يضيف إليها تحصينات على تحصيناتها نسباً مقدم ريتشارد<sup>(١١)</sup>.

#### ١١٩٢ م : معاهدة بين صلاح الدين وريتشارد

ولقد كان نصراً مؤزراً ، يرجع الفضل فيه إلى تكتيكات ريتشارد وشجاعته الشخصية . لكنه لم يتابع انتصاره . ففي غضون يوم أو يومين عاد صلاح الدين إلى الرملة بجيش جديد يتألف من كتائب من مصر وشمال سوريا ، بينما كان ريتشارد ، الذي نال منه الإحهاد ، يرقد في عيسته مريضاً بحمة شديدة، وهو الآن متلهف على السلام . وأعاد صلاح الدين عرضة الأول ، ولازال مصرأ على تسليم عسقلان ، وهو

(١١) Bivar, pp.413-24; Azhar, cols. 304-11; Babu ed-Din, P.P.75, pp.374-6. Abu Shama, p.74. أبو عمرو السكوني يعلون من الشركة معركة صفوة

أمر بصعب على ريتشارد احتمالاً ، فكتب إلى صديقه القديم الأفضل ، الذي كان هو الآخر على فراش مرضه بالقرب من القدس ، راجياً تدخله كي يترك له صلاح الدين عسقلان ، لكن صلاح الدين أبى ، وأرسل إلى الملك المربى خوسا وكيمثري وبعض النروج من جبل حرمون ثيريد مشروباته ، لكنه لا يتخلّى عن عسقلان . ولم يكن ريتشارد في وضع يمكنه من المساومة ؛ ذلك أن حالته الصحية ، فضلاً عن سوء تصرفات أخيه في إنجلترا ، كانتا يفرضان عليه العودة فوراً إلى بلده . والصليبيون الآخرون قد نال منهم الضرر ، فكان ابن اخته هنري والنظاميان العسكريان يظهران عدم ثقتهم في سياسته ، فما فائدة عسقلان عندما يرحل هو وحيشته؟ وقد دأب أغلب الوقت على الجهر بتصميمه على مغادرة فلسطين . وفي يوم الجمعة الثامن والعشرين من أغسطس ، حابه حامل بريد العادل بالعرض النهائي من صلاح الدين . وبعد خمسة أيام ، في الثاني من سبتمبر ١١٩٢ ، وقع على معاهدة سلام مدتها خمس سنوات وأجبت سفراء السلطان أصحابهم عليها . ثم تناول السفراء يد ريتشارد وتقبسوا نيابة عن سيدهم ، ورفض ريتشارد نفسه القسم باعتباره ملكاً ، ولكن هنري (أوف شامباني) وباليان (أمير البلق) والسيدان الأعظمين لفرسان المعبد والمستشفى أقسموا نيابة عنه . وفي اليوم التالي وقع صلاح الدين نفسه المعاهدة في حضور سفراء ريتشارد . لقد انتهت حرب الحملة الصليبية الثالثة.

وتقتضى المعاهدة بأن يحتفظ الصليبيون بالمدن الساحلية جنوباً حتى يافا ، وبحرية الحجاج في زيارة الأماكن المقدسة ، والسماح للمسلمين والمسيحيين بالمرور في أراضي بعضهم البعض . لكن تقرر هدم حصون عسقلان.

وسرعان ما عكبت مجموعات من الصليبيين زيارة الأماكن المقدسة ، وما أن رتب صلاح الدين لمراقبتهم وأبوابهم ، حتى انطلق أفراد تلك الجماعات بلا سلاح حاملين حواز مرور من الملك إلى القدس للإعتراب عن تبجيلهم لمزاراتها. ولم يشأ ريتشارد نفسه الذهاب ، ورفض منح أي حواز مرور للحشود الفرنسيين ، على أن الكثير من فرسانه التابعين له قاموا بالرحلة . وكانت إحدى الجماعات بقيادة هوبرت والثر أسقف سالزبورى ، الذي استقبل هناك بمخاض الشرف وشُبع له بمقابلة مع السلطان ، تمثلاً خلافاً في مواضيع كثيرة ولا سيما شخصية ريتشارد . وأعلن الأسقف أن ريتشارد يتمتع بمكانة المزايا الطيبة ، لكن صلاح الدين أعرب عن اعتقاده أن ريتشارد يفتقر إلى الحكمة والاعتدال . وعندما قدم صلاح الدين هدية وداع للأسقف ، طلب الحبر السماح لتسعين من ثلاثين ولائتين من الشماسة بالخدمة في كنيسة القبر المقدس

وكذلك في بيت لحم والناصرة ؛ فوافق صلاح الدين وبعد أشهر قليلة وصل القساوسة وشيخ لهم بإدائه وأصحابهم دون إعتاقه.

ووصلت القسطنطينية شالعات بأن ريتشارد يحارب ضغوطه لإخضاع الصيغة اللاتينية على الأساكن المقدسة. فوصلت سفارة من الإمبراطور اسحق أنجيلوس إلى صلاح الدين الذي كان ما يزال في القدس ، تطلب اسرداد الأرثوذكس للسيطرة الكاملة على الكنيسة الأرثوذكسية التي كانت لهم أيام الفاطميين ، لكن صلاح الدين رفض الطلب ، فهو أن يسمح لأية طائفة بمفردتها بالسيطرة على تلك الأساكن ، لكنه - كشأن السلاطين النصارى من بعده - سيكون ثلاثة جهة تحكم بينهم جميعا. كما أنه رفض على الفور ما عرضته ملكة جورجيا من شراء الصليب المقدس بمبلغ ٢٠٠,٠٠٠ دينار<sup>(١٥)</sup>.

#### ١١٩٩م : موت ريتشارد

بعد توقيع المعاهدة رحل ريتشارد إلى عكا حيث وضع كموره في تصايبها ودفع ما عليه من ديون وحاول جمع الديون المستحقة له . وفي التاسع والعشرين من سبتمبر أبحرت الملكة بيرينجاريا والملكة جوانا من عكا فوصلتا فرنسا بسلام قبل عواصف الشتاء . وبعد ذلك بعشرة أيام رحل ريتشارد نفسه عن الأراضي التي حارب فيها بسالة طوال ستة عشر شهرا مريرة . كان الحظ خصمه ؛ إذ اضطرته الأحوال المظومة إلى الرسو بسفينة في ميناء كورفو الواقع في أراضي الإمبراطور البيزنطي اسحق أنجيلوس. وخشية من أن يقع في الأسر ، شكر من فوره في زي فارس من فرسان المعبد واضطرب معه أربعة رجال من أتباعه ، واستقل زورق قراصنة كان قاصدا رأس البحر الأديرياتيكي ، لكن الزورق تعطل بالقرب من أحييا ، فاستمر ريتشارد وأصحابه برا خلال كارثيا والنمسا متعبا الإسراع في هتوء ليصل إلى أراضي صهره هنري وأوف ساكسوني) . غير أن ريتشارد ليس بالرجل الذي يتنكر عن اقتناع بحدا التنكر ، قسم التعرف عليه في الحادي عشر من ديسمبر بينما كان متوقفا في حان بالقرب من فينا، واقتيد في الحال ليتمل بين يدي ليوبولد دوق النمسا ، وهو الرجل الذي تنزع ريتشارد رايته في عكا . واللهمة ليوبولد يقتل كونراد (أوف مونتفراط) وألقى به في غيابة

(٢٥) Beha ed-Din, P.P.T.S pp. 334-5. كما رفض صلاح الدين طلب الإمبراطور المساعدة في استرجاع قبره.

السجن - وبعد ثلاثة أشهر سلمه ليرولد إلى سيده الأعلى الإمبراطور هنري الخامس ، الذي كان يحمل له كراهية شديدة لصدافته الطويلة مع هنري الأسد وخالفه مؤجرا مع توكريد في صقلية، ولذا ألقاه في السجن عاما كاملا ولم يثلق سراحه إلا في مارس ١١٩٤، لقاء غنية ضخمة وقسم بالثبعية . وأثناء أشهر السجن القسرية ، تعرضت أراضي لمكاند أسبه جون والمجتمعات النصارية من لذلك فيليب . وعندما عاد إلى أراضيها كانت تنتظره مهام كثيرة للغاية بحيث أبعدت عن خياله التفكير في رحلة أخرى إلى الشرق . وحارب في فرنسا بمسألة ملوالم خمس سنوات دفاعا عن موارثه ضد الكاثوليكون (١٩٦) إلى أن أصابه سهم طائش في السادس والعشرين من مارس ١١٩٩م انطلق من قلعة متحدة في ليونزين ، كان فيه نهاية حياته . لقد كان إينا شيررا ، وزوجة شيررا ، وملكها شيررا ، لكنه كان حنوبا باسلا والعا<sup>(١٩٧)</sup>.

(١٩٦) (الزوجم) أسرة حاكمة فرنسية (٩٨٧-١٢٢٨)م أسبها Hugh Capet.

(١٩٧) فرد عودة الفيلسوف إلى الوطن في 327-328; Aleoie, cols 439-40; *Itinerario*, pp. 441-6. في ذلك الحظاف المريف وبادشاهه وما عداه من بوط مازو بانقصاب في 6-441. *Itinerario*, pp. 441-6. في ذلك الحظاف المريف المرسى من شيخ الحال إلى لوبولد دوق النمسا يعن برادة وبادشاهه سن مقشلي كورنراوه، وكشكش في *Nergate, Richard the Lion Heart*, pp. 264-76. أنظر.

\_\_\_\_\_

.....

---

## الفصل الرابع:

### المملكة الثانية





## المملكة الثانية

"ويكون الساحل لبقية بيت يهوذا عليه يرمعون"  
(صَفَتًا ٢:٧)

وصلت الحملة الصليبية الثالثة إلى نهايتها . ولئن تعادى قط تلك الكوكبة من الأمراء الرحيل شرقا في حرب مقدسة . وبعد ، وبرغم الجهد الهائل الذي بذله أوروبا الغربية مجتمعة ، كانت النتيجة ضئيلة ناهية . فقد أُنقذ كونراد صبور قبل وصول الصليبيين ، وأُنقذ الأسطول الصليبي طرابلس . وكل ما أسهم به الصليبيون في إعادة مولد المملكة الفرنجية هو عكس الخط الساحلي جنوبا حتى يافا ، بخلاف جزيرة قبرص التي نزلها الصليبيون من سيدعها المسيحي . ومع ذلك ، كان هناك إنجاز واحد : ألا وهو صد اندفاع صلاح الدين في الغزو . لقد أُرهِق المسلمون من الحرب المطولة ، ولئن يفكروا ولو فنيّة في محاولة قذف الصليبيين إلى البحر . لقد ولدت المملكة من جديد حقا ، وباتت من القوة بما يكفي لإستمرارها طوال قرن آخر . ولقد كانت مملكة صغيرة جدا . وبرغم أن ملوكها كانوا إسماء ملوك القدس ، كانت القدس ذاتها خارج قبضتهم .

وكل ما كانوا يملكونه هو شريط من الأرض لا يزيد عرضه مطلقاً على عشرة أميال ،  
يمتد تسعين ميلاً على البحر من بانا إلى صور . وأبعد إلى الشمال أقيمت حيدة بوهمند  
الخصيفة على عاصمته وأراض قليلة حولها جنوباً حتى ميناء السويدية ؛ بينما احتفظ ابنه  
بطرابلس ذاتها ، واحتل فرسان المستشفى قلعة الكرك ، وفرسان البعد في طرابلس تحت  
سيادته . ولم يكن ذلك بالشئ الكثير الذي أتخذ من حطام الشرق الغربي ، غير أنه في  
تلك اللحظة كان ما أتخذ في أمان .

#### ١١٩٣م : وفاة صلاح الدين

لم يكن صلاح الدين قد تجاوز الرابعة والخمسين من عمره ، لكنه كان مرهقاً  
ومريضاً بعد كل أوزار الحرب تلك . وظل في القدس منشغلاً بالإدارة المدنية لمقاتلة  
فلسطين إلى أن سمع أن ريتشارد أمير من عكا ، وكان يعد الأسال عندئذ على زيارة  
مصر ، ويعتد بأن يحقق طموحه الورع بالتحج إلى مكة ، لكن الواجب استدعاءه إلى دمشق.  
وبعد أن قام بجولة دامت ثلاثة أسابيع في الأراضي التي فتحها ، وبعد أن قابل بوهمند في  
بيروت ووقع معه معاهدة سلام قاطعة ، وصل دمشق في الرابع من نوفمبر ، حيث كان  
في انتظاره كثير من الأعمال التي تراكت أثناء سنوات أرمع من حياته أمضها مع  
الجيش . ولقد كان شتاء قاسياً ، ولديه الكثير مما ينبغي عمله في عاصمته ، فأرجأ  
الرحلة إلى مصر والحج إلى مكة . وكلما أتتحت له فسحة من الوقت كان يستمع  
للمظاهرات المتعللين من رجاله في الفلسفة ، وكان أحياناً يخرج للصيد . على أنه بمرور  
أشهر الشتاء ، عرف القربون إليه أن صحته آخذة في التدهور ، وكان يشكو من التعب  
الشديد والسيان ، ونادراً ما كان بمقدوره بذل الجهد لإجراء مقابلة . وفي يوم الجمعة  
التاسع عشر من فبراير ١١٩٣م تخامل على نفسه وصرح على حوائه لإستقبال الحجاج  
القادمين من مكة . وفي ذلك المساء اشتكى من الحمى ومن الأوجاع ، واحتمل مرضه  
صابراً محتسباً ، وهو على يقين من اقتراب أجله . وفي غرة مارس راح في غيرته .  
وسارع ابنه الأفضل ليخمن ولاء الأمراء ، ولم يبق لحوار فرائض السلطان سوى قاضي  
دمشق وقليل من الخدم المخلصين . وفي يوم الأربعاء الثالث من الشهر ، وبينما كان  
القاضي يقرأ القرآن بحواره ، تلى الآية : " لا إله إلا هو عليه توكلت " ، ففتح السلطان  
الختصر عينيه ، ونسبم ، ثم مضى في سلام إلى بارئته<sup>(١)</sup>.

(١) ورد وصف تايض بالحوية لأيام صلاح الدين الأخيرة لورده بهاء الدين (P.P.T.S. pp 392-402) .

ومن بين جميع الشخصيات العظيمة في العصر الصليبي ، كان صلاح الدين الأكثر جاذبية . ولقد كانت له أسطوره ؛ ففي وصوله إلى السلطة أظهر من المكر والقسوة ما يتعارض مع سمعته فيما بعد . وعندما كان الأمر يتصل بمصالح السياسة ، لم يكن ليحجم قنط عن سفك الدماء ، فقد قتل يديه ريموند (أوف شاتيلون) الذي كان يحفه. لكنه في لحظات قسوته، لم يكن ذلك إلا ابتغاء لصلاح قومه ودينه. لقد كان مسلما مخلصا. ومهما كانت مشاعره الطيبة نحو أصدقائه المسيحيين ، كان يعرف أن مصير أرواحهم إلى هلاك ، ومع ذلك كان يحترم سيولهم ونظر إليهم كرفاق آدميين . وعلى خلاف عواهل المسلمين ، لم يبحث فقط بوعده وعده لأي إنسان أيا ما تكون ديانتهم . وعلى الرغم من شدة حبه كان دائما كئيبا ، كريما ، رحيما باعتباره غازيا وفاضيا، وكسيد على الآخرين كان متصفا متسامحا . ورغم أن بعض الأمراء ربما كان متبرما منه باعتباره كرديا عاصيا ، ورغم أن الشرير في الغرب يطلقون عليه عدو للمسيح ، فإن الذين لم يشعروا حياله بالاحترام والتحييل كانوا نادرة نادرة ، كما أن قليلا من أعدائه كان باستطاعتهم مقاومة جاذبيته . وكان ضيق البنية ، وكان وجهه في لحظات الراحة كئيبا يوحى بانقباض الصدر ، لكنه من اليسر أن يتحول وجهها متضيقا نزيه انشماما فائقة . وكانت أفعاله دائما كئيبا ، وبرضيه القليل . وكان يكره الفطاطة والبهرجة ويعشق القراء العظمى والصيد ، على أنه كان ذا معارف جيدة ويجيد التمتع في المناقشات الفكرية رغم أنه أشاع الرعب بين التشكيكين . وعلى الرغم من قوته وانتصاراته كان رجلا هادئا متواضعا . وبعد سنوات كثيرة وصلت قصة إلى مسامع الكاتب الفرنسي فينيسنت أوف بوفيه تقول إنه بينما كان يجتهد استدهي حامل رايته وأمره بالتحويل في أثناء دمشق بخرقة من كتفه مطبته على رمح وينادي في الناس أن عساقل الشرق كله لا يستطيع أن يأخذ معه إلى القبر سوى خرقة القماني هذه<sup>(٢)</sup>.

ولقد كانت إنجازاته عظيمة ؛ فقد أكمل ما بدأه سبور الدين في توحيد الاسلام ، وطرد الدخلاء الغربيين من المدينة المقدسة وحضرهم في شريط ضيق على الساحل، لكنه

الذي كان موجودا في بلاد الشام . وذاكر أبو شامة رويادات عمارة 93-7. Abu Shama, pp.93-7. أنظر أيضا ابن الأثير 72-5. Ibn al-Athir, II, pp.72-5. وبنظر Emmed (p. 304) وتاريخ هرفن Emmed (p. 217) ، Geste des Chiprois (p.15) وكذلك ١١٩٧م وكذلك Roger of Howden (II, p.213) وذكر تاريخ الصحيح . ١١٩٦م . أما المؤرخ Vincent of Beauvais (Doux edition) قصة لفرقة 1204. p. وذاكره جميع المؤرخين المسيحيين . Lane-Poole, Saladin, pp. 370. انظر

(٢)

يورد بهاء الدين تقي الدين قلعة عن شخصيته مع أسئلة وأجابه (P.P.T.S, pp.4-45) ويورد Vincent of Beauvais (Doux edition) قصة لفرقة 1204. p. وذاكره جميع المؤرخين المسيحيين . Lane-Poole, Saladin, pp. 370. انظر

لم يتمكن من طردهم نهائياً، إذ كان الملك ريتشارد وفترات الحملة الصليبية الثالثة فسوق احتمالاً ، ولو أن حاكماً آخر له نفس الثقل جاء بعده ، لأكمل المهمة بغاية السرعة . غير أن مسألة الإسلام في المعصور الرسيطة هي غيبة المؤسسات المستندة للمعنى بالسلطة بعد وفاة الحاكم . فكانت الخلافة هي المؤسسة الوحيدة التي يسمو وجودها على وجود أصحابها؛ والآن أصبح الخليفة عاجزاً من الناحية السياسية . على أن صلاح الدين لم يكن خليفة ، وإنما كان كردياً ليست عائلته بالعائلة الكبيرة ، وكان هو الذي يفرض الطاعة على العالم الإسلامي قوة شخصيته وحسب . وكان أبناؤه في أشخاصهم ينتفرون إلى شخصيته .

#### ١١٩٣م : أبناء صلاح الدين

مات صلاح الدين تاركاً سبعة عشر ابناً وبناً صغيرة . كان أكبرهم الأفضل ، وهو شاب متفكر في الثانية والعشرين من عمره ، استعمله أبوه في وراثة دمشق وزعامة الأسرة الأيوبية . وبينما كان صلاح الدين يحتضر ، استدعى الأفضل كل أمراء دمشق ليقسموا له قسم الولاء ، وفي حالة الخفت بالقسم تطلق نساؤهم ويحرم أولادهم من الميراث . وسببت هذه العبارة الأخيرة الصدمة للكثيرين منهم ، ورفض بعضهم القسم ما لم يقسم الأفضل بدورهم بالابقاء عليهم في حياتهم . على أنه بعد وفاة أبيه ودفنه في المسجد الأموي الكبير ، تقيت سلطته القبول في دمشق . وكان ابنه الثاني ، العزيز ، حاكم مصر فعلاً وكان في الحادية والعشرين من عمره ، وأعلن نفسه هناك سلطاناً مستقلاً . وكان ابنه الثالث ، الطاهر ، يحكم في حلب ولم يظهر استعداده لقبول سيادة أخيه العليا . وأخ آخر ، حضر ، كان يحكم في حوران واعترف بسيادة الأفضل . ولم يبق على قيد الحياة من إخوة صلاح الدين سوى الذين : طغتكين ، الذي خلف تورانشاه في حكم اليمن ، والعاذل الذي لم يكن صلاح الدين يثق في مقاطعه ، وكان يسيطر على أراضي شرق الأردن التي كانت بحوزة الفرنج من قبل كقطاعة له ، وأراضي الجزيرة حول الرها . وكان أبناء إخوته وأبناء عمومته يمتلكون ضياعاً أصغر في سائر أنحاء أراضي السلطان . أما أمراء آل زنكي ، عز الدين وعبد الدين ، فكانوا يسيطرون الموصل وسنحار كاتياح ، وكان الأرتقة لا يزالون يسيطرون على ماردين وكيفا . وكان أغلب أصحاب الإقطاعيات الآخرين قواداً عسكريين استخدمهم صلاح

الدين ، وكان أبرزهم بكتر أمير خلاط<sup>(٢٧)</sup>.

وبعزت صلاح الدين بدأت وحدة الإسلام تنفتت . فبينما كان أسلاؤه في غيوتهم يرفلون بعضهم البعض ، كانت هناك مؤامرة تجري تدبيرها في الشمال الشرقي لإعادة حكم آل زنكي في شخص عز الدين ، بمساندة من بكتر والأرامنة . وأخذ الأيوبيون لما أفضله العادل من جوانب الخير ، وتلصقوا الفناجئ لكل من عز الدين وبكتر ، وكان الظن أن عملاء العادل ضالعون في ذلك . ولقن الدرس ابن عز الدين وورثته - نور الدين أرسلان - وحليفة بكتر أفسنقر ، وأظهروا الاحترام للعادل إلى حين . وفي الجنوب سرعان ما دب الخلاف بين الأفضل والعزير . ذلك أن الأول أتى بحركة غلبت من الحكمة طرد فيها أغلب وزراء والده ، وألقى بكل ثقله في ضياء الدين بن الأكر ، وهو أخو اللؤلؤ ابن الأكر ، بينما راح هو نفسه يفضي أيامه وإياليه يعاقر الخمر ويعطرب للأوتار . وهرب الوزراء السابقون إلى القاهرة حيث العزير الذي سره السجيب بهم . وبناء على نصيحتهم قام العزير بغزو سوريا في شهر مايو ١١٩٤م ، ووصل إلى أسوار دمشق ، فارتاع الأفضل واستنجد بحمه العادل الذي هبط على رأس جيش من الجزيرة وقابل العزير في معسكره . وأجريت ترتيبات جديدة للأسرة اضطر بمقتضاها الأفضل إلى التنازل عن يهودا بشمال فلسطين للعزير ، وعين اللاذقية وحيلة لأخيه الظاهر صاحب حلب ، على أن كلا من العزير والظاهر اعترفوا بسيادته العليا . ولم يحصل العادل على شيء من هذه الصفقة ، سوى المكانة الرفيعة لكونه الحاكم في العائلة . ولم يستمر السلام طويلا ، ففي أقل من سنة زحف العزير على دمشق مرة أخرى، واضطر العادل إلى الفرار ثانية لإغاثته ابن أخيه الأكر ، وبدأ الأمراء من حلفاء العزير يتخلون عنه، فرداه الأفضل عبر إقليم يهودا إلى داخل مصر وخطط للزحف على القاهرة . وكان ذلك أكثر مما كان يريد العادل ، وهدد بمساندة العزير إن لم يعد الأفضل إلى دمشق . ومرة أخرى كانت كلمته مطاعة.

#### ١١٩٩م : الخلافات الأيوبية

سرعان ما اتضح حمز الأفضل عن الحكم ، إذ باتت حكومة دمشق كلها في قبضة الوزير ضياء الدين الذي كان يحرص على العميان بين كل أتباع سيده . وقرر العادل

(٢٧) Abu Shama, II, pp.301-2, Ibn al-Athir, II pp.75-7; Kamel ad-Din, trans. Blochet, p.303

أن المصالح الأيوبية لا يصلح لها مثل هذا المعز من جانب رأس الأسرة ، فغير سياسته وتحالف مع العزيز الذي تمكن بمساعدته من الاستيلاء على دمشق في يولية ١١٩٦ ، وضم كل أراضي الأفضل ، الذي عرضوا عليه تقاعدا مشرفا في مدينة صلخد الصغيرة في حوران حيث كف عن المنع الحسية واستبدلها بحماية النقي ، واعتُرف بالعزيز سلطانا أعلى للأسرة الحاكمة . ولم تكن سلطة العزيز على عمه تزيد قط عن كونها سلطة إسمية.

ودام ذلك الوضع لعاشرين . ففي نوفمبر ١١٩٨ ، سقط العزيز من على صهوة جواده أثناء صيد ابن أوى بالقرب من الأهرامات ومات متأثرا بإصاباته في التاسع والعشرين من نوفمبر . وكان ابنه الأكبر ، المنصور ، صيا في الثانية عشرة من عمره . وحسبى الوزراء من طموح العادل ، فاستدعوا الأفضل من صلخد ليكون والي مصر ، فوصل الأفضل إلى القاهرة في يناير ١١٩٩ وتولى الحكومة . وكان العادل آنذاك في الشمال يحاصر ماردن التي كان أميرها الأرمني يولوك - أرسلان ضحرا من السيطرة الأيوبية . ولقد أصبح العادل في وضع يشوبه الخرج مؤثرا ، الأمر الذي جعل ابن أخيه الثالث الظاهر صاحب حلب يتخطط لتحالف ضده ، إذ كان يلقى الشاهب مغرول حكمه من أتباعه وقد ارتاب في أن عمه كان يشجعهم على ذلك . وفي الوقت الذي أرسل فيه الأفضل جيشا من مصر لمهاجمة دمشق ، كان الظاهر بعد العدة للهبوط من الشمال ، وانضم اليهما أفراد آخرون من العائلة مثل شوكوه صاحب حمص . فترك العادل ابنه ، الكامل ، لمواصلة حصار ماردن ، وسارع إلى دمشق التي وصلها في الثامن من يولية . وبعد ستة أيام وصل الجيش المصري ، وفي أول هجوم له على دمشق توغل داخلها ، لكنه سرعان ما رُدَّ خارجا منها . ووصل الظاهر وحشده بعد ذلك بأسبوع ، وغلل الأحرار بمحاصران عندهما في عاصمته طوال ستة أشهر ؛ لكن العادل كان دبلوماسيا خيرا حقيقيا ، وشيئا فشيئا استطاع أن يجذب إلى جانبه الكثير من أتباع ابن أخيه ، بمن فيهم شوكوه صاحب حمص ؛ وأخيرا في يناير عام ١٢٠٠ ظهر ابنه الكامل على رأس جيشه الذي انتصر في الجزيرة ، فاتفصل الأحرار اللبان كاتبا السبب في بدء الشجار وانسحبوا . وطارد العادل الأفضل داخل مصر ، وهزم جنوده في بليس . وفي فبراير ، وضع الأفضل لعمه بعدما تلبسه ورج جديد ، وعاد إلى تقاعده في صلخد ، واستولى العادل على ولاية مصر . على أن الظاهر لم يهزم . فقام بهجوم مفاجئ على دمشق في الربيع التالي بينما كان العادل ما يزال في مصر ، وحث الأفضل على الانضمام إليه ثانية . ومرة أخرى يسارع العادل إلى عاصمته في الوقت المناسب لكن

بمحاصرة ابنا امية ، غير أن سرعان ما تمكن من إثارة الشجار بينهما . ذلك أنه اشترى الأفضل بأن وعده بمدينتي المصيصة وميافارقين في الشمال بدلا من صلعة ، وبدأ أتباع الظاهر يتخللون عنه الواحد تلو الآخر ، وسره أن يسلم عمه العادل معذفا بسيادته الفاطمية . وفي نهاية عام ١٢٠١م كان العادل قد بسط سيادته على كامل امبراطورية صلاح الدين وأخذ لقب سلطان . ولم يُمنح المنصور صاحب مصر سوى مدينة الرها . ولم يُسمح للأفضل مطلقا بالسيطرة على ميافارقين التي مرت مع الأراضي المحيطة بها إلى الظفر وهو الإبن الرابع للكمال . وحصل ابنه الأكبر ، الكامل ، على مصر تحت سيادة أبيه ، وكان ابنه الثاني ، للعظيم ، نائب أبيه في دمشق ، وحكم ابنه الثالث ، الأشرف ، أغلب أراضي الجزيرة من حران . أما الأبناء الأصغر فقد منحوا قطاعات بلوغهم ما يكفي من العمر ، غير أنهم جميعا كانوا تحت رقابة أبيهم الوثيقة . وهكذا عادت وحدة الإسلام وعلى رأسها أمير كان يلقي من الاحترام أقل مما كان يلقاه صلاح الدين ، لكنه كان أكثر مكرًا ونشاطًا<sup>(١)</sup>.

#### ١١٩٤م : حكومة هنري

حالت مشاحنات الأيوبيين دون أن يتسلم المسلمون زمام المحكوم على المملكة الفرنجية الوليدة ، وتمكن هنري (أوف شامباني) شيئا فشيئا من إعادة بعض النظام إليها. ولم يكن ذلك بالعمل اليسير ، كما لم يكن وضع هنري مأمونا تماما . فلعدة أسباب لا حل لشرحها الآن، لم يُتَوَجَّ ملكا قط . وربما كان ينتظر وهو يداعب الأمل الأكبر لديه باسترجاع القدس يوما ما ؛ وربما انتزع له أن الرقي العام كان عازقا عن قبول لقبه الملكي ؛ أو ربما كان تأثير الكنيسة عظيما<sup>(٢)</sup>، وثرثب على ذلك أن تقيّدت سلطاته ، ولاسيما سلطته على الكنيسة . وعندما مات بطريرك هيراكنيوس كانت هناك بعض الصعوبة في العثور على من يخلقه على عرشه الأسقلي ، وفي نهاية الأمر عُيِّن قسيس

(١) للإطلاع على تاريخ الأيوبيين المضطرب خلال تلك السنوات انظر Abu Shama, pp. 110-40, Ibn Khaldun, pp. 78-89. Cohen, *La Syrie du Nord*, p. 148. Al-Azhar, II, pp. 581 n.3.

(٢) انظر المباشرة لفترة (L'Etablissement des Coutumes de Marvê) à Saint Jean. Prouzet, 1951. *Revue Historique de Droit Français et Étranger*, pp. 341. أن رواج هنري الذي قلّصه ليرسل أو يغتسل بأبواب قلعة لا تجعله أعزّاه أقرع البيلد (رومانا قنوتيا ، ولذلك كان هنري صغولا من أن يتخذ القلب الملكي).



مغمور يدعى رادولف . ولما مات عام ١١٩٤ اجتمع كهان كنيسة القبر المقدس في عكا التي كانوا فيها آنذاك ، وانتخبوا الطريق أيمار ، الملقب بالراعي ، رئيسا لأساقفة قيسارية وأرسلوا إلى روما للتصديق على الانتخاب . لكن هنري لم يكن راضيا عن هذا الاختيار ، وفي سورة غضبه اشتكى من أنه لم يُستشر واعتقل الكهنة ، الأسر الذي أطلق الانتقادات حتى من أساقفته ، فليس هو بالملك المتزوج ومن ثم لا يحق له التدخل . وحته مستشاره جوسيا رئيس أساقفة صور على التراجع عن موقفه وتهديد الكنيسة بالأخراج عن الكهنة مع الاعتذرات اللازمة ومنع ابنه البطريرك الجديد خبيصة غنية بالقرب من عكا ، وفي ذات الوقت تلقى لويجا حادا من البابا<sup>(٦)</sup> وعلى الرغم من إحلال السلام، ربما كان البطريرك عازفا فلما عن أن يمن على هنري الآن بتوحيه . فهنري أكثر حذرا باتباعه العلمانيين ، إذ أنه يمتنع بتأييد زعيمهم « باليان » أمير البين والنفارين العسكريين . على أن حوى (أوف لوسيان) كان ما يزال في قبض بنظر اشتياق إلى مملكته السابقة ، يشجعه في ذلك أبناءه الذين وعدتهم بامتيازات كبيرة، وكان الغضب بلاهم لما كان هنري يقدفه على أبناء حنوا من امتيازات . وفي شهر مايو ١١٩٣ اكتشف هنري أن المستعمرة التي يملكها أبناءه بيزا في صور تأسر للاستيلاء على المدينة وتسليمها بحري ، فاستغل زعماء المؤامرة على القصور وأسر بأن ينفذ عدد المقيمين في المستعمرة إلى ثلاثين شخصا ، وانتقم أبناء بيزا بالإغارة على القرى الساحلية الواقعة بين صور وعكا ، فما كان من هنري إلا أن طردهم من عكا نفسها ، وكان باور المملكة (الكورنتابل) ما يزال أمرا حوى ، أسارليك (أوف لوسيان) الذي كان مسؤولا عن وصول حوى إلى فلسطين قبل ذلك بسنوات كثيرة ، لكنه تمكن من إقامة علاقات جيدة مع البارونات المحليين . وكانت زوجته هي إيشيلا (أوف البين) ، ابنة اخت باليان (أوف البين) ، وابنة بلنوين (كونت الرملة) وهو أكثر المعارضين مرارة بحوى ، ولم يكن زوجها مخلصا فيما مضى ، لكنه تصالح معها الآن ، وتدخل نيابة عن أبناء بيزا ، لا لشيء إلا لكي يعقله هنري بسبب تدخله . وسرعان ما تدخل السيدان الأعظميان لفرسان المستشفى والمعد ولقعا هنري بإطلاق سراحه ، ورأى من الحكمة أن يتسحب إلى يالما التي كان الملك ريتشارد قد عيّن أسماء جيوفري حاكما لها . ولم يكن قد استقال من منصبه كياور (كونستابل) ، لكن هنري اعتبره مفسّرا وعيّن في عام ١١٩٤ خليفة له جون (أوف البين) ، وهو ابن باليان والأخ غير الشقيق لإيزابلا . وفي ذات الوقت حل السلام مع أبناء بيزا وأعيد لهم لاجئهم في عكا ، ومنذ آنذاك

(٦) *Ensaie d'histoire*, n. pp.203-3 (manuscript D).

قُدما اعترفوا بحكومة هنري<sup>(٧)</sup>.

#### ١١٩٧م : مملكة قبرص

مات الملك هنري في قبرص في مايو ١١٩٤، وبهذا أمكن تحقيق مصالحه عامة ؛ وأدى غيابيه عن الساحة إلى أن يصبح هنري أمينا على نفسه ، وحرمان أبناء بيتر ورجالهم الآخرين من أن يكون لهم مرشح مناصب. وكان هنري قد أوصى بسلطته في قبرص لأبيه الأكبر جيوفري ؛ لكن جيوفري هذا كان قد عاد إلى فرنسا ، ولم يتزدد الفرنج في قبرص في استدعاء أماليك من باقي ليجل محله . وكان هنري قد تطلب في أول الأمر ، باعتباره ممثلا للملك المقدس ، استشارته في امر الاستخلاف ، لكنه لم يجد سبيلا لتنفيذ مطلبه وسرعان ما أدرك هو وأماليك أن عليهما أن يتعاونتا معا. وجاء بلدوين ، كونسطنطينوس الذي كان من قبل لورد بيسان ، إلى عكا وبحث هنري على الاعتراف بأماليك وزيارته في قبرص أيضا. وكانت مقابلتهم ودودة جدا ووضعوا مخططات لتحالف وثيق تربطه خطبة أبناء أماليك الثلاثة ، جيوفري وجون وهيو ، إلى بنات إيزابيلا الثالثة ، ماريا (أوف مونفرات) وليس وفيليا (أوف شامباني). وهكذا كان المأمول توحيد ممتلكاتهما في ليجل التالي ، لكن أميري من الأمراء القبارصة ماتا في سن صغيرة جدا ، وكان الزواج الوحيد الذي أثمر في الأسرة الحاكمة الأتية هو زواج هيو من أليس. وكان مثل هذا الترتيب ضروريا للغاية ، ذلك أنه إذا كان المطلوب أن تعود الأملاك الفرنجية في قبرص بالقائدة على فرنج فلسطين وتوفر لهم قاعدة آمنة ؛ فلا بد للبلدين من التعاون . لقد كان الإغراء مستمرا ، ليس فقط للهجرة من الغرب للاستقرار في الجزيرة الرائعة بدلا من البقايا الضئيلة في المملكة الفلسطينية الخالية الآن من الإقطاعيات، ولكن كان إغراء أيضا لبارونات فلسطين نفسها المقدسين كي يعبروا البحر الضيق . وإذا كان التوريدات القبارصة على استعداد لعبور البحر والحرب من اجل الصليب وقت قدزاب الخطر ، إذن تصبح قبرص بمثابة لميل من الأصول للشرق الغربي. أما في حالة وجود سوء تفاهم ، فسوف تصبح قبرص قوة طابذة خطيرة جدا<sup>(٨)</sup>.

(٧) Estoire d'Eracles, II, pp.202-3.

(٨) أنظر HBI, History of Cyprus, II, p. 44 and notes therein على قبرص. والإجماع على مصالحة هنري مع أماليك أنظر 8-207, pp. Estoire d'Eracles, II.

وعلى الرغم مما كان عليه أماريك من البؤس ، لم يكن على استعداد لأن يصبح تابعاً يدعى هنري . فلقد سعى بالفعل إلى أن يتخذ لنفسه لقب ملك ، كي يحدد بوضوح طبيعة سلطته لرعاياه وللمستعمرين ، وكذلك للقوى الأجنبية . لكنه شعر بأنه في حاجة إلى نوع من التصديق من جهة أعلى ؛ ولا بد وأن ما سبق من تاريخ ملوك القدس قد جعله عازفاً عن التقدم إلى البابا لتتويجه . وبقياً لأن يمنحه الإمبراطور الشرقي قسطاً ذلك التتويج . ولذا ، أتى بحركة تقلد من الحكمة للمستقبل ، فأرسل إلى الإمبراطور الغربي هنري السادس . الذي كان يخطط للقيام بعملية صليبية ولسوف يناسبه للغاية وجود ملك عميل له في الشرق . وهكذا ، وفي شهر أكتوبر عام ١١٩٥ ، وصل سفير أماريك ، رينه (أوف هيل) موفاً من ملكة قبرص نيابة عن سيده ، إلى جيلهاوزن القريبة من فرانكفورت لتقديم الإحاضات للإمبراطور . وتسلم أماريك صولجاناً ملكياً مرسلًا من سيده ، وأجريت مراسم التتويج في سبتمبر ١١٩٧ عندما جاء المستشار الإمبراطوري كورنراد أسقف هيلندهام إلى نيقوسيا للاشتراك في المراسم ، وقدم له أماريك فرض الولاء<sup>(٩)</sup> . ووضعت الخطط لأن تتبع حكومة البلد للممارسات الإقطاعية الصارمة التي كانت سائدة في مملكة القدس ، بوجود محكمة عليا على غرار محكمة القدس العليا ، على أن تسري قوانين القدس ، بما فيها من تعديلات أدخلها ملوكها ، على الجزيرة . ولجأ أماريك إلى البابا لتنظيم كنيسة ، فعين البابا رئيس شمامسة اللاذقية وألان ، ورئيس شمامسة اللد ، وقاضي قضاة قبرص ، وأوكل إليهم إنشاء كراسي أسقفية على النحو الذي يرونه . فأنشأوا مقراً لرئاسة الأساقفة في نيقوسيا ، شغلها آلان ، ومقار للأسقفيات في بافوس وفاماغوستا وليماسول . ولم يُعزل الأساقفة الإغريق في الحال ، وإنما قلصوا عشورهم والكثير من أراضيهم التي استولى عليها أصحاب المناصب الجدد من اللاتين<sup>(١٠)</sup> .

وعلى الرغم من عدم استطاعة هنري (أوف شاماني) السيطرة على قبرص ، أصبح باروناته في مملكته يتخلصون له الولاء الآن . على أن معارضيهم سرهم الانسحاب إلى قبرص تاركين الأراضي الفلسطينية لأصدقائه . وأعيد تنصيب اللوردات السابقين لحيفا وقيسارية وأرسوف في إماراتهم السابقة وكان صلاح الدين قبل وفاته قد وهب باليان

212-13 (manuscript D).

(٩) *Estoire d'Eracles* n, pp. 209-12; Erroul, pp. 302-3; Arnold of Lubek, p.204.  
*Annales Marbournes*, p.167.

(١٠) *Min Latine, Documents*, II, pp. 599-605; Makhoos, pp. 28-9.

صاحب المين إقطاعية كايون - لو تل كايون - النيسة الواقعة على منحدرات جبل الكرمل<sup>(١١)</sup>. وقد كانت الصداقة مع آل إيهلين ، وزوج أم زوجته والإحوسة غور الأشقاء ذات قيمة كبيرة في تثقيف القبول العام لسلطة هنري . وكانت هناك مشكلة أكبر فيما يتعلق بإمارة أنطاكية ذلك أن يوهنن الثالث أمير أنطاكية، وكان أبنا حاكما لطرابلس باسم ابنه الصغير، كان قد لعب دورا مريبا نوعا ما أثناء فتوحات صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة ؛ فلم يبدل جهدا حاداً فتح صلاح الدين من الاستيلاء على حصونه الواقعة في وادي العاصي عام ١١٨٨ ، ولا لاستعادة اللاتقية وحيلة اللين استولى عليهما المسلمون بطريق الحيلة من قاضيه السلم ، القاضي منصور بن نبيل ؛ وقد سره أن يقبل من صلاح الدين هدنة تسمح له بالاحتفاظ بأنطاكية ذاتها ومينائها السويدية . ولم يتخذ طرابلس سوى تدخل الأسطول الصليبي فقيت لأنه . وكان يوهنن غنصما وصل فريديريك (أوف سوابيا) وبقايا جيش بارباروسا إلى أنطاكية - قد اقترح عليهم اقتراحا متحدا بأن يعاونوه في محاربة المسلمين في الشمال ، ولكنهم عندما اتفهموا جنوبا ، لم يشترك بصورة إيجابية في الحملة الصليبية أكثر من قيامه بزيارة واحدة للملك وشارد في قبرص . وقد غير موقفه في ذات الوقت إزاء سياسات الأحزاب الفلسطينية . وما أن مات ابن عمه ريموند (أوف طرابلس)، وضمن الميراث لأنه ، حتى منح تأييده كله لبلوى (أوف لوسيان) وأصدقائه ، رعا من حشيته من أن يكون لكونراد (أوف منتفات) أطماع في طرابلس . ولم يكن يرغب في وجود ملك عدواني قوي على حدوده الجنوبية إذ كان في غاية الإنشغال باشتباكات مع حاربه الشمالي ، أمير أرمينيا الروماني ليو الثاني، وهو أخو روبين الثالث ووريثه.

#### ١١٨٦ م : ليو الثاني الأرميني

توفي ليو الحكم عام ١١٨٦م سعى إلى التحالف مع يوهنن واعترف به سيدي أعلى له . واشترك الأميران في التصدي لغارة توركمانية عام ١١٨٧م ؛ وبعد ذلك مباشرة تزوج ليو إحدى بنات أخت الأميرة سيبلا، وفي نفس الوقت تقريبا كان قد أقرض يوهنن مبلغا ضخما من المال ؛ انتهت الصداقة عند هذا الحد، فلم يظهر يوهنن اعتمادا بسرعة سداد القرض ؛ وعندما غزا صلاح الدين الأراضي الأنطاكية بقي ليو على حياد مشوب بالخدر . وفي عام ١١٩١م دمر صلاح الدين قلعة باشخراي العظيمة

بعد أن استولى عليها من فرسان المجدد . وما أن انصرف رجال صلاح الدين بعد هدم الحصون ، حتى جاء ليو وأعاد احتلال الموقع وأعاد بناء الحصون . وطلب يوهنسد إعادتها إلى فرسان المجدد ، ولما رفض ليو الشك في صلاح الدين الذي حالت مشغوليته الشديدة في أماكن أخرى دون إمكان التدخل ، وبقي ليو مستوليا على ياحراس ، على أنه كان حائقا من ليو يوهنسد إلى صلاح الدين ، وزاد تغلبه عندما علم أن زوجة يوهنسد - سيللا - كانت تأمل في الاستعانة بمساعدته لاسترجاع الميراث الأنطاكي لابنها ولليم على حساب أبناء زوجته . وفي أكتوبر ١١٩٣م دعا ليو يوهنسد إلى الحضور إلى يهراس لمناقشة المسألة برمتها ، فوصل يوهنسد تصحبه سيللا وابنها . وما أن دخل حتى اعتقله مئذبه مع كل حاشيته ، ولعل له أنه لن يفرج عنه إلا بتنازله للأمير ليو عن سيادة أنطاكية . ووافق يوهنسد على الشروط بأسى ، وربما بتخريب من سيللا التي كانت تأمل أن يعطي ليو - باعتباره سيدا أعلى لأنطاكية - الخلافة لابنها . وذهب أحد فواد يوهنسد ، بارثولوميو ثريل ، وابن أختي زوجة ليو ، هينوم (أوف ساسون)، ومعهما جنود من الأرمن، إلى أنطاكية لإعداد المدينة للتخلف الجديد.

ووصل الوفد إلى أنطاكية التي كان ياروناتها لا يهابون يوهنسد كثيرا ، والكثير منهم يجرى في عروقه دماء أرمنية ، فكسبوا على استعداد لقبول ليو كسيد أعلى، وصحوا لبارثولوميو بدخول الجنود الأرمن إلى المدينة وأتزلوه في القصر . غير أن البورجوازيين من المواطنين الإغريق واللاتين على السواء ارتفعوا لما حدث وقد غشوا أن ليو يرى أن يحكم المدينة هو نفسه ، وأن الأرمن سوف يتسلطون عليهم. وحدث أن تحدث جندي أرمني باستخفاف عن القديس هيلاري ، وهو قديس فرنسي كرس له كرسيه القصر ، فباشر حازن المون في الكنيسة بقتل الجندي بالحجارة . وطرد الأرمن من المدينة ووجدوا أن من الحكمة الانسحاب إلى يهراس . وعندئذ اجتمع المواطنون في كنيسة القديس بطرس وعلى رأسهم البطريرك وشرعوا في إنشاء مجلس كوميوني ليتولى إدارة المدينة . ولكي يكون وضع المنتخبين قانونيا ، سارعوا بقسم الولاء للإيمان الأكثر ليوهنسد . ويكمن إلى حين عودة يوهنسد ، فقبل ويكمن ما تظهره من مظاهر الولاء ، واعترف بمطالبهم . وفي تلك الأثناء أرسلت الرسل إلى أخيه يوهنسد أمير طرابلس وإلى هنري (أوف شامباني) يتوسلون إليهما أن يخفيا تحدة أنطاكية من الأرمن.

وأظهرت الحادثة أنه بينما كان يارونات أنطاكية على استعداد للمضي حتى أبعد مما فعله أبناء عمومهم في القدس ليضعوا أنفسهم في مصاف مسيحي الشرق ، صابت معارضة هذا الاندماج من المجتمع التجاري . غير أن الظروف كانت مختلفة عما كانت

عليه المملكة قبل سنوات قليلة . وكان كل من الفرنج والبرتغاليين في أنطاكية يحثون الأرمن برؤية الحبال . وتظهرت الكنيسة اللاتينية - في شخص الطريق - تعاملها مع مجلس الكوميون ، غير أنه من الشكوك فيه ما إذا كانت قد لعبت دوراً رئيسياً في ذلك. إذ كان الطريق والدولف الثاني رجلاً ضعيفاً مسناً لم يصعد إلى عرش الطربرقية إلا حديثاً بعد أن كان يشغل الطريق المهيب ليمسرى (أوف ليمسوج). والأكثر ترجيحاً أن المرحطين الرئيسيين كانوا التجار الإيطاليين الذين يفتشون على تسارتمهم تحت السيطرة الأرمنية ؛ وخاصة وأن فكرة مجلس الكوميون كانت آنذاك فكرة تفتقر للإيطالي على نحو أيسر للغاية من أن تخطر للفرنسي. وأياً كان أولئك الذين شجعوا الكوميون، فسيان يواناني أنطاكية هم الذين سارعوا بلعب دور قيادي فيه<sup>(١٢)</sup>.

#### ١١٩٤م : هنري والحشاشون

وهروول بوهمند أمير طرابلس إلى أنطاكية ملياً لنداء أخيه ، وأيقن لبو من أنه قد فقد فرصته . فتجهز مع سجنائه إلى عاصمته سيس . وفي بداية الربيع التالي قرر هنري (أوف شامباني) التدخل ، ومن حسن الطالع أن لم يكن العرب على حال يتيح لهم أن يحتلوا بعد وفاة صلاح الدين ، غير أنه لا يمكن السماح باستمرار مثل هذا الوضع الخطير ؛ وأثناء ارتحالته شمالاً قابله سفارة من الحشاشين ؛ فقد مات مؤخرًا شيخ الجبل سينان ، وكان خليفته متلهفاً على إعادة الصداقة التي كانت قائمة بين طائفته والفرنج؛ فأرسل استدلارته لاغتيال كورنارد (أوف متفراش) ، وهي جرمة كان من اليسر على هنري التغافلها ، ودعاه إلى زيارة قلعة الكهف . وهناك ، وعلى إحدى القمم الوعرة في جبال النصري، لقي هنري أنطوان التسليية الفاضلة ؛ وشهد بنظره كيف يقتل التشيعون أنفسهم عن طيب خاطر عندما يأمرهم شيخهم إلى أن توصل إلى تصاف الاستعراض. ورحل وهو يحمل بنفسه لفناًيا ووعد ودود من الحشاشين يقتل أي فرد من أعدائه يطلب قلبه<sup>(١٣)</sup>.

(١٢) أنظر 5-582, Cohen, *La Syrie du Nord*, pp. 582-5. وهو نسخة رولية كاملة المراجع تلك النسخ.

(١٣) Ernouf, pp. 323-4; *Essaire d'Eracles*, pp. 216,231 (manuscript D).

## ١١٩٨م : توحيد ليو الثاني

ومن الكهف ، انطلق هنري شمالا بمحاذاة الساحل إلى أنطاكية حيث توقف قليلا قبل مواصلة رحلته في أرمينيا . ولم يكن ليو والحقا في الدخول معه في حرب مفتوحة ، فقابلته أمام سيس مظهرا استعداده للتفاوض على تسوية . والتفقا على إطلاق سراح يوهنند بلا أية قديبة ، وأن يُعترف ببهراس والأراضي المحيطة بها على أنها أراض أرمينية ، وأن لا يكون أي من الأميرين سيذا على الآخر . وللتصديق على المعاهدة ، وعلى كمل توحيد الإمارتين، التفق على أن يتزوج وريث يوهنند - ريموند - من ابنة اخت ليو والوريثة الشرعية، أليس ابنة روبين الثالث . وحقيقة كانت أليس متزوجة فعلا من هينري أمير ساسون ، غير أنه كان من اليسير التغلب على هذه العقبة ؛ إذ حدثت وفاة هينري المفاخرة وانما في وقتها المناسب . وكانت التسوية بمثابة الشير بالسلام في الشمال ، وبها أظهر هنري نفسه على أنه مهندسها ومن ثم فهو حدير بتخافة ملوك القس الأول . وعاد جنوبا وقد زادت مكانته رة<sup>(١٤)</sup>.

ومع ذلك ، لم يشعر ليو بأنه قد أشبع طموحاته . ولعلمه بأن أسازريك حاكم قبرص يسعى إلى تاج ملكي، فقد حذا حذوه . على أن الرأي القانوني آنذاك كان يرى أن التاج لا يمنحه سوى الاميراطور أو البابا - كما يرى الفرنج . أما بيزنطة، التي انقطعت صلتها الآن بكيلىكيا وسوريا بسبب الغزوات السلجوقية، فلم يعد لديها ما يكفي من القوة اللائقة باسمها بحيث يكون لها وزنها إزاء الفرنج الذين أراد ليو أن يؤسر فيهم. ومن أجل ذلك أرسل إلى الاميراطور الغربي هنري السادس الذي راح براوغ، إذ كان يأمل في الخضوع هو نفسه إلى الشرق ، وعندئذ ينظر في المسألة الأرمينية . ولذلك طرد ليو أبواب البابا كليستين الثالث ، إذ كان ليو على اتصال بروما أيام البابا كلمنت الثالث ملوحا بإحضار كنيسة البابوية ؛ ذلك أنه كان يدرك أنه لن يكون مقبولا قط كسيد أعلى للفرنج باعتباره رئيسا لدولة هرملطية . وعارض رجال الدين الشايعين له هذا العبث معارضة عنيفة لما كانوا يحملونه من غيرة وحماة لاستقلالهم وعقيدتهم ؛ غير أن ليو تأثر على مساعي في صر ، إلى أن أدخل في روع أسلافته المتدمرين أن السيادة البابوية لن تكون سوى سيادة اسمية ولن تغير من الأمر شيئا ، بينما أحمر المتدوين البابويين أن الأساقفة قد رحبوا بالإجماع بهذا التغيير . وكان البابا قد أمر مندوبيه بمراجعة الرق واللين والكياسة، ولذا لم يسأل المتدوين أية أسئلة . وفي تلك الأثناء كان

(١٤) Cahen, op. cit. pp. 585-6.

الامبراطور هنري - الذي سبق أن وعد أماليك بالنجاح - قد وعد ليو بنفس الوعد في مقابل الاعتراف بتفوقه السيادة على أرمينيا ، على أن يجري مراسم التتويج لدى وصوله . لكنه لم يذهب إلى الشرق البتة ؛ إذ حالت المنيّة دون ذلك . على أن مستشاره كورنارد (أوف هيلدشايم) ، يصبح له التفويض البايوي كورنارد رئيس أساقفة مينز ، جاء إلى سيس في يناير ١١٩٨م بعد موت الامبراطور مباشرة ، وشهد احتفال التتويج الراجع . وكان الامبراطور الشرقي ألكسيوس أنيلوس يأمل في الحفاظ على بعض النفوذ في كيليكيا فأرسل إلى ليو قبل ذلك بأشهر قليلة ناحيا ملكيا تسلمه ليو بغاية العرفان . وقام رئيس الكنيسة الأرمنية كاثوليكوس حريزوري أبراد بوضع التاج على رأس ليو ، بينما أعطاه كورنارد صرخانا ملكيا . وحضر المراسم رئيس أساقفة طرسوس الأرثوذكسي ، والطريقين البعقوبي ، وسفراء الخليفة ، وكذلك الكثير من النبلاء من أنطاكية . وكان بمقدور ليو الإدعاء بأن لقبه الملكي قد اعترف به رعاياه كلهم وحجراته كلهم<sup>(١٩)</sup> .

وكان يوما مشهودا للأرمن الذين رأوا في ذلك إحياءا لملكهم أرمينيا القديمة ؛ وكان في هذا التتويج استكمال لاندماج الإمارة الروينية في عالم فريج الشرق ؛ على أن دواعي الشك كانت تدور حول ما إذا كانت سياسة ليو في صالح الأرمن ككل ، إذ أنها فصلت أبناء أرمينيا الكبرى القديمة التي هي بيت ذلك المجلس عن إخوانهم الجنوبيين . وبعد انقضاء فترة من المداولات المهيبة وجد الأرمن كيليكيا أن إضعاف الصيغة الغربية لم تعد عليهم بفائدة في نهاية الأمر .

وكان تواجد كورنارد رئيس الأساقفة في الشرق يرجع إلى عزيم الامبراطور هنري على إطلاق حملة صليبية جديدة ، إذ أن وفاة والده فريديك المباشقة جعلت من أشدراك الألمان في الحملة الصليبية الثالثة أشدراكا عقيما يدعو للثراء . وكان لدى هنري طموحات في أن تصبح امبراطوريته واقعا دوليا ، فعا أن رسخت أقدامه في أوروبا حتى فكر في أن عليه استعادة الكيان الألمانية في الأراضي المقدسة . وبينما كان يضع الخطط لحملة ضخمة كقيلة بأن تجعل البحر المتوسط كله تحت سيطرته ، وضع الترتيبات لإرسال حملة ثانية مبكرة تبحر مباشرة إلى سوريا ، فانطلق من بلاري رئيس الأساقفة كورنارد (أوف مينز) وأدولف كونت هولشتاين ومعهما جمع غفير من الجنود استحلوا أساسة من دوقيات الزابيلاند وهورنشتون . ووصلت القضاة الأولى إلى عكا



في أغسطس ، غير أن المأذاة توقفت في قوس من أجل تبرع أمريك ، وسقطهم هنري  
دوق براينت مع كتيبة من وفاته<sup>(١٦)</sup>.

ولم يرحب بهم هنري (أوف شامباني) ترحيب المتجهين ؛ فقد علمته التحارب  
مدى حماسة استشارة حرب لا ضرورة لها . وكان مستشاروه الرئيسيون هم آل إيلين ،  
وجها زوجته وأخوتها والوردات طرية وأبناء زوجة ريموند كونت طرابلس ، وبوازع  
من الإخلاص لقيادتهم العائلية أشاروا بالتوصل إلى تسامع مع المسلمين ودبلوماسية  
حساسة محارس ضرب أبناء وإحيرة صلاح الدين بعضهم ببعض . وكانت السياسة  
ناجحة ؛ إذ كان السلام حروبا لاستعادة المملكة للسيحية ، وتحقق السلام على الرغم  
من استنزاف أمير بيروت الفرسان أمامة الذي لم يتمكن العادل في دمشق ولا العزيز في  
القاهرة من السيطرة عليه<sup>(١٧)</sup> . وكانت بيروت وصيدا ما تزالان في قبضة المسلمين  
تتصلان المملكة عن كونية طرابلس . في وقت مبكر من عام ١١٩٧م ضاقت هذه  
الفترة باستعادة حبل ؛ وكانت سيدتها الأرملة ستياني (أوف ميللي) ابنة أخت رينالد  
أمير صيدا ، وكانت تحصل منه على الغذاء للتعامل مع المسلمين ؛ وبمكيفة مع الأمير  
الكردي هناك تمكنت من إعادة احتلال المدينة بدون قتال وتسليمها إلى ابنها<sup>(١٨)</sup>.

#### ١١٩٧م : موت هنري (أوف شامباني)

ولقد جاء الألمان وهم عاقداو العزم على الحرب . ولم يتوقف أوائل القادمين  
لاستشارة الحكومة في عكا، وإنما ساروا مباشرة في الأراضي الإسلامية في الجليل . فأتى  
هذا الغزو المسلمين ؛ وكانت الأراضي تابعة للعادل فاستدعى فخريه حاشا لتساعم على  
تأمين علاقاتهم والانضمام إليه . ولم يكن الألمان يعرفون الحدود حتى انتشرت الأنباء  
باقتراب العادل ؛ وضحّت الشائعات من حجم قواته ؛ وتسلط الذعر على الألمان فلم  
يتفكروا ملاقاته وإنما ولوا الأديار باتجاه عكا، وسارع الفرسان تاركين المشاة . وبما  
مرححا أن يواصل العادل مسيرته دون مقاومة إلى عكا، غير أن هنري أخذ بتحصينة

(١٦) تاريخ هرقل، *Ensaie d'Enceles*, n. pp.214-16 (manuscript D). وقد أجريت استنساخات هنري  
لتسعة السلبية على *Annales Mirocentres*, p. 167 Diet of Gelnhausen

(١٧) *Ibn al-Athir*, n. p. 85p Ensaie, pp. 315-16.

(١٨) *Ensaie d'Enceles*, n. pp. 217-18p, Ensaie, p. 305.

هيو كوتت طوبى وسارحَ برسال فرسانه وما استطاع جمعه من جنود البطلين لتعزيز مشاة الألمان الذين أنشؤا شجاعة تفوق شجاعة قادتهم ، فأصبحوا بعد وصول التعزيزات على استعداد للصمود . ولم يكن العادل ليحترف بمركبة قبل أن يعد لها عدتها ، ولم يشأ في الوقت ذاته أن يفقد جيشه ، فاعترف جنوبا وزحف على يافسا التي كانت محصنة تحميها جيدا ، ولكن حاميها كانت ضئيلة العدد ، ولم يتمكن هنري من تعزيزها ، وكان أمالريك (أوف لوسينيان) يحكم المدينة قبل ذهابه إلى قصرص ، فعرض عليه هنري اعادتها إليه شريطة أن يدافع عنها ، فمن الأفضل أن يأتى القارصة إليها بدلا من أن تؤول إلى المسلمين كز إلى الألمان الذين لا يقيمون للمسؤولية وزنا. وما كان تلقى أمالريك هذا العرض حتى أرسل واحدا من باروناته - رينالد بارثيه - ليتولى القيادة في يافا وبعد العدة للحصار الرشيك . بيد أن رينالد كان رجلا مستهيا ، وسرعان ما جاءت الأنباء بأنه يقضى أيامه في غر طائش وليس لديه لية إعداد العدة لفارمة العادل ، ولذا جمع هنري ما استطاع جمعه من الجنود الزائدين عن الحاجة في عكا وطلب من مستعمرة يزا هناك تقديم التعزيزات<sup>(١٩)</sup>.

وفي العاشر من سبتمبر جمع هنري جنوده في فناء القصر ، ووقف يستعرضهم من نافذة مفتوحة في أحد الأروقة العليا . وفي تلك اللحظة دخل المحبرة مبعوثون من مستعمرة يزا ، فاستدار هنري لتحيتهم ناسبا المكان الذي يقف فيه وحطأ خطوة إلى الخلف من خلال النافذة المفتوحة . وكان القزم الضئيل الذي يرافقه (سكارليت) واقفا بجواره فتعلق بملابسه ، غير أن هنري كان ثقيلا الوزن وسكارليت حقيقه ، فهويها معا وارطما بالرصيف وقتلا<sup>(٢٠)</sup>.

#### ١١٩٨ م : زواج إزابيلا وأماليك

وأدى ذهاب هنري الفاضل إلى أن لقي بالملكة كلها في حالة من الذهول ، إذ كانت له شعبية كبيرة. ورغم اختفاره إلى الرقاب الطبيعية البارزة ، فقد استغل مهارته ودأبه واعتماده على مستشاريه اللخبين وأثبت اقتداره لأن تمكن واستعماده لأن يتعلم من التجربة ، وقد لعب دورا هاما في استمرار بقاء المملكة . غير أن البارونات لا

(١٩) ( Enns d'Enns, n. pp. 216-19 ) (X) لمطروشا: Abu Shama, Enns, pp. 305-7  
Enns d'Enns, n. pp. 84-6, 116, 152  
Enns d'Enns, n. p. 220, Enns, p. 306, Anadi, pp. 90-1, Enns d'Enns, n. p. 86.

(٢٠) Enns d'Enns, n. p. 220, Enns, p. 306, Anadi, pp. 90-1, Enns d'Enns, n. p. 86.

يستطيعون إضاعة الوقت في البكاء عليه ، إذ يتعين العنود على حاكم جديد بسرعة ليتولى أمر الحرب مع العرب والحملة الصليبية الأثلية وكافة ما تواجهه المملكة من المشاكل المتتادة . وكانت وفاة التنكل قد نالت من أرملته الأميرة إيزابيلا فأجانبها إلى حالة من التخبط يستحيل معها أن تتولى حكم المملكة ، لكنها كانت الشخصية التي تترك الأمور باعتبارها ورثة الخط الملكي . وكان لها بنتان صغيرتان من هنرى بقىتا على قيد الحياة هما أليس وفيليبا ، وأما ابنتها من كونراد - ماريا أوف مونفرات - التي اشتهرت بلقب أبيها باسم (لا ماركيز) ، فكانت في الخامسة من عمرها . وكان واضحاً أنه ينبغي لإيزابيلا أن تتزوج مرة أخرى . وفي الوقت الذي كان يمضف فيه البارونات بوضعها كوريثة ، اعتبروا أن اختيار زوجها التالي هو أمر يحصل في اختصاصهم ، ولسوء الحظ لم يتمكنوا من الاتفاق على اختيار زوج مناسب لها . فاقترح هيو أمير طبرية وأمينهاؤه ترشيح أخيه رالف الذي كانت أسرته - آل فالكونبرج أوف سانت أومير - إحدى أبرز العائلات في المملكة ، لكنها كانت عائلة فقيرة بعد أن استولى المسلمون على أراضيها في الجليل ، وكان رالف أيضاً أصغر من المسلمين ، وكان معروفاً عنه بصورة واسعة الانتشار أنه يفتقر إلى ما يكفى من الثروة والمكانة المرموقة ، وكان فرسان النظامين العسكريين يصفه بحامسة يعارضونه . وأثناء أن كانت المناقشات جارية حايث الأبناء يسقطون يافاً دون مقاومة ، فانطلق دوق برابانت لاستعادتها . والآن عاد إلى حكما وتولى زمام الحكم ، وبعد أيام قليلة ، في العشرين من سبتمبر ، وصل كونراد (أوف مينز) والقادة الألمان من قبرص . وكان كونراد ينصف بقوة سلطته البالغة باعتباره بطريق الإمبراطورية الغربية ، وموضع ثقة الإمبراطور ، وصديقاً - كذلك - للبابا الجديد إرنست الثالث . وعندما اقترح منح التاج للملك أماريك القبرصي لم يعارضه أحد عدا البطريق أيسار الرابع برغم عدم تأييد رجال الدين التابعين له لمعارضته . وبعد الاختيار اختياراً رافهاً ، إذ كانت زوجة أماريك الأولى - إيشيلا أوف إيبيلين - قد ماتت مؤخراً ، وبما لم يكن هناك ما يعوقه من زواج إيزابيلا . ورغم أن الكثيرين من البارونات السريان لم يتناسوا تماماً أنه من آل لوسينان ، فقد أظهر تحفه عن كل السياسات التحيزية ، وأظهر أنه أكثر الحذر من أخيه الأصغر جوى . وكان اختياره باعتباره على إدخال السور على البابا الذي بدا له من الحكمة لم شمل المشرق اللاتيني تحت زعامة واحدة . على أن نوابا المستشار كونراد كانت أكثر حياءً . إذ كان أماريك مديناً بتاحه القبرصي للإمبراطور هنرى وأصبح تابعاً له . واعتباره الآن ملكاً للقدس ، أملاً يُخضع مملكته الجديدة للسلطة الإمبراطورية \* وتُردد

أماريك نفسه قليلا . رغم بصل إلى عكا قبل يناير ١١٩٨ م . وفي الصباح التالي لوصوله تزوج من الأميرة إيزابيلا وبعد أيام قليلة توجهما بالطريق ملكا وملكة للقدس<sup>(٢١)</sup>.

ولم تكن وحدة الشاهين مكتملة على الصورة التي كان يتطبع إليها البابا أو المستعمرون ، إذ أوضح أماريك منذ البداية الفصل بين إدارة كل من الملكين وعدم انغلق أية أموال قروصية في الدفاع عن الأراضي المقدسة . وكان هو نفسه بمثابة رابطة شخصية بينهما ، فكانت قروض مملكة وراثية ، ووريثه هناك هو ابنه هير ، أما في مملكة القدس فكان الحق الوراثي مرتبطا بالقول العام واحتفظت المحكمة العليا بمطالباتها بانتخاب من يحتل العرش، وفي القدس كان أماريك مدينا بوضعه لزوجه ، فلو مات فسوف تعاود الزواج وسوف يُقبل الروح الخديك ملكا، وكانت وريثة العرش هي ابنتها ماريبا (ألف مونتفرات) ، وحتى لو أنجب منها ولدا ، كان من المشكوك فيه أن تكون لثمرة الزواج الرابع أسبقية على لثمرة الزواج الثاني . على أن ذريتهما الفعلية انحصرت على بنتين هما سيلا وميليسدا<sup>(٢٢)</sup>.

ورغم أن أماريك كان يعتبر نفسه أكثر قليلا من نائب للملك، فقد كان حاكما ذا اقتدار ونشاط . وقد حث المحكمة العليا على مشاركته في مراجعة الدستور كي تتحدد الحقوق الملكية بوضوح ، خاصة وأنه أثار مسألة استشارة ألف أمير طبرية ، وهو حريمه في العرش ، والذي يقال إنه كان عمل تقديره وإن لم يكن بحبه . وكان ألف متحيزا لمعلوماته القانونية ، فكان من الطبيعي أن يُطلب منه إصدار الطبعة الجديدة من القوانين التي كانت تسمى كتاب الملك Livre au Roi بيد أن أماريك كان يفتش أن تستغل معلومات ألف ضده . وفي شهر مارس ١١٩٨ م ، وبينما كان الملك على صهوة جواده مع حاشيته يتجولون في البساتين المحيطة بصور، هبط عليه أربعة فرسان ألمان . وأخذ الملك دون أن تتحل به إصابات جسيمة ، ورفض المهاجمون التصريح

(٢١) Roger of Howden, in: *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 221-3; Enout, pp. 399-10. الذي يطلق اسم ميليسدا خطأ على العروس إن الزوجين قد تزوجا وتزوجا في بيروت بواسطة كورنراد أوف بيتز. والأرجح أن تلك دعابة لائقة، إذ أن إيزابيلا لم تستقبل ألف في الطرقات إلا بعد بضع أشهر على أنه رفض أولا السماح بسلوكه بسبب روابطه السيئة مع أمه وأمه التي رويح رسالة في *PL. vol. cxxiv, col. 477*. ولم أصبحت العادة منذ آنذاك عندما تم بيع تويج ملك القدس في كندرية صور.

(٢٢) *تطير* La Motte, *Factual Monarchy*, p. 43. *تطير* Hill, *op. cit.* وعن الملكية القروصية في ممرس *تطير* Hill, *op. cit.* vol. ii, p. 50 n. 4.

بالجهة التي يتوبون عنها في محاولتهم ، لكن أملاكهم أعلن أن رالف مذنب وحكم عليه بالنفي . وطالب رالف بمئة في عاصمة يجرها لقرانه من النبلاء . وبناء على نصيحة جون أمير إيباين - وهو أمير اللثة غير الشقيق - اتبع الملك بأن رالف لابد وأن يحمل القضية إلى المحكمة العليا ، التي قضت بأن الملك قد أخطأ في نفي رالف دون محاكمته . ولم تحمل المسألة إلا عندما أعلن رالف أنه سيلعب طرواية إلى النفي في طرابلس بعد أن فقد ثقة الملك ، وربما كان ذلك راسعاً إلى تدخل جون أمير إيباين المعروف بمهارته. وأظهرت الحادثة للنبل عدم إمكان معارضة الملك دون الإفلات من العقاب ، لكنها أظهرت للملك أن عليه أن يمثل للدستور<sup>(٢٣)</sup>.

وكانت سياسته الخارجية تنصف بالقوة والبرونة . ففي أكتوبر ١١٩٧م، وقبل أن يعتلي العرش، بذل المساعدة لهنري وكوف برابانت مستغلاً تمركز المسلمين في يافا وأرسل حملة مفاجئة تتألف من ألكان وحنود من أبناء برابانت بقيادة هنري لاستعادة صيدا وبيروت . أما صيدا فقد سبق أن دمرها المسلمون الذين ظنوا أن لا سبل للدفاع عنها ، ولما وصلها المسيحيون وجدوها أثراً بعد عين . وكان أمير بيروت الفرسان أسامة قد طلب العون من العادل ، ولما وجد أن هذا الأخير لم يرسل له العون قرر تدمير مدينته ، غير أنه بدأ متأخراً جداً ، إذ وصل هنري وحنوده فوجدوا أسوارها مفككة بحيث يسهل عليهم دخولها ، غير أن أغلب المدينة كان سليماً وسرعان ما تمسكوا ما تلف منها . وشنت بيروت كإقطاعية لأخي الملكة قير الشقيق جون (كوف إيباين). وبعودة حبل إلى قبضة أمراء المسيحيين بالفعل ، أصبح للمملكة حنود مشرقة مع كوثنية طرابلس مرة أخرى ، غير أن الساحل المحيط بصيدا لم يفلّ تماماً من الأعداء الذين كانوا يحتفلون بنصف الفساحي<sup>(٢٤)</sup>.

#### ١١٩٧م : الحملة الصليبية الألمانية

تشجع الصليبيون الألمان بنجاحهم في بيروت فعملوا ، وعلى رأسهم رئيس الأساقفة ، للزحف بعد ذلك على القدس . وحاول البارونات السريان أن يثنوهم عن

(٢٣) pp.228-30; John of Ibelin, pp.327-8; Philip of Novara, pp.322-3, 570. *Essai d'Enoch, II*

(٢٤) -Enoch, pp. 311-17; *Essai d'Enoch, II*, pp.224-7; Arnold of Lubek, p.205; Ibn al-Athir, p. 86.

عزمهم ، آمالين الحفاظ على السلام مع العادل على أساس تخليه عن باقي واحتفاظه ببيروت ، ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح . وفي نوفمبر ١١١٧م دخل الألمان الجليل وحاصروا قلعة تين العظيمة . وكان هجومهم الأول من القوة بحيث سارعت الحامية الإسلامية تعرض التحلى عن القلعة ومعها خمسة سجين مسيحي محتجزين في قبابة سجونها مقابل الإبقاء على حياة أفرادها ومرورهم آمنين مع أمتعتهم الشخصية . غير أن رئيس الأساقفة كورتاد أمر على التسليم بلا قيد أو شرط . وفي لحظة بارونات الفرنج على مصادقة العادل ، وبدافع من عشية حدوث مذنبه تشر جهاد المسلمين ، أرسلوا يملكون السلطان من أن الألمان ليسوا معتادين على الإبقاء على حياة أسراهم . واستسلمت الحامية في الدفاع ، بينما حث العادل ابن أخيه العزيز على إرسال جيش من مصر خلافاً للعادة . وبدأ الألمان يشعرون بالوهن وتراخت عزائمهم . وفي تلك الأثناء وصلت الأنباء بحوث الاميراطور هنري في سينتر ، ولذا تلهف الكثير من القادة على العودة إلى ألمانيا ، ولما جائت أخبار الحرب الأهلية في ألمانيا قرر كورتاد ورفاقه التحلي عن الحصار . وفي الثاني من فبراير ١١١٨م اقرب الجيش المصري للقادم من الجنوب ، ونهياً جنود الألمان وضباطهم للحرب ، ولكن انتشرت فحاة شائعة بفرار المستشار رئيس الأساقفة مع عظام القورونات ، قذب الذعر في الجميع ، وانطلق الجيش كله هارباً ولم يتوقف أبداً إلى أن وصل إلى مأمنه في صور . وبعد أيام قليلة شرع الجيش في رحلة العودة إلى ألمانيا . وهكذا لم تحقق الحملة الصليبية كلها سوى الحثية ولم تفعل شيئاً للحفاظ على المكانة الألمانية . ومع ذلك ، فقد ساعدت في استعادة بيروت للفرنج ، وتركت خلفها مؤسسة دائمة هي منظمة فرسان التيوبون<sup>(٢٥)</sup>.

وكانت الأنظمة العسكرية الدينية الأقدم قد استجلبت أعداداً ضخمة من الألمان برفق منها كانت أنظمة عالية من الشاحة الرحمة . وفي وقت الحملة الصليبية الثالثة ، كان بعض التجار القادمين من مينائي بريجن ولوبيك الألمان قد أنشأوا نزلاً للألمان في عكا على غرار مستشفى القديس يوحنا ، ونفرو تكريسه للعذارى ، وخصص لرعاية الحجاج الألمان . وكان لابد وأن ترداد أهميته بمحضور الحملة الألمانية عام ١١٩٧م ، وعندما قرر عدد من فرسان الصليبيين عدم العودة إلى ألمانيا في الحلال ، حذت الشفقة جنو مستشفى القديس جون قبل ذلك بقرن من الزمان وضمت هؤلاء الفرسان ، وفي عام ١١٩٨م تلقت اعترافاً من الملك ومن البابا بأنها نظام عسكري . والأرجح أن

(٢٥) (الرحيم) . التيوبون : شعوب ألمانيا قديمة وخاصة في شمال ألمانيا.

المستشار الأسقف كونراد كان مشركاً أن وجود نظام ألماني حائس سيكون ذا قيمة في زيادة المخططات الإمبراطورية ، وقد تحمل هــج نفسه مسؤولية الشروع فيها بدرجة كبيرة. وسرعان ما حصلت على هبات الضياع المحصنة في ألمانيا ، وبدأت في الحصول على القلاع في سوريا ، فكان أول ممتلكاتها برج فوق بوابة سانت نيكولاس في عكا، وحيه أمالريك شريطة أن يعيد الفرسان تسليمه بناء على أمر الملك . ثم سرعان ما اشروا قلعة مونتفورت الواقعة على التلال المسيطرة على "سلم صور" ، وأعادوا تسميتها باسم ستاركبرج . وكشأن فرسان المعبد والمستشفى قدم النظام العسكري الألماني الجنود للدفاع عن الشرق الفرنسي ، لكنه لم يعمل على تسهيل حكم المملكة<sup>(١٦)</sup>.

وما أن وصل الصليبيون الألمان حتى دخل أمالريك في مفاوضات مع العادل ؛ وكان العزيز قد أسرع في العودة إلى مصر ، ولم يكن العادل يرغب في الشجار مع الفرنج لتلهفه على الحصول على الميراث الأيوبي كله . وفي أول يولية ١١٩٨م وقع على معاهدة تقضي بأن يحتفظ العادل ببالا ، ويحتفظ الفرنج بجبيل وبيروت ، وتنقسم صيدا بينهما ، على أن تستمر المعاهدة خمس سنوات وخمسة أشهر . وكانت تلك التسوية في صالح العادل ، إذ بعد وفاة العزيز في شهر نوفمبر أطلقت يده للدخول في مصر وخضم أراضي السلطان المملوكي . وبتزايد قوته زاد إصرار أمالريك على مسأله إذ كانت هناك مشاكل في أقطاك مرة أخرى<sup>(١٧)</sup>.

#### ١١٩٧م : الإستخلاف على أقطاك

كان بوهموند الثالث قد شارك في حصار بيروت ، وفي طريق عودته عظم لهزيمة حيلة واللائقة ، غير أنه اضطر إلى الإسراع إلى إمارته ، فقد مات ابنه ريموند فجأة في أوائل عام ١١٩٧م ، وبذا انهارت مخططاته الرامية في توحيد كيليكا وأقطاك تحت ابنه ريموند وعروسه الأرمنية . ولقد ترك إينا رضيعاً هو ريموند-سروين الذي كان وريثاً لأقطاك بحق الورثة . لكن بوهموند الثالث الآن قد دلف باب سنته السنين ،

(١٦) أنظر ٨، ٦٧٧، *Rehricht, Geschichte des Königreichs Jerusalem*, pp. 677-8.

(١٧) Roger of Hoveden, iv, p. 28 و *Ennosel* pp. 316-17، *Ennosel d'Ennosel*, ii, p. 228. كان مفراً أن تستمر الفتنة بين سوارث وسنة أشهر وسنة أيام، أبو شامة (البحر العربي) ١١٩٧، *Ibn al-Athir*, iii, p. 89؛ ١١٩٧، *Ibn al-Athir*, iii, p. 220-1؛ *Bainaq*.

ومن غير المحتمل أن يعيش أبري حفيده وقد بلغ سن الرشد - ولو أن الوصي على الطفل كان من اقاربه الأرمن ففي ذلك الخطورة كلها التي تتمثل في سيطرة الأقلية ؛ فأرسل يوهوند الأرملة أليس مع ولدها إلى أرمينيا ، ربما لأنه كان ينطلي لأن يستخلف أحد أبناء سيلا ، وربما لأنه ظن أن في ذلك سلامتهما . وقد حدثت تلك الأحداث في وقت تنويح ليو تقريبا . وكان كونراد (أوف مينز) نوافا للإستلاء على عرش أنطاكية لأحد أتباع سيده ، وبذا يكون قد استكمل مهمته في عكا ، فما كان منه إلا أن سارع بمغادرة سبيل إلى أنطاكية حيث أحر يوهوند على استدعاء باروناته وجعلهم ينقسمون على مساندة استخلاف ويوند-روين<sup>(٢٨)</sup>.

وكان الأفضل لكونراد أن يلعب إلى طرابلس - إذ كان يوهوند كونست طرابلس، وهو الإبن الثاني ليوهوند الثالث ، شانا تتوفر لديه طموحات ضخمة والقتيل من الشعور بالتمييز ، وهو ضليح في القانون وقادر على أن يجد ما يبر به أكثر أعماله فحشا، ولم يكن يته وبين الكنيسة شيء من الود . وفي خلاف بين أبناء بيزا وأسقف طرابلس على بعض الأراضي ، ناصر أهل بيزا - من أجل المال بلا شك . وعندما عُيِّن الأسقف بطرس (أوف الموليم) بطريقا لأنطاكية وقام بتعيين خليفة له في دائرة طرابلس بلا إجماعات كنسية بسبب التحلة ، قبل الذهاب ما تدرج به من أن حدود حاكم مثل يوهوند لا تستطيع الكنيسة المجازة بالتأخير . وكان يوهوند عاقدا عزمه على ضمان استخلاف أنطاكية ، وعلى الفور رفض الاعتراف بصحة القسم الذي أقسمه النبلاء لصالح ويوند-روين . وكان في احتياج لحلفاء ، فوجدتهم في فرسان المعبد الذين انضموا إليه في سرور بعد غضبهم من ليو الذي احتفظ بحراس ، وضم إليه فرسان للمستشفى بعد أن حصلوا على منح معقولة . ولما أبناء بيزا وجنوا فقد ارتشوا بامتيازات تجارية . والأكثر أهمية أن كميون أنطاكية نفسه كان يخشى الأرمن ، ويجعل العداوة لأي عمل بأنه البارونات . وفي نهاية ١١٩٨م ظهر يوهوند كونست طرابلس فحاشا في أنطاكية ، وعزل أباه وحث الكميون على قسم الولاء لنفسه.

يبد أن ليو كان له حليف عظيم ، ألا وهو البابا إينوسنت الثالث . وأيا ما كانت

(٢٨) Arnold of Lubeck, p.207; *Chronica Regio Coloniensis*, p. 161; Reges of Heveden, p. 28. وجميعهم يقولون ضمنا إن يوهوند احتل المدن مؤقتا. كميون الذين ترجموا Blochet, pp.213-15 إلى لم يهاجموا في الواقع. وكما في Rohricht, op.cit p. 675، فيحظر في ترجمة سيل ويذكرها Gibelet وهي Jebel في تاريخ مرغل Brucher, ii. p.228، ويذكرها حينا Jabala (Dischebele).



الشكوك التي ربما كانت الدايوية تشعر بها حول إخلاص الكنيسة الأرمنية في خضوعها لروما ، كان أتيوسنت الثالث عازفاً عن إعداد أتباعه الجدد . وانهمرت على روما والطريق كنيسة الأرمنية (كاتوليكرس) رسائل من ليسو وطلبسات تعكس السوء والإخلاص ، ولم يكن هناك مجال لتجاهلها . وأدت معارضة الكنيسة على الأرجح إلى أن يسمح يوهيموند الصغير لوالده بالعودة إلى أنطاكية وعاد هو نفسه إلى طرابلس ، لكنه تمكن بشكل أو آخر من مصالحة والده الأمير الشيخ الذي تقول ومال إلى جانبه . وفي تلك الأثناء مارس فرسان المعبد كل ما لديهم من نفوذ للتأثير على روما ، غير أن ليو تجاهل تعليمات الكنيسة التي تقيد بأنه ينبغي له إعادة يجراس إلى نظام فرسان المعبد، إذ كانت يجراس من الناحية الإستراتيجية موقعا أساسيا له إذا كان له أن يتحكم في أنطاكية . ودعا الأمير الشيخ ويوهيموند والطريق بطرس لمناقشة المسألة برمتها ، غير أن عناده دفع حتى بالطريق إلى الاختيار إلى جانب يوهيموند كوندت طرابلس . وانضمت الكنيسة في أنطاكية إلى الكميون والأنظمة العسكرية في معارضتها للإستخلاص الأرمني. وعندما مات يوهيموند الثالث في إبريل ١٢٠١ م ، لم يجد يوهيموند كوندت طرابلس صعوبة في تنصيب نفسه في المدينة . بيد أن الكثير من النبلاء للتمسكين بقسمهم ، والذين كانوا يفتشون استبداد يوهيموند ، هربوا إلى بلاط ليو في سيسي<sup>(٢٩)</sup>.

#### ١٢٠١ م : الحرب الأهلية في الشمال

وطوال الربيع التالي من القرن انتشعل مسيحيو شمال سوريا بحرب الإستخلاص الأنطاكية ، وقبل تسوية المسألة بوقت طويل كان الوضع كله في الشرق قد تغير . ومن حسن الحظ أن أمراء الأناضول السلاجقة والأيوبيين لم يكونوا في وضع يمكنهم من شن حرب للغزو هناك . ذلك أن وفاة السلطان السلجوقي قنق أرسلان الثاني أتحقبتها حرب أهلية طويلة فيما بين أولاده . وانقضت عشر سنوات تقريبا تمكن بعدها أحد الأبناء الصغار ، ركن الدين سليمان صاحب نواحيات، من إعادة توحيد أراضي الأسرة . وحدثت غارة سلجوقية على كيليكيا عام ١١٩٣ م ، ومرة أخرى عام ١٢٠١ م، الأمر الذي تسبب في اضطراب ليو في اللحظة الحرجة التي كان فيها يوهيموند الثالث واقفا . على أنه عندما كان يتوفر لركن الدين بعض الوقت أثناء حروبه مع اخوته ومع

(٢٩) للإطلاع على هذه القصة المقلدة انظر Cohen, op. cit. pp. 590-5 مع مناقشة حول تعارض المصادر.

أمراء الدانشمند الضعفاء ، كان يستغله في مهاجمة جورجيا ، التي كانت ملكيتها تشارك تبادلاً أشد خطورة في تهديدها للإسلام من أي عامل لاتيني<sup>(٣٠)</sup>.

و لم يكن من السهل الحفاظ على السلام . ففي نهاية عام ١٢٠٢م هبط على عكسا أسطول فلنكني صغير ، كان قد أبحر مختاراً مينيح جبل طارق تحت قيادة أمير قلعة بروج ، جون (أوف تيسل) . وبعد أيام قليلة وصلت حفنة من الفرسان في سفن من مرسيليا برئاسة الأسقف وولتر (أوف أوتون) وكونت فوربه ، ولحققت بهم مجموعة أخرى من الفرسان الفرنسيين القادمين من فينيسيا ، وفيهم ستيفن (أوف بوش) وروبرت (أوف مونتفورت) وريالد الثاني كونت داميير . ولم يبلغ عدد المجموعات الثلاث سوى مئات قليلة من الرجال ، وهم نسبة ضئيلة مقارنة بالجيوش العرمرم الذي يبحر الآن من دالماتيا ؛ وكان رينالد (أوف مونتسويل) قد غادر زاراً أمام الجيش ، وسرعان ما جاء بالأتباع التي تفيد بأنه سيبر بعض الوقت قبل أن يظهر الجيش في سوريا، وربما لن يصل . وكشأن الوافدين الجدد ، عقد الفرسان الفرنسيون العزم على الخروج في الحال للحرب من أجل الصليب ، وفاد ثقتهم الرعب عندما حثهم الملك أماريك على الانتظار متحمليين بالصبر ، فما كان من رينالد كونت داميير إلا أن أهان الملك في وجهه رافياً إياه بالجرن ، واعتباره فاكها بذاته ، عرض الفرسان على الانتحار بخدمة يوهيموند كونت طرابلس . فانتقلوا للإلتزام إليه في أنطاكية بعدما عبروا طرابلس في أمان . لكن حيلة واللافية كانت ما تزالان في أيدي المسلمين ، وكان أمير حيلة رجلاً مسالماً تربطه بغيرانه للسيحيين لوتش الروابط ، فرحب بهم ضيوفاً عليه، وحلهم من عبور اللالافية دون أخذ الأمان من سيدها الظاهر صاحب حلب ؛ وعرض أن يكاتب هو نفسه السلطان الذي كان حرباً بتلبية طلبهم لإهتمامه بزيادة إشعال الحرب الأهلية في أنطاكية ، غير أنه لم يسع رينالد ورفاقه الانتظار، فغادروا السير عبر اللالافية التي أراد أميرها الوفاء بواجبه الإسلامي فنصب لهم كمينا وأسروا كثيرين وقتل الباقين<sup>(٣١)</sup>.

(٣٠) The Bibi, ed. Houtsma, iv, pp. 5-32; Ibn al-Athir, ii, pp. 69-72; Georgian Chronicle (ed. Brosset), pp. 292-7.

(٣١) Enceat, p. 341; Enceat d'Enceat, ii, pp. 247-9; Villehardouin, ed. Faral, pp. 102-4 وكمال الدين ترجمة Blochet, p. 39. وذهب جون أوف تيسل وتيلون من أمقورا من اللالافية إلى كيو الثاني ضد أنطاكية . ومن الحملة الصليبية الرابعة كُتِر كُتاه من ١٠٢٧ II. Villehardouin. بمراة الصليبيين الذين أسروا على الدواب إلى الأراضي المقدسة.

## ١٢٠٥م : موت الملك أمالريك

أغار أمالريك نفسه من حين لآخر على المسلمين عندما كان أحد الأمراء يقوى نفسه بالقرب من صيدا ويبدأ في الإغارة على السواحل المسيحية . وحيث أن العادل لم يعرض أية تعويضات ، انتقم أمالريك بإرسال سفن تعرض قاذبة بحرية لمينة كانت مبحرة إلى اللاذقية واستولى عليها ، كما قام بغارة على الحلب . ورغم أن العادل وصل في مسيره إلى جبل طابور للإغارة ، فقد رفض للدخول معه في معركة . كما أن رد فعله لم يكن عنيفا عندما أبحر الأسطول المسيحي إلى دانا النيل ثم أغلقت النهر مارا برشيد وحرب منجدة قوة . وفي ذات الوقت تقريبا قام فرسان المستشفى في الكرك ومرفق بالإنغارة على حماه ، وهي إمارة النصارى ، سلبد أنسى العادل دون نجاح دائم<sup>(٢٢)</sup>.

وفي سبتمبر ١٢٠٤م أبرمت معاهدة سلام بين أمالريك والعادل لست سنوات . ويبدو أن المبادرة بها جاءت من أمالريك ، وإن كان العادل مشتاقا من حاليه لإنهاء القتال ، ربما لقلقه من تفوق المسيحيين في القوة البحرية ، غير أنه يقينا كان متركبا أن امبراطوريته سوف تجنى الثمار باستئناف التجارة التي ركزت مع السواحل السورية . ولذا كان على استعداد للتخلي لا عن بيروت وصيدا نهائيا لأمالريك فحسب ، وإنما تخلى له كذلك عن باقا والرملة وسهل ترثيات المخرج للحجاج الذاهبين إلى القدس والناصرية . أما أمالريك ، الذي لا يتوقع الآن تلقي أية مساعدة فعالة من الغرب ، فقد بدت له الشروط جيدة بصورة تثير الدهشة<sup>(٢٣)</sup> غير أنه لم يتمكن من التمتع بمكائنه المتزايدة لقوة طويلة ، فمضى أول أبريل ١٢٠٥ ، وبعد فترة قصيرة من المرض نتيجة الإحباط في أكل السمك ، مات في عكا عن عمر يزيد قليلا على الخمسين<sup>(٢٤)</sup>.

ولم يكن أمالريك ملكا عظيما ، غير أنه كشأن سلفه هنري تعلم من التجربة الحكمة السياسية التي كانت ذات قيمة لهذه المملكة الناشئة المتهوفة بالأساطير ؛ وأسهم

(٢٢) Ernad, pp. 355-60, *Essai d'Eracles*, ii, pp. 258-63, Abu Shama, ii, p. 158; Ibn al-Athir, ii, p. 96.

(٢٣) Ernad, p. 360, *Essai d'Eracles*, ii, p. 263; Ibn al-Athir, loc. cit.

(٢٤) Ernad, p. 407; *Essai d'Eracles*, ii, p. 305; Appendix to Robert de Monte, Bouquet, p. 342. وقد مات فيه الرضيع من إرنايلا يوم ٦ فبراير . وكان السمك من صنف البسوي الأبيض.

دعته للنسب القانوني لا في إتياد دستور لقصر وحسب ، وإنما فعل الكثير من أجل الحفاظ على الملكية في الأراضي الأصلية . وكرجل كان يلتقي الإحترام ولكن لم يكن محبوبا كثيرا . وكان في شبهة يتصف باللامسؤولية وكان مشاغبا ، ودائما ما كان يستهين بالمعارضة . ورغم أنه أوضح بملاءة تفضيله لأن يفضل ملكا للقصر وحدها، فخرج إليه الفضل في قوله للمهام التي ألقاها التاج الثاني على عاتقه وبقضاها بكل ما تستدعيه من واجبات . وفي وقت وفاته كانت المملكتان منفصلتين ، فألت فرض إلى إنه هيو الأول ابن إيشيفا (أوف إيلين)، وكان طفلا في السادسة من عمره . وكانت الأخت الكبرى للطفل قد تزوجت حديثا من وولسو (أوف مونتيلارد) الذي عهدت إليه انفسكة العليا في الجزيرة بالوصاية<sup>(٣٢)</sup> . وفي مملكة القدس آلت السلطة تلقائيا إلى الملكة إيزابيلا التي لم تشعر بالإرتباك ثروت زوجها هذا الأخير على النحو الذي يعوقها عن مباشرة الحكم . بيد أنها هي نفسها لم تعيش طويلا ؛ إذ طوت أكفان الغموض تاريخ وفاتها كما طوت أغلب أحداث حياتها . وكانت هي الوحيدة من بين سيدات البيت الملكي في القدس التي كانت شخصيتها شخصية معينة لم يبق لنا شيء يكشف عن شخصيتها . وكان زواجها ووجودها ذاته ذا أهمية كبيرة . ولو كان لها تطلعات سياسية لكأنت بمثابة قوة في الأراضي المقدسة ، لكنها تركت نفسها تنتقل من زوج إلى زوج دون اعتبار لرغباتها الشخصية . ونحن نعلم أنها كانت جميلة ؛ على أننا ينبغي أن نصل إلى نتيجة أنها كانت هزيلة ضعيفة<sup>(٣٣)</sup> .

وتركت إيزابيلا خمس بنات ، ماريما (أوف مونتفرات) وغييس وفيليسا (أوف شامباني) وسبيلا وميليسند (أوف لوسيتان). واعتلت ماريما العرش ، وكانت آنذاك في الثالثة عشرة من عمرها ، وتحت جون أوف إيلين ، لورد بيروت ، بوصفا على العرش. وليس معروفا ما إذا كان تعيينه جاء عن طريق الملكة الراحلة أو عن طريق البارونات ، غير أنه كان المرشح البارز ، إذ باعتباره الأخ الأكبر غير الشقيق لإيزابيلا ، كان هو أقرب الأقرباء المذكور لماريا . وكان صاحب نفوذ إقطاعية في المملكة الصغيرة وكان القائد المقبول للبارونات ، وقد جمع بين شعبية أبيه وحكمة باليان وبين الشهادة الإغريقية الذي ورثه عن لعم - ماريما كومنينا . وظل يحكم البلد لثلاث سنوات محبارة وهدوء لا تزغحه فيها الحروب العربية ولا تفرحه فيها الحملات الصليبية . وفي واقع

(٣٢) Estève d'Eracles, ii, p. 305.

Ibid. (٣٣)

الأمر ، وكما توقع أمالرك وهو عزون عندما وقع معاهدته مع العادل ، ليس هناك فارس غربي يرجع نفسه طواعية بالخطور إلى فلسطين . لقد وجدت الحملات الصليبية موانع أخرى أكثر حصىة تنصيدها<sup>(٣٧)</sup> .

---

## الباب الثاني:

### حملات صليبية ضالة

\_\_\_\_\_

---

## الفصل الأول:

### الحملة الطليبية ضد المسيحيين



---

## الحملة الصليبية ضد المسيحيين

«كيف صارت كأرملة العظيمة في الأمم. السيدة في البلدان صارت تحت الجزية،  
كل أصحابها غدروا بها صاروا لها أعداء»  
(مزائي رؤيا ١٦: ١٢)

في نوفمبر ١١٩٩م، دعا الكونت تيبالد (لوف شامباني) أصدقاءه وجوانه لمشاهدة  
العباب الفروسية في قلعة إكزي الواقعة على نهر إيسن في شمال فرنسا . وبعد انتهاء  
المقارعة ، تحولت أحداث اللوردات إلى الحاجة إلى حملة صليبية جديدة ، وهو أمر وقع  
من الكونت موقعاً قوياً ، إذ كان هو ابن أختي قلب الأسد وفيليب أوغسطس ، وكان  
أخوه هو الكونت هنري الذي حكم في فلسطين . وبناء على اقتراحه دُعيّ الواعظ  
الجزال فولك (لوف نوبلي) ليحادث الصيوف . وأشعلت قصافته المجموعة كلها  
فأقسموا على أخذ الصليب ، وأُرسل مبعوث إلى البابا لإبلاغه بالقرار الورع<sup>(١)</sup> .  
كان إينوسنت الثالث مذنباً على العرش البابوي لأكثر من عام في الواقع. وكان

(١) Villehardouin, i, pp. 2-6

مُتَّعِد الحماس في طموحه لإقامة السلطة غير العادية للكرسي البابوي ، لكنه في الوقت ذاته كان حذرا بعيد النظر ورائي الذهن، وقانونيا يفضل وجود أساس قانوني لمطالباته، وكان سياسيا لا يتورع عن استخدام أية وسيلة في متناوله يده مهما تكن . وكان قد أصابه الاضطراب من جراء الوضع في الشرق ، وكان أحد أعماله الأولى أن ألصق جهرة عن رغبته في حملة صليبية جديدة ؛ وفي عام ١١٩٩م كتب البطريرك أنبار بطريق القدس مطالبا تقريرا مفصلا عن المملكة الفرنجية<sup>(٢)</sup>. وكان ملوك القدس أبناعا له ، وزاد من رغبته في مساعدتهم السياسة الدبلوماسية للإمبراطور هنري السادس، الذي كان منحه للتاجين في قبرص وأرمينيا بمثابة التحدي للسلطة البابوية في تلك الأماكن. وقد أظهرت التحربة أن الملوك والإباطرة ليسوا مرغوبين تماما في الحملات الصليبية . والحملة الصليبية الوحيدة التي تعتبر نجاحا كاملا هي الحملة الصليبية الأولى التي لم يشارك فيها ملك على ركنه تاج . ومن شأن حملة صليبية تتألف من بارونات، متحانسين في العنصر بشكل أو بآخر، أن تنجب مظاهر التندية الملكية والقومية التي دمرت بدرجة كبيرة الحملتين الصليبيتين الثانية والثالثة . وستكون نزاع القبرة التي قد نشأ تلافية بسهل السيطرة عليها في وجود مثل بابوي مقتدر. ولذلك، رحب إينوسنت ترحبا حارا بالأباء التي وصلته من شامباني ، ذلك أن الحركة التي أطلقها تيبالد لن تساعد الشرق مساعدة فعالة فحسب ، وإنما يمكن استخدامها كذلك في توطيد أوضاع وحدة العالم المسيحي تحت سلطة روما<sup>(٣)</sup>.

#### ١١٩٩م : إينوسنت الثالث والحملة الصليبية

وقد اعتبرت الحملة اختيارا حسنا للبابوية . ففي زمن الحملة الصليبية الأولى لم يكن هناك إمبراطور في الغرب في وضع يمكنه من التدخل ؛ ونتج عن موت هنري السادس في سبتمبر ١١٩٧م أن أراج الكنيسة من تهديد حلفي . وكان هنري - باعتباراه إبن فريدريك بارباروسا وزوج وريثة صقلية، التي أصبح ميراثها في قبضته القوية بحلول عام ١١٩٤م - أكثر هولا من أي عاهل آخر منذ شارلمان ، وكان شعوره بتلك المكانة قويا وكاد أن ينجح في تعزيز تلك المكانة على أساس وراثي ؛ إذ أن منحه

(٢) Rohricht, *Regesta*, pp. 202-3.

(٣) عن مرقس إينوسنت الثالث، لفر Filichius vol. x of Filichius and Martin, *Histoire de l'Eglise* pp.44-60.

للتيحان في الشرق وعطيه الف مع قلب الأسد الأسير ، أوضح أنه ينظر لنفسه على أنه "ملك الملوك" . ولم ينف كرعايته لبيزنطة ، وهي الامبراطورية القديمة التي فاقت تقاليدها تفاليد في نذيتها ، لا ولم ينف ما كان يصور إليه في الماضي في السياسة الترماتدية لبناء سلطان له في البحر المتوسط ، والتي كانت تشتمل بلاتها على دمار بيزنطة . وكان إطلاق حملة صليبية حزبا حتميا من هذه السياسة . وطوال عام ١١٩٧م كان يتبع مخططة بخنر . وكان للجنة الألمانية التي هيئت عكا في ذلك العام أن تكون بشرا لجيش عظيم يقوده بنفسه . وأسقط في يد البابا إينوسنت الثالث ، وهو رجل حبيب متذبذب ، لكنه لم يحاول إقناعه عن عزمه رغم أنه نصحه بعدم شن هجوم عاجل على القسطنطينية إذ أنه يناوئ امبراطورها على وحدة الكنيسة . ولو لم يمت هنري فجأة في ميسينا ، وهو في الثانية والثلاثين ، أثناء تجهزه لأسطول عظيم يقهر به الشرق ، لربما نجح نجاحا كبيرا في أن يجعل من نفسه سيد العالم للسيحي كنه<sup>(١)</sup>.

مات البابا ميليسين بعد أشهر قليلة من موت الامبراطور ، ولذا وجد البابا إينوسنت الثالث نفسه مستخدما دون غريم ديهوي . وعهدت الامبراطورة الأرملة كونستانس إليه بملكها الصغيلة وابنها الصغير فريديك . وفي ألمانيا ، حيث لم يكن الأمير الصقلي للولد معروفا ، استولى عمه - أوتو هنري - فلييب (كوف سوابيا) على أراضي العائلة ونصب نفسه امبراطورا ووجد أن أعداء الموهيتشتوفن لم يجنوا إلا بشكل مؤقت . وعين آل ويلف مرشحا ندا هو أوتو (كوف برونسفيك) وكان وينشارد الريطاني قد قتل في شهر مارس ١١٩٩م ، وقد بدأ الخلاف على ميراثه بين أخيه جون واين أخيه آرثر ، بينما كان ملك فرنسا فليب مشركا في النزاع اشراكا نشطا . وهكذا كان ملكا فرنسا وانجلترا في شغل شاغل ، وألمانيا منصرفة إلى الحرب الأهلية ، والسلطة البابوية آمنة في جنوب إيطاليا ، فيستطيع إينوسنت الثالث إذا أن يشرع في التبشير بالحملية الصليبية لتلاؤه الثقة . ومخططة أولى بدأ مفاوضات مع الامبراطور البيزنطي ألكسيوس الثالث حول وحدة الكنائس<sup>(٢)</sup>.

(١) Fereville and de Vire, *Du Premier Concile du Latran à l'entrevue d'Innocent III* (vol. ix of Fliche and Martin, *Histoire de l'Église*) pp. 216-26.

(٢) Fliche, op. cit. pp. 46, 50; *Geste Innocent III*, M.P.L. vol. cxxix, cols. 119-23.

## ١٢٠١ م : تعيين بونيفاس لثابتة للحملة الصليبية

وفي فرنسا، كان الركيب الرئيسي للبابا هو غرلوك (أوف نيوبلي) المبشر المتحول الذي طالما كان يسعى إلى الإبقاء بحملة صليبية . وكان مشهورا بعدم اقية أمام الأمراء، كما حدث أن أمر الملك ريتشارد بالتحلي عن كبريائه وشحه وشهرته<sup>(١)</sup>. وتقليدا لطلب البابا راح يتحول في البلاد عرضا القرويين على أن يتبعوا أسياهم إلى الغرب للقدسة . وفي ألمانيا كانت الرعايا الكنسية التي يلتقيها أبوت مارتان (أوف بيريز) أن تكون ملهمة بنفس القدر ، رغم أن البلاد كانوا متورطين في الحرب بحيث لم يولوه اعتناما كبيرا<sup>(٢)</sup>. على أنه لا غرلوك ولا مارتان استطاع إشغال الخلق كمشري الحملة الصليبية الأولى . وكان التحديد أكثر تنظيما ، إذ كان مقصورا أساسا على التابعين للبارونات الذين أخذوا الصليب ، والكثير من هؤلاء البارونات غرركوا بمزارع الفروع بصورة أقل من مزارع الرغبة في الحصول على أراض جديدة بعيدة عما كان يمارسه الملك فيليب لوجسطن من أنشطة تنظيمية . ولقي تيبالد (أوف شامباني) قبولا عاما لأن يصبح قائد الحملة ، وكان معه بالدوين التاسع (أوف هينولت) وكونت فلاندرز، وأخوه هنري، ولويس كونت بلوا، وجيوفري ثقات (أوف لي بيريز) وسيجون الرابع (أوف مونفورث) وإسموهم، وإسموراد (أوف بوف)، وريتالد (أوف دانسير) وجيوفري (أوف فيلهاردوين)، ولوردات أخسرون قبل شأنا من شمال فرنسا والبلاد والواطنة . وأعلن أسقف أوتون ملازمته لجموعة من الفرسان من لوفرنسي. وفي إقليم الراين الألماني أخذ أسقف هالرشادت الصليب وكذلك كونت كاتريليونجيين ومعهما الكثير من حوالمهم<sup>(٣)</sup>. وسرعان ما حذا حذوهم بعد ذلك مختلف الوجهاء في شمال إيطاليا ، بزعيمهم بونيفاس مركز مونفرات ، الذي تسبب اشتراكه في أن يشير لدى البابا إينوسنت الثالث أول مشاعر الرية حول المغامرة كلها، إذ كان أمراء مونفرات أصدقاء مخلصين وحلفاء لآل هوهينشوفن<sup>(٤)</sup>.

(١) Villhardouin, loc. cit. Roger of Hoveden, iv, pp. 76-7. فرسان القباء وشحه للقسوسين إلهامان الجديد كيريل، وشهرته لأساقفته .

(٢) Guizot, *Historia Constantinopolitana* in Riant, *Essai*, i, pp. 60-5.

(٣) جورد 2-3 Villhardouin, i, pp. 6-14 and Robert of Clary (ed. Isner), pp. 2-3. فرغم بالعلميين الفرنسيين. ويذكر Villhardouin, p. 74 أسماء الصليبيين الألمان.

(٤) يقول Villhardouin, i, p. 44 ضمنا إن بونيفاس لم يأخذ الصليب إلا بعد أن تم تعيينه قائدا لثابتة للحملة «Gesta Innocentii III, loc. cit. col. 132» الذي يوحى بشكوك البابا. وكانت أم بونيفاس أمرا غير شائعة عند هري السادس، وكان أبوه أمرا غير شائع لثابتة فريب ملك فرنسا.

ولم يكن في الإسكان تنظيم الحملة بسرعة . وكانت المشكلة الأولى هي العثور على سفن تعملها إلى الشرق ؛ إذ مع انسحاب البيزنطية لم يعد الطريق البري عبر البلقان والأناضول وسيلة عملية للوصول إلى الشرق . ولم يكن أحد من الصليبيين يملك أسطولاً تحت تصرفه ، باستثناء كونت فلاندرز ؛ وكان الأسطول القلمنكي قد أبحر بحفره إلى فلسطين بقيادة جون (أوف نيسيل)<sup>(١٠٠)</sup> . وبعد ذلك كانت هناك مسألة الإسرائيحية العامة ؛ وكان ريتشارد قلب الأسد عندما غادر فلسطين قد أدلى برأيه من أن مصر هي النقطة الاستراتيجية في الإمبراطورية العريضة . وتقرر في نهاية الأمر أن تكون مصر هي هدف الصليبيين . وكان عام ١٢٠٠ م قد انقضى في مفاوضات مختلفة، حاول فيها إينوسنت الإحتفاظ ببعض السيطرة . وفي شهر مارس ١٢٠١ م مات نيكالد (أوف شامباني) فجأة ؛ واختارت الحملة الصليبية بونيفاس (أوف مونتفرات) قائدا للحملة بدلا منه . وكان اختيارا طبعيا ، إذ كان لأل مونتفرات اتصالات ملحوظة مع الشرق . وكان أبو بونيفاس قد مات وهو يارون فلسطيني ، ومن بين أخوته تزوج ولويس من سيبلا ملكة القدس وتصبح أبا العقب للملك بلدوين الخامس ؛ وتزوج رينيه ابنة الإمبراطور مانويل وقتل في القسطنطينية ؛ وكان هوتراد هو منقلد صبور ، وحاكم الأراضي المقدسة وأبا لوريثها الحالية . غير أن تعيينه لقيادة الصليبيين أبعد عن نفوذ البابا إينوسنت . وكان بونيفاس قد جاء إلى فرنسا في أغسطس عام ١٢٠١ م ، وقابل رفقاء الرئيسين في سواسون ، حيث صدقوا على زعامته ؛ ومن هناك واصل رحلته إلى ألمانيا لتغطية الشهر الشتاء مع صديقه القديم فيليب (أوف سوابيا)<sup>(١٠١)</sup> .

وكان فيليب (أوف سوابيا) مهتما هو نفسه بالشؤون الشرقية ، وإثما في الأمور البيزنطية وليس في سوريا . وقد بلغ الغاية في مشاركته لأسرته الحاكمة شعورها بالكراهية الشديدة تجاه الأباطرة البيزنطيين . وتوقع أن يصبح في القريب الساحل إمبراطورا غربيا ، وود لو أنه يواصل تنفيذ برنامج أخيه هنري كاملا . وفضلا عن ذلك ، كانت لديه علاقات مع بيزنطة . وعندما استولى هنري السادس على صقلية غزوا ، كان من بين الذين أسرههم الأسرة المشابة للأمير المنوح ووجر الصقلي المهرود من عرشه ، وهي إيرين الجلييا ، ابنة الإمبراطور إسحق أنجيلوس ؛ ففتحها لفيليب غروسا . وكان زواجا بكتلة الحب ؛ ومن خلال حبه لفيليب أصبح متورطا في المشاجرات الملكية

(١٠٠) انظر أعلاه ، ص ١٤٠ .

(١٠١) Robert of Clary, pp. 40-6; Villedaerdein, pp. 40-6; ورنج تاريخ Gesta Innocentii III. *loc. cit.* كان غلب ملك فرنسا قد دعم لصالح بونيفاس.

لأنه لم يكن

وبعد أشهر قليلة من زواج فيليب فقد حموه عرشه ، إذ أن القوة لم تنصف شيئا إلى قدرة إسحق ؛ إذ كان مسؤولوه فاسدين لا سبيل إلى السيطرة عليهم ، وكان هو نفسه على قدر من التبذير أكثر بكثير مما تستطيع تقديمه إمبراطورته التي اختبرت . فقد نصف شبه جزيرة البلقان انتزعتها منه مملكة قوية تهدده هي المملكة الفلاكية البلغارية<sup>(١٢)</sup> . وكان الأتراك - حتى موت قلع أرسلان الثاني عام ١١٩٢م - يستولون على الأناضول شيئا فشيئا ، وبدأ يبحرون بزعامة عن السواحل الجنوبية وعن سوريا . وبدأت التنازلات التجارية لنجاح للإيطاليين أكثر فأكثر من أجل النقد الجاهل . وكان حفل الزفاف الرابع للإمبراطور إلى الأميرة مرجريت القشتالية من الإسراف والتبذير الفعلة بحيث أشعل غضب رعاياه المثقلين بالضرائب ؛ وبدأت أسرته هو نفسه تهجره ، وفي ١١٩٥م عطلت أموره الكسبوس مؤامرة وضع هندستها في القصر . ونفت عينا إسحق وألقي به في غيابة السحن ومعه ابنه الكسبوس الأصغر . وكان الإمبراطور الجديد ، الكسبوس الثالث ، أكثر اعتدالا بقليل من أبيه ؛ فأظهر بعض النشاط الدبلوماسي ونودد ليكتسب صداقة البابوية بعرض امرأة محاربات حول الوحدة الكنسية - وهي صداقة ربما جنته هجوم هنري السادس - وألحح بمكاثفه في الإبقاء على القرقة بين أمراء السلاجقة . على أنه ترك الشؤون الداخلية لزوجته إيوفروسينا التي كانت مسرقة متلافة ، وأحاطت نفسها بالخدم والجشم بنفس القدر كما كان أحسو زوجها<sup>(١٣)</sup> .

وفي نهاية عام ١٢٠١م ، هرب الكسبوس الأصغر ، ابن إسحق ، من السحن في القسطنطينية وتم وجهه شطر بلاط أمته في ألمانيا . واستقبله فيليب استقبالا حسنا وقدمه إلى بونيفاس (أوف مونترارات) . وتشاور الثلاثة وأعرب الكسبوس عن رغبته في الحصول على عرش والده ، وكان فيليب على استعداد لمساعدته كسي يحصل الإمبراطورية الشرقية إلى عميل للإمبراطورية الغربية . ولدى بونيفاس جيش صليبي تحت تصرفه . ليس من صالح الحملة الصليبية أن تتوقف في طريقها لكي تعيد حاكمها صديقا

(١٢) Chronica Regis Coloniensis, p.157.

(١٣) (المراجع) - المملكة الفلاكية التجارية: Vlach-Bulgarian نسبة إلى الشعوب الفلاكية جنوب شرق أوروبا ، أساسا في رومانيا ، وهي غير سلاجقة

(١٤) كلف: Vasiliev, History of the Byzantine Empire, pp.440-487.

إلى عرشه في القسطنطينية<sup>(١٥)</sup>.

#### ١٢٠٢ م : مفاوضات مع البندقيّة

وفي تلك الأثناء راح الصليبيون يبحثون عن وسيلة لنقل لرحلتهم البحرية . وفي وقت مبكر من عام ١٢٠١ ، وكثاء حياة كونست شامباني ، دخلوا في مفاوضات مع البنادقة وأرسلوا إلى البندقيّة جيوفري (كوف فيلهاردوين) لترتيب الشروط . وفي إبريل وقعت معاهدة بين جيوفري والبنادقة تنصّص بمصروفهم على ٨٥,٠٠٠ مارك كولونسي قضى لقاء توفير وسائل النقل والأطعمة لمدة عام ، من ٢٨ يونيو ١٢٠٢ م ، لعدد من الفرسان قدره ٤,٥٠٠ فارس وميولهم ، و ٩,٠٠٠ فارس بلا لقب ، و ٢٠,٠٠٠ جندي مشاة . وفضلا عن ذلك ، توفر جمهورية البندقيّة خمسين قادسا لمصاحبة الحملة الصليبية شريطة أن تحصل على نصف ما تملكه الحملة من غزو . وما أن تم الاتفاق حتى استدعي الصليبيون للتجمع في البندقيّة وهم على كفة الاستعداد للإبحار قاصدين غزو مصر<sup>(١٦)</sup>.

وكان هناك صليبيون قليلون مرتاحون في المعاهدة ، ولذا اصطحب أسقف كوتون جماعته مباشرة من مرسيليا إلى سوريا . ولقد حسم آخريين ، برئاسة رينالد (كوف دامبير) ، من التأخير في البندقيّة فرتبوا ترتيبهم للإبحار إلى هناك كما كان هناك شئ من عدم الإرتياح من جانب الصليبيين الأقل شأنًا لصداق القرار بمهاجمة مصر ، فقد انخرطوا في الحملة لإتخاذ الأرض المقدسة ، ولا يهتمون بالقصد من الذهاب إلى مكان آخر . ونفذ البنادقة بهدوء في نار استيائهم ، إذ لم تتوفر لديهم القبة للمساعدة في المحرم على

(١٥) Nicetas Choniates, p. 712; Innocent III letters, v, 121, *Genoa Innocent III, loc. cit.* (١٥) الصليبية الرابعة كان مرتبها له . انظر Vasiliev, op.cit. pp.455-8. ويبدو أن الحقيقة هي أنه في الوقت الذي توفرت فيه أسباب مفضلة لليب كوف مونايا ، وبرتغالي ، وأهل غيبسيا الرغبة في مهاجمة القسطنطينية ، فإن معاهدة وصول ألكسوس هي التي جعلت نحو الحملة إلى القسطنطينية شيئاً عملياً . ولم يكن لدى قيا مثل هذه الدوا ، وكان الصليبي الفرنسي المعادي توفّر لديه القبة الأصلية للذهاب إلى الأراضي المقدسة ولكن منح للظروف بأن تحدّ به هذا وهذا . وعن موقف بونيفاس أنظر، *Crusades*, vol.xiv. Gregoire, "The Question of the Division of the Fourth Crusade", *loc. cit.* pp. 296-325. Winklermann, Philipp von Schwaben, pp. 296-325.

(١٦) Villehardouin, ii, pp. 18-34. (١٦) في البنادقة (Genoa Innocent III, loc. cit. col. 131) إن من الواضح أنه يرتاب



مصر . وكان العادل مدركا تماما لما تجلبه التجارة مع أوروبا من مميزات لبلاده ، وكان في أعقاب غزوه لصر قد عرض امتيازات تجارية لها قيمتها على المدن الإيطالية . وفي نفس اللحظة التي كانت فيها حكومة البندقية تسلم الصليبيين حول نقل قواتهم ، كان سفراؤها في القاهرة يرثون لعقد اتفاق تجاري مع والي السلطان الذي وقع معهم على معاهدة في ربيع ١٢٠٢ م ، وذلك بعد أن حصل معرثو العادل إلى البندقية على تأكيد حاكم البندقية (الدرج) أنه لن يوافق على أية حملة على مصر<sup>(١٧)</sup>.

وليس يقينا ما إذا كان الصليبيون قد فهموا دقائق دبلوماسية البندقية ، على أنه إذا كان أي منهم يرتاب في أنهم قد خدعوا ، فلم يكن هناك ما يمكن عمله ، إذ وضعهم مع البندقية في قيمتها تماما ، ذلك أنهم لم يتمكنوا من جمع المبلغ الذي وعدوا به وهو ٨٥,٠٠٠ مارك . وفي يونيو ١٢٠٢ م نجح الجيش ، ولكن جمهورية البندقية امتنعت عن تقديم السفن كما وجدت أن المال ليس في طريقه إلى البعاد . وهكذا وجد الصليبيون أنفسهم قد حُسموا في جزيرة سان نيكولو دي ليندو الصغيرة ، يضايقهم تجار البادقة الذين يطالبونهم بدون لم يدفعوها ويهددونهم بمنع المؤن عنهم تماما ما لم تظهر نفوذهم أولا ، وتمول سبتمبر لم يكن لديهم حيلة إلا أن يوافقوا على أية شروط قد تفرضها عليهم البندقية . وكان يونيفاس قد خلق بهم ذلك الصيف بعد زيارة البابا في روما لم يصادفها النجاح ، ولذا كان مهيا للتعاون مع البادقة . وكانت قد مرت بضعة عقود شهدت حروبا متقطعة بين جمهورية البندقية وملك صقلية من أجل السيطرة على دالماتيا ، وكانت مدينة زارا العاصمة قد سقطت مؤخرا في أيدي الصقليين . وأعظم الصليبيون الآن بإمكان البدء في الحملة وتسهيل دفع الدين إذا شاركوا في حملة مبدئية لاستعادة زارا ، وما أن سمع البابا بذلك العرض حتى أرسل من فوروه لفتح قبوله . بيد أنه كما ما كانت مشاعرهم حيال ذلك العرض ، لم يكن بوسعهم إلا أن يلتزموا به<sup>(١٨)</sup>.

وقد أمر الأمير بلبل بـيونيفاس وأوف مولنفرات) ، الذي لم يرض عنه ضميره

(١٧) ينظر القروصون وحيدو معاهدة عديدة رطم أن السورج هوسيف Hopf Geschichte Griechenlands، ١١٨، ١٢٠٢ م. ولا يورد القورج أية مصادر في الواقع . غير أن Email، pp. 345-6 يقول بكل التأكيد إن العلاقات بين البندقية والسلطان كانت حارة . وليس هناك ما يدفعنا إلى افترض أنه أصدر هذه القصة ، التي يفرض أنه استمعها من البادقة في سوريا . ومن القورج من الحملة الصليبية نظر 52-4، pp. Vilkhuzeis.

(١٨) Vilkhuzeis، I، pp. 58-65; Robert of Clary، pp. 9-11.

المسيحي وضاء كامالا، زين دوج البندقية إريكور داندولو . وكان هذا الأخير قد بلغ من العمر أودله ، لكن الشيوخة البالغة لم تقدم طاقته أو طموحاته، فقبل نحو ثلاثين سنة كان في سفارة إلى القسطنطينية حيث تورط في شجار صاحب فقد على كره بصره حريا . وزادت مرارته ضد البيزنطيين بعد إزفاله الدوجية مباشرة في ١١٩٣م عندما صادفته بعض الصعوبات مع الامبراطور الكسبروس الثالث في تجديد شروط تجارية بحرية كان الامبراطور إسحق قد منحها للبندقية ؛ ولذا كان مهيباً لأن يتفلس مع بونيفاس عنططات حملة تستهدف القسطنطينية ، على أنه يتعين في الوقت ذاته المحافظة على مظهر الحملة الصليبية ؛ فما أن تمت الموافقة على مهاجمة زارا حتى أقيم حفل وفور في كنيسة القديس مارك حيث تباهى الدوج وكبار مستشاريه بأخذ الصليب<sup>(١٩)</sup>.

#### ١٢٠٢م : نهب مدينة زارا

أبحر الأسطول من البندقية في الثامن من نوفمبر ١٢٠٢م ووصل أمام زارا بعد ذلك يومين . وبعد هجوم شرس، استسلمت المدينة في الخامس عشر من الشهر وانتهت عن آخرها . وبعد ثلاثة أيام بدأ القتال بين البنادقة والصليبيين عند تقسيم الأسلاب ، غير أنه أسكن تدبير السلام بين الفريقين . ثم إن الدوج وبونيفاس قرروا أن الوقت متأخر هذا العام للقيام بمغامرة الإغناء إلى الشرق . فبقيت الحملة في زارا لتمضية الشتاء، بينما خطط زعمائها لعملياتهم المقبلة<sup>(٢٠)</sup>.

وعندما وصلت روما أبناء لحرب زارا ، أصيب البابا ابنوسنت بالرعب ، فهو لا يمتثل أن تستخدم حملة صليبية في ضد صارخ لأوامره لمهاجمة أراضي أحد أبناء الكنيسة الحرة فطرد الحملة الصليبية كلها من الكنيسة ، ثم إنه بعد أن تخلف من أن الصليبيين أنفسهم كانوا ضحية ابتزاز ، عفى عنهم وإنما ألقى على إغلال طرد البنادقة من الكنيسة<sup>(٢١)</sup>. ولم يتزعج داندولو ، فمن خلال بونيفاس كان فعلا على علاقة بفيليب وأوف سوابيا) وهو زميله في الطرد من الكنيسة . وفي وقت مبكر من عام ١٢٠٣م

(١٩) Diéhl, *Une Dadole* عن Villchardouin, i, pp. 66-70; Robert of Clary, pp. 10-12. *République Patricienne, Venise*, pp. 47-8; Varillien, op. cit. pp. 452-3.

(٢٠) Villchardouin, i, pp. 78-90; Robert of Clary, pp. 12-14.

(٢١) Innocent III, letters, v, 161, 162, vi, 99-102 (*M.P.L.* vol. ccxiv, cols 1178, 1182; vol. ccv, cols. 103-109); Villchardouin, i, pp. 104-8.

جاء رسول من ألبانيا إلى زلرا ، من فيليب إلى بونيفاس بعرض محدد من زوج أخته ألكسيوس . إذا زحف الصليبيون على القسطنطينية ونصبوا ألكسيوس على العرش الإمبراطوري هناك ، فإن ألكسيوس يضمن للصليبيين دفع المال الذي لا يزالون مدنيين به للبلادقة ، وسوف يزودهم بالمال اللازم والمليون لغزو مصر ، وسوف يضيف فرقة مؤلفة من ١٠,٠٠٠ رجل من الجيش البيزنطي ، وسوف يتكفل بتكاليف إغالة جسمانية فارس ليقتلوا في الأرض المقدسة ، وسوف يضمن حضور كيسة القسطنطينية لروما . فأحال بونيفاس الموضوع إلى داندولو الذي تأثر لديه مشاعر البهجة . إذ يعني ذلك أن البندقية سوف تتسلم أموالها ، وفي ذات الوقت سوف تعمل اليونانيين كآلاء ، وسوف تتمكن من توسيع وتلوية رقعة مجزائها التجارية في سائر أنحاء الإمبراطورية البيزنطية . وأما المحوم على مصر فيمكن بسهولة تديره لما بعد<sup>(٢٢)</sup>.

عندما طرح الاقتراح على الصليبيين كان هناك قليل من اللشقين ، مثل ريتالد (أوف موتيمويل) الذي أعرب عن شعوره بأنهم قد أخذوا الصليب لممارسة المسلين ، وليس هناك ما يبرر المزيد من التأخير ، فتركوا الجمع وأصبروا ميممين وحوههم شطر سوريا ؛ وبقي آخرون مع الجيش ، يفاوضون عن اعتراضاتهم ؛ وكُملت أقواله آخرين مرة أخرى برشاوى البندقية التي جاءت في وقتها المناسب . على أن الصليبي العادي قد لُعن الإحتقاد الذي مفاده أن بيزنطة دأبت على القيام بدور الحياة ضد العالم المسيحي طوال الحروب للقدسة . فمن الحكمة إذن واستحقاق الثواب إرغامها على التعاون الآن . وأبجح الروعين من بين رجال الجيش أن يساعدوا في سياسة من شأنها أن تعيد اليونانيين اللشقين إلى الخطيرة . أما الأكثر ولعاً بالحياة الدنيا فراحوا يتفكرون في شراء القسطنطينية ومقاطعاتها المزدهرة وتطلعوا لتوقعات السلب والنهب . ورعاً تطلع بعض البارونات ، وفيهم بونيفاس نفسه ، إلى نفس التوقعات ، وراحوا يوزنون حساباتهم التي تقول إن الضياع على شواطئ بحر إيجه أكثر حاذية للعافية من أية ضياع يجنونها في أراضي سوريا النخالة . وأسلمهم ما كان يحمله الغرب من الإزدراء ككله منذ أمد بعيد للعالم المسيحي الشرقي ، فجعل من اليسر على داندولو وبونيفاس تطويع الرأي العام وشدته لمناصرتهم<sup>(٢٣)</sup>.

(٢٢) Willhardoin, i, pp. 90-100. وهو يتحدث عن مفاوضات مسقة بين ألكسيوس والصليبيين في السنة ١٢٠٠-١٢٠١.

(٢٣) Willhardoin, i, pp. 100-4; Robert of Clary, pp. 14-15. Hugh of Saint Pol, letter in Chronica Regia Coloniensis, p. 205. إذ كأل الصليبيين تقريرا

لم تخف حدة القلق لدى البابا عندما سمع بالقرار الذي اتخذته الحملة الصليبية . إن المخطط الوحيد الذي وجد رعاية البادية وأصدقاء فيليب (أوف سوابيا) لم يكن ليضيف رصيدا للكنيسة ، فضلا عن ذلك قابل ألكسيوس الشاب وأصبح له عن رغبة فيه من أنه شاب تائه . لكن السيف كان قد سبق العدل ، فلا سبيل له لأن يعترض اعتراضا مؤثرا ، وإذا كان أفراد الحملة الصليبية سوف يضمن حقيقة معونة بيزنطية إيجابية ضد الكفرة ، ويحقق في ذات الوقت وحدة الكنائس ، فيكون للحملة الصليبية ما يجر تصرفها . وأرضى نفسه بأن كسبر أمرا بعدم مهاجمة أي مسيحيين بعد ذلك إلا إذا كانوا يعرقلون الحرب المقدسة فعلا . وكان الأكثر حكمة للبابا ، عيسى المدي الجيد ، أن يحرب صراحة وبلا هوادة عن معارضته ، ولو كان ذلك بلا طائل . كما اليونانيون ، المرتابون دوما في التوايا البابوية ، وغير المدركين لتمعنات السياسات الغربية، فقد صفا لهم أن في فتور همته في إدانته للحملة الصليبية الدليل على أنه كان القوة المحركة وراء المكيدة برمتها<sup>(٢١)</sup>.

#### ١٢٠٣ م : الحملة الصليبية لبحر قاصدة القسطنطينية

وفي الخامس والعشرين من ابريل وصل ألكسيوس إلى زارا قادما من ألبانيا، وبعد أيام قليلة أصبحت الحملة وتوقفت بعض الوقت في دورازو، حيث قبل ألكسيوس كامراتطور، ثم في كورفو حيث وقع ألكسيوس بوقار معاهدة مع حلفائه . وتواصلت الرحلة في الخامس والعشرين من مايو . والتف الأسطول حول بيلوبونيس (شبه الجزيرة اليونانية) ثم انصرف شمالا إلى جزيرة أندروس حيث أماد ملء صهاريج المياه من عيون المياه الوفيرة هناك . ومن أندروس بم وجهه شطر الدردنيل الذي وحدته بلا حامية .

كانوا يرغبون في الانطلاق إلى فلسطين لكن التبرع كان قويا منهم.

(٢١) *Geno Innocent III, loc. cit. cols. 130-2; Innocent III, letters, v. 122 (to the Emperor Alexis, M.P.L. vol. xciv, cols. 1123-5) , Ebstad, أسقفية ساربرو ج. - الموجود في Register de Negotio Romani Imperii, box (M.P.L. vol. cccv, cols. 1075-7) ، والذي يحدث فيه إلى ضرورة التفكير في مثل تلك الأمور . وربما علم فيليب (أوف سوابيا) بتشرع مهاجمة زارا، إذ أرسل الكاردينال Peter of Capua، برافقه زعماء مليون لخمسة مائة ألف الفلاحين في الوقت الذي يستحيل فيه وصول رد إذا كانت الحملة الصليبية ذاهبة مباشرة إلى الشرق . انظر . Bohtler, *Les Croisades*, p. 155. ويعلم تاريخ نوحسودو The Novgorod Chronicle (ed. Lascoux, 241) أن البابا أكد تحفظ المحرم على القسطنطينية ، بينما ترد ضمنا في Chronica Regia Colonienis, p.260 أنه وقع قرار القرد من الكنيسة من على العليين لهاجهم زارا عندما قرروا الرحل على القسطنطينية.*

وكان حصاد تراقيا (شرق جزيرة البلقان) ناضجا ، ولذا حط الصليبيون رحالهم في مدينة أيدوس القديمة في آسيا الصغرى ليجمعوا ما يستطعمونه . وفي الرابع والعشرين من يولية وصلوا أمام العاصمة الإمبراطورية<sup>(٢٠)</sup>.

ولم يكن الإمبراطور الكسيوس الثالث قد أعد أية ترتيبات ضد وصولهم ، إذ لم يرهأ الجيش الإمبراطوري قط من كوارث السنوات السابقة على صانويل ، فكاد أن يكون كله من المرتزقة ، ومن الواضح أن الفرق الفرغية لا يعزل عليها في مثل تلك الظروف ، ولم تكن القوة تتوفر في السلاف والتشجنج إلا بقدر ما تتوفر الأسوار الجاهزة للدفع ووالتهيم . ولما الحرس الفارابي، الذي يتألف أساسا من الإنجليز والدانمركيين، فكان لديه إخلاص تقليدي لشخص الإمبراطور ، غير أن الكسيوس الثالث لم يكن بالرجل الذي يلهم الولاء الشخصي الكبير ، فهو مختصب حصل على العرش لا من خلال أية حدارة كجندي أو كرجل دولة، وإنما عن طريق مؤامرة تالفة في القصر ، وظهر بطلهم الحاكم الضعيف . ولم يكن وثقا لا من حيثه فحسب، وإنما من الشعور العام لرعاياه، فبدا الأسلم ألا يفعل شيئا إذ سبق للقسطنطينية أن قاومت عواصف كثيرة من قبل طوال تسعة قرون من تاريخها ، ولسوف تقاوم عاصفة أخرى بلا ريب.

وبعد أن هاجم الصليبيون بلا جدوى حقلولونية وكريسوبوليس على الشاطئ الآسيوي للبلفور، هبطوا إلى الأرض في غلاتيا ، أمام القرن الذهبي. واحتلوا المدينة وتمكنوا من كسر السلسلة المحيطة بمدخل القرن الذهبي وإحضار سفنهم إلى داخل المرفأ. وكان الكسيوس الصغير قد أوهم الصليبيين بأن يزنطة كلها سوف تنهض مريحة به ، فأدهشهم أن يجدوا بوابات المدينة مغلقة في وجوههم والجنود يعتلون الأسوار . وضمت محاولاتهم الأولى في قصف أسوار المدينة من سفنهم بطول القرن الذهبي ، غير أنه بعد كفاح شرس تمكن داندولو والبنادقة من إحداث ثغرة في السابع عشر من يولية . أما الكسيوس الثالث، الذي أدهشه كشأن الصليبيين أن يجد مدينته في موضع اللغاع، فكان يفكر فعلا في الفرار ، وقد قرأ في الكتاب المقدس كيف هرب داود أمام آبشالوم ولذا عاش ليستعيد عرشه . فاستطاع معه إشته الأثيرة لديه وجوالا مليشا بالأحجار الكريمة ، وتسليح عم الأسوار الأرضية وبلأ إلى موسينيوليس في تراقيا . ووجد السوولون الحكوميون أنفسهم وقد غلغى عنهم الإمبراطور ، فاتفقوا قرارا سريعا وإنما لا

<sup>(٢٠)</sup> Villehardouin, I, pp. 110-28; Robert of Clary, pp. 30-40; Anonymos of Halberstadt, in Riant, *Envoies*, I, pp. 14-15; *Descriptio Constantinopolitana* (ed. Hagl), pp. 88-9; Nicetas Choniates, p. 717.

يظهر من براعة - فأمر حيا الامبراطور السابق الأعمى إسحق من سجنه وأجلسوه على العرش وأعلنوا لثاندولو والصلبيين أنه طائفا أعيد والد المطالب بالعرش فلا ضرورة هناك لمواصلة القتال . وكان الكيسوس الصغير حتى آنذاك قد اعتار بمأكل وجرود أبيه، ولكنه لا يستطيع الآن أن يتصل منه ، فحرض خلفاءه على وقف المحسوم . وبدلا من ذلك أرسلوا سفارة إلى المدينة تقول إنهم سوف يصرفون بإسحق إذا رُفع ابنه ليكون امبراطورا مشاركا، وإذا تعهد الإثنان بإنفاذ المعاهدة التي وقعها الأخير . ووعد إسحق بتلبية مطالبهم وفي أول أغسطس، وفي احتفال وقور في كنيسة القديسة صوفيا ، وتمنور أبرز مارونات الصليبيين ، توج الكيسوس الرابع ليصبح رفيق أبيه<sup>(٢٦٦)</sup>.

#### ١٢٠٣ م : الكيسوس الصغير امبراطورا

وسرعان ما وجد الكيسوس الرابع أن الامبراطور لا يستطيع أن يكون غير مسئول كالمطالب بالعرش ذلك أن محاولته إخبار رجال الدين في المدينة على قبول سيادة روما وإدخال الأعراف اللاتينية، لغيت مقاومة عنيدة ؛ كما لم يكن من اليسر عليه جمع كل الأموال التي وعد بها . وبدأ عهده بداية طائشة بأن كلفه لشاها الثنية على الصليبيين فتحركت من ثم توازع جيشهم . بيد أنه عندما حان موعد تسليم البنادق الأموال المستحقة لهم ، التضح أن الخزانة لم يكن فيها الكفاية ، ولذا أعلن الكيسوس عن ضرائب جديدة ، وزاد من غضب الكنيسة ما أقدم عليه من مصادرة قدر كبير من الشغولات الذهبية الكنسية لصهرها للبناءة . وطوال حريف وشتاء عام ١٢٠٣ م زاد التوتر في المدينة زيادة مطردة ، وأسخط المواطنين رؤية فرسان الفرنج المتغطرسين وهم يتجولون خلال الشوارع . وقد ركزت التجارة . ودأبت مجموعات من سكارى الجنود الفرين على نهب القرى في الضواحي ، بحيث لم تعد الحياة آمنة خارج أسوار المدينة . وفي محاولة لإظهار الورع، أحرقت جماعة من الفرنسين مسجدا كان قد بُني للزائرين من تجار المسلمين ، فانتقلت الشراوات وتحت تماما على حي من أحياء المدينة بصورة فاجعة. وكان الصليبيون من جانبهم ساعطين كاليينطين بنفس القدر ؛ ولقبوا من أن الحكومة البيزنطية غير قادرة مطلقا على تنفيذ الوعود التي وعد بها الكيسوس الرابع،

(٢٦٦) Nicetas Chonites, pp. 718-26 حيث يورد وصفا كديلا من وجهة نظر الوثنية؛ Robert of Clary, pp. 41-51؛ Villhardouin, i, pp. 154-84 لوصف الحملات الأكر الصليبية؛ Anonymos of Halberstadt, pp. 15-16؛ *Deuotio Constantinopolitana*, pp. 89-90. Letter of Saint Paul in *Chronica Regis Coloniensis*, pp. 203-8.

فلا الرجال ولا الأموال التي عرض دفعها تلوح في الأفق . وسرعان ما كفى ألكسيوس نفسه عن المهمة اليائسة في محاولة إرضاء ضيوفه . ودعاهم إلى حفل في إحدى الشاسيات في القصر ، وبحضارتهم خرج في حملة عسكرية خفيفة ضد عمه ألكسيوس الثالث في تراقيا ، وما أن انتصر في مناوشة صغيرة حتى عاد إلى القصر ليحتفل بانتصاره ؛ وكان يقضى باقي أيامه وإلاليه غارقا في متعة الحفاصة . أما أبوه اسحق ، الذي فقد بصره بحيث لم يستطع للمشاركة في الحكم، فقد أغلق على نفسه كلى الأبواب مع منجميه الآخرين لديه ولم يكن في نيوتهم أية تأكيدات حول المستقبل . وكان لابد من أن يحدث صدمع واضح؛ وبذلك داندولو ما في وسعه ليزيد من حدته بأن تقدم بطاقات غير معقولة<sup>(٢٧)</sup>.

ولم يكن في القسطنطينية سوى رجلين الذين بدا أنهما قادران على تولي الحكم ، وهما زوجا إيتسي الأميراطور السابق ألكسيوس الثالث . وكان زوج أمّا ، ثيودور لاسكاريس ، جنديا بارزا نظم الدفاع الأول ضد اللاتينيين ، غير أنه تقاعد بعد هرب جيه . أما زوج إيودوشيا ، ألكسيوس مورزوفلوس ، على غير شاكلة الأول ، سعى إلى تيل حفلة ألكسيوس الرابع وتمنح لقب بروتوفستاتاريوس ؛ والآن جعل من نفسه زعيم الوطنيين . ورعا أراد أن يدخل الرهبة في قلب ألكسيوس الرابع ، فذهب بعض أعمال الشعب في يناير ١٢٠٤م، غير أن تليحتها الوحيدة الملموسة كانت تقديم نقال كتيها العظيم ، وهو من أعمال فيديليس<sup>(٢٨)</sup>، وكان قائما في الساحة المواجهة للغرب ؛ فحطته جماعة من الفرغاء السكارى إلى شفاها ، لأن الإلهة بدت وهي تشير إلى الغزاة<sup>(٢٩)</sup>.

#### ١٢٠٤م : ثورة في القصر

وفي شهر فبراير جاء وفد من الصليبيين إلى قصر بلاشيريلا يطلب من ألكسيوس

(٢٧) Nicetas Choniates, pp. 736-8; Villehardouin, I, pp. 186-206; Robert of Clary, pp. 57-8; *Deusotario Constantinopolitana*, pp. 90-1.

(٢٨) (الزوج) - أقال الشهر Phidias ، هان في القرن الخامس قبل الميلاد ونسب إليه بناء معبد كتيها الشاري على الأكروبوليس.

(٢٩) Nicetas Choniates, pp. 738-47; Villehardouin, II, pp. 6-23; Robert of Clary, p. 57. *Deusotario Constantinopolitana*, p. 91.

الرباع الوفاء بوعوده مرة ، ولم يكن يملك إلا أن يعترف بمعيته ، وكانت الجماهير العاضبة أن تمزق المنادين لربها أثناء خروجهم من قاعة المقابلات الإمبراطورية ؛ ثم اندفعت الجماهير إلى كنيسة القديسة صوفيا حيث أعلنوا خلع الكسبروس وانتخبوا مكانه نيلا مغمورا يدعى نيكولاس كانانوس تصادف وجوده وحاول رفض هذا الشرف . وبعد ذلك قام مورزوفليس بغزو القصر ، ولم يحاول أحد الدفاع عن الكسبروس الرابع الذي ألقى به في زنزانة السجن حيث شق دون أن يبكيه أحد قط ، إذ لم يكن يستحق البكاء عليه . وبعد أيام قليلة مات أبوه اسحق من الأسى وما لقيه من سوء المعاملة . وسُجن كانانوس للمغمورة واعتلى مورزوفليس العرش على أنه الكسبروس الخامس<sup>(٣٠)</sup>.

كانت ثورة القصر نقديا مباشرا للصليبيين . ومثلا كان البنادقة يحرصونهم على أن السبيل العملي الوحيد هو الاستيلاء على القسطنطينية بالقوة والنصب أحد الفريقين امبراطورا ، والآن بدأ لنصبتهم ما يبرها ؛ غير أنه لم يكن من اليسر اختيار امبراطور ، وتواصلت المناقشات طوال شهر مارس في معسكر في غلاطيا ، وكان البعض يمارس الضغوط لانتخاب فيليب (كوف سوايا) لكي يوحد الإمبراطورين ، لكن فيليب كان بعيدا ، وقد حُكم عليه بالحرمان الكنيسي ، ولم يكن البنادقة يفضلون فكرة وجود امبراطورية واحدة قوية . وكان برنيلس وأرف مونتفرات المرشح البارز غير أنه على الرغم مما عدده داندولو من آيات الإعجاب به ، فقد رفضه البنادقة ؛ إذ تسو فيه تطلعات مفرطة، فضلا عن العلاقات التي تربطه بأبناء جنوا . وتقرر في نهاية الأمر تشكيل هيئة محلفين من ستة من الفرنج وستة من البنادقة لاختيار امبراطور بعد الاستيلاء على المدينة مباشرة . وإذا كان الامبراطور الذي سيقع عليه الاختيار فرنجيا - وهو الأفضل - فيتعين اختيار أحد البنادقة لمنصب البطريرك . وينبغي أن يكون للإمبراطور القصر الامبراطوري المعهس وقصر الإقامة بلاشينا ، وربع المدينة والإمبراطورية ؛ وأما الثلاثة كرباع الباقية فيكون نصفها للبنادقة والنصف الآخر لفرسان الصليبيين يقتسمونها إلى اقطاعات لأنفسهم . ويتعين أن يقسم قسم الولاء للإمبراطور جميع أصحاب الإقطاعيات ، فيما عدا اللوج . وهكذا يكون كل شئ قد تم ترتيبه "لشرف الرب والبابا والإمبراطور" . وأما المطالبة بأن ترامل الحملة مسيرتها في وقت

(٣٠) Nicetas Choniates, pp 738-47; Villehardouin, ii, pp 6-23; Robert of Clary, pp 58-9; *Descriptio Constantinopolitana*, p 92.



ما الهاربة الكثيرة ، فقد قللوا عنه صراحة<sup>(٣١)</sup>.

وكان الكسيوس الخامس حاكماً ذا بأس ، لكنه لم يكن يغطي بشعية تذكر . فأقدم على طرد أي وزير يظن أنه غير موالٍ له ، ومنهم المؤرخ نيكيتاس خونيييتيس Nicetas Choniates الذي انضم منه في تأريخه له . وتجلت بعض المحاولات لزميم الأسوار وتنظيم الناس للدفاع عن المدينة ، على أن معنويات حرس المدينة قد تدنت لكثرة الثورات ، ولم يكن هناك سبيل فط لإستحلاب الجنود من المقاطعات ؛ كما كان هناك حونة داخل المدينة اشترلهم البنادقة . وصعد أول هجوم شنه الصليبيون في السادس من إبريل بتسائر حسيمة . وبعد ستة أيام عاود الصليبيون هجومهم ؛ ونشب قتال بالسي في القرن الذهبي حاولت فيه السفن اليونانية بلا حدود منع الأسطول البندقي من إنزال الجنود أسفل الأسوار . وكان الهجوم الرئيسي منصبا على حي بلاشيتا حيث كانت الأسوار ممتدة حتى القرن الذهبي ، وهناك فتحت نفرة في السور الخارجي بينما كان المدافعون في السور الداخلي صامدين ، وفجأة شبت النيران - إما مصادفة أو خيانة - في المدينة من ورائهم وحاصرتهم ، فانهار دفاعهم وتدفق الفرنج والبنادقة إلى داخل المدينة . وهرب مورزوفلوس مع زوجته بامتداد الأسوار حتى البوابة الذهبية القريبة من بحر مرمرية ، ثم حاربوا في تراقيا ، لائلا يحميه في موستيبوليس . وبعد تسرب أبناء فراره ، اجتمع من بقي من النبلاء في كنيسة القديسة صوفيا شبح الناج لبودور لاسكاريس ؛ على أن السيف كان قد سبق العذل لإنقاذ المدينة ، فرفض لبودور حواء هذا الشرف ، وخرج مع الطريق وألقه إلى العمود الذهبي في الميدان الذي بين الكنيسة والقصر الكبير وعاطب الخرس الفارسي في حرارة فائلا إتهم لن يكسبوا شيئا الآن باستسلامهم لأسباد حدد . لكن معنوياتهم كانت قد كُسرت ، ولن يحاربوا أكثر من ذلك ؛ ولذا تسلل لبودور مع زوجته والطريق والكثير من النبلاء إلى مرقأ القصر وعربوا في سفينة إلى آسيا<sup>(٣٢)</sup>.

وشق الفرقة طريقهم إلى داخل المدينة ، وحدث قتال قليل ؛ وبحلول الصباح التالي كان اللوج وأبرز الصليبيين قد استقروا في القصر الكبير ، وأمروا جنودهم بنمضية الأيام

(٣١) Villehardouin, II, pp. 34-6. Net of Clary, p. 68; Andrea Dandolo, *Chronicle* (ed. Pastorello), p. 279.

(٣٢) Nicetas Choniates, pp. 340-36; Villehardouin, II, pp. 32-50; Robert of Clary, pp. 60-79; Guethier, pp. 91-4, 100-4, letter of Baldwin, R.H.F. vol. xviii, p. 522; *Deusotio Comneniopolitana*, p. 92; Ertoul, pp. 369-73; *Neograd Chronicle*, pp. 242-5.

الثلاثة التالية في نهب المدينة.

#### ١٢٠٤ م : نهب القسطنطينية

انتهت القسطنطينية بصورة لا مثيل لها في التاريخ . وتسعة قرون حلت ظلت المدينة العظيمة عاصمة للحضارة المسيحية؛ فكانت مليئة بالأعمال الفنية التي بقيت من اليونان القديمة، والطُرف المشوقة التي أبدعتها أيدي أبنائها المهرة ؛ وكان الباقية يعرفون حقاً قيمة تلك الأشياء ، إذ أخذوا وحذروا كنوزاً كانوا يستولون عليها ويحملونها لتزين ميادين مدنهم وكنائسها وقصورها . بيد أن الفرنسيين والتهلك كانوا قد أُشربوا في قلوبهم شهوة التخریب فكانوا يندفعون متحمسين في جماعات تعوى في وحشية في الشوارع وفي البيوت ، يتزعمون أي شيء يروق أسامهم ويذمرون كل مالا يستطيعون حمله ، ولا يترقبون إلا للقتل أو الإغتصاب ، أو لتعطيم بوابات كنيسة النيسة ليتعشوا ، فلم يخلص من غريبهم لا دير أو كنيسة أو مكتبة . وفي كنيسة القديسة صوفيا ذاتها راح سكارى الجنود يمزقون الستائر الحريرية ويجذبون الأيقونة العظيمة ويحطمونها قطعاً قطعاً ؛ بينما داسوا بأقدامهم الكتب المقدسة والأيقونات . وبينما كانوا يشربون الخمر في أواني الذهب جلست إحدى العاهرات على عرش الطريق وراحت تغنى أغنية فرنسية بدئية . وهكذا أعرض الرعايا في صوامع أديرتهم ، واقحم الجنود القصور والأكواخ سواء بسواء وحطموها . وكانت النساء المرحبات مقلبات مع الأطفال يجتفرون في الشوارع . ولثلاثة أيام تواصلت المشاهد المفرقة والنهب وسفك الدماء ، إلى أن استباحات المدينة الضخمة الجليدة إلى وضم كبير، بحيث صرخ المؤرخ نيكيتاس قائلاً: لو أنهم العرب لكانوا أرحم، وكان على حق<sup>(٣٣)</sup>.

(٣٣) Nicetas Choniates, pp. 357-63; Nicolas Mousarios, in Heisenberg, *Neue Quellen zur Geschichte des Lateinischen Kaiseriums*, i, pp. 41-8; letter of Greek clergy in Cotacris, *Evangelia Graecae Moscovitica*, ii, pp. 510-18; Innocent III letters, viii, 699-702 (M.P.L., vol. cccv, cols. 699-702) وقد كتبت لهذا لترجمت الثالث تقرير تفصيلية في Villehardouin, ii, pp. 52-8; Robert of Clary, pp. 68-9, 80-1; *Mongoloid* Gerth, pp. 104-8; letter of Baldwin, loc. cit; Euseb, pp. 334-6; *Mongoloid* 245-6. شجرة الصليبين . ويعرف 964 Gustier حتى أن نهب الكنيسة فقط بواضع من الورع . ومثل Euseb على أن يأخذ نصيب من الأسلاب، رغم أنه انتهب الكنيسة فقط بواضع من الورع . ومثل Euseb بالاعتماد على الباقية لأنهم كانوا الأكثر حشداً في النهب . ويدعون أبو شامش

وفي نهاية الأمر تحقق زعماء اللاتينيين أن كثرة التخريب هذه ليست في صالح أحد ، وبعدما استنفد النحش طاقة الجنود ، عاد اللطام ؛ وأجبر كل من سرق شيئا فيما عني تسليمه إلى نيلاء الفرنج ، وغلب الرومانيون التعساء لكي يكتشفوا عشا خبايلوا على أسفاله من أشياء . وحتى بعد احتفاء الكثير من الأسلاب على هذا النحو الشين ، كانت كميات الأسلاب تثر الملعول . وقد كتب المؤرخ Villehardouin أنه لم يكن عفتور أحد أن يهصى الذهب والفضة والشغولات ومجوهراتنا ، وضروب النسيج الفاخر وأنواع الخمر وأردية الفراء وفراء السحاب والأقمشة الرمادية للثلاثة وفراء حيوان القاقوم ؛ وأضاف من مصادره العظيمة هو نفسه أنه منذ أن خلق العالم لم يحدث أن أخذت هذه المقادير الضخمة من مدينة ما . وقُسمت كلها طبقا للمعاهدة ، فذهب ثلاثة أثمان إلى الصليبيين ، وثلاثة أثمان إلى البنادقة ، واستبقى الربع الباقي لإمبراطور اللسقل<sup>(٣٤)</sup>.

#### ١٢٠٤ م : تويج بلدوين كونت فلاندرز إمبراطورا

كانت المهمة التالية هي اختيار إمبراطور . وكان الأمل لا يزال يذاعب بوتيفاش (أوف مونفرايت) في أن ينتاروه، ولكن يرفع من مكانته أنفذ الإمبراطورة الأرملة مرحريت المنحارية أرملة إسحق وزوجها فحاة ، لكن البنادقة لم يكونوا ليشالوا من وراثة شيئا ؛ وينفوذهم مُنح العرض لأمر أقل إثارة للجدل وهو بلدوين التاسع كونت فلاندرز وهابنولت ، وهو رجل كرسم النسب عظيم الثروة ، لكنه أضعف وأسهل انقيادا ، وكان القلب الذي ينتظره بعضهم بما سيكون له من سلطان فعلي. وتقرر أن يكون سيدا أعمالا لجميع الأراضي التي غُزيت ، مع الاستثناء الذي يقرر للأراضي المخصصة لدوج البنادقة . وتقرر أن تضم أملاكه الخاصة تراقيا حتى كورلو ، وبيليبيا وميسليا حتى جبل الأولمب وبعض جزر بحر إيجه ، ساموثراتيا و ليسوس و كيوس و ساموس و كوس . غير أنه كان من المقرر ألا يمتلك عاصمته ملكه كلها ؛ إذ طالب البنادقة بحقوقهم في ثلاثة أثمان القسطنطينية ، وأخذت الجزء الذي يضم كنيسة القديسة صوفيا حيث نشأ أحد البنادقة ، توماس موروسيني ، بطريرقا. وفضلا عن ذلك ، طالبوا بأجزاء من الإمبراطورية من شأنها أن تساعد لتفوقهم البحري ، وهي السواحل

(١٥٤) (ii.p.154)هم دائما الكثير من أساليب المسلمين.

(٣٤) . Villehardouin, ii, pp. 59-60; Robert of Clary, pp. 80-1 .

الغربية للجزء القاري من اليونان ، ويليونيز كلها ، وناكسوس وأندروس وإيويويا وغاليبول ومواني تراقيا على بحر مرمرة ، وكثرياتيول. وأعطا بونيفاس ، كتصريح عن العرش ، أملاكاً غير محددة في الأناضول وشرق ووسط اليونان القارية وجزيرة كريت ؛ ولكن لا يُقدم على السير لغزو كريت في آسيا طلب بدلا من ذلك ماسيدونيا مع ثيسالونيكيا . واعرض بلديون ، غير أن الرأي العام آزره في طلبه وخاصة عندما طرح حقاً وراثيا منتقلا من أخيه رينير الذي كان قد تزوج ماريا المولودة بعد تولي أبيها العرش ؛ وكسب البناوة إلى صفه بأن باع لهم كريت ، وأصبح ملك ثيسالونيكيا تحت سيادة الإمبراطور . وخصص للنبل الأقل شأنا أقطاعات تتناسب مع مكانة كل منهم ولعمري<sup>(٣٥)</sup>.

وفي السادس عشر من مايو ١٢٠٤م تجمعت حفل تتويج بلديون في كنيسة القديسة صوفيا ، وفي أول أكتوبر، وبعد أن احتفل محاولة من بوليفاس للإستقلال، عقد مجلسا للبيلاط في القسطنطينية حيث خلع على حوالى ستمائة من أتباعه أقطاعاتهم ولوردوهم؛ وفي تلك الأثناء صدر دستور يركز حزبا على نظريات القسائين الإقطاعيين وحزبا على ما كان يُعلن أنه منيع في مملكة القدس . وكان هناك مجلس يتألف من كبار ملاك الأرض يساعدتهم المحاكم البيدفي للقسطنطينية المطلق الصلاحية (بودستا) ؛ وكان هذا المجلس يقدم النصح للإمبراطور حول المسائل السياسية ، ويوجه العمليات العسكرية ، ومن سلطاته نقض الأوامر الإدارية الصادرة عن الإمبراطور . وكانت هناك محكمة عليا، مشكلة بصورة مثيلة ، تنظم علاقاته بأتباعه . وأصبح أكثر قليلا من رئيس مجلس الأعيان . وقليلة هي الدساتير غير العملية كذلك الواردة في القوانين الرومانية<sup>(٣٦)</sup>.

#### ١٢٠٤ - ١٢٦١ م: الإمبراطورية اللاتينية

لم يكن لرومانيا - وهو الاسم الذي أطلقه اللاتين على إمبراطوريتهم - من حقيقة

(٣٥) عن مناقشة تفصيل بتقسيم الإمبراطورية قسطنطينية Longon, *L'Empire Latin de Constantinople*, pp. 49-64. وتورد معاهدة التسمي في Tafel and Thoenes, *Urkunden*, i, pp. 464-8.

(٣٦) *Assises of Romania* (ed. Villehardouin, ii, pp. 66-8; Robert of Clary, p. 93. *Recoera*), passim.

واقعية سوى ما يريد قليلا على سلطة امبراطورها ؛ فالكثير من مقاطعاتها كان لا يزال في أيدي أعدائها ، ولا سبل لغزوها قط. وأما البنادقة الذين يعيشون الواقع ، فلم يأخذوا سوى ما كانوا يعرفون أنه سوف يصمد ، جزيرة كريت وموانئ مودون وكروتون في شبه جزيرة الباليونيز وكورفو إلى حين . ونشروا في الجزر التابعة لهم في بحر إيجه ألباعا من اللوردات المنحدرين من أصل بنقي ، أما في سيبالونيا وإيوبريا فأغبروا عن ترحيلهم بالولاء الذي أعلنه كسراء اللاتين الذين نصبوا أنفسهم قبلهم . وسرعان ما اكتسح بونيفاس (أوف منتفات) أغلب اليونان القارية ونصّب أتباعا له هناك ، وأصبح أوتو (أوف لا روي) المرحلي دوقا لأثينا وطيبة . وضعت بيلوبونيز لاتين من اللوردات الفرنسيين هما (أوف شامبليت) وجيوفري (أوف فيلهاردوين) ، وهو ابن أخى اللورخ ، الذي أسس أسرة حاكمة من أمراء أحياء<sup>(٣٧)</sup>.

وهكذا ، أصبحت كل المقاطعات الأوروبية تقريبا في الإمبراطورية في قبضة اللاتين. غير أن اللاتين كانوا محطّين في اعتقادهم أن الاستيلاء على القسطنطينية سوف يعطيهم الإمبراطورية كلها ؛ ففي أوقات الكوارث كانت الروح اليونانية تظهر نفسها في أعلا درجات الشجاعة والخيوة . وفي أول الأمر أدى طبع العاصمة الإمبراطورية إلى القوطني ، غير أنه في غضون سنتين أعاد العالم اليوناني المستقل تنظيم نفسه في ثلاث دول وراثية ؛ فبيدنا في الشرق ، احتل حليفان للإمبراطور أندرونيكوس ، هما الكيسوس ودانود كومينوس ، طرابزون وأقاما سلطانهما بطول شواطئ البحر الأسود المطلة على آسيا الصغرى ، وقد ألقيا في ذلك بمساعدة عمتهم الملكة العظيمة عمارة ملكة جورجيا (الكرج) . وفي ١٢٠٦م قتل دانود في قتال أراد به توسيع سلطانهما باتجاه البوسفور ، وعاش الكيسوس ليتخذ لقب امبراطور وليؤسس أسرة حاكمة استمرت لمدة قرنين ونصف ، ازدهرت من التجارة الآتية من فارس والشرق لتمر خلال عاصمتها ، ومن مناحم الفضة في التلال الواقعة إلى الخلف ، كما كانت لها شهرة جمال أميراتها . وبيدنا في الغرب تمكن أحد أبناء الشفاح من أسرة الجيلوس من أن يتبع طاغية في إبيروس وأسس أسرة حاكمة كان لها أن تبحث شاة مملكة مونفرات في تيسالونيكيا . وأكثر الممالك الثلاث روعة هي الإمبراطورية التي أسستها في نيقية إسة الكيسوس الثالث ، أنا وزوجها ثودور لاسكاريس ؛ إذ انتف حوشا أبرز المواطنين الذين هربوا من القسطنطينية ، وتخلّى البطريق اليوناني جون كمالوريوس ، الذي سبق أن هرب إلى

(٣٧) Longga, loc. cit.; Hopf, *Geschichte Griechenlands*, II, p. 10.

تراثيا ، عن منصبه لكي يتمكن رجال الدين للتفويض من العاصمة الإمبراطورية القديمة من انتخاب فسيوس موجود فعلا في نيقية ، وهو ميخائيل أنطونيوس ، الذي قام ببناء على ذلك بتتويج إيسودور وأثينا . وهكذا أصبحت نيقية في أيمن اليونانيين العاصمة الشرعية للإمبراطورية . وسرعان ما وشع إيسودور حكمه ليشمل أغلب الأراضي الماروكية لبيزنطة في آسيا . وخلال أكثر قليلا من خمسين عاما كان خلفاؤه قد عادوا لحكم القسطنطينية<sup>(٣٨)</sup>.

كما تسمى اللاتين السلالات العنصرية الأخرى في الملقان ؛ إذ كانت إمبراطورية الإمبراطورية أسس (الغالبية-بلغارية)<sup>(٣٩)</sup> لتصبح طراعية حليفا لهم ضد اليونانيين المكرهين ؛ غير أن الإمبراطور كان مطالب بالأراضي التي سبق أن احتلها القيصر كاليبان ، وكان الطريق اللاتيني مطالب بالسلطة على الكنيسة الأرثوذكسية البلغارية؛ فانسلت بلغاريا إلى تحالف غير طبيعي مع اليونانيين ؛ وفي معركة أدريانة في عام ١٢٠٥م كاد جيش رومانيا أن يهلك ، وسر الإمبراطور بلديون وأودع السجن في قلعة بلغارية ليقتل فيه نفيه . وبعدا للحظة أن الإمبراطور التالي حكم في القسطنطينية سيكون القيصر البلغاري، غير أن الشرق اللاتيني أخرج من جعبته حاكمة العظيم الأوحدة، في شخص هنري أسمى بلقويين. ذلك أن ما أبدأه خلال عهده الذي دام عشر سنوات من طاقة نشطة وحكمة متساعمة أثقت الإمبراطورية اللاتينية من هلاك غياصل ، وساعد على بقائها حتى عام ١٢٦٦م ما ساد عوازل اليونانيين من خصومه ومشاعرات مع بعضهم البعض ومع البلغار، ووجود الأتراك في الخلفية<sup>(٤٠)</sup>.

ولم يستطع غزاله عام ١٢٠٤م المتجهون لتتويجهم ما يتزلب على مشروعاتهم، وقد انهزم معاصروهم بذلك الفرو. وفي بادئ الأمر كانت البهجة تعم العالم اللاتيني كله . ومن الحق أن يتساءل شاعر الفحاء الكولوني جيوت (دي بروفانس)<sup>(٤١)</sup> في

(٣٨) Vasiliev, *Foundation of the Empire of Trebizond, Speculation*, vol. XI, pp.3-37, Ostrogorsky, *Geschichte der Byzantinischen Staaten*, 2nd ed., pp. 337-46.

(٣٩) (الترجمة): شعب فلاح Vlach أحد الشعوب الأوربية التي لتصل العصر الرئيسي لشعوب رومانيا وشعوبا ومجاعات أخرى في الملقان جنوب وغرب نهر دانوب . وقد تملك عليهم حركات اسم فولوخ Volokh ، الذي صار الآن فلاح ، رغم تسميتهم أنفسهم رومانين

(٤٠) Longnon, *op.cit passim*, esp. pp. 77-186, Ostrogorsky, *op.cit*, pp. 337-59; Zlatarsky, *History of the Bulgarian Empire (in Bulgarian)*, III, pp. 211-47.

(٤١) (الترجمة): كلوني Chastat ، نسبة إلى نظام رهباني كلوني الذي نشأ على النظام بينديكتي في القرن الحادي عشر

أشعاره لماذا سمح البابا بحملة صليبية موجهة ضد مسيحيين، ولما الشاعر الغنائي الجوفانس غيوم فيجويرا فقد ألهم روما إنيهما مريرا بخيانة اليونانيين حيانة غادرة. غير أنه في الوقت الذي كان يكتب فيه كانت روما تبشر بحملة صليبية ضد وفائه المواطنين<sup>(١٦)</sup>. وكانت هذه الحالات من الخلاف في الرأي نادرة. وكان البابا إينوسنت متبعها بادی الأمر رغم كل ما شعر به من هواجس حول انفراد الحملة الصليبية إلى القسطنطينية؛ ف على رد إينوسنت على رسالة تفيض بهجة غامرة من الإمبراطور الجديد بلذنين تباهى بتأجيل المحنة العظيمة القيمة لتصبح الرب، كتب إينوسنت معربا عن استهائه بالرب، ومنحه موافقته دون تحفظ<sup>(١٧)</sup>. وانتشرت في سائر أنحاء الغرب أناشيد الشكر والتعجب، وفار الخراس عندما بدأت الآثار الفنية تغد على كنائس فرنسا وبلجيكا؛ واعلنلت الدوايم احتفالا بسقوط المدينة العظيمة الدنسية Constantinopolitana Civitas diu profana، التي تنقيا الآن كنوزها، ولقي لاتيوس الشرق تشجيعا بهذه الأنباء<sup>(١٨)</sup>، فبقيا سوف تصبح استراتيجيات الحملات الصليبية كلها فعالة على نحو أكبر بعدما بدأت القسطنطينية في أيدي أبناء جلدتهم. وانتشرت الشائعات بأن المسلمين قد أصبحوا بالزعم؛ وهنا ألبابا نفسه على ما أعرب عنه سلطان مصر من الشعور بالترجس كما قبل<sup>(١٩)</sup>.

#### ١٢٠٤ م : إينوسنت يعلن الحملة الصليبية

كانت معاودة التفكير بكل تشجيعا، وعادته إلى البابا هواجسه. ذلك أن اقتراح الإمبراطورية الشرقية وكتبستها في دنيا العالم للمسيحي الروماني كان ضارا والماء؛ ولكن، هل لم ذلك على النحو الذي يوجب المنع المستديم؟ لقد تلقى للرب من المعلومات، وشعر بالزعم عندما علم بمشاهد التعذيب والتعطش للدماء عند نهب

(١٦) Guyot de Provins, *Œuvres* (ed. Orr), p. 34; Guillen Figeas, *Don Servantes Fie* (17) *de Bartholomaeis, Poésie Provençale Storiée*, ii, pp. 98-9. الصليبية 30-1. Theop, *Criticism of the Crusade*, pp. 30-1.

(17) Innocent III, letters, vii, 153, 154, 201, 208 (M.P.L. vol. ccv, col. 454-61, 512-16, 521-3).

(18) تراثهم واردة في Riant, *Envoies*, ii, pp. 43-50؛ وعامة *Septuaginta Andegavensis*.

(19) *Im ab-Athir*, Innocent III, letters, viii, 125 (M.P.L. vol. ccv, col. 608). 95. بلتيان غزو القسطنطينية ساعد الصليبيين على الوصول إلى سوريا بصورة أسرع.

المدينة . لقد أصيب بضربة عاتقة كعسكري ، وشعر بالقلق كرجل سياسة . إن مثل هذه الروحانية البربرية ليست هي السياسة الفضلى للفرز بتعاطف العالم المسيحي الشرقي ؛ فكتب في حق مرور إلى القسطنطينية بعدد الفطاح وبكرها ؛ كما علم أن الغزاة قد قسّموا الدولة في حقة وكذلك الكنيسة هناك دون أية إشارة لسلطته ؛ لقد كان هناك تمكّد في تعامله ، وهو يدرك مدى عجز الوثيكيات التي تمت للإمبراطورية الحثينة ، وكيف أن البنادقة غافوا الصليبيين حيلة ودعاه . ثم إنه سمع بكل الغشيان أن مندوبه الرسولي بطرس (أوف سانت مارسيل) قد أمسك مرسوماً يحمل كل من أعد الصليب من واجب مواصلة الرحلة إلى الأراضي المقدسة . لقد سقط القناع عن الحملة الصليبية لتظهر بمظهر الحملة التي لا تبغي سوى غزو الأراضي المسيحية ، ولم تفعل شيئاً لمساعدة الجنود المسيحيين الذين يشاربون الإسلام<sup>(١٦)</sup>.

وتنشق فرنج سوريا فعلا من ثلاثي الأمل في وصول أية حملة في عام ١٢٠٤ م . واتقضى الصيف والصليبيون فاعدون في القسطنطينية ؛ وفي ستمو عقد الملك أمباريك هدنة مع العادل بعدما أدرك عدم وصول تعزيزات<sup>(١٧)</sup> . غير أنه سرعان ما اتضح أن المنشآت اللاتينية الواقعة أبعد إلى الشمال سوف تلحق بأضراراً جسيمة بالانشآت في سوريا ؛ إذ أن الامبراطور بالديون أرسل إلى البابا إينوسنت متابعياً بأن الكثير من فرسان مملكة ما وراء البحار قد حضروا لتوجيهه ، وأنه قد بذل ما في وسعه لحثهم على البقاء معه . وبعد أن اتضح وجود القطاعات غنية تبعث على البهجة على شواطئ البوسفور أو في اليونان ، سارع الفرسان الآخرون الذين استولوا المسلمون على أراضيهم في سوريا إلى القسطنطينية للانضمام الي وفاتهم . وكان من بينهم هيو كونت طبرية ، وهو أكبر أبناء زوجة ريموند كونت طرابلس ، وزوج مارجريت (أوف بيلين) ، إبنة ماريا كومينا . ووجد المغامرون من فرسان الغرب عدم جدوى الذهاب بعيداً إلى مملكة القدس ذات الزحام الشديد للبحث عن ثورديّة أو عن إحدى الوريثات ؛ فهناك أراض أفضل في اليونان . وكان غزو قبرص قد سبق وأقوى مستوطنين من الأراضي السورية. وبعد غزو رومانيا لم يكن هناك تقريباً من مهتمين سوى القديسين من فرسان الأنظمة الدينية العسكرية الذين خرجوا من أوروبا للتلطّاع عن الأرض المقدسة<sup>(١٨)</sup>.

(١٦) Innoent III, letters, viii, 126 (M.P.L. vol. cccv, cols. 699-730).

(١٧) تنظر لعملاء صفحة ١١٢ .

(١٨) Villehardouin, ii, p. 124 .



## ١٢٠٤ م : النتائج المؤتمة على الحملة الصليبية

لمست هناك قط جريمة ضد الإنسانية أعظم من الحملة الصليبية الرابعة . فهي لم تقف عند تدمير أو تدهيد كل كنوز الماضي التي دأبت بيزنطة على جمعها ، ولم تقف عند الجراحات التي قتلت حضارة بقيت نشطة وعظيمة ، وإنما تجاوزت ذلك إلى أن أسست عملاً من أعمال الحملة السياسية لغائلة ، ولم تجلب أية مساعدة للمسيحيين في فلسطين ؛ وبدلاً من ذلك ، استلبتهم معينين كانوا قادرين على مساعدتهم ، وقلبت رأساً على عقب كل سبل الدفاع عن العالم المسيحي . ولو أن اللاتين كانوا قادرين على تولي أمر الإمبراطورية البيزنطية كلها كما كانت عليه في أيام مانويل ، لشككوا من توفير عون قوى للحركة الصليبية على الرغم من أن إلقاء بيزنطة لمسلحة سوريا اللاتينية لم يكن لسيزدهر طويلاً . على أن بيزنطة قد خسرت أراضي في الأناضول منذ وفاة مانويل؛ ولم يستطع اللاتين غزو ما تبقى ، بينما كان هجومهم على اليونانيين بمثابة قوة إضافية للأتراك . وأصبح الطريق البري بين أوروبا وسوريا أكثر صعوبة نتيجة للحملة الصليبية الرابعة ، مع رغبة اليونانيين في تقييد ، وعداوة الأتراك للمسيحيين . ولم تحاول قط أية جماعة مسلحة من الغرب الإرسال عبر الأناضول مرة أخرى ؛ كما لم يصبح الطريق البحري أيسر ، إذ كانت السفن اللاتينية الآن تقتطع نقل المسافرين إلى الجزر اليونانية والبوسفور وليس إلى عكا والرواني السورية.

وفي الحركة الشاملة لتاريخ العالم ، كانت الآثار مفعمة للغاية؛ فمنذ أن بدأت بيزنطة إمبراطوريتها وهي بمثابة الحارس لأوروبا ضد الشرق الكفار والشمال الغربي، وقد واجهتهم بحروبها وروشتهم بعشائرها . وممرت بالكثير من فترات الفلق عندما كان يزداد لها أن قهرها قد أُرِف ، لكنها بقيت حتى الآن . وعند نهاية القرن الثاني عشر كانت تواجد أزمة طويلة ، إذ أن ما دُمّرت الغزوات التركية في الأناضول من قوتها البشرية واقتصادها قبل ذلك بقرن بدأت آثاره الكاملة تظهر عليها ، وتفاظمت تلك الآثار بما كانت عليه المدن التجارية الإيطالية من انقراض دائم . على أنها كانت خليفة بأن تظهر على نحو جيد مرونتها للتكيف مرة أخرى واستعادة البلقان وقادراً كبيراً من الأناضول ، وكانت ثقافتها خليفة بأن تواصل تأثيرها الذي لم يتقطع على البلدان من حولها . حتى الأتراك السلاجقة ربما يخضعون تماماً لسيطرتها إلى أن تستوعبهم لإعلاء الإمبراطورية . وتظهر قصة إمبراطورية تقيية أن البيزنطيين لم يفقدوا بأسهم ؛ ولكن

ضباع الميسطيقية كسر وحدة العالم البيزنطي ، ولم يعد هناك سبيل مطلقا لإصلاح ما انكسر حتى بعد اسرجاع العاصمة نفسها لقد كان عبد السلاجقة جزءا من الفجوات اعل ليقية ، ولكن عندما ظهرت قبيلة تركية جديدة أشد بأسا تحت زعامة آل عثمان المزمعين ، كان العالم المسيحي الشرقي قد بلغ من الانقسام حدا يحول دون أن يكون له موقف مؤثر إذ تحولت زعامته إلى مكان آخر ينأى عن منطقة البحر المتوسط التي ولدت فيها الثقافة الأوروبية إلى الشمال الشرقي البعيد ، إلى سهول روسيا الشاسعة . لقد كانت روما الثانية تخلي المكان لروما الثالثة الموسكوفية<sup>(١٩)</sup>.

وفي تلك الأثناء طُرس بدور الكراوية بين العالم المسيحي الشرقي والعالم المسيحي الغربي ، ولم تتحقق البتة آمال البابا إيوستنت الطيبة ، ولا تيجيات الصليبيين المطبسة بأنهم قد ألهوا الصدى ووجدوا الكنيسة . وإنما تركت بربرتهم ذكرى لن تغفر لهم قط . وفيما بعد ، قد يناسر الموارث المسيحيون الشرقيون الوحدة مع روما في توقع أكبر لديهم بأن الوحدة سوف تطلق حياة متحدة عند الأتراك ، غير أن شعوبهم لن تتجههم ، فهم لا يستطيعون نسيان الحملة الصليبية الرابعة . وربما كان حتما أن تحرف كنيسة روما والكنائس الشرقية الكبيرة بعيدا عن بعضها البعض ، على أن الحركة الصليبية برمتها قد نغصت العلاقات فيما بينها ، ومنذئذئذ قُصما معها حاول قليل من الأمراء أن يبلغوا غاية ، كان الصدى في قلوب المسيحيين الشرقيين كاترا ومستعصيا ونهايا .

(١٩) (تاريخ) نسخة إلى Moscow وهي دوقية كبيرة سابقة لموسكو ونجنيها ، تسعت في الإمبراطورية الروسية في القرن السادس عشر تحت إيدان الرابع

\_\_\_\_\_

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

---

## الفصل الثانی:

### الحملة الطليبية الخامسة

\_\_\_\_\_

### الحملة الصليبية الخامسة

"هل يسير اثنان معا إن لم يتواعدا؟"  
(عاموس ٣:٣)

لم يكن فشل الحملة الصليبية الرابعة في مساعدة فلسطين يخلو من عجوز؛ إذ تركت المملكة الصغرى في سلام طوال ما يزيد على عشر سنوات ، وصمدت الهدنة التي رتبها الملك أماريك مع السلطان . ولم يكن بمقدور الفرنج العبارة بفرقها دون مساعدة غربية ، بينما كان لدى المماليك ما يكفي من المشاغل في توليد دعائم سلطانه بحيث لم يشأ أن يسيب نفسه وبكته غزو دولة لا تضرر منها ، ولو أنه هاجمها لاستثار حملة صليبية جديدة. وظل جون (أوف إيلين) طوال ثلاث سنوات يحكم في هدوء كوصي على ابنة أخته الملكة ماريا.

وفي ١٢٠٨م بلغت الملكة عاشرها السابع عشر ، وأن وقت البحث لها عن زوج . فسافرت بعثة مؤلفة من فلورييت أسقف عكا ، وكبار لورد قبرصية إلى فرنسا لتتسقى من الملك فيليب ترشيح زوج لها . وكان المأمول أن يستميل هذا العرض منح التاج أحد

الأمراء الأتراك، الأقرباء للحضور لإنقاذ الشرق الغربي، بيد أن العنور على عرسي لم يكن بهذا السر السور. وأخيراً أعلن فيليب في ربيع ١٢١٠م أن فارساً من شامباني يدعى جون (أوف برين) قبل المنصب<sup>(١)</sup>.

#### ١٢١٠م : جون (أوف برين) ملك القدس

وكان اختياراً باعتباراً على حية الأمل. إذ كان جون إنسا أصغر مقلداً يبلغ من العمر فعلاً ستين عاماً. وقد سبق أن تزوج أرموه الأكبر ولتر كبرى كرمات الملك تكريماً ملك صقلية، ولذا أعلن عن مطالبة عقيسة بعرض صقلية؛ لكن جون أنفق حياته بصورة غامضة نسبياً كواحد من قادة الملك الفرنسي. وأصبح عنه أنه قد اختير الآن بسبب حيالة زوجية مع الكونتيسة بلانش (أوف شامباني) فضحت البلاط. وبعض النظر عن قهره، لم يكن غير مناسب للمنصب؛ إذ لديه دراية واسعة بالسياسة الدولية، وكانت سته المتقدمة بمثابة ضمان لعدم إقدامه على مغامرات بشؤونها الطيش والتهور. ولكن يزداد قبولاً منحه كل من الملك فيليب والبابا إينوسنت دوطلة (مهر) أربعين ألف جنيه فضي<sup>(٢)</sup>.

وفي تلك الأثناء، تولّى جون (أوف ايلين) الحكم إلى أن يصل. وكان شهر يولية ١٢١٠م هو موعد انتهاء الهدنة مع العادل، فأرسل السلطان إلى عكا يقترح تجديداتها. وكان جون (أوف ايلين) يرأس مجلساً، وأوصى لديه بالواقعة على العرض، وأبدى السيد الأعظم لفرسان المستشفى، غورين (أوف مونتيجو)، والسيد الأعظم لفرسان القيونون هرمان باردوت. لكن السيد الأعظم لفرسان المعبد، فيليب (أوف ليو بلسيه)، حرض الأساقفة على الإصرار على رفض هذا الاقتراح، على أساس قانوني مؤداه أن الملك المقل لا يستطيع أن يكون مقيداً بأية هدنة جديدة. ووقع قتال حقيقي فتيقظ «فأرسل العادل ابنه المعظم مع بعض الجنود إلى جبل العنور، وأسفر وجوده عن توقف الفرنج<sup>(٣)</sup>».

(١) Ernoul, pp. 407-8; *Éistoire d'Eracles*, ii, pp. 305-8; see La Monte, 'John d'Ibelin', in *Byzantine*, vol. xii

(٢) *Éistoire d'Eracles*, loc. cit.

(٣) pp. 310, 316; Abu Shama, ii, p. 158; *ibid.*

خريطة رقم (٢) دلتا النيل







توليّه منصبه . والآن أصبح الملك هيو في الخامسة عشرة من عمره<sup>(١)</sup> . وقبل ذلك بعامين تزوج إينة زوجة أبيه أليس ، من ميراث القدس ، وذلك بناء على الترتيب الذي اتفق عليه أبواهما . وتولت الملكة ماريا كومينا ، وهي حدة العروس ، المفاوضات لتنفيذ الزواج ، وقدمت دومة بلانش (أوف نغار) ، كونتيسة شامباني ، وأرملة عم العروس ، إذ كانت تفتش أنه ما لم تتزوج أليس وأختها في سلام في الشرق ، فقد تأتي إحداهما للمطالبة بالإستيلاء على كونتية شامباني من ابنها الطفل . وكان الملك هيو شاباً مثاشاً فبانت علاقاته مع حيراته وأتباعه وكنيسة والبابوية علاقات عاصفة ، لكنه وفر لمملكته حكمها واستقرارها<sup>(٢)</sup> .

#### ١٢٠١ م : الإستخلاف في أنطاكية

كانت الأحوال في إمارة أنطاكية تجاور كثيراً مملكة قبرص في اضطرابها . إذ كان بوهيموند كونت طرابلس قد نصب نفسه هناك في اعتقابه وفاة والده بوهيموند الثالث عام ١٢٠١ م ، متحدياً حقوق ابن أخيه ريموند-روين ؛ علي أن ليسو الأرميني - وهو والد عمال ريموند - استمر في الضغط من أجل قضيتيه . وتعمدت الأمور بسبب الشجار الذي نشب بين ليو وفرسان المبدل لرفضه إعادة قلعتهم في غراس . ولذلك انماز فرسان المستشفى إلى جانبيه ضد بوهيموند . ومع ذلك ، كان عقودور بوهيموند طلب العون من الأتراك السلاجقة الذين تواترت الحرب بينهم وبين ليو ؛ وكان الظاهر صاحب حلب على استعداد دائماً لأن يرسل إليه التعزيزات ، ومن أجل ذلك كان العادل يعمل العدواة لبوهيموند ، وكان تعاطف ملكي القدس وقصر يعلب عليه الثقلب . ثم جاءت المشاكل الدينية لتزيد من الفوضى . وكان من الأمور الأساسية لصياغة الحركة الصليبية برمتها تسوية مسألة الإستخلاف في أنطاكية ؛ وشعر البابا إينوسنت أن من واجبه التدخل ، فحاول كل من مندويه البابوين ، سورفريد (أوف سانت براكسيس) وبطرس (أوف سانت مرسيل) كل على حدة، ثم معاً ، سماع القضية . على أنه في الوقت الذي كان يظهر فيه ليو مراعاته لروما بالكلام فقط ، رفض عقد السلام مع

(١) *Estorie d'Eracles*, ii, pp. 15-16; *Mss Latine, Documents*, ii, p. 13.

(٢) *Mss Latine, Histoire de l'île de Chypre*, i, pp. 175-7; *Documents*, ii, p. 34; *Innocent III, letters*, ix, 28 (M.P.L. vol. ccxv, cols. 829-30); *Hill, History of Cyprus*, iii, 72-83.

فرسان المعبد بالتحلي لهم عن قلعة بيمارس ، كما أسره البابا . ومن الناحية الأخرى ، أنكر يوهنن حن البابا في الاهتمام إلى مسألة إقطاعية خالصة . وبعد موت يوهنن الثالث مباشرة انضم البطريق بطرس الأنطاكي إلى حزب ليو ، ولم يقتصر له ذلك يوهنن الرابع ولا من كميون انطاكية الذي كان شديد العداوة لأرمينيا . غير أنه في عام ١٢٠٣م كتب ليو للبابا قائلا إن الكنيسة الأرمنية ينبغي أن تخضع مباشرة لولاية روما ، وفي ١٢٠٥م تشاجر البطريق مع المندوب البابوي بطرس (لوف سانت مرسيال) حول تعيين رئيس خامسة أنطاكية . ووجد البطريق نفسه بلا صديق وفي وسع يوهنن أن يثار منه<sup>(٨)</sup>.

وكانت ليوهمن نفسه مشاكله . إذ على الرغم من حيازته لأنطاكية وفوزه بتأييد الكميون ، كانت سلطته في الريف مقبّدة . وحدث الإضطراب في كونتييه الطرابسية في نهاية عام ١٢٠٤م من جراء تمرد رينوت ، لورد نيفين ، الذي تزوج وريثه عسكر دون إلا أن يوهنن ، وانضم إليه عدد من اللوردات ، بمن فيهم رالف لسورد طوبية الذي كان أخوه أوّلو الآن في بلاط ليو ، وفاز المتمردون بتعاطف الملك أمالريك . وبينما كان يوهنن يسعى إلى قمع التمرد ، ضرب ليو المحاصر حول أنطاكية ولم يتسحب إلا عندما أرسل الظاهر صاحب حلب جيشا لمساعدة يوهنن . وبعد موت أمالريك ، سحب تحون (أوف ايلين) كل تأييد للمتمردين الذين هزمهم يوهنن في نهاية العام ، وبهذا فقد عينا أثناء القتال . وفي ذات الوقت ، ونكي يظهر أنطاكية بظهور اللويطة العثمانية ومن ثمّ خارج نطاق سلطة البابا ، أعلن أن سيدها الأعلى كان دائما امبراطور القسطنطينية . وعندما قامت ماريا (أوف شامباني) وزوجة الامبراطور اللاتيني الجديد بلفونين بزيارة فلسطين عام ١٢٠٤م في طريقها للانضمام إلى زوجها ، سافر إلى عكا ليقدم اليها احتراماته<sup>(٩)</sup>.

(٨) عن التاريخ الأنطاكي خلال هذه الفترة انظر 600-15 *Cahen, La Syrie du Nord* المراجع الكائن.

(٩) 834, p. xviii, *Alberic of Trois Fontaines, Chronicon, R.H.F.* كان الإمبراطور السامع فيما بين التاريخ من أن امبراطور القسطنطينية اللاتيني قد ورت كافة حقوق البيزنطيين . ومع ذلك ، تفاوض ليو الأرمني على الحوار مع امبراطور نيقية ، الذي زعم بنفس القدر أنه وريث البيزنطيين . انظر 606 *Cahen, loc. cit. esp. p.*

## ١٢٠٦م : بطريق يوناني في أنطاكية

ومات يوهنود في عام ١٢٠٦م مهتاجا من البابا وبطريقه سواء بسواء ، فاقدم على حبل الأخر واستدعى البطريرك اليوناني سيمون الثاني، الذي كان بلا منصب، ليحل محله . ومن المراجع أن سيمون كان يقيم فعلا في أنطاكية ، ولابد أن الكرميون أبد حركة يوهنود ، إن لم يكن هو الذي اقترحها . ورغم القضاء قرن كامل من الحكم الفرنسي ، كان العصر اليوناني لا يزال كبيرا ومزدهرا ، ومرار الوقت تراوح بلا شك الكثير من العائلات التجارية اللاتينية مع اليونانيين ، وكلهم يكرهون الأرمن ، وتسبب الغزل بين البابا وليو في خوفهم ضد روما . أما يوهنود من ناحيته ، فلم تعد بزنطة قادرة على تهديده ، ومن ثم توهم لديه الاستعداد لأن يتابع الكنيسة التي كانت تقاومها توصي بالخطر من الأمراء العلمانيين . ومن سخرات القدر أن يجد اللاتين البطريركية اليونانية بعد دمار بزنطة والتي حارب من أهلها الأباطرة البيزنطيون في القرن الماضي حروبا شرسة . وعلى الفور أنهى البطريرك اللاتيني بطرس شجاره مع اللدوب البابوي الذي أعاد إليه سلطة الطرد من الكنيسة ، وكانت موضع شك . وبكل تأكيد من روما طرد الأمو والكميون من الكنيسة ، فردوا بالاحتشاد قس الكنائس اليونانية في المدينة . ثم لجأ البطريرك اللاتيني إلى الدساس . ففي نهاية العام التالي ١٢٠٧م أدخل إلى المدينة ليلا بعض الفرسان الذين يدينون له بالولاء ، وتمكنوا من الاستيلاء على أسفل المدينة ، غير أن يوهنود جمع قواته في القلعة وسرعان ما ردهم إلى خارج المدينة . وحوكم البطريرك بطرس ، الذي كان تأمره حيا وانصحا ، بتهمة الخيانة وألقي به في غيابة السجن حيث فتح عنه الطعام والماء ، فانتفخ في رأسه زيمت مصباحه فمات متوجع<sup>(١٠٠)</sup>.

وبدأت مشاعر القلق لتتألب البابا اينوسنت من هذا النزاع الذي لا نهاية له، وعهد بمسؤولية تسويته إلى بطريق القدس . وفي عام ١٢٠٨م، حرب لبو البلاد المحيطة بأنطاكية بينما كانت طرابلس تواسه غزوا من قوات العادل التي جاءت ، دون روية، للإنتقام لحجوم شنه بعض القارصة على تجار مسلمين ولعارة عذوانية شنها فرسان المعبد . وأتقد يوهنود نفسه بالاستعداد بالسلحقة ضد ليو ، بينما أرسل البابا مناشدة

(١٠٠) . 612-13. Cahan, loc. cit. esp. pp. 612-13. كاتيفر القصة أن العصر اليوناني في الكميون لا بد وأن كان قويا . ونفوض أن كان هناك غير كثير من التراوح فيما بين الدور البيزنطية.

إلى الظاهر صاحب حلب لإنقاذ أنطاكية من اليونانيين . وأعقب ذلك ثورة ديونمسية إذ كان بطريق القدس ألبرت صديقاً لفرسان المعبد حلفاء يوهنسد ، وأعقب لبو بإصراره على أن تكون الخطوة الأولى البديلة لأية تسوية هي ضرورة إعادة بحراس إلى النظام . وفي تلك الأثناء وافق يوهنسد على قبول بطريق لاتيني جديد في أنطاكية ، بطرس (أوف لوسيدور) ، ولما ناسى لبو ولاءه لروما ، وتحالف متاهبا مع الامبراطور البيزنطي في نيقية ، ورحب بطريق أنطاكية اليوناني ، سيميون ، في صقلية وأعطى الكثير من أراضي الكنيسة اللاتينية فيها لليونانيين . على أنه في ذات الوقت سعى لبيل صداقة هيو ملك قبرص الذي كانت أمته هيلينيس متزوجة من ريموند-روين، ومنح نظام فرسان الثيوتون حصونا في كيليكييا . وتواصل الصراع<sup>(١١)</sup>.

وفي عام ١٢١٣ م ، وبينما كان إبن يوهنسد الأكبر ، ريموند ، البالغ من العمر الثامنة عشرة في كندراية طرمولوس ، اغتاله عصبة من الحشاشين . ويبدو أن فرسان المستشفى قد حرموا القنلة الذين كانوا يدفعون لهم الإتاوة . وفي العام التالي ، قتل الحشاشون بطريق القدس ، ألبرت ، وهو عدو أمر لفرسان المستشفى . وسعى يوهنسد للتأخر ، فهاجم تعزيزات من فرسان المعبد حصن الحوامي الذي يملكه الحشاشون . واستند الحشاشون بالظاهر الذي استند بدوره بالعدل . ورفع الحصار عن حصن الحوامي ، واعتذر يوهنسد للظاهر الذي كان الآن كليل استعداداً لتأييده . وفضلاً عن ذلك ، كانت هناك شائعات بحملة صليبية جديدة أسفرت عن لم خيل المسلمين . وبعداً للظاهر يتوعد لعمه بالعدل<sup>(١٢)</sup>.

واستغل لبو الوضع ليساً لم روما مرة أخرى . وكان بطريق القدس الجديد والقب، وهو أسقف صيدا السابق ، ألبن العربية ، والبابا على استعداد لأن يمتنع لبو مغفرته شريطة أن يساعد في الحملة الصليبية التالية . وكان زواج جون (أوف برين) من ستيفاني إبنه لبو بمثابة تصديق على تحالف كرمبيا وعكسا . وفي عام ١٢١٦ م تدمير لبو دسيسية ناجحة لا شك وأن ساعد فيها الطريق بطرس ، تمكن بها من تهريب جنود إلى داخل أنطاكية واحتلال المدينة دون ضربة واحدة . وكان يوهنسد بعيداً في طرابلس، وسرعان ما استسلم جنود قلعة اللو . ولعب ريموند-روين أميرا على أنطاكية . وفي خضم الهجمة الغازية التي اتت لبو لهذه النتيجة الناجحة طرب طويلة، أعاد لبو أحسوا

(١١) Cahen, *op. cit.* pp.615-19.

(١٢) *Ibid.* pp. 619-21.

قلعة نجراس إلى فرسان المد. وأعاد كراشي الكنيسة اللاتينية في كيليكا. غير أنه فقد في مقابل نصره فلاحاً في الغرب وغير طوروس استولى عليها كغير قونية السلجوقي كيكافوس<sup>(١٢)</sup>.

ولقد سويت مسألة أنطاكية في الوقت المناسب تماماً للحملة الصليبية الجديدة . ذلك أن البابا إينوسنت، ومنذ تفرغ من أوهام الحملة الصليبية الرابعة ، دأب على بذل جهد لوقف لإيقاد الشرق . ولقد كانت هناك اضطرابات كثيرة أزعمته ؛ فكان عليه أن يجد حلاً لمشكلة عريضة ، ألا وهي مشكلة هراقلية جنوب فرنسا ؛ كما أن الخلل الشرس المتمثل في الحملة الصليبية الألبانية<sup>(١٣)</sup>، ورغم أنه هو الذي حرض عليها ومنح الصليبيين فيها غفراناً مماثلاً للغفران للمنسوح في الحرب ضد الكفرة، هذا الخلل الشرس آثار صعوبات بدوره . وفي ١٢١١م بشر حملة صليبية في أسبانيا رداً على غزو الوزير الناصر في دولة الموحدين لإقليم كانتيل الواقع في وسط أسبانيا الشمالي ؛ وسرر جهوده ذلك النصر الرائع الذي أحرزوه لاس لافاس دي تولوزوا في يولية ١٢١٢م عندما قضى على جيش المرفقي؛ وبدأت مرحلة جديدة لإعادة الغزو المسيحي. على أنه كان هناك القليل من الفرسان الذين أبدوا استعدادهم للسفر إلى الأراضي المقدسة . لقد حايث الإمتحانة الوحيدة للصلاة التي ليمت لإيقاد القدس من طبقة مختلفة تمام الاختلاف<sup>(١٤)</sup>.

#### ١٢١٢م : التبشير بحملة الأقطال الصليبية

في أحد أيام شهر مايو ١٢١٢م وبينما كان الملك فيليب الفرنسي يعقد بلاطه في

(١٢) Ibid., pp. 621-3.

(١٤) «الزعم: الألبانيسون Albigenses: هراقلية إدعوا في جنوب فرنسا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. كانوا يعتقدون أن المسيح كان ملاكاً له حبيبة وهي من ثم لم يعال الأمم ولم تحدث له قيامة، وأن الخلاص الذي جاء به ليس له وجود إلا في قوله. وأنكروا الأسرار المقدسة واعتقدوا أن البشر كانوا في كل شيء. ومن ثم اعتقدوا عقيدة أخلاقية ذات صرامة متطرفة، فأدانوا الزواج واستعمال اللبسات الحيوانية كلها. وقد أدانت جميع شعائير هذه الهرطقة من سنة ١١٦٥ قسماً، لكن الهرطقة انتشرت إلى أن غلب البابا إينوسنت الثالث. حملة صليبية عليهم فقصت بقسوة بقلع، وفي ١٢٣٣ غلب البابا غريغوري التاسع على الهككة التي نشأت في أرمينية باستعمال حاكمهم بصورة نهائية، وأعلن القرن الرابع عشر لم ين هُزم أثر.

(١٥) Fliche, *L'Église latine en France au XIII<sup>e</sup> siècle*, pp. 107-8, 112-37.

سانت دينيس، ظهر صبي من وعاء الغنم في غو الثانية عشرة من عمره يدعى ستيفن، وهو من مدينة كلوي الصغيرة في أوكريانية. وأحضر معه رسالة للملك، قال إن المسيح شخصياً أعطاهما له بعدما تجلى له وهو يرعى غنمه، وأمره أن يلعب ويشتر بمحبة صليبية. ولم يتأثر الملك فليب بالطفل وأمره أن ينصرف إلى منزله. لكن ستيفن، الذي أشعل الزائر العاصي جذوة حماسه، رأى نفسه الآن زعيماً منهما يقدر على النجاح حيثما فشل فيه الكبار. وموالات الأعرام الخمسة عشر الماضية كان الميشترون يتولون الريف يمتنون على حملة صليبية ضد المسلمين في الشرق أو في آسيا أو ضد هراقلقة لاغويونوك. ومن اليسر على صبي هستيري أن يصاب بعدوى الفكرة التي مفادها أنه يستطيع هو أيضاً أن يصبح مبشراً ويستطيع محاكاة بطرس الناسك الذي بلغت حركاته الدافقة مبلغاً أسطورياً خلال القرن الثامن. ولم يلبس من لابساة الملك، وبدأ يمشي في نفس مدخل دير سانت دينيس و يعلن أنه سوف يقود جماعة من الأمشال لإنتفاذ العالم المسيحي. ولأنه سوف يثقل الحجار أمامهم وسيحرقون، كما أمر موسى خلال البحر الأحمر، آمنوا إلى الأراضي المقدسة. وقد وهب فصاحة غير عادية، ومست لحواله قلوب الكبار، وحانه الأطفال زرفعات ملين نداءه. وبعد نجاحه الأول انطلق مرغلا في أنحاء فرنسا يستدعي الأطفال، ومضى كثيرون ممن تمولوا إلى عقيدته بضميريون في الأفاق للتشهير بنبأه عنه. وكان على المسيح أن يتحتموا في فيندوم في غضون نحو شهر لينطلقوا منها إلى الشرق.

وفي نهاية يولية احتشد الأطفال في فيندوم. وتحدث المعاصرون الذين ارتأوا عن ثلاثين ألف طفل ليس فيهم من يزيد عمره على اثني عشرة سنة. وبقينا كان هناك عدة آلاف منهم، جموعاً من كافة أنحاء البلد، البعض منهم رقيقون بسطاء تركهم أبائهم طواعية بذهبون في حملتهم العظيمة. بيد أنه كان هناك كذلك صبيان من أصل نبيل تسللوا من بيوتهم للإلتصام إلى ستيفن وأتباعه من "الأنبياء القُصُر" كما يسميهم المؤرخون؛ وكان الحشد ينقسم أيضاً فتيات وقليلاً من الفسائسة الشبان وثلة من الحجاج المسنين البعض منهم جذبه التقوى، والبعض الآخر زعماً جذبه الشفقة، والبعض بقينا للمشاركة في المذابح التي كانت تيسط عليهم كلهم كالنظر. وجاءت المجموعات عتشة إلى المدينة، مع كل منها قائد يحمل راية الحرب<sup>(١٦)</sup> وهي التي

(١٦) (الترجمة): راية الحرب: Oriflamme وهي علم فرنسا الملكي القديم عبارة عن راية حمراء بأحد طرفيها عدة شفرة لتبدل كسلة للهب. ومن معاني الكسلة أيضاً أي رمز بجهنم الشجاعة والتفاني في الحرب.

أخذها ستيفن شعرا الحمة الصليبية . ولم تسترعيهم المدينة ، فمسكروا في الحقول  
منازلها.

#### ١٢١٢م : الأطفال في مرسيليا

وبعد أن منح القساوسة الوردودون بركتهم ، وبعد إبعاد آخر الآباء القزوين ،  
انطلقت الحملة باتجاه الجنوب . وكانوا جميعا على وجه التريب يسرون على الأفعام  
لكن ستيفن أصبر على أن يكون له ما يليق برعيم الحملة من عربة مردانة برينة مرحة  
تعلوها لؤلؤة تحجب عنه أشعة الشمس ؛ وسار إلى جانب خيول يعلوها نساء الأطفال،  
وكل منهم على ما يكنى من الثراء تحت ثبلك حصانا . ولم يتمتع أحد من التي الملهم  
وهو يرتقل مسرعا ؛ بل على العكس عرسل وكأنه قديس ، وكانت حصلات من  
شعره وقطع من ملبسه تجمع كائنات لفيسة . وسلكوا الطريق الذي يحضى بحر تور  
وليون قاصدين مرسيليا . وكانت رحلة كلها آلام ؛ إذ كان الصيف شديد الحرارة  
بصورة غير عادية ، وكانوا يعتمدون في طعامهم على الصنقات في الوقت الذي لم يتحرك  
فيه الجفاف ما يفيض عن الحاجة ، فضلا عن ندرة المياه . ولقي الكثير من الأطفال  
حتفهم على جانب الطريق ، وعدل آخرون عن مواصلة الرحلة ومضوا يبيسون على  
وجوههم يحاولون العودة إلى ألعليهم . على أنه في نهاية الأمر وصلت الحملة الصليبية  
الصغيرة إلى مرسيليا.

واستقبل مواطنو مرسيليا الأطفال استقبالا طيبا ؛ إذ وجد الكثير بيوتا بيتون فيها،  
ولقام آخرون في الشوارع . وفي الصباح التالي اندلعت الحملة كلها إلى الرقأ لمساعدة  
البحر وهو ينفلق لمرامهم ، ولما امتعت المعصرة لملكهم مشاعر خيبة الأسفل الريرة .  
وتحول بعض الأطفال ضد ستيفن صالحين بأنه خنطهم وبدأوا ينقلسون على أعقابهم ؛  
لكن أغلبهم بقوا على شاطئ البحر ، آمين في كل صباح أن يابن لهم الرب . وبعد أيام  
قليلة ، وكما يروى في المأثور، عرض تاجران من مرسيليا هما هيو الحديدي ووليم  
الختير بعض السفن لتكون تحت تصرفهم وتنقلهم إلى فلسطين نلا مقابل ، فحيدا  
لثرب . فقبل ستيفن في شغف هذا العرض الشفوق . واستأجر التاجران سبع سفن  
ركبها الأطفال وكثرت . وانقضت ثمان عشرة سنة قبل معرفة أي خير عنهم.

وفي تلك الأثناء وصلت حكايها ما قام به ستيفن من تبشير إلى بلاد الرابن في  
التي لم يشأ أنقلها أن بقوتهم الأمر ؛ ذلك أنه بعد أسابيع قليلة من رحيل ستيفن في



حملته، شرع صبي يدعى نيكولاس من قرية في بلاد الراين يشير بنفس الرسالة أمام ضريح الملوك الثلاثة في كولونيا . وكشأن ستيقن ، أعلن أن الأطفال يستطيعون أن يأتوا بما لم يستطعه الكبار ، وأن البحر سوف يفلق عن طريق أمامهم . على أنه بينما كان للأطفال الفرنسيين أن يهزوا الأراضي المقدسة بالقوة ، كان للأطفال ألبانيا تحقيق هدفهم بتحويل الكفار عن دينهم . وكان نيكولاس ، شأنه شأن ستيقن ، على قدر من الفصاحة النظرية واستطاع أن يجد حواريين فصحاء ليحملوا تشيريه إلى أماكن أبعد ، أعلى وأسفل بلاد الراين . وفي غضون أسابيع قليلة تجمع جيش من الأطفال في كولونيا على لعبة الاستعداد للإطلاق إلى إيطاليا حيث البحر . وبدو أن الأطفال الألمان كانوا في متوسط عمري يزيد زيادة طفيفة عن مثيله لدى الأطفال الفرنسيين ، كما يبدو أن كان معهم عدد أكبر من الفتيات ؛ كما كانت هناك فصيلة أكبر من صبيان البلاء ، وعدد من المتشردين سيبي السبعة والمفرات.

وانقسمت الحملة إلى فريقين ؛ يتألف الفريق الأول، استادا إلى ما وراء المورخين، من عشرين ألف طفل يقودهم نيكولاس نفسه . وانطلق هذا الفريق أعلى نهر الراين إلى بازل ثم عبروا غرب سويسرا ، مروا بجيف ليبر جبال الألب من عمر جبل سيبي . وكانت رحلة شاقة على الأطفال فكانت حساباتهم فادحة ؛ إذ أن أقل من ثلث المجموعة التي غادرت كولونيا ظهرت أمام أسوار جنوا في نهاية أغسطس وظلوا إيواءهم ليلة واحدة داخل أسوارها . وكانت السلطات في جنوا على استعداد للترحيب بالاحتجاج لول الأمر ، لكن السلطات عندما عاودت التفكير ارتابت في وجود موامرة ثانية؛ فسمحوا لهم ببقاء ليلة واحدة فقط، ومن شاء منهم في الاستقرار بصورة دائمة في جنوا لقي الترحيب. فشرع الأطفال بالرضا، وهم يتوقعون انفلاق البحر أمامهم في الصباح التالي . على أن البحر في الصباح التالي كان متغلقا أمام صلاتهم بنفس قدر انفلاقه للفرنسيين في مرسيليا . وفي عظم حيرة الأمل التي داعمت الأطفال قبل الكثير منهم على الفور عرض سلطات جنوا وأصبحوا مواطنين جنويين ، ونسوا رحلة الحج . وفيما بعد زعمت عدة عائلات قطعة الستوى أنها من سلالة هذه الفجرة الأجنبية . يد أن نيكولاس والعديد الأكبر وصلوا رحلتهم ؛ ولسوف يفلق البحر أمامهم في مكان آخر . وبعد أيام قليلة وصلوا بيزا حيث وافقت سلطنتان قاصدتان فلسطين على استئجاب عدد من الأطفال ، وكنوا البحر وربما وصلوا إلى فلسطين ولكن لا يعرف شيء عن مصيرهم. ومع ذلك ، كان نيكولاس ما يزال ينتظر أن تحدث معجزة ، وواصل سيره المجهد مع أتباعه المخلصين إلى روما ، حيث استقبلهم البابا البنوسنت

الذي تحركت مشاعره لتوابعهم وإن كان قد شعر بالخروج من حماقتهم . وفي صرامة تغلب عليها الشفقة قال لهم إنهم ينبغي الآن أن يعودوا إلى بلادهم ، وعندما يشعروا عن الطرق عليهم عندئذ الوفاء بعهودهم والذهاب للحرب من أجل الصليب .

#### ١٢١٢م : مصر الأطفال

ولا نعرف سوى القليل عن رحلة العودة . ولم يستطع الكثير من الأطفال ، وخاصة الفتيات ، مواجهة حرارة الطريق الملتبسة وتلقفوا في بعض المدن أو القرى الإيطالية . ولم يكن هناك سوى مجموعة صغيرة من الثائمين المائمين الذين وجدوا طريق العودة إلى بلاد الرافدين في الربيع التالي . وربما لم يكن نيكولاس من بينهم . غير أن الآباء الغاضبين الذين هلك أطفالهم أمسوا على الماء القبيح على أبيه الذي يبدو أنه شجع الصبي على الخروج مدفوعا بالخجل . فأخذوه وشقوه .

ولم تكن المجموعة الثانية من الحجاج الألمان أكثر حظا من سابقتها . فقد ارتفعت إلى إيطاليا خلال سويسرا الوسطى ثم خلال سانت جوتارد وبعد مشاق ضيقة وصلت إلى البحر في أوكونا . وعندما فشل البحر في الانفلاق لم تحركوا بيده أسفل الساحل حتى براندزي ، حيث وجد القليل منهم بعض السفن المبحرة إلى فلسطين وقبيل نزلهم ؛ لكن الباقين عادوا وبدلوا بموالمس البطي في طريق العودة مرة أخرى . ورجعت مجرد حفنة منهم إلى منازلهم أخيرا .

وبرغم حالتهم المزعجة البتة ، ربما كانوا أكثر حظا من القرنسبين . ففي عام ١٢٣٠م وصل أحد القساوسة إلى فرنسا من الشرق ومعه حكاية غريبة ، وقال إنه كان أحد صغار القساوسة الذين صحبوا سنيتين إلى مرسيليا ، وركب معهم السفن التي قدمها التاجران . وبعد أيام قليلة من الإنهار واجههم جو سيئ وتغطست سفيتان على جزيرة سان بييرو الواقعة أمام الركن الجنوبي الغربي لكردينيا ، وغرق جميع الركاب . أما السفن الخمس التي نجت من العاصفة فسرعان ما وجدت نفسها وقد حاصرها أسطول للعرب قادم من أفريقيا ؛ وعلم الركاب أنهم قد جيئ بهم هناك بناء على ترتيب مسبق لكي يباعوا في الأسر . وأخذوا جميعا إلى بوجي على الساحل الجزائري حيث تم شراء الكثير منهم فور وصولهم وأمضوا ما بقي من حياتهم في الأسر هناك . وشحن الباقون ، ومن بينهم النسي الصغير ، على سفن ذهبت إلى مصر حيث كانت أسعار عبد الفرنج أفضل ؛ وعندما وصلوا إلى الإسكندرية اشترى حاكمها الجزء الأكبر

من الشحنة للعمل في ضيقه . واستناداً إلى ما رواه القس ، كان هناك نحواً من سبعمائة منهم لا يزالون على قيد الحياة . وأعدت مجموعة صغيرة إلى أسواق الرقيق في بغداد ، حيث استشهد ثمانية عشر شخصاً منهم لرفضهم الدخول في الإسلام . وكان القساوسة وقليولون من المتعلمين هم الأكثر خطراً ، إذ كان حاكم الإسكندرية ، وهو الكامل ابن المعادل ، مهتماً باللغات والآداب العربية ، فاستدركهم وأبناهم عنده كمؤججين ومدرسين وأمناء سر ، ولم يحاول أن يحولهم إلى عقيدته . وتلقوا في القاهرة في أسر مريح ، وفي نهاية المطاف أطلق سراح هذا القس بحفره وسمح له بالعودة إلى فرنسا . وأعجاب على أسئلة الآباء فأللا لهم كل ما كان يعرفه ، ثم إنه اختفى اختفاءً غامضاً . وهناك قصة أخرى لاحتلة تظايق قصة التاجرين الشريرين في مرسيليا بشاحرين شقفاً بعد ذلك بسنوات قليلة لمحاولة انتطاف الامبراطور فريدريك نيابة عن العرب ، وهذا عوقب في النهاية على ما اتفوا من جرائم<sup>(١٧)</sup>.

لم يكن الأطفال الصغار هم الذين سيقبلون القدس . إذ كان لدى البابا إينوسنت آراء أوسع وأكثر واقعية ، فقرر عقد مجلس كبير للكنائس في روما عام ١٢١٥م لتنظيم كافة الشؤون الدينية للعالم المسيحي ، وقبل كل شيء ينبغي اندماج الكنيسة اليونانية . وكما كان يوده أن تكون قد انطلقت حملة صليبية بحلول ذلك الوقت ، فطوال عام ١٢١٦م ومنذ روبرت (ألف كورسون) بحرب فرنسا ومعه الأوامر بالتشغل في قول من يأخذ الصليب ، إذ كانت الضرورة بالغة . وعقد المندوب أوامر سيده بتماس مفرط . وسرعان ما شرع النبلاء الفرنسيون في الكتابة للكنائس قائلين إن ميشوري المندوب البابوي أغنى أتباعهم من اليهود التي فطموها على أنفسهم ، وأن هناك جمع سخيف من اللسطين والأطفال وذوي الجذام وذوي العرج والنساء وذوي السمعة السيئة، قد تمسوا للحرب المقدسة . وأجر البابا على كبح جماح روبرت ، وعندما انتصح المجلس اللاتواني<sup>(١٨)</sup> لعام ١٢١٥م، لم تكن هناك حملة صليبية حاضرة بعد

(١٧) للإطلاع على قصة الحملة الصليبية للأطفال انظر: Rohnich, 'Die Kinderkreuzzug' in *Historische Zeitschrift*, vol. LXXXVI, Alphonse, 'Les Croisades d'Enfants' in *Revue de l'Histoire des Religions*, vol. LXXIII, Munro, 'The Children's Crusade' in *American Historical Review*, vol. xix, Winkelmann, *Geschichte Kaiser Friedrichs des Zweiten*, ٤, pp. 221-2. *Annales Stodennes (M.G.H. Scriptores*, vol. xvi, p. 355).

(١٨) (القوس) : نسبة إلى كنيسة القديس جون لاتيوانوس St. John Latran. أما كاتريفة البابا بالقدوسه أنطوني روما . وترجع نسبها هذا المكان إلى اسم الأسرة الرومانية (Plauti Laterani) التي كان قصرها يتخذ نفس التوقيع

للإطلاق . وفي الجلسة الأولى تحدث البابا نفسه عن ورسلة القدس ، وتهنئ بطريق القدس مناشدا المجلس بتقديم العون . وسارع المجلس إلى تأكيد التزامها والمغفرة المقرر منحها للصليبيين وإلى الترتيب لتمويل الحملة التي تقرر أن تتجمع في صقلية أو أبوليا وتبحر إلى الشرق يوم أول يونيو ١٢١٧م<sup>(١٩)</sup>.

#### ١٢١٦م : موت البابا إينوسنت الثالث

واستثار المجلس نشاط الكنيسة . فخلال ربيع عام ١٢١٦م انطلق المبشرون في سائر أنحاء العالم المسيحي الغربي ، وإلى أماكن بعيدة كعيد ايرلندا واسكتلندا . وأعلن علماء اللاهوت البارزون من دكاترة جامعة باريس أن من يأخذ الصليب ثم يحاول الاتصال من الوفاء بعهدته فإنه إما يرتكب إثما عينا . وانتشرت الرواية الشعبية عن صلبان تسبح في الهواء وزوج لها بدعاية ضخمة . وراودت الآمال إينوسنت . إذ لاحظ أن الأعرام التي مقدارها ٦٦٦ عاما المحصنة في سفر الرؤيا للوحش قد انقضت . لقد انقضت في الواقع ستة قرون ونصف على مولد محمد . ولقد كتب إلى السلطان العادل يمانر من المقاب الإلهي الآتي وشبهه على التعليل عن القدس بصورة سلمية وما زال في الوقت متسع . غير أن نقاشه كان سابقا بعض الشيء لأوانه . إذ كتب له يوحنا ، راهب برمونزي ، رسالة سرية يقول فيها إن نبله فرنسا يتعاملون آراء علماء اللاهوت من دكاترة باريس ، وأنه لا بد وأن يكون هناك عيب ما يتصف بالتسوية للمحافظة على ما قلعه دوقات برصاندي والبرون من عهد على أنفسهم . كما نصح في حكمة عدم الجمع بين الفرنسيين والألمان في حملة واحدة ، إذ أن الأمتين لا تعاونان معا تعاوننا متناقضا . بيد أن العوام من قراء الناس كانوا يأخذون الصليب في حماسهم ولا يجب تثبيت همهم بالتأخير.

وفي شهر مايو ١٢١٦م ذهب البابا إينوسنت إلى يروجيا في محاولة لإنهاء العداء الطويلة بين جنوا وبيزا . وهناك ، وبعد مرض قصير ، مات يوم ١٦ يوليو . وقبيلة هي اليهود البابوية التي كانت أكثر روعة وأكثر انتصارا من الناحية الفقهية . ومع ذلك ، لم تحقق قط أحر طموحاته ألا وهي استعادة القدس . وبعد يومين من وفاته ، انتخب

(١٩) 156-216. Flückiger, op. cit. pp. 156-216. Donovan, *Pelagias and the Fifth Crusade*. حيث ورد مقال يتصف بالعادة ومركب توليفيا جيدا ، وإن كان متحيزا . شبارا خليفة الصالح بيلاجيوس .

الكاردينال الحسن سافلي لمنصب البابا باسم هونوريوس الثالث<sup>(٢٠)</sup>.

وتولي هونوريوس في شلف برنامج سلقه . بعد أيام قليلة من استخلافه ، كتب إلى الملك جون في عكا يخبره بأن الحملة الصليبية آتية<sup>(٢١)</sup>. وكان جون يزداد قلقا على قلق؛ إذ كان من المقرر أن تنتهي هدنته مع العادل في العام التالي . كما كتب هونوريوس إلى ملك أوريا فاستجاب له القليل منهم. وفي الشمال العبد أعيد الملك إلى الثاني ملك الدروج الصليب ، لا تشي إلا لموت في الربيع التالي ؛ وعندما خرجت الحملة الإسكندنافية كانت تالفة فشان<sup>(٢٢)</sup>. وكان الملك أندرو الثاني ملك هنغاريا قد أعاد الصليب فعلا ، لكن إبنوست أهلاء من الوفاء بهنده في وقت سابق بسبب الحرب الأهلية قدائرة في بلده ، والآن أظهر الحماس، لكنه كان لديه مأرب آخر؛ فملكه كانت من ناحية أمها إبنه أعت الامبراطور اللاتيني هنري امبراطور القسطنطينية الذي كان أبوا، ولذا دأبت الأعمال هنري في الميراث . على أنه عندما مات هنري في يولية ١٢١٦ م اختير في مكانه أبوها بطرس (أوف كورتشاي)؛ وبدأ خمس أندرو يعتمد ، لكنه وافق أعوا على أن يكون جيشه على أعبه الإستعداد بحلول الصيف التالي<sup>(٢٣)</sup>. أما في بلاد الرابن السفلى فكانت هناك استجابة جيدة للتشجيع ؛ وكان البابا يأمل في أسطول كبير محتل بالمفريزيين<sup>(٢٤)</sup> على أنه كان هنا تأخير مرة أخرى . كما لم تكن الأنباء الآتية من فلسطين مشجعة كثيرا ؛ إذ أن خمس (أوف فيزي)، الذي أرسل هناك أسفقا لعمكا بتعليمات لإثارة اللاتينيين الفلبين، أرسل تقريرا مريرا عما وجدته . إذ أن المسيحيين الرومانيين بكرهون اللاتين ويفشلون الحكم الإسلامي ، بينما كان اللاتينيين أنفسهم يعيشون حياة كسولة مرفقة خليعة ، وكانوا شرفين كلية . ورجال الدين فاسدون بملاء أصحاب مكائد . ولا أحد حذير بالشاء سوى الأنظمة الدينية العسكرية ، على الرغم من أن المستعمرين الإيطاليين ، الذين كانوا على ما يكتفي من الحصانة حيث توعدوا الإعتدال في نفقاتهم ، احتفظوا ببعض الأنشطة والأعمال ؛ غير أن مشاعر الغيرة المتبادلة بين المدن الإيطالية الكبيرة البندقية

(٢٠) Filche, op. cit. p. 212.

(٢١) *Regesta Honorii Papae III* (ed. Pressat), nos. 1, 673, 1, pp. 1, 1178-80.

(٢٢) *Regesta Honorii Papae III*, no. 399, 1, p. 71.

(٢٣) Innocent III, letters, xv, 224 (M.P.L. vol. cxxvi, col. 757); Theiner, *Vetera Monumenta*, 1, pp. 5-6.

(٢٤) *Regesta Honorii Papae III*, no. 885, 1, pp. 149-50.

وجنوا وبرزوا حالت دون إمكان التعاون مع بعضها البعض . وفي واقع الأمر، وكما اكتشف الأسقف حيس ، لم يكن فرنج أرترمي يرغبون في حملة صليبية جديدة ؛ إذ أن انقضاء عقدين من الزمان زاد من رصاصهم المادي . ومنذ وفاة صلاح الدين لم يُظهر المسلمون ميلا للمعتوان ، إذ كانوا هم أيضا يستفيدون من التجارة الأحسن في الشرايد ، فقد كانت البضائع الآتية من داخل البلاد محلاً لرصصة عكا وصور، ويشهد القصر الذي بناه جون (أوف ايلون) في بيروت على الرضاء المتحد . وكانت هناك مستعمرات إيطالية أُنشئت عهارة في مصر ؛ ومع تزايد القوة الشرائية لأوروبا الغربية تزايد مطردا ، كانت التوقعات رائعة لتجارة البحر المتوسط . على أن ذلك كله كان يتوقف بصورة مقلقلة على الحفاظ على السلام<sup>(٢٥)</sup>.

#### ١٢١٧م : تأخر الصليبيين

وكان البابا هونوريوس يفكر بطريقة أخرى . إذ كان يعتقد الأساقفة على أن تحرير حملة عظيمة من صقلية في صيف عام ١٢١٧م . غير أنه عندما حل الصيف ، وبرغم وصول شتى مجموعات الفرسان الفرنسيين إلى النواحي الإيطالية ، لم تكن هناك سفن . ووصل جيش ملك صقلية إلى صالاتو في دالماتيا في شهر أغسطس ، وانضم إليه هناك الدوق ليوبولد السادس دوق النمسا وحيثه<sup>(٢٦)</sup> . ولم يسل الأسطول القريب إلى البرتغال إلا في يولية ، وبقي جزء منه في لشبونة . ولم يبحر الباقي إلى حابشا إلا في أكتوبر ، وهذا كان الوقت متأخرا للغاية للإنتفاضة إلى فلسطين إلى أن ينقضي الشتاء<sup>(٢٧)</sup> . وفي نهاية يولية أمر البابا الصليبيين بالتجمع في إيطاليا وصقلية للإنتفاضة إلى قبرص ؛ على أن وسيلة النقل كانت لا تزال غامضة . وأخيرا وفي أوائل سبتمبر وجد الدوق ليوبولد سفينة في صالاتو تعمل لجماعته الصغيرة إلى عكا ، ولم تستغرق رحلته سوى ستة عشر يوما . ولجعه الملك أندرو بعد حوالي اسبوعين . غير أن أبناء صيلتان لم

(٢٥) James of Vitry, *History of Jerusalem* trans. Stewart, P.P.T.S. vol. xi, pp. 56-91.

(٢٦) *Scriptores Rerum Hungaricarum*, Thomas Spalatensis, *Historia Salonitana* III, p. 573.

(٢٧) *Gesta Crucigerorum Rhenavorum*, pp. 29-34; *De itinere Frisum*, pp. 59-68 hricht, *Quoniam Belli Sacri Scriptores Minores* both in

يسمحوا له بأن يأخذ أكثر من سلبتين ، ولذا بقي سواد جيشه هناك<sup>(٢٨)</sup>. في ذات الوقت تقريبا هبط الملك هيو الفرنسي في عكا مع ما استطاع جمعه من جنود<sup>(٢٩)</sup>.

كان الخصاص سببا في سوريا ذلك العام ، وبات من الصعب إمداد جيش متعطل . وعندما وصل للوك ، أوصى جون (أوف برين) بحملة على القبر . وفي يوم الجمعة ٣ نوفمبر انطلق الصليبيون من عكا وساروا شمال سهيل برزخيل . وبرغم أن أعدادهم لم تكن كبيرة ، إلا أنها كانت أكثر من أية أعداد شوهدت في فلسطين منذ الحملة الصليبية الثالثة . وكان العادل قد جاء ببعض الجنود إلى فلسطين عندما سمع بأن المسيحيين يتجمعون ، غير أنه لم يكن يتوقع قزوا مكثرا هكذا . كانت قواته أقل عددا ، ولذا انسحب أمام الصليبيين عند تقدمهم باتجاه بيسان ، مرسلًا ابنه الملقب بتغطية القدس ، بينما اضطر هو في عجلون مهيأ للتصدي لأي هجوم على دمشق . ولم يكن لخارقه ما يورثها ؛ إذ كان الجيش المسيحي يقتصر إلى النظام ، فالملك جون يعتبر نفسه القائد الأعلى، لكن الجنود النمساويين المجراريون كانوا يعتبرون قائدهم الملك أنثرو فقط ، والمبارزة الملك هيو ، بينما كانت الأنظمة الدينية العسكرية تطيع قوادها لاغير . واحتل المسيحيون بيسان وخربوها ، ثم راحوا يهيمون على وحوهم بلا هدف غير الأردن وأعلى الشاطئ الشرقي لبحر الجليل ، والتفوا حول كفرناحوم (الكثيسة) ثم عادوا خلال الجليل إلى عكا . وكان شافاهم الشاغل هو الحصول على الممتلكات الدينية ؛ فانهج الملك أنثرو أن يحصل على أبريق المياه التي استخدمت في حفل الزواج في كفر كانية (في الجليل)<sup>(٣٠)</sup>.

#### ١٢١٨م : الملك أنثرو يعود إلى بلاده

ضجر الملك جون وخطط حملة لنفسه لتدمير الحصن الذي شيده المسلمون فوق جبل الطور . ولم ينضم إليه هيو ولا أنثرو ، ولم ينتظر الأنظمة الدينية العسكرية . وفي الثالث من ديسمبر فشل كوك هجوم له على الحصن رغم أن الحامية كانت على استعداد

(٢٨) Regesta Honorii Papae III, no. 672, l.p. 117; Thomas Spalatensis, p.574; Annales Claustroneoburgenses (M.G.H. Scriptores, vol ix, p.622).

(٢٩) ii, p. 322. Estoire d'Eracles,.

(٣٠) Ibid pp. 323-4; Oliver, Historia Davianox p.165; Johannes Thurocz, Chronica Hungarorum (Scriptores Rerum Hungaricarum, vol.i, p.149).

للتسليم في الواقع . وعندما وصلت الأنظمة الدينية العسكرية بعد ذلك بيومين كانت هناك محاولة ثانية للهجوم ، لم تكن أفضل من سابقتها . ومرة أخرى انسحب الجيش إلى عكا<sup>(٣١)</sup>.

وفي مستهل العام الجديد تقريباً أُرْسِمت مجموعة صغيرة من المنحاريين ، على خلاف نصائح الفيليين وسلا إذن من ملكها، الخروج للإغارة والسلب في البقاع وكادت أن تهلك عن آخرها في عاصفة ثلجية عند عبورها لبنان<sup>(٣٢)</sup>. بينما سار الملك أندرو مع الملك هيو إلى طرابلس حيث كان يوحنا الرابع ، أمير أنطاكية السابق، الذي ترمل حديثاً من زوجته الأولى بليسانس (أوف جيل)، يحتفل بزواجه من ميليند أخت هيو غير الشقيقة . وهناك مات هيو فجأة في العاشر من يناير ، تاركاً عرش قبرص لطفله هري الذي لم يتجاوز شهره الثامن ، تحت وصاية أرملة كليس ابنة القدس<sup>(٣٣)</sup>. وعاد الملك أندرو إلى عكا وأعلن عن رحيله إلى أوروبا ؛ لقد أوفى بعهده وأضاف مؤخرًا إلى مجموعة آثاره التي جمعها ركني القدس ستيفن ، وقد حان الوقت للعودة إلى وطنه . وعينًا حاول بطريرك القدس أن يثنيه عن عزمه بالهجرة والتهديد . وأخذ جنوده باتجاه الشمال مارًا بطرابلس وأنطاكية إلى أرمينا ومنها إلى القسطنطينية بعد أن أخذ أمان المرور من السلطان السلجوقي . إن حملته الصليبية لم تحقق شيئاً<sup>(٣٤)</sup>.

وتخلّف ليوبولد دوق النمسا ؛ إذ كان يفتقر إلى المال ، واضطر إلى أن يقترض خمسين ألف بيزانت من حوى إمبريako (أوف جيل)، غير أنه كان على استعداد لزيد من العمل من أجل الصليب . واستعان به الملك جون للمساعدة في تقوية تحصينات قيسارية ، بينما شرع فرسان المعبد وفرسان التيرتوتون في تشييد قلعة ضخمة في عثليت جنوبي جبل الكرمل ، قلعة الحجاج . وفي ذات الوقت هدم العادل حصنه الواقع فوق

(٣١) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 324-5; Oliver, *Historia Damiatina*, pp. 165-7; James of Vitry, *History of Jerusalem*, p. 119; Abu Shama, ii, pp. 163-4.

(٣٢) *Ibid.* pp. 164-5; Oliver, *Historia Damiatina*, pp. 167-8.

(٣٣) Ernoul, p. 412; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 325, 360; *Genes des Chiprois*, p. 98.

(٣٤) Oliver, *Historia Damiatina*, p. 168; James of Vitry, *Epistola*, iii (ed. -Leich), *Zeitschrift für Kirchengeschichte (Z.K.G.)*, vol. xv, pp. 568, R. Johannes Thewroz, loc. cit. 70: حمل أندرو أيضاً على رأس القديسة كيركوت ، وفيه أقيمت للقديس توماس والقديس بارتولوميو وجوز من عشاء «سروك».



حبل الطور ، فهو عرضة سهلة للهجوم وليس حديراً بالصيانة<sup>(٣٥)</sup>.

وفي السادس والعشرين من أبريل ١٢١٨ وصل إلى عكا النصف الأول من أسطول الفريزيين ، وبعد أسبوعين وصل النصف الذي كان قد أمضى الشتاء في لشبونة . وكانت هناك أنباء بأن الصليبيين الفرنسيين المحتشدن في إيطاليا على وشك التحاق بهم . وعلى الفور أعد الملك جون بالنصيحة حول أفضل سبل الانتفاخ بالقادمين الجدد . ثم بنى أحد فط أن الملك رينشارد أصبح بالهجوم على مصر ، كما أن الخلق اللاهوتي ذكر مصر باعتبارها الهدف الرئيسي لأية حملة صليبية . فإذا أمكن طرد المسلمين خارج وادي النيل ، فإن يلقنوا أعصب قلوبهم وحسب ، وإنما لن يتمكنوا من الاحتفاظ بأسطول في شرق البحر المتوسط ، لا ولن يستطيعوا الاحتفاظ بالقدس طويلاً ضد هجوم كثافة يأتي من عكا ومن السويس . وتوفر السفن الفريزية تمت تصرف الصليبيين ، أصبح لديهم الوسيلة الآن لشن هجوم كبير على الدلتا . وبلا تردد ، تقرر أن يكون الهدف الأول هو ميناء دمياط ، مفتاح النيل<sup>(٣٦)</sup>.

أصبح السلطان العادل شياً مستأناً الآن يرد أن يقضي سنواته الأخيرة في سلام . ولكن كان لديه ما يثقله في الشمال ، وقد مات ابن أحمه الظاهر صاحب حلب عام ١٢١٦م تاركاً مقلداً كخليفة له يدعى العزيز ، والخني طغرل قائماً بالوصاية . وبرز أمر الظاهر - الأفضل - أكثر أبناء صلاح الدين من تقاعده في ميساط مطالباً بالثروات ومستجداً بسلطان قوية السلجوقي كيكاوس ١ وكان صلاحقة الأناضول الآن في ذروة بأسهم ، ولم تعد كذلك بيزنطة ؛ وكان أميراطور ليقية في بالغ الشغالة يحارب القروج لإزعاجهم ؛ وقد تلاشت قوة الدانشمند ، واستقر رعاياهم الآن طائعين ، وبدأ الرعاء يعود إلى شبه الجزيرة . وفي باكورة ١٢١٨م زحف كيكاوس والأفضل على أراضي حلب وتقدموا نحو العاصمة . وكان طغرل الرصي يعلم أن العادل مهتد من الصليبيين ، فاستنجد بأبن العم الشاب لسيده ، الأشرف صاحب المراق ، وهو ثالث أبناء العادل . وهزم الأشرف الجيش السلجوقي هزيمة نكراء بالقرب من براحة ، واتسحب الأفضل عائداً إلى ميساط ، واضطر صاحب حلب إلى الإصراف بالأشرف سيداً أعلا له ؛ غير

<sup>(٣٥)</sup> *Estoire d'Eracles*, II, pp.325-6; Oliver, *Historia Damiatina* p. 169; Abu Shama, II, pp.164-6.

<sup>(٣٦)</sup> *Gesta Crucigerorum Rhemenorum*, pp. 37-8; *De Jheri Frimorum*, pp.69-70; Ernoul, pp. 414-15; James of Vitry, *loc. cit.*; Oliver, *Historia Damiatina*, p. 175. انظر 36 n., 54.

أن السلاجقة ظلوا بمثابة تهديد إلى أن مات كايكافوس في العام التالي عندما كان ينشط للتدخل في نزاع على الاستعلاء في الموصل . ويمكن ذلك الأشراف من تعزيز قوته ، ومن أن يصبح ندا خطيرا لإصوته في الجنوب<sup>(٣٧)</sup>.

وحتى آخر لحظة يبدو أن العداء كان يأمل في ألا تبلغ الحفافة بالقرنح حدا يقطعون فيه السلام ، وقد شاركه آمله إبنه الملك الكامل وإلى مصر . وكان الكامل على علاقة ممتازة مع الباقية الذين وقع معهم معاهدة تجارية عام ١٢٠٨م. وفي ١٢١٥م كان في مصر مالا يقل عن ٣٠٠٠ تاجر أوروبي . وأدى وصول اثنين من اللوردات بصورة مفاجئة إلى الإسكندرية في ذلك العام إلى إثارة مشاعر الحيف لدى السلطات التي اعتقلت مؤقتا الأوروبيون كلهم ، غير أن العلاقات الحسنة قد استعيدت ؛ وفي عام ١٢١٧م استقبل الوال سفارة بندقية جديدة استقبالا ودودا . ولم يضأر المسلمون من تسكع الحملة الصليبية غير الفعالة في عام ١٢١٧م. وما كانوا يظنون بوجود أي خطر الآن.

#### ١٢١٨م : الصليبيون ينزلون إلى البر في مصر

في عيد الصعود<sup>(٣٨)</sup> ، الرابع والعشرين من مايو ١٢١٨م ، ركب الجيش الصليبي السفن الفرزية في عكا بقيادة لللك جون ، وأبحر هابطا إلى عثايت لجمع المزيد من المؤن ؛ وبعد ساعات قليلة رفعت السفن مراسيها ، لكن الرياح هددت ؛ وتمكن مجرد القليل منها من مغادرة المرسى والإبحار إلى مصر ، فوصلت أمام مصب النيل في دمياط في السابع والعشرين من الشهر ، وأقيمت المراسي هناك انتظارا لرفاقهم . ولم يخامر الجنود بادئ الأمر محاربة للفرط إلى البر لعدم وجود ضابط كبير معهم ، غير أنه في التاسع والعشرين من الشهر ، ودون أن يظهر أي أسطول في الأفق ، خرض رئيس اساقفة نيقوسيا ، إليومستورجوس ، الجنود على قبول الكونت سيمون الثاني (أوف ساربروك) قائدا لهم ، وعلى اقتحام الضفة الغربية لمصب النهر ؛ ولم تكن هناك معارضة عادة ، وكادت العملية أن تكتمل عندما ظهرت في الأفق كشرعة أسطول الصليبيين الرئيسى . وسرعان ما دخلت السفن عبر حاسر الأمواج ، وهبط الملك جون ودوق

(٣٧) أنظر: Cabon, *Le Syrie du Nord*, pp. 624-8.

(٣٨) (والترجم) : عيد الصعود Ascension Day ذكرى صعود المسيح إلى السماء في اليوم الأربعين بعد تجلده (في العطلة السبعة).

النساء والسادة العظام للأطعمة الدينية العسكرية الثلاثة إلى الشاطئ<sup>(١٠٩)</sup>.

تقع دمياط على الضفة الشرقية للنهر وعلى مسافة ميلين منه، تسمى ظهرها بحيرة النزالة. وكما أظهرت بحيرة القرنج عام ١١٦٩م، ليس في الإمكان مهاجمتها بصورة تصدق بالكفاية إلا عن طريق الماء والبر معا. وكان للصليبيون في عام ١١٦٩م قد سدوا سلسلة بمرض النهر أسفل المدينة قليلا من الضفة الشرقية إلى برج على جزيرة ملاصق للضفة الغربية، فسدت بذلك الحيز الوحيد الصالح للملاحة؛ وأقاموا جسرا من القوارب خلف السلسلة. وحدد الصليبيون هذا البرج على أنه أول هدف لهم.

وعندما أيقن المسلمون أن الحملة الصليبية موجهة ضد مصر، سارع العادل بتجنيد جيش في سوريا، بينما سار الكامل الجيش المصري الرئيسي من القاهرة باتجاه الشمال وعسكر في العديلية جنوب دمياط بأسيال قليلة. بيد أنه لا يملك ما يكفى من الرجال والسفن لمهاجمة مواقع المسيحيين برغم تفوية البرج. وفي نهاية يولية فشل أول هجوم جاد على الحصن، وعندئذ اقترح أوليفر (أوف بادربون)، وهو مؤرخ الحملة بعد ذلك، صنع وسيلة جديدة تحتمل هو وأحد أبناء جلدته نكاليها. وهي عبارة عن برج صني على سفيتين مربوطتين معا، ومغطى بالجلود ومنشئ فيه تسلالم والأكر أصبح في الإمكان «هجوم الحصن من النهر ومن الشاطئ أيضا»<sup>(١١٠)</sup>.

وفي يوم الجمعة السابع عشر من أغسطس، أقام الجيش المسيحي صلاة شعاعة مهيبة، وبعد أن حوّل في عصر الرابع والعشرين، بدأ الهجوم. وبعد ذلك بأربع وعشرين ساعة تقريبا، وبعد قتال شرس، تمكن الصليبيون من تثبيت أنفسهم فوق الإستحكامات، واندفعوا إلى داخل الحصن. وقامت الحامية بلا توقف إلى أن بقي من رجالها مائة رجل على قيد الحياة، ثم استسلمت. وكانت الأسلاب للوحدة في الحصن وفيرة، وأقام المتصورون جسرا صغيرا من القوارب لنقلها إلى الضفة الغربية. ثم إنهم قطعوا السلسلة وهدموا جسر القوارب الذي يمر القري الرئيسي، وباتت سفنهم قادرة على الإبحار فيها حتى أسوار دمياط<sup>(١١١)</sup>.

(١٠٩) James of Vitry, *History of Jerusalem*, pp. 118-19; Oliver, *Historia Damiatina*, pp. 175-7; *Gesta Crucigerorum Rhemonorum*, pp. 38-9; *Ennio d'Ercles*, II, pp. 326-7.

(١١٠) Abu Shama, II, p. 165; *Histoire des Patriarches d'Alexandrie*, trans. Blochet, pp. 240-1; Oliver, *Historia Damiatina*, pp. 179-82.

(١١١) Oliver, *Historia Damiatina*, pp. 182-4; *Gesta Crucigerorum Rhemonorum*, p. 40.

كان العادل مريضا في دمشق عندما وصلته آباء سقوط الحصن بعد أيام قليلة . وكان قد علم انه أن إنه الملقم قد استولى على قيسارية ودمرها ، غير أن صدرة الكارثة في دياط كانت فوق احتماله ، فمات في الحادي والثلاثين من أغسطس وهو يناهز الخامسة والسبعين . وكان صلاء الدين ، كما كان الصليبيون يسمونه ، ينتظر إلى شخصية أخيه صلاح الدين المرموقة ، وقد أظهر تعامله مع أبناء أخيه صلاح الدين نورا من الحياة والحيث . بيد أنه حافظ على وحدة الإمبراطورية الأيوبية وكان حاكما ذا اقتدار وتسامح وعجا للسلام . وكان في تميم الصليبيون دائم الطيبة وشرفا ، ولقد حاز اعجابهم واحترامهم على الدوام . وولعه في سوريا ابنه الأصغر الملقم وفي مصر ابنه الأكبر الكامل<sup>(١٦)</sup>.

لم تكن كارثة دياط كارثة ضخمة على النحو الذي كان يشاء العادل . فلو أن المسيحيين وصلوا الغرب وهاجموا دياط من قورهم ، فرما سقطت المدينة ، لكنهم بعد استيلائهم على الحصن ، ترددوا وقرروا انتظار التعزيزات . وعبد الكثير من القريزيين إلى وطنهم ، لا لشيء إلا ليعاقبوا على تنكركم للقضية بفضان كاسح اكتسح قريزيا في اليوم التالي لوصوفهم هناك . وعرف أنك أن الحملة اليابسة التي طال التخطيط لها قد غادرت إيطاليا فعلا . ولقد كان هناك تأخير مستمر ، ولكن البابا هونوريوس تمكن في نهاية الأمر من تجهيز أسطول بتكلفة ثمانية وعشرين ألف مارك فضي لنقل الجنود المتفرجين لما يزيد على عام في برنديزي . وأثر عليهم الكاردينال بيلاجيوس (أوف سانت لوتشيا)<sup>(١٧)</sup>.

#### ١٢١٨م : وصول الكاردينال بيلاجيوس

وفي ذات الوقت تقريبا كان ليويلان فرنسيان هما هوري كوتت بقرس، وهو (أوف

40; John of Tuliha, *De Domino Johanne*, in Rohrich, loc. cit., p. 120; *Histoire des Patriarches*, p. 243.

(١٦) Abu Shama, ii, p. 170; Ibn al-Athir, ii, pp. 116, 148; Ibn Khallikan, *Biographical Dictionary*, iii, p. 235. « بينما يقول ابن خلكان إنه كان في الثلاثة والسبعين من عمره . وورد وصف جميل للفراس مرضه » *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 229-30.

(١٧) Oliver, *Historia Damiatina*, p. 186; Alteric of Trois Fontaines, p. 788; *Regesta Honorii Papae III*, nos. 1350, 1433, pp. 224, 237.

لوسيتان) كونت دي لا مارش ، بفارشان أبناء جنوا على سفن لنقل مجموعة الصليبيين الفرنسيين والإنجليز إلى الشرق . ورغم اشتهاار كونت يفرس بأنه ابن الكنيسة الشريرة ، سمح له البابا بدفع تكاليف النقل من ضريبة قدرها جزء من عشرين من دخل الكنائس الفرنسية. وانضم إلى الكونتين في جنوا رئيس أساقفة بورجو ، وليس الثاني ، وأساقفة باريس ولاون وأنغرز وغيرهم من ذوي الرتب الأقل ، وإيبرل<sup>(١٤)</sup> كل من تشبوه وآرونديل ، وديريسي ، و ويتشستر . وأرسل البابا كاردينال كورسون ، روسير ، ليكون الموجه الروحي للأسطول ، وإغا بلا أية سلطات بابوية<sup>(١٥)</sup>.

وصل الكاردينال بيلاجيوس وحملته إلى المعسكر المسيحي في منتصف سبتمبر . وكان بيلاجيوس أسبانيا وعلى قدر كبير من التأثير والخبرة الإدارية وإن كان يفتقر تماما إلى الخلق؛ إلا سبق تعيينه لتسوية مسألة الكنائس اليونانية في امبراطورية القسطنطينية اللاتينية ، ولم يصب نجاحا إلا في إثارة المزيد من العداءة المريرة لروما . وما أن وصل إلى المعسكر حتى ثار الإضطراب ؛ ذلك أن جون (أوف برين) كان مقبولا كضائد للحملة الصليبية ، وكانت قيادته موضع خلاف في السنوات السابقة من ملكي هنجاريا وقبرص، وقد رحل أحدهما ومات الآخر . واعتبر بيلاجيوس نفسه الوحيد المسؤول عن الحملة بصفتها للشوب البايوي ، خاصة وأن التنازع الذي طغى على شتى الأمم المشاركة كان جليا واضحا بصورة فاقلة وليس هناك سوى مثل البابا الذي يستطيع تطويعهم . وحلب معه البابا بأن الامبراطور الغربي فريديريك الثاني قد وعد بالحقاق به مع جيش امبراطوري ، وعندما وصل فلا بد من أن يُمنح القيادة العسكرية العليا . ولكن بيلاجيوس أن يقلل أية أواخر من الملك جون الذي كان ، قبل كل شيء ، مجرد ملك من خلال زوجته الملكة<sup>(١٦)</sup>.

وفي أكتوبر أصبح لدى الملك العادل ما يكفي من التعزيزات لشحن هجوم على معسكر الصليبيين بأسطول صغير أرسله شمال النهر، فرد بفضل جهاد الملك جون في اللقار الأول، وبعد أيام قلائل بنى المسلمون حصرا عبر النيل إلى الشمال قليلا من المدينة.

(١٤) (الترجمة) : إيرل Earl: لقب انجليزي جون لوكيز وتوف فليكنست

(١٥) Regesta Honorii Papae III, nos. 1498, 1543, 1558, i, pp. 248, 256, 260. (١٦) والإصلاح على عامة مسيحية هؤلاء الصليبين المتفرقة Greven, "Frankreich und der fünfte Kreuzzug", Historische Jahrbuch, vol. XLII, 1871, p. 367. (Flores Historiarum, li, p. 367) Matthew of Westminster

(١٦) نظر 46-9-pp. Donovan, op. cit. والمغربي.

ونظم يلاجيوس إغارة على أعمال البناء بامت بالقشل ، لكن الكامل لم يواصل البناء لنقل جيشه عبر النهر ، وبدلاً من ذلك شن هجوماً آخر شرساً من الماء ، لكنه جاء بعد فترات الأوان ؛ إذ حادت الكتيبة الأولى من المسلمين القرنين وقادت الدفاع . ووصل المحجور الثاني إلى المعسكر نفسه لكنه رُدَّ إلى النهر حيث غرق الكثير من جنود المسلمين<sup>(١٧)</sup>.

وبعد وصول الجيش الفرنسي والإنجليزي كله في وقت متأخر من أكتوبر ، مر القتال بقوة من الفتوة . وتسببت وفاة العادل في تأخير التعزيزات التي كان الكامل ينتظرها من سوريا ، وهو الآن ينتظر الجيش الذي وعد أسره العظم بأرساله . وكان للمسيحيين مشاكلهم الخاصة بهم ؛ إذ حفرُوا قناة تصل البحر بالنهر إلى الشمال من حرس المسلمين ، لكنهم لم يستطيعوا ملأها . وفي ليلة ٢٩ نوفمبر هبت عاصفة هوجاء دفعت مياه البحر إلى المنطقة المنخفضة حيث يوجد معسكرهم ؛ فانتقلت كل حيمة بالماء وتشرّبت المخازن به أيضاً ، وتقطعت قوارب كثيرة ، ودفعت المياه بقوارب أخرى عبر النهر إلى معسكر المسلمين ، وغرقت الخيول ، وعندما انفسر الماء كانت هناك أحمالك كثيرة ملقاة في كل مكان ، وهو مشهد لطيف ، كما يقول المؤرخ أوليفر (أولف بافريورن) ، يهيج أي شخص يراه ، ولتحلب تكرار ذلك ، أمر يلاجيوس ببناء حاجز بسرعة . واستخدمت كل أنواع الحطام ، حتى الأشعة الممزقة وحثت الخيول ، لزيادة تغطية الحاجز . وكانت النتيجة الوحيدة الحسنة لهذا الفيضان هي أن امتلأت القناة ، وأصبح مخدور القوارب المسيحية أن تنزّل في النهر<sup>(١٨)</sup>.

وقبل أن يكتمل إصلاح المعسكر مباشرة ضرب الجيش وباء خطير . فكان الضحايا يعانون من الحمى المرتفعة واستحالت جلودهم إلى اللون الأسود ؛ وحصد الرماة أرواح سُدس الجنود على أقل تقدير ، عن فهم الكاردينال روبرت كورسون . وبات الناجون من الوباء في حالة من الضعف والإكتئاب ، ثم جاء في أعقاب ذلك شتاء قارس بصورة غير عادية . وكان من حسن حظ المسيحيين أن تعاني المسلمون كذلك من المرض

(١٧) Oliver, *Historia Damiatina*, pp. 190-2; *Histoire des Patriarches*, p. 394; Gesta *Obisidionis Damiate* (in Rehrich, op. cit. pp. 79-80); John of Tulfia, p. 123

(١٨) Oliver, *Historia Damiatina*, pp. 131-2, 196-7; Gesta *Obisidionis Damiate* p. 82; John of Tulfia, p. 124; *Libre Drelli Christiani in Obisidione Damiate Exacti* (in Rehrich, op. cit.), pp. 148-9; James of Vitry, *Epistola v* (Z.K.G. vol. xv, pp. 582-3); *Histoire des Patriarches*, pp. 245-6

## ١٢١٩ م : احتلال العدلية

وفي أوائل فبراير ١٢١٩م رأى بيلاجيوس تعذر الحفاظ على معتمدية الجنود في قرية النشاط . ولذا حث الجيش في يوم السبت ٦ فبراير على الانطلاق لمهاجمة المسلمين؛ لكن عاصفة ممطرة تعمي الأضراس أجبرتهم على العودة . وفي يوم الثلاثاء التالي حاصرت المعسكر أنباء تقول إن السلطان ينسحب بجيشه ، فسارع الصليبيون عامرين النهر إلى العدلية ووجدوا الموقع مهجورا ، وخرجت جماعة من حامية دمياط للافتاهم ، لكنهم ردوا واستولوا الصليبيون على العدلية ، وبذا غرلوا المدينة تماما<sup>(٢٠)</sup>.

ويعزى السحاب السلطان الكامل للفاصح إلى اكتشافه مؤامرة في بطناته . ذلك أن أحد الأمراء ، عماد الدين أحمد بن المشطوب ، كان يخطط لقتله واستبداله بأخيه القاتز، ولم يعرف السلطان في رأسه عدد المتورطين من بين حاشيته ، ففكر في اللجوء إلى اليمن وكان والدها ابنه السعود ، لكنه علم أن أداء المعظم في طريقه كثيرا لمساعدته . فانتقل مع جنوده باتجاه الجنوب الشرقي إلى بحرون حيث التقى الأخوان السلطانان يوم ٧ فبراير. وكان وجود المعظم مع جيش ضخم بمثابة رادع للمتآمرين ؛ ولكن القضي على ابن المشطوب وأرسل إلى السجن في الكرك ، ونفى الأمير العساكر إلى مستحار ومات في ظروف غامضة في الطريق إلى هناك . لقد أنقذ الكامل عرشه ، ولكن على حساب ضياع دمياط<sup>(٢١)</sup>.

وحسب مساعدة المعظم ، لم يستطع الكامل طرد المسيحيين . إذ أن النهر والأهوار والقنوات حالت دون استغلال المسلمين لتفوقهم العددي ؛ وفشلت لفحومات التي شنها المسلمون على المعسكرين في الضفة الغربية وفي العدلية أيضا . فغضب السلطان

(١٩) Oliver, *Historia Damiatina*, pp. 192-3; James of Vitry, loc. cit.; John of Tulfis, p. 125; *Gesta Obsidionis Damiate*, p. 83; *Histoire des Patriarches*, p. 249.

(٢٠) Oliver, *Historia Damiatina*, pp. 194-201; *Gesta Obsidionis Damiate*, pp. 83-4; *Estoire d'Excels*, li. p. 337; John of Tulfis, loc. cit.

(٢١) Ibn al-Athir, ii, pp. 116-17; Ibn Khallikan, iii, p. 240; *Histoire des Patriarches*, pp. 246-7.

معسكره في فارسكور جنوب دمياط بسنة أميال تقريبا ، على أكمة الاستعداد لمهاجمة مؤخرة الصليبيين إذا حاولوا الهجوم على دمياط . واستمر الوضع بمسدا طوال الربيع . وتشبت معارك ضارية يوم أحد الشَّعْف<sup>(٥٢)</sup> ، ومرة أخرى يوم أحد العنصرة<sup>(٥٣)</sup> حاول فيها المسلمون شن طريقهم إلى داسيل العدلية دون جدوى . كما في دمياط ذاتها ، وعلى الرغم من أن الإعلام كان ما يزال وفيرا ، لزداد نقص عدد الفراد الحامية بسبب المرض ؛ لكن المسيحيين لم يهرؤا على شن هجوم عليها<sup>(٥٤)</sup> .

وفي تلك الأثناء قرر السلطان المملوك هدم القدس . إذ قد يكون من الضروري عرض القدس على المسيحيين لإنهاء الحرب ؛ وفي هذه الحالة سوف يتسلمونها أطلالا وتحتقر الدفاع عنها ، وبدأ تدمير الأسوار يوم ١٩ مارس ، وسبب الذعر في المدينة ، إذ من المواطنين المسلمون أن الفرنج قادمون ، فهرب الكثير منهم مذعورين عبر الأردن . ثم راح الجنود يهون المنازل غير الآمنة ، وحاول بعض المتعصبين تدمير كنيسة القبر المقدس ، لكن السلطان لم يكن يسمح بذلك . وبعد القدس ، هدمت قلاع الجليل وطورون وصفد ونابلس ، ودمرت كلها . وفي الوقت نفسه أرسل السلطانان بتاشكان العون في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، موثبين دعوتهما بعسوة خاصة إلى الخليفة في بغداد الذي وعد بإرسال جيش عرمرم لم يصل قط<sup>(٥٥)</sup> .

وأعقب الشتاء الثلجي صيف حار ، وهدطت معنويات الصليبيين ثانية . ومرة أخرى أسر يلاجيوس على العمل ؛ فبعد صد هجوم إسلامي شديد على المعسكر يوم ٢٠ يولية ونسافر فادحة في كل من الجانبين ، ركز الصليبيون على قصف أسوار المدينة . ولم يقلع قصفهم هذا لأن الثيران الإفريقية التي كان المقاتلون يستخدمونها سببت أضرارا جسيمة لألاتهم ، ولم يمتدحها النيل ولا الأحماض ، وبما هم منهمكون في قصف الأسوار ، شن المسلمون هجوما آخر أوشك على تدمير الجيس المسيحي كله

(٥٢) (الرحم) : أحد الشَّعْف : Palm Sunday يوم الأحد السابق على عيد الفصح ، وفيه استقل بدمرل المسيح بيت المقدس بركاب زناحية حمل فيها الشَّعْف

(٥٣) (الرحم) : أحد العنصرة Whit-Sunday ، يوم الأحد السابع بعد عيد الفصح ، إحياء لذكرى هبوط الروح القدس في عيد العنصرة (انظر سفر أعمال ٢: ١-٤) ، الأصحاح الثاني

(٥٤) Oliver, *Historia Damiatina*, pp. 202-6; *Liber Duellii*, pp. 151-2; *Gesta Obsidionis Damiate*, pp. 87-90.

(٥٥) Abu Shama, ii, pp. 173-4; Ibn al-Athir, ii, p. 119; *Histoire des Patriarches* p. 32; *Étienne d'Eracles*, ii, p. 339; Oliver, *Historia Damiatina*, p. 203



الذي لم ينقذه سوى هبوط الغلام فجأة . وشن الصليبيون هجوما ثانيا على الأسوار يوم ٦ أغسطس ، لكنه أحقق بنفس القدر<sup>(٢٦)</sup>.

وأنارت الفرائس الجنود المعادين في الحملة الصليبية ودفعتهم إلى العمل . وألقوا باللائمة على قادتهم لئلا يحجم وسوء تصرف قادتهم إذ قُتل الكثير من النبلاء المرموقين ، بمن فيهم كونشانت لا مارش ، ومارسور-سين ، ووليم (أوف نيلز) والسيد الأعظم لفرسان المعبد ، وعاد آخرون إلى أوروبا ؛ وغادر الجيش في شهر مايو ليوبرولد دوق النمسا الذي كان أكثر الأمراء طاقة ونشاطا ؛ غير أنه لا يلام على عروته إلى بلده بعد أن قدم خدماته في الشرق طوال عامين ، وعما يشجاعته سوء السمعة التي لطعت والدته من جراء علاقاته الكثيرة مع قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة . وقد أخذ معه إلى بلده كيسة من الصليب الحقيقي ، على أن الغزالة التي أخذته إلى أوروبا كانت تضم آخرين بدا رحيلهم هروبا من القضية<sup>(٢٧)</sup> . وفي أواخر أغسطس ، وبينما كان الملك جون يتشاجن مع بلاجيوس حول الإستراتيجية ، فبدافع أحدهما عن تشديد الحصار ، بينما يصر الآخر على شن هجوم على معسكر المسلمين ، ثار الجنود وأخذوا في ألبدهم زمام الأمور ، وفي ٢٩ أغسطس خرجوا متدفقين في فوضى عارسة لمواجهة عطلوط المسلمين . وتظاهر المسلمون بالانسحاب ثم قاموا بهجوم مضاد . وحاول بلاجيوس تولي القيادة ، ورغم نصائحه ، استدارت الكتيبة الإيطالية وولت الأدميرال ، وسرعان ما نقشى زعر عام ، ولم يبق إلا القليل على قيد الحياة ومعسكرهم سوى مهارة الملك جون والنبلاء الفرنسيين والإنجليز والأنظمة الدينية العسكرية<sup>(٢٨)</sup>.

<sup>(٢٦)</sup> Oliver, *Historia Damiatina*, pp. 208-10; *Gesta Obisidionis Damiate*, pp. 67, 90-7; John of Tulfia, pp. 127-8.

<sup>(٢٧)</sup> Oliver, *Historia Damiatina*, pp. 188, 207-8; *Gesta Obisidionis Damiate*, p. 90; *Liber Duellii*, p. 258. وعن آثار الحملات الدينية التي حصل عليها ليوبرولد ، انظر *Blant, Exuviae Sacrae Constantinopolitanae*, li, p. 283. من هو ميلو III of Le Palais.

<sup>(٢٨)</sup> Oliver, *Historia Damiatina*, pp. 213-19; *Fragmentum Provinciale de Caprone Damiatina* (in Rotricht, op. cit.), pp. 185-92; *Gesta Obisidionis Damiate*, pp. 101-4; John of Tulfia, pp. 132-3; *Estoire d'Eracles*, li, pp. 340-1.

## ١٢١٩م : القديس فرانسيس (أوف أسيسي)

كان هناك زائر بارز للمعسكر راج يرقب المعركة في أسس بانيس ، وهو الأخ فرانسيس (أوف أسيسي) . لقد جاء إلى الشرق وهو بظن - كفتن كثير من الطيبيين الجملي قبله وبعد - أن سفارة سلام يمكنها أن ترسي إلى السلام . وقد طلب الآن الإذن من بيلاجيوس للذهاب لمقابلة السلطان . وبعد قليل من التردد وافق بيلاجيوس ، وكرسه تحت راية الهدنة إلى فارسكور . وارتاب حراس المسلمين بادئ الأمر لكنهم سرعان ما قرروا أن أي شخص على هذا القدر من الساطة ، وبهذه الرقة ، وبذلك التذرة الطافية ، لابد وأن يكون مهونا ، وعاملوه بما يجب من احترام للشخص به مس من الرب . وأخذوه إلى السلطان الكامل الذي انههر به ، وأصغت إلى ملاحظته في صبر ، وكان السلطان فائق الطيبة ويبلغ الاحترام حيث لم يسمح له بأن يشهد على عقيدته عن طريق اعتبار التعذيب بالنار<sup>(٥٩)</sup> كما تم يجازف بما قد تثيره مناقشة عامة حول الدين من مرارة . وعرضت على فرانسيس هدايا كثيرة لكنه رفضها ، وأعيد إلى المسيحيين بحيط به حرس الشرف<sup>(٦٠)</sup>.

ولم يكن تدخل القديس ضروريا في الواقع ، إذ كان الكامل نفسه يفتح إلى السلم. فقد ارتفع النيل في ذلك الصيف ارتفاعا طفيفا ووجدت مصر نفسها مهددة بالهجرة ، وكانت الحكومة في حاسة إلى كل موازدها لاستحلاب الطعام على عجل من الأراضي المحاورة . وكان المعظم في شوق للعودة مع جيشه إلى سوريا ، ولم يكن أي من السلطانين سعيدا بأنشطة أيهما الأشرف في الشمال . وفي بغداد كان الخليفة تحت سيطرة جلال الدين خوارزم شاه الذي دثر أبوه محمد الأملاك السلجوقية في إيران وأسس اميراطورية ممتدة من نهر الإندوس إلى نهر دجلة<sup>(٦١)</sup> . ومن الممكن استخدام جلال الدين هذه الأشرف ، بيد أنه نظرا لظنوحاته المعروفة كان من الخطورة تشجيعه على أن يبلغ هذا الشأو البعيد . ولذلك كان المعظم على استعداد لمساعدة الكامل في أية

(٥٩) (والرحم) اختيار القديس في الحكاية بالعالم: Oudeau: طريقة ثانية لخدمة لقرير ما إذا كان اللحية فيه مدينا أو برها باصطناعه لايعبر بهني ، مثل وضع خذ في ماء مغلي أو ضروره بيت أكرام محوقة باليونان ، فإذا مر بهذا الإختبار بسلام ، يوجد ذلك على أنه تونة يلفية

(٦٠) Acta Sanctorum, October 4, pp. 611 ff. See van Ortroy 'Saint Francois et son Voyage en Orient' in *Annales de la Société de la Géographie*, vol. xxxi. كوردعا 431 p. Erroel حول رحال الدين الذين لم يستقيم تشي أن زيارة القديس للسلطان

(٦١) (والرحم) : نهر الإندوس: India: نهر في جنوب آسيا يقع من جنوب غرب قيتا ويتدفق غربا نحو حاتم وكاشمير في الهند، ثم إلى الجنوب الغربي خلال باكستان ليصب في بحر العرب

مناقشة ودية مع الفرنج . وفي وقت ما من شهر سبتمبر وصل إلى الصليبيين سجين فرنجي من قبل السلطان يعرض هدنة قصيرة ويعرض استبعاد المسلمين للتخلي عن القدس ؛ وقبلت الهدنة ، ولكن المسيحيين رفضوا مناقشة المزيد من شروط السلام<sup>(١٦٧)</sup>.

#### ١٢١٩ م : الكامل يعرض شروط السلام

وأعطى الجانبان كلاهما الهدنة في ترسيم دفاعاتهما . كما وجد الكثير من الصليبيين فرصة سانحة للعودة إلى أراضيهم ، وقد سبق أن رحل البعض في بداية الشهر ، وفي ١٤ سبتمبر أبحر عدد آخر منهم بملائي عشرة سفينة . وبعد أسبوع وصل اللورد الفرنتسي سوفاري (أوف موليون) مع صحيفة كبيرة نقلت على عشرة قوارص شرعية من جنوا<sup>(١٦٨)</sup>. وعندما عرق الكامل الهدنة وهاجم الفرنج يوم ٢٦ من الشهر تورل القادمون الجدد الدفاع بنجاح<sup>(١٦٩)</sup>.

وكان الكامل ما يزال يأمل في السلام ؛ إذ كان متركبا أن دسباط لن تصمد ، فعدد أفراد حاميتها انكمش للغاية من جراء المرض بحيث لم يتوفر ما يكفي من الرجال على الأسوار ، وقد بدأت بالفشل محاولاته ادخال التعزيزات إليها ، كما لم يتصح الخوذة في المعسكر من اشتى خدماتهم في أمتي من محاولاتهم . وفي نهاية أكتوبر أرسل فارسين من الأسرى لينقل إلى الفرنج شروطه النهائية ، وهي أنه في حالة حلالهم عن مصر سوف يعيد إليهم الصليب الحقيقي ، وسوف يحصلون على القدس ، وكل فلسطين الوسطى والجليل ، ولن يحتفظ المسلمون إلا بالحصون الواقعة في منطقة الأردن ، وسوف يدفعون خم إنلوة<sup>(١٧٠)</sup>.

ولقد كان عرضا يأخذ بالألباب . إذ يمكن بدون حرب استعادة المدينة المقدسة مع

(١٦٧) Oliver, *Historia Damiatana*, p. 218; *Gesta Obsidionis Damiate*, p. 105.

(١٦٨) Oliver, *Historia Damiatana*, loc. cit.; *Gesta Obsidionis Damiate*, p. 104; John of Tulfia, p. 131; James of Vitry, loc.cit.

(١٦٩) Oliver, *Historia Damiatana*, p. 219; *Fragmentum Provinciale*, pp. 193-4; *Gesta Obsidionis Damiate*, p. 106; *Liber Duellii*, p. 160.

(١٧٠) Oliver, *Historia Damiatana*, p. 222; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 341-2; Ernoul, p. 435; Magrissi (trans. Blochet), ix, p. 490, *Histoire des Patriarches*, p. 253; *Gesta Obsidionis Damiate*, pp. 109-10; Ibn al-Athir, II, p. 122.

بيت لحم والناصرة والصليب الحقيقي إلى العالم المسيحي . ونصح الملك جون بقبول العرض ، وأبدى باروناته هو نفسه وبارونات إنجلترا وفرنسا وألمانيا . بيد أن بيلاجيوس لم يوافق على أي من هذا الشروط ، ولا بطريق القدس . إذ كانا يختلفان أن الخطأ كله في التوصل إلى تصاميم مع الكثرة؛ ووافقتهمما الأنظمة الدينية العسكرية لأسباب استراتيجية؛ فقد جُذمت القدس وحصون الجليل ، ويستحيل على أية حال الاحتفاظ بالقدس بدون السيطرة على منطقة الأردن . وعارض الإيطاليون الشروط بنفس القدر. ورغم أن المدن الإيطالية كانت قليلة الرغبة في إحداث صدمع في العلاقات مع مصر ، فإن حدوث الصدمع الآن بالفعل جعلهم يرغبون في الاحتفاظ بدمياط كمركز تجاري ؛ ولم يكن ضم أراضي داهل البلاد يستهوي تلك المدن الإيطالية . وتفاقم الخلاف بين الفريقين بصورة ملوفا المرارة حتى أن أسقف عكا ، جيمس ، اعتقد أن السلطان قدم هذا العرض لا لشيء سوى أن يحدث الشقاق بينهم . وبإصرار بيلاجيوس رفض العرض<sup>(٦٦)</sup>.

وبعد أيام قليلة عادت مجموعة استكشاف كان بيلاجيوس قد أرسلها لتعلن أن سور دمياط الخارجي ليس عليه رجال ، وفي اليوم التالي، الثلاثاء ٥ نوفمبر ١٢١٩م تقدم الصليبيون بقواتهم وتسوروه ، والسور الداخلي كذلك، بلا مقاومة تذكر . وفي داهل المدينة وجدوا رجال الحامية كلهم تقريباً يعانون المرض ، ولم يكن هناك على قيد الحياة من المواطنين سوى ثلاثة آلاف شخص ، كلهم في حالة من الضعف البالغ بحيث لا يستطيعون حتى دفن موتاهم . وكان الطعام والمال وفيراً ، غير أن المرض فامعاً كان مفروضاً أن يقرم به الصليبيون . وما أن استولى الصليبيون على المدينة كلها حتى احتجزوا ثلاثمائة من وجهاء المدينة كرهائن ؛ وسلموا الأسفاسل الصغار لرجال الدين لتعديدهم واستخدامهم في خدمة الكنيسة ، وباعوا من تبقى من المواطنين رقيقاً. وكان من المقرر تقسيم المال فيما بين الصليبيين بحسب رتبة كل منهم ، غير أن كل ما أعلنه للتسليم الباوي من أعانت للسارقين، لم يمنع الجنود من سرقة الأشياء الثمينة واحتفاظها<sup>(٦٧)</sup>.

(٦٦) James of Vitry, *Epistola*, vi (Z.K.G. vol. xvi, pp. 74-5); Oliver, *Historia Damiatina*, p. 223, and *Epistola Regi Babilonis*, p. 305; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 342; letter of French lords to Honorius in Rahricht, *Studien zur Geschichte des Pfaffen Kreuzzuges*, p.46; Magrini, loc. cit..

(٦٧) Oliver, *Historia Damiatina*, pp. 236-40; *Gesta Christianis Damiate*, pp. 111-14; *Fragmentum Provinciale*, pp. 196-200; Iba Khalikan, iv, p. 143;

ومثلت الخطوة التالية في ضرورة الاتفاق على حكم ديمياط. وعلى القصور مطالب الملك جون بأن تكون جزءا من مملكة القدس وأكبه في ذلك الأنظمة الدينية العسكرية والنبلاء العثمانيين. وحاجج بيلاجيوس بأن المدينة المهزومة تنتمي إلى العالم المسيحي كله، أي إلى الكنيسة؛ غير أنه خضع بعدها ووجد الرأي العام ضده وبعد أن هدد جون بالإنحياز عائنا إلى عكا. وباتسكان الملك أن يحكمها إلى أن ينضم فريدريك الألماني إلى الحملة الصليبية<sup>(٦٨)</sup>. وفي تلك الأثناء أرسل جزءا من الجيش لمهاجمة تانيس الواقعة على المنصب التانيسي للنيل على مسافة أميال قليلة إلى الشرق؛ فوجد الجنود أن حاميتها هجرتها قد حرقا، فعاد الصليبيون بمزيد من الأسلاب، لم تود إلا إلى مزيد من الشاجرات. وقد ظن الإيطاليون خاصة أنهم قد صدعوا، وكما حدثوا بيلاجيوس رفضا مناصرهم انقلبوا على أعقابهم في غمر حقيقي؛ فكان لراما على الأنظمة الدينية العسكرية طردهم من المدينة. وبحلول الشتاء كان الجيش المتصصر كله يسأجج سخفا<sup>(٦٩)</sup>.

#### ١٢٢٠م: بيلاجيوس يتشد حلقاه

تبدأ بيلاجيوس، في غمرة انتباهه الأول، بالدمار النهائي للإسلام. فسوف تهزم الحملة الصليبية مصر كلها؛ ولا شك أن العون سيأتي من ذلك الصاعقل المسيحي ذي الشهامة ملك جورجيا. كما أن هناك برنيس جون الذي قالت الشائعات إنه ينتظر ليضرب ضربة جديدة من أجل العالم المسيحي، وقد ظن بادئ الأمر أن برنيس جون إن هو إلا نجاشي البوبا الذي لم يرد قط، مع ذلك، على رسالة من البابا أرسلها قبل أربعين سنة<sup>(٧٠)</sup>. على أن هناك الآن مرشحا جديدا للقيام بهذا الدور وهو عاقول شرقي يدهي جنكيز خان. ولسوء الحظ لم يكن للحلفاء المقصودين من تأثير؛ إذ أن للمقول التابعين لجنكيز خان هزموا جيش الملك جورج، وهو ملك جورجيا، هزيمة نكراء عام ١٢٢٠م على حدود أذربيجان، ودمرت القوة العسكرية للحائلة التي يتها للثكة شمار.

Ibn al-Athir, li, p. 119; Abu Shama, pp. 176-7.

<sup>(٦٨)</sup> *Gesta Orientalis Davitana*, p. 115; John of Tulfia, p. 139; Ernoul, p. 426.

<sup>(٦٩)</sup> Oliver, *Historia Davitana*, pp. 240-1; John of Tulfia, p. 139; *Liber Davellii*, p. 166.

<sup>(٧٠)</sup> Oliver, *Historia Davitana*, pp. 231-5. وعن برنيس جون عاقل أعلام الجفرة التي «(ص)» (١٢٢١) وللشجرة (١٢٢٩).

ولم يعمأ المتصورون بمهاجمة الإمبراطورية الأيوبية<sup>(٧١)</sup>. أما التعاون الأكثر حدة فكان متوقفاً من أعظم حوالم غرب أوروبا، فريدريك، ملك ألمانيا وصقلية.

وقد سبق أن أخذ فريدريك الصليب عام ١٢١٥م، لكن البابا إينوسنت منحه الإذن بتأجيل الحملة الصليبية حتى يفرغ من ترتيب الأسور في ألمانيا. وما يزال فريدريك يتلصقاً؛ إذ وعد البابوية بتسليم عرش صقلية الذي ورثه وهو صبي لإبنه الصغير هنري. لكنه سرعان ما اكتشف أنه بمعاودة تصميحه على الذهاب في حملة صليبية فإنه إنما يرضى بتقسيم مملكته، وسوف يساوم البابا على تبرجه الإمبراطوري. وكانت رغبته في الذهاب إلى الشرق رغبة أصيلة، يرغم أن دولف التهاب ترجع إلى الطموح أكثر مما ترجع إلى التقوى؛ إذ أنه ورث عن أبيه هنري السادس تطلعاته الشرقية، لكنه لم يحاول تحقيقها إلا كإمبراطور ممالك الأوروبية آمنه في قبضته. وكان ينهي لتوابعه أن تكون وضيعة حلية للبابا؛ على أن هونوريوس، الذي كان ذات مرة معتمداً له، كان رجلاً بسيطاً اعتبر أن وعده أصيلة، ودأب على إرسال الرسائل إلى الصليبيين في مصر يرف إليهم نياً توقيع جيش هوهنشتاين<sup>(٧٢)</sup>.

ومن أجل ذلك ركن الصليبيون إلى الدعة والراحة؛ وفي حالة التواخي التي وكنوا إليها تصالفت الخلافات بين بلاجيوس والملك جون والإيطاليين والأنظمة الدينية العسكرية. ولو أنهم زحفوا على القاهرة فور سقوط دمياط لكان النجاح حليفهم؛ إذ كان الكامل في وضع يأس، وقد هتت العزيمة لدى جيشه، وزعاباه يتضورون جوعاً ولقد أصر المعظم على إعادة قرائته إلى سوريا لحشيته من حدوث اضطرابات في الشمال ولاعتقاده أن أفضل السبل لمساعدة الإسلام هي شن هجوم الآن على عكا نفسها. وبات الكامل في كل يوم يتوقع تقدم المسيحيين، فاقبل من طلحا مقراً لمعسكره، على مسافة أميال قليلة أعلى فرع دمياط وشيّد على عجل التحصينات على جانبي النهر

(٧١) كطّر كده من ٢٩٧. وقد كتب بلاجيوس إلى البابا هونوريوس الثالث مغرباً عن آفقه في مساعدة جورجيا (Rohricht, Studien, p. 52) وكان لموسى الثالث قد سبق وطلب تعاون جورجيا (Oliver, Historia Damiatina, pp. 232-3).  
القول بأن ترجم من العربية بمساعدة بعض الخوادم كتاب يسمى Excerpta de Historia David regis Indiorum qui Presbyter Johannes a vulgo appellatur (ed. Rohricht, Z.K.G. vol. xvi, pp. 93 ff.) بما أورده من شقائق خاطف كذا.

(٧٢) لإجلاخ على ملخص بالتراجع حول تفاصيل فريدريك مع البابا كطّر Denon, op.cit. pp. 75-9.

توقعاً لحجوم لم يحدث قط<sup>(٧٣)</sup>.

#### ١٢٢٠م : الملك جون يغادر الجيش

وقد مات أبو الثاني ملك أرمينيا في أوائل الصيف من عام ١٢١٩م تاركاً بتين كانت كراهما ستيفاني زوجة جون (أوف برين)، وكسانت الصغرى، إيراييلا، ابنة الأميرة سيبلا أميرة قبرص والقدس، وكانت في الرابعة من عمرها. وكان أبو قد وعد باستخلاص ابن أخيه ريموند-روين أمير انطاكية، غير أنه وهو على فراش الموت عيّن إيراييلا وريثة له. وعلى الفور تقدم جون بمطالبة بالعرش نيابة عن زوجته وابنتهما الرضيع، وفي فبراير ١٢٢٠م تسلّم إلانا من البابا بمغادرة الحملة الصليبية وزيارة أرمينيا. وكانت علاقته ببلاجيوس من السوء بحيث لم يكن هناك مغزى في بقائه مع الجيش، ومن ثمّ منح البابا الآن صراحة كامل القيادة لبلاجيوس، ورحل جون إلى عكا. وبينما هو جهاً للإبحار إلى كليكيا ماتت زوجته الأرمينية وقالت الشاعرات إن موتها جاء نتيجة لسوء معاملته لها. وبعد أسابيع قليلة مات ابنتهما الصغرى، ومن ثم لم يعد لجون أية مطالبات أخرى في العرش الأرميني. بيد أنه لم يرجع إلى مصر<sup>(٧٤)</sup>. وفي شهر مارس أغار المعظم على المملكة مهاجماً قلعة قيسارية التي أعيد بناؤها لتوها، ثم تحول ليضرب الحصار حول معقل فرسان للبعد في عثليت. فخرج فرسان المعبد عائدين من دمياط، وأبقى جون جيشه في الألفق. ودام الحصار حتى شهر نوفمبر عندما انسحب المعظم إلى دمشق<sup>(٧٥)</sup>.

وفي تلك الأثناء بقيت الحملة الصليبية ساكنة لا تقدم ولا تتأخر. وبذلكت محاولات لإعادة بناء المدينة فني عيّد التطهير، في فبراير<sup>(٧٦)</sup>، كرّس للسجد الجامع ليصبح كنيسة القديس. وفي شهر مارس وصلت مجموعة من الأساقفة الإيطاليين على رأسهم رئيس أساقفة ميلانو، بصحبهم ميخائيل من فريديريك الثاني، وحبسوا معهم

(٧٣) *Histoire des Patriarches*, p. 254; Abu'l Fida, p. 91.

(٧٤) *Ernouf*, p. 427; *Entoire d'Eracles*, II, p. 340; *Oliver, Historia Damiatina*, p. 248.

(٧٥) *Oliver, Historia Damiatina*, pp. 244-5, 255-6; *Ernouf*, pp. 421-4.

(٧٦) وللإرجاع : عيد التطهير : Feast of the Purification عيد مسيحي تقليداً لتقديم المسيح في المعبد بعد استكمال تطهير مريم (انظر تامل لوكا . ١: ٢٦) ، وموعده ٢ فبراير

قوات كبيرة ، واففقوا من فورهم مع بيلاجيوس على شن هجوم . لكن الفرسان لم يوافقوا قاتلين إن الملك جون هو القائد الوحيد الذي ينبغي لجميع الأسم أن تدين له بالطاعة ، وهو غالب الآن<sup>(٧٧)</sup>. وفي شهر يولية أرسل فرديريك ثمانية فوادم بقيادة ماثيو ، كونت أبوليا ، فعاد بيلاجيوس محاولاته لشن هجوم دون جدوى، حتى عندما اقترح حملة منفصلة لم يجد أذناً صافية ، بل انقلب ضده مرتزقته هو نفسه من الإيطاليين، وكان للشروع الوحيد الذي وافقت عليه الأنظمة الدينية العسكرية هو الإغارة على مدينة بريس على مسافة عشرين ميلاً إلى الغرب من ديباط . ونهبت المدينة ؛ لكن الفرسان وقعوا في كمين في طريق عودتهم وأسر عدد من فرسان المستشفى ، بمن فيهم رئيسهم للارشال<sup>(٧٨)</sup>.

والآن استعاد الكامل ثقته بنفسه . ورغم أنه كان ما يزال يفتقر إلى القوات الرمية فقد أصلح بحريته ، وفي صيف عام ١٢٢٠م أرسل أسطولاً في فرع رشيد أنصر إلى قبرص حيث وجد أسطولاً صليبية راسياً أمام ليماسول، وبهجوم مفاجئ أغرق أو أسر السفن الصليبية كلها ، وأسر كوكبة كثيرة . وقبل إن بيلاجيوس تلقى تحذيرات تقول إن البحارة للصربين دابون على عمل التزليات ، إلا أنه لم يعبأ بتلك التحذيرات . وبعد أن سبق السيف العذل أرسل أسطولاً بتقنيا لإعراض الأعداء ولهاجمة موانئ رشيد والإسكندرية ولكن بلا جدوى ، إذ حال انفقاره إلى المال دون أن يتوفر لديه ما يكفيه من السفن الخاصة به ؛ ولم يكن يوسع الخزانة البابوية أن توفر له أية أموال أخرى<sup>(٧٩)</sup>.

وفي سبتمبر عاد المزيد من الصليبيين إلى بلادهم ؛ غير أنه في نهاية العام أرسل البابا هونوريوس أخباراً طيبة . فقد جاء فرديريك إلى روما في نوفمبر ١٢٢٠م ، تزوجه البابا امبراطورا وتزوج زوجته كونستانس امبراطورة ، وفي المقابل وعد فرديريك وعداً قاطعاً بالإنتلاق إلى الشرق في الربيع التالي . وكان هونوريوس قد بدأ يرتاب في وعود فرديريك ، حتى أنه تصح بيلاجيوس بعدم رفض أية عروض للسلام مع السلطان قبل أن يرحلها إلى روما . غير أن الامبراطور الجديد بدا الآن حاداً في وعده ؛ ونشط في تشجيع رعاياه على أخذ الصليب ، وسير كتيبة كبيرة بقيادة لويس ، دوق بافاريا ،

<sup>(٧٧)</sup> Oliver, *Historia Damiatana*, p. 248; Roger of Wendover, iii, pp. 260-1.

<sup>(٧٨)</sup> Oliver, *Historia Damiatana*, p. 252.

<sup>(٧٩)</sup> Ernoul, pp. 429-30; Oliver, *Historia Damiatana*, p. 253.



أثرت من إيطاليا في وقت مبكر من الربيع<sup>(٨٠)</sup>.

حافظ أبناء القزاق وصول اللوق فأثقلت للغاية حشد بيلاجيوس حتى أنه عندما سبق عرض الكامل شروط السلام في شهر يونية ، نسي تعليمات البابا ورفضها ، ولم يتطرق روما إلا مع وصول الأخبار السارة . وكان الكامل قد عرض مرة أخرى التحلي عن القدس وفلسطين كلها عدا منطقة الأردن مع هدنة مدتها ثلاثين سنة ودفع أموال تعويضات عن تدمير القدس . وبعد رفض هذه الشروط وحصل لوييس دوق بافاريا<sup>(٨١)</sup>.

١٢٢١م : الصليبيون يتقدمون

كان فريديريك قد أمر لوييس بالآ يشن هجوما كبيرا إلى أن يصل هو نفسه . لكن لوييس كان متلهفا على مهاجمة الكفرة ؛ وبعدما انتظر خمسة أسابيع دون أن تصله أية أنباء عن مغادرة فريديريك لأوروبا تساوت مع رغبات بيلاجيوس . ولم يقتنع زعماء الصليبيين بضرورة الرحب الفوري، للتحشيد الذي وصلته التعزيزات، داخل مصر إلا بعد أن حادى اللوق بأن الوقت قد حان نظرا لإقتراب وقت قبضان النيل، وبعد أن أعلن الممثل البابوي أن الحالة المالية للجيش تستلزم عملا عاجلا. ولكن زعماء الصليبيين أصروا على شيء واحد وهو استدعاء الملك جون ليلعب دوره ، وكانت المعارضة شديدة . وكتبت ملكة قبرص الوصية على العرش إلى بيلاجيوس، أن العمل يجري على قدم وساق لإعداد جيش إسلامي ضخم في سوريا بعدة المظلم وأخبره الأشراف ؛ وتلقى فرسان الأقطنة الدينية العسكرية من إخوانهم في فلسطين ما يؤكد تلك الأنباء. غير أن بيلاجيوس وجد في تلك الأنباء حجة أخرى لتقديم العامل داخل مصر ؛ وخاصة وأنه سمع نبوءات تقيد بسرعة انتهاء سيادة السلطان<sup>(٨٢)</sup>.

(٨٠) Hefele-Leclercq, *Histoire des* Oliver, *Historia Damiatina*, p.257. *Caveilles*, v. ii, pp. 1420-1.

(٨١) Oliver, *loc. cit.*; James of Vitry, *op. cit.* pp. 106-9; Ernoul, p. 442.

(٨٢) Oliver, *Historia Damiatina*, pp. 257-8; Roger of Wendover, ii, p. 264; James of Vitry, *Epistola* vii (Z.K.G. vol. xvi, p. 86); Ernoul, pp. 441-3.

(٨٣) Oliver, *Historia Damiatina*, pp.258-0; James of Vitry, *السجلات* *Excerpta* (Z.D.G. vol. xvi, pp. 106-13); *Annales de Damiatina* (*Annales Mosanici*, vol. iii, p. 62); Alberic of Trois Fontaines, p. 790.

وفي ٤ يولية ١٢٢١م أسر الممثل البابوي بالصوم ثلاثة أيام في المعسكر . وفي السادس من الشهر وصل الملك جون عائلته مع فرسان مملكته وقد ملأ المجلس لكنه لم يكن على استعداد لأن يُتهم بالجن . وفي الثاني عشر من الشهر غرقت القسوة الصليبية قاصدة فارسكور ، وهناك رتلها بيلاجيوس في تشكيلات قتالية . ولقد كان جيشا كبيرا؛ عُدت معاصروه عن ستمائة وثلاثين سفينة من شتى الأحجام وخمسة آلاف فارس وأربعة آلاف رام وأربعين ألف جندي مشاة . وصاحب الجيش حشد كبير من الخيالة؛ وقد أمروا أن يسبوا بالقرب من ضفة النهر لتزويد الجنود بالماء . وتخلقت حامية كبيرة في دمياط .

وتقدم الجيش الإسلامي حتى شرمشاح للاقتحام ، ولكنه بعد أن شاهد أعدادهم الضخمة انسحب خلف البحر الصغير الذي يجري من النهر إلى بحيرة المنزلة ، ولست منتظرا في مكانين سبق الإعداد لهما ، في مثلها وفي الواقع الذي أصبح المصورة فيما بعد على جانبي النهر . وبحلول ٢٠ يولية كان الصليبيون قد احتلوا شرمشاح . وتوسل إليهم الملك جون كي يبقوا هناك ، فقد حان وقت فيضان النيل ، والجيش السوري يقترب ؛ لكن بيلاجيوس أمر على المرء من التقدم ، بإيذه عوام الجنود الذين سمعوا شائعة بأن السلطان قد هرب من القاهرة . وفي جنوب شرمشاح مباشرة كانت هناك قناة آتية إلى النهر من فرع آخر ؛ وفي حمية تقدم الصليبيين لم يتركوا سفنا لحماية مصب القناة ، ربما لظنهم أنها غير صالحة للملاحة . وبحلول يوم السبت ٢٤ يولية كان الجيش للسبحى كله وأيضا بطول البحر الصغير مواجها للعدو .

ولقد ارتفع النيل الآن وانتألت القناة ولحقا الدفاع عنها يسيرا . على أنها قبل أن يصبح غورها بالغ العمق غيرتها جيوش أموي الكامل - المملوك والأشرف - بالغرب من بحيرة المنزلة ولقدت لها مواقع حصينة تفصل بين الصليبيين ودمياط . وما أن توفر ما يكفي من المياه في القناة لتأثر بشرمشاح حتى انجرفت سفن الكامل فيها وقطعت طريق انسحاب الأسطول السبحى . وفي منتصف أغسطس تحقق بيلاجيوس من أن جيوش الأعداء تفوق جيشه عددا ، وأن جيشه عاجز تماما وليس لديه من طعام سوى ما يكتفيه لعشرين يوما . وبعد الليل من الجدل ، حث البافاريون القيادة على الانسحاب الفوري كوسيلة وحيدة للهرب ؛ وفي ليلة الخميس ٢٦ أغسطس بدأ الانسحاب الذي شابه القوضى . ذلك أن الكثير من الجنود لم يتحملوا ترك عزوتاتهم من البيذ ، فشرعوا كله بدلا من تركه . وعندما صدرت الأوامر بالتحرك كانوا في حالة سكر شديد . وفي حركة جماع أشعل فرسان الثيوتون النيران في المخزونات التي لم يستطيعوا

جعلها ، وبما أبلغوا المسلمين بأنهم شاركوا موافقهم . وكان البيل ما يزال يرتفع ، وأصدر السلطان أو أحد قادته الأوامر بفتح المساعد الواقعة بقول الضفة اليمنى . فتدفقت المياه على الأراضي المنخفضة التي ينتمي للمسيحيين عبروها + فراقوا بكدهون خلال بحيرات الوحل والمساريف الطينية وفي ذيلهم خيالة السلطان من الأتراك ومشاة الحراسة من أبناء التربة . ولم تكن الملك حيون وفرسانه من دحر خيالة الأتراك ، ورد فرسان الأعظم الدينية العسكرية النوبيين ، ولكن بعد أن هلك الألووف من المشاة والحجاج . وكان يلاجيوس على ظهر سفينة حرقها مياه الفيضان فتجاوزت في سرعة حصار الأسطول المصري ؛ ولأن سفينته كانت تحمل الإمدادات الطبية للجيش والكثير من طعامه ، فقد كان فراره بمثابة كارثة . ولم تكن سفن أخرى قليلة من الحروب لكن المسلمين استولوا على الكثير من السفن<sup>(٨٣)</sup>.

#### ١٢٢١م : يلاجيوس يستعطف طائبا السلام

وفي يوم السبت الثامن والعشرين من الشهر تلك اليأس يلاجيوس ، فأرسل مبعوثا إلى السلطان طائبا السلام ؛ وما يزال لديه رصيد يساوم عليه ؛ فقد أعيد تقنين دميماط وبها حامية جيدة ولديها الأسلحة الوفيرة ؛ وهناك أسطول بحري قوي في الأقصى بقيادة هنري كونت مالطا ، وولتر (كوف بالير)، مستشار صقلية ، الذي أرسله الإمبراطور فريديريك . لكن الكامل كان يعلم أن الجيش الصليبي الرئيسي تحت رحمة + فكان صارما وانما كريما . وبعد الأخذ والرد في عطلة نهاية الأسبوع ، قبل يلاجيوس يوم الإثنين شروطه التي تقضي بأن يتعطي المسيحيون عن دميماط ويحترقوا هذنة مدنها ثمانية أهورام يعتمدها الإمبراطور . ويتم تبادل جميع الأسرى من الختانيين . وسوف يعيد السلطان من جانب الصليب الحقيقي . وعلى الحملة الصليبية تسليم زعمائها كرهائن إلى أن تستسلم دميماط ، ويحدد السلطان بالإسم يلاجيوس والملك حيون ودوق بافاريا والسادة المعظم للأتمة الدينية العسكرية وثمانية عشر شخصا آخرين من الكونتات والأساقفة . وفي المقابل أرسل أحد أبنائه ، وأحد إسموته وعددا من صغار الأمراء<sup>(٨٤)</sup>.

(٨٣) بره الرسف الأكثر اكتمالا لشاهد عيان في 257-73 Oliver, *Historia Daviatana*, pp. 257-73; 439-44; *Ernaul*, pp. 263-4; Roger of Wendover, ii, pp. 180, 182-3; Ibn al-Ashir, ii, pp. 122-4, 138; Ibn Khallikan, iii, p. 241.

(٨٤) Oliver, *Historia Daviatana*, pp. 274-6; Ernaul, pp. 444-7; *Historie des*

وعندما أرسل السيدان العظميان لفرسان المبد وفرسان التوتون إلى دمياط لإعلان استسلامها ، لمردت الحامية أول الأمر ضد هذا الأمر وهاجمت منزل الملك جون ومنازل الأنظمة الدينية العسكرية . ذلك أن هنري ، كونت مالطا كان قد وصل لشوه مع أربعين سفينة + وشعرت الحامية بما يكفي من القوة لتحدي الأعداء . غير أن الشتاء قادم والقطاع ينفذ وقادتهم رهاقاً وللسلمين يهددون بالرحل على عكا . وسرعان ما وضع التمردون . وبعد أن لو لم الكامل للملك جون وليمة رائعة ، وبعد أن أعاد خمسين الجيش المسيحي بلا مقابل ، تم تبادل الأسرى ؛ وفي يوم الأربعاء ٨ سبتمبر احتلت الحيلة الصليبية كلها فلهو سفيها ودخل السلطان دمياط<sup>(٨٥)</sup>.

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الخامسة ، التي كانت قباب قوسين أو أدنى من النجاح . ولو كان في الجيش المسيحي قائد حكيم يلقى الإحذام ، لتحقيق احتلال القاهرة والتضاء على الحكم الأيوبي في مصر . ويتنصّب حكومة أكثر ودا هناك - إذ لم يكن الصليبيون يأملون قط في حكم مصر كلها بأنفسهم - لكان استرجاع فلسطين كلها أمراً غير مستحيل . لكن الإمبراطور الذي كان خليقاً وحده بأن يشغل هذا الدور لم يأت البتة برغم كل وعده . لقد كان يلاجوس رجلاً متعرجاً فاقد الحيلة محجوراً فكشفت أخطاؤه كقائد في كارثة للحرم الأخير ، بينما لم يكن لدى الملك جون ، برغم كل شجاعته ، الشخصية أو الفية لقيادة جيش دولي . ونكاد كل مرحلة من الحملة أن تكون قد تعطلت على صخرة القسوة الشخصية أو القومية . وكان الأكثر حكمة قبول الشروط التي عرضها السلطان مرثين واسدود القدس . غير أنه ربما كان خبراء الإستراتيجية على حق عندما قالوا إنه من الخيال الإحتفاظ بالقدس بدون حصون منطقة الأردن ، على الأقل طالما كان المسلمون في مصر وسوريا متحالفين . وهكذا لم تكسب الحملة شيئاً ، وفقدت الكثير من الرجال والموارد والسعة ، وكان أكثر الضحايا تعاسة هم أكثرهم طهارة ذبل . ونتيجة الخوف من مسيحي الغرب ، ثارت موجة جديدة من التعصب في الإسلام . ففي مصر ، وبرغم التسامح الشخصي الذي كان الكامل يتحلى به ، مورست تصرفات معينة ضد المسيحيين المحليين ، المكويين والأقباط سواء بسواء ؛ ففرضت ضرائب باعطة ، وأغلقت كنائس ، ونهب الجنود

*Patriarches*, pp. 257-8; Abu Shama, ii, p. 183-5

Oliver, *Historia Damiatina*, pp.274-6; Ernoul, pp. 444-7; *Histoire des* (٨٥)  
*Patriarches*, p. 258.

المسلمون القاصرون الكثير منها. كما لم يكن في الإمكان أن يستعيد التجار الإيطاليون سابق وضعهم في الإسكندرية ؛ فقد شجّع أبناء جلدتهم الحملة الصليبية ، ورفض عودتهم إلى موطنهم صرافتهم لم تعد الثقة فيهم كسابق عهدها. ولقد أضر جنود الصليب عائلتين إلى بلادهم يكللهم العار وتنهشهم الممرارة . ولم يميزوا معهم حتى الصليب الحقيقي نفسه . وعندما حان الوقت لتسليمه لم يُعثر له على أثر<sup>(٨٦)</sup>.

(٨٦) عن التسويات المعاصرة لتدخل الحملة الصليبية أنظر Donovan, *op. cit.* pp.94-7 وThrosp, *Criticism of the Crusades*, pp. 31-4.

---

## الفصل الثالث:

### الامبراطور فريدريك

\_\_\_\_\_

## الأمير بطور فريديريك

“والآن أرسلت رجلاً حكيماً صاحب فهم”

(اعتبار الأيام الثاني ٢٠١٣)

عندما أثمرت الحملة الصليبية في كاتبتها من دمياط ، عاد للثلك جون إلى عكا مباشرة، بينما أتته الكاردينال بيلاجيوس شمالاً لتنفيذ تعليمات البابا في أنطاكية وفي مملكة كيليكيا الأرمنية. ذلك أنه بوفاته للثلك ليو الثاني، اعترف البابا هورتوريوس عطالة جون (أوف برين) باستخلاف زوجته لو أنها ؟ وموتهما حصول تأكيد الكنيسة إلى ريموند-روين أمير أنطاكية الذي جاء بنفسه إلى دمياط في صيف عام ١٢٢٠م للتشاور مع بيلاجيوس . وقبل ذلك بأشهر قليلة كان يوهننذ أمير طرابلس قد أعاد الإستيلاء على أنطاكية رغم احتفاظ فرسان المستشفى بالقلعة . ثم أغار ريموند-روين على كيليكيا مع أمه الأرمنية أليس ، ووطد دعائمه في طرسوس انتظارا للعودة من فرسان المستشفى الذين تربطه بهم علاقات حسنة ، إذ عهد اليهم برعاية قلعة أنطاكية. على أن النبلاء الأرمن نغثوا رغبة ملكهم المراحل وقبلوا إبنه الصغيرة إيزابلا ملكة



نحت وصاية آدم كير بغراس . وقد اغتال الحشاشون آدم بعد أشهر قليلة من السلطة ، بتحريض من فرسان المستشفى بلا شك ؛ وحلقه في الوصاية فسطططين زعيم الأسرة الميمنية ، وكان الميتميون فيما سبق يخلون الحزب المناصر لبيزنطة في أرمينيا . والآن برزوا كأبطال الوصاية ضد ما كانت تميل إليه الأسرة الحاكمة من انشاء السبعة اللاتينية . وفي وقت مبكر من عام ١٢٢١م زحف فسطططين على طرسوس واستولى عليها ومعه الأمير وأمه ؛ وبعد ذلك مباشرة مات ريموند-روين في السجن ، وبرحيله زالت ايزابلا آمنة على العرش الأرمني ، وكذلك الحال مع يوهنن أمير طرابلس في أنطاكي<sup>(١)</sup>.

وكان البابا قد جاز يلاجيوس كي يتصرف بعناية ، فلا فائدة في طرح مطالبات بنات ريموند-روين الرضع اللاتي تقاعدن مع أمهن اللوسينائية في قبرص . لكن يوهنن هو ابن الكنيسة العالي ، وقد تدبر التراجع قلعة أنطاكية من فرسان المستشفى ، كما حرمهم من الوعد بمنحهم حيلة التي عرضها عليهم ريموند-روين إذا نجحوا في الاستيلاء عليها، وترك الحق في هذا الوعد لفرسان المعبد ، ومن ثم برز خطر اندلاع حرب مفتوحة فيما بين الأنظمة الدينية العسكرية . وتدبر يلاجيوس القاج ككل منهما بقبول نصف المدينة ؛ غير أن يوهنن لم يرفض فقط إعادة الإعراف بحق فرسان المستشفى في أنطاكية ، وإنما ضم ممتلكاتها هناك حتى يرغم تهديد يلاجيوس بطرده من الكنيسة وتقيده بحكم الطرد . ولعل فرسان المعبد على صلة حميمة به ، وسعى الوصي على أرمينيا إلى التحالف معه . وكان السلطان السلجوقي كايكوباد أعظم عامل الآن في آسيا الصغرى ؛ إذ احتل جبال طوروس الغربية ، والتقى من ساحل الألبا عاصمته الشتوية ، وكان يمثل تهديدا للحدود الأرمينية كلها . وكان الأرمن في احتياج لحسن نوايا أنطاكية ؛ ولذا اقترح الوصي أن يرسل يوهنن ابنه الرابع فيليب ليتزوج من الملكة الأرمينية الشابة ، مصرا على شرط واحد فقط وهو أن ينضم العريس إلى الكنيسة الأرمينية المنتشرة . ولما كانت الفضيحة ملتهبة في صدر يوهنن من قرار المنسوب البابوي بطرده من الكنيسة ، فقد صبح لإبنة عن طيب خاطر بالسقوط في الممرطقة . وساعد التحالف بين أرمينيا وأنطاكية على تحقيق هدفه العائلي ؛ إذ حول كايكوباد انتباهه بعيدا عنهما إلى حيرائه للمسلمين في الشرق.

(١) عن تفاصيل المصادر، انظر: 628-32, pp. Cohen, *La Syrie du Nord*.

## ١٢٢٦ م : الإستغلاف الأرميني

كان الأرمين يعلقون الأمل على أن يصبح فيليب نفسه أرمينيا صالحا ، خاصة وأنه لم تكن لديه توقعات فط في أن يرث أطلاكيا ؛ غير أن مزاحه كان لا يلبث عبثا ، وقد انتهى أغلب الوقت في أطلاكيا . وثارت حفيظة القيثريين وأصدقائهم، فاعتقلوه بلبيل في أواخر عام ١٢٢٤م أثناء ترحاله إلى أطلاكيا وسجنوه في سبي حيث دسوا له السم بعد ذلك بأشهر قليلة . وثارت ثائرة يوهند لكنه كان غافدا للحيلة؛ إذ أن البابا كان قد أجد طرده من الكنيسة وجنر فرسان للبعد كي يتعذروا عنه . وانحاز فرسان المستشفى صراحة إلى جانب الأرمين المرافقة ، فعندما هربت الملكة الشابة أرملة فيليب كسيرة القلب إلى سيليشيا لالدة حمايتهم ، سلموا المدينة كلها إلى الوصي قسطنطين ليتحصروا عار تسليمها بأنفسهم . واستند يوهند بكابوكوباد فغزا السلاجقة كيليكيا ؛ فما كان من قسطنطين إلا أن حث يوهند على إيقاعهم بأن دعاه للحضور إلى كيليكيا ليستعيد ابنه ، وفي ذات الوقت ركب لظفرل - الوصي على حلب - لأن يزحف على أطلاكيا . وعندما وصل يوهند فعلا إلى كيليكيا قيل له إن ابنه قد مات وعليه أن يسرع عائدنا إلى عاصمته أطلاكيا للدفاع عنها ضد ظفرل . وفي تلك الأثناء أحيوت الملكة الشابة التعيسة لإزيلا على الزواج من هيوم ابن قسطنطين . وظلت لسنوات كثيرة على رفضها العيش معه ، لكنها لانت في نهاية الأمر ، وفي عام ١٢٢٦م احتفل بتوحيهما معا . والآن رأى قسطنطين ، برغم وعظيته الشديدة ، أن من الحكمة مصالحة أرمينيا مع البابوية ؛ فأرسلت الرسائل باسم الزوجين الشابين إلى البابا وإلى الإمبراطور فريديك<sup>(٢)</sup>.

رضى مسيحيو الشمال كل الرضا لاستدانة الحرب بين حازرهم الرئيسيين المسلمين وهما السلاجقة من ناحية والأيوبيون في حلب والموصل من ناحية أخرى ؛ إذ لا تنطبق عليهم هذه الدماء سنوات التي ضمنها الكامل . وفي الجنوب ، استغل حيون وأوف برين) هذه المعارك الإسلامية استغلا شغرفا لكي تشزع مملكته المرفقة ، وبخاصة لكي ينوش التجارة مع بلاد الفاعيل الإسلامية التي كانت مصدر إيراداته الرئيسى . وفي خريف ١٢٢٢م قرر زيارة الغرب ؛ إذ كان يرغب في استشارة البابا حول مساعدة مملكته في المستقبل ، وعليه أن يجد زوجا لابنته الملكة الصغيرة التي لم تتجاوز الحادية

(٢) Cabern, op. cit. pp. 632-3. مودودي هو سرد ابن الأكر. ii, pp. 168-70.

عشرة ، لكنه الآن في السبعينات من عمره ، ولا بد من ضمان استخلافه. وبعد أن عيّن نائباً له هو أودو (أوف مونتيبارد)، وركب السفينة من عكا مع ييلاجيوس الذي أنهى ثورته حولته رسولية بابوية في فرض مع بطريرك القدس ، وألف (أوف ميرويكورت) ومع السيد الأعظم لفرسان المستشفى . وكان السيد الأعظم لفرسان التيوتون ، هيرمان (أوف سالزا) موجوداً بالفعل في روما . ومهدت الصحة إلى البابسة في برتديزي جنوب إيطاليا في نهاية أكتوبر<sup>(٣)</sup>.

ومضى جون مباشرة إلى روما حيث طالب بمنح مملكة القدس أية أراض تستولى عليها أية حملة صليبية في المستقبل، وربما اعرض ييلاجيوس على ذلك، لكن البابا وافق على طلب جون وأرسل الامبراطور بموافقة كذلك . ثم ذهب جون إلى فرنسا لزيارة صديقه القديم الملك فيليب أوجستس مرة أخرى . وفي ذات الوقت طرح هيرمان (أوف سالزا) اقتراحاً يقضي بزواج الملكة يولاندا من الامبراطور فريديريك نفسه الذي ماتت زوجته الامبراطورة قبل أربعة أشهر . ولنسوف يكون زواجا دائما . وراقت الفكرة لـجون، ولكنه تردد إلى أن وعده هيرمان بالإحتفاظ بالوصاية حتى مماته . وتمشّ البابا ، فإذا كان فريديريك أن يتمكن القدس باسم زوجته أي يصبح زوجها للمملكة، فيقينا أن يعاود مفاوضاته وتأجيله للحملة الصليبية ؛ وبوصول جون إلى باريس كانت المفاوضات قد اكتملت تقريبا . ولم ترق الأبناء للملك فيليب وعنف جون ؛ إذ أن ملك فرنسا هو الذي كان مطلوباً منه حتى الآن أن يعثر على زوج لورثبة مملكة الشرق الفرنجي . وكان فيليب قد سبق ورشح جون ؛ ولكن تقديرا لما كان بينهما رشح فيليب جون ترسيا طيبا ، وكان جون حاضرا عندما مات فيليب في مائتين يوم ١٤ يولية ١٢٢٣ م . وترك فيليب في وصيته لـجون خمسين ألف مارك كسي تتفج بها مملكة القدس ، مع ميراث مماثل لنظام فرسان المستشفى ونظام فرسان المعبد . وحضر جون جنازة الملك وتزوج ابنه لويس الثامن ، ثم ذهب في رحلة الحج إلى سانتياغو دي كومبوستيلا في أسبانيا . ومكث بضعة أشهر في كاستيل حيث تزوج رينجاريا أخت الملك فريدياند الثالث، وعاد إلى إيطاليا في وقت ما من عام ١٢٢٤م<sup>(٤)</sup>.

(٣) Oliver, *Histoire Damiatine*, p.280; *Entree d'Eracles*, ii, p.355; Ernoul, pp.448-9; *Annales de Terre Sainte*, p.437

(٤) Ernoul, pp. 449-50; *Entree d'Eracles*, ii, pp. 355-6; Richard of San Germano, *M.G.H. vol. xix*, pp.342-3; *Historia Diplomatica Friderici Secundi* (ed. Hallard Bréhollet), ii, p. 375. *Raynaldus, Anno 1223*, no. 7, i, pp. 463-6

## ١٢٢٥م : زواج فريديك وبولاندا

وفي شهر أغسطس من العام التالي ، وصل إلى عكا هنري كورت مالطة ومعه أربعة عشر قادسا امبراطوريا لكي يسطحب الملكة الصغيرة ، التي لم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها ، إلى إيطاليا لزوجها. وكان علي ظهر السفينة جيمس ، رئيس أساقفة كابوا المختار ، الذي ما أن هبط إلى البر حتى تزوج بولاندا كوكيل لفريديك في كنيسة الصليب المقدس . ثم أخذت إلى صور ، ولكونها تعتبر الآن راشدة ، وتزوجها بطريق رالف ملكة للقدس في حضور جميع نلاء ملكة الشرق الغربي ، واستمرت الحفل لأسبوعين ، ثم أبحرت الملكة بصحبة رئيس أساقفة صور ، سيمون (أوف موحاشيل) وابن عمها باليان أمير صيدا . وتوقفت لأيام قليلة في قبرص لرؤية حائلها، الملكة أليس . وعندما حانت ساعة الرحيل انهمرت الدموع من مآقي الملكتين والسيدات كلهن ؛ وسمعن بولاندا تنضم لحنمة وداع حزينة لأرض سوريا الحلوّة التي لسن تراها مرة أخرى<sup>(٥٤)</sup>.

وفي برتديزي كان الامبراطور ، ومعه الملك جون ، متفادرا عروسه . واستقبلت بالآلهة الامبراطورية وحرى احتفال ثان بالزواج يوم ٩ نوفمبر ١٢٢٥م في كنسائية برتديزي<sup>(٥٥)</sup>.

كان فريديك في عايمه الحادي والثلاثين ؛ شابا وسيما ريعا قوي البنية ورغم ميله إلى السمنة، وكان شعره الأحمر كال هوميتشترغف، يذراع إلى الوراء قليلا . وكانت ملامحه متسقة بقم محتلي يوحى بالشهرة، وتبدو طيبة إلى أن تلاحظ عينيه البارزتين الحضراوين ، اللتين تخفي نظرتهما النافذة قسّر نظره . وكانت ألعينه علية ؛ إذ كان يتحدث ست لغات بطلاقة، الفرنسية والألمانية والإيطالية واللاتينية واليونانية والعربية . وكان ضليعا في الفلسفة والعلوم والعلب والتاريخ الطبيعي ، وعلى دراية جيدة بالبلدان الأخرى ؛ وكان حديثه – إذا أراد – أسرا . غير أنه ورغم كل هذا الذكاء لم يكن عمويا ؛ إذ كان قاسيا ألمانيا ، خبيثا لا يعتمد عليه كصديق ولا يفقر كعدو. وسبب انغماسه في الشغ الشهوانية من كل لون ضعة حتى للمعاهير البسيطة في مملكة الشرق الغربي . وكان يصب أن يثر ثائرة المعاصرين بتعليقاته الفاضحة عن الدين والأخلاق . ولم يكن في الواقع بلا تدخين ؛ بيد أن مسيحيته كانت على شاكلة بعض الأباطرة

(٥٤) Estoire d'Eracles, II, pp. 357-8; Gesta des Chigrois, pp. 22-3 .

(٥٥) Estoire d'Eracles, loc. cit. .

البيزنطيين نوعاً ما ؛ فكان يعتبر نفسه نائب الرب الممسوح على الأرض ، وكان يدرك أنه دارس لأعوت ملتزم ، ولذا لن يرضخ لما يطلبه عليه أي أسقف حتى وإن كان أسقف روما ؛ ولم يجد ضرراً في الإهتمام بالأديان الأخرى ، خاصة الإسلام الذي كان على اتصال به طوال حياته . وهو لا يعتبر أن اليونانيين منشقون لأنهم يكرسون سلطة البابا . ومع ذلك ، لم يكن هناك حاكم اضطهد بوحشية زائدة هرافقة المسيحيين من أمثال الكاثوليك وأبناء جلدتهم كما فعل هو . وكان الرجل العربي العادي يرى فيه شخصاً غير مفهوم . ورغم أن دماغه كانت نصف ألمانية ونصف نورماندية، فقد كان أساساً صقلياً بالنشأة ، فقليل الجزيرة التي كان تصفها يونانياً وتصفها الأعراب غربياً . ولم أنه كان يحكم في القسطنطينية أو في القاهرة ، لكن حاكمها بارزاً ولكن ليس غريب الأطوار . وكذلك لألمانيا وكامبراتور غربي ، كان المحبوبة مرغية . ومع ذلك ، ورغم كل فهمه للشرق عموماً ، لم يفهم مملكة الشرق المشرقية قط<sup>(٧)</sup>.

ولقد اتضحت أبعاده في الصباح التالي لوفاته . إذ رحل مع الإمبراطورة من برنديزي دون أن يتغير حماءه ، وعندما أسرع لذلك الشيخ وراه ، استقبله استقبالاً بارداً . وأعقب ذلك شجار مفتوح عندما علم جون من ابنة الباكسة أن زوجها أختوى واحدة من بنات عمومته . ثم إن فريديريك أعلن في فرود أنه لم يجد قط مكان يستمر جون كوصي . ولم يكن هناك اتفاق مكتوب ، وليس للملك أي مطلب قانوني بعد أن تزوجت ابنته ، ووجد جون أن وضعه قد انتزع منه ، بل أنه من حنود فريديريك مبلغ المال الذي كوّنه إياه الملك فيليب للتقاضي<sup>(٨)</sup> . فهرب بالناس إلى البلاط البابوي . وغالب البابا هونوريوس في عتاده أن يسيئ التفكير في تلميذته السابق ، ولكنه تجاوز الوهم وحشده؛ غير أنه لم يستطع أن يتبع شيئاً بخون سوى أن يعهد إليه بإدارة الأوقاف الكنسية في توسكانيا . لكن سيرة حياة المحارب القديم لم تنته ؛ إذ كان قد اقترح أن يحتل عرش النجلوا ، وفي عام ١٢٢٨م احتاحت إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية إلى وصي على الإمبراطور الطفل بلديون الثاني ، ورحب جون بالوظيفة مسروراً ، ورغم

(٧) عن ملحق فريديريك أنظر : Kantorowicz, *Frederick II*, pp. 366-8. ويعني عليه هذا الكتاب نوعاً من المثالية ورومانسية . أنظر أيضاً كتابه من ٢٢٨.

(٨) (358-40) pp. 2-451; *Estoire d'Eracles*, ii. وأيضاً في صفحة ٣٥٦ من تاريخ هرفال المذكور حيث قيل إن جون كان يصاد على احتياطه بطوعية حتى عام ١٢٢٧م وهو ابن الذي تولى فيه بولندا السادسة عشرة *Historia Richard of San Germano*, p. 345. *Diplomata Priderici Secundi* (ibid. p. 392. في ديسمبر ١٢٢٥م (ibid. p. 326) ولما لم تكن أغوست هي ابنة وولف (توف برين)

اقربه من الثمانين من العمر . وتزوج بلموين من ابنته ماريا التي لم تتجاوز الرابعة من عمرها، وتدير جون بعناية أمر منحه لقب امپراطور حتى وفاته عام ١٢٣٧م<sup>(٩)</sup>.

#### ١٢٢٥م : مصير جون (أولف برين)

كانت الملكة الإمبراطورة يولاندا تحمل خطاً من أبيها، إذ أن فريديريك أرسلها إلى الحريم الذي يحتفظ به في باليرمو حيث عاشت في عزلة يأخذ منها السقم والتي تلهفها على حياة أوتريجه الراقية. وفي ٢٥ أبريل ١٢٢٨م أنجبت ولداً ، كونراد ، وبعد أن آتت واحبها ماتت بعد ستة أيام قبل أن تبلغ السابعة عشرة<sup>(١٠)</sup>.

كان فريديريك قد وعد البابا أن يرسل الأكر إلى الأناضول في سوريا ، لكنه أرسل مع الملك جون والسيد الأعظم لفرسان القديسون إلى البابا طلباً لتسليم ، فمنحه البابا تأجيلاً لمدة سنتين . وفي ٢٥ يولية ١٢٢٥م قابل مندوبين بابويين في سان جيرمانو ، وأقسم بأنه سيبدأ رحلته إلى الشرق في أغسطس عام ١٢٢٧م ، وأنه سيرسل ألف فارس في الحال ، وإذا حدث بقسمه فسوف يودع مائة ألف أوقية من الذهب في روما ، ولو أن الإمبراطور أمضى بتصبح أوتريجه لأجمل رحيله حتى عام ١٢٢٩م ، وهو العام الذي تنتهي فيه الفترة مع الكامل<sup>(١١)</sup>.

وقد أرسل الفرسان الذين وعد بإرسالهم ضمن القافلة التي ذهبت لاصطحاب امپراطورة الشنتيل . واستغل فريديريك العامين المسموح له بهما في توطيد دعائم حكمه في شمال إيطاليا ، وبدا يوطأ أراضي الألبانية بأرضيه في جنوب إيطاليا. وأحبطته المناورة المعينة لمحصة لومباردي<sup>(١٢)</sup> ، ولم يقدر إلا على ضمان مصالحة وقتت في عهده

(٩) من سيرة حياة جون بعد ذلك انظر Longnon, L'Empire Latin, pp. 169-74.

(١٠-) Ennoli, p. 454; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 366, Richard of San Germano, p. 447; *Historia Diplomatica Frederici Secundi*, i, p. 858.

(١١) *Historia Diplomatica Frederici Secundi*, iii, pp. 36-48; *Regenia Honorii Papae III*, no. 5566, li, p. 352.

(١٢) (ولترجي): عصبة لومباردي Lombard League: مجموعة من المدن في شمال إيطاليا بدأت في الاتحاد معاً في أول ديسمبر سنة ١١٦٧م لتقوم بحملات كراهية الإمبراطورية الرومانية المقدسة لتقويض حربها الكروميونات شمال إيطاليا ورومانيا القروية وتشكلت بإحدى الأكر من ١٦ مدينة ثم زادت إلى ٢٠ مدينة وقد أكد هذه العصبة - منذ البداية - البابا ألكسندر الثالث كحليف ضد عدوه فريديريك الأول بامباروسا. ولم يقف أثر هذه العصبة إلا بعد وفاة الإمبراطور فريديريك الثاني سنة ١٢٥٠م

عداوة عصبة اللومباردي التي لا تلين، ولم يكن يوسعه سوى أن يصل إلى حل وسط مع اللومباردين بمغازلة البابوية بإظهار حماسه جديداً للحملة الصليبية . غير أن معلومه القديم، البابا هونوريوس ، مات في شهر مارس ١٢٢٧م ، وكان البابا الجديد جريجوري التاسع مطلوباً على كثير من جهاته . وكان من أبناء عمومة ابينوست الثالث، وعلى غرار ابينوست كان رجلاً ذا عقلية تشريعية رائعة وإيمان متشاكخ عيدين للبابوية من سلطة ياقية . ولأنه كان صارماً زاعداً كان يفر من فريديريك كرجل ، ولم ير استحالة للمهادنة بين ما يريد الامبراطور من "قوصرية بابوية"<sup>(١٢)</sup> ومقهومته الخاص عن سلطته . وهكذا أملى كل مسن السياسة والسورع أن يرحل فريديريك إلى الشرق<sup>(١٣)</sup>.

#### ١٢٢٨م : فريديريك يشرع في الرحيل إلى الشرق

بدأ فريديريك مهياً لللعاب . وقد سبق أن أبحرت إلى الشرق مجموعة من الصليبيين الإنجليز والفرنسيين تحت رئاسة أسقف أكستر وونشستر . وراح الامبراطور طوال صيف ١٢٢٧م يمشد جيشاً ضخماً في أيلول<sup>(١٤)</sup> ونقشى وباء الملازاة فاضعف الجيش ، لكن عدة آلاف من الجنود أبحروا من برنديري في شهر أغسطس بقيادة هنري الرابع دوق ليبورخ . وانضم فريديريك إلى الجيش بعد أيام قليلة ، وركب البحر يوم ٨ سبتمبر ، وما كادت الرسالة ترفع حتى أصيب أحد رفاقه مريضاً بمرض ميوس من شفاقه، وهو لويس حاكم ثورينغيا ، فرست سفينتهم في أوتران حيث مات وانتقلت عبءوى المرض إلى فريديريك نفسه فعادر الأسطول الذي أرسله إلى عكا تحت رئاسة بطريرق القدس ، جيروك (أوف لوزان)، وذهب إلى متبع المياه المعدنية في بوزوني للاستحمام وأرسل

(١٢) (الترجم): القوصرية البابوية: Caesaropapism نظام سياسي فيه رئيس الدولة هو نفسه رئيس الكنيسة وقاضي القضاة في المسائل الدينية

(١٣) Hefele-Leclercq, Histoire des Conciles, v, II, pp. 1467-8 .

(١٤) (الترجم): أيلول: Aptelia منطقة على ساحل إيطاليا الجنوبي الشرقي للبحر الأدرياتيكي . عاصمتها برنديري

مبعوثا إلى البابا جريجوري في (أثينا) ليشرح سبب هذا التأخير الذي لم يمكن تحته<sup>(١٦)</sup>. لكن جريجوري لم يفتح بالرواية وظن أن الامبراطور يعاود مراوغته ، فسارع بطرده من الكنيسة ، ولكنه عاود إصدار الحكم بعودة بوقار في كنيسة القديس بطرس في شهر نوفمبر<sup>(١٧)</sup> فما كان من فريديك إلا أن أصدر بيانا مهيبا أرسله إلى أمراء أوروبا ينكر فيه مزاعم البابا ، ثم واصل استعداداته للحملة الصليبية. وعلى الرغم من تحذير البابا له بعدم إمكانية قاتلنا الإطلاق إلى الغرب المقدسة وهو تحت الخطر الكنسي، فقد جمع صيحة صغيرة وركب البحر من برنديزي يوم ٢٨ يونيو ١٢٢٨م<sup>(١٨)</sup> وعلى أية حال تسبب التأخير في تغير وضعه ؛ إذ ماتت الامبراطورة يولاندا ، وهذا لم يعد فريديك ملكا وزوج الملكة ، وإنما وصيا على إبنه الملك الرضيع كونراد . ومن حق يارونات المملكة، إذا شأوا ، أن يرفضوا وصايته<sup>(١٩)</sup>.

لم يكن حكام الشرق الغربي ينتظرون وصول الامبراطور بمشاعر السرور الخالص؛ وكان يوهنسد أمير أنطاكية وطرابلس أقلهم قلقا لعدم اعترافه بأي سيد أعلى سوى امبراطور القسطنطينية اللاتيني فيما يحتل. على أنه بإمكان فريديك المطالبة بحقوق السيادة على قبرص ؛ إذ أن الملك لمبارك قد حصل على التاج من خلال الامبراطور هنري السادس ؛ فضلا عن أن فريديك، وحتى موت الامبراطورة الذي لم يكن معروفا في الشرق حتى وقت وصوله ، كان يلقب ملك القدس<sup>(٢٠)</sup> ولقد تدخل فعلا في شؤون مملكة القدس؛ إذ سبق وأن أرسل عام ١٢٢٦م توماس (أوف أكونسو)، كونت أكيرا، ليحل محل أودو (أوف مونتيلارد) في الوصاية ؛ وأظهر توماس قوة وحزمًا في تعامله مع المحكمة العليا، لم يلقيا استطلاعا من جانب البارونات<sup>(٢١)</sup>.

(١٦) *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, iii, p. 44, n. p. 329; *Annales Murbacenses*, 175; Alberic of Trois Fontaines, p. 920; Richard of San Germano, p. 348.   
 (١٧) *Hefele-Leclercq*, op. cit. pp. 469-70.   
 (١٨) *Hefele-Leclercq*, op. cit. pp. 458-9.   
 (١٩) *Hefele-Leclercq*, op. cit. pp. 1471-2.   
 (٢٠) *Historia Diplomatica Friderici*, iii, pp. 37-48.   
 (٢١) *Bibl.*, i, p. 898; Richard of San Germano, p. 350; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 366-7; *Hefele-Leclercq*, op. cit. p. 1477.

(٢٠) عن الوضع القانوني لفريديك ، انظر La Monte, *Federal Monarchy*, p. 59.

(٢١) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 304.



وفي قبرص كان الوصي الرسمي على الملك الطفل هنري الأول هو أمه أليس القدسية - وكانت قد عهدت بالحكم إلى عمها فيليب (أوف إيلين) وهو الإبن الثاني للملكة ماريا كومينا . ولم تكن العلاقات بين الملكة ووكيلها<sup>(٢٢)</sup> طيبة؛ فكانت دائما ما تشكو من تعامل رعاياها، وحدثت مواجهة مفتوحة عام ١٢٢٢م عندما رفض فيليب السماح باستلام عشور رجال الدين الأرثوذكس لصالح رجال الدين اللاتين كما لوحي الكاردينال بيلاجيوس في مجلس عقد في ليداسول، وكانت الملكة متفقة مع الكاردينال ، لكنها عندما فشلت في إتخاذ طريقته لتقاعدت في غضب في طرابلس حيث تزوجت أكبر أبناء الأمير بوهمند ، من السابقين على قيد الحياة ، وهو الذي سيصبح بوهمند الخامس<sup>(٢٣)</sup> . وفي عام ١٢٢٥م، عندما أصبح من المؤكد أن الامبراطور بنويثة حادثة في الخضور إلى الشرق ، أمر فيليب بتزويج الملك هنري الذي لم يتجاوز الثامنة من عمره ، حتى اذا بلغ هنري الخامسة عشرة فعلى الأقل لا تمدد الوصاية على أساس أنه لم يتزوج بعد ؛ وكانت الملكة أليس ما تزال تعتبر نفسها وصية برغم وجودها في النفي الإحتياري، وباعت بالفشل محاولتها تعيين زوجها الجديد وكيلها ، إذ لم يقبله أحد من البارونات ، فعرضت للتصديق على واحد من البارونات البارزين ، أماريك بارقيه ، الذي - برغم معارضته ترشيح بوهمند - قبل التصديق لنفسه ، ويرجع ذلك بدرجة كبيرة إلى كراهته لآل إيلين . غير أن البارونات ، باستثناء منشق واحد ، أعتقوا عدم إمكان تعيين الوكيل إلا بموافقة المحكمة العليا ، التي طلبت أن يستمر فيليب في منصبه . وبعد أن تشاجر بارقيه علنا مع مشايخي إيلين انسحب إلى طرابلس انتظارا لمجي فريندريك، بينما ذهب أحد أصدقائه ، حافين (أوف شينشي) إلى إيطاليا ليكون في معية الامبراطور<sup>(٢٤)</sup> . وفي عام ١٢٢٧م مات فيليب (أوف إيلين)؛ ودعت المحكمة العليا أسياد الأكبر جون ، لورد بيروت ، ليحل محله وكيلها . ويبدو أن أليس وافقت على تعيينه<sup>(٢٥)</sup> .

وغدا جون (أوف إيلين) أعظم شخصية في أوترمييه . فهو لدى الأقباط المذكور

(٢٢) للرسم : انظر الكلمة الإغريقية *basili* هو : مسؤول في العصور الوسطى يمثل الملك في الشهور وله سلطات واسعة قضائية ومدنية وعسكرية . وروشنا أفضل ترجمة لها "الوكيل".

(٢٣) Hill, *History of Cyprus*, II, pp. 87-8 ، وترد في هذا التاريخ مراجع ومناقشة للتاريخ

(٢٤) *Gestes des Chypriotes*, pp. 30-3; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 361-2.

(٢٥) *Gestes des Chypriotes*, p. 37; *Annales de Terre Sainte*, p. 438; *Estoire d'Eracles*, II, 365. ويرد تاريخ عرض التاريخ موت فيليب بالخطأ عام ١٢٢٨م . وليس هناك في أي مرجع نص صريح على تعيين جون وكيلها ، لكنه كان دائما بأعمال الوكيل عند وصول فريندريك

في الشرق لكل من ملك قبرص والإمبراطورة الملكة بولانتا . ولقد كان ثرياً إذ يملك مدينة بيروت وزوجته وريثة أرسوف ، وساعدته حصانه الشخصية على أن يكتسب احتراماً عاماً . واجتمع مولده النبيل وثروته واستقامته وجعلت منه فصلاً زعيماً مسؤولاً لبارونات كرتيميه لعدة عقود. ولأن تصفه شرقي-فرنسي والصف الآخر يوناني ، فقد فهم الشرق وأهاليه ، وكان ضليعاً في تاريخ وفرائين للمملكة الفرنجية<sup>(٢٦)</sup>. وعلى الفور انتخب الإمبراطور فريديك أنه بمثابة الخطر الحسيم الذي يهدد سياسته ، وقد فهم فريديك هو الآخر الشرق وأهاليه من تدريباته في صقلية . وكانت معاملاته مع المسلمين من النوع الذي كان البارونات يتعاملون معه . يد أن مفهوم فريديك على الحكم الملكي لم يكن هو مفهومهم . ذلك أن ملك القدس تقبده التقاليد بالضرورة وتجاوز قليلاً رئيس المحكمة العليا ، كما أنه القائد العام . أما فريديك فكان يعتبر نفسه حاكماً مطلقاً على النحو الروماني-البيزنطي ، مستودع القوة والقانون ، نائبا عليها للرب على الأرض ، فضلاً عما تستطع حقوق الوراثة أن تعطيه من كسل القرابا . إن أسطورة الرومان لن يتحكم فيه حفنة من صغار بارونات الفرنج.

#### ١٢٢٨م : فريديك يهبط في قبرص

كان بارليه وحزبه على اتصال بفريديك فعلاً قبل أن يصل أمام ليماسول يوم ٢١ يولية ١٢٢٨م. وبناء على نصيحتهم استدعى على الفور جون وألف ايلين) ومعه ابنه الاثنين وملك قبرص الصغير لمقابلته . وحاول إقناعه جون تخديره مما يشتهر به فريديك من قدر ، لكن جون كان شجاعاً طاهر الذليل ، ولم يكن ليرفض دعوة من عاهل قبرص . وبوصوله مع ولديه والملك ، استقبله فريديك استقبالاً مشرفاً ملقباً إياه بالعم وأخفق عليه لغدايا الثمينة . وقبل له بأن يتنوع عن نفسه ملابس الحداد على أخيه قليب وأن يحضر حفلاً يقام على شرفه . وفي الحفل تسلسل جنود فريديك ووقفوا خلف كل ضيف من الضيوف، وقد استلوا سيوفهم . ثم إن فريديك طالب جون بتسليم إقطاعيته في بيروت وكافة إيرادات قبرص المخصصة منذ وفاة الملك هيو . ورد جون بأن بيروت قد منحتها له امته الملكة إيزابيللا وأنه سيمنع عن حقه فيها أمام المحكمة العليا لملك القدس ، وأما عن الإيرادات فقد أعطاها هو وأخوه للملكة الوصية أليس ، وهو تصرف سليم . فانتصر فريديك بهند مهدداً ، لكن جون قبل وابتعد

(٢٦) La Monte, 'John of Ibelin', in *Byzantion*, vol. xii كملر

المجلس، معلناً أنه لم يرفض مساعدة الامبراطور في حملته الصليبية، ولو أدى الأمر إلى أن يقتل ثلاثة من ثلثي قوايين البلاد. ولم يكن مع فريديريك سوى ثلاثة أو أربعة آلاف جندي، فلم يجرؤ على المخارطة بصدع علي وطالب بقاء عشرين أيلان من فيهم ولدي ايلين معه كرهائن، وأن يبقى الملك معه، وأن يصحبه جون إلى فلسطين؛ وفي المقابل اعترف جون والنبلاء القبارصة، وهذا هو الحق، بفريديريك سيداً أعلى لقبرص، وليس وصياً - إذ أن الملكة ليس هي الوصية الشرعية - وكوصي على القدس وليس كملك للقدس؛ إذ عرفوا الآن بموت يولاندا وأن الملك هو ابنها الرضيع كونراد<sup>(٢٧)</sup>.

#### ١٢٢٨م: فريديريك في عكا

وكان الامبراطور قد استدعى في ذات الوقت أبرز عواهل أوترمييه للحضور إلى قبرص؛ فوصل باليان لورد صيدا في أغسطس مع فريق من الجنود، وبعد ذلك مباشرة وصل حوى أمير ياكو أمير جبيل الذي يكنى الكراهية لأل ايلين، والذي اقترح منه الامبراطور قدراً كبيراً من المال، كما سبق أن فعل ليوبولد السابع دوق النمسا قبل ذلك بسنوات قليلة. وبهذه التعزيزات زحف الامبراطور على نيقوسيا، وفي الطريق انضم إليه يوهنسد الرابع أمير انطاكية. واتخذ جون د'أوف ايلين حائب الخنزير وانسحب إلى قلعة ديفيس - التي يسميها اليونانيون "القمتين التوأمين"، وسميها الفرج "رب الخسة" وسميها اليوم "سانت هيلاريون". وكان قد سبق أن أرسل سيدات وأطفال أسوته إليها مع مخرومات وفيرة من اللون. وكان القانون الإقطاعي يقضي بأنه خلال الوصاية ليس من الممكن طرد البارونات من القلاع التي عهد إليهم بها المعامل الراحل. ولم يحاول فريديريك الآن الاستهزاء بالقانون، إذ كان متلهفاً على الانتقال إلى فلسطين، ويبدو أن باليان أمير صيدا - وهو ابن أخي جون - قد قام بالوساطة. وأعدت الترتيبات أن يقسم الملك قسم الطاعة للإمبراطور وأن يقسم جميع القبارصة قسم الولاء له كسيد أعلا. ورغم الاعتراف بالليس وجدعاً وصية، فسوف يعين فريديريك وكيلًا لحكم البلاد، ويحضر جون إلى فلسطين للدفاع عن حقوقه في بيروت أمام المحكمة العليا؛ وسوف يطلق سراح جميع الرهائن. وبعد أن أقسم الجميع على الحفاظ على السلام بهذه الشروط، أبحر الامبراطور من فاماغوستا في ٣ سبتمبر

(٢٧) ٣٧-٤٥، *Genes des Chypria*، حيث يورد غلب (أوف لوفار) مثلاً بعض بالحوية، وربما كان هو نفسه جواهر ٨-١٦٦، *Estroire d'Eracles*، II.



دائم القوة من الكامل ؛ والآن ارتاب بحق في أن الكامل والأشرف ينطلقان لغزو أراضيهم . وإلى الشرق من الأيوبيين ، كانت الامبراطورية الخوارزمية المغولية تحت حلال الدين قد بلغت أوج مجدها ، وكان حلال الدين قد صد غزوا مغوليا ، وهو يحكم الآن من أرزيحان إلى نهر الإندوس ، مسيطرا على الخليفة في بغداد . وعلى الرغم من أن وجود المغول في مؤخرته عرقلة من أن يذهب شاركرا بعيدا في مغاراته في الغرب ، إلا أنه كان بمثابة خطر كامن بهذه الأيوبيين ؛ وعندما استنجد به المعظم عام ١٢٢٦م ، إغاثته منه لأخويه ، واعترف بسيادته العليا ، شعر الكامل بالخوف في أعماقه . وكان الأشرف في حساب الدفاع ، محتملا حصار عاصمته خلاط . وكان المغول آنذاك مشغولين في الصين ، ولو أرسلت لهم مناشدة - وإن كانت بحق فكرة حكيمة - لما صادفت أكثرها . وهكذا ، أرسل الكامل في خريف ١٢٢٦م إلى صفلية واحدا من أكثر أمرته موصفا للثقة ، فخر الدين بن الشيخ ، مطالبا العون من الامبراطور فرديريك الذي أظهر تعاظمه لكنه لم يبدل أية وعود ، إذ كان فتنه يفكر في حملة صليبية جديدة . لكنه لم يخل باب المفاوضات وأرسل توماس (أوف أكورا) الذي كان فعلا في فلسطين ، مع أسقف باليرمو إلى القاهرة عثمكين بالهدايا والرسائل الودودة للمسلطان . وكما فعل الكامل أثناء الحملة الصليبية الخامسة ، اقترح استعداداه لإعانة القدس إلى المسيحيين ، لكنها لسوء الحظ تنتمي لأخيه المعظم ، وعندما ذهب أسقف باليرمو إلى دمشق لتأكيد هذا الإقتراح ، أجابه المعظم في غضب بأنه ليس مسئلا ، وأنه لا يزال شارعا سيفه . وفي تلك الأثناء زار فخر الدين صفلية مرة أخرى وبات صديقا أليقا للإمبراطور الذي منحه وثيقة القروسية . كان رحيل فرديريك إلى الشرق ، الذي كان البابا يلح فيه بشغف ، يلقى نفس القدر من تشجيع السلطان<sup>(٣٠)</sup>.

#### ١٢٢٨م : المآزعات العائلية الأيوبية

على أنه قبل أن يشرع فرديريك في الرحيل أصبح الوضع متارما ؛ إذ مات المعظم يوم ١١ نوفمبر ١٢٢٧م تاركا أملاكه لشاب في الحادية والعشرين هو ابنه الناصر داود . ولما كان هذا الحاكم الجديد ضعيفا عديم الخبرة ، فقد أعاد الكامل العدة على

(٣٠) عن سيادة الكامل عمروا أنظر ابن الأثير (ii, pp. 362-8) برنكر (pp. 99-102) والعمري (pp. 187-6) والفريزي (pp. 470-51) Blochet, ix, pp. 470-51. *Histoire des Patriarches* (Magrius, traza. Blochet, ix, pp. 470-51) d'Alexandrie, p. 518.



وفي آخر نوفمبر ١٢٢٨م حاول فريديريك الإسراع بالأمر بأن قام باستعراض عسكري حشد فيه جميع الجنود التابعين له وسار جنوب الساحل إلى يافا وشرع في إعادة تحصينها . وفي ذات الوقت لم يكن الناصر بعد محاصرا تماما في دمشق ، فقاد جيشا إلى نابلس لإعراض خطر طرد إسماعيل عن عاصمته ؛ لكن الكامل رفض أن يُجدد ، وقطع المفاوضات قائلا إن رجال فريديريك قد نهضوا القصر الإسلامي ، ولم يستأنف المفاوضات إلا بعد أن دفع فريديريك تعويضات للشهباء<sup>(٢٢)</sup>.

#### ١٢٢٩م استعادة القدس

وفي نهاية الأمر أثبت فريديريك أنه المفاوض الأفضل . فعندما حل شهر فبراير كان الناصر ما يزال آتيا في دمشق ، وكان حلال الدين الخوارزمي يلتفت ناحية الغرب مرة أخرى، واستكمل فريديريك تحصينات يافا. وبناء على نصيحة فخر الدين أرسل ترماس (أوف أكور) وباليان أمير صيدا مرة أخرى إلى العادل . وفي ١١ فبراير عادا بشروط السلطان النهائية ، ووافق عليها فريديريك ، وبعد أسبوع ، أي في ١٨ من الشهر ، وقع معاهدة سلام مع ممثلي الكامل ، فخر الدين وصلاح الدين أمير أرييل ، وشهد عليها السيد الأعظم لنظام الثيوتون وأسقف إكستر وويستستر . وتغطي هذه المعاهدة تسود مملكة القدس مدينة القدس ذاتها وبيت لحم مع ممر يمتد خلال البلد إلى البحر في يافا والناصره وغربي الجليل بما في ذلك مونتفرات وتينين ، وباقي المقاطعات الإسلامية المحيطة بصيدا . على أنه في القدس نفسها تقرر أن تبقى ثمة الصحرة والمسجد الأقصى في أيدي المسلمين ، ويُسمح للمسلمين بحق الدخول وحريته العبادة . وعلى فريديريك إعادة بناء أسوار القدس ، وكان ذلك لتأزلا له شخصيا. على أن يطلق سراح جميع السجناء من الجانبين ، ويستمر السلام عشر سنوات بالتقويم المسيحي أي عشر سنوات وخمسة أشهر بالتقويم الإسلامي . ولم تنطبق المعاهدة على إشارة بوهمند أنطاكية - طرابلس<sup>(٢٣)</sup>.

(٢٢) *Envois d'Envoies*, ii, pp. 369-72; *Ernst*, pp. 460-2; *al-Ahbi*, pp. 1868.

(٢٣) *Historia Diplomatica Frederici Secundi*, ii, pp. 90-1, 93-5, 102. رسالة هورمان روف حجاج إلى البابا ، وإعلان فريديريك ، ورسالة الطريق حورمان ، وإعلان شروط السلام. *Ibid.* pp. 86-7 (حيث يرد نص جزئي للمعاهدة مع تعليقات الطرمين) *Historiet*; *Ernst*, p. 465; *d'Eracles*, ii, p. 374; *al-Ahbi*, pp. 188-90; *Magrin*, ix, p. 525.





عن الأنظمة الدينية العسكرية فيما عدا فرسان التيوتون، ولم يصحبه من رجال الدين سوى أساقفة فريديريك الصقليين وأصدقائه الإنجليز، بطرس (أوف وينشستر) ووليم (أوف إكسبر). واستقبل الإمبراطور عند بوابة المدينة القاضي غس الدين القاضي نائلس الذي سلمه مفاتيح المدينة باسم السلطان. ثم مر المركب الرباعي القصر خلال الشوارع الحالية إلى مبنى المستشفى القديم حيث أقام فريديريك مقر إقامته. وغابت كل علامات الحماة، وقد هجر المسلمون المدينة فيما عدا مزارعتهم المقدسة؛ وتحتى المسيحيون الوطنيون عن الأضرار لحثيتهم التي لها ما يبروها من أن ينظم الضرر لعودة الحكم اللاتيني. ولقد شعر رفاق فريديريك نفسه بالخروج من قرار طرده من الكنيسة، وعندما عُرف أن رئيس أساقفة فيسارية في طريقه إلى المدينة يحمل أوامر الطريق بوضع المدينة تحت الحرام الكنسي ارتكبت الحاشية وترددت. وفي الصباح التالي، الأسد ١٨ مارس، ذهب فريديريك لحضور قنصل في كنيسة القبر المقدس. ولم يكن هناك قسيس واحد، وإنما فقط عساكره وفرسان التيوتون. ولم يرتدع، وإنما أمر بوضع تاج ملكي على مذبح الجمجمة<sup>(٣٦)</sup> ثم تناوله بنفسه ووضعه على رأسه. وعلى الأثر انطلق السيد الأعظم لفرسان التيوتون في قراءة تفریط للإمبراطور-الملك، كولا بالألمانية ثم بالفرنسية، يحدد فيه منجزاته ويبرر سياسته. ثم تحركت الحاشية عائدة إلى المستشفى حيث عقد فريديريك مجلساً لمناقشة الدفاع عن القدس. وارتضى السيد الأعظم لفرسان المستشفى ومرشد فرسان الميبد حضور المجلس، وكذلك الأساقفة الإنجليز وهيرمان (أوف سالزا). وأمر فريديريك بإصلاح برج دلود وبوليبة القديس ستيفن في الحال، وسلم مقر الإقامة للملكي للتحق بروج دلود لنظام التيوتون العسكري. وفيما عدا فرسان التيوتون، لم يلق تعاوناً من أحد سوى القدر اليسير<sup>(٣٧)</sup>.

وهذه حدة التوتر بتحول فريديريك عما كان فيه وذهابه لزيارة المزارات الإسلامية. وكان السلطان قد تصرف بقطعة عندما أسر مؤذن المسجد الأقصى بعدم الأمان للصلاة أثناء تواجد العاهل المسيحي في المدينة. لكن فريديريك احتج، فلا ينبغي للمسلمين تغيير عاداتهم بسببه؛ فضلاً عن أنه قد جاء إلى القدس - كما قال - ليسمع

(٣٦) الترحيم: الجمجمة في المجلد Calvary باسم المكان الذي صُلب فيه المسيح. وأيضاً مجازاً للمسيح الصليب.

(٣٧) Historia Diplomatica Friderici Secundi, loc. cit. ... صلاة دينية في كنيسة القبر المقدس. وألقى فريديريك كلمة الخاصة به باللغة اللاتينية: *Evangelium d'Innozenz*, pp. 375, 385; Emswyl, p. 465

أذان أُلُوذَن أثناء الليل . وهنا هو داسيل قبي للمنطقة المقدسة للحرم الشريف، لاحظ قسيسا مسيحيا يتبعه ، فطرد بغطاظة من قوره ، وأصدر أوامره بقتل أي قسيس مسيحي يمر عتبة منطقة الحرم الشريف بدون إذن من المسلمين . وأثناء طوافه حول قبة الصخرة لاحظ النقش الذي أُرِزَه صلاح الدين بالفسيفساء حول القبة مستحلاً تظهر النبي من المشركين ؛ فسأل الأمير بطور وعلى ثغره ابتسامة : "من هم المشركون؟" وعلق على شمالك المثبتة في التوابل وقيل له إنها قد وضعت للحيولة دون دخول الصليبيين ، فقال : "والآن أرسل الله لكم الجنائز" مستخدماً المصطلح الإسلامي للمسيح للمسيحيين . ولاحظ أنه كان معه بعض المسلمين في حاشيته ، من بينهم عربي من صقلية كان معلماً له في الفلسفة.

ولقد اعتم المسلمون برؤية الأمير بطور ، لكنه لم يترك لديهم عميق انطباع وخاب أملهم من مظهره ، وقالوا إنه لا يساوي متى درهم في سوق الرقيق بوجهه الأملس الأخضر ويصر عينيه الجسوريتين . وأفلتتهم ملاحظاته المضادة لتعديته هو نفسه ، فمفقدوهم أن يهزموا مسيحياً مخلصاً، أما هذا الفرنسي الذي يستعطف بالمسيحية ، ويتنى شاء حافاً على الإسلام ، فقد أثار ارتياهم . وربما سمعوا ما يعزى إليه على نحو شائع من أن موسى والمسيح ويحمد ما هم إلا ثلاثة أديان . وعلى أية حال ، بدأ رجلاً بلا دين . ولقد وقع فخر الدين ، الذي دائما ما ناقش معه الفلاسفة في قصر عكا، ضحية لسحره ، وكما السلطان الكامل ، الذي كانت نظراته التأملية تقاربه، فقد نظر إليه بإعجاب ودود ، وخاصة عندما أبلغه فخر الدين ببقاء أن فريديريك ما كان ليصر قط على أخذ القدس لو لم أن تكن مكانته كلها معرضة للخطر . غير أن الورع من المسلمين والمسيحيين على السواء نظروا شراً إلى القصة برمتها. إن الإستخفاف القبيح لا يكسب قلوب الناس قط<sup>(٣٨)</sup>.

#### ١٢٢٩م : نهاية حملة فريديريك الصليبية

في يوم الإثنين التاسع عشر وصل بطرس أمير قبرصية ليلقي على القدس قرار الطريق بحرماتها الكنسي. واحتاج فريديريك هذه الإمانه ، فتخلص من قوره عن كل أعمال الدلاع عن المدينة، وجمع كل عساكره وأسرع هابطاً إلى يافا حيث توقف ليوم

(٣٨) . (٢٨) . Al-Aziz, pp. 192-3; Maqrissi, ib, pp. 525-6 .

ثم سار أعلا الساحل إلى هناك التي وصلها في الثالث والعشرين من الشهر ، فوجدها تغلى تلحرا . إذ لم يخفر له البارونات استخفافه بالدستور ؛ ورغم كونه وصيًا لا غير ، فقد أبرم معاهدة بدون رضاهم وتزوج نفسه ملكا . وحددت أعمال شغب الشيبك فيها مسلحون علبون مع حامية الإمبراطور . وشعر المستعمرون الجنوبيون والنادقة بالاستياء من الحفوة التي تلتها أهل بزاوعاصمة وأن هذه المدينة كانت من حلفاء فريديريك القليل في إيطاليا . إن عودة الإمبراطور لم يكن لها من أثر سوى تقاسم الحرارة التي شلت الأجواء<sup>(٣٩)</sup>.

وفي الصباح التالي استدعى فريديريك عثمانين من سائر أنحاء المملكة لمقابته وكنى عليهم بيانا بأعماله ؛ فقوبلت كلماته باستهجان غاضب ، فما كان منه إلا أن خشا إلى القوة ؛ فغضب نطاقا من الشرطة حول قصر الطريق وحول مقار فرسان المعبد ، ووضع الخراس على بوابات المدينة حتى لا يدخلها أو يغادرها أحد إلا بإذن . وأصبح أنه ينرى مصادرة قلعة فرسان المعبد العظيمة في عثلية ، لكنه علم بأن حاميتهما حصينة للغاية . وفكر في اعتقال جون (أوف إيلين) والسيد الأعظم لفرسان المعبد وإرسالهما إلى أبوليا ؛ غير أنهما استطاعا بحراسة شديدة ، فلم يحاول المجازفة بذلك . لكنه في ذات الوقت تلقى أنباء خطيرة من إيطاليا تقول إن جماع ، جون (أوف برين) قام على رأس جيش باوى بغزو ولاياته ؛ فلم يكن يوسعه تأجيل رحيله من الشرق أكثر من ذلك ، وليس يوسعه سحق معارضيه إلا يزيد مما لديه من جنود في سوريا . فأعلن عن رحيله الفوشيك وعين باليان أمير صيدا وجارنيه الألفاني وكيلين عن المملكة . وكان باليان مشهورا بأرائه المعتدلة وأمه من آل إيلين ؛ وكان جارنيه ، برغم أصله الإنساني ، ضابطا لدى الملك جون (أوف برين). وعُيّن أودو (أوف مونتيبارد) ياورا للمملكة (كونستابل) مسؤولا عن الجيش.

كانت تلك التعيينات ثقل في حقبتها حزبة للإمبراطور . وكان مدركا أنه قد عسر ، ولتجنب مشاهد مهينة مخطط لركوب البحر يوم أول مايو عند شروق الشمس، وهو وقت ليس فيه أحد ؛ غير أن السر القوضح - وأثناء مروره مع حاشيته أسفل شارع الجزائر من إلى المرفأ ، احتشد الناس خارج الأبواب وراحوا يلقونهم بالأحشاء والزوث . وسمع الشغب جون (أوف إيلين) وأودو (أوف مونتيبارد) فاطلقا على حواديهما لحفظ النظام ؛ لكنهما عندما ودعا الإمبراطور على قادسه وداعا رقيقا ،

(٣٩) Historia Diplomatica Frederici Secundi, iii, p. 101; Estoire d'Eracles, ii, p. 374 .

رد عليهما متشما بالعنات<sup>(١٠)</sup>.

ومن عكا أبحر فريدرىك إلى ألبانوسول . وبقي نحواً من عشرة أيام في قبرص حيث قضى بأن يكون الوكيلاء هم أساتريك بارليه وأندغايه الأربعه ، حسانين (أوف تشينشى)، وأمارريك (أوف بازان)، وهيو (أوف حيل)، ووليم (أوف ريفت)؛ وعهد إليهم برعاية الملك . وفي الوقت نفسه رتب زواج الملك الصغير واليس (أوف موتفرايت) التي كان والدعا واحداً من مناصريه المخلصين في إيطاليا . وفي ١٠ برنية ١٢٢٩م هبط في برندى<sup>(١١)</sup>.

من بين عظماء الصليبيين قاطبة كان فريدرىك الثاني أكثرهم تقييماً للأعمال . فكان ذا ذكاء حاد وعلى حراية عقلية للمسلمين وعقدوره تقدير غوامض دبلوماسيتهم ؛ وأدرك ضرورة وجود بعض التفاهم بينهم وبين المسيحيين إذا كان لملكه المشرق الفرغى الفرغية أن تلبى . بيد أنه فشل في إدراك طبيعة فرنج كوريجيه . لقد احتضمت تجربة أسلافه النورماندين وإنجازاتهم مع طبعه ومفهومه عن الإمبراطورية لشوى به إلى السعى نحو بناء حكم استبدادى مركزى . ولقد وجد أن العمل في أوروبا خارج أراضيه الإيطالية بالغ المشقة ؛ ولو أنه أحسن اختيار وسائله لأغزوه في قبرص، على أنه في ملكه القدس المتقلصة ، كان مصير التحررة الفشل لا محالة ؛ إذ أن الملكة لا تكاد تتجاوز مجموعة من المدن والقلاع بربطها ببعضها البعض ورياط مزروع وليست لها حدود يمكن الدفاع عنها ، ولم تعد الحكومة المركزية ممكنة ، وكان لزاماً أن يُعهد إلى السلطات المحلية ، مهما سببت نزاعاتها للتبادلة ونوازع الغيرة من مشقة ، بتكريمة بتزعمها زعيم ماهر ومحرم . ولم تكن تلك السلطات سوى البارونات العلمانيين والأنظمة الدينية العسكرية . ولقد أبحر فريدرىك البارونات العلمانيين بأن داسي يقدميه على ما كانوا يفخرون به من حقوق وتقاليد . إذ كانت الأنظمة الدينية العسكرية أهم ، إذ بإمكانها دون غيرها، الآن وبعد أن أثر الفرسان العلمانيون البحث عن الثروة في اليونان الفرغية، توفير مصادر التجهيد للحرب والإستقرار في المشرق . وعلى الرغم من أن رؤسائهم العظام هم مقامعد في مجلس الملك ، ورغم طاعتهم له باعتباره قائداً أعلى في ميدان القتال، إلا أنهم يدينون بالولاء للبابا لا سواه . ولا يُنتظر منهم مساعدة حاكم طرده البابا من الكنيسة وصنّفه على أنه عدو للتعاظم للسيحي . وليس هناك سوى نظام فرسان

(١٠) - *Ensaire d'Ensaies*, II, p. 373; *Ensaie*, p. 406; *Genes des Chipez*, p. 50.

(١١) - *Genes des Chipez*, pp. 50-1.

التيوتون الأقل أهمية بين الأنظمة الثلاثة الذي كان على استعداد لتحدي الخطر البايوي بسبب علاقة الصداقة التي تربط سيدهم بالإمبراطور . واللافت للنظر أن فريديريك، بهذه الإسكانيات الضعيفة وبما أثر ضده من كراهية ، تمكن من الفوز بنجاح دبلوماسي مذهل يمثل في استعادة القدس<sup>(١٢)</sup>.

#### ١٢٢٩م : وضع القدس المقلق

كان اسر حجاج القدس ضيق النفق للملكة في واقع الأمر . إذ أنه برحيل فريديريك التمتع ببيت القدس مدينة مفتوحة . ومن الجدل حراسة الطريق الصاعد إليها من الساحل ؛ فبدأ قطاع الطرق من المسلمين على سرقة الحجاج وقتلهم أحياناً . وبعد أسابيع قليلة من رحيل فريديريك من البلد قام أئمة المسلمين من التعصين في الخليل ونابلس بتنظيم غارة على القدس ذاتها ، مما دفع المسيحيين من كافة الطوائف إلى الفرار حيث الأمان في برج داود بينما استنجد حاكمها ، وبذلك أسير حيفا بفكا ؛ فحلف الوكيلان باليان أسير صيدا وحارثيه مع جيش من عكبا ، مما أجبر اللغوين على الانسحاب ، وتوّرأ حكام المسلمين من أية صلة باللغوين . وبعد تحصين المدينة بحامية أكبر وترميم بعض التحصينات البسيطة توفّر شعاع من الأمن ؛ وألقى البطريرك قرار الحرمان الكنسي وحاء للإقامة في المدينة حزوا من السنة . بيد أن الوضع ظل مقلقاً؛ فهاككان السلطان إعادة الإستيلاء على القدس في أي وقت يتنزه . أما في الخليل ، حيث أعيد بناء حصن مونتفرات وتنين ، فكان صمود المسيحيين أقوى . غير أنه بوجود المسلمين في صدد باتتاس ، لم يكن استمرار الصمود مضموناً<sup>(١٣)</sup>.

وكانت الحرب الأهلية المريرة هي أهم ما أوترته فريديريك في كل من قبرص وملكة القدس . وبدأت الحرب الأهلية في قبرص على الفور ؛ إذ تلقى الوكلاء الخمسة هناك تعليمات بطرد جميع اصقاه آل ايلين من الجزيرة ، وتحصيل ما وافقوا على أن يدفعوه لفريديريك وهو مبلغ عشرة آلاف مارك ، وعدم تسليم الحصون التي كانت حمايتها ما تزال تتألف من جنود الإمبراطورية إلا بعد دفع القسط الأول . فجمعوا المال عن طريق غرض ضرائب بالهظة ومصادرة ممتلكات آل ايلين ومناصريهم . وتصادف أن واحداً

(١٢) عن تعارض الآراء فيما يخص بالهزات فريديريك في فلسطين ، انظر : Kantorowicz, op. cit. pp. 322-3  
193 ff. and Grousset, Histoire des Croisades, iii, pp. 322-3

(١٣) . 303-5 . Histoire d'Eracles, li, pp.

من أحلص للنصارى جون أمير بيروت ، وهو الماروخ الشاعر فيليب (أوف نوفرار)، كان موجودا في الجزيرة ، وسمح له الوركلاء بمرور أمن للحضور إلى نيقوسيا ومناقشة نوع من القعدة بينهم وبين آل ايلين ؛ غير أنهم عندما وصلهم فيليب غيبروا موقفهم وانتقلوا . وأعقب ذلك مشهد غاضب أمام الملك الصبي الذي كان يعرف فيليب معرفة جيدة لكنه كان فاقد الحيلة لا يستطيع التدخل ؛ وانتهى الأمر بأن وافق الوركلاء على إطلاق سراح فيليب بكتفالة ؛ لكنه أخذ جانب المحكمة والحذر وهرب إلى مقر فرسان المستشفى، إذ اقتحم رجال مسلحون منزله تلك الليلة ، وكتب بلفة وكيكة بناتيد جون (أوف ايلين) في عكا أن ينفذ لحدثه . واتخاذ ممتلكاته أصغافه كلهم ، فجهز جون من فوره حملة على حسابه الخاص ولمكن من المبروط عنوة شمال فاما جوستا في جاسويا ؛ ثم زحف نبلر على نيقوسيا حيث قابل جيش الوركلاء الذي كان أكبر بكثير من جيشه ، وإنما نقل حماسا . ودارت بعض المنازعات نشبت بعدها معركة شنها آل ايلين يوم ١٤ يولية ؛ وشن فرسان جون هجوسا حربيًا فاده ابنه باليان ، ولفقه خروج فرسان من المستشفى تعلمه فيليب (أوف نوفرار)، فحُسمت المعركة ، وهرب الوركلاء مع جنودهم إلى الحصون الثلاثة: رب الهبة ، و كانبرا ، وكيرينا . ومنى جون بتعقيهم وضرب حصارًا حول الحصون الثلاثة، وسرعان ما استولى على كيرينا ، لكن حصن رب الهبة ، الذي لجأ إليه بارليه ومنعه الملك الصغير وأخوانه ، وكذلك حصن كانبرا ، كانا من العسير اقتحامهما ، ولم يستسلا إلا في صيف عام ١٢٢٠م من التضور جوعًا . وكانت شروط جون للسلام شروطًا سخية . ذلك أنه من بين الوركلاء الخمسة ، قتل جافين (أوف شينيشي) في حصن كانبرا ، ووليم (أوف ريفت) وهو أسوة غير الشقيق ، الذي هرب من كيرينا بحثا عن مساعدة في كيليكتا حيث مات فيها، ولم يعاقب جون الثلاثة الباقين بما أثار استياء كثيرين من أصحاباء جون . بل إن جون لم يسمح لفيليب الماروخ الشاعر أن يكتب فيهم قصيدة هجاء . وأُرسل رسولا باسم الملك إلى عولعل أوروبا لتبرير المخطوات التي اتخذت ضد الامبراطور ، وتولى جون نفسه الحكم إلى أن يبلغ الملك هنري سن الرشدي في عام ١٢٢٢م<sup>(١٤)</sup>.

(١٤) ( Genes des Chirois, pp. 50-76 حيث ورد وصف الماروخ فيليب أوف نوفرار نفسه Estolere Hill, op. cit., ii, pp. 160-7. وTrucler, ii, pp. 375-7.

## ١٢٢٩م : الملكة أليس تطالب بعرض القدس

وفي تلك الأثناء كان باليان أمير صيدا وحارثيه الألماني يحكمسان مملكة القدس بصورة سلمية . وفي خريف عام ١٢٢٩م جاءت الملكة أليس القروسية إلى عكا مطالبة بالعرض ؛ إذ أن وصياتها على قبرص - التي كانت ما تزال تقوم بها من الناحية الإحصائية - لم تعد عليها إلا بالمناعب . وكانت قد طلقت زوجها بوهمن الصغير أمير انطاكية على أسس قرابة الدم ؛ إذ كانت أبناء عمومة من الدرجة الثالثة . والآن أعلنت أنه على الرغم من أن كونراد ابن الامبراطور هو ملك القدس قانونا ، إلا أنه قد فرط في حقه بفشله في الخن في مملكته ، ومن ثم ينبغي للمحكمة العليا تسليم التاج إلى الوريث الشرعي التالي ، أي إليسا هي نفسها . ورفضت المحكمة مطالبتها تأسيسا على أن كونراد لا يزال دون سن الرشد وبهذا لا يكون وجوده ضروريا . على أن المحكمة وافقت على إرسال سفارة إلى إيطاليا تطلب إرسال كونراد في غضون عام إلى الشرق للتمكين من تقديم قروض الولاء له شخصيا . ورد فريدريك بأنه سيفعل ما يراه مناسباً<sup>(١٥)</sup>.

وفي ٢٣ يولية ١٢٣٠م عقد فريدريك سلاما مع البابا معاهدة سان جيرمانو . فقد كان على الجلسات منتصرا في إيطاليا ، وهو الآن على استعداد لتقديم بعض التنازلات حول سيطرة الكنيسة في صقلية حتى يمكن لثروته من فرار طرده من الكنيسة . وأسفرت مصادفته مع البابوية عن تشديد قبضته في الشرق ، فقد وصلت التعليمات إلى البطريرق جيروالد برفع قرار الخمرمان الكنسي الذي فرض على القدس ، كما تلقى تعيدا لإصداره هذا القرار دون الرجوع إلى روما . وشعرت الأنظمة الدينية العسكرية بأنها لم تعد مضطرة لأن تنحني حائسا ؛ كما لم يعد في وسع البارونات الاعتماد على المساعدة الكنسية<sup>(١٦)</sup>. وانتظر الامبراطور الوقت الذي يناسبه . وفي خريف ١٢٣١م، وبعدما أبحر البابا بضرورة إرسال جيش للدفاع عن القدس ، جمع نحو من ستمائة فارس و مائة مساعد فارس و سبعمائة من المشاة المسلحين و ثلاثة آلاف من رجال البحرية ، وأرسلهم بقيادة مارشاله - ريتشارد فيلانجيري النابوليتاني - في القرن و ثلاثين قادسا . وشجع فيلانجيري هذا لقب اللنوب الإمبراطوري<sup>(١٧)</sup>.

(١٥) *Ensaire d'Érocler*, t. p. 380. See La Monte, *Foedat Mossacry*, p. 64 n 1

(١٦) *Hefle-Leclercq*, op. cit. pp. 1489-90.

(١٧) كتب البابا جريجوري إلى فريدريك قائلا إنه لا ينبغي لفيلانجيري أن يلقب نفسه بملك اللنوب الإمبراطوري ، وإنما فقط مندوب الإمبراطور في القدس . وأوصى بفيلانجيري لدى الأساقفة السوربون

وكان جون (أوف ايلين) في عكا عندما جاء أحد عملائه من إيطاليا في مباشرة لفرسان التيرتور، وحذّره من الأسطول القادم . ولكن أن هدفه الأول هو قبرص ، فسارع تجمع رجاله من بيروت تاركاً مجرد حامية حشيلة العدد في القلعة وأمر قاصدا قبرص . وعندما وصل الأسطول الإمبراطوري أمام قساحل القبرص علم فيلانجيري أن جون مع الملك هنري في كيني ، وأن باليان (أوف ايلين) يمثل ليماسول . فأرسل سفيرا للقاء الملك ومعه رسالة من فريديريك يطلب منه فيها نفي آل ايلين ومصادرة أراضيهم . ورد الملك هنري بأن جون هو عمه وأنه على أية حال لن يبرء أتباعه من ممتلكاتهم . وكاد الخشد الخاضع أن يقتص من بارليه الذي كان حاضرا وتكلم باسم فريديريك لولا أن أنقذه جون.

#### ١٢٣١م : إنشاء مجلس إداري (كوميون) في عكا

وبعودة السفير ، أتمر فيلانجيري مباشرة إلى بيروت التي لم تكن بها حامية والتي سلمها له أسقفها المخلوع ؛ وبدأ حصاره حول قلعتها، وعندما أوشكت على السقوط اتجه إلى صيدا وصور واحتلها ثم ظهر في عكا ؛ حيث طلب عقد اجتماع للمحكمة العليا وأظهر لها رسائل من فريديريك بعيته وكيل ؛ وصدق البارونات على التبعين ، وبمقتضى ذلك أعلن فيلانجيري مصادرة أراضي آل ايلين ، وهنا احتج البارونات جميعا؛ إذ ليس في الإمكان مصادرة الضياع إلا بقرار من المحكمة العليا وبعد إثابة القرصة للمالك للدفاع عن قضيته ، ورد فيلانجيري متعاليا أنه وكيل الإمبراطور وليسوف ينفذ تعليمات الإمبراطور . وكان ذلك خرقا جسيما للدستور سبب الصدمة حتى للمعتادين مثل باليان أمير صيدا وأودو (أوف مونتفرات) الذي كان على استعداد حتى آنذاك لتأييد الإمبراطور . وعلى الأثر انقراض البارونات جميعا إلى حزب جون (أوف ايلين)؛ وكذلك فعل ثمار عكا ، لما لحق من شعبية بينهم فضلا عن استيائهم من أسلوب فيلانجيري المتعطر. وكان أغلبهم ، فضلا عن نلاء قليلين ، ينتمون إلى أحوية دينية كرست نفسها للقدّيس أندرو ؛ وعلى أساس تلك الأهمية الدينية أنشأوا مجلسا إداريا (كوميون) لمثل كافة المطيلة البرجوازية المحلية ، برئاسة التي عشر قنصلا ودعوا جون (أوف ايلين) ليكون أول عمدة لهم . بيد أن فيلانجيري كان رهيبا ؛ إذ كان لديه جيش



جيد أحضره معه يتألف أساسا من اللومباردين ، وكان فرسان الثبوتون وأبناء بيزا أصدقاءه للحلصين . أما البطريق وفرسان المستشفى وللعبد فقد انزوا جانيا ، فلا أحد منهم يعا بفريديريك ، لكنهم منذ أن تمت مصالحته مع البابا ، ساورهم الشك في واثمهم أين يكون.

عندما وصلت إلى قبرص أبناء مهاجمة بيروت ، توسل جون (أوف ايلين) إلى الملك هنري لكي ينجف لتحدثها مع قوات الجزيرة ، ووافق الملك الصغير وأمر بإبحار جيش المملكة كله . ورغم خطورة بقاء قبرص بلا حراسة فقد كان جون يؤمن بضرورة انقاذ الأرض الأصلية أولا ، ومن باب الإحتياط اضطر بارلييه وأصدقائه إلى مصاحبة الحملة . وكان في مأوئ جون مغادرة قبرص في عيد الميلاد من عام ١٢٣١م ، لكن الأحوال العاصفة حالت دون تحقيق أمته حتى ٢٥ فبراير عندما استطاع الجيش الإنذار من فاماخوستا . وأغرقت السفن بسرعة وسط عاصفة مطيرة هائلة وألقت مراسيها جنوب طرابلس مباشرة في البشاء الصغير (بوي القاليد العام). وهناك هبط سرا إلى الياسة بارلييه وأصدقائه وعددهم ثمانون فارسا ، وذهبوا إلى طرابلس لشاركين معاداتهم وراجم ، وأرسل لهم فيلاتيري سفينة نقلهم إلى بيروت ، وتبعهم جون سرا مع أغلب رجاله ، بينما أتمر الاسطول القبرصي بالشاء الجنوب لكنه صادف أجواء سيئة أمام البطرون ، حيث تعطلت سفن قليلة ودثرت سفن أخرى وفقدت مواد كثيرة . وعندما كان جون مارا خلال جبل هرب بعض جنود المشاة ، وأخيرا وصل بيروت وشق طريقه إلى القلعة ، ومن هناك استنجد بالبارونات لإنقاذاه فحاء كثيرون يتقدمهم ابن أخيه جون أمير قيسارية . على أن باليان أمير حيدا كان لا يزال يأمل في المصالحة ، فأسرع إلى بيروت مع شريكه السابق في الركالة، جازنيه ، والبطريق والسيد بن الأعظمين للفرسان المستشفى والعبد . غير أن فيلاتيري رفض النظر في شروط المصالحة التي تترك لآل إيلين ملكية أراضيهم ، ولم يوافق المتفاوضون على أقل من ذلك.

وبعد أن أعاد جون تعزيز حامية بيروت ، انتقل إلى صور حيث استقبل استقبالاً حسنا ، وفاز بالكثير من المحدثين وخاصة من أبناء جنوا . كما أرسل سفارة برئاسة ابنه باليان إلى طرابلس للترتيب لزواج أخت الملك هنري الصغرى ، إيرابلا ، من ثاني أبناء بوهمند ، هنري . لكن بوهمند لا يتق كثيرا في قضية آل ايلين فعامل (السفارة بود قليل). ومع ذلك ، بات فيلاتيري عصبيا . ذلك أنه كان قد اتخذ مقر رئاسته في صور تاركا القيادة في بيروت لأخيه لوثر . والآن أمر أخاه لوثر برفع الحصار والانضمام اليه في صور.

وفي تلك الأثناء عاد بارليه إلى قبرص بعد أن تعززت قواته بجند من اللومباردين ، وشرع في الإغارة على الجزيرة ، وسقطت أمامه الحصون الراحدة تلو الأخرى فيما عدا قلعة رب الهبة التي لاذت بها أخوات الملك ، وقلعة بوفانتينو التي كانت أشدهم منعة، والتي هربت إليها متكررة في هبة راعب الليدي إيثيفا (أوف مونتيلارد) ، وهى ابنة عم الملك هنرى وابنة اخت أودو ، مصطحبة معها اللون الوفيرة وملا لمحت من الاحتفاظ بهذا الحصن للملك . وكان زوجها الأول ، والتر (أوف مونتيجو) ، قد قُتله رجال بارليه في معركة يقوسيا ، وقد تزوجت مؤخرا من باليان (أوف إيلين) ؛ غير أن الزواج ظل في طلي الكتمان لأنهما كانا أبناء عمومة . وعلم باليان بالغزو عندما كان في طرابلس من قبطانين ترمين من أبناء حنوا قدما مساعدهما لكن برهمن أسر سفينتهما.

#### ١٢٣٢ م : معركة كامال إمبرت

وفي نهاية أبريل وافق أبناء حنوا على مساعدة آل إيلين في هجوم على فيلانيري في صور ، في مقابل الحصول على امتيازات في قبرص ؛ فالتجه الجيش شمالا إلى (كاسال إمبرت) على بعدة التي عشر ميلا تقريبا . غير أن جون قابيل هناك بطريق انطاكية ، أكرت (أوف ريزانو) ، الذي طُهر مؤخرا مندوبا بايرينا في الشرق وقد جاء حنوا للوساطة ؛ وكان قد زار صور لزمه وجمع شروط فيلانيري الجديدة ؛ فقال جون أنه ينبغي - بحق - إحالة تلك الشروط إلى المحكمة العليا ، وعاد إلى عكا مع الطريق ومعهما قوة من الحرس أضعف غيابها حيثه بصورة جسيمة . وفي وقت متأخر من ليل ٢ مايو ، خرج فيلانيري ، الذي علم برحيل جون، وربما رُتب ذلك مع الطريق ، بكل قواته من صور وانقض على معسكر إيلين الذي لم يكن يتوقع أي هجوم وكانت حراسته سيئة . وحارب أنسيلم ، الذي كان في القسادة مع لوردات إيلين الصغار ، بشجاعة فائقة ، لكن فيلانيري استولى على المعسكر . وأسرع ملك قبرص الصغير في نصف ملايسه إلى حيث الأمان في عكا ، ولذا الباقون على قيد الحياة بقية تل.

و لم يحاول فيلانيري متابعة انتصاره ، وإنما انسحب بكل ما غنمه إلى صور تاركاً مجموعة حراسة عمر مسلم صور . أما جون (أوف إيلين) فما أن سمع بالكارثة حتى سارع شمالا من عكا وأقبل أنباده ، غير أنه عندما حاول اللحاق بالاعداء الثققلين بالغنائم صده حراس للمر ، فعاد إلى عكا. وفي ذات الوقت عبر فيلانيري إلى قبرص

بتعزيزات لبارليه . وعلى الأثر صادر جون جميع السفن الفرنسية في ميناء عكا ، بينما عرض الملك جون الفطاعات في قبرص للفرسان الملبين وحتى للتجار السورين إذا انضموا إليه ، ورتب أن يسهم أبناء جنوا بالمساعدة في مقابل اغتيالهم من الكوس ومنحهم الحق في أن يكون لهم أحياءهم الخاصة بهم وعماكهم في نيقوسيا وفاماجوستا وباقوس . وكانت الأموال في تناقص ، لكن جون أمير قيسارية وجون الأصغر (أوف ايلين) ، وهو ابن فيليب ، باعوا ممتلكات في قيسارية وعكا لفرسان المعبد والمستشفى وجمعوا قرضا يبلغ واحد وثلاثين ألف بيزانت وأعطوه للملك.

وبهذه التعزيزات والتجهيزات ، أبحر جون والملك من عكا يوم ٣٠ مايو ، وتوقفا في صيدا لالتقاط باليان (أوف ايلين) الذي كان في طريقه من سفارته في طرابلس ، وعبروا البحر إلى فاماجوستا. وكان اللومبارديون التابعون لفيلاخيري في المدينة ومعهم ما يربو على ألفين من الحيايلة بينما كان مع انصار ايلين مائتان وثلاثة وثلاثون فقط . ورغم ذلك حازف جون بيازالي جنوده الرئيسيين بعد حلول الظلام على جزيرة صخرية تقع إلى الجنوب مباشرة من المياه . وكانت بلا حراسة إذ لم يدر بذهن أحد إمكان الزال خيول هناك . ثم فككت فصيلة صغيرة في قواربها من شق طريقها إلى داخل المياه مطلقة صرخات عالية بحيث ظن اللومبارديون أن جيشا عظيما يطبق عليهم ، فاحرقوا سفنهم وسارعوا بمغادرة المدينة . وفي الصباح التالي عبر جيش ايلين الصحور إلى اليابسة الرئيسة فوجد فاماجوستا مهجورة.

وبقي جون هناك ما يكفي من الوقت لكي يولي الملك بوعده لأبناء جنوا بالتوقيع على معاهدة معهم تلغى تخصيص حي لهم ، ثم انطلق الجيش إلى نيقوسيا . ونتيجة لتصرفات اللومبارديين الوحشية، اندلعت شعبيتهم على الجزيرة ، وسأوا بجنون ثورة الفلاحين عليهم . وأثناء انسحابهم أمام جيش ايلين أحرقوا عماران الخسوب كلها التي خزن فيها الحصاد لثوه . وقرروا عدم الاحتفاظ بنيقوسيا ، وألما مضوا بطول الطريق فذهب أعلى التلال إلى كرينيا التي استولوا عليها لتحتمي مؤخرتهم وليصحبوا على اتصال بفيلاخيري نفسه ، الذي كان بمناصر حصن رب الخية . وكان معروفا أن حامية حصن رب الخية تنحصر جوعا وعلى وشك الاستسلام ، فإذا استطاع فيلاخيري صد أعدائه إلى أن يستولي على الحصن وعلى أعين الملك الموحدين بداخله ، فسيكون في وضع قوى لمساومة الملك.

وسار الإطيون ببطء إلى نيقوسيا وهم يعانون من نقص الطعام ، غير أنهم وجدوا

في نيقوسيا ذاتها عازن حجة غفل عنها اللومبارديون . واستواب جون من ذلك بحيث لم يضرب معسكره داخل المدينة ، وإنما قاد جيشه في الحال يوم ١٥ يونية باتجاه كيرينيا متنبها أن معسكره في أهردي الواقعة أسفل البحر مباشرة . وخشية الجيش من هجوم في أية لحظة فقد سار في تشكيل غائل ، وكان يتعين أن يفرق الطليعة باليان ، ابن جون ، لكنه كان قد طرد من الكنيسة لزواجه من ابنة عمه إيشيفا ، تلك السيدة الشجاعة التي كانت تراقب الحملة كلها من مكانها المرتفع في بوفانيتو ، فضلا عن أن والده لم يكن يسمح له بقيادة عليا . ولذلك قاد الفرقة الأولى أخوه هيو ، مع أنسيلم (أوف براى) . وقاد ابن جون الثالث ، بلديون ، الفرقة الثانية ، وقاد جون أمير قيسارية الفرقة الثالثة ، وقاد جون الإبليني نفسه الفرقة الأخيرة مع أبنائه الآخرين والثلث . وكان جيشا ضئيل العدد تنقصه الخيول بحيث يضطر تابع الفارس إلى أن يمارب راحلا . وبدا الجيش حقيرا في أعين اللومبارديين الذين كانوا ينظرون إليه من قمة البحر ، حيث يلتقى الغرب القادم من حصن رب الحجة بالطريق . وصدر الأمر بمهاجمتهم دون تأخير .

#### ١٢٣٢ م : معركة أهردي

هبط جنود الحليفة من اللومبارديين التل وهم يرعدون بقيادة والتر كورت مانويلو ، ومروا بطول جناح جيش البيلين ، لكنهم لم يتمكنوا من كسر صفوفه ، وساقطهم قوة دفع الهجوم إلى السهل أسفل . ومنع جون رجاله من تعقبهم ، ولم يهزم اللومبارديون على العودة والكدح لصعود المنحدر الشديد ، وإنما نهوا الأرض ركضا باتجاه الشرق دون توقف إلى أن وصلوا جاسريا . وانفجعت ثاني قوة لومباردية ، بقيادة بيرارد أنسى والتر ، وهجمت مباشرة في قلب الصفوف التي يقودها هيو الإبليني وأنسيلم (كوف براى) ، غير أن الخيول وحدت صعوبة في هبوط جانب التل الصخري الوعر ، فكان كثير من الخيول كبواتها ملقاة راكمها الذين حال ثقل أسلحتهم دون الوقوف على الأقدام . وحارب أغلب الإبلين على الأقدام ، وبرغم التفوق العددي لأعدائهم ، وسرعان ما كانت لهم اليد العليا على أعدائهم . وقُتل قائد اللومبارديين بيرارد بيد أنسيلم نفسه ، وكان فيلاتيري منتظرا على رأس البحر متنبها لعودة بيرارد ، غير أن باليان الإبليني ظهر فجأة مع حنة من الفرسان ، كانوا قد تسلقوا التل من مؤخرة جيش البيلين في درب جبلي يقع غرب الطريق وهجموا مباشرة على معسكر فيلاتيري . ومرة أخرى كان التفوق العددي في جانب اللومبارديين الذين راحوا يشددون على

باليان وحلقة فرسانه ، ورفض أبو باليان أن يفصل فصيلة من جنوده وأن يرسلها لمساعدته ؛ غير أنه سرعان ما فقد فيلانيري أعصابه ، إذ لم ترجع فصائل ماثوييلو ، فقاد رجاله في حالة من الفوضى هابطا إلى كيرينا.

وأنقذت قلعة رب النخبة وهرب محاصروها باتجاه الجنوب الغربي إلى السهل . ولما هبط الظلام فاجأهم فيليب (أوف نولار) وأسرهم . ووصل واليو (أوف ماثوييلو) إلى قلعة جاستويا ، لكن فرسان المعبد بداخلها رفضوا السماح له بالدخول ، وعثر عليه جون ، ابن فيليب الإيبليي ، عثقتا في حفرة واحتقله . وفي ذات الوقت سار جنود أسير بيروت لمحاصرة فيلانيري في كيرينا.

ودام حصار كيرينا عشرة أشهر . إذ كان الإيبليون يفتقدون السفن بادئ الأمر ، بينما كان لدى فيلانيري أسطول أبني على اتصاله بصور . ولم يتمكن الإيبليون من إحكام الحصار حول القلعة نهرا إلا بعد استمالة أبناء جنوا للمساعدة بسفنهم مرة أخرى . وقبل أن يكتمل الحصار هرب فيلانيري مع أسارك بارلبي ، وأسارك أسير بيسان ، وهيو أسير حيل ، وذهبوا أول الأمر إلى كرمينا في محاولة فاشلة للحصول على مساعدة الملك هيتوم ، ثم إلى صور ، وفي نهاية الأمر إلى إيطاليا لإطلاق الأميراطور . أما القوماريون في كيرينا ، بقيادة فيليب شينارت ، فقد شيدوا دفاعات قوية . وكان صفار لورداث إيبليين قد حرحوا جميعا أثناء القتال ؛ وكان أنسيلم (أوف بيراى) المحارب الصنديد ، والذي كان جنود أسير بيروت يلقبه بلقب "الأسد الأحمر" ، قد أصيب بسهم حديدى ومات بعد سنة أشهر من إصابته . ومن بين اللاجئين داخل كيرينا الأميرة كيسي (أوف مونقراث) الإيطالية التي انتارها فريدريك لتكون عروس للملك هنرى ؛ وكانت قد تزوجت بالثوكل ، ومن المشكوك فيه ما إذا كانت قد رأت زوجها قط ، إذ وصلت إلى قبرص برافقها الحرس الإمبراطورى بعد أن انضم الملك إلى الإيبليين . وكثناء الحصار سقطت مريضة وصابت ؛ وقد توقف القتال لمراسم تسليم حثها وعليها رداء الملكة ، وحُملت إلى نيقوسيا حيث أخرجت لها جنازة ملكية ودُفنها زوجها الذي لم يرها قط وهي على قيد الحياة.

واستسلمت كيرينا في أبريل ١٢٣٣م ، وسمح للمداعين عنها بالانسحاب إلى صور مع أمتعتهم الشخصية ، وتم تبادل الأسرى الذين أسرههم الإيبليون بالأسرى الذين كان يحتجزهم فيلانيري في صور . والآن عادت قبرص كلها إلى حكم الملك هنرى وأبناء عمومته الإيبليين . وكوفي أنبا ع الملك المخلصون وشدد ما أقصوه من



لمثل مباشر من الامبراطور . ومن المرجح أن باليان أمير صيدا نخل وكيلا إسماعيل، غير أن المحكمة العليا قبلت زعامة جون إلى حين اتقاد بعض الوثائق القانونية الجديدة. وأرسل المبعوثان فليب (أوف ثروي) وهنري أمير الناصرة إلى روما لتشرح أعمال البارونات والكوميون<sup>(٥٠)</sup> غير أن السيد الأعظم للفرسان التيوتون ، هيرمان (أوف سالز)، الذي كان موجودا هناك ، كان يرى أنهما لم تتح لهما فرصة عادلة لسماع وجهات نظرهما ؛ إذ كان البابا لا يزال علني علاقة حسنة بفريديريك وكان تواقا لإعادة سلطته في الشرق . وفي ١٢٣٥م أرسل البابا رئيس أساقفة رافينا إلى عكا مندوبا بابويا عنه، لكن رئيس الأساقفة لم يفعل سوى أن أوصى بالطاعة لسلطة فيلاتيري ، الأمر الذي لم يلق قبولا . وأرسل البارونات بدورهم قاضيا إلى روما ، هو جيوغري لو تور . وكان البابا حريصا قد بدأ شعاعه مع الامبراطور مرة أخرى ، لكنه كان عاقد العزم على أن يكون تصرفه سليما . وفي شهر فبراير ١٢٣٦م كتب إلى فريديريك وإلى البارونات قائلا بوجوب قبول فيلاتيري وكيلا ، على أن يساعد أودو (أوف مونتيلبارد) حتى شهر سبتمبر الذي يعين فيه يوهنند أمير انطاكية وكيلا . ولأن فريديريك وكوتراي حاكمسان شريهان ، فقد أخطأ البارونات فيما قاموا به من تصرف ، على أنه يتعين منح المغفرة للجميع فيما عدا آل إيبيلن الذين يجب محاكمتهم أمام المحكمة العليا . وينبغي حل كوميون عكا<sup>(٥١)</sup>.

ولم يقل البارونات والكوميون تلك الشروط وتعاملوها . وفي هذا المعتقد صارت جون الإيبيلني نتيجة لمحاولة حدثت له إنشاء ركنته على حواذه . ولقد كان لورد بيروت المحوز هذا ، كما كان يسميه معاصروه ، الشخصية المهيمنة في الشرق الغربي . ولا يخامر أحد أية شكوك حول صفاته الشخصية العالية . كان شجاعا وشريفا وسليما في تصرفاته ، وكان لشخصيته التي لا تشوبها شائبة أثر كبير في تعزيز قضية البارونات<sup>(٥٢)</sup> . ولولا لأفلاج فريديريك بخدرة في إنشاء حكم مطلق في كل من قبرص والمملكة السورية ؛ ورغم أن حكم البارونات يميل إلى الإعتباطية والسير كيفما اتفق ، يصعب علينا أن نعي كيف يعتبر الحكم المطلق تحسينا للأحوال . ولقد كان فريديريك نفسه بعيدا جدا بحيث لا يستطيع السيطرة عليه ؛ وكان حكمه على الرجال سيئا ؛ إذ أن وضع الحكم المطلق في قبضة رجل مثل ريتشارد فيلاتيري لا بد وأنه كان

(٥٠) *Estoire d'Esches*, II, pp. 406-7; *Gesta der Chypriota*, pp. 112-13

(٥١) انظر نقلا صفحة ٢٢٩، الخالية ٢٦.

سيؤدي إلى كارثة سريعة ؛ وكان الحل الأمثل هو ما أوصى به البابا نفسه ، وهو اتحاد حكومة الأراضي الرئيسية مع قبرص<sup>(٢١)</sup>، غير أن تقييد البارونات بالقانون ، الذي جعلهم يعارضون استناد فريديك ، لم يكن ليسمح لهم بوجود أي ملك آخر بخلاف سيدهم الشرعي ، ابنه كونراد . وأما الاتحاد مع قبرص ، فبتعين أن ينتظر إلى أن تأذن به يد الرب . لقد كان موقف البارونات متعاسكا وسلبيًا . لكنه في ذات الوقت قسّ القوي.

(٢١) - تشرح البابا على جيراردى لو نور أن تقبل الأراضي الرئيسية منطقة الملك القوي (Envoies d'Envoies, ii, p. 807)



\_\_\_\_\_

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

---

## الفصل الرابع:

### فوضى مقننة



## فوضى مَظَنَّة

"إِذِ النَّاسُ مِنْكُمْ يُسْكَتُ شَيْئًا"  
(الرسالة إلى العبرانيين ١٩: ٧)

ترتب على موت لورد بيروت المعجوز أن جرد اوتريه من زعيمها الطبيعي ، ولم يمنع قط أي يارون فرنجي آخر بهذه المكانة العالية مسرة أخرى . ولقد أدى دوره، إذ أسس تحالفا بين البارونات وكرميون عكا ، ودلهم على سياسة مشددة تركيز على حقوقهم القانونية . ومن بين أبنائه الأربعة ، بقي اثنان في الأراضي الفرنسية السورية هما باليان الذي استخلف على إمارة بيروت ، وجون الذي ورث إقطاعية كنه في أرسوف ، وتسلم اثنان ضياع الأسرة في قبرص وتزوج كلاهما زواجا سياسيا أعاد الوحدة إلى نلاء المملكة ، فتزوج بلشوين ، الذي أصبح (قهرمانا) ، من أخت أماليك (أوف يسان) ، وتزوج حوي ، الذي أصبح باورا ، من ابنة وورشة زعيم المشردين كمالريك بارليه . أما ابن أخى اللورد المعجوز ، وهو جون آخر ، والذي أصبح كونت باغا ، وواضع قوانين القدس، فكان أبرز القانونيين في المملكة . وكان ابن عمومته

بالإن أمير صيدا لا يزال قائما بأعمال الوكيل مع كودو (أوف مونتيلارد) ، غير أن فشل سياسته الترفيقية أضعف من سلطته . وكان أقوى القبلاء ابن عم آخر هو فيليب (أوف مونتفورت) ، وهو أخو سيمون ذلك الذي قاد الحملة الصليبية الألبانية. وكان فيليب قد تزوج مؤخرا الأميرة الأرمنية ماريا ، ابنة ريكوند-روبين، وهي وريثة طورون عن طريق أم حداثها، أخت آخر لوردات طورون. وفوق ذلك، أكمل حون أمير فيسارية، وهو ابن عم آخر، الفرع المالكي الذي يسيطر الآن على أوترمييه . وأضاف إلى شهرة الثور العجوز بعد وفاته أن أصبح أبناؤه وأبناء إخوته على استعداد للعمل معا بروح من التضامن ؛ وتولت عري وحدتهم بمقتهم للبلاتيري الذي كان لا يزال يمثل صورا للإمبراطور<sup>(١)</sup>.

وحتى مع ذلك، كان وضع مملكة ما وراء البحار مقلقا . إذ مات يوهنند الرابع أمير أنطاكية وكونت طرابلس في شهر مارس ١٢٢٢م بعد أن تصالح أخيرا مع الكنيسة . وقد أظهر لنا ملحوظا إبان الحروب التي دارت بين الإمبراطوريين وبارونات أوترمييه . إذ أنه رحب بهادئ الأمر بفريديك موارغ من كراليتيه للإيطاليين الذين عارضوا تعيين ابنه يوهنند ، زوج الملكة أليس ، في الوصاية على قبرص . وبعد ذلك ، وخشيته من طموحات فريديك غيّر من سياسته . فبعد تطليق أليس من يوهنند الصغير بسبب قرابة الدم وافق طواعية على الزواج حون الإيبليين بزواج أصغر أبنائه ، هنري ، من ليزابلا القبرصية ، كبرى أخوات الملك هنري ، وهو زواج يستهدف في النهاية وضع أمير أنطاكية على العرش القبرصي . غير أنه في ذلك الوقت كان فريديري قد انتصر في معركة كاسال إلمرت ؛ ولذا راوغ يوهنند ، مدفوعا برغبته في أن يكون في جانب المنتصر . ولم يتم الزواج إلا بعد هزيمة الإمبراطوريين في قبرص<sup>(٢)</sup>. وفي ذات الوقت، على وجه التفریب تصالح يوهنند مع فرسان المستشفين . وكانت الكراعية للشركة للإمبراطور فريديريك من جانب كل من لافامي فرسان المعبد والمستشفين قد دفعتهما إلى التعاون معا إلى حين ، ولم يكن بوسعهم أن يضرب أحدهما بالآخر . ولذلك أعلن عن خضوعه للكنيسة والتمس من جيروالد رئيس أساقفة القدس أن يتفاوض مع فرسان المستشفين من أجله . ووافق النظام على إسقاط مطالبته بما وعده

(١) عن أسرة زيلين ونساء صومطرا لفرقة الأسلاب، المرقن تحت أمانه، المراجعة على Ligege d'Ovenner.

(٢) Arnaldi, pp. 123-4 بالنسبة لظلال أليس و Estève, pp. 86-7, Gertze des Chypriotes, d'Amal, ii, p.360 بالنسبة لزوج (أوتريلا)

ويكون -رويين من مزاييا والإعزاز بمقوق بوهند الإنطاكية ، وذلك في مقابل إيجارات ضخمة لمتلكات في موانع في أنطاكية وطرابلس. وفي الوقت ذاته رفع حيود حكم الطرد من الكنيسة الصادر ضده ، وأرسل إلى روما للتصديق على تلك التسوية . وجاء تصديق البابا بعد أسابيع قليلة من موت بوهند<sup>(٢)</sup>.

#### ١٢٢٣م : بوهند الخامس أمير أنطاكية

وبرغم كل أخطاء بوهند الرابع فقد كان حاكما قويا ، أعجب حتى أعداؤه بتفانيه وتعليمه كقانوني . أما إنه بوهند الخامس فكان رجلا ضعيفا ، وكان ابن الكنيسة البار ، وصيغ للبابا جريجوري التاسع بأن يختار له زوجه الثانية ، لوشين (أوف سينتي) التي كانت من أسرة البابا<sup>(١)</sup>. وبعد سنوات قليلة ، في عام ١٢٢٤م ، وباستدلاله لشجرة أبيه ، حصل من روما على ضمان بعدم إمكان الحكم عليه بالطرد من الكنيسة إلا عن طريق البابا شخصيا<sup>(٢)</sup> غير أنه لم يكن السيد في إمارته هو نفسه ؛ إذ كان الذي يحكم أنطاكية مجلسها الإداري (الكوميون) ، ولم يكن يحظى معه بشعبية أبيه ، ربما لأن صداقته بروما أغضبته العنصر اليوناني القوي هناك ، ومن ثمّ فضل الإقامة في عاصمته الثانية طرابلس . ولم تكن له من سيطرة على الأنظمة الدينية العسكرية ، وكانت علاقته بأرمينيا في ظل الميرميين تنقصر إلى الود ، وكان قطاع اللاذقية الإسلامي يشطر أراضيها إلى قسمين ، وكان عهده بمثابة علامة على الانحلال سريع<sup>(٣)</sup>.

وكان فريدريك قد استبعد أنطاكية وطرابلس من معاهدة السلام التي عقدها مع الكامل لتضيقه من بوهند الرابع آنذاك . ومع ذلك لمكن بوهند من الحفاظ على السلام مع جيرانه المسلمين ، بخلاف بعض هجماته على الخشاشين الذين يعضهم باعتبارهم حلفاء فرسان المستشفين . وكانت الأنظمة الدينية العسكرية على جانب كبير

(٢) Cohen, *La Syrie de Robert, Regente Regni Hierosolymitani*, pp. 269-70. Nond. pp. 642-3.

(١) *Estoire d'Eracles*, II, p. 408. كانت لوشين حفيدة إبيّة أميت (إيوسنت القيث ولينا فهي من بنات حورلة جريجوري التاسع).

(٢) *Innocent IV, Registra*, 418 (ed. Berger), I, p. 75.

(٣) Cohen, *op. cit.* pp. 650-2, 664-6; Ray, *Histoire des Princes d'Antioche*, p. 400. كلف.

من قلة الحذر ، وهذا ما كان منار معارضته الشديدة . إذ أن فرسان المستشفى استنابوا الكامل حتى أغار على قلعة الكرك عندما كان بها حم دمشق عام ١٢٢٨ م . وفي ١٢٢٩ م شنوا غارة مضادة على بارين ، وفي ١٢٣٠ م شاركوا فرسان المعبد في طرطوس في شن هجوم على حماة حيث وقعوا في كمين وهزموا هزيمة منكرة . وفي العام التالي انقضت الأتظمة الدينية العسكرية فعاد على جيلة ، ولم ينفطروا بها إلا لأسابيع قليلة . وفي نهاية الأمر عقدت هدنة في ربيع ١٢٣١ م دامت لعامين<sup>(٢)</sup>.

وبعد استخلاص بوهمند الخامس مباشرة أرسل أمراء هنري مع فريق من عكا وقصر لمساعدة الأتظمة الدينية العسكرية في هجوم آخر على بارين التي اقتدت نفسها بالوعد بدفع إثارة يتسلمها نظام فرسان المستشفى من حماة . واستمرت المدينة المحصنة حتى عام ١٢٢٧ م ، عندما اقتض فرسان معبد بجراس فعاد على قبائل التركمان المستقرة في شرق بيرة انطاكية . وحسب جيش حلب في كامل قوته للانتقام بحاصرة بجراس التي لم يتلقها سوى وصول بوهمند نفسه الذي تدبر تهديد المدينة . واستاء مرشد فرسان المعبد في انطاكية وهو وليم (أوف مونفرات) من هذه الإهانة وضرب برغبات بوهمند الصريحة عرض الحائط معلناً أنه سوف يفرق المدينة بعد إبرامها مباشرة. وفي شهر يولية من ذلك العام عرض فرسانه ولورد جيبيل ولوردات علمانيين قليلين على مهاجمة قلعة درب الساق الواقعة شمال بجراس . وأخذت حاميتها على حين غرة لكنها قاومت مقاومة شديدة ، بينما أسرع الرسل إلى جلب التي أرسل إليها على الفور جيشاً قوياً . وسمع بعض الأسرى المسيحيين تبناً إرسال هذه القوة ، فذهبوا لإرسال رسالة إلى وليم يخبرونه على الإنسحاب ، فتجاهل ذلك التحذير في كورباء ، ففوجئ بفرسان المسلمين يتفقدون عليه ، وهُزمت قوته الصغيرة هزيمة منكرة ، وقتل هو نفسه ووقع أغلب وفاقه في الأسر . وذبوح أبناء الكارثة كتب كل من نقاشي المعبد والمستشفى رسالتين متطهراً إلى الغرب للندبة ؛ على أن المسلمين لم يتابعوا انتصارهم ، إذ أنهم تلقوا وعداً بمبالغ وفيرة من المال لاختداء أسرهم ، فوافقوا على تجديد الهدنة . وفقدت الأتظمة الدينية العسكرية ثقتها بنفسها وحافظت على السلام لعشر سنوات موافقة البابا الذي اضطر إلى تقديم أكثر قدر من أموال المدينة<sup>(٣)</sup>.

(٢) Cohen, op. cit., p. 642 no. 6, 7. Ibn al-Athir, ii, p. 180.

(٣) Histoire d'Eracle, li, pp. 403-5; Annales de Terre Sainte, p. 436; Kemal ad-Din, trans. Blochet, pp. 85, 95-6, Abul Feda, pp. 110-12.

وبعزى إلى السلطان الكامل العظيم، ولحسن حظ الفرنج، ما أبداه المسلمون من غيبة الروح العدوانية، ذلك أن الكامل كان رجل سلام وشرف. ومع ذلك كان على استعداد لأن يهارب وأن يهيك المكائد في سبيل توحيد الأراضي الأيوبية تحت زعامته، فليست المنازعات العائلية والمشاحنات من مصلحة أحد. وكان مهتماً بلدخ هجمات السلاجقة أو أتراك حوارزم، ومثلها لا توجد اضطرابات بسببها للمسيحيين، فهو تاركهم في حالهم. وكان أمراء المسلمين جميعاً مدركين للمزايا التجارية للمواني الحرة الفريجية القريبة من حدودهم؛ وكانوا كارهين للمحاوطة بتغيير مسار التجارة النخمة بين الشرق والغرب بعدوات حمقاء، وكان الكامل خاصة حريصاً على نهضة الإزدهار المادي لرعاياه؛ وفضلاً عن ذلك، كان كصديقه فريدريك الثاني، رجلاً ذا فضول ذهني واهتمامات فكرية واسعة، وكان ذا تسامح أميل وطيبة على نحو يفوق للغاية آل هوهنشتوفن. وعلى الرغم من افتقاره إلى ما كان عنه صلاح الدين يردان به من حلال الطولة، وحدة الفطن الموقد وما كان أبوه المعادل يتحلى به، فقد كان يفيض عاطفة إنسانية أكثر من أيهما. وكان ملكاً ذا اقتدار. وربما استهجن معاصروه للمسلمين ما كان يظهره من استعفاف "للسراجل الأشقر"، لكنهم كانوا يحترمون ما كانت عليه حكومته من عدالة ونظام جيد<sup>(٩)</sup>.

#### ١٢٢٩م: الكامل يعيد وحدة الإمبراطورية الأيوبية

تملح طموح الكامل في إعادة توحيد العالم الأيوبي. ففي شهر يونيو ١٢٢٩م تمكن أموره الأشرف أخيراً من إبعاد ابن أخيه الناصر عن دمشق بعد أن شج على مسييل التمرد مملكة في وادي الأردن وشرقي النهر، عاصمتها الكرك، تحت سيادة الكامل المقلدة. واحتفظ الأشرف بدمشق مع اعتدائه بسيطرة الكامل وتخليه له عن أراضي الجزيرة وبطول الفرات الأوسط. وتلك كانت مقاطعات الإمبراطورية الأيوبية الأكثر تعرضاً للهجوم ولذا رغب الكامل في السيطرة عليها مباشرة نظراً لما كان يمثلته خلال الدين الخوارزمي من تهديد حد عظم، ووراءه إلى الشرق ما لا يعلمه إلا الله من قوة للقبول، هنا في ذات الوقت الذي كان فيه السلطان السلجوقي كايكوباد يشدد ضغوطه باتجاه الشرق من الأناضول. وفي ١٢٣٠م، وعندما كان الأشرف في دمشق،

(٩) عن الكامل، انظر شام لبي القدا عليه p. 114، Abu'l Fedl's essay، وابن حنكاشة Khalilkan, iii, pp. 241-2.



استولى حلال الدين على قلعة العظيمة الأطلال بالقرب من بحيرة فان ، وسار لمهاجمة السلاجقة، فسارع الأشرف شمالا وتحالف مع كايكوباد ، وهزم التحالف حلال الدين هزيمة حاسمة بالقرب من ليرزينجان . وفي ذات الوقت كان المغول يهاجمون مؤسرة الإمبراطورية الخوارزمية ، ومن ثم بدأ تفكك تلك الإمبراطورية . وفي العام التالي هزم المسلمون حلال الدين نفسه الذي قتل أثناء فراره يوم ١٥ أغسطس بيد فلاح كردي كان حلال الدين قد قتل أخاه منذ زمن طويل<sup>(١٠)</sup>.

وبغياب صلاح الدين احتل توازن القوى؛ إذ أصبح السلاجقة في شرق الأناضول بلا فرهم ، وبنات المغول قادرين على التقدم غربا في حرية ، وتمتعت الخلافة العباسية في بغداد بأشهر قليلة من الاستقلال نادرة ومقلقة . ولم يمض وقت طويل قبل أن يلتفت كايكوباد إلى أراضي الكامل الواقعة في القرى الأوسط . ومنعت الفسوة من ١٢٢٣م إلى ١٢٢٥م في حروب متصلة ، وانتقلت الرها وسروج ومدن أخرى في الإقليم من سيد إلى آخر إلى أن تمكن الكامل في نهاية المطاف من ترسيخ قواعده . وأثار نجاح الكامل غيرة قناريه ؛ وكره الأشرف وضعه كتابع ؛ وفي حلب مات فجأة عام ١٢٣٦م الملك العزيز الصغير ابن الظاهر ، وتولت أم الظاهر حيفة الوصاية على حليفها الظاهر الثاني، وهي أخت الكامل، لكنها كانت تحب طموحات أبنائها، وشاركتها عائلتها عدد من صفار الأمراء الأيوبيين . وأثناء الأشهر الأولى من عام ١٢٣٧م جمع الأشرف حلفاءه ، وضمن العون لثقل من كايكوباد ؛ وبدأ أن لا يمر من الحرب الأهلية ، لكن كايكوباد مات في بداية الصيف وأصيب الأشرف بمرض خطير، وتموته يوم ٢٧ أغسطس تددت المؤامرة ؛ إذ استولى أحد اخوته الصغار ، الصالح إسماعيل ، على دمشق وحاول بلا جدوى إعادة توحيد التآمريين . وبمساعدة الناصر والملي الكرك ، زحف الكامل على دمشق في يناير ١٢٣٨م وضمها وعرض الصالح إسماعيل بقطاعة في بعلبك. على أن العمر لم يطل بالكامل وانتصاراته ؛ فبعد شهرين مات في دمشق يوم ٨ مارس وهو في الستين من عمره<sup>(١١)</sup>.

(١٠) Ibn Khallikan, iii, pp. 242, 458-9; Ibn al-Athir, ii, pp. 176-8; Magrasi, x, pp. 250-2. ونظر 644-6 pp. cit. Cohen، والمراجع للمخطوطات.

(١١) Ibn Khallikan, iii, pp. 242-4; Kamil ad-Din, trans. Blochet, pp. 88-99. See Cohen, op. cit. pp. 645-6.

## ١٢٣٩م : الحرب الأهلية فيما بين الأيوبيين

وأطلقت وفاته الحرب الأهلية من عتقها . إذ كان أكبر أبناء الصالح أيوب ، ووالدته كثة سودانية، في الشمال فسار في الحال إلى دمشق التي سبق أن استولى على السلطة فيها أحد أبناء إخوة الكامل وهو الجواد، ويمكن الصالح أيوب من خلع ابن عمه بمساعدة بعض قطاع الطرق الحواريين . وفي ذات الوقت تم لتصيب أخيه الأصغر ، العادل الثاني ، سلطاناً على مصر . وكان الصالح أيوب قد عزم على أن يأخذ لنفسه أغنى مقاطعات أبيه ، لكنه عندما شرع في غزو مصر ، قام عمه الصالح اسماعيل بانقلاب مفاجئ خلعه من عرشه في دمشق ، وأثناء فرار الصالح أيوب باتجاه الجنوب وقع في قبضة الناصر صاحب الكرك الذي، رغم ذلك، تبنى قضيته وأعطاه حدوده لغزو مصر . وكان غزواً يسيراً . إذ أساء العادل الثاني إلى وزيرائه بشأن عهد بالخكومة إلى زعيم شاب كان به ولوفاً ، وحيكت مكيمة ناجحة خلعه في يونيو ١٢٤٠م، ودعى الصالح أيوب ليحتل العرش المصري ، وكوفئ الناصر بمنصب الحاكم العسكري لفلسطين . على أن الصالح اسماعيل بقي سيد دمشق ، وبات العالم الأيوبي طوال العقد التالي ممزقة الخصومة بين العم وابن أخيه . وسرعان ما استحال الشمال إلى فوضى ، إذ راح أفراد عصابات الحواريين يغيرون فساداً في أنحاء شمالي سوريا ، بأوامر من الصالح أيوب فيما يبدو . وفي الجزيرة احتفظ أمير حيفارفين الأيوبي ، الملقب ، بسلطة ضعيلة . وحاول ابن الصالح أيوب ، نوران شاه ، جمع شتات أراضي حده ، لكن مدناً كثيرة سقطت في قبضة السلطان السلجوقي . وفي حلب بقي الناصر يوسف - الذي حلف أخاه عام ١٢٣٦م - في جانب الدفاع ، في نفس ذات الوقت الذي كان فيه أميراً حمداً وخمس مشغولين للغاية بصد الحواريين<sup>(١٢)</sup>.

وفي عضم هذا الاضطراب العنيف انتهت المعاهدة الموقعة بين فريدريك الثاني والسلطان الكامل . وكان البابا جريجوري التاسع قد أعيد لذلك عدته بأن أرسل في صيف عام ١٢٣٩م عملاء للتشجيع بحملة صليبية في فرنسا وألمانيا ، ولم يتوفر عند الملك الفرنسي ولا لللك الإنجليزي الاستعداد للاستجابة شخصياً لماشدته ، غير أنهما أقربا للمبشرين عن كامل تشجيعهما . وفي أوائل الصيف كانت هناك صحبة متميزة من النبلاء الفرنسيين على استعداد للإبحار إلى الشرق . وكان على رأسهم تيمالد وأوف

(١٢) من هذا التاريخ للشرب أنظر ، Maqrûs, x, pp. 245-6; Ben Khallikan, ii, pp. 443-6, iii, pp. 245-6; Maqrûs, x, pp. 297-330; Kamil ad-Din (Ismâ'îl Bîshrî), loc. cit. Cohen, op. cit. pp. 646-9.

شامباتي)، وهو ملك نافار<sup>(١٢)</sup>، وابن إسي هنري (أوف شامباتي)، ولذا فهو من أبناء عمومة ملوك فرنسا وألمانيا وقبرص. وكان معه دوق برجندي هيو الرابع، وبطرس نوكلير كونت برياني، وكونتات بارونفيس ومونتفورت وجوني وساتيسير والكثير من اللوردات الأقل. وكان عدد جنود المشاة أقل من المتوقع بالنظر إلى ارتفاع مستويات المقادة؛ غير أن الحملة كلها كانت هناك<sup>(١٣)</sup>.

وكان في مأمول تيبالد أن يركب البحر مع وفاته من برنديزي، غير أن الحروب التي دارت بين البابا والإمبراطور جعلت الرحال حلال إيطاليا صعباً؛ فضلاً عن أن الإمبراطور، الذي تقع برنديزي في أراضيه، لم يكن سعيداً بالحملة الصليبية، إذ كان يعتبر نفسه حاكم فلسطين لإبنته الصغير ومن ثم كان ينبغي الحملة ذاعية لمساعدة ملكه أن يتم تنظيمها تحت سلطته هو. ولم يكن بوسعه مولقة النبلاء الفرنسيين الذين كانوا يتجهون بفطرهم - دون شك - إلى تأييد بارونات لوترنجيه حشد. وفضلاً عن ذلك، ولإدراكه لوضع العالم الإسلامي، كانت الآمال لداعيه في انتزاع مسابرة طيبة للمملكة بالطرق الدبلوماسية، ولا شك في أن هيو هؤلاء الفرسان الطامحين نافذ الصبر سوف يقضي على تلك المفاوضات، بيد أنه نظراً لمشاكله في إيطاليا لم يكن بوسعه أن يرسل هو نفسه رجالاً للسيطرة على هؤلاء الفرسان، وإنما حصل على وعد بعدم الإقدام على أي شيء إلى أن تنتهي الهدنة في أغسطس، ثم أحبل نفسه من الأمر برثته. ولذا انظر الصليبيون إلى ركوب البحر من أجوس-مورت ومرسيليا<sup>(١٤)</sup>.

#### ١٢٣٩م: تيبالد (أوف شامباتي) وحملة الصليبية

كانت رحلة الحملة الصليبية رحلة عاصفة خلال البحر المتوسط، اترفت فيها بعض سفنها إلى قبرص، وانطلق بعضها عائداً حتى بلغ صقلية. غير أن تيبالد نفسه وصل عكا في أول سبتمبر؛ وخلال الأيام القليلة التالية تجمع هناك جيش قوامه ألف فارس على وجه التقريب. واتخذ مجلس في الحال لتقرير أفضل سبل الاستفادة من هذا

(١٢) للرجوع: Navarre: نظم تاريخي وشمكة سابقة في شمال شرق إسبانيا وجنوب غرب فرنسا.

(١٣) *Estoire d'Eracles*, II, pp.413-14; *Geist der Kreuzzüge*, p.118; Gregory IX, letter, in Potthast, Regesta, I, p.906.

(١٤) *Estoire d'Eracles*, II, loc. cit.; 305 of Rothen, p.528; Gregory IX, letter, in Potthast, op. cit., I, p.910.

الجيش ، وحضر المجلس بالإضافة إلى الأمراء الزائرين أعظم البارونات المحليين ، ممثلين عن الأنظمة الدينية العسكرية ، بينما حضر رئيس أساقفة صور ، بطرس (أوف سارجين) نيابة عن بطريرك القدس . وكانت لحظة مناسبة لمشروع «بلماسي» إذ أتاحت المشاحرات بين ورثة الكمام القرمصة للمسيحيين لاستخدام قوتهم الجديدة كنقطة مساومة وللحصول على تنازلات سخية من واحد أو آخر من الفرق المتصارعة. لكن الصليبيين عابوا ليحاربوا ، ولأنهم لم يملأوا الخندق المشين الذي سلكه فريدريك . ولذلك أوصى البارونات المحليون بتسيير حملة ضد مصر . ولن تتسبب تلك الحملة في الإساءة إلى حوائثهم المسلمين القريبين في سوريا ، ليس هذا وحسب وإنما أيضا ستكون واعدة بفرض نجاح طيبة نظرا لما يفتقر إليه السلطان العادل من شعبية . وأكد آخرون أن دمشق هي العدو ؛ وعلى الجيش تقوية حصون الجليل ثم الزحف على العاصمة السورية . على أن ليباله كان يشتهي انتصارات متعددة ، فقرر أن يهاجم الجيش أولا القاعدتين الأماميتين للصليبيين عسقلان وغزة ، وربما كان ذلك بناء على اقتراح كونت ياقا ، والد (أوف برين) الذي لم يكن ينتمي إلى جماعة العائلة الإمبريالية ؛ ثم يهاجم دمشق بعد ضمان الحدود الجنوبية. وبسماح تلك الأنبياء، هرعت الرسل لمجرب كل بلاط أوروبي للترتيب لخدمة مؤقتة بين الأمراء المسلمين<sup>(١٦)</sup>.

وانطلقت الحملة من عكا إلى الحدود المصرية يوم ٢ نوفمبر ، وصحب الصليبيين فصائل من الأنظمة الدينية العسكرية وعدد من البارونات المحليين . وكتب سوهام بالهاء ياقا ، جاء أحد الخوارج وأحد بطرس (أوف برين) بأن هناك قافلة إسلامية نفيسة تتحرك على وادي الأردن فاصدة دمشق ، فما كان من بطرس إلا أن خرج على جواده في الحال مع والي (أوف سواسون) ومئتين فارس ونصبوا كميناً للقافلة . وكانت القافلة مسلحة تسليحا جيدا ، وفي المعركة التي نشبت كاد بطرس أن يقتل ؛ لكن جنود المسلمين هربوا في نهاية الأمر تاركين قطيعا ضخما من اللاتسي والأغنام استولى عليها المسيحيون ، وقاد بطرس للنتصر أسلحة غائبا إلى ياقا التي وصلها رفاته الآن . ونظرا لتناقص الطعام لدى الجيش فقد قوبل انتصاره بالترحيب الشديد . على أن انتصاره هذا حقق عذرا من العناصر صاحب الكرك<sup>(١٧)</sup>.

وسير على وجه السرعة جيش مصري من الدلتا إلى غزة بقيادة المملوك وكن

(١٦) . MS. of Bathelin, pp. 531-2; Histoire d'Yvoches, II, pp. 413-14.

(١٧) . MS. of Bathelin, pp. 533-6.

الدين . وكانت أول أبناء عن وصوله تلقاها المسيحيون نقيد بأن عدده يهرد ألف رجل. ونظرا لما كان يكنه هنري (أوف بار) من مشاعر الغيرة لنجاح كونت بريثاني ، فقد عزم في الحال على مهاجمته واكتساب ما يترتب على ذلك من جدارة وأسلاب ؛ وأبقى خطته على الكتمان عن الجميع هذا القليل من الأصدقاء مثل دوق برجاندي وغيره من اللوردات القادمين من شرق فرنسا ؛ ثم أدخل في الصحبة الوكيلين عن المشكلة ، باليان أمير صيدا وأودو (أوف مونتيلارد) اللذين ملأهما الإستهاء من قيادة تيبالد ، وكان معهما والو أمير يافا وأحد الإيبيلين ، وجون أمير أرسوف . وعند حل ليل ١٢ نوفمبر، تهيأت الصحبة كلها للزحف على غزة ، وكان فرانسوا حسمانة من الخيالة وأكثر من ألف من المشاة . غير أن الأنباء تسربت ؛ إذ بينما كانوا ينتظرون صهوات خيولهم فاجأهم الملك تيبالد وسادة الأنظمة الدينية العسكرية الثلاثة ؛ كونت بريثاني، وسكوا بالرحاء ، ثم بتوجيه الأوامر إليهم للعودة إلى المعسكر ، لكن هنري كونت بار رفض التحول عن موقفه واتهم الملك وأصدقائه بالخن ونغدي لأوامره ؛ وانطلق الفرسان في أشعة القمر التي تبتد ظلام الليل. أما تيبالد ، الذي كان متشككا في مدى قوة الأعداء الحقيقية ، لم يكن يوسع منعه. وفي الصباح التالي نقل معسكره إلى أسوار عسقلان لتقديم العون إذا قصت الحاجة.

وكان كونت بار شديد الثقة من النجاح بحيث أنه عندما تقرب من غزة في الفجر تقريبا أوقف رحاله في فجوة بين التلال الرملية على شاطئ البحر وأمرهم بإعداد فسطح من الراحة . غير أن الجيش المصري كان أكبر بكثير مما كان يظن وقد انتشر حواسيسه في الأضواء . ولم يصدق الأمير وكن الدين أن أعدائه على هذا القدر من الخيلة ؛ فأرسل الرماة زاحفين حول الكثبان الرملية إلى أن أحاطوا تقريبا بالفرنج . وكان والو سيد يافا أول من تحقق مما يحدث ، فتصيح بانسحاب سريع نظرا لعدم إمكان الجياد من المناورة في الرمال العميقة ؛ وركب هو نفسه حواده وابتعد ناحية الشمال ومعه دوق برجاندي ؛ وتبعه فرسان أولترجيته الآخرون بأسرع ما أمكنهم . بيد أن هنري كونت بار ما كان ليترك الأشاة الذين قادهم إلى الكمين ؛ وبقي معه أقرب أصدقائه . وسرعان ما انتهت المعركة على مشهد خيوطهم وحشود المشاة وهم يكذبون في الكثبان الرملية بحن فيهم الكونت هنري نفسه . وأسر المصريون ستمائة آخرين وحملوهم إلى مصر ، كان من بينهم كونت مونتفورت الشاعر - فويلب (أوف ناتيل) - الذي تمطى بأهله في السحن بسبب اللعنات المسبوبة على الأنظمة الدينية العسكرية التي ألقى عليها باللائمة ، بدافع العاطفة أكثر منه برازع المصلح ، لفشل تلك الحملة الحفقاء.

## ١٢٣٩ م : هزيمة الفرنج في غزة

عندما وصل المغاريون عسقلان ، تنسب تيبالد الحذر وأراد الرجف على غزة في الحال لإنقاذ رفاقه ، لكن فرسان كورنيمه لم يوافقوا ، إذ من الحق المصاطرة بالجيش ، وبقينا سيقتل المسلمون أسراهم بدلا من أن يفقدوهم مرة أخرى . فتملك الغضب تيبالد ولم يغفر ذلك لجنوده قط . على أنه لم يكن هناك لبقايا الجيش شيء سوى العودة البطيئة إلى عكا<sup>(١٨)</sup>.

وفي ذات الوقت رد الناصر صاحب الكرك على المقحوم البيروني على القافلة الإسلامية بأن زحف على القدس . وكانت القدس كلها بلا حماية فيما عدا الجزء من السور المجاور للوابة القديس ستيفن ، الذي بدأ فريديريك تشييده ، وقلة تضم برج داود ، جرى تقويتها مؤخرا . وكانت تلك القلعة تدعى بالولاء لا للحكومة في عكا وإنما للملجأ في صور ، وكان قد أُعْمِلَ إمدادها بتأمين ملائمة . واحتل الناصر المدينة بسلا سهولة ، لكن جنود الخامية صمدوا إلى أن نفذت الشؤون بعد سبعة وعشرين يوما ، فاستسلموا يوم ٧ ديسمبر مقابل عبور آمن إلى الساحل . ودمر الناصر التحصينات ، بما فيها برج داود ، ثم انسحب إلى الكرك<sup>(١٩)</sup>.

بعد كارثة غزة انتقل تيبالد بقواته شمالا إلى طرابلس . إذ جاء مبعوث المظفر الثاني أمير حماه الذي كان على خلاف مع جميع أقاربه الأيوبيين ، والذي كان يهتده التحالف بين الوصي على حلب وأمير حمص . وعرض على الفرنج أن يساعدوه لقاء التحلي لهم عن قلعة كرك قلعتين ، وأعرب عن أمله في التحول إلى المسيحية ؛ فقبل تيبالد العرض في وقت استخفه الحضور . غير أن تقدمه إلى طرابلس ودع أعداء المظفر الذي أرسل إلى تيبالد قتالا في أدب إن خدماته لم تعد مطلوبة برغم ما حدثت<sup>(٢٠)</sup>.

(١٨) ورد وصف ناضح بالحياة في: *Gestes des Chiprois*, pp. 178-180; *MS. of Rodolphe*, pp. 517-520; *Envoie d'Eracles*, ii, pp. 414-15; *Abu Shama*, iii, p. 193. ويرد خطأ في النص بشأن التاريخ في: *Maqrûsi* وأنشعار ملب متبسة في: *Rothelin*, pp. 548-9.

(١٩) *MS. of Rodolphe*, pp. 529-31. حيث ورد ذلك قبل معركة غزة ، ولا يرد سوى تاريخ السنة ٦٢٧ و٦٢٨ (٦٢٧-٦٢٨) *Maqrûsi*, x, pp. 323-4. ويسمى تاريخ الاستسلام ، أي بعد معركة غزة (٦٢٧) و٦٢٨ (٦٢٧) *Abul Feda*, pp. 196-7. ولذا أن قبل التاريخ الذي توردته القديري.

(٢٠) *Kamil ad-Din*, trans. *Abul Feda* (الفرج أبو الفدا من جديد للمظفر الثاني) ، *Envoie d'Eracles*, iii, p. 416; *Gestes des Chiprois*, pp. 115-19; *Envoie d'Eracles*, iii, p. 416; *Gestes des Chiprois*, pp. 98, 100, 104-105.

وكتاء تربت الحملة الصليبية في طرابلس نصّب الصالح أيوب نفسه سيّدا لمصر ،  
واندلعت الحرب بينه وبين الصالح إسماعيل في دمشق . ولغدا وانحاز أن بإمكان الفرنج  
إجراء مساومة طيبة . وسارع تيبالد بالعودة حذرا وعسكر بجيشه في الجليل بجوار عيون  
سفورية . ولم يفلّ انتظاره . ففي وقت مبكر من صيف عام ١٢٤٠ م ، تخلى الرعب  
الصالح إسماعيل من غزو قام به الصالح أيوب والناصر مجتمعين ، فالتجّح على الفرنج  
إقامة تحالف دفاعي . فإذا ضمنوا حراسة الحدود المصرية من الساحل وإمداده بالأسلحة  
فإنه يتعلّى لهم عن القلعين العظيمين شقيف كرون وصفد والشلال الواقعة بينهما .  
وقام بالمفاوضات فرسان المعبد الذين كانت لهم الآن علاقات مالية مع دمشق ، وكوفئوا  
بامتلاك صفد . غير أن رغبا الصالح إسماعيل أصيبوا بالصدمة ، ورفضت حامية شقيف  
كرون تسليم ودعيتهم العظيمة لبيسان أمير صيدا ، وابن آبر لورداتها المسيحيين ،  
واضطر الصالح إسماعيل إلى الذهاب بنفسه لماصرة القلعة كي تستسلم . وغادر دمشق  
اثنا من ثمة الدين ، أحدهما الواعظ الأكبر للحامع الكبير ، تسيبرا عن تفرّجها مما  
حدث ولافا بالقاهرة<sup>(٢١)</sup>.

#### ١٢٤٠ م : نهاية حملة تيبالد الصليبية

أدى انعدام الثقة في الامبراطور فريدريك إلى تحالف صعب بين فرسان المعبد  
والمستشفى للسنوات الإثني عشرة الأخيرة ؛ غير أن حصول فرسان المعبد على صفد  
جاوز احتمال فرسان المستشفى ، فبينما قاد تيبالد جيشه لينضم إلى قوات الصالح  
إسماعيل ، بين ياقا وعسقلان ، شرع فرسان المستشفى في مفاوضات مع الصالح أيوب ،  
وقوي مركزهم عندما هرب نصف رجال الصالح إسماعيل إلى المعسكر المصري  
لكراعتهم العمل مع المسيحيين ، واضطر الحلفاء إلى الانسحاب . وكما كان الهدف  
الرئيسي للصالح أيوب هو هزيمة الصالح إسماعيل ، فقد ابتجع عندما اتحت له الفرصة  
للخروج من التحالف ؛ فعرض على الفرنج إطلاق سراح أسراهم في غزة ومنحهم الحق  
في احتلال عسقلان وتحصينها ، في مقابل التزامهم بالحياد . ووقع السيد الأعظم  
لفرسان المستشفى الاتفاق في عسقلان مع ممثل السلطان . وكان ذلك نصرا ديبلوماسيا  
للصالح أيوب الذي تمكن بتكلفة زهيدة من حياجه من كسر التحالف الذي تعان الصالح

<sup>(٢١)</sup> *Enquête d'Eracles*, ii, pp. 417-18; *MS. of Rosheln*, pp. 551-3; *Genes des Chirochs*,  
p. 12; *Abul Feda*, loc. cit.; *Magris*, x, p. 340; *Abu Shama*, ii, p. 193.

إسماعيل نفسه بإنشائه. واقتبط تيبالد لإطلاق سراح أسارليك (أوف مونتغورث) وأصدقائه الآخرين، فمنح مساعدته لفرسان المستشفى. غير أن الرأي العام في كورنبيك أصيب بالصدمة لذلك التحلي الفاضح عن التحالف مع دمشق التي ظلت حتى يوم صلاح الدين الخليل التقليدي للمسيحيين. واتحدت شعبية تيبالد اتحاداً شديداً حتى أنه قرر العودة إلى أوروبا. وبعد حشّ سريع في القدس أبحر من عكا في نهاية سبتمبر ١٢٤٠م، وتبعه أغلب رفاقه فيما عدا دوق برجندي الذي أقسم على الانتظار لحين الانتهاء من تحصين عسقلان، وكونت نفري الذي انضم إلى جماعة اللورد البارونات المحليين الذين عسكر معهم بالقرب من باقا، وقد أخذ على نفسه العهد بالإحتفاظ بالمعاينة مع دمشق ومقاومة أي غزو مصري.

لم تكن حملة تيبالد السلبية عقيمة تماماً. إذ استعاد المسيحيون شريف أرنون (بيغورث) وصفد وعسقلان جميعاً. غير أنه أتيح للمسلمين أن يفتضوا على مثال آخر من غير القرنج<sup>(٢٢)</sup>.

#### ١٢٤١م: ويشارد إيرل كورنوبل

وفي الحادي عشر من أكتوبر، وبعد أيام قليلة من رحيل تيبالد، وصل إلى عكا حاج أكثر مجزاً، هو ويشارد (إيرل كورنوبل)، وهو أمير هنري الثالث الإنجليزي، وأخته هي زوجة الإمبراطور فريدريك. كان في عامه الحادي والثلاثين، ويعتبر واحداً من أقوى أمراء زمانه. وقد حازت رحلة حجه كامل موافقة الإمبراطور الذي حوكله سلطات التصرف فيما وراء الأفضل للمملكة من تربيئات<sup>(٢٣)</sup>. وأصيب بالرعب لدى وصوله لما وجدته من فوضى عارمة؛ إذ يكاد فرسان اللورد وفرسان المستشفى أن يكونوا في حرب مفتوحة فيما بينهم، وبناصر البارونات المحليون فرسان اللورد، فيما عدا والتر أمير باقا، ولذا شرع فرسان المستشفى في السعي نحو كسب ود فيلانسيوي والإمبراطورين؛ ولما فرسان الثيوتون فقد انتحوا حانيا، وقد زودوا حصونهم السورية

(٢٢) *Ensaire d'Eracles*, II, pp. 419-20; *MS. of Roshkha*, pp. 553-5; *Genes des Chypriotes*, pp. 121-2; Maqrisi, s. p. 342.

(٢٣) عن ويشارد وحملته العسكية انظر: *Paschke, King Henry III and the Lord Edward*, pp. 197-200. وكان يجب الأموال لحملته الإمبراطورية لأخيه في القسطنطينية وانظر المرجع السابق ص ١٩٧ بالهاتفية ٩.



بالخاميات ، ولكنهم أولوا حُلْ اعتمادهم لضعفهم حيث كان الملك الأرمني قد عهد إليهم بمحور ضخم . وكان فيلاتيمى نفسه ما يزال يحتفظ بصور وكان هو المسؤول عن إدارة القدس<sup>(٢٦)</sup>.

ولدى وصول ريتشارد ، سارع إلى عسقلان حيث قابله سقراء من قبل السلطان المصري الذين طلبوا منه تأكيد المعاهدة الموقعة مع نظام فرسان المستشفين . ووافق ريتشارد ، لكنه لكي يهدئ بارونات أوترمييه أصر على أن يؤكد المصريون التنازل عن الأراضي التي سبق أن تنازل عنها الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، وأن يتيقروا إليها ما تبقى من الخليل ، بما في ذلك (الملواري) وجبل الطور وطبرية . ولم يكن يوسع الصالح إسماعيل منع هذا التنازل الجديد بعد أن فقد السيطرة على شرقي الخليل للناصر . وفي تلك الأثناء أطلق سراخ أسرى الحرب الفرنج المأسورين في غزة ، مقابل أسرى المسلمين القليلين لدى المسيحيين . وهكذا استردت المملكة كافة أراضيها السابقة غربي الأردن حتى ضواحي غزة جنوباً ، باستثناء مشورم لنابلس ومقاطعة السامرة . وبقيت القدس بلا تحصينات ؛ لكن كوفو (أوف مونتيلارد)، الذي كانت زوجته وروثة أمراء الجليل، بدأ في إعادة بناء قلعة طبرية ، واستكملت الأعمال في عسقلان . وقام ريتشارد بتعيين والتر بيتيني حاكماً لعسقلان ، وقد كان ممثلاً لفيلايمى في القدس . وأرسل الأميراتور فريديريك ، رعا بالتوازي من ريتشارد ، سفارة تهتة إلى السلطان الصالح أيوب الذي استقبل سفيرة بأسمى آيات التشريف والآهة في القاهرة وبقي هناك حتى أوائل الربيع.

ومكث ريتشارد نفسه في فلسطين حتى شهر مايو ١٢٤١ م . ولقد تصرف بحكمة ومهارة عظيمتين واستطاع أن يجعل من نفسه نائباً للملك في المملكة بحظى بقبول عام ، وقد رضى عنه الأميراتور كثيراً وتأسى كل فرد في أوترمييه على رحيله . وعاد إلى أوروبا ، حيث كان ينتظره مستقبل عريض الأمل منتيل الإنداز<sup>(٢٧)</sup>.

(٢٦) Richard's letter in Matthew Paris, *Chronica Majora*, iv, p. 139. طبقاً في مني المستشفين في عكا (Genes des Chiproix, p. 123) وعن نظام فيوتري في منطقة كطير. 126-3, 65-6, 37-40, pp. Strehlke, Fabrice Grelais Thauvost, وعن سيطرة فريديريك على القدس من خلال ديكه Penespié الذي عه ، آخر Genes des Chiproix, loc cit.

(٢٧) Richard's letter in Matthew Paris, iv, pp. 139-45; *Enquête d'Enquête*, ii, pp. 421-2, 423-4, 425-6; *Genes des Chiproix*, pp. 123-4. *MS. of Roderic*, pp. 555-6; وليس واضحاً ما إذا كان تشارلز قد أخرج فعلاً معاهدة مع مصر ، التي أكتفها ريتشارد وذلك كما يبدو حسباً في *Genes* ، وربما

وبعد رحيل ريتشارد إيرل كورنول ، لم يفلح بقاء النظام الذي أقامه . ذلك أن الأمال دامت البارونات المحليين في أن يستمر عن طريق التوصل إلى الإمبراطور لتعيين أحد وفاقه وكيلًا للمملكة ، هو سيمون (أوف مونفورت) وزوجة سيمون هي أخت ريتشارد ، وهو نفسه من أبناء عمومة لورد طورون ، وولّد سيمون انشباعًا محاربا عن نفسه . بيد أن فريديريك أقام على طلبهم ، وعاد سيمون إلى مستقبل عظيم محاصف في الجبل (٢٦). وسرعان ما عادت النزاعات في الأرض المقدسة مرة أخرى ، إذ رفض نظام فرسان المعبد الإلتزام بمعاهدته مع الصالح أبوب ، وفي ربيع عام ١٢٤٢م اغتالوا على مدينة الحليل الإسلامية . فرد الناصر صاحب الكرك بإرسال جنود لقطع الطريق إلى القدس ولحماية الرسوم من المحتاج والتجار العرب ، مما أثار فرسان المعبد فاتهموا من يافا واقتضوا على نائبس يوم ٣٠ أكتوبر وانهبوا وحرقوا الجامع الكبير وقتلوا الكثير من السكان ، بمن فيهم عدد كبير من المسيحيين القوميين . ولم يكن الصالح أبوب مستعدا بعد للحرب ، وإنما اكتفى بإرسال جيش قوي محاصرة يافا لفترة من الوقت كتحدير للمستقبل (٢٧). وفي داخل المملكة غابت السلطة المهيمنة ، وكانت الأنظمة الدينية العسكرية تنصرف كما لو كانت جمهوريات مستقلة . وكانت السلطة الحاكمة في عكا هي المجلس الإداري (الكوميون) الذي لم يستطع مع ذلك منع فرسان المعبد والمستشفى من الإقتتال فيما بينهم في الشوارع . واتزوى البارونات في إقطاعياتهم فيكونونها كما يملكونهم.

كما فيلاثيري في صور ، فقد بدا له أن تلك الفوضى تبشر بالخطر الوفير . إذ كان على صلة سرية بنظام فرسان المستشفى في عكا ، وفاز باثنين من أبرز البورجوازيين إلى جانبهم ، هما جون فيلان وويليم (أوف كولش). وفي إحدى ليالي ربيع ١٢٤٣م ، جاء من صور واستقل سرا في عكا وهو مستعد لتنظيم انقلاب ، لكن وجوده لم يجر دون أن يُلحظ ، وأخضر به فيليب (أوف منفورت) لورد طورون الذي تصادف وجوده في عكا . وعلى الفور حشد فيليب الكوميون ومستعمري حوا والبنديق ، وقام المسؤولون

كانت التي حركة) ثم أن ريتشارد استكمل المفاوضات في يافا تباد . *Histoire des Patriarches d'Alexandrie*, pp. 342-6.

(٢٦) Rohricht, *Regesta*, p. 286. وتاريخ الرسالة ٧ مايو ١٢٤١م. وكان أخو سيمون، كلفريك، أحد الأسرى المطلق سراحهم حديثا من مصر.

(٢٧) *Histoire des Patriarches*, pp. 350-1; Mathew Paris, (iv), p. 197. كما وقعت معارك كثيرة بالقرب من غزة عام ١٢٤٢م أشار إليها القروزي مرتين (Magris, x, pp. 342, 348). كلفريك Steverson, *Crusaders in the East*, p. 321 n.1.

التابعون لهم باعتقال جون فيلان ووليم (أوف كونش)، وتلقوا رجال الشرطة في الشوارع، وأرسلت رسالة تستدعي باليان الإيليني من بيروت وأودو (أوف مونتيلارد) من قيسارية. وتحقق فيلانجيري من أن فرصته قد ضاعت، فتمسك في هدوء عائدا إلى صور. وكان توأمطو فرسان المستشفى واضعا، ولحقا حناصر باليان فور وصوله مقرهم في عكا، واستمر الحصار ستة أشهر. وكان السيد الأعظم، بطرس (أوف قياي براد) في المرقب في حملات متقطعة على جيوش المسلمين، ولذا لم يكن يوسع تقديم الرجال لأنقلا فرسانه المهاجرين في عكا. وفي نهاية المطاف توصل إلى السلام مع باليان بأن اعتبر له ونقسم بأنه ليس له دخل في الواقعة<sup>(٢٨)</sup>.

#### ١٢٤٣م: قبول وصاية الملكة أليس

في ٥ إبريل ١٢٤٣م كان كونراد (أوف هوهشتورن)، ابن الأميراطور فريدريك من الملكة بولاندا، في الخامسة عشرة من عمره وبلغ بذلك سن الرشد رسميا، ومن ثم يتوجب عليه الحضور إلى عكا وتسلم زمام المملكة، ولم يعد لأبيه الحق في الوصاية. ورغم أن الملك الصغير أرسل في الحال توأمس (أوف أكيرا) كمنكب له، ولم تظهر أية بادرة للحضور شخصيا إلى الشرق. ولذا اعتبر البارونات أنهم ملزمون قانونا بتعيين الوريث التالي للتاج كوصي عليه، وكان ذلك الوريث التالي هو الملكة أليس ملكة قبرص الأرملة للسنه، جدة حاكم. وكانت أليس، بعد طلاقها من يوهنن الخامس، قد تصالحت مع أبناء عموماتها الإيلين، وفي عام ١٢٤٠م، وتوافقتهما، تزوجت من رالف كورنر سواسون، وهو شاب يبلغ من العمر نصف عمرها، وسبق أن جاء إلى الشرق مع الملك تيبالد. وطلب باليان الإيليني وفيليب (أوف مونتفورت) عقد جلسة للبرلمان في عكا في قصر البطريق يوم ٥ يونيو ١٢٤٣م، حضرها البارونات كلهم، ومثل الكنيسة بطرس (أوف سارحين) رئيس أساقفة صور، وأساقفة المملكة، وأرسل الكوميون مسؤوليه وأرسلت مستعصرا جنوا والبندقية رئيس كل منهما. وتولى فيليب (أوف نوفارا) شرح الوضع القانوني وأوصى بعدم التقسيم بالولاء للملك كونراد إلى أن يأتي بنفسه لتلقيه، وأن يُعهد إلى أليس وزوجها بالوصاية إلى حين حضور كونراد.

(٢٨) Gesta der Chyprioten, pp. 124-7, Éclaircissement, II, p. 422 (١٢٤٣م) لقصة في 441, Annals de Terre Sainte, p. 382, Richard of San Germar, الذي يتحدث عن كونراد في عكا ضد الأميراطور في أكتوبر ١٢٤٦م.

واقترح أودو (أوف مونك الباردي) أن يُطلب من كونراد رسمياً زيارة مملكته وألا يتم حتى يميل رده ، لكن الإيبيلين لم يبدوا مغزى لتلك الخطورة ، وسادت وجهة نظرهم ، وتكسّم المجتمعون قسم الولاء لأليس ورفائف ، مع المحافظة على حقوق الملك كونراد<sup>(٢٩)</sup>.

وأزال القرار البقية الشئيلة من سلطنة فيلانجيري التي كانت السبب في تردد البارونات في مهاجمته في صور ، وكان الإمبراطور قد استندعه للعودة إلى إيطاليا قبل تعيين توماس (أوف أكيرا) مباشرة ، فترك مدينته تحت إمرة أخيه لوثير . وفي ٩ يونيو أصدر البرلمان في عكا أمراً إلى لوثير تسليم صور إلى الوصّيين . ورفضه الانصياع لأمر البرلمان ، وحلف باليان الإيطالي وڤيليب (أوف مونفورت) مع كتاب من القنادلة والجنود على المدينة . ووضع لوثير ثقله في أسوارها العظيمة التي أفلحت في تحدي صلاح الدين نفسه . غير أن المواثيق الغثين كانوا قد حشروا من فيلانجيري ، فعرضوا فتح بحر الجزائير الحلفي الملاصق للبحر . وفي ليل ١٢ يونيو زحف باليان ورجاله حول الصخور المؤدية إلى للممر وسمح لهم بالدخول . ثم إنهم فتحوا البوابات الرئيسية لحلفائهم ، وما أن احتلوا منازل فرسان المستشفى وفرسان التيرتون حتى باتت المدينة في أيديهم فيما عدا القلعة في الجنوب التي انسحب إليها لوثير . وكانت قلعة هائلة صمد فيها الإمبراطوريون لأربعة أسابيع . بيد أن المصادفة سببت الحفظ أصبحت السفينة التي تحمل ريتشارد فيلانجيري إلى إيطاليا على العودة لسوء الأحوال الجوية . وبعث ريتشارد فيلانجيري في ميناء صور دون أن يرتاب في شيء فوقع من توه في أيدي أعدائه. وحملوه مكشوفاً إلى بوابة القلعة وهددوا بشنقه ما لم تستسلم الحامية . ورفض لوثير إلى أن شاهد حيل الشنقة يتنقح حول رقبة أخيه ، فقبل الشروط المُتّمة التي عرضها المتصرون ، وهي السماح للأعوين بالرحيل بمرتبتهما مع عائلتهما ومتعلقاتهما ، وتقاعد لوثير في طرابلس حيث استقبله بوعيند الخامس استقبالاً حسناً ، ولحق به هناك توماس (أوف أكيرا) . أما ريتشارد ، فقد دفعه ضميره إلى العودة إلى سبيله الإمبراطوري الذي كلف به على القصور في غيبة السحن . وبرحيل فيلانجيري باتت القفس وعسقلان وصور رسمياً في أيدي الوصّيين.

(٢٩) ( *Genes des Chiprois*, pp. 128-30 ) رواية ڤيليب لوف توفيرا الذي «وعده أنه يقدّم لأمر» - Tafel - *Émile d'Enoches*, II, p. 240; *Annali*, pp. 190-1; *Assises*, II, p. 399 - *Manigio Giorgio* ثمال كنه شاهد حيان مداني هو *Thomas, Ukeados*, II, pp. 351-89 ويقول ڤيليب إن أبناء بوا كانوا عمالين، وهو أمر غير صحيح نظراً لاعتقادهم مع الإمبراطور ، فضلاً عن عدم ذكر ذلك في أي مكان آخر . انظر : *La Meute, Pradol Mouarchy*, pp. 71-3.

وكان رالف (أوف سواسون) يتوقع في ثقة من أن إدارة للديانة المهروسة ستمنح للتوصيين ؛ لكن فيليب (أوف مونفورت) كان يشتهي صورة لنفسه لينوح بها الخطافيشه شقيف أرون ؛ ومد له الإنجليون يد الموائمة . وعندما طالب رالف بالديانة معاضبا رد البارونات في سحرية بأنهم سوف يحتفلون بها هم أنفسهم على سبيل الأمانة إلى أن يتضح بقلنا إلى من نؤول . وتحقق رالف فحاة من أن اليّة نتجه إلى جعله مجرد رئيس صوري ؛ وفي حتمش مشاعر الحذلان والنقرز غادر من فوراه الأراضي المقدسة عائدا إلى فرنسا . أما لللكة اليس ، التي علمتها سنوات حياتها المحسوس أن تتمسك بالعصر ، فقد بقيت وصية إسمية إلى أن ماتت عام ١٢٤٦م<sup>(٣٠)</sup>.

#### ١٢٤٣م : معاهدة مع الصالح اسماعيل صاحب دمشق

كان انتصار البارونات يعني انتصار لنظام فرسان المعبد على السياسة الخارجية لنظام فرسان المستشفى . وأعيدت المفاوضات مع بلاط دمشق . وكان الصالح أيوب صاحب مصر قد تشاجر مؤخرا مع الناصر صاحب الكرك واستشعر الخطر من تحلي القرنج . وكان الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، وبالمقابلة الناصر ، قد عرض على القرنج أن يتسحب من منطقة المعبد في القنس ، والتي كان وجود رجال الدين المسلمين فيها قد ضمه فريدريك الثاني ، وعلى الفور عرض الصالح أيوب نفس العرض . واتضحت مهارة نظام فرسان المعبد الذي كان يدبر ضرب أمراء المسلمين بعضهم بعض . فتمكن من ضمان موافقتهم جميعا على إعادة المنطقة إلى العبادة المسيحية . وفي حماس كتب السيد الأعظم ، أرماتد (أوف بيرنجورد) إلى أوروبا في نهاية عام ١٢٤٣م بترف إليها تلك النتيجة السارة وليعلن أن النظام الآن متهمك في إعادة تخصيص المدينة المقدسة . وكان ذلك آخر نصر دبلوماسي في مملكة ما وراء البحار<sup>(٣١)</sup>.

وكتب الامبراطور فريدريك في مראה إلى ريتشارد (أوف كورنول) معلقا على استعداد النظام للسعي نحو تحالف إسلامي في الوقت الذي أنكر عليه النظام فيه أن يفعل

(٣٠) Tafel-Thornton, *Gestes des Chiprois*, pp. 130-6, *Ensaire d'Eracles*, II, p. 420, *السيرات الشافقة لم يُعطوا خبثا ساميا* (هم)، *Arènes*, II, p. 401. ليس الوصي حقوق قانونية على القلاع

(٣١) Abul Feda, p. 122; Magrasi, s, pp. 355-7, al-Ahri, p. 197; Matthew Paris, iv, pp. 289-98.

ذلك<sup>(٣٢)</sup>.

وتشجع فرسان المعبد بنحاحهم ؛ فمتى اندلعت الحرب بين الصالح أيوب والصالح اسماعيل في ربيع عام ١٢٤٤م ، حرموا البارونات على التدخل بفعالية إلى جانب الصالح اسماعيل . وكان الناصر صاحب الكرك وأسير حمص الصغير ، المنصور ابراهيم ، قد انضموا كلاهما إلى الصالح اسماعيل ؛ وجاء المنصور ابراهيم بنفسه إلى عكس الاعتماد التحالف ولإعرض نيابة عن الخلفاء حرباً من مصر على الفرنج حال هزيمة الصالح أيوب . واستقبل الأمير المسلم بآيات الشرف العظمى . وتولى فرسان المعبد تقديم أغلب جوابات التسليح والضيافة<sup>(٣٣)</sup>.

بد أن الصالح أيوب لم يكن بالذي يُهزم بهذه السهولة . ذلك أنه وجد حلفاء أشد بأساً من الفرنج . فقد دأب الأتراك الخوارزميون ، منذ أن مات ملكهم حلال الدين ، على التحول في أنحاء الجزيرة وشمال سوريا ، بغيرون وبهسون . وفي عام ١٢٤١م حاول تحالف الأمراء سوريا الأيوبيين قمعهم ، وهزمهم هزيمة شتعة في معركة لا تبعد عن الرها . لكن الخوارزميين وطردوا مقرهم في ريف البلاد بين الرها وحوران ، وكانوا لا يزالون على استعداد لبيع خدماتهم<sup>(٣٤)</sup>. وكان الصالح أيوب على اتصال بهم من حين لآخر ، وكان دعاهم لغزو أراضي دمشق وفلسطين<sup>(٣٥)</sup>.

#### ١٢٤٤م : ضياع القدس نهائياً

في شهر يونيو ١٢٤٤م اجتاح عشرة آلاف عيال حواريي الأراضي الدمشقية ، نغريون البلاد ويحرقون القرى . وكانت دمشق ذاتها شديدة القوة بحيث لم يحاولوا مهاجمتها ، ولذا وصلوا زحفهم داخل الجليل واستولوا في طريقهم على طبرية وحتوتيا خلال نائلس باتجاه القدس . ونبه الفرنج إلى الخطر ، فخرج البطريق روبرت المنتخب حديثاً إلى المدينة مع السيدين الأعظمين لفرسان المعبد والشمسقي ، وراحوا يعززون

(٣٢) Matthew Paris, iv, p. 419 .

(٣٣) Joinville (ed. de Wailly), p. 290 .

(٣٤) Cahen, *Le sultan Aïyûb Fâtîmî*, p. 119; Korial ud-Dîn (trans. Blochet), vi, pp. 3-6, 13. Gossuet, *Histoire des Croisades*, iii, pp. 410-11 . *Siege du Nord*, pp. 648-9.

(٣٥) Mas'ûdî, x, p. 358 . رسالة فريدريك الثاني في 301 . Matthew Paris, iv, p. 301 . يوجه فيه هجوم إلى بارونات توجّهه على استغلالهم التي أسفرت عن ذلك التحالف

الحاميات في التحصينات التي أعاد فرسان المجد بناؤها لتوهم ، لكنهم لم تواتهم الجمرات هم أنفسهم على النساء في المدينة . وفي ١٦ يولية فتحهم الخوارزميون المدينة ، ودار القتال في الشوارع ، وتمكنوا من شق طريقهم إلى دير القديس جيمس الأرمني وقتلوا الرهبان والرهبانيات . وخرج الحاكم الفرنسي في قوة مسلحة من القلعة لكي يلقى حقه مع مرشد نظام فرسان المستشفى . غير أن الخابية صمدت ، ولم تأتي المساعدة من الفرنج ، ولذا ناشدوا أقرب حلفائهم المسلمين ، الناصر صاحب الكرك ، لكنه لم يكن يحب المسيحيين ، ويستاء ضرورة التحالف معهم ، ومع ذلك أرسل بعض جنوده الذين هدنوا الخوارزميين إلى أن عرضوا على الحماية مرورا إلى الساحل في حالة استسلام القلعة ، ثم إن الناصر تلقى يداه من مصيرها . وفي ٢٣ أغسطس خرجت مسيرة من نحو ستة آلاف مسيحي من الرجال والنساء والأطفال ، تاركة المدينة للخوارزميين . وأثناء سيرهم بطول الطريق باتجاه يافا ، نظر البعض منهم وراية وشاهدوا راية فرعية تعرف فوق الأبراج ، فظنوا أن النجدة قد وصلت بطريقة ما ، وأصر كثيرون على العودة إلى المدينة لا شيء إلا يقيموا في كمين أسفل الأسوار . وهكذا ألقوا نيرانهم . وكان الباقون مرتحلين باتجاه البحر ، هاجمهم عصابات من العرب ، ولم يصل إلى يافا سوى ثلاثمائة.

وهكذا، خرجت القدس نهائيا من أيدي الفرنج ، وانقضى من الزمن قرابة مائة قرون قبل أن يمر بوابتها جيش مسيحي مرة أخرى . ولم يظهر الخوارزميون للمدينة أي نوع من الشفقة ، إذ اقتحموا كنيسة القبر المقدس حيث كان قليل من القساوسة اللاتين المسيحيين يقيمون قداسا بعد أن رفضوا مغادرة المدينة ، وقتلوا عن آخرهم إلى جانب قساوسة الطوائف الوطنية الذين كانوا يداخلها آنذاك . واستخرجت عظام ملوك القدس من مقابرها وحُشمت ، وأشعلت النيران في الكنيسة ذاتها . وانتهت المنازل والحواشي في سائر أنحاء المدينة ، وأحرقت الكنائس . وبعد أن حُرمت المدينة كلها ، أخذ الخوارزميون طريقهم إلى غزة للانضمام إلى الجيش المصري<sup>(٣٦)</sup>.

وفي الوقت الذي كان فيه الخوارزميون يهيئون القدس ، كان فرسان مملكة ما وراء البحار (أوترمييه) يتجمعون خارج عكا ، حيث انضمت إليهم جيوش حمص ودمشق تحت قيادة المنصور إبراهيم صاحب حمص ، وأحضرت الناصر جيش الكرك. وفي ٤

<sup>(٣٦)</sup> *Chronicle of Melrose* (Melrose), pp. 159-60; Matthew Paris, iv, pp. 308, 338-40. *AS. of Tishrin*, pp. 563-5; Maqrissi, x, pp. 338-9; al-Aini, p. 198.

أكتوبر ١٢٤٤م، بدأ تحرك قوات التحالف باتجاه الجنوب على طول الطريق الساحلي . وعلى الرغم من أن الناصر والبدو التابعين له قد انتحروا بأنفسهم جانباً ، كان التعاون على مستوى مثالي بين الفرنج والنصور إبراهيم ورحاله . وكان الجيش المسيحي آنسجم جيش جمعة مملكة أوترمييه منذ يوم حطين للشووم . إذ كان هناك استمالة فارس علماني بقيادة فيليب (أوف مونفورت) لسورد طورون وصور ، ووالتر (أوف مريم) كوتت بافا . وأُرسل نظاما للعدو والششفي كلاهما ما يزيد على ثلاثمائة فارس من فرسان نظاميهما بقيادة السيدين الأعظمين أرماتد (أوف بيريجورد) ووليسم (أوف شاتوليف) ، وكانت هناك كتيبة من النظام الفيرتوني . وأُرسل بوهمند أمير أنطاكية أبناء عمومته جون ووليسم (أوف بونشرون) وجون (أوف هام) كونستابل طرابلس . وصاحب الجيش الطريق روبرت نفسه مع رئيس أساقفة صور ، وأسقف الرملة والف . وكان هناك عدد متساو من مساعدي الفرسان وحفود المشاة . وربما كان الجنود التابعون لإمرة الناصر إبراهيم أكثر عدداً ، وإنما أخف تسليحاً . ويبدو أن الناصر أحضر فرساناً من البشو.

وكان الجيش المصري أيضاً أمام غرة بقيادة للملوك الشاب الأمير وكن الدين بيبرس . وكان يتألف من خمسة آلاف من الجنود المصريين المنتقين وحشود الخوارزميين. وانفقت الجيوش للتعددية يوم ١٧ أكتوبر في قرية خرباء، أو لا فوري ، في السهل الرملي الواقع على مبعة أميال قليلة شمال شرق غزة . وسارع الخلفاء بعقد مجلس حرب أوصى فيه الناصر إبراهيم بالبقاء حيث كانوا ، وتحسين معسكرهم تحسباً لأي هجوم خوارزمي، وبنى حساباته على أن الخوارزميين سرعان ما يفقدون صبرهم لكراحتهم مهاجمة المواقع القوية ، وليس يوسع الجيش المصري شن هجوم بدوهم . وتحسن الطالع، ربما يسرع الجيش المصري في التقهقر إلى مصر . ووافقه على رأيه الكثير من المسيحيين ؛ غير أن ووالتر أمير بالما حثهم حثاً مثلهفا على شن هجوم فوري ، فقواتهم تفوق الأعداء عدداً، وهذه فرصة جيدة للتضاء على التهديد الخوارزمي وإلحاق المهانة بالصالح أيوب . وكان له ما أراد ، وتحرك الجيش كله مهاجماً . وكان الفرقة في المينة، والدمشقيون وأبناء حمص في القلب ، والناصر في المصرة.

#### ١٢٤٤م : كازقة في لافوري

وبينما كان الجنود المصريون يصدون هجوم مينة الفرنج ، كان الخوارزميون



ينقضون على حلقائهم المسلمين . وثبت المنصور إبراهيم ورجاله من أبناء حمص ، لكن الجنود الدمشقيين لم يتحملوا الصدمة فانتقلوا على أعقابهم وولوا الأديار ومعهم الناصر وحيشه . وبينما كان المنصور إبراهيم يقاتل لشلق طريق تخرج منه ، استدار الخوارزميون وانقضوا على جناح المسيحيين يدفعونهم باتجاه الكنايات المصرية . وحارب الفرنج ببسالة ولكن بلا طائل . وفي غضون ساعات قليلة تم القضاء على جيشهم كله . وكان من بين القتلى السيد الأعظم لنظام فرسان للعبد ، ومرشده المارشال ، ورئيس أساقفة صور ، وأسقف الرملة ، والثاني من صغار لوردات بونثرون . ووقع في الأسر كونت باغا ، والسيد الأعظم لنظام فرسان المستشفى ، وكونستابل طرابلس . وتمكن فيليب (أوف مونتفورت) من الحروب مع الطريق عائلتين إلى عسقلان حيث انضم إليهما الباقون على قيد الحياة من الأقطعة الدينية العسكرية ، ثلاثة وثلاثون فارساً من نظام للعبد ، وست وعشرون فارساً من نظام المستشفى ، وثلاثة فرسان من النظام التبولوني . وواصلوا رحلتهم بحراً إلى باغا . وقدر عدد القتلى بما لا يقل عن خمسة آلاف رجل ، وربما أكثر بكثير . واتخذ الملكة أسير إلى مصر<sup>(٢٧)</sup>.

وسار الجيش المنصر من فوره إلى عسقلان التي كانت حاميتها الآن من فرسان المستشفى . وكنت تحصيناتها متنها ، إذ فشل المصريون في هجماتهم عليها ، فاضربوا حولها الحصار وقد جعلوا السفن من مصر لمراقبة الساحل . وفي تلك الأثناء أسرع الخوارزميون إلى باغا ومعهم كونتها الذي هددوا بفسقه ما لم تستسلم الحامية ، لكنه صاح في رجائه أن يصمدوا . وكانت تحصيناتها فوق طافة الخوارزميين الذين انسحبوا ومعهم أسيرهم وقد ألقوا على حياتهم ؛ لكنه مات في الأسر لاحقاً بعد شجار مع أسير مصري كان يلاحقه الشطر<sup>(٢٨)</sup>.

ترب على كارثة هزة أن سلب الفرنج من كتلة المكاسب الثمينة التي كسبتها لهم الدبلوماسية خلال العقود السابقة . ولم يكن عسقلان أن تصمد القس ومنطقة الجليل أمام أي هجوم إسلامي حاد ؛ غير أن ضياع القوة البشرية ترك عملياً الشرق المغربي عاجزة تماماً عن الدفاع عن أي شئ فيما عدا القلاع الساحلية والقليل من أقوى القلاع داخل البلاد . ولم يسبق أن كانت الخسارة أهدح إلا في حطين ؛ ومع ذلك

<sup>(٢٧)</sup> *Ensaire d'Eracles*, ii, pp. 427-51; *Ass. of Yachin*, pp. 562-6; *Gesta de Chiprois*, pp. 143-6; *Chronicle of Lancelot*, pp. 159-60; *Itinerary*, pp. 293-5; *Matthew Paris*, iv, pp. 301, 307-11; *Magasin*, x, p. 360; *Ala Shama*, ii, p. 193.

<sup>(٢٨)</sup> *Journale, loc. cit.*; *Amadi*, pp. 201-2.

هناك فرق بين حطين وثرة . إذ كان صلاح الدين المنتصر في حطين سيدا بالفعل لكل من سوريا ومصر ، أما الصالح أيوب صاحب مصر فكان عليه التغلب على غريمه صاحب دمشق قبل أن يغامر بالقضاء على المسلمين . وأنقذ هذا الأخير مملكة الشرق الغربي.

وكان الخوارزميون يعتقدون الآمال على أن يكافئهم الصالح أيوب على مساعدتهم بتوطينهم في أراضي عسبة في مصر ، لكنه رفض السماح لهم بعبور الحدود التي زودها بالجنود كي يستولوا من بقائهم في سوريا . فعادوا للإغارة على فلسطين حتى ضواحي عكا ، ثم تحولوا إلى داخل البلاد لينضموا إلى المصريين في حصارهم لدمشق . وزحف الجيش المصري بقيادة معين الدين حملا محترقا بواسطة فلسطين ، متزحفا من الناصر صاحب الكرك كل أراضي الواقعة إلى الغرب من نهر الأردن ، ووصل في نهاية الأمر أمام دمشق في شهر ابريل ١٢٤٥م . ودام الحصار ستة أشهر . وقد أزال الصالح اسماعيل صاحب دمشق السدود للقناة على نهر بردا ، فاستحالت الأراضي خارج الأسوار إلى مستنقع لا يحترق . على أن تنفيذ الحصار الذي نكسه المصريون سرعان ما أثار قلق بين التجار وأصحاب الموانئ ؛ فاضطر الصالح اسماعيل أن يقبل في أكتوبر الشروط التي تقضي بتخليه عن دمشق في مقابل إمارة تابعة تتألف من بعلبك وحمص . لكن الخوارزميين ظلوا بلا مكافأة ، ولذا قرروا في أوائل عام ١٢٤٦م التحلي عن مناصرة الصالح أيوب وعرضوا خدماتهم على الصالح اسماعيل الذي انتهز فرصة مساعدتهم وعاد إلى دمشق وضرب حوزها الحصار ، وفي مأموله أن ينضم إليه أمراء ليوبيون آخرون ضد الصالح أيوب ؛ لكنهم كانوا أشد كراهة للخوارزميين . وكرسمل الوصي على حلب وكذلك أمير حمص ، وكان الصالح أيوب بينهما بالمثل ، جيشا لشدة دمشق ، فاضطر الصالح اسماعيل وحلفاؤه إلى رفع الحصار والتهرب محالا ، ليقاتلوا القوة المحتلّة في أوائل شهر مايو في مكان ما على الطريق بين بعلبك وحمص ، وهُزم الصالح اسماعيل هزيمة نكراء وهلك الخوارزميون أو كادوا ؛ ومن بقى على قيد الحياة منهم اتخذ طريقه شرقا للانضمام إلى المغول ، بينما كان الخليليون المنتصرون يجهزون شوارع حلب حاملين رأس زعيمهم المقتول . والتهج العالم العربي كله باحتفائهم . وتأكد امتلاك الصالح أيوب لدمشق ، ومرة أخرى فرض على الصالح اسماعيل أن ينقل على نفسه في بعلبك ، واعترف الأمراء الأيوبيون في الشمال بسيادة

الصالح كعوب . الذي يستطيع أن يتحول إلى القرنج مرة أخرى<sup>(٢٩)</sup>.

#### ١٢٤٧م : هياع عسقلان

في السابع عشر من يولية استولى جيش مصري على طبرية وقلعتها التي بناها مؤخرًا كودو (أوف مونتيلارد) ، وسرعان ما احتل الجيش جبل الطور (فلسطين) وقلعة الكوكب (بل قوار) ، ثم سار الجيش إلى عسقلان وحاصرها . وكانت التحصينات التي شيدتها هيرو (أوف برجاندي) في حالة جيدة ، وكانت فيها حامية قوية من فرسان للشيشلي ، واستدعيت التعزيزات من عكا ومن قبرص . وعلى الفور أرسل هنري ملك قبرص أسطولاً من ثمانية قوارص تحمل مائة فارس بقيادة فهرمانه بالبولين الإيليني إلى عكا حيث كان الكوميون ، بمساعدة من المستعمرات الإيطالية ، قد أعد سبعة قوارص أخرى وخمسين سفينة أصغر . وكان الصربون قد أحضروا أسطولاً من واحد وعشرين قادساً كان يحاصر المدينة ، وقد أضر الآن للصدى للمسيحيين . غير أنه قبل أن يبدأ الصدام هبت فجأة عاصفة في البحر المتوسط صرفت الكثير من السفن خطاكماً إلى الشاطئ ، وعاد الناجون إلى مصر ، وتمكن الأسطول المسيحي من مواصلة الإلتزام إلى عسقلان دون أن يتعرض له أحد وأعاد توفير الحامية والميوط بالفرسان إلى البابسة . لكن الأحوال الجوية السيئة استمرت ولم تستطع السفن البقاء في المرسى الذي لا تتوفر له الحماية خارج المدينة ، فعادت إلى عكا تاركة عسقلان لمصيرها . وواجهت الجيش الحاصير عقبة مخفّضه إلى الأضراس الضرورية لألات الحصار ، غير أن حطام سفنه المبعثرة بطول الشاطئ أمدته بكافة المواد التي يحتاجها ، واستطاعت آلة التحنيط النخسة أن تشق عمراً أسفل الأسوار بغضى مباشرة إلى القلعة<sup>(٣٠)</sup> وفي ١٥ أكتوبر تدفق الجيش المصري في هذا الممر ، وبلغت المدافعون الذين قتل الكثير منهم على الفور ووقع الدافعون في الأسر . وبناء على أوامر السلطان مُدِمت القلعة واستحالت عمراً<sup>(٣١)</sup> . ولم يتابع الصالح أبواب انتصاره ، وإنما قام بزيارة القدس وأمر بإعادة بناء أسوارها ، ثم سار إلى دمشق ليؤمّس الجمع هناك . ومكث فيها طوال شتاء عام ١٢٤٨م وربيع عام ١٢٤٩م

(٢٩) Ben Khalikan, iii, p. 246; Maqrîsi, x, pp. 361-5; Abu Sharrâ, ii, p. 432; Estoire d'Eracles, ii, p. 432.

(٣٠) Estoire d'Eracles, ii, pp. 432-5; Grieco des Croisades, p. 146; Assolater de Terre Sainte, p. 642; al-Aini, p. 200; Maqrîsi, x, p. 315.

وحاءه أمراء سوريا المسلمون كلهم لتقديم فروض الولاية<sup>(١١٧)</sup>.

لما في مملكة أوترغيبه المتقلصة ، فقد ساد فيها الهدوء الداخلي رغم عصايرها وانتقارها إلى السلطة المركزية. وكانت الملكة أليس قد ماتت عام ١٢٤٦ م ، وانتقلت الوصاية إلى الوريث التالي ابنها هنري ملك قبرص بعد إحتجاج من أختها غير الشقيقة، الأميرة المسنة ملبيند الأنطاكية . أما الملك هنري ، الذي كانت سمته المرملة لهم ما يتره ، فلم يكن بالرجل الذي يفرض سلطانه على الآخرين<sup>(١١٨)</sup>. فعين باليان الإيطالي وكيلًا له عن المملكة وأيد فيليب (ألف مونتفورت) في اعتلاكه لاصور. وعندما مات باليان في سبتمبر ١٢٤٧م، خلفه كوكيل للمملكة أموره جون أمير أرسوف، وكليورد لبيروت ابنه ، جون<sup>(١١٩)</sup>.

وفي الشمال، حاول يوهند أمير أنطاكية ومرابلس أن ينأى بنفسه بقدر الإمكان عن انتماءات جيرانه ؛ وبنفوذ زوجته الإيطالية لوسين (أوف سيني) بقي على علاقة طيبة بالبابوية؛ غير أن كثرة عدد أقاربها وأصدقائها ممن دعمهم إلى الشرق أسخط باروناته وسبب له المشاكل فيما بعد. وربما أرسل كتبة إلى معركة غرة المشوومة بناء على طلب البابا. غير أنه احتفظ بـ ذات الوقت بعلاقات ودودة مع فريديريك الثاني ، ومنح لوتر فيلانجوي وتوماس (أوف أكيرا) اللجوء في مرابلس، مما ضايق البابا، رغم أنه رفض منحهما مساعدة إقليمية . واستمر خلافه مع المملكة الأرمنية لبعض سنوات . وقد حاول عبثا حث البابا على ترتيب طلاق الوريثة الروينية الشابة من الملك الجديد هيوم، لكي يهرم هيوم من الحق في العرش ؛ لكن روما منعتة هو وهنري ملك قبرص من مهاجمة الأرمن تهديدا، بينما كان هيوم من ناحيته مشغولا للغاية في صد هجمات السلطان السلجوقي الكبير كايكوسرلو . ونجح عن زواج أخت هيوم ستيقاني من هنري ملك قبرص في عام ١٢٤٧م أن مهد الطريق لتزويجا لمصلحة عامة<sup>(١٢٠)</sup>.

(١١٧) Ibn Khallikan, loc. cit. .

(١١٨) *Gestes des Chiprois*, p. 146-147 حيث يرد بالأحرى موحز مشوف من الحقل. *Rehrich, Agens*, pp. 315-16, Janosci IV, *Requisites* (ed. Bogen), no. 4427, II, p. 60. البابا مغلانة ملبيند لـ *Rehrich, Agens*, pp. 315-16, Janosci IV, *Requisites* (ed. Bogen), no. 4427, II, p. 60. *Gestes des Chiprois*, p. 146-147 حيث يرد بالأحرى موحز مشوف من الحقل. *Rehrich, Agens*, pp. 315-16, Janosci IV, *Requisites* (ed. Bogen), no. 4427, II, p. 60.

(١١٩) *Gestes des Chiprois*, p. 146-147 حيث يرد بالأحرى موحز مشوف من الحقل. *Rehrich, Agens*, pp. 315-16, Janosci IV, *Requisites* (ed. Bogen), no. 4427, II, p. 60.

(١٢٠) *Annales de Terre Sainte*, p. 442; Azodi, p. 198.

(١٢١) *Cohen, La Syrie du Nord*, pp. 690-2. أنظر.

١٢٤٥م : بطريرقية لائيقية في أنطاكية<sup>(١٥)</sup>

لم يكن ليوهمند سوى القليل من السلطة على الأنظمة الدينية العسكرية المستقرة في أراضيها التي تزايد حذرهما ، وفي محاولة من البابوية لمصالحة كميون أنطاكية مع ما لديه من عناصر يونانية قديمة غيرت الميابة ، بموافقة يوهنند فيما يبدو ، من سياستها إزاء الكنيسة الأرثوذكسية هناك . وقد اتضح الآن بحلأه استحالة تكامل اليونانيين واللاتين في كنيسة واحدة . ولذا عرض هونوريوس الثالث على اليونانيين كنيسة خاصة بهرميتها ومقوسها الخاصة بها مثلًا يعرف بالطريق اليوناني بسيادة سلطة روما . وقد رفض رجال الدين اليونانيون العرض ، والأرجح بتشجيع صافي من يوهنند الذي اعتبر أن لفرضية اليونانية المستقلة كيمس في التعامل معها ؛ وسارع الطريق سيميون إلى حضور المجلس الشائع للائيقية الذي استدعاه للإستعداد في ليفاديوم امراطور نيقية، حيث أعلن في ثبات طرد البابا من الكنيسة المسيحية . على أنه عندما مات سيميون في نحو عام ١٢٤٠م ، كان خليفة داود - الذي ربما تدخلت في تعيينه الأميرة لوسين - على استعداد للتفاوض . وفي عام ١٢٤٥م ، أرسل البابا إينوست الرابع لورينزو (أوف أورتا) الفرنسيسكاني إلى الشرق بتعليمات بالمساواة التامة في كل مكان بين اليونانيين المعترفون بالسيادة الكنسية الميابة وبين اللاتين . ولم يكن مطلوباً منهم سوى طاعة الرؤساء اللاتين حيثما كانت هناك سابقة تاريخية طيبة لذلك . وتلقى الطريق الدعوة لإرسال بعثة إلى روما على حساب البابا لمناقشة نقاط الخلاف . وقبل الطريق داود هذه الشروط . وفي نفس الوقت تقريباً كان الطريق اللاتيني ألبرت ، الذي لم يكن سعيداً تماماً بتلك الترتيبات ، قد رحل إلى فرنسا لحضور مجلس في ليون حيث مات هناك . ولم يُعَين الطريق اللاتيني التالي أوبيزون فيشي ، وهو ابن أخي البابا ، حتى عام ١٢٤٧م ، وجاء إلى أنطاكية في العام التالي . وفي ذات الوقت كان داود هو الطريق الوحيد المقيم في أنطاكية ؛ على أنه بوفاة داود في تاريخ غير معروف ، تبعه خليفة هونوريوس السلطة الميابة ، ولما حكم عليه الطريق اللاتيني أوبيزون بالطرد من الكنيسة ونفاه من المدينة<sup>(١٦)</sup>.

(١٥) الترجوم : العنوان بالإنجليزية هو *A Uniate Patriarchate at Antioch* ، وتعني لفظة *Uniate* ، لغة طائفة مسيحية في شرق أوروبا والشرق الأدنى تعترف بالسيادة البابوية لكنها تحتفظ بمقوسها وأعمالها . ولذلك سميت لفظة (لائيقية) للدلالة على الفلسفة التي تسطيح بها التفرقة الشرقية في أنطاكية.

(١٦) *Ibid.* pp. 694-5; *Regeste Honorii Papae III*, nos. 5567, 5570, II, p. 352. والأفلة كلها مشتقة من مصادر بابوية على الرغم من أن (Bar Hebraeus (trans. Badger, p. 445 يذكر رحله

وكانت مجموعة كبيرة تابعة للكنيسة البعوثية قد أعلنت بالفعل خضوعها لروما. وفي عام ١٢٢٧م كان المطرير البعوثي إحناتوس الأنطاكي في زيارة للقدس واشترك في موكب زياحي لآتينس، وأعلن إعلاناً أورتودوكسيا بالإيمان، فُسّح وداء راعب دوميينيكي. ولدى عودته استحوذ على مشاعر الكثير من رجال الدين التابعين له، وطلب رسمياً من اللاتين أن عليهم ممارسة سر الإعراف لدى قسيس بعوثي في حالة عدم وجود كاهن إعراف لاتين. وفي عام ١٢٤٥م، جاء المبعوث البابوي أندرو (أوف لونومو) في زيارة لماردن حيث يقم إحناتوس؛ وتفاوضا على شروط الاتحاد. وكان إحناتوس على استعداد لقبول صيغة الفطرية حول عقيدة وإدارة ذاتية تخضع مباشرة لسيادة روما. على أنه كانت هناك ضغائن بين البعثيين في شمال سوريا وأقراهم في المقاطعات الشرقية والشمالية؛ وقد أنكر الأخيرون الاتحاد؛ ولسوء الحظ لم يتحدث إحناتوس إلا لطرف واحد من الكنيسة البعثية. وطالما بقي إحناتوس على قيد الحياة، ظل أتباعه على إخلاصهم للآتين، أما بعد وفاته عام ١٢٥٢م فقد نشأ خلاف حول استعلائه، انتصر فيه إلى حين المرشح المناصر للآتين جون الحلبي، لكنه اعتبر أن أصدقائه اللاتين لم يمنحوه ما يكفي من الشاهد؛ بينما دأب غريمه دينيس، الذي حل محله في النهاية، على معارضتهم. ولم يكن هناك من يماثل على الاتحاد سوى شريحة ضئيلة من الكنيسة في طرابلس<sup>(١٧)</sup>.

#### ١٢٥٢م: فضائح في كنيسة أنطاكية

تولى المجهود الرامية إلى تحقيق الاتحاد بدرجة كبيرة الرهبان المبشرون من طائفتي الدومينيكان والفرنسيسكان الذين بدأوا أعمالهم في الشرق بعد إنشاء أمتلعتهم الدينية مباشرة، ولم يجدوا كبير مجال في مملكة القدس المقلدة، لكنهم كانوا على جانب من النشاط بصورة خاصة في بطريركية أنطاكية حيث كان المطرير كيريت ناصرهم المخلص. واتجهت نيهم أكثر فأكثر إلى تغيير رجال الدين الديويين في شتى الأسقفيات المبعثرة للبطريركية. ولم تكن علاقات البطارقة بأتباع نظام الرهينة البندكي الجديد على كامل وفاقها؛ إذ أن المطرير بطرس الثاني، الذي كان هو نفسه رئيساً

<sup>(١٧)</sup> L'etne des Chrétiens de Terre Sainte. أنظر أيضاً: لوفلي. - Charles d'Anjou. Revue de l'Orient Latin, ix, p. 213.

<sup>(١٧)</sup> مع تراجع. Cohen, op. cit. pp. 681-4.

سابقا للرهبان البندكتيين ، قد ساعدتهم على الاستقرار في «برين اثنين هما دير القديس جورج (أوف جويان) بالقرب من أنطاكية، ودير يلمونت بالقرب من طرابلس . بيد أن شتى الفصائح ثارت أثناء تولي الكروت البطريرقية وتعين لإرسال سلسلة من الشاشات إلى روما قبل إعادة النظام إلى الأديرة وغل تصحيح سلطة البطريرق<sup>(٢٨)</sup>.

ولم يد يوهنند الخامس نفسه سوى قليل لعتنام بهذه الإحراجات ، فسادرا ما زار أنطاكية ، وإنما كان يعقد بلاطه في طرابلس . وكما هو الحال في المملكة ، تفرقت شتى العناصر في أراضيها شيئا، وقد اتفقهم من الإنفراض مشاجرات الأيوبيين والقوة الجديدة الأكثر هولا التي بدأت ترج العالم الإسلامي ، ألا وهي أميرة طورية المغول.

(٢٨) . Ibid. pp. 668-71, 690-1.

---

## الباب الثالث:

المغول والمماليك





---

## الفصل الأول:

### مجيء المغول

---

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

.

## مجي المغول

"هو ذا كحجاب نضمد وكزومعة نركبائه. أسرع من النسور  
خيلة. وفي لنا لأننا قد أخربنا"  
(لوميا ٤:١٣)

في سنة ١١٦٧ م ، وقبل عشرين سنة من استعادة صلاح الدين للقدس ، وفي مكان قصي على شفاف نهر أوتون شمال شرقي آسيا ، رزق زعيم مغولي يدعى ييزوغاي وزوجته هوبلون مولود ذكر أطلقا عليه إسم تيموجين ، غير أنه مشهور تاريخيا باسمه الآخر جنكيز خان<sup>(١)</sup>. وكان المغول عبارة عن مجموعة من القبائل تعيش

(١) الانتفاع على كتل سورة حمزة جنكو خان أنظر:

Howarth, *History of the Mongols*, I, pp. 27-115; Grosset, *L'Empire Mongol. Une phase*, pp. 35-242 and *L'Empire des Steppes*, pp. 283-313; Martin, *Chingiz Khan and his Conquest of Northern China*, *passim*.

ولم للمصادر الأصلية هي Yuan Chiao Pi Shih وهو التاريخ الرسمي للصغول) وYuan Shing وWu Chin Cheng (في الأصل كتب باللغة وترجم إلى الصينية . وأعيدت كتابة لونغيا ونشر (بالأحرف اللاتينية) وترجم جزئيا إلى الفرنسية بواسطة Pelliot (*L'Empire Secrete des Mongols*) الذي كتب بالفرنسية برونشر جزء بالفرنسية - Rashid ad-Din, *Jami at-Tawarikh* (Mongols).

على سفاف نهر آسور الأعلى ، وفي حالة حرب دالمة مع جيوشهم الشرقيين التار. وكان جد يوزغاي ، قابول-خان ، قد ربطهم في كونفدرالية ليست وثيقة العرى؛ بيد أنه بعد وفاته تفككت مملكته، وتمكن الامبراطور الصيني في شمال الصين من ترسيخ سيادته على المنطقة بكاملها. ولم يهرث يوزغاي سوى جزيرة صغير من الكونفدرالية القديمة، لكنه واجه يزيد من قوته وشهرته بما أنزله من هزائم بالقبائل القزمية وضم أراضيها ، وبالتدخل في شؤون أكثر جيوشه القريبين حضارة ، خان الكيرات.

وكانت جماعات الكيرات ، وهم شعب شبه بدوي من أصل تركي ، قد سكنت البلاد المحيطة بنهر أورخون خارج منغوليا الحديثة . وفي وقت مبكر من القرن الحادي عشر تحول زعيمهم إلى المسيحية النسطورية ومعه أغلب رعاياه . وتسبب هذا التحول في اتصال الكيرات بالأتراك الأوغور إذ كان من بينهم الكثير من النساطرة . وكان الأوغور قد طوروا ثقافة مستقرة في وطنهم في وادي تاريم ومنخفض تورفان ، وطوروا أبجدية للغة التركية تقوم على أسس حروف سريانية . وكانت ديانتهم السائدة في الأزمنة المبكرة هي المانوية<sup>(٢)</sup> . والآن ، انصهرت المانوية في طيل النفوذ الصيني إلى أن تصبح بوذية . وكانت قوة الأوغور في انحصار ، لكن حضارتهم انتشرت لتشمل الكيرات والأتراك النخبات الذين تقع بلادهم بين الأوغور والكيرات<sup>(٣)</sup>.

وفي نحو عام ١١٧٠م مات الخان الكيراتي قورباكوز ، وهو ابن ميغور خان ، ووجد إنه طغول بعض الصعوبة في ضمان ميراثه نظرا لمعارضة إخوته وأعمامه . وأثناء حروبه مع إخوته ضمن مساعدة يوزغاي الذي أصبح صديقه الخميم . وتسببت هذه الصداقة في ارتفاع مكانة يوزغاي بين زعماء قبائل المغول ، على أنه قبل أن يجعل من نفسه خان المغول الأكبر، فس له الاسم بعض التبرين المُحْسَل أثناء تناوله وجبة عشاء

مع الترجمة بواسطة Quatremère ، ونشر النص كله بترجمة روسية بواسطة . (Besson) وتوجد نصوص مختلفة بالمغولية والصينية تتناول، نشرت وترجمت إلى الألمانية بواسطة Haenisch (Die letzten Feldzüge Chinggis Hans und sein Tod in Asia Major, vol. iv). حاكم خان قوربا.

Grousset, *L'Empire Mongol*, p. 53 n. 3.

(٢) (المعجم): المانوية Manichaeism : عقيدة دينية تقول بثنوية، أي وجود نور وفلكسة في الخير والشر. والنور في الخير - الإله، فلكسة في الشر - (الشيطان).

(٣) عن شي جياي الأثر (القول لعلم Crussset, *L'Empire Mongol*, pp. 19-26; Hirth, op. cit. i, pp. 1-32; Martin, op. cit. pp. 48-58; Pelliot, 'Chrétiens d'Asie Centrale et d'Extrême Orient', in *Tsing Pao*, vol. xi. For the Uighurs, Brunscheider, *Medieval Researches from Eastern Asiatic Sources*, i, pp. 116-63.

خريطة رقم (٣) الاميراطورية المغولية



معه. وكان أكبر أبنائه تيموجين (حنكيز خان) في التاسعة من عمره آنذاك.

#### حنكيوز خان

ولمكت أرملة ييزوغاي النشطة - هولون - من ضمان بعض السلطة للزعيم الصغير على قبائل آييه. غير أن مقولة تيموجين كانت عاصفة؛ إذ بدأ زعيما وهو ما يزال صبيا، وكان متحيزا للقلب إزاء أبنائه، وحتى فيما بين أفراد أسرته. وكشاة الحروب التي انتزع بها سيطرته على المغول، أسرته لفترة قليلة تايشيرات، كما أن الأتراك التركيب على بحيرة بايكال أسروا لفترة زوجته بوركا التي تزوجها وهو في السابعة عشرة؛ ولذلك فإن شرعية ابنها الأكبر جوجي، الذي ولد أثناء أسرها، كانت موضع ربة دالما. ويعزى نجاح تيموجين المتزايد، إلى حد كبير لتحالفه مع مغول الكيرات خان، الذي كان يعتبره في مكانة آييه، والذي ساعده في حروبه ضد التركاتين. وفي نحو عام ١١٩٤م انتخب تيموجين ملكا أو هانا للمغول جميعا، واقتد اسم حنكيوز - أي القوي. وبعد ذلك مباشرة اعترف الامبراطور الصيني بحنكيوز أميراً أعظم للمغول وضمن تحالفه ضد التتار الذين كانوا يهددون الصين. ودارت حرب عاتقة أسفرت عن ضئوف التتار لحكم حنكيوز. وعندما سُلح مغول خان من عرش كيرات عام ١١٩٧م كان حنكيوز هو الذي أعاده. وفي ١١٩٩م ضم حنكيوز قواته إلى قوات مغول خان لمهمة التتار التتار، غير أنه لم يمض وقت طويل حتى تزايدت قوته من قوة الكيرات. والآن غدا مغول أعظم عولعل السهوب الشرقية الفسيحة، وكان لقبه واتح-خان أو كوتج-خان، وقد تسرب هذا اللقب إلى غربي آسيا متحولاً إلى "يوهانس" Johannes وهو شكل أكثر ألفة وروخامة، وبذا جعله مرشحاً للقيام بدور القسيس جون<sup>(٢١)</sup>، لكنه كان رجلاً عولونا متعطشاً للدماء يفتقر كلى الاقتدار إلى الفضائل المسيحية؛ ولم يستطع قط مساعدة رفاقه المسيحيين. وفي ١٢٠٣م نشأ حنكيوز ولم تكن أول معركة بينهما في خلافتيت معركة حاسمة؛ على أنه بعد أسابيع قليلة هُزم الجيش الكيراتي هزيمة نكراء في حجير أو ندور، في قلب أراضي كيرات. وقتل مغول أثناء فراره باحثاً عن ملجأ، واستسلم أفراد أسرته السابقين على قيد الحياة

(٢١) المؤلف: جون المشيخي - Ponsky John - ملك وشيخ مسيحي مسطوري يقابل إنه حكم في الشرق الأقصى في سوريا

لجنكيز خان الذي ضم البلاد كلها<sup>(٩٥)</sup>.

وفي عام ١٢٠٤م ، كانت تلمان هي الأمة الثانية التي أُخضعت في معركة ضخمة جرت رحابها في شاكيرموت ، حيث كان سلطان جنكيز كله في خطر. وأدت الحروب التي دارت في العامين التاليين إلى ترسيخ مكانة جنكيز كسيد أعلى على جميع القبائل في المناطق المشقة بين حوض تاريم ونهر أمور وسور الصين العظيم . وفي ١٢٠٦م انعقد (كوريلتاي) أو مؤتمر من جميع القبائل الخاضعة له على ضفاف نهر كوتون أكد لقبه الملكي ، وأعلن أن شعبه ينبغي أن يُعرف بصورة جماعية باسم المغول.

١٢٠٦م : تنظيم امبراطورية جنكيز خان

كانت امبراطورية جنكيز خان أساسا عبارة عن خليط من العشائر . ولم يتناول التدخل في التنظيم القديم للقبائل باعتبارها عشائر يحكمها رؤساء بالوراثة، واقتصر على فرض سيادة عائلته، الذين أورووا في العشيرة الذهبية ، وأقام حكومة مركزية تسيطر عليها عائلته الكبيرة ورفاقه ، ووضع تحت تصرف العشائر الحرة أعدادا كبيرة من العبيد الذين استرقهم من القبائل التي قارمت هزمها . ومنح أقاليمه وأصدقائه الآلاف العبيد. وفي المؤتمر (كوريلتاي) للتعقد عام ١٢٠٦م مُنحت أمه هوبلون ، وأهوه تيموغ كوتشين ، عشرة آلاف أسرة من الأرقاء لكل منهما ، وخمسة أو ستة آلاف أسرة لكل من أبنائه الصغار . أما القبائل ، وحتى المدن ، التي استسلمت له طواعية فقد تركت دون تدخل طالما احترمت قوانينه المهيمنة ودفعت لجناسه ضرائب ما يطلبه من إتاوة باهظة . ولكي يضم بلاده في كيان واحد ، أصدر مجموعة من القوانين (ياسا) تقصر أن تنسب على القوانين المكتوبة في السهوب . وقد بسطت مجموعة قوانين (ياسا) ، والتي صدرت على مراحل طوال حكمه ، بصورة محددة ما يتمتع به رؤساء القبائل من حقوق ومزايا ، وشروط الخدمة العسكرية وغيرها من الخدمات المستحقة للخان ، ومبادئ فرض الضرائب ، وكذلك مبادئ القوانين الجنائية والمدنية والتجارية . ورغم كونه حاكما مطلقا أعلى ، فقد كان جنكيز يتولى التقيد هو وخلفاؤه بالقانون<sup>(٩٦)</sup>.

(٩٥) تزد أفضل رؤية عسكرية حول بروز جنكيز وتسيده في Martin, op. cit. pp.60-84. وعن شهرة مغول على كد جون تشي تانجيني أقر Yule, Cathay and the Way Thither, iii, pp. 15-22.

(٩٦) 85-101 pp. ١٩٤-١٩٥ Trace-Clavin تاريخ مغول (١٩٤٠-١٩٤١) pp. ٦٨-72. في نفس التعليق) لمعركة شاكيرموت، وهو أكثر مما قصصه أية معارك أخرى لجنكيز خان.



وما أن أكمل جنكيز ترتيب إدارة إمبراطوريته حتى شرع في توسيعها ، فلدبه الآن جيش ضخم اعتم بتنظيمه كل الاهتمام . ذلك أن جميع أفراد القبائل الذين تنوّلوا معارهم بين الرابعة عشرة والستين كانوا مجبرين على أداء الخدمة العسكرية طبقاً للتقاليد المغولية والتركية ؛ وكانت حملات الصيد الشتوية الضخمة كل عام ، والتي تعتبر ضرورية لتزويد الجيش والباطل باللحوم ، بمثابة مناورات كسب بطل الجنود في حالة تدريب . وقد سُبل رجال القبائل على الطاعة العمياء لأرغماهم ؛ وكان الرعاة يعرفون من تمارينهم المبررة أن عليهم أن يطيعوا الخان . كما كان لرعاياه ، كسكان القبائل الرجل جميعاً ، اشتياق إلى أن يبتازوا الأقاليم ، وخوف من أن تستهلك أراضيهم وغاباتهم ؛ وقد أعطاهم الخان بلادا جديدة وأسلاباً ضخمة وقطاعات من العبيد . لقد كان جيشاً من الخيالة والرماة وحملات الرماح على ظهور حديد سريعة ورجال ودواب اعتادوا منذ مولدهم على حشد العيش وعلى الرحلات الطويلة عبر الصحاري بمقادير قليلة جداً من الطعام والشراب . وهذا التركيب من سرعة الحركة والنظام والأعداد الغفيرة لم يكن معروفاً قط من قبل<sup>(٩)</sup>.

وكانت الدول الثلاث الكبرى التي تعاصم المغول الآن هي الإمبراطورية الصينية في الشرق بعاصمتها بكين ؛ ومملكة هسيانسي التانغوتية بطول المناطق العليا على نهر الأصفر ، حيث كانت هناك أسرة حاكمة من أصل تبتاني تحكم شعباً مغولياً مقيماً يتألف من خليط من المغول والأتراك والصينيين ؛ وفي الجنوب الغربي ، مملكة كاتارا خانيي ، وهي عبارة عن جماعات رحل يوزعين من منشوريا شردهم الأباطرة الصينيون في وقت مبكر من القرن الثاني عشر وشقوا طريقهم باتجاه الشرق لينشعوا إمبراطورية على حساب الأوجوريين في حوض تاريم والأتراك المسلمين في باركاند وصوتان . وكان عائلتهم جور-خان عاملاً مهولاً في السياسات الإسلامية الشرقية ؛ وكان لأوغور في تورفان عملاء له . وكانت هسيا هسي أضعف الممالك الثلاث ، ولذا بدأ جنكيز حسان بمهاجمتها ، وفي ١٢١٢م قبل ملكها سيادته ، وتلا ذلك غزو الإمبراطورية الصينية ، وأسفرت سلسلة من المعارك الطاحنة عن ضم الريف كله حتى البحر الأصفر وشانغونغ إلى سلطته . بيد أن المغول لم يحدوا على مهاجمة الأماكن الحصينة ، وصمدت أمامهم المدن ذات الأسوار الضخمة ؛ ولم تبدأ جيوشه في تعلم فن حرب الحصار إلا بعد أن التحق مهندس صيني يدعى ليو يو-لين بخدمة جنكيز خان . وبحلول عام ١٢٢٦م بات

(٩) Dald, pp. 11-47, حيث ترد مناقشة كاملة حول الجيش المغولي

الامبراطور الصيني من آسيا<sup>(٨)</sup>، وكان قد استولى قبل ذلك في ١٢٢١م على مقاطعة منشوريا الصينية، واعتزت كوريا بالسيادة المغولية. وعندما مات آخر الأباطرة الصينيين عام ١٢٢٣م، أذهت مناضعاته الثقيبة في الإمبراطورية المغولية<sup>(٩)</sup>.

#### ١٢١٨م : محمد شاه الخوارزمي

وفي تلك الأثناء كان جنكيز خان قد وسع غزواته باتجاه الجنوب الغربي. وأثناء كانت الإمبراطورية الخوارزمية تحت عهد شاه في كوج غلطنها<sup>(١٠)</sup> إذ كان محمد سينا لكل آسيا من كردستان والخليج الفارسي إلى بحر الآرال، والبالير، والإندوس. وقد وجد فيه جور-خان في كازاخستان حاراً مقلداً وسعى إلى إخراجته بتحرير بعض أتباعه في أرض ما وراء النهر<sup>(١١)</sup>. وأدت الحروب التي تلت إلى إلحاق الضعف الشديد بكارا خيتاي، وبينما كان محمد شاه ينضم أراضيهم الجنوبية، اغتصب أمير تاتاري يدعى كوشلوك عرش جور-خان. وكان كوشلوك مسيحياً مسطورياً بالبلاد، لكنه أصبح بوذياً بزواجه من أميرة من كازاخستان؛ غير أنه على خلاف عوائل جور-خان، كان متعصباً ضد رعاياه المسيحيين والمسلمين. وانهزم جنكيز خان انتصاره إلى الشعية للتدخل. وعندما اكتسح جيش مغولي حوض تورغان جنوباً، استقبل كوشلوك محلياً، وبعث الأوجور طواغية لحكم المغول؛ وبات كوشلوك مقبلاً داخل إمارة صغيرة في وادي تاريم<sup>(١٢)</sup>.

وأدى هذا التوسع لجنكيز خان إلى أن يصبح عيسى اتصال مباشر بأراضي الخوارزميين. ولم يكن محمد شاه بالرجل الذي يتجمل طويلاً بنفس قدر طموحه؛ واستقبل كل من العاهلين سفارات من نظيره؛ على أن محمد الخوارزمي شعر بالإهانة عندما طلب جنكيز خان من هذا الأمير الخوارزمي الاعتراف به سينا محلاً

(٨) عن غزو الصين، انظر نفس المراجع، الفصول ٨-١٠ و ٩-١٠، في أماكن مختلفة.

(٩) (الناشر): أرض ما وراء النهر Transoxiana: إقليم تاريخي في أفغانستان ووسط آسيا يقع شرقي نهر جيحون (أمو داريّا) Oxus River وغرب نهر سيحون (السر داريا) Jaxartes River وهو حالياً في تركمنستان وجزء من تركمنستان وقازاقستان. كان مركزاً إسلامياً عظيماً، ومركزاً للإمبراطورية ليمور الأخرج في القرن الخامس عشر وازدهرت فيه مدينتي بخارى وحرقند المشهورتان في العالم كله آنذاك.

(١٠) عن عهد شاه، انظر Barthol، مقال "Khwarezm"، في Encyclopaedia of Islam، وعن Kuchuk، Martin، op. cit. pp. 103-4, 109-11, 220, 224.

باعتباره خان الأمم التركية المغولية - وفي ١٢١٨م ارتكبت من منغوليا قاتلة ضخمة من  
التجار المسلمين ومعها مائة مغولي مرسلين في بعثة خاصة إلى البلاط الخوارزمي .  
وعندما وصلت القافلة إلى أوتورور ، على نهر باكسارتيس في أراضي محمد ، قتل  
الحاكم المحلي المسافرين وسرق بضائعهم ، وأرسل نصفها إلى الشاه . وكان ذلك العمل  
استفزازاً لحكيز خان ليس يوسعته لمعاملته . وقدر كوشلوك أن الحرب على وشك  
الاندلاع فأقدم على محاولة لإحياء مملكة كارا خيتاي . وفي حطة حربية شديدة الذكاء،  
حرّض القائد المغولي جيتي كوشلوك وحبيشه على التضييع بطول أراضيهم إلى أن قتله في  
وادي مرتفع في يناير<sup>(١١)</sup>.

#### ١٢٢١م : هزيمة الخوارزميين

وبتهاب كوشلوك، أصبح حنكيز خان على استعداد للخروج لملاقاة الخوارزميين.  
ولقد كان عملاً مهولاً ؛ إذ قيل إن محمد شاه كان قادراً على أن يبقى في الميدان نصف  
مليون رجل ؛ وكان على حنكيز خان أن يقاتل على مبعدة ألف ميل من دياره . وفي  
وقت متأخر من صيف ١٢١٩م ، غادر الجيش المغولي ، المؤلف من مائتي ألف رجل ،  
معسكره على ضفاف نهر يارتش ، وانضم إليه في طريقه بالقاء الغرب ملوك من ألباغ  
الخان ، مثل أمير الأوغور . ولم يكن محمد شاه والثلاثاء من المكان الذي سوف يضرب فيه  
المغول ضربهم ، ولذا قسم جنوده بين خط سيحون (السر داريا) وممرات فرغانة ،  
وربط ماكتا بحيشه الرئيسي في مدينتي ما وراء النهر العظيمتين بخارى ومرقند .  
ومضى الجيش المغولي مباشرة إلى أواسط جاسارتيس ، وعبر النهر عند أوتورور . وبقي  
جزء من الجيش محاصرة المدينة ، وهي مهمة بطيئة إذ لم يكن المغول متدرسين بعد على  
أعمال الحصار الحربي ؛ وتحرك جزء من الجيش جنوب النهر لمهاجمة الجيش الخوارزمي  
الرائض على ضفافه ؛ وتحرك جزء آخر أعلى النهر لقطع الطريق على الجيش الرابط في  
فرغانة ؛ وزحف حنكيز خان نفسه مع جيشه الرئيسي مباشرة إلى بخارى التي وصلها  
في فبراير ١٢٢٠م . وعلى الفور تقريباً فتح اللذين له بوابات المدينة ؛ وقام الأتراك في  
القلعة لأيام قليلة ، ثم دعوا عن أمرهم ومعهم أمتهم المسلمين الذين كانوا يشجعونهم  
على مواصلة القتال . ومن بخارى وأصل حنكيز خان زحفه على مرقند ، بينما  
انسحب محمد شاه ، الذي فقد الثقة في جنوده ، إلى عاصمته أورشنج على ضفاف نهر

(١١) Dabrowski, op. cit. pp. 397-9; Martin, op. cit. pp. 230-3.

جيهون (الأموداريا)، بالقرب من كيهنا . وفي سمرقند ، حيث انضم أبناء جنكيز خان إليه بعد استيلائهم على أرتور ، استسلمت الحامية التركية من قورها ، راحة الإنتقام إلى جيش الغازي . غير أن جنكيز خان رأى أن هؤلاء الجنود الذين لا يعتمد عليهم غير حذرين بالثقة فقتلهم جميعا . وعشا حاول مديون قبايلون تنظيم مقاومة ، ودعوا كذلك . ثم إن جنكيز خان أرسل أبنائه لحاصرة أرغينج ، وهناك تسببت دفاعاتها الأتوى ، والمشاحنات بين أبناء جنكيز خان ، في تأخير الإستيلاء عليها لأشهر قليلة . وفي تلك الأثناء هرب محمد شاه إلى غراسان بطارده جيش تحت قيادة أكثر قادة جنكيز ثقة ، سوبوتاي وجي . وتمكن من الفرار من مطاردته لا لشئ سوى أن يموت في ديسمبر ١٢٢٠م في جزيرة صغيرة في بحر قزوين كسر القلب وحيدا.

ولم يكن ابن محمد شاه ، جلال الدين ، من حوض قتال أفضل ، إذ انضم إلى الجيش الخوارزمي في فرغانة ، وانسحب إلى أفغانستان . وفي بارغان ، الواقعة إلى الشمال مباشرة من هندو كوش ، أوقع هزيمة منكرة بالجيش المغولي المرسل لإخماعه . وانتقل جنكيز نفسه عبر الأوكسوس غابرا بلغ التي استسلمت له ومن ثم أثقلت ، ثم باميان في أواسط كوش الهندية ، وصمدت القلعة أمام هجماته ، وأثناء الحصار قتل حفيده الأثير لديه ، موتوجين . ولذلك ، وعندما تم الإستيلاء على المدينة لم يُترك فيها مخلوق على قيد الحياة . وفي ذات الوقت زحف ابنه تولوي وزوج ابنته توجوتشار كبعد من ذلك إلى الغرب ، واستولوا على ميرف التي لم يبق من سكانها الذكور سوى أربعمائة من أصحاب الخرف الماهرين ، ثم على نيسابور حيث قُتل توجوتشار فلقبت المدينة نفس المصور فلما، وترأست أرملة شخصيا عملية للذبحة . وأُرسل أصحاب الفهن من المدينتين إلى مغوليا . وفي عام ١٢٢١م ، تقدم جنكيز خان لجلال أفغانستان فهاجمه جلال الدين ، ولحق به على ضفاف نهر الإندوس . وفي معركة يائسة دارت رحاها يوم ٢٤ نوفمبر تم تدمير الجيش الخوارزمي ، وهرب جلال الدين نفسه عبر النهر ولاذ بملك دلي ، ووقع أبنائه في قبضة المنتصر وقتلوا.

وأمضى جنكيز خان غورا من عام في أفغانستان . وكانت مدينة هيرات الضخمة التي استسلمت يادئ الأمر للمغول بهوش قد ثارت بعد انتصار جلال الدين في بارغان . وحاصرها جيش مغولي بضعة أشهر ، وبعد الإستيلاء عليها في يونيو ١٢٢٢م ، قُتل سكانها الذين بلغوا مئات الآلاف ؛ واستمرت المجزرة لمدة أسبوع . وجاء إلى المدينة التي استجالت مبانها إلى أطلال وأراضيتها إلى غرائب إداريون مغول يسألدهم ما يكفي من الجنود للمحافظة على نظام المدينة الرعوية . ثم إن جنكيز خان عاد إلى أرض

ما وراء النهر التي كانت أقل في وحدة من غيرها ، حيث تعصب حاكمها خوارزميا ، هو مسعود بالاولش ، ومستشارين مغول لمراقبته والسيطرة عليه . وأرسل والد مسعود ، محمد بالاولش ، شرقا ليحكم بكين ، وهي وسيلة تشريفية للتميز من ضمنان ولاء مسعود. وفي ربيع ١٢٢٣م عاد جنكيز وعمر نهر سيحون (السرداريا) وارغسل متمهلا عبر السهوب، ووصل إلى إربتش في صيف عام ١٢٢٤م ، ثم إلى وشنه على نهر نولا في الربيع التالي<sup>(١٦)</sup>.

لم تمر غزوات جنكيز خان الرائعة دون أن يلاحظها المسيحيون في سوريا . إذ كان معروفا أنه يهاجم أخصم قوة إسلامية في وسط آسيا ؛ ويستطيع التساطرة بكتائبهم المنتشرة عبر آسيا كلها أن يشهدوا بأنه لم يتخذ موقفا عدائيا من المسيحيين . وكان الخان نفسه شامانيا<sup>(١٧)</sup> لكنه كان يود استشارة رجال الدين المسيحيين والمسلمين مع تفضيله للمذكيورين أولا . وقد تزوج أبنائه من أميرات مسيحيات ، من الكيرت ، كان هن نفوذ كبير في البلاط . والأرجح أن يكون حليفا للعالم المسيحي<sup>(١٨)</sup>.

وقد اعتزت هذه الآمال بعض الشيء خلال عام ١٢٢١م . ذلك أن الجيش الذي أرسله جنكيز خان بقيادة سوبوتاي وحيي للقبض على محمد شاه قد فشل في تحقيق هدفه المباشر ، إذ راوغهم الشاه واتخذ اتجاه معاكس لإتباعه الأول ووصل بحر قزوين . غير أن القائد الممولىين واصلا مسرولهما غربا ؛ وفي صيف ١٢٢٠م احتل البري القريبة من طهران الحالية ونهبها ، لكنهما أبقيا على حياة أغلب سكانها . ولتلكا مدينة قم التي قتل سكانها كلهم . ولقيت مدينة كاسفين وزينجان مصيرا مماثلا ، لكن همدان استسلمت في الوقت المناسب وانقلبت نفسها بعد دفع إتاوة باهظة . ودفع أمير أنريجان ثما لتجنب هجوم على تبريز ؛ وواصل المغول زحفهم في فبراير ١٢٢١م لهزيمة جورجيا.

<sup>(١٦)</sup> Brown, *Literary History of Persia*, ii, pp. 426-46; Grousset, *L'Empire Mongol*, pp. 31-46; Bechtold, *op. cit.* i, pp. 276-94; Jauz Ch'ou, pp. 105-8 (a brief account); Rashid ad-Din (trans. Berton), ii, pp. 42-85.

<sup>(١٧)</sup> للتوحي : الشمانية : Shamanism دائرة شعوب معية شمال شرق آسيا تقوم على أسس الاعتقاد في الأرواح الجنية والفريرة التي لا يستطيع شاعر فهم سوى رجل الدين الشماني.

<sup>(١٨)</sup> هي قوات آية من الشرق الأقصى لإتباع الأرميني القديمة . وعن دين جنكيز خان نفسه تظهر Martin, *op. cit.* pp. 310-11, 316-17.

#### ١٢٢٢ م : المغول يصلون القوقاز

خرج الملك جورج الرابع ابن الملكة ثمارا على رأس فرسان جورجيين لصد تقدم المغول وهزم هزيمة شتاء في هوناني جنوب نفليس مباشرة ، وكانت بمثابة كارثة لم يبرأ منها الجيش الجورجي قط . لكن الغزاة استداروا جنوباً ، إذ ثارت همدان وتعين معانيتها ، وفي طريقهم لتخريب المدينة وتدميرها لم يتوقفوا إلا لينهبوا مازاغيا في أذربيجان . وامتدوا ما بقي من العام في شمال غرب فارس . وفي أوائل ١٢٢٢ م تحولوا شمالاً مرة أخرى . وبعد أن حرموا المقاطعات الجورجية الشرقية ، وهزموا حدوداً أرسلوا لقمعهم ، ساروا بطول ساحل بحر قزوين مارين بالولايات القروية بأنحاء أراضي الكبيشاك<sup>(١٩)</sup> بين نهري القوقاز والدون . وسارع الكبيشاك بالتحالف مع قائل شمال القوقاز ، آلان وليستيان ؛ غير أنه عندما عرض عليهم سوبوتاي وحيي نصيبا من الغنائم أحجموا عن التدخل أثناء أن كان المغول يسحقون القوقازيين . وكان لابد أن يتقلب عليهم المغول بعد ذلك . فعلقوا الأسال على أن يأتي الروس لإنقاذهم مقابل الرشوة ؛ على أنه في ٣١ مايو ١٢٢٢ م ، دُثر جيش روسي ضخم على ضفاف نهر كالكا بالقرب من بحر آزوف ، كان يقوده أسراء كييف وحاليش وتشيرتخوف وحواليسكي . ولم يتابع حركات المغول انتصارهم ، وإنما دخلوا منطقة القرم ونهبوا مركزاً تجارياً لأبناء جنوا في سولدايا، ثم انسحبوا شرقاً ولم يتوقفوا إلا لكي يهزموا جيشاً من بلغار الكاما ونهبوا بلدهم، وفي باكورة عام ١٢٢٣ م ، انضموا إلى حاكم خان عند نهر سيحون (السرداريا).

تعلق الضحايا القريبون لهذه الغزوة الشاسعة بأمل أن تكون ظاهرة معزولة ، حاجزة مفرجة لا تتكرر . غير أن حاكم خان استلأ سرورا بجماله ؛ إذ علاوة على ما قاموا به من استطلاع قيم واكتشافهم عدم وجود جيش يقصدى لهم في غرب آسيا ، فقد أزهوا الأمم هناك بقسوة تحول دون أن يجرؤ أي من تلك الأمم على معارضتهم عندما يجين الوقت للغزو الجاد<sup>(٢٠)</sup>.

(١٩) بلوحم : كبيشاك : Kipchak ، لغة قبلي أصل في القرن الحادي عشر مناطق شاسعة من شبه الجزيرة الأوربية الآسيوية تمتد خلال من بحر الأزال (شرقي بحر قزوين) وغرباً شمال البحر الأسود . يُطلق اللقب بالروسية (بولوفسكي)، ويعرف لدى الهنغليين باسم كومان.

(٢٠) Brethneider, op. cit., p. 298/3 . Karantza, History of the Russian Empire (in Russian), in, p. 343, Vremenyay.

وعندما مات جنكيزخان عام ١٢٢٧م ، كانت أملاكه ممتدة من كوريا إلى فارس ومن المحيط الهندي إلى سهول سيبيريا المتجمدة . ليس هناك رجل آخر ولم يأت لرحيل آخر غير التاريخ أن يقيم امبراطورية شاسعة كهذه. ومن الحال أن يقتصر نجاحه بنظرية ما تقول أن الحافز الاقتصادي هو الذي دفع المغول إلى التوسع ؛ ولا يسعنا سوى أنهم كانوا وسيلة مواتية لرعيهم التوسعي . لقد كان جنكيزخان مهندس مصوره . ولكنه بقي لغرا . فمن حيث المظهر ، قبل لنا إنه كان مغربلا قويا بعين كيمي القطر . وبقينا كانت طاقة احتماله الدينية هائلة ، وبقينا كذلك إن كان لشخصيته أعمق الأثر لدى كل من تعامل معه . كانت مهارته في التنظيم فائقة ؛ وكان يعرف كيف ينقي الرجال وكيف يعاملهم . وكان لديه احترام أصيل للعظم ، وكان على استعداد دائما للإبقاء على حياة أي دارس للعلم ؛ غير أنه لسوء الحظ لم ينجح إلا لقليلين لبيان علمهم . ونسب للمغول الأجناسية الأوغورية ولرسمي قواعد الأدب المغولي . وكان من النواحي الدينية يتصف بالتسامح ، وعلى استعداد لك بد العون لأية طائفة لا تعارضه سياسيا. وقد أمر على أن تكون الحكومة عادلة ومنظمة . وطُهرت الطرق من قُطاعاتها ، وأنشئت خدمة برقية ؛ وزدهرت التجارة تحت رعايته وغدا بإمكان القوافل الضخمة أن تزحف مسنوبا بعرض آسيا وهي آمنة . على أنه كان ببالغ القسوة ؛ فهو لا يولي أي اعتبار للحياة البشرية، أو تعاطف مع المعاناة الإنسانية ، فهلك الملايين من أبناء المدن في حروبه ؛ وشاهد ملايين القرويين حقوقهم وبساتينهم وقد استباحات خرابسا . لقد كانت امبراطوريته ترتكز على دعائم القسوة الإنسانية<sup>(١٧٦)</sup>.

#### ١٢٢٧م : استخلاف أوغوداي

أتاحت وفاة الغازي الكبير فرصة من الراحة للعالم الخارجي ، إذ انقضت سنتان تقريبا قبل تسوية الاستخلاف على الإمبراطورية . وتقضى الأعراف المغولية بحق أكبر الأبناء وقرينه في الاستخلاف على الإمبراطورية ، وبحق أصغر الأبناء في الاحتفاظ بأراضي الوطن في دعوة المؤثر (كوريلاني) الذي يصدق على الاستخلاف . وحالف جنكيزخان تلك الأعراف وسعى ابنه الثالث أوغوداي وريسا للسلطة العليا، متخطيا

<sup>(١٧٦)</sup> The Nagorod Chronicle (ed. Naumov), p. 236-9.

١٧٦) (ed. Naumov), p. 63 (ed. Naumov), p. 63

١٧٦) (ed. Naumov), p. 63 (ed. Naumov), p. 63

بذلك أكبر أبناءه يرحي الذي جاءت الشكوك حول شرعيته ، فضلاً عن أن سجنه العسكري والإداري لم يكن مرضياً . وكان ابنه الثاني باحاتاي جندياً فقد ذكاء ، لكن طباعه كانت من الحمية والإندفاع بحيث تحول دون أن يكون حاكماً مقننواً . كما لوغوداي ، ورغم كونه كفل في مراهبه البادية ، فقد ظن حنكوزخان أن لديه من الفسر والمهارة ما يساعده على التعامل مع أسويه وأتباعه . وربما كان أصغر الأبناء تولوي أخيراً الإخوة لولا أن أخاه ما اعتاد عليه من الإنمساخ في ملذاته . واعتباره الأمير المسؤول عن استدعاء المؤتمر (كوريلتساي) للإعقاد ، فقد كان الشخصية المحورية في جسم الاستعلاف ، وحث زعماء القبائل على تنفيذ رغبات حنكوزخان . وأصبح أوغوداي الخان الأعلى ، وعصمت لأقاربه لئلا يكسب ضيعة ، وحصل إخوة حنكيز خان على المقاطعات الشرقية الخيطة بنهر أمور وغيرها في منشوريا ، واحتفظ تولوي "بأراضي الوطن" الواقعة على نهر أونون . وكان للثروات الشخصية لأوغوداي أراضي كبيرات وتيمان السابقة ، وورث باحاتاي مملكتي أوغور وكارا خيتان . ومُنح أبناء يرحي التولي ، باتو وأوردا وشيان ، المقاطعات الشرقية الممتدة حتى الفوجيا . على أنه في الوقت الذي سُمح للأشراف بممارسة الحقوق المطلقة على رعاياهم ، كان عليهم أن يطيعوا قانون الخول الإمبراطوري ، وأن يقبلوا القرارات الصادرة من حكومة الخان الأعلى التي أقامها أوغوداي في كازاكورام . إن وحدة الإمبراطورية المغولية لم تُصب بأذى<sup>(١٩٨)</sup>.

عندما عاد حنكيز خان وجيشه إلى منغوليا غادر جلال الدين الخوارزمي ملجأه في الهند وجمع حوله القبايل الكبيرة المنفية من جيوش أبيه . واستقبل في فارس بالرحيب على أنه المفر من الخول ، وبحلول عام ١٢٢٥م غدا سيد الخطة الفارسية وأذربيجان ، وبحلول عام ١٢٢٦م أصبح السيد الأعلى في بغداد . وجهديد مملكته للأيوبيين ، كان بمثابة عامل مفيد من عوامل السياسة الفرنجية في سوريا . بيد أن التسيحين الأعداء في الشمال وحددوا فيه حصاراً أسوأ حتى من الخول . إذ غزا جورجيا عام ١٢٢٥م ، فأرسلت المعاملة الجورجية روسودان كحدث جورج الرابع -وهي ملكة غير متزوجة وإن لم تكن عذراء - حبشاً لمقلاقته . غير أن زهرة الفرسان الجورجيين كانت قد سفلت قبل ذلك بأربع سنوات في خولاني ، فكانت هزيمة جنودها مهمة يسيرة في جارتها على حدودها الجنوبية . وأثناء فرار الملكة نفسها إلى كونابس ، احتل جلال الدين عاصمتها



تغلب عليها وحربها وضم وادي نهر كور كله . وحاول الجورجينيون عام ١٢٢٨م استعادة مقاطعاتهم المفقودة ، لكن المحاولة انتهت بكارثة ، إذ انكشبت المملكة الجورجية وانقضت على أراضيها المطلة على البحر الأسود ؛ ولم تعد ذات قيمة كمحضر شمالي شرقي للعالم المسيحي ، ولا كقوة تستطيع تحدي قبضة المسلمين على آسيا الصغرى<sup>(١٩)</sup>.

ولم يمض وقت طويل حتى عاد المغول إلى الغرب . وكان عليهم أولاً قمع ثورة صينية في شمال الصين . على أنه في أوائل عام ١٢٣١م ، ظهر جيش مغولي ضخم في فارس بقيادة خورماكان ، وساعدته ذكرى الغزو المغولي السابق . مساعدة جيدة ؛ فلم يجد مقاومة في مسيرته من عراسان إلى أذربيجان ، إذ هرب حلال الدين أمامه ، لكي يوثق مينة غامضة في كردستان . وتبعه جنوده الخوارزميون في فراره ، واتحدوا لتصبح أنفسهم في الجزيرة حيث ابتعدوا مؤقتاً عن حشود المغول ؛ ومن هناك عرضوا على الأيوبيين للشاحنين أن يستأجروهم ، إلى أن تم القضاء عليهم في نهاية الأمر بالقرب من حمص عام ١٢٤٦م . وضم خورماكان شمال فارس كله وأذربيجان إلى الإمبراطورية المغولية ، وغلب من عام ١٢٣١م إلى ١٢٤١م بحكم المقاطعة من معسكر في موغان بالقرب من بحر قزوين . وفي ١٢٣٦م غزا جورجيا ؛ وكانت الملكة روسودان قد أعادت احتلال تيفليس بعد سقوط حلال الدين ، لكنها هربت ثانية إلى كوتيس ، واستولى المغول على شرقي جورجيا . وبعد انتهاء فطاع الغزو ، كان الجورجينيون يفضلون المغول كثيراً على الخوارزميين نظراً لكفاءة إدارتهم . وفي ١٢٤٣م ، أصبحت الملكة نفسها تابعة لهم على فهم أن المملكة الجورجية كلها من المقرر منحها لإنها ليحكمها تحت السيادة المغولية<sup>(٢٠)</sup>.

#### الغزو المغولي لأوروبا

كان المسيحيون في المناطق الشمالية الأبعد أقل ارتياحاً . وفي ربيع ١٢٣٦م تجمع

(١٩) أنظر ترجمة حياة حلال الدين التي كتبها تيم سمره فاسر (an-Nisai) (ed. Houtsma)، في أساكين عكاك (Ottoman, Histoire des Mongols, I, pp. 255-56 وBrowne, op. cit. II, pp. 647-50).  
Georgian Chronicle (ed. Brosset), I, pp. 324-51. أنظر جورجيا أنظر 306.

(٢٠) Browne, op. cit., II, pp. 449-50; Ottoman, III, pp. 63-6; Georgian Chronicle, I, p. 343.

حيث مغربي ضخم شمال نهر الأرال بقوده باتو ، إبن يوحى ، الذي كانت أملاكه تتضمن تلك السهول. وكان مع باتو إبعوته وأربعة من أبناء عمومته هم حروبك وقادان، إينا أوغوداي ، وبايدار بن باجاتاي ، ومونغكا بن تولسوي . أما القائد المسين سوبوتاي فكان رئيسا للأكران. وبعد أن أضعف الجيش المغولي القبائل التركية على الفولجا ، زحف على الأراضي الروسية في حريف ١٢٣٧م، وفي ٢١ ديسمبر شن هجومًا على ريازان واستولى عليها ، وقتل أميرها وسكانها جميعًا ؛ وبعد أيام قليلة سقطت كولومنا ، وفي وقت مبكر من العام الجديد هاجم المغول مدينة فلاديمير العظيمة التي لم تصمد سوى ستة أيام ، ولدى سقوطها يوم ٨ فبراير ١٢٣٨م حدثت مذبحة أخرى بالجملة . ونهت سوزدال في نفس الوقت تقريبًا ، وأعقب ذلك احتلال وتدمير للندن الثانية في وسط روسيا ، موسكو و يريف و جاليس و بيريسلاف و روستوف و ياروسلاف . وفي ٤ مارس هزم وقتل أمير فلاديمير ، يوري العظيم ، على ضفاف نهر سيني ، وبعد المعركة مباشرة سقطت نغير و تورزهوك ، وتقدم الغزاة على نلال فالداي باتجاه نوفغورود ، ولحسن حظ تلك المدينة هطلت أمطار الربيع وأفرقت الأحبار والأدغال المحيطة بها من كثافة نواحيها ، فانسحب باتو لتعضية ما تبقى من العام في سحق المقاومة الأخيرة للمكييشك ، بينما هزم ابن عمه مونفكا قبائل آلان والقبائل الفوقازية الشمالية ، ثم قام بغارة استكشافية وصل فيها حتى كييف.

وفي حريف ١٢٤٠م قاد باتو الجيش للمغولي الرئيسي داخل أوكرانيا ، وغرقت مدينتا خسولخوف وبيرسالف ، وتم الإستيلاء على كييف يوم ٦ ديسمبر بعد أن دافعت عن نفسها دفاعًا باسلاً . وقُتل الكثير من أعظم كنيوزها ، وقتل أغلب سكانها على الرغم من الإنشاء على حياة قائد حاميته ، دميوي ، لما أبداه من شجاعة أعجب بها باتو ومن كييف ، زحف جزء من الجيش بقيادة بايدار بن باجاتاي شمالاً إلى داخل بولندا عبرا ساندومير وكراكاو . واستنجد الملك البولندي فرسان التيوتون الذين كانوا مستقرين على الساحل البلطقي . وفي ٩ أبريل ١٢٤١م دارت معركة شرسة في والسناد بالقرب من ليغنيتر ، احتلت فيها شاقة الجيوش للشركة لفرسان التيوتون والملك البولندي . غير أن بايدار لم يمانر بالتوغل أكثر من ذلك غربًا ، فحرب سيليسيا، ثم اتجه جنوبًا خلال مورافيا إلى داخل هنجاريا.

وفي تلك الأثناء عبر باتو و سوبوتاي إلى جاليكيا ، بدفعان أمامهما قطعان الفلارين

المزعومين من كل الأكرام في السهوب. وفي فبراير ١٢٤١م عمرا حبال الكازيات<sup>(٢١)</sup> إلى داخل وادي هنجاريا ، وصرح الملك بيلا عنى رأس جيشه لللافاتهم وقسم مزمعة مأساوية يوم ١١ أبريل لغوار جسر مرهي على نهر سابو . وتدفق المغول على هنجاريا إلى داخل كروانيا ومنشوا حتى شواطئ البحر الأدرياتيكي . ومكث باتو نفسه بشعة أشهر في هنجاريا التي يبدو أنه كان يرغب في ضمها إلى الإمبراطورية المقلوبة . بيد أن الرسل جاءت في ١٢٤٢م نبأ وفاة الخان الكبير أوغوداي في كاتراكورام يوم ١١ ديسمبر ١٢٤١م<sup>(٢٢)</sup>.

ولم يكن بوسع باتو أن يظل بعيدا عن مغوليا في الوقت الذي يتقرر فيه الإستحلاف ، إذ أنه أثناء الحملة الروسية تشاجر شجارا مريرا مع اثنين من أبناء عمومته هما جويوك بن أوغوداي وبوري حفيد باغشاي ، وقد انسحب كلاهما في غضب إلى الوطن . وأظهر أوغوداي مناصرتة لباتو ضد إبنه الذي أرسله عزما إلى النفي. على أن جويوك ، باعتباره أكبر أبناء الخان ، كان ما يزال غويا . وعين أوغوداي كخليفة له حفيده شيرمون الذي قتل أبوه كوشو في الحرب مع الصينيين . ومع ذلك ، كان شيرمون صغيرا غير ذي خبرة ، ولذا تولت الوصاية كرملة أوغوداي ، توراجينا خاتون ، الأميرة النازمانية بالبلاد ، وعقدت المزم على أن يخلى جويوك العرش . واستدعت المؤمر (كوريلندي) للإستقاء ، على أنه رغم الإعياف يسلمتها إلى حين تعيين ابن عظيم جديد ، فقد مرت خمس سنوات دون أن تتمكن من إقناع الأمراء الأقارب وزعماء القبائل بقبول جويوك ، وتولت إدارة الحكومة خلال تلك السنوات الخمس . ولقد كانت ذات طاقة ونشاط لكنها كانت عميلة . ورغم أنها كانت مسيحية بالبلاد ، إلا أنها قربت إليها مسلما هو عبد الرحمن الذي اتهمته بالشائعات بالتحليل بموت أوغوداي . وتسبب فسادة وحشعة في أن أصبح مكروها من الجميع ، غير أنه لم تتوفر لأحد السلطة الكافية لليل من الوصاية<sup>(٢٣)</sup>.

(٢١) Carpathian Mountains : سلسلة جبال في وسط أوروبا تمتد إلى الجنوب الشرقي من جوب بولندا خلال الجمهورية التشيكية وأكرايا إلى شمال شرق رومانيا.

(٢٢) Nisengrof Chronicle, pp.74-6. من المصادر الشرقية Straksch-Groosman, Der Kampf der Mongolen 285-8. Straksch-Groosman, Der Kampf der Mongolen 1241 und 1242, das Sacerdotium, Moson Isonzie Totora in Sud-est European

(٢٣) عن وصاية توراجينا ، Bar-Mehreus (trans. Badger), pp.303-6. Grousset, op. cit. pp.410-11.

## ١٢٤٢م : المغول في آسيا الصغرى

لم يشأ باتو التورط في معادرات في الغرب إلى أن تتأكد الإستغلاف . واحتفظ بجانبات في روسيا ، لكن وسط أوروبا كان في حالة من الخدوء . ولم يستمر تقدم المغول إلا في غربي آسيا حيث كرست الوصبة فالتا يتصف بالنشاط والإختصار يدعى باتشو ليكون حاكما لغرب آسيا.

وفي أواخر عام ١٢٤٢م غزا باتشو أراضي السلطان السلجوقي كيخسرو ، الذي كان آنذاك في الجزيرة يسعى إلى ضم أراض لا سيد لها بعد انهيار حلال الدين . وفي بداية الربيع سقطت لوزن الروم للمغول . وفي ٢٦ يونيو ١٢٤٣م هزم جيش السلطان في صدد بالقرب من إرزقان، وتقدم باتشو إلى قهرية-مازاكا ، فاستسلم كيخسرو وقبل السيادة للغولية ، وسارع حاره هيتوم ملك أرمينيا في أن حذو حذوه<sup>(٢٤)</sup>.

وربما كان متوقعا أن يقطع أمراء العالم المسيحي الغربي للوثب لعمل متناسق ضد هذا الخطر المزعج . وقد سبق في عام ١٢٢٢م ، عندما دسّر جورماكان للقوة الخوارزمية في فارس، أن أرسل الحشاشون مبعوثين إلى أوروبا لتحذير المسيحيين وطلب المساعدة بعد أن بات مقرهم الرئيسي في ألبوت في الجبال الفارسية مهددة<sup>(٢٥)</sup>. وفي ١٢٤١م ، عندما بدأ مصير أوروبا الوسطى محتوما ، حث البابا جريجوري التاسع على إنشاء تحالف كبير لإتخاذها . غير أن الامبراطور فريدريك، الذي كان الآن منهكاً في إضضاع الثويلات البايوية في إيطاليا ، رفض التحول عن موقفه . وأمر ابنه كونراد ، باعتباره حاكما لألمانيا ، بتعبئة الجيش الألماني ، وناشد ملكي فرنسا وألمانيا لتقديم المساعدة<sup>(٢٦)</sup>. وعندما انسحب المغول إلى روسيا في العام التالي هدد العالم المسيحي الغربي إلى أوهامه . إذ ساعدت أسطورة القس جون على انتشار عقيدة تكاد تكون رؤيوية تركت أثرا فائقا بأن الخلاص قائم من الشرق . ذلك أن أحدا لم يتأثر أنه

(٢٤) Ito Hibi (ed. Hostens), iv, pp. 234-42; Bar-Hebraeus (trans. Dodge), pp. 406-9; Vincent of Beauvais, *Speculum Historiale* (Doan edition), xos, pp. 147, 150. See Cohen, *La Syrie de Nini*, pp. 694-6.

(٢٥) See Pelliot, 'Les Mongols et la Papauté', in *Revue de l'Orient Chrétien*, vol. xxi, pp. 238 ff.

(٢٦) (١٢٤١) Historia Diplomatica Frederici Secundi, v, pp. 360-841, 921-85. حول ملحق التورط

إذا كان والنج-كان الكيراني هو القس جون، فمن غير المحتمل أن يقوم الذي قضى عليه بنفس دوره. فكان كل فرد يفضل تذكر أن المغول حاربوا المسلمين وأن أميرة مسيحية تزوجت أحد أفراد الأسرة الإمبراطورية. وإن لم يكن حسان المغول الأعظم مسيحياً، إنهم كانوا يتأملون أن يتلفظ إلى أن يكون نصيراً للأيدولوجية المسيحية ضد قوى الإسلام. إن وجود مثل هذا الحليف المحتمل لشدة يد البأس في الخلفية الشرقية جعل اللوحة تبدو مؤاتية لحملات صليبية جديدة؛ وكان هناك صليباً مهيئاً في الشارل<sup>(٢٧)</sup>.

(٢٧) Pellissier, loc. cit.; Marincau, *La Prêtre Jean* in *Bulletin de la Société Historique de l'Académie Roumaine*, vol. 8, paraitre Langlois, *La Vie en France au Moyen Âge*, vol. III, pp. 44-56.

---

## الفصل الثاني:

### القديس لويس

\_\_\_\_\_

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

...

## القديس لوييس

“لا يفتخ الإنسان بكونه ترضيًا عند الله”  
(أوب ٢٤:٩)

في ديسمبر ١٢٤٤م، أصيب ملك فرنسا لويس التاسع بحمى موتس بعدوى اللاريا، وبينما كان رقبا والموت منه قريب أقسم لأن شفي ليعتلقن في حملة صليبية، وأنقذت حياته؛ وما كان أسود صحته حتى بدأ في ترتيباته. والملك الآن في الثلاثين من عمره، طويلا ولهن البنية أشقر الشعر والبشرة، يعاني دائما من مرض الحمرة والألمينا، لكن شخصيته لم تنفجر إلى القوة قط. وقليل من الجنس البشري كله كان على مثل هذا الودع الملخص الواضي. وكملك شعر بأنه مسؤول أمام الرب عن رفاهية شعبه؛ ولم يسمح لأي أسقف، ولا حتى البابا نفسه، بأن يقف بينه وبين هذا الواجب. وكانت مهمته أن يوفر حكومة عادلة. وبرغم احترامه المرتاب لحقوق أتباعه الاقتصادية كان ينتظر منهم أن يقوموا بدورهم، وإذا ما فشلوا في ذلك قلّص سلطاتهم ولم يكن في ذلك متدعا. وبفضل هذا الالتزام الصارم فاز بالإعجاب حتى من أعدائه؛ وزاد من إعجابهم ما كان له من ورع شخصي وتواضع وتشف مشهور. وكانت نظراته إلى الرفاه بالمهد نظرة سلبية، فلم يُخلف وعدا قط. ولم تكن لديه راحة إزاء الأثمين؛ وكان صارما، بل قاسيا، في معاملاته مع المرافقة والكفرة. وكان أسدلاؤه يجدون في حديثه



سجراً وسحرية رفيقة ، لكنه كان يتباهى عن وزرائه وأتباعه ؛ وكان إزاء أطفاله سيّدا مستبداً . وكانت ملكته مرحريّت البروفاتسيّة فتاة تنصف بالشرح وبسروح الإستعلاء ، لكنه روضها وأحال سيرتها إلى ما يناسب زوجة قديس<sup>(١)</sup>.

وفي ذلك العصر ، عندما كانت الفضيلة تحظى بالإعجاب الكبير لكنها نادراً ما تتحقق ، جاوز الملك لويس في رفته ورفاقه العراجل . وكان طبعها أن تتساوره الرغبة في الذهاب في حملة صليبية ؛ ولقي امتثالاً الواقع للحرّة تقديراً تشوبه البهجة . وكانت الأحوال في ميسس الحاجة إلى حملة صليبية . وفي ٢٧ نوفمبر ١٢٤٤ م ، وبعد كارثة غزة مباشرة ، أبحر جاليران أسقف بيروت من عكا ليخبر أمراء الغرب ، نيابة عن بطريق القدس روبرت ، بحتمية إرسال التعزيزات وإلا فسوف تهلك المملكة كلها . وفي يونيو ١٢٤٥ م ، عقد البابا إينوسنت الرابع ، بعد أن أخرجته قوات الإمبراطور من إيطاليا ، مجلساً في مدينة ليون الإمبراطورية لمناقشة كيفية كبح جماح فريدريك ؛ انضم إليه هناك الأسقف جاليران وكذلك ألبرت بطريق أنطاكية . وكان إينوسنت قد شعر ببعض الإساءة عندما طلب من لويس التفاوض عن كل أعماله المضادة للإمبراطور ، ورفض لويس طلبه هذا بوازع من ضمير ؛ غير أن البابا عندما علم بما أبلغه به أسقف بيروت جاليران من أسوأ الشرق الباعة على القنوط ، أعلن في سرور تأييده لتعهدات الملك الصليبي ، وكُرسل لودو ، الكاردينال-الأسقف في فراشاني للتشجيع بعمله صليبي في سائر أنحاء فرنسا<sup>(٢)</sup>.

استمرت ترتيبات الملك ثلاث سنوات . وفُرضت ضرائب غير عادية لتمويل الحملة ، ولم يُستثنَ رجال الدين من دفعها مما أثار حنقهم . وكان لا بد من تدبير كسر الحكم في البلاد ، فعهد بالوصاية مرة أخرى إلى الملكة الأم بلانش ، التي لُت اقتدارها كحاكم أثناء الفترة المعاصرة السابقة على بلوغ ابنها سن الرشد . وكانت هناك مشاكل خارجية بتعين تسويتها ؛ إذ ينبغي حث ملك النابلس على الحفاظ على السلام<sup>(٣)</sup>. وكانت العلاقات مع الإمبراطور فريدريك حساسة بوجه خاص ؛ إذ فاز

(١) تنص لائحة لويس بملاء بين في التزامه التي كتبها عنه Joinville وWilliam of Nangis وWilliam of Saint-Paulus وهذا الأخير هو كاتب اعتراف لملكة مرحريّت الذي . وكتب آخر جزء له ليوز الخلق بالقيس.

(٢) Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles*, v, 2, pp. 1635, 1651-3, 1655-61; *MSS. of Rothelin*, pp. 566-7; Joinville, ed. Wailly, p. 37; William of Saint-Paulus, pp. 21-3; William of Nangis, R.H.F. vol. xix, p. 352.

(٣) Joinville, pp. 41-2; William of Nangis, *loc. cit.*; Powicke, *King Henry III and the*

لويس يعرفان فريديريك ، الزمائه الحماة ، الصارم في الشجار بين البابوية والامبراطور ؛ لكنه هدد بالتدخل عام ١٢٤٧م عندما اقترح فريديريك على حلفائه مهاجمة شخص البابا في ليون . فضلا عن ذلك ، فإن فريديريك هو والد ملك القسطنطينية ، ولذا ليس من حق لويس دخول بلاده سالماً بلأن له الملك كونراد ، ويشو أن الشعوبين الفرنسيين دأبوا على إضلاع فريديريك اطلاعاً كاملاً بالحملة الصليبية المتوقعة ، وأن فريديريك - الذي أعرب عن تعاطفه مع الحملة - نقل المعلومات إلى بلاط مصر . وكان لزاماً المتور على السفن التي سوف تنقل الحملة إلى الشرق ، وبعد مفاوضات قليلة وافقت جنوا ومرسيليا على تقديم العون الضروري . أما المبادقة ، فذهب سائهم بالفعل هذا المخطط الذي قد يعوق تربيانهم التجارية الطيبة مع مصر ، فقد زاد ذلك من عدائهم للفرنسيين<sup>(١)</sup>.

#### ١٢٤٨م : الملك لويس يبحر من إيجو-مورت

وأخيراً غادر الملك لويس باريس يوم ١٢ أغسطس ١٢٤٨م ، وفي اليوم الخامس والعشرين أبحر من إيجو-مورت قاصداً قبرص وبصحبته الملكة وأخوين من إسموته هما روبرت كونت أرتوا ، وشارلز كونت أنجو . ولجأه اثنان من أبناء عمومه ، هيو دوق برجندي ، وبطرس كونت برياني ، وكان كل منهما قد اشترك في حملة صليبية عام ١٢٣٩م ؛ وهيو العاشر (أوف لومبديان) ، كونت لا مارش ، وزوج أم الملك هنري الثالث ، الذي كان شاباً في الحملة الصليبية الخامسة ؛ ووليس (أوف ديامبير) ، كونت فلاندرز ؛ وجوى الثالث كونت سانت بول ، الذي شارك أبوه في الحملتين الثالثة والرابعة ؛ وجون كونت ساربروك ؛ وابن عمه اللورد جون (أوف جوافيل John of Joinville) ، وقهرمان شامباني ، والكثير من ذوي الشأن الأقل . وأخبر البعض منهم من إيجو-مورت ، والبعض الآخر من مرسيليا . واستأجر اللورد جوافيل وابن عمه - ومع كل منهما تسعة فرسان - قارباً من البناء الأخير<sup>(٢)</sup>.

وانطلقت في أثرهم مباشرة كتيبة إنجليزية بقيادة وليام ، إيرل سالزبري ، وهو حفيد

Lord Esmonde, p. 239.

(١) Hefele-Leclercq, op. cit. v, 2, pp. 1681-3. Al-Aini, p. 201, سلطان

(٢) Joinville, pp. 39-40, 43-4; Matthew Paris, v, pp. 23-5.

هنري الثاني و(فيلد روزاموند) . وعطفت لوردات انجلترا آخرون للإضمار إلى الحملة الصليبية ، لكن هنري الثالث لم يشأ أن يفقد خدماتهم ، ولذا رتب أن يحول البابا دون مرورهم . وحاض من اسكتلندا بياتريك ، إيرل دولسار ، الذي مات في رحلته إلى مرسيليا<sup>(١)</sup>.

وصل الأسطول لللكي ميناء ليماسول يوم ١٧ سبتمبر ١٢٧٠ وهبط الملك والملكة إلى البر في الصباح التالي . وخلال الأيام القليلة التالية نجحت جنود الحملة الصليبية في غرض . وبالإضافة إلى بلاء فرنسا جاء من عكا السيد الأعظم القسام بالأعمال لفرسان المعبد ، وبارونات سوريون كثيرون ، واستقبلهم هنري ملك قبرص جميعا بحفاوة ودودة<sup>(٢)</sup>.

عندما توقفت حملة الحملة واقع الخبيث على أن تكون مصر هي المستهدفة . فهي أغنى مقاطعات الإمبراطورية الأيوبية وأسرها انفتاحا ، وتذكروا كيف أن السلطان أثناء الحملة الصليبية الخامسة كان على استعداد لمبادلة القدس نفسها بدمياط . وعندما اتخذ القرار أبدى لويس رغبته في أن تبدأ العمليات على الفور ، لكن سادة الأنظمة الدينية العسكرية والبارونات السوريين كثروه عن عزمه ، إذ سرعان ما سوف تبدأ العواصف الشتوية ، ومن الخطورة الإقتراب من سواحل الدلتا بشفاقة الرماية الخفيفة ونادرة مواليه . وفضلا عن ذلك ، كانوا يأملون في اقتناع الملك بالتدخل في نزاعات الأيوبيين الداخلية ، ذلك أنه في صيف ١٢٦٩م طرد صاحب حلب الشاطر يوسف ابن عمه الأشرف موسى من حمص ، فاستنجد الأمير للخروج بالسلطان أيوب الذي جاء من مصر وأرسل جيشا لاستعادة حمص ، وكان فرسان المعبد قد بدأوا فعلا في التفاوض مع السلطان ، مقترحين عليه أن يتخلى عن بعض الأراضي لقاء مساعدات إضافية من الفرنج . على أن الملك لويس لا شأن له بهذه المخططات . إذ أنه قد جاء ، كمشاة الصليبيين الزائرين في القرن الماضي ، لحاربة الكثرة لا للخصوض في الدبلوماسية . وأمر فرسان المعبد بتفعل مفاوضاتهم<sup>(٣)</sup>.

(١) Mathew Paris, iv, pp. 628-9, v, pp. 41, 76.

(٢) Joinville, pp. 46-7, *Genet der Chypre*, p. 147.

(٣) Joinville, pp. 47, 51, 52; William of Chertsey, pp. 367-8; Abel Felet, p. 125, Margid, x, pp. 198-9.

١٢٤٥-١٢٤٧ م : بعث (بيان دل كارين) إلى مغوليا

إن المواقف التي منعت الملك من أن يتفق مع أي مسلم لم تنطبق على المغول الوثنيين، وكانت لديه سابقة يملؤها . ففي عام ١٢٤٥ م استكمل البابا إينوسنت الرابع جهوده الرامية إلى انقاذ العالم للمسيحي في الشرق الأدنى بأن أرسل سفارتين إلى بلاط الخان الأعظم في مغوليا . وغادرت ليون في أبريل من ذلك العام إحدى البعثين برئاسة القرنيسكاني جون (أوف بيان دل كارين) ، وأمضت خمسة عشر شهرا في رحلتها عبر روسيا وسهوب كراسن آسيا إلى أن وصلت في أغسطس ١٢٤٦ م إلى المعسكر الإمبراطوري في سيرا أوردو بالقرب من كازاكورام في الوقت المناسب لتشهد المؤتمر (كوريلتاي) الذي انتخب جويوك ووضعه على قمة السلطة . وكان لدى جويوك الكثير من الناصرة ضمن مستشاريه ، فاستقبل البعثة البابوية استقبالا طيبا . بيد أنه عندما قرأ رسالة البابا التي تطالبه بقبول المسيحية ، كتب ردا يأمر فيه البابا بالإعتراف بسيادته والخضوع مع جميع أمراء الغرب لتقديم فروض الولاء والطاعة . ولدى عودة جون (أوف بيان دل كارين) إلى البلاط البابوي في نهاية عام ١٢٤٧ م ، سلم البابا ذلك الخطاب المخطوطة وتقريرا مفصلا لوضع فيه أن المغول لا هم سوى الغزو<sup>(٩)</sup> . على أن إينوسنت لم يكن ليؤكد أوهامه تلعب كناية أدراج الرياح ؛ فانطلقت سفارته الثانية برئاسة أسلين التومباردي التومينيكاني بعد ذلك بقليل وانطلقت عبر سوريا ، حيث قابل القائد المغولي بايشو في مايو ١٢٤٧ م في تيزر . ووجد أسلين في شخص بايشو رجلا عدوانيا مقبنا ، لكنه كان على استعداد لمناقشة إمكانية التحالف ضد الأيريين . فحطط للهجوم على بغداد ، وسوف يتأسس أن تنوّل حملة صليبية تشنت انتباه مسلمي سوريا . وأسل مبعوثين مع أسلين في عودته إلى روما هما أيج وسركيس ، وبقيتا كسان لثنيهما لسطوريا ، ورغم افتقارهما إلى سلطات التفويض المطلقة، فقد انتمت آمال الغرب مرة أخرى . ومكثا مع البابا نحوًا من عام . وفي نوفمبر ١٢٤٨ م مُكِّبَ منهما العودة إلى بايشو بملان الشكوى من أنه ليس هناك شيء يتخذ حول التحالف<sup>(١٠)</sup> .

وأثناء أن كان الملك لويس في قميص حياته في يقوسيا النائم من الناصرة في ديسمبر ١٢٤٨ م هما مارك وداد ، وقالوا لهما مرسلان من القائد المغولي كيجيادي ،

(٩) See Pion del Carpine, *Historia Mongolorum* (ed. Pellé), esp. pp. 115 ff. Guyuk's letter is given ibid. pp. 125-6.

(١٠) See Pellé, "Les Mongols et la Papauté", *Revue de l'Orient Chrétien*, vol. xxxiii, pp. 112, 131.

وهو المقومض على الموصل من قبل الخان الأعظم . وأبرزها رسالة تتحدث بإسهاب عن فرط عن تعاطف المغول مع المسيحية ، مما أدعى البهجة على لويس فأرسل على الفور بعثة من الدومينيكانين برأسها أندرو (أوف لوتيمو) وآخره ، وكلاهما يتحدثان العربية . وكان أندرو في الواقع هو وكيل البابا الرئيسي في المفاوضات التي حثرت مؤخرًا مع القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح . وحملت البعثة معها نموذجًا لكنيسة، كهديّة تلاميذ وحال بدوى متحول إلى المسيحية ، وبعض الآثار الدينية لمذمتها ، وهذاها أخرى دينية. وغادر أفراد البعثة غرض في يناير ١٢٤٩م قاصدين معسكر كينغدي الذي أرسلهم إلى مغوليا . وبوصفهم إلى كازاكورام وجدوا أن جويوك قد مات وأرسلته أوغول كاتيش تقوم بأعمال الرصاية . وكانت كريمة مع البعثة ، لكنها اعتبرت هذاها الملك مجرد إثارة من تابع لسيد ، بينما حالت مشاكل الأسرة الحاكمة في الوطن دون أن ترسل حملة كبيرة إلى الغرب ، وإن توغرت النية لديها . وعاد أندرو بعد ثلاث سنوات بلا شيء سوى عطف من سيد أعلى شكرت فيه الرصية تابعها لما أبداه من ابتداء وظلت إرسال هذاها بمائة كل سنة . ودخل لويس من هذا الرد ، غير أنه كان لا يزال يعلق الآمال على التوصل إلى تحالف مغولي يومًا ما<sup>(١١)</sup>.

وهكذا ، فإن إقامة الحملة الصليبية في قبرص لم يكن لها أثر سياسي . وكان الملك لويس قبل ذلك بنحو عام قد أرسل الوكلاء بشبع الطعام والأسلحة للحيش ، وقد تحققت المهمة الأخيرة على نحو مديد ، غير أن هيئة المهمات الحربية (الكوميسارية) لم تكن تتوقع أن تطعم تلك الأفرام الكثيرة لأكثر من شهر أو شهرين . ومع ذلك ، لم تستطع الحملة عمليًا الإنحار لغزو مصر قبل شهر مايو ١٢٤٩م . وعندما حلّ الربيع ، طلب لويس من المستعمرات التجارية الإيطالية المحلية تزويده بالسفن ، وعارض النافذة الحملة الصليبية برمتها ولم يقدموا المساعدة المطلوبة . وفي شهر مارس بدأت حرب صريفة بين أبناء جنوا وأبناء يبرا بطول الساحل السوري ، ووقعت أسوأ نتائجها على أبناء جنوا الذين يعلق عليهم لويس حبل اعتماده . وتدبر جنوا الإيبليسي ، لورد أروصوف، بعد حوالي ثلاثة أسابيع إقناع المستعمرين بالتوقيع على هدنة تستمر ثلاث سنوات . وبنهاية شهر مايو تمكن توفير السفن التي قتناهاها الحملة الصليبية<sup>(١٢)</sup>. وفي

(١١) Pin del Carpine, op. cit. pp. 176-95. ومن المذكور فيه ما إذا كان كينغدي هو لا إرسال سفارة . ويرد ذكره وصوفيا وكنائس سفارة لويس في ذلك. Jorville, pp. 47-8, and 165. (١٢) Matthew Paris (v, pp. 80-87) شاعت قول ملك نصار عن فيه جمال باع (Joachimist).

Jorville, pp. 46-7, Simon Almonax, II, pp. 436-7, Matthew Paris, v, p. 70; (١٣)

ذات الوقت كان لويس يستقبل الزائرين والسفارات في نيقوسيا ، إذ أرسل له هشوم الأرميني هدايا نفيسة ؛ والشمس يوهند أمير أنطاكية الحصور على كنية من شتاعة من الرماة لحاية إمارته من قطاع الطرق الزكمان وحصل عليها . وارتحلت إليه اسراطورة القسطنطينية، ماريا (أوف برين) اللاتينية ملتزمة العون ضد اسراطور نيقية اليوناني ، وأعرب لها لويس عن تعاضفه لكنه أخبرها أن الحملة الصليبية ضد الكفرة ينبغي أن تكون لها الأسبقية . وأخيرا ، وصل في شهر مايو ولسم (أوف فيلهاردوين) أمير أحياء<sup>(١٣)</sup> مع أربع وعشرين سفينة وقنبلة من الفرنج من موريسا (بولونيوس). وكان دوق برجندي قد أمضى معه الشتاء في اسرطة وحته على الانضمام إلى الملك . وكان الجيش الذي تفتتح في قزص بتراب ححه على نحو مهول . غير أن جوانب الشح التي تزعج بها الجزيرة اللثيفة قد كوهت من معرباله ؛ وكادت أن تنفذ مخزونات الطعام التي كان مقررا أن تكفي الحملة على مصر<sup>(١٤)</sup>.

#### ١٢٤٩م : الحملة الصليبية لتصل أمام دمياط

في ١٣ مايو ١٢٤٩م كان هناك أمام ميناء ليماسول أسطول من مئة وعشرين ناقلة كبيرة والكثير من السفن الأصغر ، وبدأ الجيش يصعد على ظهرها . ولسوء الحظ ، هبت عاصفة بعد أيام قلائل بعثرت السفن ؛ وعندما أبحر الملك نفسه يوم ٣٠ مايو لم يبحر معه سوى ربع جيشه ، وأبحر باقي الجيش بصورة مستقلة فاصدا الساحل المصري، ووصل الأسطول الملكي أمام دمياط يوم ٤ يونيو<sup>(١٥)</sup>.

وكان السلطان أيوب قد أمضى الشتاء في دمشق راجيا أن يفرغ جنوده من الاستيلاء على حمص قبل أن يبدأ الغزو الفرنسي . وتوقع كؤل الأمر أن يهيئ لويس في سوريا ، لكنه بعد أن تحقق من أن الهجوم يستهدف مصر ، رفع الحصار عن حمص وأسرع بنفسه إلى القاهرة وأصدر كوامره بطوشه السورية أن تتبعه . وكان رجلا

<sup>(١٣)</sup> -Illm of Nangis, p. 368.

<sup>(١٤)</sup> الترجيح : آتشن (Athen) ، قتب: قديم جمال بولونيوس أو شه الحرية اليونانية

<sup>(١٥)</sup> Joinville, pp. 48-51; Vincent of Beauvais, pp. 1315 ff.

<sup>(١٦)</sup> Joinville, pp. 52-3; William of Nangis, pp. 370-1; MS. of Rodolphe, p. 589.

وبدأ في شهر ١26١م أبو فدا (Abul Feda) في كتابه ١٠٠٠٠ رجل (Letter of Guy of Melun in Matthew Paris, v, pp. 155-6)

مريضاً ، في مرحلة متأخرة من مرض السيل ، ولم يعد قادراً على قيادة جنوده بنفسه؛ فأمر وزيره الممين فخر الدين - صديق فريديريك الثاني - أن يقود الجيش الذي تقرر أن يقاوم الهجوم القرشي على أرض مصر ، وأرسل غزونات المون إلى دمياط ووضع فيها حامية من رجال قبائل بني كنانة ورجال من البدو اشتهروا بشجاعتهم . وانقذ قاعدته في المحيون ملتاح الواقعة إلى الشرق من الفرع الرئيسي لنهر النيل<sup>(١٦)</sup>.

وعلى ظهر السفينة الملكية -مونتجوا- راح مستشارو الملك يوسلون اليه انتظار وصول باقي نائلاته قبل محاولة الحيرط إلى الر ، لكنه رفض التأخير . وفي فجر الخامس من يونيو بدأ الحيرط بين أثواب المدو على الرمال الواقعة إلى الغرب من مصب النهر . ودارت معركة شرسة على نفس شاطئ البحر ؛ غير أن استسبال الجنود الفرنسيين والملك على رأسهم ، وشجاعة فرسان لوترنيم بقيادة جون الإيليني كوست يافا ، أحير المسلمين على التقهقر بعد أن أصيبوا بخسائر فادحة ؛ وبهبوط الفلام سحب فخر الدين رجاله وجر جسر القوارب إلى دمياط التي وحد سكانها في حالة من الذعر والحامية تتخاذل ، فقرر إخلاء المدينة . وهرب معه كل السكان المسلمين ، وتبعهم بنو كنانة بعد أن أشعلوا النيران في الأسواق ، لكنهم أعملوا أبرامه بدمير جسر القوارب . وفي الصباح التالي علم الصليبيون من المسيحيين الذين بقوا في منازلهم أن دمياط بلا دفاع . فعبروا في انتصارهم الجسر ودخلوا المدينة<sup>(١٧)</sup>.

#### ١٢٤٩م : لويس في دمياط

دخل الفرنج وانهجوا من سهولة الإستيلاء على دمياط . لكنهم لا يستطيعون الآن متابعة انتصارهم ، إذ سرعان ما سيبدأ فيضان النيل . وكانت التجربة المرة التي مرت بها الحملة الصليبية الخامسة ما تزال ماثلة في الأذهان ، ولذا رفض لويس التقدم إلى أن تهبط مياه النهر . وفضلاً عن ذلك، كان ينتظر وصل التعزيزات من فرنسا بقيادة أخيه ألفونسو كوست بواتو . وفي ذات الوقت تحولت دمياط إلى مدينة فرقية . ومرة أخرى،

(١٦) Magrini, v, pp. 200-1; Abul Feda, p. 126; Al-Azû, p. 201.

(١٧) Joinville, pp. 53-8; William of Nangis, p. 371; A.S. of Bachelin (letter of John Sarrasin), pp. 589-91; Genes des Chiprois, pp. 147-8; Matthew Paris, v, (letter of Guy of Melun); Magrini, xiii, p. 203-4; Abul Feda, p. 126; Al-Azû, pp. 201-2; Abu Shama, ii, p. 193.

وكما حدث عام ١٢١٩ م ، تحول الخاضع الكسبر إلى كندراكية وأُعتب فيها أسقف . وخصصت الباني للأبنية الدينية العسكرية الثلاثة ، والأملاك لأبرز الوردات مملكة ما وراء البحار (أوترميجه) ، وكوفي أبناء جنوا ويزا على خدماتهم بسوق وشارع لكل منهما ، كما البادقة النادين على المنداعم موقف عدائي فقد توسلوا للحصول على مكافأة مماثلة ، وأحبب سواهم . وعامل الملك لويس المسيحيين الوثنيين والقطيع القاتنين بالعليقة الواحدة للسبح بعدالة حذرة ورحبوا بتكلمه . وعندما كان الجيش في قوس ، كانت للكلية قد أرسلت مع سيدات الحملة الصليبية الأخرى إلى عكبا ، والآن استدعت للإلتصام إلى الملك . كما رُحِبَ لويس بصديق آخر بارز ، وإن كان قد بات معدما ، هو بلدوين الثاني إمبراطور القسطنطينية ، الذي سبق أن زار لويس في باريس طمع المال ، وباع للملك آثار "الألام" التي بليت من سلب الصليبيين للعاصمة الإمبراطورية . وطوال أشهر الصيف كانت دمياط عاصمة مملكة ما وراء البحار (أوترميجه) . بيد أن الخلود قد وهنت عزائمهم بهذا الإسراع في وطونة الدلتا الحارة ، وبدأ الغناء يتناقص ، وأملت الأمراض في المعسكر<sup>(١٨)</sup>.

عُدَّ العالم الإسلامي لصياع دمياط . غير أنه بينما تردد الفرنج ، تقدم السلطان المنتصر على خطوة . وكما فعل أبوه قبل ثلاثين سنة ، عرض على الفرنج أن يعطيهم القدس لقاء دمياط . ورفض العرض . ذلك أن الملك لويس كان لا يزال يرفض التعامل مع واحد من الكثرة ، وفي ذات الوقت عاقب أبوب القادة المسؤولين عن صياع دمياط ، فأعدم أمراء بني كنانة ، وأحزى فخر الدين وكبار قادة الماليك . ولراد الماليك القيام بمرود في القصر ، لكن فخر الدين أثناعهم عن عزيمتهم ، وحفظ له السلطان إخلاصه له . وشرع الخلود إلى المنصورة التي سبق أن بناها السلطان الكامل في موقع انتصاره على الحملة الصليبية الخامسة ، ومن هنا جاء اسمها . وشغل أبوب نفسه إلى هناك على محنته لشرف على تنظيم الجيش . والتلق رجال حرب العصابات البدو في المناشئ القوية ، وكانوا يتسللون حتى أسوار دمياط ، يقتلون الفرنج المشاردن خارجها . واضطر لويس إلى إنشاء البدود وحفر الخنادق لحماية معسكره<sup>(١٩)</sup>.

(١٨) *LOC. of Rodolus*, pp. 392-4; *Matthew Paris*, pp. 160-1, *ibid.*, p. 626 (*Emper* Baldwin's visit).

وربه (إلاغ لويس بشأن كنية دمياط مطبوعا في) *Balazs, Collectio Patrum Scriptorum*, ix, pp. 491-5.

(١٩) ( *Matthew Paris*, v, p. 88 ) *Al-Aini*, pp. 202-6 ( *وقل هو لا مريض أثناء هذه الاشتباكات* ).



وفي أكتوبر هبطت مياه النيل . وفي نفس الوقت تقريباً، في ٢٤ أكتوبر ، وصل الأخ الثاني للملك، كغونسيو (أوف براف) ومعه التميزات من فرنسا . لقد حان الوقت للتقدم نحو القاهرة . وفاز بطرس البيجوني بتأييد من مارونات أوترجميه أن الأكثر حكمة مهاجمة الإسكندرية ، إذ سيفاجأ المصريون بهذه الحركة ، ولدى الصليبيين ما يكفي من السفن لعبور فروع النيل ، وبإستراتيجيتهم على الإسكندرية فإنهم يتحكمون في ساحل مصر المتوسطي كله ، وسوف يكون لازماً على السلطان أن يرضخ لما يطلبونه من شروط . بيد أن أمها الملك ، روبرت (أوف ارتوا) ، عارض هذا المشروع تدمس وأجده الملك . وفي ٢٠ نوفمبر انطلق الجيش الفرنسي من دمياط بطول الطريق الجنوبي للذهب إلى المنصورة ، وبقيت حامية قوية في دمياط مع الملكة وبطريق القدس<sup>(٩٠)</sup>.

وبدا الحظ متيسراً للملك لويس ؛ إذ أن السلطان أيوب الآن على فراش الموت ، ومات في المنصورة بعد ثلاثة أيام في الثالث والعشرين . لقد كان رجلاً عموماً متعزلاً تعوزه البشاشة وسعة الأفق وحب العلم مما كان يتصف به أغلب أقربائه . وكانت صحته ضعيفة بصورة دائمة ؛ وربما تضاءت به دماءه السودانية على وعى منه ، عين بنية أسرته، التي لم تخلط سلالتها الكردية . غير أنه كان حاكماً مقتدياً ، وأحس الحكماء المعظماء في الأسرة الحاكمة الأيوبية العظيمة . وكان موته بمثابة كارثة تهدد المسلمين ؛ إذ كان ابنه الوحيد تورانشاه بعيداً في الجزيرة وألبانيا عليها . وحساء إتشاد عصر على يد السلطانة الأرملة شجرة المنير الأرمينية للولد ، التي استأنست الخصى جمال الدين ، الذي سيطر على القصر ، وكذلك فخرالدين ، وأخفت نياً موت زوجها وزوّجت توفيقه على وثيقة بتعيين تورانشاه وريثاً وفخرالدين قائداً عاماً للجيش ووالياً أثناء مرض السلطان . وعندما تسرب لياً موت أيوب في نهاية الأمر ، كانت السلطانة وفخرالدين قد أحكما قبضتهما على السلطة ، وكان تورانشاه في طريقه إلى مصر . على أن الفرنج تشجعوا لسماعهم النبا ، وبدأ لهم أن تلك الحكومة التي تسيطر عليها امرأة وقائد مسين سرعان ما ستتهار . فغذوا السير بإتقاء القاهرة<sup>(٩١)</sup>.

(٩٠) (Letter of Guy of Melun), Matthew Paris, vi, p. 161 (Joinsville, pp. 64-5; Joel, v, pp. 105-7, and p. 139); Magris, xiii, p. 215.

(٩١) Magris, xiii, pp. 208-15; Joel, p. 127; al-Aini, p. 207, 365; Hucholov, p. 359; Matthew Paris, v, pp. 107-8.

## ١٢٤٩م : الصليبيون يتقدمون نحو المنصورة

كان الطريق من دمياط تقطعه أعداد لا حصر لها من قوات النيل وفروعه ، أكبرها البحر الصغير الذي يتفرع من النيل الرئيسي جنوب المنصورة مباشرة ويمرر مارا باخون-مطناح إلى بحيرة المنزلة ، وبها يعزل ما يسمى جزيرة دمياط . وأبقى فخر الدين أغلب قواته خلف البحر الصغير ، وأرسل الفرسان لإنهاء الفرنج أثناء عبورهم كل قناة ، ولم تنجح أي من تلك المناوشات في صد تقدم الفرنج . وكان الملك لويس يتقدم تقدما بطيئا حذرا . وفي ٧ ديسمبر حدثت معركة بالقرب من فارسكور شهد فيها الفرسان المصريون ، وأحرز فرسان الممرد على مطاردة الفرانج تحديدا لأوامر الملك إلى مسافة بعيدة للغاية ، وضادتهم بعض الصعاب في الإنضمام إلى رفاتهم . وفي ١٤ ديسمبر وصل الملك بارامون ، وفي الحادي والعشرين ضرب جيشه معسكره على ضفة البحر الصغير التي تواجه المنصورة<sup>(١٢٢)</sup>.

مكث الجيشان يواجهان بعضهما عبر القناة الواسعة لسنة أسابيع . وحاول الفرسان المصريون العبور إلى الجزء الأسفل الجنوبي من جزيرة دمياط ، وهاجموا مؤخرة الفرنج ، لكن تشارلز وأوف كلفو ردهم بالقرب من المعسكر . وفي تلك الأثناء كسر لويس بناء سد يعبرون القناة من فوقه ، غير أنه على الرغم من ذلك سقائف لحماية العمال ، كان النصف المصري من الضفة المقابلة ، وخاصة باستخدام البواب الإفريقية ، هائلا بحيث تم التحلي عن بناء السد . وفي يناير سنة ١٢٥٠م ، جاء إلى معسكر الملك قطي من سلمون ، وعرض أن يكشف لهم عن حاضنة لعبور البحر الصغير لقاء حصوله على ٥٠٠ بيتزنت . وفي فجر ٨ فبراير انطلق الصليبيون عبر الحاضنة ، وبقي دوق برندي مع قوات قوية للحفاظ على المعسكر ، بينما سار الملك لويس مع الجيش المتقدم وقاد أخوه روبرت (كونت أرتوا) المقدمة مع فرسان الممرد والكتيبة الإنجليزية ، وصدرت إليه أوامر صارمة بعدم مهاجمة المتصدين إلى أن يأذن الملك . وتحقق العبور الصعب بنجاح ، لكنه كان بطيئا . وعندما وجد روبرت كونت أرتوا نفسه على الضفة الأخرى من البحر الصغير مع رجاله ، حشي أن يضع عتصر المفاجأة ما لم يهاجم الأعداء في الحال . وحاول فرسان الممرد عيشة تكبيره بالعمليات الصادرة إليه ، لكنه أصر على التقدم ووافقوا على المشاركة في الهجوم . وكان لإتدفاعه

(١٢٢) Joinville, pp. 69-70, *MS. of Rouen*, pp. 597-8, Magrini, *iii*, pp. 215-16, al-Ahli, p. 207.

ما يروى . ذلك أن المصريين في معسكرهم ، خارج المنصورة بنحو عشرين ميلا ، كانوا يداؤن حياتهم اليومية عندما يوغتوا بخيالة الفرنج تزهري في وسطهم فجأة ؛ وقتل الكثير من المصريين عندما هرعوا لأخذ أسلحتهم ، وهرب آخرون في نصف ملابسهم إلى حيث الأمان في المنصورة . وكان القائد العام فخر الدين قد خرج لشوه من الحشام ، وكان خادمه الخاص يصيح له لحينه بالحناء ، عندما سمع المرح والمرج . ولم يتفطر حتى يشتمل بدروعته ، وإنما فزع على جواده وانطلق إلى قلب المعركة ، ووجد نفسه في وسط بعض فرسان المعبد الذين قتلوه إربا .

#### ١٢٥٠ م : معركة المنصورة

أصبح روبرت كوث كرتوا الآن سيد معسكر المصريين . ومرة أخرى ترسأ السيد الأعظم لنظام المعبد الانتظار إلى أن يأتي الملك والجيش الرئيسي إلى المعاصرة وينضموا إليه ، وكذلك نصحه ولیم (لوف سالزبورج) بالتخلل حساب الحيلة ؛ فم أن روبرت أصر على الاستيلاء على المنصورة والقضاء على الجيش المصري ، ورمى فرسان المعبد والإنجليز بالبن ، ثم نظم صفوف رجاله وشن هجوما جديدا على المصريين الفارين ؛ ومرة أخرى شعر سيد فرسان المعبد وولیم بأن عليهما اللحاق به . على أنه بالرغم من موت فخر الدين ، تمكن القادة الماليك من إعادة النظام إلى جنودهم ؛ وتولى القيادة أقدرهم ركن الدين بيبرس وكتيبة البندقار أي "صاحب القوس"<sup>(٢٢)</sup> . ووضعت رجاله في مواضع حساسة داخل المدينة ذاتها ، وترك فرسان الفرنج يتدفقون داخل البوابة المفتوحة . وعندما اندفع فرسان الفرنج إلى أسوار القلعة ذاتها وفرسان المعبد في ذيلهم ، خرج للماليك من الشوارع الجانبية واقتصدوا عليهم كالصواعق . ولم تمكن حيلاء الفرنج من الاستدارة بسهولة في الحيز الضيق وعطس القوس تبعثروا في فوضى عارمة . وتمكن فرسان قلوبون من الحرب على الأقدام إلى ضفاف النيل ، لا لشئ إلا ليرفقا في مياهه . وتمكن قلوبون آخرون من إنقاذ أنفسهم من المدينة ، بينما اشتبك فرسان المعبد في قتال الشوارع ؛ ولم يبق على قيد الحياة من قوامهم البالغ مائتين وتسعين فارسا سوى خمسة فرسان . واحتسب روبرت كوث كرتوا مع حرسه الخاص في أسد المنازل ، لكن المصريين سرعان ما اقتحموا المنزل وقتلوه جميعا ومن بين الفرسان الذين سقطوا في

(٢٢) (الترجم): Arbalest or Arbalist : القوس القشوف : آلة في العصور الوسطى لتدافع السهام والحرارة وما إليها.

للمركة إيرل سالزبوري وأتاباهه الأبنيلز كلهم تقريبا ، ولورد كوسي ، وكونت بريمن. وكان بطرس البريتوني معهم في المقدمة ، وأصيب بصرع في رأسه ، لكنه كملح في الرهب من المدينة على ظهر جواد عاتدا وأسرع بنذر الملك.

عبر الجيش الصليبي كله تقريبا البحر الصغير . وما أن علم الملك لويس بالكارثة حتى نظم صف دفاعه الأول على القور لصد أي هجوم ، بينما أرسل مهندسيه لتشييد جسر من الزوارق على النهر اللاتي. وترك كتائب الرماة على الجانب الأبعد من القناة كي يغطوا إعادة العبور إذا اقتضت الضرورة، رغم أنه كان شديد التهيف على أن ينضموا إليه . وكما توقع ، سرعان ما خرج المسالك المتصرون من المدينة وشنوا هجومهم على صفوفه ، وثبت لويس رجاله بصدون الفحوم ، بينما أظهروهم الأعداء بسبيل السهام المتساقطة على جنوده ؛ وما أن بدأت سهام المقاتل في النفاذ ، حتى كمر بهجوم مضاد. ورد فرسانه العرب ، لكنهم سرعان ما أعادوا تشكيل صفوفهم وأعادوا الهجوم بينما حاولت فصائل منهم تعطيل بناء جسر الزوارق، وكاد الملك نفسه أن يسقط في القناة من شغل هجوم الأعداء لولا أن أنقذه هجوم مضاد آخر . وأصيرا أكتمل بناء جسر الزوارق بالقراب مغيب الشمس وعمر عليه الرماة من الجانب الآخر ، وجلب مجرمهم النصر للملك . وانسحب المصريون مرة أخرى إلى داخل المنصورة؛ وحارب لويس معسكره في الموقع الذي كانوا يمسكون فيه البارحة . وعندئذ فقط علم من القائل بأعمال السيد الأعظم لفرسان المستشفى بمقتل أخيه ، فانتفحرت العبرات من ماقفه<sup>(٢١)</sup>.

لقد انتصر الصليبيون ، لكنه انتصار باهظ الثمن . ولو أن روبرت كونت أرتوا أحجم عن غارته تلك الطائفة ، لشعروا بأنهم من القوة بحيث يحاولون مهاجمة المدينة فيما بعد برغم أن آلات الحرب التي سوف تتصدى لهم كفضل حالا من آلاتهم . وهكذا لم يكن هناك ما يفعله الصليبيون ؛ وكان الوضع ينذر بالخطر ويذكرهم بالحملة الصليبية الخامسة ، عندما توقف الجيش المسيحي الذي احتل دمياط في مكان قريب من نفس هذه البقعة وأحرق على التفتقر في نهاية الأمر . ولم يكن لويس يمتن النفس الآن بمصير أفضل من ذلك ، ما لم تحدث اضطرابات في البلاط المصري قد تدفع الحكومة في القاهرة إلى أن تعرض عليه شروطا مقبولة . وفي ذات الوقت حفن معسكره وعزز

(٢١) : Jussieu, pp. 71-93; *MS. of Rotheln*, pp. 599-608; Matthew Paris, v, pp. 147-54m ; vi, pp. 191-2, *et Alibi*, p.208.

حسر القوارب . وكان ذلك تصرفاً حكيماً؛ إذ بعد ثلاثة أيام هاجم المصريون مرة أخرى يوم ١١ فبراير بعد أن وصلتهم التعزيزات من الجنوب . فغلبوا أقوى مما كانوا عليه . ودارت رحى معركة من أشرس المعارك التي يذكرها رجال مملكة ما وراء البحار (الترقيمه) ؛ ذلك أن المماليك راحوا يشتنون المحرم تلو الآخر ، يطلقون سحبا من السهام في كل مرة يهجمون فيها ، ومرة أخرى يكيح لويس رجاله إلى أن غيبن لحظة المحرم للضاد . وصمد بنات تشارلز (أوف ألبو) في الميسرة ، كما صمد بارونات سوريا وقوى في يسار الوسط ، لكن بلانيا فرسان اللحد والسلام الفرنسيين كانوا بتارحمون في حين الوسط ، واضطر الملك نفسه إلى إقناذهم كي لا يفقد اتصاله بالميسرة . وكان السيد الأعظم وليس قد فقد عينا في الميسرة ، والأنا فقد الأخرى ومات متأثراً بقتلها . وكان الفونسو (أوف بواتر) يحرص المعسكر ناحية جناحه (الأيمن) وحدث أن أساءت به المصريون ولم يقدح سوى الطباخين والنساء من تابعات المعسكر . وأخيرا أنهك المسلمون وانسحبوا في نظام تام عائد إلى القديسة<sup>(٢٥٠)</sup>.

#### ١٢٥٠م : تورانشاه يتولى قيادة المسلمين

وظل الملك لويس ينتظر في المعسكر أمام المنصورة لشأنه أسابيع ، ولم يحدث الشمر المصري المأمول قط . وبدلاً من ذلك وصل تورانشاه ، ابن السلطان الراحل ، إلى معسكر المصريين يوم ٢٨ فبراير . ذلك أنه ما أن سمع من زوجة أبيه بوفاته والده حتى غادر عاصمته ديار بكر وساق الرجع إلى الجنوب . وأمضى ثلاثة أسابيع في دمشق حيث تودى به سلطاناً ، ووصل القاهرة في أواخر فبراير . وكان وصوله إلى المنصورة بمثابة علامة على نشاط جديد للمصريين . وأمر بصنع أسطول من القوارب الخفيفة نقلت على ظهور الإبل إلى منافذ النيل السفلى في المنطقة ، حيث انطلقت شيداً اعراض السفن التي تحمل الطعام إلى معسكر الصليبيين من دمياط ، واستولى المصريون على أكثر من ثمانين سفينة فرنجية الواحدة تلو الأخرى ، وفي ١٦ مارس ضاعت قافلة من اثنين وثلاثين سفينة في ضربة واحدة . وسرعان ما شعر الفرنج بتهديد الجاعة ، وفي أعقاب الجاعة أمراض الدوسنتاريا والتيفود<sup>(٢٥١)</sup>.

(٢٥٠) Jeanville, pp. 93-5, MS. of Rashidun, pp. 608-9.

(٢٥١) Abu Shama, ii, p. 185; al-Azî, p. 299; Maqîsi, xiii, pp. 220-4; Matthew Paris, vi, pp. 193-4; Jeanville, pp. 102-4; MS. of Rashidun, pp. 609-12.

وفي بداية ابريل فهم الملك لويس أنّ عليه أن يبدل نصارى جهده لانتشال الجيش من عنق المعسكر والإسحاب إلى دمياط . وأخيرا ، أخضع نفسه للتفاوض مع الكفرة، وأُرسل إلى تورانشاه يعرض استبدال دمياط بالقدس<sup>(٢٧)</sup> لكن السيف كان قد سبق العذل . إذ عرف المصريون الآن مدى معطوبة الوضع الذي يعانيه ، وعندما رفض المصريون العرض جمع الملك لويس ضباطه لمناقشة الإسحاب ، فُرسلوا إليه أن يتسلل هو نفسه مع حرسه الشخصي إلى دمياط ، لكنه رفض في كبرياء أن يترك رحلته . وتقرر إرسال المرضى بالقرارب في النيل ، وأن يحمي القادرون بطول الطريق الذي جاءوا من خلاله . وعُهد للمعسكر صباح ٥ ابريل ١٢٥٠م وبدأت رحلة العذاب والملك في المؤخرة يستنقع التفرقين . وشاهد المسلمون في التصورة هذه الحركة فاضطربوا بتمعنهم . ووجدوا الفرنج جميعا قد عبروا البحر الصغير ، لكن المهنيين فانهم تدمير حرس القوارب ، فخرجوا يعمونه وسرعان ما راحوا ينادشون الفرنج من جميع الجوانب ، وطوال ذلك اليوم صد الصليبيون المحمات أثناء تحركهم البطيء . وكانت شجاعة الملك نفسه تفوق كل شيء . لكنه سقط مريضا تلك الليلة ، وفي الصباح التالي استطاع بجهد جهيد أن يثبت على حواده . وأثناء الحركة للتناقل في ذلك اليوم أطلق المسلمون الدائرة حول الجيش وحاجوا بكامل قواتهم ، ولم يتجاوز الجنود المرضى والمهقون مقاومتهم إلا فيما ندر . لقد كان واضحا أن النهاية قد حلت . وكان جيوغري (لوف ساحين) يقود الحرس الشخصي للملك ، وفي معظم القتال أخذ الملك إلى كوخ في قرية منية الخويل عيدا لله الواقعة إلى الشمال مباشرة من شرمساح . وكان قبول الفريضة فوق احتمال فرسان الفرنج ، فسوق بارونات أترجميه القيادة وأرسلوا غليب (أوف مونتغومرت) للتفاوض مع الأعداء . وكاد غليب أن ينجح في التناج القادة المصريين بالسماح للجيش بالتضي في أمان مقابل تسليم دمياط ، لولا أن انطلق على حواده واحد من مساعدي الفرسان يدعى مارسيل بين صفوف المسيحيين - وقد رشاه المصريون على ما يُظن - صالحا في القادة باسم الملك أن يستسلموا دون شرط . وأشاعوا الأوامر التي لم يكن لويس نفسه يعرف عنها شيئا ، وألقوا أسلحتهم ، وأحيط بالجيش كله واقتيد في الأسر. وفي ذات الوقت تقريبا حوصرت السفن التي تحمل المرضى إلى دمياط وتم الاستيلاء

(٢٧) Matthew Paris: تحدث ملحق باريس عن هروب سكرتير السلطان عرضها السلطان ورفضها الملك بناء على نصيحة روبرت (لوف أتر) pp. 87-8, 105. في بناء على نصيحة المذنب البابوي. ٩. ١٤3دوره عرض الملك لويس في. 106-7. ووصلت إلى أوروبا شهرة بأن لويس قد استول على القدس (117). (ibid. p. 118, vi, p. 117)

## ١٢٥٠م : لويس في السجن

وتغير المصريون ببادئ الأمر في أسر أعداد أسراهم العفوية . ونظرا لاستحالة حراستهم جميعا انحدوا على الفور من لم يبق على المشي من الضعف ، وظل للمصريون على مدى أسبوع يأخذون كل مساء ثلاثمائة لضرب أعناقهم بأوامر السلطان نفسه . ونقل الملك لويس من فرانس مرضه وأودع مكبلا بالسلاسل في منزل خاص في للصوره . واحتفظ المصريون برعماء البارونات معا في سجن كبير . ودأب أسروهم على تهدئتهم بالقتل ، لكنهم في الواقع لم تتوفر لديهم النية لقتل أي فرد قد يفتدى نفسه بقدية كبيرة . وكان جواثيل على ظهر إحدى السفن الأسيرة ، وأخذ حياته وحياة وفاقه بأن جعل من المفهوم أنه ابن عم الملك ؛ وعندما استحوه أمير البحر المصري عن ذلك ، وعلم منه أن ذلك غير صحيح وانما هو في الواقع ابن عم الاميراطور فريدريك ، ارتفعت شهرته لارتفاعا كبيرا.

وواقع الأمر أن مهابة الاميراطور فريدريك، ذلك الكافر، فعلت الكثير للتيسر على الصليبيين . ذلك أنه عندما أمر السلطان لويس في سجنه التحلي لا عن دميانه فحسب وإنما عن كافة الأراضي الفرنجية في سوريا ، رد لويس بأنها ليست تابعة له وإنما للملك كونراد ابن الاميراطور ، وأن الاميراطور وحده هو الذي يستطيع التحلي عنها . ولذا سحب المصريون الاقتراح على الفور . على أن الشروط التي اترعوها من الملك كانت قاسية للغاية ؛ إذ كان عليه أن يفتدى نفسه بالتحلي عن دميانه وأن تكون قدية حيث دفع خمسمائة ألف جنيه توري<sup>(٢٩)</sup>، أي مليون بيزنت . لقد كان مبلغا باهظا ، لكن أعداد الأسرى كانت هي الأخرى غفيرة . وما أن تم الاتفاق على الشروط حتى أخذ الملك والبارونات البارزين على ظهر فوادي أنحوت بهم في شهر إلى فارسكور حيث كان السلطان قد اتخذ مكان الإقامة . وكانت الترتيبات لتضي بأن يواصلوا رحلتهم إلى

(٢٨) Joinville, pp. 107-10; LdS. of Roches, pp. 612-16; William of Nergia, p. 376; William of Saint-Paul, pp. 74-5; Matthew Paris, v, pp. 157-9, 165-8, vi, pp. 193-7; el-Aini, pp. 209-13; Magni, xiii, p. 227; Abul Feda, p. 128.

(٢٩) (بالترجمة) Pound Tormoi :جيه توري :جملة نقدية فرنسية نقدية سُكَّت في مدينة تور

دمياط لتسليمها بعد يومين ، يوم ٣٠ أبريل<sup>(٣٠)</sup>.

لم تكن تلك التسوية لتتم فط لولا لجأ الملكة مارجريت . ذلك أنه عندما تركها الملك للزحف على الصورة كانت على وشك أن تضع مولودها ؛ وولد الولد على يد فارس شغلي الثمانين من عمره كقابلة ، وذلك بعد ثلاثة أيام من مجيء أبناء استسلام الجيش . فسست ابنها الصغير جون تريستان ، أبي ملغل الأسى . وفي نفس ذلك اليوم علمت أن أبناء بيرزا وجونا يعانون العدة للجلاء عن دمياط لعدم كفاية ما تبقى من طعام لأهواء السكان ، وهي تدرك أنها لا تستطيع الصمود في دمياط دون مساعدة الإيطاليين ، فاستدعت زعماءهم إلى جانب قرائها غامحاتهم ؛ فلو هُجرت دمياط ، فلن يبقى شيء يمكن تقديمه لإطلاق سراح الملك ، وعندما اقترحت عليهم أن تشتري هي نفسها كل الطعام في المدينة والإشراف على توزيعه وانقروا على البقاء . وكلفها الخبراء ما يزيد على ثلاثمائة وستين ألف جنيه ، لكنها أقتدت معنويات المدينة . وما أن أصبحت في حالة تسمح لها بالسفر حتى أمر تابعوها على نقلها بحرا إلى عكا ، بينما ذهب البطريرق روبرت بمرور آمن إلى السلطان في فارسكور لإستكمال قوتيات المتعلقة بالقضية<sup>(٣١)</sup>.

#### ١٢٥٠م : مقتل تورانشاه

وتأخرت المفاوضات النهائية شيئا ما ، إذ وحصل البطريرق فوجند السلطان ميتا . ذلك أنه في يوم الإثنين ٢ مايو كان السلطان وأسراة لا يزالون في فارسكور . وفي ذلك اليوم أقام السلطان مأدبة لأمراته ، على أنه حشر تأييد المماليك . إذ أن أهمية وقوة هذا الجيش الضخم من الأتراك والفرانجة قد تعاضلت كبناء حكم أيوب الذي كان يشملهم برعايته فكافؤوا بإخلاصهم له ، ونتيجة لتأييدهم للسلطنة شجرة الدر بقي التاج على رأس تورانشاه . لكنه الآن سلطان انتصر على الفرنج ، فحضر هو نفسه أنه من القوة بحيث يحل الحكومة بدوى الخطوة لديه من الجزيرة ؛ وعندما تعرض المماليك

(٣٠) Joinville, pp. 110-22; *MS. of Rouen*, pp. 616-18; Matthew Paris, v, pp. 1604, vi, 196-7. ويقول كاتب هذه الرسالة، وهو من فرسان المستشفى، إن لنا الوحيد يمكنني فيه ريبك Cal-Ann, pp. 213-14.

(٣١) Joinville, pp. 142-4.



رد عليهم جهنيدات لفظها وهو في حالة من السكر . وفي ذات الوقت أساء إلى زوجة أبيه بأن طالبها بممتلكات كانت لأبيه. فكبت من فورها إلى قادة المماليك لحمايتها.

وعندما نهض تورانشاه لمعادرة المأدبة يوم ٢ مايو ، انقض عليه جنود من المماليك البحرية وعلى رأسهم يبرس البلغاري وتزلوا عليه ضربا بسيوفهم ؛ فهرب جريحا إلى برج عتسي على طعة النهر ، وعندما تبعه الجنود وأشعلوا النيران في السرج الختسي ، قفز في النيل ووقف في الماء متوسلا الرحمة عارضا التحلي عن السلطة والعودة إلى الجزيرة ؛ ولم يلتفت أحد إلى توسلاته ، وإنما أطلقوا عليه سريبا من السهام فشلت في قتله ، فقفز يبرس إليه في الماء وقضى عليه بمنجره . وعمل جثمانه الممزق الأوصال ثلاثة أيام دون أن يُدفن ، وأخيرا حصل سفير الخليفة البغدادي علي إبان من المماليك بدفنه في قبر بسيط . وعين القاتلون للمتصرون زعيم قادة المماليك عز الدين أيسك قائدا عاما ووصيا ، وتزوج الأمثلة لثمة السلطنة شجرة الشر التي تمثل الشرعية . وفيما بعد نودي بالطفل الأشرف موسى ، وهو من أبناء عمومة السلطان الراحل ، سلطانا مشاركا لا شيء سوى أن يُعلج بعد أربع سنوات ، ولم يُعرف مصيره النهائي<sup>(٢٢)</sup>.

عندما وصل الطريق المعجوز من دمياط بمرور آمن موقع من تورانشاه ، زعمت الحكومة الجديدة أن التوقيع لا قيمة له وعامته كآسير . وذهب بعض المماليك إلى الملك لويي وسيوفهم ما تزال ملطخة بالدماء طالبين منه الأموال مكافأة لهم على قتل عدوه ؛ وتفكك آخرون تفككا مقيتا بأن راحوا يشبهون سيوفهم في وجوه النبلاء الأسرى ، وأصيب المورخ جواتفيل بالروع الشديد . على أنه لم يكن في نية المماليك التحلي عن الغدبة الكبيرة ، فاكذبوا الشروط السابقة التي تقضي بالإفراج عن الملك بعد استسلام دمياط ، غير أنه ينبغي للجنود الماديين من الأسرى ، وبعضهم نُقل إلى القاهرة ، الانتظار في الأسر إلى أن يتم دفع المال الذي خفف مبلغه إلى أربعمئة ألف حبة نوري، يدفع نصفه في دمياط والنصف الآخر لدى وصول الملك إلى عكا . وعندما طلبوا من الملك أن يقسم على أنه لم يغلد الشروط فسوف يترك عن دهانة المسيح وقضى وقضا حازما ، وطوال فترة بقائه في الأسر كان ما أظهره من اعتزاز بالنفس وثبات أروه العميق على أسريه ، حتى أن بعضهم اقترح متمارحا أن يكون هو سلطانهم التالي<sup>(٢٣)</sup>.

(٢٢) Magrîsi, xiii, pp. 230-2; Abul Feda, p. 129; Abu Shama, pp. 198-209; Ibn Khallikân, iii, p. 248. وفي الأشرف موسى ، انظر أجداد من ٣٦٢.

(٢٣) Joinville, pp. 123-32; Willers of Nargis, p. 381; William of Saint-Patris, pp. 23, 58, 75-6; A.S. of Rochester, pp. 618-19; al-Aini, p. 213.

وفي يوم الجمعة ٦-١٠-١٢٥٠م ذهب جيوفري وأولف سارجين) إلى دمياط وسلم القلعة للملاح المسلمين ، وأحضروا الملك بعد ظهر ذلك اليوم ، وشرع الملك في البحث عن الأموال لدفع القسط الأول من الفدية . غير أن ما كان لديه من أموال في عززته الخاصة لم يجاوز مائة وسبعين ألف جنيه ، فقرر أن يستغيث المصريين معهم أمّا الملك ، ألفونسو كوت بواتو ، إلى أن يتم العثور على البني . وكان معروفاً أن لدى فرسان المعبد مقادير هائلة من الأموال في قادسهم ، وكان التهديد بالعنف هو الوسيلة الوحيدة التي انتزعت موافقتهم على دفع المطلوب على مضض . وبعد تسليم المبلغ كله إلى المصريين أطلق سراح كوت بواتو . وفي مساء أبحر الملك والبارونات إلى عكا التي وصلوها بعد رحلة عاصلة استمرت ستة أيام . ولم تكن على سفينة الملك ملابس مهيأة ولا فراش ، واضطر إلى وضع رداءه والنوم على الحشيشة التي كان ينام عليها في السجن<sup>(٣١)</sup>.

وتختلف الكثير من الترحي في دمياط ، قتلهم المسلمون عن آخرهم على خلاف ما وعدوا به<sup>(٣٢)</sup>.

#### ١٢٥٠م : لويس يبقى في الشرق

بعد وصول لويس إلى عكا مباشرة استشار نخبائه حول خططه للمستقبل . قد كانته أنه من فرنسا تحته على الإسراع في العودة ، إذ قيل إن هنري ملك إنجلترا سافر على درب الحرب ، فضلاً عن الكثير من المشاكل الأخرى المعقدة . غير أنه كان لديه شعور بأن وجوده مطلوب في مملكة ما وراء البحار ، ذلك أن كاترنة الحملة المصرية لم تدثر جيشاً فرنسياً فحسب ، وإنما سلّبت لوتركيه جنودها جميعاً أو كادت فضلاً عن أن واجبه يفرض عليه البقاء حتى إطلاق سراح أخير السجناء في مصر . ونصحته إخوانه وكونت غلاتندرز بالعودة إلى فرنسا ، غير أنه كان قد عقد العزم على البقاء . وفي ٣ يولية أعلن عن قراره ويؤكد إخوانه ومن يرغب في الرحيل العودة إلى الوطن ، لكنه ما كثر . وسوف يلتقي بتدتمته الشخصية كل من يتوفر لديه الاستعداد للبقاء معه ، مثل جوائفيل . وأُرسل رسالة إلى بارونات فرنسا يشرح فيها قراره ويرجوهم بإرسال

(٣١) Joinville, pp. 115-8; *MS. of Rochester*, pp. 619-20.

(٣٢) *MS. of Rochester*, p. 620.

التعزيزات للحملة الصليبية ؛ إذ قد شعر شعورا مريرا بفشل جهوده الشخصية . وواقع إن يعلن أن الكارثة بمثابة علامة على فضل الرب أرسلها كي يعلمه التواضع ، وكان عليه أن يفكر في أنه قد دفع ثمنًا لفضل هذا الدرس إلا أن مولفة من الأرواح البرية<sup>(٣٦)</sup>.

وأمر إصوة الملك مع أبرز نداء الحملة الصليبية من هناك في نحو منتصف يولية تاركين وراءهم كل ما يستطيعون الإستثناء عنه من أموال ، لكنهم تركوا ثلثًا من كلف وكرعمانة وحل لا غير<sup>(٣٧)</sup> . وبقيت المملكة مع الملك ، الذي قبل على الفور حاكمًا فعليًا للمملكة . وكان تاج المملكة من الناحية الشرعية ما يزال يخص كونراد الألماني ؛ لكن الواضح بملء أن كونراد لن يأتي البتة إلى الشرق الآن . وعمرت ليس القروية انتقلت الوصاية إلى ابنها الملك هنري الذي عين ابن عمه ، جون كونست أرسوف ، وكيلا للمملكة ؛ وقد أسعده تسليم الحكومة إلى لويس<sup>(٣٨)</sup>.

أسفر وحيل ألباع لويس الفرنسيين عن مزيد من استدادته للإصغاء للتصحيح. فقد وسّعت التجارة من مداركه ، وعلمه لفتلاره إلى القوات المسلحة الحاجة إلى وجود علاقات دبلوماسية مع الكفيرة ، ووجدته بعض أصدقائه أنه يتزعج إلى اتباع سياسة حمقاء، لكنه لم يكن يفعل ذلك والدبلوماسية مواتية في هذه اللحظة. ولم تلق ثورة المالبيك في مصر قبولًا حسنًا من مسلمي سوريا حيث تواصل الولاء للأيوبيين ؛ فعندما وصلت أنباء موت تورانشاه ، انطلق الناصر يوسف صاحب حلب من حمص جنوبًا، وفي ٩ يولية احتل دمشق حيث استقبل استقبالًا حماسيًا على أنه ابن حفيد صلاح الدين. ومرة أخرى تعود الخصومة المبررة بين القاهرة ودمشق ، وللهفت كلشاعها على شراء المساعدة من الفرنج ؛ فلم يكذ لويس بصل إلى هناك حتى جاءته سفارة من الناصر يوسف . بيد أن لويس لم يكن ليازم نفسه على الرغم من أن التحالف مع دمشق قد يكون مستصوبًا من الناحية الاستراتيجية ، فعليه أن يفكر في الأسرى الفرنج المختصرين في مصر<sup>(٣٩)</sup>.

وفي شتاء عام ١٢٥٠م بدأ جيش دمشق بغزو مصر ، وفي ٢ فبراير ١٢٥١م لقي

(٣٦) Joinville, pp. 145-57, William of Nangis, p. 383; William of Saint-Pierre, pp. 91-2; Mathieu Paris, v, pp. 173-4.

(٣٧) Joinville, p. 157.

(٣٨) لم يتحدد وضع لويس القانوني مطلقًا ، غير أنه كان مقبولًا بوضوح كسلطة عليا في حقبة كونراد

(٣٩) Abu Shama, ii, p. 200, Abul Feda, p. 151; Ibn Khallikan, ii, p. 446; Joinville, p. 158.

الجيش المصري بقيادة أيك عند العاصية في الدلتا، التي تبعد عن الزقازيق الحالية التي عشر ميلا إلى الشرق . وفي بداية الأمر حقق السوريون بعض النجاح رغم أن كتيبة أيك نفسه كانت صاعدة ؛ لكن كتيبة من المماليك في جيش الناصر يوسف تخلت عن قضيته في كون المعركة ، وعلى الأثر استدار الناصر يوسف ، الذي لم يظهر شعاعه تذكر ، موليا الأدمير . وهكذا انقضت سلطة المماليك في مصر . غير أن فلسطين وسوريا ما زالتا في قبضة الأيوبيين . وعندما أرسل الناصر يوسف بعد ذلك إلى عكا بفتح بأنه قد تنازل عن القدس لقاء مساعدة الفرنج ، أرسل لويس سفارة إلى القاهرة يحذر أيك من أنه ما لم تتم تسوية مسألة الأسرى الفرنج على وجه السرعة فسوف يتحالف مع دمشق . وأطلق سفيره جون (أوف فالنيسين) صلال زيمارتين في ضمان الإفراج عن الفرسان أولا، عن فهم السيد الأعظم لفرسان المستشفى الذي أسر في غزة عام ١٢٤٤م ، ثم الإفراج ثانيا عن حوالي ثلاثة آلاف ممن أسروا حديثا ، في مقابل الإفراج عن ثلاثة أسير مسلم لدى الفرنج . وأظهر أيك تلهفا متزايدا على مصادقة الملك بأن أرسل إليه مع الدفعة الثانية قبلا و جهازا وحشيا كهديّة ، فحرقا لويس وطلب الإفراج عن جميع الأسرى المتبقين في أيدي المماليك دون أية مدفوعات أخرى . وعندما تحقق أيك من أن لويس أرسل إلى بلامه دمشق مبعوثه سيف البيروني الذي يتحدث العربية ، وافق على طلب الملك في مقابل تحالف عسكري ضد الناصر يوسف . وبما أن ذلك إلى الوعد بأنه ما أن يحتل المماليك فلسطين ودمشق فسوف يعيدون إلى المسيحيين كامل مملكة القدس القديمة حتى الأردن شرقا . ووافق لويس ؛ وأطلق سراح جميع الأسرى في نهاية شهر مارس ١٢٥٢م . وكاد فرسان المعبد أن ينسقوا المعاهدة برفضهم قطع علاقاتهم مع دمشق ؛ فاضطر الملك إلى زجرهم علنا وطلب اعتذارا متضاعفا<sup>(١٠)</sup>.

#### ١٢٥٣م : الخليفة يحقق السلام بين أمراء المسلمين

ولم يستمر التحالف الفرنجي المملوكي عن شئ. ذلك أنه ما أن سمع به الناصر يوسف حتى أرسل الجنود إلى غزة لقطع الاتصال بين الخلفاء ؛ فسار لويس جنوبا إلى باقا ، لكن المماليك لم يتقدموا خارج مصر . وظل السوريون والفرنج بلا حركة نحو من عام ، وكل منهما عازف عن إشعال معركة . وفي ذات الوقت أصبح لويس

(١٠-) Abu Shama, *loc. cit.*; Abū Fida, *loc. cit.*; Joinville, pp. 158-60; *AS of Roshelin*, pp. 624-7; Matthew Paris, v, p. 342.

تخصيصات بلقا بعد أن سبق أن أصبح تخصيمات عكسا وحيفا وقيسارية<sup>(٤١)</sup>. وفي وقت مبكر من عام ١٢٥٣م ناشد الناصر يوسف بغداد للتوسط بينه وبين المماليك . وكان الخليفة المستعصم مثلها على توحيد العالم الإسلامي أمام المغول ؛ فحث أليك الذي كان يعترف بسطاته الإسماعيلية على قبول شروط الناصر يوسف . وقرر قبول أليك حاكما لمصر والسماح له بضم فلسطين حتى الجليل شمالا والأردن شرقا . وتم التوقيع على معاهدة السلام في إبريل ١٢٥٣م وأمسك تريتبات أليك مع الفرنج في طي النسيان<sup>(٤٢)</sup>.

ولقد الجيش الدمشقي طريقه من غزة عائدا إلى وطنه غزوة الأراضي الفرنسية ومغروا عليها . وكانت المدن من القوة بحيث تتعذر مهاجمتها فيما عدا صيدا حيث كان يجري إعادة تشييد أسوارها . ورغم أن الدمشقيين لم يحاولوا مهاجمة قلعتها الواقعة على جزيرتها الصغيرة ، إلا أنهم عبروا المدينة وانسحبوا محملين بالأسلاب والأسرى . ونسار الملك لويس بتسيير حملة للإغارة على نابلس لم يصادفها النجاح . وحسن طالع ملكة ما وراء البحار لم يظهر أليك ولا الناصر يوسف أية رغبة جديدة في الحرب<sup>(٤٣)</sup>.

ولم يزل إحتامهما بدرجة كبيرة إلى وجود ملك فرنسا في الشرق . فعلى الرغم من سحله العسكري القوي فقد كان لشخصيته أثر واضح . وليس في ذلك ما يؤسف عليه ؛ إذ أن الامبراطور فريدريك ، الذي كان لا يزال لاسمه وزن في الدوائر الإسلامية، مات في ديسمبر ١٢٥٠م في إيطاليا . ولم يزل برت إنه كوفراد شيئا من هيته<sup>(٤٤)</sup>.

وفضلا عن ذلك، كان لويس أكثر نجاحا بكثير في التعامل مع قاضي لوترنجه من فريدريك ، إذ كان ماهرا غير مفرص . وانضمت قبته بتدخله في إسارة أنطاكية ، إذ مات يوهنن الخامس في يناير ١٢٥٢م تاركاً ابنته إليزابيث التي تزوجت قبل وفاته بأشهر قليلة من هنري ملك قبرص الأبز ، وكانت زوجة ثالثة له ؛ كما ترك ابنه يوهنن البالغ من العمر خمس عشرة سنة الذي استخلف تحت وصاية الأميرة اللبنة لوسين الإيطالية . وكانت لوسين امرأة سلا فعالية ، ثم تبادرت طرابلس أبدا وعهدت بحكم

(٤١) Joinsville, pp. 167-8, 184-5; *AS. of/Roselle*, pp. 627-8; Matthew Paris, vi, p. 206; al Atti, p. 215.

(٤٢) Maqrûi, *Saltana*, i, p. 39, 54; *Abul Feda*, p. 132.

(٤٣) Joinsville, pp. 197-8; *Etoile d'Eractex*, ii, pp. 440-1.

(٤٤) مات فريدريك يوم ١٣ ديسمبر في نورنبرغ. See Heffele-Lecroq, v, i, p. 1693.

الإمارة إلى أقاليمها الرومانية. وسرعان ما أدرك يوهنن السادس أن أمه لا تتمتع بشعبية، وهكذا بموافقة لويس من الحصول على إذن من البابا بأنه قد بلغ سن الرشيد قبل التوقيع القانوني بأشهر قليلة. وبعدما وافق البابا إينوسنت الرابع جاء يوهنن إلى عكا حيث منحه الملك لقب فارس وأعدت لوسين عن السلطة وتمتعت دخلا طيبا عوضا لها. وفي ذات الوقت أكمل لويس المصالحة بين بلاط أنطاكية وبلاط أرمينيا. وكان يوهنن الخامس قد تقام في سنواته الأخيرة علاقات مع الملك هينوم؛ على أنه اعتبر الماضي ملوثا بالذكريات الريرة، لكن يوهنن السادس لم يكن يعمل مثل هذه الضلعية؛ وفي ١٢٥٤م، وبناء على اقتراح لويس، تزوج ابنة هينوم، سيليا، وأصبح بدرجة ما تابعا لحميمه. ووافق الأرمن على أن يتحملوا نصيبا من مسؤولية حماية أنطاكية<sup>(١٥)</sup>.

ومات هنري ملك قبرص يوم ١٨ يناير ١٢٤٣م. ولأن ابنه هو الثاني كان رضيعا لم يجاوز أشهره الأولى، فقد طالبت الملكة بليزانس بالوصاية على قبرص والوصاية الإسمية على القدس. وأيدت المحاكم العليا في قبرص في وضعها هناك، لكن بارونات لوتريميه اشترطوا وجودها شخصيا قبل الإعتراف بها؛ بينما نزل جون الإيليني، وهو سيد أرسوف، وكيلًا عن المملكة؛ وراحت بليزانس تفكر في الزواج من ابنه الشاب باليان. وقد واصل الملك لويس في الواقع تسيير شؤون الحكم<sup>(١٦)</sup>.

#### ١٢٥٢م: التحالف الفرنجي مع الحشاشين

لم يكن هناك من أمل في أن ترسل أوروبا حملة صليبية جديدة. ذلك أن هنري الثالث ملك إنجلترا، الذي سبق أن أمم الصليب مع كثير من دعاياه في ربيع ١٢٥٠م، ألقى البابا بالسماح له بتأجيل حملته ورفض دعوة لويس لإرسال المساعدة من فرنسا، إذ كان فراني العام هناك ساحطًا خائب الأمل. فعندما وصلت الأنباء في أول الأمر

(١٥) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 439, 441-2, MS. of *Rocheville*, p. 624; Joinville, pp. 186-7; Vincent of Beauvais, p. 96.

(١٦) *Estoire d'Eracles*, loc. cit.; *Antres*, ii, p. 420. See La Motte, *Feudal Monarchy*, pp. 74-5; Hall, *History of Cyprus*, ii, p. 149.

ومن غير المحتمل أن كانت بليزانس أكثر من عطفية لبلبان، إذ عرضت نفسها بعد سنوات قليلة لتكون عروسا لإينوسنت (توفى لاكتاسين) (Rymer, *Feudera*, i, p. 341) ولم يعرف بها رعبا وضعة على النفس بل أن زارت عكا في عام ١٢٥٨.

بكاثة التصورة ، ظهرت حركة جماعية مستترة من الفلاحين والعمال أطلقت على نفسها اسم رعاة الكنيسة الصغار ، وتزعمتها شخص غامض أطلق عليه "سيد هنجاريا" ، واكتسبت هذه الحركة البلاد تعقد الاجتماعات منكورة البابا ورجال دينه وأخذت على نفسها العهد لإفناء الملك المسيحي . وحثتهم الملكة الوصية بلانش تأييدها أول الأمر ؛ لكن القوضي لملكهم بحيث كان لا بد من قمعهم . وقع البلاء الفرنسيون بتعليقاتهم المريرة ضد البابا الذي فشل التبشير بحملة صليبية ضد الامبراطورين المسيحيين بدلا من إرسال المساعدة لمن يكافحون الكفرة . وبلغت الملكة الوصية بلانش شأرا بعيدا بحيث أعلنت عن مصادرة أملاك أي تابع ملكي يستجيب لمناشدة البابا إينوسنت الرابع من أجل حملة صليبية ضد الملك كونراد في عام ١٢٥١ م . لكنها لم تعازف لا هي ولا مستشاروها بإرسال التعزيزات إلى الشرق<sup>(١٧)</sup>.

وفي سعي الملك لويس في البحث عن حلفاء ، أقام أكثر العلاقات ودا مع الحشاشين . إذ بعد كاثرة دمياط مباشرة أرسل زعيمهم السوري إلى عكا يطلب بدفع مكافأة له لإخراجه موقف الحياك ، لكن الملك رده قائلا بصراسة أنه دفع لمعوثيه في حضور سادة الأنظمة الدينية العسكرية . وقد طلب الحشاشون بصورة خاصة إعفائهم من الالتزام بدفع إثارة للظلام فرسان المستشفى ، ولذا كانت سفاراتهم التالية أكثر تراضيا بكثير ، إذ أحضرت معها هدايا نفيسة للملك والنمساوي لوثق . وكان لويس على علم بالعناء الذي يكتفه الحشاشون الإسماعيليون للمسلمين السنيين، فشتق لويس توددهم وأرسل إليهم يوف الرينتون لترتيب المعاهدة . ولتتن يوف بمكتبه المطالفة التي كانت تحتفظ بها في مسياد ، إذ وجد موعظته مشكوك في صحتها موشحة من المسيح إلى القديس بطرس الذي يصر ، كما أسيرته الطائفة، تحسيدا جديدا لهابيل ونوح وإبراهيم . وتم التوقيع على حلف للدفاع المشترك<sup>(١٨)</sup>.

ومع ذلك ، كان الطمع الدبلوماسي الرئيس للملك لويس هو الفوز بصداقة أكثر اعتناء الحشاشين شراسة — المغول . ففي بداية عام ١٢٥٣ م ، وصل إلى عكا تقرير بأن أحد أمراء المغول ، وهو سرتق بن باتو، قد تحول إلى المسيحية ، فسارع لويس بإرسال اثنين من الرهبان الدومينيكيين ، ولسم (لوف روبروك) وبارتولوميو (لوف كرمونا)

(١٧) Matthew Paris, *Chronica Majora*, v, pp. 172-3, 256-61; *Theology, Criticism of the Crusades*, pp. 57-9.

(١٨) Joinville, pp. 160-5.

ليبحث الأمير على الخشور لتساعده رفاته المسيحيين في سوريا . بيد أنه لم يكن من سلطة أمير مغول صغير أن يعقد مثل هذا التحالف العام<sup>(٤٩)</sup> وفي الوقت الذي كان الرعايا اللاتين في سوريا ورومانيا وبلغاريا في عيش أسوأ فاسدين بلاط الخان الأعظم نفسه ، اضطر لويس إلى مغادرة أوتربرج . إذ ماتت أمه الملكة الروسية بلانش في نوفمبر ١٢٥٢ م ؛ وسرعان ما عثت الفوضى بعد موتها مباشرة . وبدأ ملك البلغار في إثارة المصاعب على الرغم من قسمه بالذهاب في الحملة الصليبية ، ولم يساند أساقفته الذين عهد إليهم بالتبشير بالحملة الصليبية . والتألمت الحرب الأهلية بسبب موت كونتية فلاندرز ، وازدادت الحملات الضخمة الأتباع الفرنسيين كلهم . وكان أول واجبات لويس مكرسا لملكته ، فرتب وهو كاره للعودة إلى الوطن ، فأنجز من عكا يوم ٢٤ أبريل ١٢٥٤ م . وكان قاربه لللكي أن يتحطم أمام ساحل قبرص ؛ لكن العاصفة هبت عندما نذرت الملكة سفينة فضية لضريح القديس نيكولاس في فارانجيل . وبعد أيام قليلة أنفذ القارب لللكي من دمار النيران بفضل سرعة الملكة . وفي بولية هبطت الصحبة الملكية في هريس في كراشي أمي الملك ، شارلز (أوف الجور)<sup>(٥٠)</sup>.

تسببت حملة القديس لويس الصليبية في ترويض مسيحي الشرق في كارثة عسكرية مروعة ، وعلى الرغم من أن بقائه في الشرق لأربع سنوات قد أمد كثيرا في إصلاح الأضرار ، إلا أن حسارة القوة البشرية لم تستوحش تماما قط . كانت شخصيته أنبل الشخصيات من بين عظام الصليبيين قاطبة ؛ غير أنه كان من الأفضل لملكته ما وراء البحار ألا يغادر لويس فرنسا مطلقا إذ كان لشغله عميق الأثر . ذلك أنه كان رجلا طيبا يفتش الرب ، ومع ذلك ساقه الرب إلى كارثة . وفي سابق العهد كان من الممكن تفسير ما يُعْتَلَى به الصليبيين من بلايا على أنه عقاب إلهي على ما ارتكبه من جرائم وشروع ، بيد أنه لم يعد في الإمكان الآن الدفاع عن هذه النظرية القسرية . فهل يا ترى قد عيش الرب من الحركة الصليبية برمتها<sup>(٥١)</sup>؟

(٤٩) Pelliot, 'Les Mongols et la Papauté', loc. cit. p. 220. Rubruck's *Itinerarium* is translated and edited by Rockhill.

وقد صاغه تشوك في لغز مرتين إلى السجدة عندما قُبِلَ . (ibid. pp. 107, 116) لكن الأرمين كانوا يعتقدون أن تحول أصلا (Kirkcaldy, trans. Bromet, p. 173).

(٥٠) Joinville, pp. 218-34; William of Saint-Paulin, pp. 29-30; MS. of Rostolus, pp. 629-30; Matthew Paris, v, pp. 434-452-4. For Blanche's death, on 1 December 1252, see Matthew Paris, v, p. 354.

(٥١) Salimbene, *Chronica*, pp. 235-7. يقول بأنه قد أعرب عن مثل هذه التشكوك ، وقد



## ١٢٥٤م : الآثار التي توثقت على رحيل لويس

على الرغم من أن بحسب الملك الفرنسي إلى الشرق كان مشروما ، فقد أسفر رحيله عن ضررمات. إذ تترك وراءه جيوفري وأوف سارحين) كممثل له ومنحه النصب الرسمي فهران المملكة. والآن كان جون الإيليني كونت باقا وكيلا للمملكة بعد أن حلف ابن عمه جون أمير أروصوف في النصب عام ١٢٥٤م ، لكنه أعاده إليه عام ١٢٥٦م . والراجع أن كان جون أمير أروصوف غالبا في فرض إنشاء تلك السنوات مستشارا للملكة بلوانس التي استمرت كوصية شرعية للملكين معا<sup>(٢٢)</sup> وبعد وفاة كونراد الألماني في إيطاليا عام ١٢٥٤م ، انتقل لقب ملك القدس إلى ابنه كونرادين الذي لم يتجاوز الستين ، وقد تذكر قانونيو أوترمييه بكثير من الشك حقوقه الإسمية<sup>(٢٣)</sup>. وكان الملك لويس قد وثب قبل رحيله مباشرة عقد هدنة مع دمشق تنتهي في ٢١ فبراير ١٢٥٤م ، لمدة سنتين وستة أشهر وأربعين يوما . والآن غدا الناصر يوسف صاحب دمشق مدركا تماما للحظر اللغوي ولم تكن لديه أية رغبة في محاربة الفرنج . وبالتالي رغب أبليك صاحب مصر في تجنب حرب كبيرة ، وعقد في ١٢٥٥م هدنة لعشر سنوات مع الفرنج ، لكنه استبعد بالها صراحة من الهدنة إذا كان يعقد الآمال على الحصول عليها كمناء لمقاطعة فلسطين<sup>(٢٤)</sup>. وكانت هناك غارات تعقبها غارات معاهدة عبر الحدود . ففي يناير ١٢٥٦م استولى جيوفري وأوف سارحين) وحسون أمير باقا على قلعة ضخمة من الماشية ، وعندما قاد للملوك والى القدس حملة في مارس لمعاينة المغيرين متى بالفرجة وقتل . أما أبليك ، الذي كانت له مشاكله مع قواده ومنهم بيوس ، فقد عقد معاهدة جديدة مع دمشق ، ثم معاهدة أخرى بوساطة من الخليفة البغدادي وفتح فلسطين ثانية؛ غير أن القوتين الإسلاميتين حددتا معاهدتهما مع الفرنج لعشر سنوات وشملت أراضي باقا<sup>(٢٥)</sup>.

وحتى الإعانات غلبت إلى الإسمرة للملكين الذين كانوا يشرون بالحمة الصليبية بعد فشلها.

(٢٢) La Monte, loc. cit. n. 1.

(٢٣) Matthew Paris, v, pp. 459-60. For Contadin's rights, see below pp. 284-5.

(٢٤) Matthew Paris, v, p. 522, 525. cf. Rothelin, p. 630; Assolier de Terre Sainte, p. 448.

(٢٥) A.S. of Rothelin, pp. 631-3; Assolier de Terre Sainte, loc. cit.; Abul Fida, pp. 133-4.

## ١٢٥٦م : حرب القديس ساباس

إن ما أظهرته القاهرة ودمشق من أناة لملئها عليهما حشيتهما للتعاظم من المغول، قد أثبتت الفرنج بما كانوا يستحقونه من نتائج حرب أهلية سرعان ما نشبت بعد رحيل الملك لويس مباشرة . ذلك أن شتى التجار الإيطاليين يملكون الآن أنشط العناصر في مدن مملكة أوترمييه . وباتت تجارة البحر المتوسط تحت سيطرة الجمهوريات الثلاث الكبرى جنوا والبندقية وبيزا بما لها من مستعمرات في كل ميناء شرقي . وإلى جانب الشركات المصرفية التابعة لنظام فرسان المبدع ، كانت التجارة الإيطالية تزود أوترمييه بأغلب إيراداتها ، كما كانت تعود بالنفع بنفس القدر تقريباً على الأمراء المسلمين، الذين يُعزى استعدادهم بلوحة كثيرة للتوقيع على الهدنة من حين لآخر إلى حشيتهم من انقطاع مصدر الربح هذا . غير أن الجمهوريات الثلاث كانت في حالة من الخصومة المريرة . إذ تسببت الاضطرابات بين بيزا وجنوا في تأخير إبحار لويس من قبرص عام ١٢٤٩م ، وفي ١٢٥٠م قتل أحد البنادقة تاجراً من أبناء جنوا ونشب قتال في شوارع عكا<sup>(٥٦)</sup> . وعندما رحل لويس إلى أوروبا اندلعت الاضطرابات مرة أخرى إذ كان قتل مونتجوا في عكا يفعل بين حي البنادقة وحي أبناء جنوا ، وكان ذلك القتل ينتمي إلى أبناء جنوا فيما هذا أعلى ثروة له الذي يتوجه دير القديس ساباس القديم . وادعت كل من المستعمرتين ملكيتها للدير . وفي صباح أحد الأيام أوائل عام ١٢٥٦م ، وبينما كان القانونيون لا يزالون مختلفين حول المسألة ، استولى أبناء جنوا على الدير ، ولما احتج البنادقة هرع إلى حشيم رجال مسلحون من أبناء جنوا هابطون القتل ، وسارع إلى الانضمام إليهم أبناء بيزا الذين سبق أن رأبوا معهم الأمر ، وبرزت البنادقة الذين شاهدوا منازلهم تستلب وكذلك سفنهم الراسية على رصيف الميناء . وبمجهود جهيد طردوا الغزاة خارج حشيم مرة أخرى ، بعدما استولى الغزاة على الكثير من سفنهم<sup>(٥٧)</sup> .

وفي تلك التحفة كان فيليب (ألف مونتفورت) ، سيد طورون وصور - الذي اعترض طويلاً على حق البنادقة في امتلاك قري معينة على مقربة من صور - يظن أن الفرصة سانحة لإخراجهم من تلك صور الذي كانوا يملكونه بموجب معاهدة عقدت عند الاستيلاء على صور سنة ١٢٢٤م ، وإخراجهم كذلك من ممتلكاتهم في الضواحي.

(٥٦) *Annales Jerosolymitae*, p. 238. See above, p. 260.

(٥٧) *Estoire d'Eracles*, II, p. 443; *Annales Jerosolymitae*, p. 239; Dardano, p. 365. See Heyd, *Storia del Commercio del Levante*, I, pp. 344-54.

القديس ساباس<sup>٥٨</sup>

ولم يستطيعوا منعه لأنشغالهم في نزاعهم مع أبناء جنوا. وعندما عرضت حكومة جنوا - التي كانت عازفة عن أن تبدأ حرباً مع البندلية - التوسط، كان البنادقة على غصب بحلول دون فبرغم العرض. وكان القنصل البندلي في عكا، ساركو جوستيني، ديوماسيا منمرسا. غير أن تصرف فيليب المتعطر صدم أبناء عمومته الإيليين الذين كانوا يتمسكون جميعاً بالالتزام بالقانون. وارتاب وكيل الملكة جون أمير أرسوف في أن المؤتفريتين يتورن في أن يعلوا استقلال صور عن حكومة عكا. وبرغم أنه لم يكن على ود مع البنادقة، لروود موقفهم من حملة لويس الصليبية في المقام الأول، فقد شجع جوستيني في اكتسابه إلى جانبهم. وكان جون أمير يلفاً على علاقة سيئة فعلاً بأبناء جنوا الذين حاول أحدهم اغتياله. وشمرت الجماعات الدينية في عكا بالخطر من أن يطلع فيليب في قبول صور إلى مناقش تجاري ناصح لمدينتهم عكا، فأولوا تعاطفهم ومساعدتهم للقنصل جوستيني الذي كانت خطوته التالية إقناع أبناء يزا بأن الجنويين ليسوا سوى حلفاء يتصفون بالأناية وليست الثقة فيهم بمأمونة، وبما ضمن تأييدهم. كما انضم إليه التجار من مرسيليا الذين ما فتوا يشعرون بالغيرة من الجنويين، وعندئذ انضم إلى الجانب الآخر التجار الكنتاليون الغيورون من أبناء مرسيليا. وتناصر نظام القعد والنظام الثيوتوني البنادقة، وانضم نظام المستشفى إلى الجنويين. وفي الشمال، تذكرت أسرة إميرياكو، التي كانت تحكم جبل، أصلها الجنوي، وكان زعيمها هنري قد تشاجر مع سيده يوهنن السادس أمير أنطاكية ومطرابلس، فتحدى نهي سيده الخلد وأرسل الجنود لمساعدة الجنويين في عكا. وقد حاول يوهنن نفسه التزام الحياء، غير أن عواطفه كانت مع البنادقة، ودفعته عداؤه لإميرياكو إلى الدخول في الصراع. ولم تستطع أمته الملكة الوصية بليرانس أن تفعل شيئاً، وكان الرجل الوحيد الذي نضع فيه ثقته في لوترمييه هو جيوفري (أولف سارجون)، لكن نفوذه كان ضئيلاً لكونه غربياً ولا تتوفر له القوة الفعلية. وبدأت الحرب الأهلية تحتضب بمتسع لوترمييه كله. ولم تعد للسائلة مجرد اتحاد فياريونات الوطنيين ضد سيد غريب كما كانت الحال أيام فريديريك الثاني، وإنما لعبت الخلافات العائلية النافذة أنون الصراع. وكانت أم فيليب أمير مونتفات، وزوجة هنري أمير جبل تنتميان إلى آل إيليين، وكانت حدة يوهنن السادس من آل إميرياكو. بيد أن غري القرابة لم تكن تعني شيئاً الآن<sup>(٢٤)</sup>.

وكانت حكومة البندلية سريعة في اتخاذ إجراء. فما أن علم الجنويون بأن أبناء يزا

قد تخلفوا عنهم حتى احتسروا حي بيزا في عكا فسيطروا على البناء الداخلي . غير أنهم لم يتوفر لهم الوقت لمد سلسلة لشد المدخل قبل دخول أسطول كبير بقيادة الأدميرال البندقى لورنزو تيرولو ، الذى اقتحمت سفنه السلسلة وحيط الرجال على الرصيف . واندلعت في الشوارع معركة متعشقة للدماء انتهت بطرد الجنود مرة أخرى إلى حثهم الذى يحميه وجود حي فرسان المستشفى عطفهم مباشرة . واحتل الباقية دير القديس ساباس ، لكنهم لم يستطيعوا طرد الجنود أو فرسان المستشفى من المباني الخاصة بهم<sup>(٥٩)</sup>.

#### ١٢٥٨م : الملكة بليرانس في عكا

وفي شهر فبراير ١٢٥٨م أقدمت الملكة الوصية بليرانس على محاولة تأكيد سلطتها فأخرجت من قبرص مع ابنها الملك هنرى الذى لم يجاوز الخامسة من عمره ووصلت إلى أخيه بوهمند في طرابلس حيث صاحبها إلى عكا . وطلب بوهمند من المحكمة العليا للمملكة أن تقر مطالب ملك قبرص الذى يعتبر الوريث النال بعد كونرادين التقيس ، بالإعتراف به موضع للسلطة الملكية وأمامه حارسة ووصية . على أن ما كان يعلقه بوهمند من آمال في وقف الحرب بتأكيد سلطة أمته ووجودها استحال سرابا . وما أن أقر الأيبيلون مطالب هيو وبليرانس ، اللذين كانا يتطلعان دائما إلى حقوق الملك كونرادين ، وأذن فرسان المعبد وفرسان التيرتون ، حنة أعلن فرسان المستشفى على الفور أن لا شيء يمكن تقريره في غيبة كونرادين، متلرعين بالحجج التي دُجِست عام ١٢٤٣م . وبما تورطت العائلة الملكية في الحرب الأهلية ( فناصر الطرف البندقي بليرانس وابنها، وبسخرية التاريخ أخذ جانب أبناء حنا فرسان المستشفى وفيليب أمير مونتفورت ، وهذه الأطراف كلها التي سبق أن عارضت فريدريك الثاني معارضة مريرة، بنات الآن من أنصار آل هوهنشتوفن . واعدت أغلب الأصوات بالملكة بليرانس وصية . وتنازل لها جون أمير أرسيف وحميا عن منصبه كوكيل للملكة وأعادت تعيينه ثم عادت مع أخيها إلى طرابلس ومنها إلى قبرص بعد أن أصدرت تعليمات لوكيل الملكة الذي عينته بمعاملة الثمردين معاملة لا هوادة فيها<sup>(٦٠)</sup>.

(٥٩) Dandolo, loc. cit.; *Annales Jerosolimitae*, p. 240; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 447.

(٦٠) *Asienses*, ii, p. 401; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 443, 445; *Est. of Bartholom.*, p. 643; *Genes des Chypriotes*, pp. 149, 152.

كان بطريق القدس هو جيمس باتالون ، ابن إسكالي من تروي . وكان قد قُتِلَ في ديسمبر ١٢٥٥م ، لكنه لم يعمل عكا إلا في صيف ١٢٦٠م عندما نشبت الحرب الأهلية . وأعلن مناصره - بحق - للمملكة بليرانس وناشد البابا في إيطاليا اتخاذ إجراء فاستدعى البابا ألكسندر الرابع وفردا من الجمهوريات الثلاث للحضور إلى بلاطه في فيريريو وأمر بهدنة فورية . وتقرر أن يلعب سفيران مفوضان من البنادقة ومثلهما من أهل بيزا إلى سوريا على متن سفينة جنوبية ، والثان من الجنوبيين على سفينة بندقية ، وأن تسرى المسألة برمتها . وأتم المبعوثون في شهر يولية ١٢٥٨م ، لا شيء إلا ليعلموا أثناء الرحلة أن السيف قد سبق العذل . ذلك أن جمهورية جنوا أرسلت فعلا أسطولاً بقيادة أمير البحر روبرتو ديلا تورتا ووصل أمام صور في بونة حيث انضم إلى أسطول جنوي صغير كان في الشرق . وفي ٢٣ يولية أبحر من صور الأسطول للمشاركة المؤلف من نحو ثمانية وأربعين قادسا ، وفي ذات الوقت سارت كتيبة جنود جنوب الساحل تابعة للباب (أوف مونتفورت) . وكان لدى البنادقة وحلفائهم البيزون نحواً من ثمانية وثلاثين قادسا بقيادة تيبولو . ونشبت المعركة الفاصلة أمام عكا يوم ٢٩ يولية ، وكنت تيبولو أنه صاحب التكتيكات الأقوى ؛ وبعد صراع شرس خسر الجنوبيون أربعة وعشرين سفينة وألفاً وسبعمئة رجل وانسحبوا في فوضى عارمة . ولم يتمكن الباقون على قيد الحياة من الوصول بأمان إلى عكا إلا عندما هبت فحاة نسمة جنوبية . وفي الوقت ذاته صدت مبلشيا عكا تقدم فليب وخرب الخي الجنوبي داخل المدينة . وقرر الجنوبيون بعد هزيمتهم أن يهجروا عكا كلية وأن ينشئوا مقرا لهم في صور<sup>(٦٦)</sup>.

وفي أبريل ١٢٥٩م أرسل البابا مندوبا له إلى الشرق ، توماي آني (أوف ليتينو) ، وهو الأسقف الشرقي للقدس ، بحمل أوامر بتسوية النزاع . وفي نفس الوقت على وجه التقريب مات وكيل المملكة جون أمير أرسوف ؛ وسألت الملكة بليرانس إلى عكا مسرة أخرى ، وفي أول مايو عيّنت وكيلها للمملكة جيوفري (أوف سارجين) الذي كان ذا شخصية تحظى بالإحترام وكان لكل إثارة للجدل ، وتعاون مع للشعوب البابوي للضمات المدة . وفي يناير ١٢٦١م اجتمعت المحكمة العليا بحضور مندوبين عن المستعمرات الإيطالية وتوصلت إلى اتفاق يقضي بأن يكون للجنوبيين مقرهم في صور ، وللجنوبيين والبنادقة مقرهم في عكا ؛ وأجريت مصالحة رسمية بين المتحاربين من النبلاء والبنادقة والبيزون . على أن الإيطاليين لم يعتبروا الاتفاق نهائيا قط . وسرعان ما نشبت الحرب

(٦٦) Dandolo, p. 367, *Annales Savoyardes*, p. 280; *Genies des Chrones*, pp. 153-6; Bayard, xvii, pp. 30 ff.; *Estimate d'Eracles*, ii, p. 445.

بينهم وتواصلت ، مما أختق الضرر بالحجارة كلها وبالنقل البحري بطول الساحل السوري<sup>(١٢٢)</sup>.

#### ١٢٦١م : البيزنطيون يستعيدون القسطنطينية

كما خلق الضرر بالفرنج الجيدين إلى الشرق عبر الحدود السورية . إذ أن الامبراطورية القسطنطينية اللاتينية للتأرجحة لم تكن لتبقى إلا بمساعدة الإيطاليين الذين كانوا يملشون ضياح امتيازاتهم التجارية . وكانت البندقية حريصة بصورة خاصة على بقائها ، لما لها من ممتلكات في القسطنطينية نفسها وفي جزر بحر إيجه . ولذا ساندت جنوا امبراطور نيقيه اليوناني القوي ميخائيل بالايولوجوس مساندة فعالة . وكان ميخائيل قد أحرز نصرا مؤزرا عام ١٢٥٩م في بيلاجونيا بمقدونيا حيث أسر أمير أمينا ولیم (كوف وبلهاردين) وجميع باروناته وأجره على التنازل عن قلاع ماينا وميسيرا و مونيغاسيا ، وهي القلاع التي تسيطر على النصف الشرقي من شبه الجزيرة ؛ وبذلك أرسى ميخائيل فعلا دعائم استعادة بيزنطة لشبه الجزيرة اليونانية . وفي مارس ١٢٦١م وقع ميخائيل معاهدة تقضي بمعاملة أبناء جنوا معاملة تفضيلية في سائر أراضيه حاليا ومستقبلا . وفي ٢٥ يولية ، وبمساعدة الجنويين ، دخل جنوده القسطنطينية . لقد وصلت الامبراطورية اللاتينية ، ولعدة الحملات الصليبية الرابعة ، إلى نهايتها ، ولم تفعل للشرق القريشي شيئا سوى الضرر<sup>(١٢٣)</sup>.

وهكذا كان استعادة البيزنطيين للقسطنطينية وانتهاء الامبراطورية اللاتينية نتيجة حرب بدأت حول دهر قديم في عكا . لقد كانت ضربة موجعة للمهابة اللاتينية والبابوية ، وانتصارا لليونانيين . على أنه حتى باستعادة بيزنطة لعاصمتها ، فإنها لم تعد الامبراطورية العالمية كمهدتها في القرن الثاني عشر ؛ فها هي الآن إلا دولة بين دول كثيرة . فإلى جانب الإمارات اللاتينية النبطية ، هناك الآن مملكتان قبرصان بلفاربية و صربية في البلقان ؛ وفي الأناضول ، وعلى الرغم من تعزيز القبول للسلطنة

(١٢٢) Tuffel-Thomaz, *Unkandak*, iii, pp. 39-44; *Genes des Chigvoix*, p. 156; *Annales des Terre Sainte*, pp. 448-9.

(١٢٣) For the recapture of Constantinople, see Vasiliev, *History of the Byzantine Empire*, pp. 538-9. The chief Byzantine sources are Pachtysier, pp. 140 ff., and George Acropolita, i, pp. 182 ff.

السلحوقية، فلا أمل هناك البتة في زحزحة الأتراك ، وقد أدى امتلاكهم لوطنهم القديم في واقع الأمر إلى إضاعة المزيد من المشاكل للأباطرة بدلاً من تقييدهم . وكان أبناء جنواً لهم المستعبدون، قد هُزموا في سوريا ؛ لكن شمالهم مع برنطة مكثهم من السيطرة على تجارة البحر الأسود التي كانت تزايد في حجمها وأهميتها في الوقت الذي طورت فيه الغزوات المغولية طرق الغزافل عبر آسيا الوسطى<sup>(٦٤)</sup>.

وفي مملكة الشرق القرمي تمكن جيوفري (أوف سارجين) ، تسانده ما كان للذكوري القديس لويس من مهابة ، من استعادة بعض النظام بين بارونات المملكة . وماتت الأعمال العدوانية النشطة على البحر ، رغم أن اللاتين الإيطاليين قد برأصلون القتال ؛ بيد أنه لم تكن هناك عودة للصدافة القديمة بين آل مونتفورت وآل إيلين . ولم يتخفف نظاما العدد والشمس من عدائهما التقليدي ؛ بينما بقى النظام التيوتوني من مستقل سوريا ، فبدأ برکز جل اعتمائه في شواطئ البلطيق البعيدة ، حيث شُجح فيها الأراضي والقلاع منذ عام ١٢٢٦ قُدماً لقاء مساعدته في ترويض وتحويل الوثنيين من الروسين والليتوانيين<sup>(٦٥)</sup>.

ولم تنسح سلطة جيوفري لتند إلى داخل كوتية طرابلس . إذ أن ما كان يعمل بهوهند من مقت لتابعه هنري أمير جيبل ألقه وتحويل إلى حرب ؛ فلم ينكر هنري مباداة بهوهند وبوطد نفسه بمساعدة الجنويين في استقلال كسابل ، وإلحاق قام ابن عمه برتراند ، زعيم الفرع الأصغر من عائلة إميرياكو ، بمهاجمة بهوهند في طرابلس نفسها . وكانت الأميرة المسنة لوسين ، عندما خلعت من الوصاية ، قد تمكنت من إبقاء الكثير من المقيمين البها من الرومان في مناصب هامة في الكونتية ، مما أثار حفيظة البارونات الوطنيين اللذين وجدوا ممثلين في برتراند إميرياكو – الذي يمتلك ضياعاً كبيرة في جيبل وجولغا – وزوج ابنته جون أمير أنطاكية وهو لورد البطرون ومن أبناء العمومة الثانية لبوهمند . وفي ١٢٥٨م زحف البارونات على طرابلس حيث يقم بهوهند

(٦٤) See Hoyd, i, pp. 427 ff.

(٦٥) (Translation): Prussians and Livonians.

(الترجمة): الروسين (Prussians) نسبة إلى بروسيا وهي منطقة تاريخية شمالي ألمانيا ، تحولت إلى مملكة شمالي أوروبا (١٧٠١-١٨٧١) والمركز الرئيس للإمبراطورية الألمانية (١٨٧١-١٩١٩) ، وانتهت رسمياً عام ١٩١٧م . والليتوانيون (Livonians) نسبة إلى لاتفيا (Livonia) ، وهي مقاطعة سابقة تمتد لبوسيا (١٧٨٣-١٩١٨) تقع على السطح (١٤) ، وقسمت عام ١٩١٨م بين لاتفيا وليتوانيا.

(Author's note): For the Teutonic Order, see Strohli, *Tabulae Ordinis Teutonici*.

وحاصروا المدينة ، وخرج اليهم يوهنن في رحلته لكنه مُدِم ومُحرج في كتفه بواسطة برتراند نفسه ، وأجبر على البقاء محاصراً في عاصمته الثانية إلى أن حفر فرسان المعبد لتحذره . وغرق شوقاً إلى النار . وفي يوم ما ، وأثناء أن كان برتراند علي حواده محزواً إحدى قراءه ، انقض عليه فجأة بعض القرويين المسلحين وقتلوه . وقطعت رأسه وأرسلت هدبة إلى يوهنن الذي لم يتشكك أحد في تفريقه على القتل ، ولقد كان ذلك الإغتيال بمثابة عامل مساعد مؤقت لتحليل غرضه ؛ إذ ارتعب المتمردون وانسحبوا إلى حبل . بيد أنه قد أصبحت هناك الآن شارات دماء بين بيتي أنطاكية وإمبرياكو<sup>(٦٦)</sup>.

وفي ١٢٦٣م انتهت حكومة جيوفري (أوف سارجين) . إذ ماتت الملكة القروسية بليرانس في سبتمبر ١٢٦١م ، ولقيت وماتها أعمق الأسى، فقد كانت سيدة غاية في الإستقامة . وكان ابنها هيو الثاني في الثامنة من عمره ، فكان ضروريا وجود وصي جديد لقصر والقدس . وكان لأبي هيو الثاني - هنري الأول - شقيقتان تزوجت كيراعما ماريا من وثار (أوف برين) وماتت في شبابه تاركة ابنها هيو . وتزوجت صغرها إيزابلا من هنري الأنطاكي أسي يوهنن الخامس ، وهي ما تزال علي قيد الحياة . وكان ابنها المستقبي هيو أكثر من ابن خالته هيو (أوف برين) الذي نشأته إيزابلا ربيا مع ابنها . وعلى الرغم من أن هيو (أوف برين) كان الورث الثالث للعرش، فقد كان عازفا عن منافسة خالته وابنها من أجل الوصاية ؛ وبعد محاولات حثرت في المحكمة العليا القروسية ، اعتبرت المحكمة أن وصاية الرجل أفضل من وصاية المرأة ، ولذا أُلغيت مطالبة إيزابلا لصالح ابنها الذي عُيِّن باعتباره أكبر كمي تجرى في عروقه الدماء الملكية ؛ وأُتيح لمحاكمة القدس العليا المزيد من الوقت للتفكير . وظلت الأمور على ما هي عليه حتى ربيع ١٢٦٣م عندما حادت إيزابلا إلى عكا مع زوجها هنري الأنطاكي . واستقبلها البلاء هناك كوصية فعلية ، لكنهم بعدما لمسوا من جوانب الرية ما تمسأهفوه حتى آنذاك رفضوا أن يقسموا لها قسم الولاء ؛ فلم يكن ذلك ليحدث إلا إذا كان الملك كورناردين حاضرا . واستقال جيوفري (أوف سارجين) من منصبه وكييل للملكة، فخلعت الملكة المنصب علي زوجها ، وعادت هي نفسها بالونه سعيدة إلى قرص.

(٦٦) Gestes des Chiprois, pp. 157-60. See Rey, "Les Seigneurs de Giblet", in *Revue de l'Orient Latin*, iii, pp. 399-404.

وكان لورد الشيرون هو جون وليس كما جاء في index to Mas Latrie's edition of the Gestes وقد نقل آو وليم في ١٢٦٤م



وماتت في العام التالي في قبرص ، وأصبح منصب الوصاية على القدس شاقاً مرة أخرى. وحالب هيو الأنتاكي ، الوصي على قبرص ، بالوصاية باعتباره ابنها ووريثها ؛ لكن هيو (أوف برين) تقدم بمطالبة مضادة الآن وأعلن أن العرف الفرنسي للتعاقب أوتريجه يقضي بأن ابن الأخت الكبرى له الأسبقية على ابن الأخت الصغرى بغض النظر عن الأقدم سناً من ابن الحائزين. واعتبر قضية أوتريجه أن العامل الحاسم هو القرابة لأحر من شغل المنصب ، وحيث أن إيرابلا قد قبلت كآخر وصية ، يكون لابنها هيو الأسبقية على ابن أختها . وأجمع النبلاء وكبار رجال الدولة على قبوله وأعربوا له عن الولاء الذي أنكروه على أنه . وأعلنت الكوميونات والمستعمرات الأجنبية الولاء له ، واحترق به السيدان الأعظمان لفرسان المعبد والمستشفى . وعلى الرغم من أن الإيطاليين كانوا لا يزالون يمارسون بعضهم البعض في البحار ، فقد ساد جو عمام ، وإن كان مضطرباً ، من المصالحة في المملكة نظراً لشباط هيو في المقام الأول. إذ لم يخش وكلاء للملكة يعمل باسمه في الأراضي الرئيسية ، وإنما كان دائم السفر بين قبرص وعكا. وبناءً على قبرص شهد بحكومة الأراضي الرئيسية إلى جيوفري (أوف سارحين) الذي أصبح قهرماناً مرة أخرى ، كما غدت الإدارة في أيدي أناس محزومين ؛ إذ كانت الأخطار تتجمع وتزداد<sup>(٦٧)</sup>.

#### ١٢٧٠م : آخر حملة صليبية للملك لويس

لم ينس لويس ملك فرنسا الأراضي المقدسة قط . إذ كان يرسل كل عام مبلغاً من المال لإعالة مجموعة الجنود الصغيرة التي تركها هناك وراثة في عكا برئاسة جيوفري (أوف سارحين) ؛ ودامت هذه الممارسة حتى بعد موت جيوفري ولويس نفسه . وكان الأمل براودة دائماً في الخروج مرة أخرى في حملة صليبية ، غير أن احتياجات بلده لم تمنح له ذلك . ولم يحدث إلا في عام ١٢٦٧م ، عندما كان مريضاً ومرتبساً ، أن شعر بقدرته على الإعداد لحملة الصليبية الثانية ، وبدأ شيئاً فشيئاً في إعداد الوثائق الضرورية وجميع الأموال . وفي ١٢٧٠م أصبح على استعداد للإبحار إلى فلسطين<sup>(٦٨)</sup>.

على أن أخطأ الملك ، تشيرلر ، شبه المشروع الورع ودمره . ذلك أنه في عام

(٦٧) See La Monte, op. cit. pp.75-7, and Hill, op. cit. ii, pp.151-4. مناقشة شقاط القديسة والمراجع

Joinville, pp. 210-12. (٦٨)

١٢٥٨م ، عندما كان أسفل كونرادين ملكاً إسبانياً لصقلية والقدس ، علمه ابن عمه من السفاح ، مانفريد بن فريديك الثاني . وكان منفردي قد ورث الكثير مما كان لأبيه من ذهن متقد متفطرس ، ولقى نفس القدر من كراهية البابوية . وبدأ البابوات في البحث عن أمير بديل يحتل العرش الصقلي الذي كان تحت سلطتهم بصورة تقليدية . وبعد أن تفكروا في إدموند (أوف لانكاستر) ، إسن هنري الإنجليزي ، وحصلوا مرشحهم في شخص تشارلز (أوف أنجو) ، الذي كان على قدر ضئيل مما كان عليه أخوه القديس ، إذ كان بارداً وقاسياً ومتطرفاً في طموحاته ، وكانت زوجته الكونتيسة بياتريس ، وهي وريثة بروفانس وأمت ثلاث ملكات ، متلهفة على أن تضع تاجاً على رأسها . وفي ١٢٦١م ، أصبح بطريق القدس جيمس باتاليون هو بابا باسم إرمان الرابع . وسرعان ما أوقع الملك لويس بأن إزالة آل هوهينشتوفن من صقلية أمر أساسي مطلوب لنجاح أية حملة صليبية مقبلة.

ووافق لويس على ترشيح أخيه ، وفرض حرايق في فرنسا نيابة عنه . ومات إرمان عام ١٢٦٤م لكن حليفه ، كلمنت الرابع ، وهو فرنسي آخر ، أكمل الزبنيات مع تشارلز الذي زحف عام ١٢٦٥م داخل إيطاليا وهزم منفردي وقتله في معركة بينيفيتو . ومكنه النصر من السيطرة على جنوب إيطاليا وصقلية ، وتلفت زوجته القناع الذي كانت تغطي إله . وبعد ثلاث سنوات بذل كونرادين جهوداً شجاعة لاستعادة موطنه الإيطالي ، لكن جهوده لم تلق سوى كالأثر بالفرب من ناباكوزو ، ووقع الصبي كونرادين الذي لم يجاوز السادسة عشرة من عمره في الأسر وقطعت رأسه ، وكان أسر آل هوهينشتوفن . وتصاعدت الآن طموحات تشارلز وزمت له السيطرة على إيطاليا ، واستعادة التسططعية من اليونانيين اللشقيين، وإنشاء امبراطورية في البحر المتوسط على نحو ما كان يحلم به أسلافه النورمانديون عشا . وبدأ البابا كليمنت بتعشي الوحش اللخيف الذي رفعه ، لكنه مات عام ١٢٦٨م . وطوال ثلاث سنوات راح تشارلز يؤكد المكائد مع الكرادلة للحيولة دون انتخاب بابا جديد ، ولم يكن هناك من يكبح جماحه . على أنه شعر بالقلق من الحملة الصليبية التي يتوهمها أخوه ، إذ ينبغي استغلال رجال فرنسا وأموال فرنسا لصالحه ، وليس لدعم مملكة ثانية لم يكن مهتماً بعد للاهتمام بها . وكان يطمح في المساعدة لهزيمة بيرنطة ، فإن لم تكن المساعدة وشيكة ، فينبغي على الأقل تحويل مسار الحملة الصليبية إلى مسار ما آخر يعود عليه بالنفع<sup>(٩١)</sup>.

(٩١) See Jordan, *Les Origines de la Domination Anglaise en Italie, p. 100*, Belletre. Leclercq, op. cit. vi, 1, pp. 47-60, 63-6; Powicke, op. cit. ii, pp. 598-9.

وكان معروفا أن المستنصر أمير تونس الذي يسيطر على الساحل الأفريقي للقبائل الصقلية يتخذ موقفا ودنيا من المسيحيين ، لكنه أساء إلى تشارلز عندما قبل بثبوه للتمرد من صقلية . فكلّف تشارلز الملك لويس ، الذي لم تحجب التحريم تفاوله الإيماني ، بأن الأمير على استعداد للتحويل إلى المسيحية ، وأن استمرافا حفيدا للقوة حليق بأن يحضره إلى حظيرة الإيمان ، وبدا تكون هناك مقاطعة جديدة تضاف إلى المسيحية في بقعة ذات أهمية استراتيجية واسعة لأمة حملة صليبية جديدة . ويسلو أن القرار الذي اتخذه لويس كان متأكرا بمخضه ؛ إذ لم يخلو استنفاؤه من الحكماء ، مثل جواتيل ، استياهم من هذا المشروع ، لكن لويس كان واقفا من أخيه . وفي أول يوليو أبحر من ميناء آمو-مورت على رأس حملة مهولة ، وكان معه كيناهو الثلاثة الباقين على قيد الحياة ، وزوج ابنته تيسالده ملك ناغار ، وابن أخيه روبرت أوف آرثورا ، وكوثات برناتي ولامارش ، ووريت فلاندرز ، وجميع أبناء رفاقه في حملته الصليبية السابقة ، وكوث سانت بول وهو من الباقين على قيد الحياة من تلك الحملة الصليبية السابقة ، وكوث سواسون . وفي ١٨ يوليو وصل الأسطول أمام قرطاجنة في حجازة قبض الصيف الأفريقي . ولم يبد أمير تونس أية رغبة في التحويل إلى المسيحية ، وبدلا من ذلك حصن عاصمته ونظم حاميتها . لكنه لم يكن بحاجة إلى القتال ، إذ تولت الأحوال المتنامية هذه المهمة بدلا منه ؛ فقد تغشى المرض بسرعة في المعسكر الفرنسي ، وسقط الأمراء والفرسان والجنود فريسة المرض بالآلاف ، وكان الملك من بين الأرائل الذين صرعهم المرض . وعندما وصل تشارلز وأوف الجيو يوم ٢٥ أغسطس مع جيشه علم أن أحدات توفي قبل ساعات قليلة . وكان وريت فرنسا ، فيليب ، مريضا في حالة عطفرة ، وكان جون الجزين (ترينتان) الذي ولد في دمياط يحتضر . واستطاع تشارلز بما له من بأس أن يلفظ الحملة من كارثة حتى الحريف عندما دفع له الأمير تعويضا كبيرا كي يعود إلى إيطاليا ، غير أن أمر الحملة الصليبية بأسرها كان قد انقضى من قبل (٧٠).

عندما وصلت أنباء مأساة تونس إلى الشرق ، تلمس المسلمون الصعداء من أعمالهم وغرق المسيحيون في نواحهم . وكان للأسي ما يورده . إذ لن يحدث أية مرة أخرى أن يخرج جيش ملكي من أرضه الأم لإنقاذ فرنج مملكة مسا وراء البحار

مناقشة سياسة تشارلز أوف الجيو

(٧٠) *Roymille*, pp. 262-3. See Sternfeld, *Lehrbuch des Heiligen Kreuzung nach Taxis*, passim

(لوترمية). ولقد كان الملك لويس ملكا لفرنسا عظيمًا وطيبًا ، أما فلسطين التي أحبها  
 عزيد من الإغراز ، فلم تجلب لها سوى عينة الأسفل والأكسى . وراح وهو على فراش  
 الموت يفكر في المدينة المقدسة التي لم يرها قط ، ولم تكن مساعيه لتحليصها سوى  
 مساع عقيمة . وكانت آخر كلماته "القدس ، القدس" (٧١).

\_\_\_\_\_

---

## الفصل الثالث:

### المغول في سوريا

\_\_\_\_\_

.....

.....

## المغول في سوريا

”أتيت به لأن قوته عظيمة؟ أو تترك له تعبك؟“  
(أبواب: ١١: ٣٩)

عندما وصل ولیم (كوف روبروك) إلى بلاط الخان الأعظم في الأيام الأخيرة من عام ١٢٥٣ م ، وجد حكومة غارقة في احتلال كبيراً عن تلك التي رحبت بأنثرو (كوف لوتومو) الذي سبق أن بعث الملك لويس . وعندما مات غريوك ، ابن أرغوندي ، عمام ١٢٤٨ م ، تولت أرملة أرغول قيميبي أعمال الرضاة على أبنائها قوشا وناقو وقوقو . بيد أنها كانت حاكمة تغلب عليها البلادة وقد تملكها التبع والتحر ، ولم يد على أي من أبنائها ما يشتر باعتذار كبير . ودأب ابن عمهم شيرمكون، الذي قضى له حده أرغوندي بالخلافة، على دس الدسائس ضدهم. بيد أن المعارضة الأكثر هولا حايث من تحالف الثالب على الغرب (باتو) مع الأميرة سورغقتاني أرملة تولوي الإيمن الأصغر طنكيو عان. وكانت الأميرة سورغقتاني الكيرانية المولد، كششأن أبناء جنسها جميعا، مسيحية نسطورية تغلب عليها الورع ، ولذا كانت تلقى الاحترام لحكمتها ومطهارة



ذيلها . وبعد ترميلها رغب أوغوداي في تزويجها من ابنه غويوق ؛ لكنها رفضت بلقاءه  
مفضلة لكرسي نفسها لتعليم أبنائها الأربعة الأساقفة مونغكا وقوبلاي وهولاكو  
وأرقوغا . وعندما أجرى غويوق تقيشا على مالية العائلة الإمبراطورية كانت هي  
وأبنائها فحسب الذين كانوا يتصرفون بوزار من الشنير التالي . وكان (ساقو)، الذي  
لم تنتم عداوته لغويوق قط ، معجبا بها غاية الإعجاب ، لكن مطاقتة بالعرش أحدثت  
تزايد ضعفا على ضعف نظرا لما كان يهبط بشرعية أبيه جوشي من شكوك ، فما كان  
منه إلا أن انضم إليها المناصرة مونغكا في مطالباته . وجاء باتو إلى منغوليا ، وبعثته من  
كبار أمراء العائلة طلب العقاد المؤتمر (كوريشاي)، الذي انتخب في أول يولية ١٢٥١م  
مونجكا لتتصب الخان الأعظم . ورفض أسفاد أوغوداي حضور المؤتمر (كوريشاي) ،  
برغم ما بذله سورغقتاي من محاولات حلصه لتهديتهم ، وإنما تآمروا لمهاجمة أعضائه  
وهم سكارى في الاحتفالات التي تعقب مراسيم التولية . وأجهضت المؤامرة ؛ وبعد عام  
من الحرب الأهلية المتقطعة انتصر مونغكا على أتباعه جميعا وتُصّب حائلا أعظم في  
قرانقورام . وأدين الوصي أوغول قاتيش وكذلك كم شيركون بتهمة السحر ونُفذَ فيهما  
الإعدام غرقا ، وأُتِىَ أمراء آل أوغوداي فقد أرسلوا إلى المنفى<sup>(١)</sup>.

وبنول مونغكا ، أحيى للقول مرة أخرى سياستهم التوسعية . وعاد كبار الأمراء  
إلى مناصبهم الحكومية ، وعُهد بالمهامات الشرقية إلى الأخ الثاني لمونغكا ، قوبلاي ،  
الذي شرع بغزو كل الصين غزوا نشيطا مستمرا . ونُحوِل إلى البوذية، وغلبت على  
حروبه ومعاملته للمقهورين روح الإنسانية والرفق . ومكث مونغكا وأخوه الأصغر  
أريقوغا في منغوليا يراقبان في بقعة الإمبراطورية الشاسعة كلها . وبدأ ورثة باغاناي في  
الوكستان محاولات بحرية لتوسيع سلطانهم عبر بامير إلى داخل الهند . ونقل باتو مقره  
إلى ضفاف القوقاز السفلى كي يسيطر على أمراءه التابعين له في روسيا ، وأسس هناك  
مقر الخان التي أطلق عليها الكتاب المسلمون (كيشاك) ، وأطلق عليها المغول والروس  
(القبيلة الذهبية) . وانتقلت حكومة فارس إلى الأخ الثالث لمونغكا ، هولاكو .  
وأصبحت حدوده وخطود قوبلاي في الشرق هي المنطقة التي توجّهت إليها الآن جهود  
المغول<sup>(٢)</sup>.

(١) William of Rubruck (ed. Rockhill), pp. 163-4; Howarth, *History of the Mongols*, i, pp. 170-86; Grousset, *L'Empire Mongol*, pp. 306-11.

(٢) Grousset, *op. cit.* pp. 312-13, 364-6; Jakovlevski and Grekov, *La Horde d'Or*, pp. 98-120.

## ١٢٥٤م : التحالف الأرميني مع المغول

من بين الدول الناجحة للبحر المتوسط كانت المملكة الأرمينية أول من تحقق من أهمية التقدم المغولي . وكان الأرمن قد شهدوا مشدوهين انهيار الجيش السلجوقي أمام الحملة المغولية التي قادها أحد حكام الأتابيك عام ١٢٤٣م ، وكان مقدورهم أن يقدروا استحالة مقاومة الجيش الإمبراطوري . وأرسل الملك هيثوم في حركة حكيمة رسالة يطلب عليها الإحزام إلى بابشو عام ١٢٤٣م . غير أن المغول انسحبوا آنذاك واستعاد قايخوسرو أراضي التي فقدتها في الأناضول وبدأ في الضغط مرة أخرى على أرمينيا بساعده الأمير الأرميني المتمرد قسطنطين (أوف لاميرون)<sup>(٢)</sup>.

وكان في تقدير هيثوم أن المغول سوف يعودون وأن لهم أهميةهم لكل العالم المسيحي الأسيري ، وخاصة له هو نفسه . فأرسل في عام ١٢٤٧م أعضاء الكونستابل سيبياد على رأس سفارة إلى بلاط الخان الأعظم . ووصل سيبياد إلى قراقورم عام ١٢٤٨م قبل وفاة غوبوق بوقت قصير ، واستقبله غوبوق استقبالاً ودوداً ، وما أن علم أن هيثوم على استعداد لأن يكون تابعاً له حتى وعد بإرسال العون إلى الأرمن ليستعيدوا المدن التي أخذها منهم السلاجقة . وعاد سيبياد إلى وطنه ومعه وثيقة من الخان الأعظم تضمن وحدة أراضي هيثوم<sup>(٣)</sup>. غير أن موت غوبوق أوقف أي عمل عاجل . وفي ١٢٥٤م ، وما أن سمع هيثوم بخلافة خان جديد ذي يأس حتى شرع هو نفسه في الرحلة إلى قراقورم<sup>(٤)</sup>.

صارت قراقورم الآن المركز الدبلوماسي للعالم . ذلك أنه عندما وصلها سفير لويس التاسع ، وليم (أوف روبروك) عام ١٢٥٤م ، وجد سفارات من الإمبراطور اليوناني ومن الخليفة ومن ملك دلي ومن السلطان السلجوقي ، كما وجد أسراء من الجزيرة ومن كردستان وأمراء من روسيا ، وجميعهم يتقرب مغالبة الخان . وكان هناك عدد من الأوروبيين الذين استقروا هناك ، وفيهم الجوهري من فارس مع زوجته المنجارية ،

(٢) Ibn Bihī (ed. Hestermann), pp. 243, 249-50; Sertupad, pp. 649-51; Kinkon, trans. Blussat, p. 142; Vincent of Beauvais, pp. 1295-6.

(٣) Sertupad, letter to Henry of Cyprus, in Wilbars of Nangis, pp.361-3.

(٤) Ibn Sheddad, *Geography* (ed.Cohen), in *Revue des Etudes Islamiques*(1936),p. 121,Bar-Hebraeus (trans.Budge),pp.418-19.



معسكر الخان الأعظم عاد . سبعة أميال قليلة من قراقورم . واستقبله مونغكا استقبالا رسميا يوم ٤ يناير ، وسرعان ما رحل بعد ذلك مع البلاط إلى قراقورم نفسها . ووجد الحكومة المغولية وقد عقدت عزمها فعلا على مهاجمة مسلمي غرب آسيا ، وعلى استعداد لمناقشة الإقدام على عمل مشترك . بيد أنه كانت هناك عقبة لا سبيل إلى تخطيها ؛ إذ لا يستطيع الخان الأعظم أن يقبل وجود أي كبر ذات سيادة غيره في العالم . وكانت سياسته الخارجية بسيطة في أساسها؛ فأشأ أصدقاءه فكانوا أتباعا له فعلا ؛ وكما أعدوا فكان ينبغي إزالتهم أو إخضاعهم إلى حالة التبعية . وكان كل ما استطاع ولیم الحصول عليه هو الوعد بالخلص تماما بأن يلقى المسيحيون المساعدة الوفيرة طالما حياء حكامهم لتقديم فروض الولاء لسيد العالم . ولم يكن باستطاعة ملك فرنسا التعامل بذلك الشروط . وفي أغسطس ١٢٥٤م ، غادر ولیم قراقورم وقد تعلم ، كشأن سفراء كثيرين بعده ذهبوا إلى تلمع أجد في آسيا ، أن عواصم الشرق لا يلهسون أصراف الدبلوماسية الغربية ولا ميلادها . وعاد بطريق آسيا الوسطى إلى بلاط باتو ومنه حلال القوقاز ومضت الأناضول إلى أرمينيا ثم إلى عكا . وكان يُعامل في كل مكان بلحسب إليه بالأحرار اللاتين بمحور مفوض إلى الخان الأعظم<sup>(٩)</sup>.

وكان الملك هيثوم قد وصل إلى قراقورم بعد رحيل ولیم عنها بغزة وحيزة . ولقد جاء وقد اختار طوعية أن يكون تابعا ؛ وكان الزائرون الأحابب الآخرون إتشا من الأنواع الذين استدعوا رغما عنهم ، أو أنهم كانوا ممثلين للسلوك بدعوى الإستقلال في تكثر ؛ ولذا عومل هيثوم برعاية خاصة ؛ فعندما استقبله مونغكا استقبالا رسميا في ١٣ سبتمبر ١٢٥٤م، منحه وثيقة تؤكد سلامته شخصيا وسلامة مملكته من أي انتهاك ، وعومل باعتباره المستشار المسيحي الرئيسي للخان في الشؤون المتصلة بغرب آسيا. ووعده مونغكا بإعفاء كافة الكنائس والأديرة المسيحية من الضرائب . وعلن أنه أصدر أوامره لأخيه هولأكو ، الذي رشح فعلا أركانه في فارس ، بالاستيلاء على بغداد والقضاء على قوة الخلافة ، وتمهد باستعادة القدس ذاتها للمسيحيين إذا تعاونت معه كافة القوى المسيحية. ورحل هيثوم عن قراقورم في أول نوفمبر محملا بالهدايا وقد اعتبط لنجاح جهوده التي بذلها . وارتحل إلى الوطن عن طريق أفغانستان وفارس حيث أبحر عن ولاته هولأكو ثم عاد إلى أرمينيا في شهر يولية التالي<sup>(١٠)</sup>.

(٩) Ibid. pp. 165 ff.

(١٠) Kirakos, pp. 279 ff.; Vahram, *Rhymed Chronicle*, p. 519; Bar-Hebraeus, pp. 418-19; Hayton, *Flour des Historiens*, pp. 164-6; Bessilacider, *Medieval Researches*, 1, pp.

وكان تفاؤل هيثوم طبيعيا لكنه كان مغرطا . ذلك أن المغول كانوا يقيما تواقيين إلى السيطرة على الخلافة أو القضاء عليها . وكان لديهم فعلا الكثير من الرعايا المسلمين بحيث بات من الأمور الأساسية لهم السيطرة على المؤسسة الدينية الرئيسية في العالم الإسلامي ، ولم تكن لديهم عداوة خاصة بكونها للإسلام كدين ؛ وبالمثل ، ورغم عداوتهم للمسيحية عداوة تفوق أي عقيدة أخرى ، فلم تتوفر لديهم ثمة السماح بوجود أية دولة مسيحية مستقلة ؛ وفي حالة استعادة القدس للمسيحيين ، فإنها سوف تستعاد تحت الإمبراطورية المقلوية . ومن دواعي الإثارة أن تتأصل فيما كان يمكن أن يحدث لو تحققت طموحات المغول في غرب آسيا . كان من الممكن إنشاء عاصمة مسيحية عظمى وربما تنميتها بمرور الزمن من القوة المركزية في منغوليا . بيد أن حلم القديس لويس في أن يصبح المغول الأبناء المطيعين للكنيسة الرومانية لم يكن لسير في الأذهان ؛ ولم تكن المنشآت المسيحية في غرب آسيا لتحفظ بأي استقلال لها . لو حدث انتصار مغولي في غرب آسيا لكان في صالح العالم المسيحي ككل ؛ غير أنه ليس من الممكن توحيه للاتمة إلى فرنج كوترجمه؛ لذلك لموقف الخان الأعظم إزاء الأمراء المسيحيين ، تفضيلهم المسلمين الذين عرفوهم على هؤلاء القوم الغرباء ذوي الشراسة والعطسة الآتين من الصحاري القمعية ، وسجلهم في أوروبا الشرقية لا يبعث على التشجيع<sup>(١١)</sup>. أما محاولة هيثوم بناء تحالف مسيحي كبير لمساعدة المغول فقد استقبلها المسيحيون الوطنيون استقبالا حسنا ؛ وانصاع برهمند أمير أنطاكية الذي كان واقفا تحت نفوذ حبه . لكن فرنج آسيا تأورا بمخائهم<sup>(١٢)</sup>.

#### ١٢٥٦م : الجيش المغولي يتحرك باتجاه الغرب

في يناير ١٢٥٦م عبر جيش مغولي ضخم نهر أكسس Oxsus بقيادة هولاكو أحمي الخان الأعظم . وكان هولاكو – كاسميه قبلاي – تفضل تعليمًا من أغلب أمراء المغول؛

164-72 .

(١١) الانتلاخ على الشاع عن موقف الفرنج، انظر Cihon, *Le Syrie du Nord*, pp. 708-9. تاريخ الحملات الصليبية جروب-Grousset in *les Histoire des Croisades* ، داب على الإشارة عن أي فرص التي أسعها الفرنج ونصهم التحالف مع المغول ، لكنه على الرغم من معرفته بتاريخ المغول يبدو أنه قد تخاضع عن استحالة معاملة الخان الأعظم للفرنج على أنهم مستغلون لا شايين . ثم يمكن للمغول يعفون ويسكان وجود دول أجنبية مستقلة.

(١٢) انظر أثناء الصفحات (٣٦٠-٣٦٢) و(٣٦٤-٣٦٥).

فكان يميل إلى تقريب المسلمين وقد دارم هو نفسه إرضاء ميرله في إميلالاته على الفلسفة والكيمياء . ولقد احتذته البوذية كما سبق أن احتذت أماء قبلاي ؛ غير أنه لم يكف قط عن شامية أسلافه، وكان يفتقر إلى ما كان ينصف به أحوه من حسب الحير . وكان يعاني من نوبات من الصرع التي ربما كان لها أثرها على ضاعه التي لا يعتمد عليها ؛ فكان متوحشا إزاء المجهورين كشأن أي من أسلافه . على أنه لم يكن للمسيحيين ذريعة للتشكوى منه ؛ إذ كان تقوى نفوذ في بلاطه هو نفوذ زوجته الرئيسية دوكوز خاتون . وكانت هذه السيدة المرموقة أميرة كيرانية ، حليقة طفول عان ، ومن ثم من أبناء مؤولة أم هولأكو . وكانت لسطورة غيرة ، ولم تحفو كرايتها للإسلام وتلقفها على مساعدة المسيحيين من أية ملأ<sup>(١٣)</sup>.

وكان هدف هولأكو الأول هو مقر الخشاشين في فارس ؛ فليس في الإسكان وسود حكومة منظمة حتى يتم القضاء على هذه الطائفة ، خاصة وقد أساء اتباع الطائفة إلى المغول بقتلهم بالغاناي ، الأمن الثاني لمكتيز خان . وكان هدفه التالي بغداد التي يستطيع الجيش المغول التقدم منها إلى سوريا . وقد وضعت الخطط بعناية لكل شئ؛ فأصلحت الطرق عبر تركستان وفارس وشبكت الجسور ، وأرسلت الطلبات لطلب عربات آلات الخصار من الصين ، وزعت اللطمان من الرعاة كي يصبح الكلاً وفيرا لحيلول المغول . وكانت مع هولأكو دوكوز خاتون وأنشان من زوجاته الأميريات وأبناء الأكران . وكان حليفه نغودار مثل آل باغاناي . وأرسل بانو من (القبيلة الذهبية) ثلاثة من أبناء أئوته ارتحلوا أسفل الشاطئ الغربي لبحر قزوين وانضموا إلى الجيش في فارس . وقدمت كل قبيلة في الكوتفدالية المغولية خمس رجالها القسائين ، وكان هناك آلاف من الرعاة الصينيين المهرة في إطلاق السهام المشتعلة من قسيهم . وكان جيش قد أرسل قبل ثلاث سنوات لإعداد المدة وعلى رأسه أكثر جنرالات هولأكو ثقة وهو قيتوغا السطوري ذي العرق الناباني Naiman ، والذي قيل أنه من نسل الحكماء الثلاثة من الشرق<sup>(١٤)</sup> . وكان قيتوغا قد أعاد ترميد السلطة المغولية في أهم مدن القنضة الإيرانية

(١٣) 145, 94-5, Radhid ad-Din (trans. Quatremère), pp. 94-5, 145. الذي يذكر بانو دوكوز خاتون . وقد أصعب بها كرتيكا وكان دائما ما يصح هولأكو بالأعداء رابها . وقد ولدت كيرة كيرانية كشان سورخفاني . ومن هولأكو كسفر:

Howorth, op. cit. iii, pp. 90 ff. and Grousset, *Histoire des Croisades*, iii, pp. 563-6.

(١٤) حكماء الشرق الثلاثة، أي محروس للشرق الذين جاءوا ليعيدوا عيسى النفل في بيت لحم، طبقا لإصحاح متى، الإصحاح الثاني.

واستولى على بعض معازل الخشاشين الأقل أهمية قبل وصول هولاء<sup>(١٥)</sup>.

#### ١٢٥٧م : إيواء الخشاشين في فارس

عشا حاول زعيم الخشاشين ركن الدين خورشاه نقشب الحطرس بالديسانس والألاعيب الديبلوماسية . ودخل هولاءو أرض فارس وزحف زحفا بطيئا وبلا هوادة خلال دماوند وعاش آباد إلى سهل الخشاشين . وبلغهشور الجيش المرمم أمام قلعة الموت وشروعه في تشديد حصاره للقلعة ، خضع ركن الدين ، وجاء بنفسه في ديسمبر إلى خيمة هولاءو لإعلان خضوعه. ورفض حاكم القلعة إطلاقه أو أسرهم باستسلامها ، فاستولى عليها المغول عبرة بعد أيام قليلة . ووعد هولاءو الإناء على حياة ركن الدين ، غير أن هذا الأخير التمس إرساله إلى قراقورم آملا الحصول على شروط أفضل من الحان الأعظم مونكا . وبوصوله هناك رفض مونكا مقابلة قاتلا إنه من الخطأ انتهاك الخيول الكريمة في مثل تلك البعة العقيمة . وكانت هناك قلعتان للخشاشين لا تزالان صامدتين أمام المغول ، سيردكوه ووليميسر . وقيل لركن الدين أن يعود إلى بلاده للتوطين لاستسلام القلعتين ؛ وفي الطريق قتل مع حاشيته ، وفي ذات الوقت أرسلت الأوامر إلى هولاءو بضرورة إيلاء الطائفة عن آخرها . وأرسل عدد من كبار زعيم الخشاشين الأكر إلى بلدة بالغاتاي ، سالغان حاتون ، كني تنقسم بنفسها لقتل والدها . وشجع آخرون بلربعة إخراج الحساء وقتلوا بالأكوف . وفي نهاية ١٢٥٧م لم يكن هناك في الجبال الفارسية سوى القليل من اللاحنين . أما الخشاشون في سوريا فكانوا حتى آنذاك بعيدين عن قبضة المغول ؛ لكنهم استشرفوا مصيرهم<sup>(١٦)</sup>.

وكان الخشاشون يهتمون في قلعة الموت بحكمة ضخمة مليئة بكتب الفلسفة وعلوم السحر ، وأرسل هولاءو حاكمه المسلم ، عطاء الملك يوقيني ، لفحصها . فنهي عطاء الملك جانباً نسخ القرآن التي وجدها ، وكتبها الكتب ذات القيمة العلمية والتاريخية، وأحرق أعمال الزندقة . وعصادة غريبة ، شب في ذات الوقت حريق كبير بفعل البرق في المدينة الثورة ، ودمرت تماما مكتبتها التي كانت تحوى أعظم المختبرات

(١٥) Broyon, op. cit. pp. 114-115 من المصادر الأصلية. وعن أسلاف فتوحه، كلف، Broyon, op. cit. p. 173.

(١٦) Broyon, op. cit. pp. 458-460. Broyon, Library History of Persia, ii, pp. 458-460.

عن الفلسفة الإسلامية القومية<sup>(١٧٧)</sup>.

واحتلت هولاكو شافة الحشاشين في فارس ، ثم زحف بمبشته الجرار على عاصمة الخلافة الإسلامية ، بغداد . وكان الخليفة المستعصم في السابعة والثلاثين من عمره ، ومن الأسرة الحاكمة العباسية ، وابن الخليفة المستعصم من أمه ألبوية ، وكانت الأمال تداعبه في اسرّاج قوة عمرته وهيبته . ومنذ انهيار الخوارزميين عسارت الخلافة سيده نفسها ، وما كان من حصومة بين القاهرة ودمشق ساعد الخليفة على أن يتصرف تصرف الحكيم للإسلام . بيد أنه على الرغم من استطاعه الآبهة ومظاهر الترفيعات من حوله ، فقد كان المستعظم رجلاً ضعيفاً أهمل ، كمل هيبته إشباع ملذاته الشخصية ، وقد تمزق بلاطه من جراء العداوة بين وزيره الشيعي مؤيد الدين ، وأمين سره السنّي أيلك الذي كان يحظى بتأييد ولي العهد . وكانت حصون بغداد شديدة الأسس ، واستطاعة الخليفة بناء جيش كبير ، إذ كان عدد فرسانه مائة وعشرين ألفاً غير أن ذلك كان متوقفاً على مصادر الإمدادات العسكرية ، والمستعصم لا يثق في أتباعه ، ومن ثم أخذ الخليفة بصيحة وزيره بتقليص حجم الجيش ودفع إثارة اختيارية من المال الناتج عن ذلك للمغول لإبعادهم عن بغداد . ولم يكن لسياسة التهدة هذه أن تعيب نجاحاً ، حتى في حالة تنفيذها على وجه الإنساق الأكمل ؛ ذلك أنه عندما رد هولاكو بطلب الاعتراف بسيادته على الخلافة ، كان نفوذ أيلك أخفاً في الصعود ، وانتهى الأمر برفض طلب هولاكو رفضاً متعالياً<sup>(١٧٨)</sup>.

وبات العراقيون من حول هولاكو لا يتفقون جميعاً على تشجيع حملته ، ووردته هواجس الخوف من خيانة كتيابه من يدينون بالإسلام وتدهسل حكام سوريا ومصر ، فشرع في حملته متوجساً شيئاً ما . على أنه اتخذ احتياطات ذات فعالية لإزاء احتمالات الخيانة، ولم ينفذ أحد لإنقاذ بغداد ، وفي ذات الوقت زاد جيشه قوة على قوة إذ حابته فرقة من القبيلة الذهبية المغولية وكذلك الجيش الذي أبقاه ببايكو على تخوم الأناضول طوال المقد الأسير ، ففضلا عن فرقة من الفرسان الجورجيين المتحمسين لضرب عاصمة الكفرة.

وفي نهاية ١٢٥٧م انطلق الجيش المغولي هابطاً من قاعدته في همدان ، وعبر ببايكو

(١٧٧) Barrow, loc. cit

(١٧٨) D'Otsson, *Histoire des Mongols*, iii, pp. 213-25.



بمجرده نهر دجلة عند الرصيف وسار جنوباً على الضفة الغربية ، ودخل كيتوغا وحناح  
الميسرة سهل العراق الواقع شرقي العاصمة ، بينما تقدم هولوكو والقلب خلال  
كرميشاه . وما أن سمع الخليفة بالانذار بالهجوم من الشمال الغربي حتى انطلق جيشه  
بقواته الرئيسية لملاقاته . وأعاد أبوك عبور نهر دجلة على بعدة ثلاثين ميلاً من بغداد ،  
فتظاهر بأبوك بالانسحاب وبسبب ترسب بالعرب في مكان منخفض معشوب لجلاء  
الاستنقعات ، وبعت مهندسين لهدم الجسور المقامة على نهر الفرات من خلفهم ،  
واستولت المعركة في اليوم التالي . وأحضر جيش أبوك على التفقير إلى المنخفضات  
الطينية ، ولم يتمكن من الفرار سوى أبوك نفسه وحرسه الشخصي خلال الجلاء إلى  
بغداد وهلك سواد جيشه في ميدان المعركة ، وفر الباقون على قيد الحياة إلى داخل  
الصحراء وتفرقوا<sup>(١٩)</sup>.

#### ١٢٥٨ م : المغول يخربون بغداد

وفي ١٨ يناير ظهر هولوكو أمام أسوار بغداد الشرقية وبحلول الثاني والعشرين من  
الشهر باثت المدينة محاصرة تماماً مع جسور من القوارب على نهر دجلة أقيمت شمال  
وجنوب أسوار المدينة التي بتوسطها النهر وتطل على ضفتيه كليهما . وكانت المدينة  
الغربية التي تحوي قصر الخلفاء الغابرين لكل أهمية الآن من المدينة الشرقية حيث تركز  
مبانى الحكومة ، وشن المغول اعتنف هجماتهم على الأسوار الشرقية . وبدأ البأس يندب  
في نفس للمستعصم . وبنهاية يناير أرسل الوزير ، الذي كان ينادى دهمسا بالسلام مع  
المغول ، ومعه الطريق المستطوري ، أملاً في أن يتوسط لدى دوكوز خاتون في محاولة  
التعامل مع هولوكو فأخبرها دون أن يسمعهما أحد . وبعد أن قصفت المغول الأسوار  
الشرقية قصفاً مرعباً خلال الأسبوع الأول من فبراير بدأت الأسوار في الانهيار ، وفي  
العاشر من فبراير ، اقتحم المغول المدينة بأعدادهم الكثيرة ، وهنا برز الخليفة وسلم نفسه  
هولوكو ومعه قادة الجيش جميعاً ورجالاً دونه . فأمروا بإلقاء أسلحتهم ثم دخلوا ،  
ولم يُبق للمغول على أحد سوى الخليفة إلى أن دخل هولوكو المدينة والقصر يوم ١٥  
فبراير . وبعد أن كشف الخليفة عن عبا كنوزه كلها ، قتل هو الآخر . وفي تلك الأثناء  
دارت المذابح في كافة أنحاء المدينة لم يسلم منها من استسلم على القور ومن واصل  
القتال ، وهلك النساء والأطفال مع رجالهم ، ووجد مغولي في شارع حائى أربعين

(١٩) Brown, op. cit. ii, pp. 461-2.

رضيعاً حديثي الولادة ماتت أمهاتهم ، فأخذته الرحمة بهم فقتلهم إذ كان يدرك عدم إمكان بقائهم على قيد الحياة وليس هناك من يرعاهم . وكان الجنود الجورجيون وهم كثر من قتلهم الأسوار على جانب خاص من الشراصة في غربهم . وفي مدى أربعين يوماً قُتل ثمانون ألف مواطن تقريباً في بغداد . وكان القتل على قيد الحياة عدداً قليلاً من المخطوفين الذين لم تكشف أساليب اعتقالهم في بعض الأثناء وعدداً من البنات والأولاد من ذوي الجاذبية غُلبوا ليصبحوا عبيداً ، وأفراد المجتمع المسيحي الذين لجأوا إلى الكنائس وتركوا دوماً إزعاجاً بأرامر عاصمة من دوكوز خاتون<sup>(٢٠)</sup>.

وفي أواخر مارس كانت الروائع الكريهة المبيعة من الجثث من الشدة بحيث سحب هولاء جثثه من المدينة خشية الأوبئة ؛ وأعرب الكثير منهم عن الأسى وهم عارجون لإعتقادهم أنه لا تزال هناك أشياء نفيسة يمكن العثور عليها . على أن هولاء لم يمتلك الآن الكثير الضخمة التي اكتنزها الخلفاء العباسيون طوال خمسة قرون . وبعد أن أرسل قسمًا كبيراً منها إلى أمية مونتكا ، عاد منهلاً إلى همدان ومنها إلى أذربيجان حيث بنى قلعة حصينة في شاعا على شاطئ بحيرة أرومية ، جعلها بمثابة عزن لكافة ما يخزونه من ذهب ومعادن نفيسة ومجوهرات . وترك بغداد بمحكمها الوزير السابق مؤيد الدين برفقه مسؤولون مغوليون عن كتب . وشُح الطريق النسطوري ماكيكا لقطعاعات حصينة وقصراً ملكياً سابقاً يكون له سكا وكيسة . وحسرى تنظيف المدينة وإصلاح شأنها تدريجياً ، وبعد ذلك بأربعين سنة أصبحت مدينة اقلية مزدهرة ، وقد تمثال حجمها إلى عشر ما كانت عليه<sup>(٢١)</sup>.

وكان لأتباع تدمير بغداد عميق الأثر في آسيا كلها . فطُرب لذلك المسيحيون الآسيويون في كل مكان ؛ وفي نشوة للتصريح كثيراً عن سقوط بابل الثانية ، واهتفوا بهولاء ودوكوز خاتون على أنها قسطنطين وهيلنا<sup>(٢٢)</sup> ، بعداً من جديد وقد التفتعسا

(٢٠) Ibid. pp. 462-6; Brechtneider, op. cit. I, pp. 119-20; Abel Fedé, pp. 116-7; Bar Hebraeus, pp. 429-31; Kirdan, pp. 184-6; Vatri (Armenian text, ed. Ermin), p. 197; Hayton, *Flow des Estaires*, pp. 169-70.

(٢١) Brechtneider, op. cit. pp. 120-1; DObau, op. cit. III, p. 257; Levy *A Baghdad Chronicle*, pp. 250-60.

(٢٢) (ترجم - قسطنطين . رمت سنة ٣٣٧م أول امبراطور برنطي بعثت للسيرة . ناصر الكيسة ووهيها . تباري . عاصمة في فلسطين . انقلد من برنطة عاصمة له بعد أن لعدا بهابعا وأطلق عليها "قسطنطينية" عام ٣٣٣م . في ٢١٣م كرم بأن يكون يوم الأحد عطلة رسمية . وفي الشرق بصر لميسد.

الرب وسيلة للإنتقام من أعداء المسيح<sup>(٢٣)</sup>.

أما المسلمون ، فقد رأوا في سقوط بغداد صدمة مروعة وتهددا ؛ فعلى مدى قرون انتطعت من الخلافة العباسية جوانب كثيرة من القوة المادية ، لكن كيانها المعنوي كان لا يزال عظيما . والآن وقد أزيلت الأسرة الحاكمة وكذلك العاصمة ، زالت زعامة الإسلام حازية وغدا عقدهور أي قائد إسلامي ملموح أن يشغلها . ولم يطل النشئ المسيحي ؛ فسرعان ما غلب الإسلام غالبيه ؛ غير أن وحدة العالم الإسلامي كانت قد تلقت ضربة لم تستطع قط أن تبرا منها . وكان سقوط بغداد - بعد سقوط القسطنطينية بنصف قرن في ١٢٠٤م - وقد وضع نهاية دائمة لثالثية الحكم القديمة المتوازنة بين بيزنطة والخلافة ، وهي الثنائية التي في ظلها ازدهرت الإنسانية طويلا في الشرق الأدنى ؛ لكن لم يقدر للشرق الأدنى مطلقا أن يعيد هيئته على الحضارة.

#### ١٢٥٩م المغول يدخلون سوريا

عد أن حرب هولاكو بغداد حول انتباهه إلى سوريا . وكانت خطوته الأولى هي إسكاف قبضة المغول على الجزيرة ، وخاصة لإحضار الكامل أمير ميفرقين الأيوبي الذي رفض قبول السيادة المغولية ، ومضى شأوا بعيدا بحيث صلب قسا يعقوبيا قام بزيارته كميوت من هولاكو<sup>(٢٤)</sup> . واستقبل هولاكو مبعوثين من دول كثيرة قبل مغادرته معسكره . وحاضه بدرالدين لؤلؤ ، أتباع الموصل المسن ، كى يختار عن مسالوته السابقة؛ وسرعان ما أتى على أثره السلطان السلجوقيان إينا كيخوسرو ، كايكاوس الثاني وقلج أرسلان الرابع ؛ وحاول الأول بلا جدوى تهدئة هولاكو ، وكان قد قاوم بايكر عام ١٢٥٦م ، مستخدما في هذه التهدة رساء مفرطاً مضطعاً أهمل المغول . وأهيرا أرسل الناصر يوسف ، صاحب حلب ودمشق ، إينه العزيز لتقديم واجب احترامه في التضاع للغازي . وحوصرت ميفرقين وتم الإستيلاء عليها في وقت مبكر

هبله (تقريباً) تم الإمبراطور قسطنطين . معمرها زوجها ، لكنها نالت مركزاً مشرفاً بعد احتلال إينا العرش الإمبراطوري . تمسكت في تاليها لتقوية السبيحة . وفي سنة ١٢٢٦م زارت الأراضي المقدسة . ويقول الوثائق الكنسي الثامر إنها اكتشفت العلب الذي ملب عليه المسيح

(٢٣) Stephen Orbelian, *History of Sassan* (Armenian text), pp. 234-5, colla Halapi and Dekuz Khutun "the new Constantine and Helena"

D'Onus, iii, p. 307. (٢٤)

من سنة ١٢٦٠م ، وذلك بفضل مساعدة حلفاء هولاكو الممورجين والأرمن . فذهبوا المسلمين وأبقوا على المسيحيين . وعذب الكامل بأن أجمر على أن يأكل لحم بدنه هو نفسه إلى أن مات<sup>(٢٠)</sup>.

وفي سبتمبر ١٢٥٩م قاد هولاكو الجيش المغولي قاصدا غزو شمال غرب سوريا ؛ وكان كيتوبا يقود الطليعة ، وباكور البينة ، وقائد آخر مقرب - سونغاك - الميسرة، بينما كان هولاكو نفسه يقود القلب . وتقدم خلال نصيبين وحران وقرها إلى السرة حيث عبر نهرا الفرات . وحاولت سروج مقاومتهم ، فهبت . وفي باكورة العام الجديد أطلق الجيش المغولي على حلب ؛ ولما رفضت حاميتها الإستسلام ، حوصرت المدينة يوم ١٨ يناير ؛ وكان السلطان الناصر يوسف في دمشق عندما هبت العاصفة المغولية ؛ وكان في مأمله أن يؤدي وجود ابنه في معسكر هولاكو إلى تقسب الخطر ، وعندما وجد أنه على خطأ ، عملا الخطرة الأكثر إهانة بأن عرض قبول سيادة هماليك مصر ، فوعده بالمساعدة لكنهم لم يكونوا في محلة من أمرهم لتقديدها . وفي ذات الوقت جمع جيشا خارج دمشق ، واستدعى ابن عمه صاحب حملة وصاحب الكرك لتقديم العون . على أنه بينما كان ماكتا ينتظر ، بدأ بعض ضباطه الأتراك بتأمرون ضده ، واكتشف عطلاتهم في الوقت المناسب ؛ فهربوا إلى مصر أمدين معهم واحدا من إخوانه . وتسبب هربهم في إضعاف جيشه بصورة كبيرة بحيث كف عن الأمل في الخروج لإنقاذ حلب.

وكان دفاع حلب دفاعا شجاعا بقيادة تورانشاه ، عم الناصر يوسف ؛ غير أنه بعد ستة أيام من القصف تداعت الأسوار وتدفق المغول إلى داخل المدينة . وكما حدث في الأماكن الأخرى ، أصبح للمسلمون من المواليين ، وتم الإبقاء على المسيحيين ، بخلاف بعض الأرثوذكس الذين لم تتضح كينيتهم في حزم القتل ، وصمدت القلعة لأربعة أسابيع أخرى بقيادة تورانشاه . وعندما سقطت في نهاية الأمر ، أظهر هولاكو نفسه على أنه رحيم بصورة غير متوقعة ؛ فأبقى على حياة تورانشاه لكر سنه ولشجاعته ، ولم تمس حاشيته . ووقع في يد الغازي قدر ضخم من الكنوز . وضم هولاكو حلب إلى أمير حمص السابق الأشرف الذي كان له من البصيرة ما جعله يأتي إلى معسكر المغول كعميل قبل ذلك بشهور قليلة ؛ وتوفر له مستشارون مغول وحامية

(٢٠) Kirakos, pp. 177-9; Vartan, p. 199; Rashid-ad-Din (trans. Quatremère), pp. 330-1; D'Osson, III, p. 356.

مترولة دعما لسلطانها<sup>(٢٦)</sup>.

وبعد ذلك ، كان يتعين معالجة قلعة هرنس الواقعة على الطريق الذاهب من حلب إلى أنطاكية ، لأن حاميةها رفضت الإستسلام ما لم يتضمن أحد المسلمين كلمة هولانكو. وعندما تم الإستيلاء عليها مع اللذينة الخشابة ، أصبح هولانكو على حدود أنطاكية ، حيث ذهب أمورها وحموه ملك أرمينيا إلى معسكره لتقديم استسلاماتها . وكان للملك هينوم قد سبق وأن زوده بقوات للتعزيزات وكوفيء ببعض الأسلاب من حلب ، بينما صدرت الأوامر للأمراء السلاجقة بأن يمدوا إليه الأراضي التي استولى عليها أبوه في كيليكيا . كما كوفيء بوهمند لما أبداه من مطاعة ؛ فأعيدت إلى إمارة أنطاكية عدة مدن وقلاع كانت تابعة للمسلمين منذ يوم انتصار صلاح الدين ، من بينها اللاذقية ؛ وفي المقابل كان مطلوباً من بوهمند تنصيب بطريق يوناني هو إيونيوس في عاصمته مكان البطريق اللاتيني . وعلى الرغم من أن الملك هينوم لم يكن يميل إلى اليونانيين ، إلا أن هولانكو كان يعي أهمية وجود عنصرهم في أنطاكية ؛ ورغمما كان حالفه في ذلك علاقة الصداقة التي تربطه بالإمبراطور في نيقية<sup>(٢٧)</sup>.

#### ١٢٦٠م سقوط دمشق

بدأ للاتينيين في عكا أن يخشون بوهمند بحملة للعباس ، خاصة وأنه يتطوى على إغاثة الكنيسة اللاتينية في أنطاكية . وكان النفوذ البدلي في أعلى مستواه في المملكة، ومرة أخرى بات البادقة على علاقة تجارية جيدة مع مصر ؛ وقد انصب اهتمامهم على التجارة الآتية من الشرق الأقصى خلال الطريق الجنوبي وعن طريق الخليج الفارسي أو البحر الأحمر؛ وتزايدت لديهم مشاعر الفسق وهم يشاهدون طرق القوافل للقوية العابرة لأواسط آسيا إلى البحر الأسود حيث كان أبناء جنسها يعززون سيطرتهم بتحالقاتهم مع اليونانيين . ولتفتت الحكومة في عكا حولها باسطة عن بلد

(٢٦) Maspé, Salomon, t. ٤, pp. 90,97; Abu'l Feda, pp. 140-1, Rashid ad-Din (trans. Quatremère), pp. 327-41; Bar-Hebraeus, pp. 435-6

(٢٧) Genes des Chrétiens, p. 161, letter to Charles of Anjou, *Revue de l'Orient Latin*, vol. ١١, p. 213; Bar-Hebraeus, p. 436; Hayton, *Flor des Euxins*, p. 171..

وقد قام البابا بطرد بوهمند من كنيسة بسبب هذا التحالف. (٢٨) Urban IV, *Reguoria*, 26. Maspé, Salomon, t. ٤, pp. 90,97; Abu'l Feda, pp. 140-1, Rashid ad-Din (trans. Quatremère), pp. 327-41; Bar-Hebraeus, pp. 435-6; Hayton, *Flor des Euxins*, p. 171..

آخر لحمايتها ؛ وكان معروفًا أن تشارلز (ألف كيو)، أمّا ملك فرنسا، لديه طموحات في البحر المتوسط وكان يأمر بالفعل من أجل عرش صقلية ؛ فأرسلت حكومة هناك إليه رسالة عاجلة في مايو ١٢٦٠م تصف أخطار تقدم المغول وترجموه للتدخل<sup>(٢٨)</sup>.

وفي وقت كتابة الرسالة كان المغول أسبأ دمشق . فلم يحاول السلطان الناصر يوسف الدفاع عن عاصمته ؛ إذ أنه ما كان علم بسقوط حلب وانحزاب الجيش للمغول حتى حرب إلى مصر لاجتيا إلى الممالك ، ثم قهر رايه وكر عائدا بالقاء الشمال فأسره المغول . وأرسلت حماه وقتا إلى هولاكو في فبراير ١٢٦٠م ، قدم اليه مفاتيح المدينة ، وبعد أيام قلائل حلا وحماه دمشق حذوهم ، وفي غرة مارس دخل كيتوغا دمشق على رأس جيش مغول ، وبصحبته ملك أرمينيا وأمير أنطاكية . ولأول مرة منذ ستة قرون يشهد مواطنو عاصمة الخلافة القديسة ثلاثة زعماء مسيحيين راكبين في شوارع المدينة في جولة المنتصر . وكانت القلعة قد صمدت للفرقة لأسابيع قليلة ، لكنها هُزمت وتم الاستيلاء عليها يوم ٦ إبريل.

وبسقوط المدن الثلاث العظيم ، بغداد وحلب ودمشق ، بدا أن الإسلام في آسيا قد عادت نهايته . ففي دمشق ، كما في سائر أنحاء غربي آسيا ، كان الغزو المغولي يعني نهضة المسيحيين المحليين ؛ ولم يُهمل كيتوغا تعامله مع المسيحيين ، إذ كان هو نفسه مسيحيا . وللمرة الأولى منذ القرن السابع ، يجد مسلمو وسط سوريا أنفسهم أقلية معظومة . فكانوا ينحرفون شوقا للإنتقام<sup>(٢٩)</sup>.

وفي ربيع ١٢٦٠م أرسل كيتوغا فصائل لإحتلال نابلس وغزة ، ومع ذلك لم يصلوا إلى القدس نفسها ؛ وبما أصبح الفرنج عمالين تماما بالمغول . ولم يكن لدى السلطات المغولية أية نوايا لمهاجمة المملكة الفرنجية شريطة أن تبدي ما يكفي من الخضوع ؛ وكان الفرنج الأكثر تعقلا على استعداد لتجنب الاستفزاز ، لكنهم لا يستطيعون التحكم في مزاجهم الكهوى ؛ وكان أكثر البارونات رهونة جوليان ، لورد صيدا ويوفورت ، وهو رجل ضخم البنية وبه وسامة ، غير أن رغباته كانت تسره في حقه ، وقد خلا عما كان يتمتع به جلد ريتالد من ذكاء حاد . إذ سبق أن أخبره بتأثيره

(٢٨) 'Lettre à Charles d'Anjou', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. II, pp. 213-14.

(٢٩) Abū Feda, pp. 141-3; *Gesta der Chyeroi*, loc. cit.; Hayton, *Flor des Essaires*, pp. 171-2.

والإنتقام على مرئيع المخطوطة أنظر 19, 20, 707 zm. Cohen, op. cit. p.

المعزط علي أن يرهن صيدا لفرسان العدد بعد أن اقترض منهم مبالغ طائلة ؛ وتسبب مزاجه الأحمق في نشوب خلاف بينه وبين فيليب أمير صور الذي كان خاله غير الشقيق؛ وكان قد تزوج بواحدة من بنات الملك هينوم ؛ ولم يكن لديه من نفوذ عليه. وبما أنه أن الخروب بين المغول والمسلمين بمثابة فرصة سانحة للتوفيل في غارة من بيروفورت إلى سهل القناع الحصين ؛ غير أن كيتوفا لم يكن ليسمع للمغيرين بأن ينسحبوا النظام المغولي حديث الولادة ، فأرسل فصيلة صغيرة من الجنود تحت إمرة أحد أبناء إيموت لمعاينة الفرنج ؛ فمما كان من حوليان إلا أن استنجد بغيرانه لمساعدته ، فذهبوا بآبن أحمى كيتوفا وقتلوه ، فأرسل كيتوفا في حملة ضمنية جيشا أكبر توغل داخل صيدا ونهبها برغم إلقاء قلعة البحر بواسطة السفن الجنوبية الآتية من صور . وتسبب ذلك في هياج الملك هينوم وألقى باللائمة على فرسان اللص الذين انتهزوا فرصة خسائر حوليان لمصادرة رهينة صيدا وبيروفورت . وبعد ذلك بوقت قصير أختار حوث الثاني أمير بيروت وفرسان العدد على الجليل وواسهنتها قوات الإحتياط المغولية بنفس القدر من الشراسة المغولية الشديدة<sup>(٣٠)</sup>.

#### ١٢٥٩م : موت الخان الأعظم مونكا

ومع ذلك ، لم يكن بوسع كيتوفا الشروع في معارك كبيرة . وفي الحادي عشر من أغسطس ١٢٥٩م مات الخان الأعظم مونكا أثناء حملته مع أخيه قوبلاي في الصين ؛ وكان أولاده صغارا غرارا ، ولذا مارس الجيش في الصين ضغوطا لاستتخلاف قوبلاي ، غير أن الأخ الأصغر لمونكا ، أركيوكوفا ، كان يسيطر على الوطن بما فيه قراقورام والخزائن المركزية لكونز الإمبراطورية ، واشتهى العرش لنفسه . وبعد عدة شهور من المناورات واستكشاف الصديق من غير الصديق ، عقد كل من الأخوين مؤتمرا (كوريلتاي) في ربيع ١٢٦٠م ، انتخب كل مؤتمرا أحد الأخوين خانا أعظم. وكان يولد أركيوكوفا أغلب أقاربه الإمبراطوريين الذين كانوا في منغوليا ، بينما كان لدى قوبلاي الدعم الأقوى فيما بين اللاداء . ولم يكن أيّ من المؤتمرين لو (الكوريلايين) قاتوليا تماما ؛ إذ لم تكن كافة فروع العائلة ممثلة ، ولم يكن أيّ من الجانبين على استعداد لإنتظار حضور هولاء وكبراء القبيلة النخبة ، ولم يُعطى حتى آل باغاشاي

(٣٠) Gestes des Chinois, pp. 162-4p. Hayton, Flor des Étoiles, p. 174p. Annales de Terre Sainte, p. 449 ورجعنا لهذا في ذكر تاريخ هذه الأحداث بعد مركة عين حلاوت

ولم يرسلوا وفوداً لثقتهم . وكان هولاءكو نفسه يؤيد قوبلاي ، رغم أن ابنه شوموغار كان من حزب أرتيقوغا ، بينما كان بريك - حان القبيلة الذهبية - متعاطفاً مع أرتيقوغا . ولم تقسم للسألة إلا في نهاية سنة ١٢٦١م عندما سحق قوبلاي أرتيقوغا أخيراً ، وفي ذات الوقت ظل هولاءكو مائتاً في حذر بالقرب من حدوده الشرقية، على لعبة الإستعداد للتحرك إلى داخل منغوليا إذا دعت الضرورة . وكان له ما يبرر شعوره بالقلق ؛ ذلك أن أرتيقوغا تدخل بصورة استبدادية في شؤون الحانية التركستانية واستبدل الوصية كورغانغا بابن عم زوجها (ألفو) الذي هرب لاحقاً وتزوج كورغانغا ، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في انتصار قوبلاي ؛ ولذا كان هولاءكو ينشئ تدعياً مماثلاً في أراضيه ؛ فضلاً عن ذلك ، كانت علاقاته مع أبناء عمومته في القبيلة الذهبية آخذة في التدهور . وفي الوقت الذي أظهر بلاطه لوجهه التعاطف الشديد المسيحية، كان الخان بريك ينحاز إلى الجانب الإسلامي معزّضاً على سياسة هولاءكو المعادية للإسلام . وحدثت مناوشات في القوقاز وهي التعميم التي تفصل بين مناطق نفوذ كل من هولاءكو وبيرك ؛ وقد دأب الأخير وفوداً جيشه على اضطهاد القبائل المسيحية . على أن محالة هولاءكو لتوطيد سلطانه على الجانب الشمالي من الجبال جاءت بالفشل عندما انتصر على جيش من جيوشه حفيد ابن أمي بريك (توغاي) بالقرب من نهر تيرك عام ١٢٦٩م<sup>(٣١)</sup>.

كان هولاءكو في خضم هذه المشاغل مما اضطره إلى سحب الكثير من جنوده من سوريا بعد استيلائه على دمشق مباشرة ، وترك قوتيقوغا يحكم البلد بقيادة متقلصة تفلساً شديداً . ول سوء حظ المغول ، استقر تقدمهم في فلسطين القوة الإسلامية العظيمة الوحيدة التي لم تهزم ، ألا وهي ممالك مصر ؛ والآن غداً للممالك في حالة مناسبة لقبول التحدي.

كان أول سلاطين الممالك ، أيك ، مزعزعا في سلطانه . ولكن يضل الشرعية على نفسه تزوج الأميرة المسينة السلطنة شجرة الدر ، ليس هذا فحسب وإنما عين كسلطان مشارك حقلًا من أمراء الأيوبيين . غير أن ذلك الطفل - الأشرف موسى - كان عديم الجدوى وسرعان ما انتفض أنه عبء بلا ضائل ؛ وفي سنة ١٢٥٧م نشأ

(٣١) Rashid ad-Din, pp. 341 ff., 391 ff.; Bar-Hodman, p. 439; Kishan, pp. 192-4; Hayton, *For the Entree*, p. 173. See Grosset, *L'Empire Mongol*, pp. 317-24; Howarth, op. cit. iii, p. 151; D'Ohsson, op. cit. iii, p. 377. (المجلة الإمبراطورية في عهد الفرقة الأتوي)



خلاف بين أبيك والسلطنة التي لم تنكسر عتس استعداد لأن يهين سلطانها من بعض مبتدئا حديث النعمة ؛ وفي ١٥ أبريل أعدت العدة كي يقتله الخصيان التابعون له في حماه . وكاد مقتله أن يثير حربا أهلية ، إذ نادى بعض المماليك بالإنتقام من الأرملة ، وأيدها آخرون كرمز للشرعية . وفي نهاية الأمر انتصر أعداؤها ؛ وفي ٢ مايو ١٢٥٧م طرقت شجرة الدر حتى ألوت بينما نُسب ابن أبيك سلطانا وكان ابن خمسة عشر ربيعا ، على أن الشاب لم يكن يمثل أسرة حاكمة لها استزادها ولا يتمتع هو نفسه بشخصية القائد ، فخلعه في شهر ديسمبر ١٢٥٩م أحمد وفاق أبيه القدامى ، سيف الدين قطز ، وأصبح سلطانا بدلا منه . وتولى السلطة عاد إلى مصر شتى المماليك - مثل بيبرس - ممن هربوا إلى دمشق لإستيناثهم من أبيك<sup>(٣٢)</sup>.

#### ١٢٦٠م : المماليك يطلبون مساعدة الفرنج

في وقت مبكر من سنة ١٢٦٠م أرسل هولاكو سفارة إلى مصر بطلب خضوع السلطان ، فقتل قطز السفير ونأهب لمخافة المغول في سوريا . وقد حدث في تلك الأونة أن اضطر هولاكو إلى نقل الجزء الأكبر من جيشه باتجاه الشرق بعد وصول الأنباء بحوت مونتكا وانديلا ع الحرب الأهلية في منغوليا . وكانت أعداد الجنود الذين تركوا مع كيتوغا أقل كثيرا من الجيش الذي جمعه قطز الآن ، فإلى جانب المصريين أنفسهم كانت هناك القوات الخوارزمية وجنود كسر الكرك الأيوبي . وفي ٢٦ يولية عبر الجيش المصري الحدود وسار إلى غزة ، وبيبرس يقود الطليعة . وكانت هناك قوة مغولية صغيرة في غزة بقيادة القائد بيدار الذي أرسل إلى كيتوغا يحذره من الغزو؛ على أنه قبل أن يتمكن اللد من الوصول اجتث المصريون شاقة جنوده<sup>(٣٣)</sup>.

وكان كيتوغا في بعلبك ، فأعد العدة من فرزه للسير جنوبا مسرورا بحسب الجليل إلى وادي الأردن ، لكن التفاوضة للمسلمين في دمشق أوقفته ؛ فقد دُشرت بيوت المسيحيين وكنائسهم ونشأت الحاجة إلى جنود المغول لاستعادة النظام<sup>(٣٤)</sup>. وفي ذات الوقت قرر قطز المسير أعلا الساحل الفلسطيني وأن يتقدم داخل البلد نحو الشمال

(٣٢) Abul Feda, p. 135.

(٣٣) Rashid ud-Din (trans. Quatrecirque), p. 347, D'Ohsson, op. cit. iii, pp. 333-5.

(٣٤) Abul Feda, p. 143.

لتهديد خطوط مواصلات كيتوغا في حالة تقدم الأمير داخل فلسطين . ولذا أرسلت سفارة مصرية إلى عكا مطالبة الإذن بالمرور خلال الأراضي الفرنجية والحصول على اللؤلؤ أثناء السير إن لم يكن الحصول على العون العسكري الفعّال.

واجتمع البارونات في عكا لمناقشة الطلب . وكانت مشاعر المرارة ضد المغول تثيرهم نظراً لنهب صيدا مؤخرًا ، كما رادتهم الرب حبال تلك القوة الشرقية مما لها من سجل في المذابح بالجملة . وكانت الحضارة الإسلامية مألوفة لديهم ؛ وكان أغلبهم يفتكّل المسلمين كثيراً على المسيحيين المحليين المتنوعين بحماية المغول . وفي بادئ الأمر كانوا ميالين إلى تقديم بعض القوات المسلحة الاحتياطية للسلطان ؛ غير أن السيد الأعظم للنظام البيروني<sup>(٣٥)</sup> ، وهو أنو (أوف سافرهاوزن) ، حذرهم من الثقة الكبيرة في المسلمين ، خاصة إذا ارتفعت معنوياتهم بانتصار على المغول . وكان النظام البيروني يمتلك الكثير من الممتلكات في المملكة الأرمنية ؛ وربما كان أنو يتشجع سياسة الملك هينوم . وقد كان لكلماته التي اتصفت بالمصافة بعض الأثر على بارونات الصليبيين ؛ فرفض التحالف العسكري ، وإنما وعدوا السلطان بمرور آمن لجيشه وإمداده بتسهيلات اللؤلؤ<sup>(٣٦)</sup>.

وحلال شهر أغسطس قاد السلطان جيشه أحمل الطريق الساحلي وعسكر لعدة أيام في حدائق القناكية خارج عكا . ووشّعت الدعوة لعدد من الأمراء لزيارة المدينة كفتيوف شرف ومن بينهم بيوس الذي ألفت قنطر بعد عودته إلى المعسكر إلى سهولة الاستيلاء على المدينة بقلعة ؛ لكن قنطر لم يكن على استعداد لأن يكون عيونا على هذا النحو ولا أن يخاطر بانتقام مسيحي بينما المغول لم يُهزموا بعد . وتزايد شعور المخرج لدى الفرنج كثرة من أعداد زارهم ، لكن عزائمهم كان في الوعد بالسماح لهم بشراء ما يحصلون عليه من حيول المغول بأسعار مخفضة<sup>(٣٧)</sup>.

(٣٥) (الترجمة): نظام البيروني: *Tentorie Order* نظام عسكري جنّي يشكّل حُفّة من الفرسان الذين وبعض الإسكندانيين وفولاديين والإنجليز

(٣٦) *Act. of Rethelin*, p. 637

(٣٧) *William of Tripoli, De Situ Sanctae Domini in Du Chene, v, p. 443, Gesta der Chyensis*, pp. 164-5.

## ١٢٦٠م : معركة عين جالوت

فما إلى علم قطر وهو في عكا أن كيتوغا قد عبر الأردن ودخل سهل الجليل الشرقي فقاد جيشه على الفور باتجاه الجنوب الشرقي ، خلال الناصرة ، وفي يوم ٢ سبتمبر وصل عين جالوت ، أي عين جوليات ، حيث سبق وأن تحدى الجيش المسيحي صلاح الدين في عام ١١٨٣م . وجاء الجيش المغولي في الصباح التالي وبصحبة فرسانه كتاب جورجية وكرمينية ؛ لكن كيتوغا كان يقتصر إلى الكشافين ، إذ كان السكان المحليون غير ودودين حياله ؛ ولذا لم يكن يعرف أن الجيش المملوكي كله على مقربة . وكان قطر على دراية تامة بتفوقه العددي ، ولذا أخفى قواته الرئيسية في التلال القريبة ولم يظهر سوى الطليعة التي يقودها بيرس . ووقع كيتوغا في الفخ . إذ قاد رجاله كلهم في هجوم على العدو الذي رآه أمامه ؛ فتقهقر بيرس في لمح البصر داخل التلال والأحدهاء بتعبونه في حماس متفد ، وفجأة وجد الجيش المغولي نفسه وقد حوصر كله . وقاتل كيتوغا قتالا راعيا ، وبدأ المصرون بتأرجحون ، ودخل قطر نفسه المعركة لتفليمهم ؛ على أنه بعد ساعات قليلة التضح آثار تفوق المسلمين العددي . ولكن بعض رجال كيتوغا من شق طريقهم هربا من المعركة ، لكن كيتوغا نفسه رفض أن يشهد هزيمته ؛ فكان وحيدا أو يكاد عندما قُتل حصانه ووقع أسيرا ، وأنهى أمره المعركة . واقتيد في القيد إلى السلطان الذي راح يسخر من سقوطه ؛ فرد في تحمي متبذرا بانتقام عفيف من المنتصرين ، ومتفاحرا بأنه - على خلاف أمراء المماليك - دائم الإخلاص لسيدته . فضربروا عنقه<sup>(٣٨)</sup>.

كانت معركة عين جالوت إحدى المعارك الحاسمة في التاريخ . ومن الحق أن الأحداث التي حدثت على بعد أربعة آلاف ميل نسبت في أن يصبح الجيش المغولي في سوريا من الضالة بحيث لم يقدر - في غيبة الكثير من الخط الحسن - على الإضطلاع بإحضار المماليك، ومن الحق أنه لو أرسل جيش أكبر بعد الكارثة ، لأمكن استعراض الفريضة ؛ غير أن تصارييف التاريخ قد حالت دون تحويل حكم التاريخ المتحد في عين جالوت نحو بلا معاكسة . لقد كان النصر المملوكي إنقاذا للإسلام من أخطر تهديد كان عليه مواسمته . ولو قدر للمغول أن يتوغلوا داخل مصر ، لما بقيت هناك دولة إسلامية عظيمة في العالم شرقي مراكش . ولقد كانت أعداد المسلمين في آسيا غفيرة بصورة فائقة بحيث يستحيل إزالتهم ، لكن لم يقدر هم أم يكونوا الجنس الحاكم. ولو

(٣٨) Rashid ad-Din, pp. 349-52; Magrini, I, i, Salween, pp. 104-6; Abu'l Feda, pp. 143-4. (٣٨)

فُتِحَ لتكريماً للمسيحيين الانتصار ، فكان في ذلك تشجيعاً لعمالقة المغول حبال  
المسيحيين ، وأصبح المسيحيون الأسيريون في مركز القوة للمرة الأولى منذ الظروف  
الكبرى لعصر ما قبل الإسلام . ومن العيب أن تجعل ما كان يمكن أن يحدث آنذاك  
ولا يستطيع التورخ إلا أن يقص ما قد حدث فعلاً . لقد جعلت عين حالات من سلطة  
مصر الملوكية القوة الرئيسية في الشرق الأدنى للقرنين التاليين ، وحتى مرور  
الإمبراطورية العثمانية . ولقد أكملت القضاء على المسيحيين الوحيين في آسيا ؛ ذلك  
أنه بتقوية الإسلام وإضعاف العصر المسيحي فإنها سرعان ما حفرت المغول الباقين في  
غرب آسيا إلى اعتناق الإسلام. كما أسرعت بزوال الدويلات السليبية ؛ إذ أن  
المسلمين المتصيرين ، كما تبا السيد الأعظم للنظام التوتوني ، باتوا نواقين للإنتهاء من  
أعداء العقيدة.

وبعد خمسة أيام من الانتصار في عين حالات ، دخل السلطان دمشق . فلما  
الأشرف الأيوبي الذي نيل القضية المغولية فقد أعيد تعيينه في حمص ؛ وأما أمير حماة  
الأيوبي الذي هرب إلى مصر فقد عاد إلى إمارته ؛ واستعيدت حلب في غضون شهر .  
وأما هولاكو ، الذي ملكه الغضب لفقده سورية ، فكان فاقده الحيلة إلى أن يعود  
النظام في قلب الإمبراطورية المغولية . ولقد أرسل الجنود لاستعادة حلب في شهر  
ديسمبر ، لكنهم أُخبروا بعد أسبوعين على الانسحاب بعد أن دُخِلوا عدداً كبيراً من  
المسلمين انتقاماً لثوت كيتوغا . وكان ذلك هو كل ما استطاعه هولاكو للإنتقام  
لصديقه المخلص<sup>(٣٩)</sup>.

وانطلق السلطان قطز في رحلة العودة إلى مصر تظلمه آكالييل الهند . على أنه  
بالرغم من أن فرقة كيتوغا عن النار لم تتحلق تماماً قط ، فإن ملاحظته المبررة عن  
عدم إحلاص المالكة سرعان ما كان لها ما يبررها . إذ أن ربيعة قُضِر في أكثر قواته  
نشاطاً وهو يبرس ، كانت أفعى في الزايد ؛ وعندما طلب يبرس أن يُعَصَّب حاكماً  
حلب وقُضِ عليه بصورة عاجلة . ولم ينتظر يبرس طويلاً كي يتصرف ؛ ففي يوم ٢٣  
أكتوبر ١٢٦٠ م ، وبينما كان الجيش للتصور يقترب من حافة الدلتا ، ذهب قطز  
للرياض في صيد الأرناب البرية ، وانطلق مع قليل من أمرائه عن فيهم يبرس وبعض  
أصدقائه . وما أن اجتذبا عن المعسكر حتى اقرب أحدهم كما لو كان سيطلب شيئاً  
من السلطان ، وبينما كان ممسكاً يده منهياً لتقليها ، اندفع يبرس من الخلف وطمعن

(٣٩) Abul Feda, p. 144; Bas-Habruero, pp. 419-40. See Cohen, op. cit. pp. 710-11

سيده بالسيف في ظهره . ثم إن الثأمرين انطلقوا على جناحهم إلى المعسكر ليعتصروا القتل . وكان كقطاي ، باور السلطان ، في الخيمة الملكية عندما وصلوا وسأل من ضرره أنهم ارتكبوا القتل ؛ وعندما اعترف بيرس على نفسه ، دعاه كقطاي إلى الخلووس على عرش السلطان ، وكان أول من أقرب له عن مناعته ؛ وحذا قادة الجيش كلهم حذوه . وعاد بيرس إلى القاهرة سلطاناً<sup>(١٠)</sup> .

(١٠) Abul Feda, loc. cit.; Magrîsi, *Sulṭanat*, I, s. pp. 110-113; Bar-Hebraeus, loc. cit.; *Genies des Chypriotes*, pp. 165-6.

---

## الفصل الرابع:

### السلطان بيبرس

\_\_\_\_\_

.....

.....

## السلطان بيبرس

”وأغلق على المصريين في يد مولى قاس فيَسَلِّط عليهم  
ملك عزيز يقول السيد ربة الجنود“  
[شعبان ٦٩٠هـ]

كان ركن الدين بيبرس البندقداري يقارب الآن عامه الخمسين ، وهو تركي من الكبيشاك بالبلاد ضمهم دأكن البشرة ، أزرق العينين ذو صوت عالٍ وثَنان . وعندما جاء إلى سوريا بادية الأمر كعد غرض للبيع على أمير حماه الذي تفحصه وقلبه حلفا بالغ الحشونة . غير أن أميراً مملوكياً ، البندقدار حارس السلطان ، لاحظته في السوق وأتى فيه الذكاء ، فابتاعه . ومنذ ذلك الوقت سرعان برز اسمه ، ومنذ انتصاره على الفرنج في سنة ٦٢٤هـ عرف عنه أنه أفند للمالكيين العسكر . وأظهر الآن أنه وحل دولة من أرفع مستوي ، لا تعرفه منتظيات الشرف أو الإمتنان أو الرحمة<sup>(١)</sup>.

كان أول ما يشغله توليد وضعه الجديد كسلطان ؛ ولم يعترض سبيله أحد في مصر، أما في دمشق فكان هناك مملوك آخر استولى على السلطة هو منقر الخليلي الذي

(١) Abül Fedâ, p. 156. See Sobornheim, article 'Babars' in *Encyclopaedia of Islam*.



كانت له شعبيته في دمشق، لكن هجوم المغول على حلب في نفس الوقت هدد قبضة بيبرس على سوريا؛ غير أن أميري حمص وحماد الأيوبيين هزم المغول بينما زحف بيبرس على دمشق وهزم سنقر خارج المدينة يوم ١٧ يناير ١٢٦٦ م، وحارب مواطنو دمشق تأييدا لسنقر لكن مقاومتهم شحفت. ومعنى بيبرس ليتعامل مع الأيوبيين؛ فأغرى أمير الكرك بوعود بركة كتي بفتح نفسه تحت إمرة السلطان ثم أرسل بهدوء؛ وشجع للأشرف صاحب حمص بالإحتفاظ بمدينته حتى وفاته سنة ١٢٦٣ م. وفي أواخر سنة ١٢٦٤ م اتفق نظاما البعد والمستشفى على توحيد قرائهما للإستيلاء على حصن ليزون الصغير، وهي بجيتو القديمة<sup>(٢)</sup>، وبعد أشهر قليلة قاما بغارة مشتركة حتى عسقلان، بينما توغل في الشريف الجنود الفرنسيون الذين يدفعون نفقاتهم من أموال القديس لوي، توغلا فعلا حتى ضواحي بيسان. ولذلك احتاج المسلمون الريف الفرنسي جنوب الكرمل فأمنت الحياة غير آمنة هناك<sup>(٣)</sup>.

وفي بداية سنة ١٢٦٥ م انطلق بيبرس من مصر على رأس جيش رهيب. ذلك أن المغول بدأوا يبتزون على شمال سوريا في ذلك الشتاء؛ وانتهى بيبرس باديء الأمر القيام بهجوم مضاد؛ لكنه علم أن جنوده في الشمال أوقفوهم، ولذا أصبح في مقفوره استخدام جيشه في مهاجمة الفرنج في الجنوب. وتظاهر بأنه يتسلل بحملة صيد ضخمة في التلال الواقعة خلف أرصوف، ثم ظهر بعتة أسام قيسارية، وسقطت المدينة في الحال يوم ٢٧ فبراير، وصمدت القلعة لأسبوع، واستسلمت الحامية يوم ٥ مارس وشجعها بحرية الرحيل، غير أن المدينة والقلعة علي السواء سُوِّدَا بالأرض. وبعد أيام قلائل ظهر جنوده عند حيفا. فلما المواطنون الذين أتوا في الوقت المناسب فقد هربوا في فوارب كانت راسية تاركين كلا من المدينة والقلعة اللتين دمرتا؛ وأما من بقي هناك فقد قُتل. وفي تلك الأثناء هاجم بيبرس قلعة فرسان المبد العظيمة في عسلايت، وحُرقت القرية الواقعة خارج الأسوار لكن القلعة نفسها أفلحت في مقاومته؛ وفي ٢١ مارس كَفَّ عن محاصرتها وسار إلى أرصوف التي حصنها فرسان المستشفى بالحامية واللون حصينا جيدا؛ فكان بها ٢٧٠ فارسا داخل القلعة حاربوا بشجاعة رائعة، لكن جنوب المدينة سقط يوم ٢٦ أبريل بعد أن دمَّرت آلات حصار السلطان أسوارها، وبعد ثلاثة أيام استسلم قائد القلعة، الذي فقد ثلث فرسانه، بعد الوعد بمرور الأحياء

(٢) (الترجم) ميجلدا: Meglido: مدينتها قديمة شمال فلسطين على سهل زردقيون يرجع تاريخها إلى ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد. يقدّر أنها حراسيون Arragebdon المذكورة في الإنجيل.

(٣) Entree d'Eraclea, ii, pp. 448, 449; Assises de Terre Sainte, p. 451.

مرورا أما ، وتراجع يبرس عن وعده وفادتهم جميعا أسرى. وارتاع الفرنج لطباع هاتين القلتين المظلمتين ، وألحقت هذه الخسارة المنشد التحول ، ويكوت بونوميل ، فصيحة مبررة شاكيا من أن المسيح يبدو الآن مسرورا بما خلق المسيحيين من ذلة<sup>(١)</sup>.

وهنا جاء دور عكا . لكن الوصي ، هيو أمير أنطاكية ، الذي كان في قبرص ، كان قد سارع فعلا وعبر البحر مع ما استطاع جمعه من الرجال ، وعندما اتجه يبرس شمالا من أرسوف مرة أخرى ، وجد هيو قد نزل إلى البحر في عكا يوم ٢٥ أبريل ، فعاد الجيش المصري إلى وطنه بعد أن ترك جنودا للسيطرة على الأراضي المستعادة مؤخرًا . والآن بالث الحدود على مرمى البصر من عكا ذاتها<sup>(٢)</sup> . وسارع يبرس بكتابة أنباء انتصاراته إلى مانفريد ملك صقلية الذي تظاهر بسلامة القسري بالصدقة مع والده فريدريك الثاني<sup>(٣)</sup> .

#### ١٢٦٥م : موت هولاكو

كانت تلك السنة سنة طيبة ليسوس ؛ ففي ٨ فبراير ١٢٦٥م مات هولاكو في أذربيجان. وكان أخوه قوبلاي قد منحه لقب الخان وتوارث إدارة الممتلكات المغولية في جنوب غرب آسيا . وعلى الرغم من أن مشاكله مع القبيلة الذهبية ومع مغول التركستان ، الذين اعتنقوا الإسلام كذلك ، قد حالت دون استئناف هجوم جساد على المماليك ، فقد كان مع ذلك مرهوب الجانب مما يكتسب لردع المماليك عن مهاجمة حلفائه . وفي شهر يولييه ١٢٦٤م عقد آخر مؤتمر له (كوريشاي) في معسكره بالقرب من تبريز حضره أتباعه جميعا بمن فيهم الملك داود ملك جورجيا ، والملك هيتوم ملك أرمينيا ، وبوهمند أمير أنطاكية . وكان هيتوم وبوهمند في حالة من الحزنى أمام هولاكو لقيامهما في العام السابق باحتطاف البطريق الذي أصبر هولاكو عام ١٢٦٠م على تنصيبه ، وهو إيونيوس بطريق أنطاكية ، وحمله إلى أرمينيا ، واستبدلا به البطريق

(١) *Genes des Cligrois*, p. 171; *Estoire d'Eracles*, II, p. 450, *Annuaire de Terre Sainte*, pp. 451-2. Al-Aini, pp. 219-21; Abū Feda, p. 150. Maqrīṣī, *Sulḥat*, I, II, pp. 7-8. Basset's poem is given in Bartholomaeus, *Poetie Provençale*, II, pp. 222-4.

(٢) *Genes des Cligrois*, loc. cit.; *Estoire d'Eracles*, loc. cit..

(٣) Maqrīṣī, *Sulḥat*, II, p. 16. سفارة إلى يبرس في ١٢٦٤م من لشارل ورف آخر الذي كان ملك لاهاجة مافريد (p. 219).

أويرزون اللاتيني في أنطاكية . وكان هولأكو يدرك أهمية التحالف مع البيزنطيين كوسيلة لكبح أتراك الأناضول ، فكان يتفاوض على سيدة من العائلة الإمبراطورية في القسطنطينية ليضيفها إلى زوجاته ، وعندما اعتار الإمبراطور ميخائيل لهذا الشرف ابنته من السفاح ، ماريا ، وافقها إلى تبرير الطريق إيونيبيوس الذي كان لا حنا في القسطنطينية والذي عاد إلى الشرق بدعوة صريحة لا شئك فيها من هولأكو . وكان المثل من سعة الأفق بحيث لم يسمحوا للاختلافات العقائدية فيما بين المسيحيين بأن تتدخل في سياستهم العامة. ويبدو أن بوهمند تمكن من العثور على حبل نفسه ، ولم يستقبل إيونيبيوس مرة أخرى في أنطاكية<sup>(٧)</sup>.

يبد أن موت هولأكو جعل ضلع المثل أمرا حتميا في لحظة حرجية . وأفلحت كرملة دوكوز خاتون بما لها من نفوذ في تأمين استخلاف ابنه المفضل أباغا الذي كان حاكما للتركستان ، على أن أباغا لم يُنصَّب رسميا بلقب كان إلا في شهر يونية بعد أربعة أشهر من موت والده ، ومضت عدة أشهر أخرى قبل استكمال إعادة توزيع الإقطاعات ومناصب الحكم . وماتت دوكوز خاتون في الصيف ، وتعلمها المسيحيون بأعمق المشاعر . وفي الوقت نفسه استمر تهديد أباغا من أبناء عمومته في القبيلة الذهبية الذين غزوا فعلا أراضيهم في الربيع التالي . وهكذا كان من المستحيل على الحكومة المملوكية التدخل آنذاك في غربي سوريا . أما بيبرس ، الذي تسميت دبلوماسية فيما كان يلقاه الخان من اضطرابات مع جيرانه الشماليين ، فقد تمكن من استئناف حملاته ضد المسيحيين دون عيشية تدخل<sup>(٨)</sup>.

#### ١٢٦٦م : بيبرس يفتح الجليل

في باكورة صيف ١٢٦٦م ، وبينما كانت جيوش أباغا منشغلة في صيد غزوات الخان يوك عن فارس ، انطلق جيشان مملوكيان من مصر ، أحدهما بقيادة السلطان نفسه الذي ظهر أمام عكا يوم أول يولية ، غير أن كتيبتها التي ألقاها القديس لويس

(٧) Rashid ad-Din (trans. Quatremere), pp. 417-23; see Howarth, op. cit. iii, pp. 206-209. Vatrin (ed. Erzin), pp. 205-6, 211; Bar-Hebraeus, pp. 644-5. Lettre à Charles d'Anjou, in *Revue de l'Orient Latin*, vol. II, p. 213. حول إمكانية إقامة تماس على روح هولأكو . لكن تلم من منها (Vatrin, ed. Erzin, p. 211).

(٨) Howarth, op. cit., iii, pp. 218-23.

هناك حادثة التعزيزات من فرنسا فزادتها قوة ، ولذا تحول عنها يبرس وسار في استعراض أمام قلعة النظام البيروتني في مونتفورت ، ثم زحف فجأة على صفد التي كان فرسان اللورد يسيطرون من قلعتها الضخمة على باقي الجليل المرتفع ، وكانت التحصينات قد أعيد إنشاؤها كلها منذ حوالي خمس وعشرين سنة ، وكانت الحامية بأعداد غفيرة رغم أن الكثير من الجنود كانوا من المسيحيين الوطنيين أو النصارى الوطنيين . وقد شهد الهجوم الأول للسلطان يوم ٧ يوليئ، وكذلك فشل في محاولته الثانية يوم ١٣ و ١٩ يوليئ . فأعلن بواسطة السادة أنه يتبع القفو الشام عن كل الجنود الوطنيين الذين يستسلمون له . ومن المشكوك فيه معرفة عدد السجين الوطنيين الذين وثقوا في كلبته ؛ على أن فرسان اللورد ساءورتهم قرية في الحال، فتبادلوا الاتهامات وتطور الأمر بينهم إلى اقتتال ؛ وسد السوربون في القرار . وسرعان ما اكتشف فرسان اللورد استحالة صعود القلعة ، وفي آخر الشهر أرسلوا أحد أتباعهم السوربون توصلوا فيه الولاء إلى معسكر يبرس يعرضون الإستسلام . وعاد السوربون - واسمه ليو - بعد بالنسحاب الحامية إلى عكا دون أذى ؛ وبعد أن سلم فرسان اللورد القلعة ليبرس بهذه الشروط قطع رؤوسهم جميعا . وليس يقينا ما إذا كان ليو على وعى بحياته أم لا ؛ لكن قوله القوي إلى الإسلام كان دليلا عليه<sup>(٩)</sup>.

وبالإستيلاء على صفد ، تمكن يبرس من السيطرة على الجليل . وكانت خطوته التالية مهاجمة طبرون التي سقطت له بلا قتال تقريبا . ومن طبرون أرسل كتبة لتدمير القرية المسيحية قرية الواقعة بين حمص ودمشق لإرتيابه في اتصالها بالفرنج ؛ فقتلت البالغين وأخذت الأطفال عبيدا ، وعندما أرسل مسيحي عكا وفدا يطلب السماح بدفن الأموات رفض بخلقة قاتلا إتهم إذا كانوا يريدون جثث الشهداء فسوف يجهون مثيلها عندهم . ولكن بنفذ وعده سار أسفل الساحل وراح يقتل كل مسيحي يقع في يده . لكنه مرة أخرى ، لم يغاز مهاجمة عكا نفسها التي وصلها أتوه الرضى هيو من قبرص . وعندما انسحب للمساكن في الحريف، جمع هيو فرسان الأنظمة الدينية العسكرية وكتبة فرنسية بقيادة جيوفري (لوف سارجون) وقام بمحلة مضادة في الجليل . غير أنه في ٢٨ أكتوبر وقعت الطليعة في كمين نصبت لها حامية صفد ، بينما هاجم العرب المحليون للعسكر الفرنجى ، فاضطر هيو إلى الانسحاب بخسائر فادحة<sup>(١٠)</sup>.

(٩) *Genes des Chiprois*, pp. 179-81; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 484-5; Macrin, *Sultans*, I, ii, pp. 28-30; Abu'l Feda, p. 151; al-Aini, pp. 2223

(١٠) *Genes des Chiprois*, pp. 180-1; *Estoire d'Eracles*, loc. cit

## ١٢٦٦م : المماليك يهزمون كيليكية

وبينا يبرس يحاول إخمالاته في الجليل ، تجمع في حمص الجيش المملوكي الثاني بقيادة أئندر كمراته ، فلاوون ، الذي قام بغارة عاصفة بإثناء طرابلس استولى خلالها على حصن قوليا وحلبا ومدينة أرقا التي تتحكم في مدخل طرابلس من القلاع ، ثم أسرع شمالا كي يلحق بجيش المنصور صاحب حمص ، ثم سارت قواتهما المتحدة إلى حلب واقترفت باتجاه الغرب إلى داخل كيليكية<sup>(١١)</sup>. وكان الملك هيثوم يتوقع هجوما مملوكيا. ولقد حاول هيثوم في ١٢٦٣م، على أثر أنباء موت هولانكو ، أن يتصالح مع يبرس ، وكانت البحرية المصرية تعتمد في بناء سفنها على أخشاب غابات جنوب الأناضول ولبنان ، وكان هيثوم وزوج ابنته نوحمنند يسيطران على تلك الغابات ، وفي مأموغما استغلل سيطرتهم هذه كورقة تفاوض ، غير أن محاولة الحصار زادت من عزم يبرس على الحرب<sup>(١٢)</sup>. وفي ربيع ١٢٦٦م ، علم هيثوم أن هناك هجوما مملوكيا وشيكا ، فانطلق قاصدا بلاط الخان في تبريز ، وأثناء تواجده هناك يستعدى مساعدة المغول، تفحرت العاصفة على كيليكية . وكان الجيش الأرميني بقيادة إسني هيثوم ، ليو وثوروس، ينتظر عند البرابات السورية بينما فرسان العدد في يخرس يخرسون حناحيه ، لكن المماليك انصرفوا شمالا ليعبروا جبال الأمانوس بالقرب من سارفتيكار ، فخرج الأرمن لإعراض طريقهم أثناء هبوطهم في السهل الكيليكى . ووقعت معركة حاسمة يوم ٢٤ أغسطس هناك فيها الجيش الأرميني لعمزه أمام الأعداد الغفوة ، وقتل ثوروس ، أحد الأميرين ، وأسير الآخر ليو . واكتسح المسلمون المنتصرون كيليكية ، وبينا كان فلاوون ومماليكه يهبون أباس وأضنا وطرسوس ، قاد المنصور جيشه مارا بالمضيصة إلى العاصمة الأرمينية سبسي حيث نهب القصر وحرق الكنائس وذهب بضعة آلاف من السكان. وفي نهاية سبتمبر انسحب المنتصرون إلى حلب ومعهم أربعون ألف أسير تقريباً وفرائل ضخمة من الأسلاب . وكان الملك هيثوم قد أسرع عائدا من بلاط الخان ومعه صحة قليلة العدد من المغول ، لا لشيء سوى ليجد وريثه أسيرا وعاصمته أطلالا وبلده كله خرابا . ولم تبق المملكة الكيليكية قط من الكارثة ، ولم تعد قادرة على أن

(١١) Abul Feda, loc. cit.: al-Aini, p. 222

(١٢) Max Lattin, Histoire de Chypre, I, p. 412

تلقب أكثر من دور سلمي في سياسات آسيا<sup>(١٣)</sup>.

وبعد أن اجتاح بيرس شاة الأرمن أرسل جنودا في حريف ١٢٦٦م لمهاجمة أنطاكية ؛ غير أن قواده انتشروا بالأسلاب وكان يعوزهم الحياض ، وقبضوا من يوحنا ومن كميون أنطاكية الرثوة التي أغرتهم بالتعالي عن المحاولة<sup>(١٤)</sup>.

واجتاح بيرس من ضعف مندوبيه ، ولم يسمح هو نفسه بتأجيل القضاء على الفرنج ؛ فظهر في شهر مايو ١٢٦٧م مرة أخرى أمام عكا ، ورفع الرايات التي استولى عليها من فرسان المعبد والستيفي ، وتمكن بذلك من الإغتراب حتى الأسوار مباشرة قبل اكتشاف الخدعة . غير أن هجومه على الأسوار تم صده ، ورفض بنهب الريف ، وترك الخندق الحالية من البروس في الخنادق المحيطة بعكا إلى أن حاصر الموانئون بالخروج لتفنها . وعندما أرسل الفرنج سفرا بجمع طلبا للهدنة استقبلهم في صفد حيث كانت القلعة كلها عاملة بتماسيح الأسرى للسجين الذين قُتلوا<sup>(١٥)</sup>.

ولم تيسر أسباب الحياة في عكا بتجدد القتال بين القيادة وأبناء جنوا للسيطرة على الميناء ؛ ففي ١٦ أغسطس ١٢٦٧م قام الأدميرال الجنوي لوشيتو جرمالدي بشق طريقه عنوة إلى داخل الميناء شمالية وعشرين غليوناً بعد استيلائه على برج الذباب الذي كان يرتفع في نهاية حاجز الأمواج . غير أنه بعد اثني عشر يوماً أخذ خمس عشرة سفينة من صفه إلى صيدا للإصلاح ؛ وأثناء غيابها ظهر أسطول بتلجي من ستة وعشرين غليوناً وهاجم سفن جنوا الباقية ، وضاعت في المعركة خمس سفن جنوية ، وحاربت السفن الأخرى لشق طريق خلال الميناء وأخرجت إلى صيدا<sup>(١٦)</sup>.

وفي وقت مبكر من سنة ١٢٦٨م انطلق بيرس مرة أخرى من مصر ، وكانت الأملاك المسيحية جنوب عكا هي مهدد قلعة فرسان المعبد في عكايت ومدينة يافا التي

(١٣) Vatani (ed. Enia), pp. 213-15; Hethoum, p. 407; Vatani, *Rhywaf Chronicle*, pp. 522-3; King Hethoum, poem, *R.H.C. Ann.* i, pp. 551-2; Ballad on Prince Leo's Captivity, *ibid.* pp. 539-40; Hayton, *Flor des Estoire*, pp. 177-8; Bar-Hebraeus, pp. 445-6; Mäqisî, *Saltara* i, ii, p. 34; Abul Fida, p. 151; *Gesta des Chiprois*, p. 181; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 455.

(١٤) Cohen, op. cit. p. 716, citing MS. of Ibn Abdarrakim (Mishî ad-Dîn).

(١٥) *Gesta des Chiprois*, pp. 181-2; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 455; al-Azîzî, p. 225.

(١٦) *Gesta des Chiprois*, p. 186; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 455-6; Heyd, *Histoire de Conquerres du Levant*, i, p. 354.

بملكها القانوني حوث (الآليني). وفي ربيع ١٢٦٦م مات حوث الذي كان للمسلمون بهامولته دائما باحزام<sup>١٧١</sup> ولم يكن أبوه حوى يتمتع بنفس المكانة ، وكان في مأمله أن يهزم السلطان الممونة المعقودة مع والده ، ونتيجة لذلك ، وعندما ظهر الجيش المصري أمام المدينة يوم ٧ مارس ، لم تكن في حالة تسمح لها بالدفاع عن نفسها ، ولذا سقطت في قبضة السلطان بعد اثني عشرة ساعة من القتال ، وقتل الكثير من سكانها ، وسمح للحامية بالرحيل دون أدنى إلى عكس ؛ ودشرت القلعة وأرسلت أحشائها ورحلتها إلى القاهرة من أجل الخاضع الكبير الجديد الذي كان يبرس ببنه هناك<sup>(١٧٢)</sup>.

وكان الهدف التالي للسلطان هو قلعة بيوفورت التي تسلمها نظام المعبد مؤخرًا من جوليان أمير صيدا . وبعد عشرة أيام من القصف الشديد استسلمت الحامية يوم ١٥ إبريل ، وأطلق النساء والأطفال ليذهبوا إلى صور ، لكن جميع الرجال اقتيدوا عبيدا . وأصلح بيبرس القلعة وزودها بحامية قوية<sup>(١٧٣)</sup>. وفي أول مايو ظهر الجيش المملوكي فجأة خارج طرابلس ، غير أنه وجد حاميته قوية ، فحاول بنفس القدر من الفعالية بالنجاء الشمال . وأرسل فرسان المعبد من طرطوس وصفيطاً على عجل يتوسلون إلى السلطان أن يحتفظوا بأراضيهم<sup>(١٧٤)</sup>. واحزم بيبرس رغبتهم وزحف زحفاً سريعاً جنوب وادى العاصي (الأردن) وفي ١٤ مايو كان أمام أنطاكية حيث قسم قواته إلى ثلاثة أقسام ؛ فذهب جيش للإستيلاء على ميناء السويدية ، وبذا عزل أنطاكية عن البحر ؛ وتحرك الجيش الثاني شمالاً إلى البوابات السورية ، وبذا منع أية مساعدة قد تصل المدينة من كيليكيا ؛ وأحاطت القوة الرئيسة بقيادة بيبرس نفسه بالمدينة عن قرب.

#### ١٢٦٨م : سقوط أنطاكية

كان الأمير بوهمند في طرابلس ، وكانت أنطاكية تحت إمرة باورها (الكونتسابل) سيمون مانسل الذي كانت زوجته أرمنية ، وإحدى فريسات زوجة بوهمند . وكانت أسوار المدينة قد أصلحت بصورة جيدة ، لكن الحامية لم تكن من الكثر بحيث تحرس امتدادها الطويل . وقد تهور الكونتسابل وقاد بعض الجنود إلى

(١٧١) *Genes des Chypriotes*, p. 190; *États d'Escler*, ii, pp. 456; Abel-Feld, p. 152; Moxiti, Salués, t. ii, pp. 50-1; al-Ani, pp. 226-7.

(١٧٢) *Genes des Chypriotes*, loc. cit.; *États d'Escler*, loc. cit.; al-Ani, pp. 227-8.

(١٧٣) Al-Ahli, p. 228.

التحارج في محاولة للتفاوض بنى الاستعداد للبقاء، لكن الهالكات أسروا. وأمره أسروا  
والمعل على ترسب التسمم لخاصة ؛ غير أن وفاة داهل المدينة رفضوا الاستعداد له  
وتفقد لظهور الأول على المدينة في اليوم ذاته ، وانتمت الإضراب على أخرى  
ولا نجاح يذكر . وفي ١٨ يناير قام الجيش المملوكي بهجوم عام على الأسوار بكافة  
أجزاءها ؛ وفقد قتال شرس فتحته ثغرة في الدفاعات الممتدة أعلى جبل سيلبوس  
وتفقد المسلمون داهل المدينة.

واسيب المؤرخون، والمسلمون من بينهم، بصحة من القصة التي تلت ذلك أن  
أمراء السلطان أسخروا كرامهم بإطلاق روابيت القنبلة حتى لا يهرب أحد من  
السكان، وقُتل من كان في الشوارع في الحال، أو ما أخفيته قبلوا في بيوتهم فقد  
ظلوا على قيد الحياة لا شيء سوى إلهاء أهلهم في الأسر. وهرب بضعة آلاف من  
المواطنين مع عائلاتهم لاحتين إلى اللغة المحلية الواقعة على سفح الجبل، لقد تحروا  
بجيتهم، لكن الأمراء اتسومهم، في ١٩ مايو أرسل السلطان جميع الأسلاب  
وتسبيها. وعلى الرغم من أن أدهار أنطاكيا اضطلع لعدة عهود، إلا أنها كانت  
أغنى المدن الفرعية، وكانت كوزها المراكمة مغلة، مكثت هناك كرام من حلي  
الذهب والفضة، وكانت العملات من الفضة بحيث كانت تعطي في أوجها، وكان  
الذهب والأسرى غزيرا. ولم يكن هناك في جيش السلطان لم يحصل على عبد، أو  
غنائم الحياة فقد اتفعل في الصبي إلى اثني عشر درهما وألقت إلى حصة دراهم فقط؛  
ومشع قنطين من المواطنين الأكثر ثراءً ماكن يغبثوا أنفسهم. وأطلق سراح مسجون  
ماسيل وقاعد في أرمينيا، غير أن الكثير من كبار المسؤولين في الحكومة وفي  
الكهنة قتلوا، أو لم يُجمع عنهم مرة أخرى<sup>(٢٧)</sup>.

ولقد استمرت إمارة أنطاكية ١٦١ سنة ، وهي أول دويلات الفرنج في الشرق العربي . وجاء دمارها نهاية فترة مرحلة الفقهية السليبية ، وبعدها انهيار التبرع المسيحية في بلاد سوريا . وقد انتهى القرنين ، بما تحسن أحوال المسيحيين المؤمنين ، وكان ذلك عاكساً على قسود من قسودهم من مساعدة ، لا للفرنج المؤمنين ، ولا للأعداء الأكثر خطورة على الإسلام ، ألا وهم المغول . وقد تراءى انقضاء قسطاً ، إذ قدت فعلاً أهميتها التجارية ، حيث أن الحدود بين الإمبراطوريتين المغولية

*Gestes des Chévrois*, pp. 150-1; *Ensemble d'Éroules*, ii, pp. 456-7; *Bar i-i-narous*, p. 448; *Magrasi*, *Sahara*, i, ii, pp. 52-3; *al-Arni*, pp. 229-30; *Abū Feda*, p. 152. (T.)



والمملوكية كانت تسمى بطول نهر الفرات . ولذا لم تعد التحصنة من العراق والشرق الأقصى أمر خلال حلب ، وإنما طلت في الأراضي القلوية وراحت تتدقق على البحر من أليس في كيليكية ؛ ولذا لم يكن للفرقة المسلمين اعتماد باعادة توطين الناس في أنطاكية ، وباتت أهميتها الآن مجرد كونها قلعة حدودية . ولم يُعد بناء الكثير من منازلها داخل الأسوار العظيمة ، والنقل رؤساء الكنائس المحلية إلى مراكز تتصف بحيرية أكبر ولم يمض طويلا وقت قبل أن يتأسس في دمشق القريين الرئيسيين للكنيستين الأرثوذكسية واليعقوبية<sup>(٢١)</sup>.

تلقت فرسان المعبود فوجدوا أن أرمينيا قد أضعفت وأنطاكية شُتتت ، فأدركوا استحالة الاحتفاظ بمصونتهم في جبال الأمانوس ؛ فهجروا حصن بمراس والحصن الأصغر في صخرة روسل دون قتال ، وكان كل ما تبقى من الإمارة هو مدينة اللاذقية التي كان للغول قد أبقوا عليها ومنحوها ليوهمند ، وقد باتت الآن بقعة معزولة ، وحصن قصير الذي أنشأ أمير اللورد علاقة صداقة مع مسلمي الخوار وشجع له بالإقامة هناك لسبع سنوات أخرى كتابي السلطان<sup>(٢٢)</sup>.

#### ١٢٦٨م : هيو ، ملك قبرص والقدس

استراح بيرس لفترة بعد انتصاره في أنطاكية . وكان هناك ما يدل أن اللغول على استعداد للقيام بدور أكثر إيجابية ، وكانت هناك شائعات تقول إن القديس لويس أعد في الإعداد لحملة صليبية ضخمة . وعندما أرسل الوصي هيو طالباً للخدمة أحياب السلطان بارسال سفارة إلى هناك تعرض هدنة مؤقتة ؛ وكان هيو يأمل في الحصول على بعض التنازلات وحاول تهديد السفير عى الدين ، بإظهار جنوده في استعراض حربي ؛ لكن عى الدين لم ينجب سوى بأن الغنشي كله لا يبلغ عدده ما يبلغه عدد الأسرى المسيحيين الضخم في القاهرة . وطلب الأمير يوهمند أن يدخل في الهدنة ؛ وعندما

(٢١) عندما زار الرحالة ابن بطوطة أنطاكية في سنة ١٣٥٥م كان هناك عدد كبير من السكان لا يزالون يسكنونها (Des Barutah, Voyages, ed. Defrénay, t. p. 162) ، لكن بيرس نشر تحصيلاتها ويقول Bertrandon de la Broquière الذي زارها سنة ١٤٣٢م أن الأسوار كانت ما تزال قائمة ، وإن لم يكن هناك سوى ٣٠٠ منزل من المنازل المسكونة داخل تحت الأسوار وكان أغلب السكان من الأرمن (Voyage d'Orient, ed. Schéfer, pp. 84-5).

(٢٢) Genes des Chypriotes, p. 191, Histoire d'Eracles, II, p. 457; Cohen, La Syrie du Nord, p. 717 n. 17.

أحابه السلطان محمد ثلب كونت لفقد الإمازة شعر بالهانة ، لكنه قبل بسرور المدة التي مُنحت له . وكانت هناك غارات عمليّة قليلة الشّان في الأراضي المسيحية في ربيع سنة ١٢٦٩م ، وإن كانت المدة قد احترمت على العموم طوال سنة كاملة<sup>(٢٢)</sup>.

وفي ذات الوقت حاول الفرنج تنظيم بيتهم . وفي ديسمبر ١٢٦٧م مات الملك هيو الثاني ملك قبرص وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وخلفه على العرش الرّوس هيو أمير أنطاكية - لوسيان باسم هيو الثالث ، وتوجّح يوم عيد الميلاد . وقد أتاح له استخلاصه سلطة لوكي على أتباعه ، إذ لم يكن هناك خطر الآن من انتهاء حكمه فجأة عندما يبلغ ولّ العهد السن القانونيّة . غير أنه كان عاجزاً عن التغلب على ما يدعونه من أنهم غير مهينين على الخدمة في جيشه عارح حدود المملكة ، وكلّما رغب في أن يفعل ذلك كان يعتمد على رجال من الضباع الملكيّة وعلى المتنوعين . وفي ٢٩ أكتوبر ١٢٦٨م قُطعت رمي كونرادين (لوف هوهنشتوفن) في نابولي بأوامر من تشارلز (لوف آتور) ، الذي حاول عبثاً أن يسرد منه بالقوة موارثه الإيطالي.

#### ١٢٦٩م : تنويح هيو

وكان موت كونرادين يعني انقطاع الخط الأكبر للبيت الملكيّ في القدس الذي ينحدر من الملكة ماريا، المركيزة . وكان التّألي في عهد الإستخلاف أبناء بيت قبرص ، المنحدرين من الأخت غير الشقيقة لماريا ، أليس (لوف شامباني) . أمّا معارضة هيو الثالث بأن يكون وريثاً فقد اعترف بها ضمناً بتعيينه وصياً ، بينما تمّ تحطّي ابن عمه هيو (لوف بريان) الذي كان أحق منه في الوراثة من الناحية القانونيّة . ومنسّى هيو (لوف بريان) يبحث عن حظه في دوقية أثينا الفرنجيّة ، حيث تزوج وريثتها ، وأنشأ ذلك عن نخدي ابن عمه. على أنّه قبل أن يلقى الملك هيو ناحه الثاني ، كان هناك مناقش آخر يتعين وضعه موضع الاعتبار . ذلك أن الأخت الثانية غير الشقيقة للملكة ماريا - مارييند لوف لوسيان - كانت قد تزوجت الأمير يوهنن الرابع أمير أنطاكية كزوجة ثانية ، وكانت ابنتهما ماريا ما تزال على قيد الحياة . وبينما يستطيع هيو الإدعاء بأنّه من نسل زواج للملكة إيزابيلا ، يسبق ماريا ، فإن ماريا كانت أقرب إلى الملكة إيزابيلا بجيل واحد . ومثلت أمام المحكمة العليا ، مدعية أن الإستخلاف ينبغي أن

يتقرر بدرجة القرابة بالملكة إيزابيلا التي هي السلف المشترك لكل من كوراديين ، وهيو ، وهي نفسها . ودفعت بأن للحفيد أسبقية على ابن الحفيد . ورد هيو بأن جدته الملكة إليس قد تم قبولها وصية لأنها كانت الوريث التال ولأن ابنها الملك هنري ملك قبرص قد تم قبوله وصيا بموتها ، وبعد هنري ثمة أرملته ، ثم هيو نفسه ، كأوصياء على هيو الثاني . وهو الآن يمثل عطف إليس . وردت ماريا كان هناك عطف ، فكان ينبغي لألمها ملبسند أن تخلف إليس كوصية . واستمر الجدل بعض الوقت أجد فيه فرسان المعبد ماريا ، بينما أجد قانوني الشرق الغربي مطالبة هيو . ولو أنهم رفضوا ، لأحسروا على الإعراف بأنهم كانوا على عطف فيما سبق ، وكان الرأي العام في جانبهم ؛ إلا من الواضح أن ملك قبرص الشاب الفتي كان مرشحا مرفوقا بصورة أكثر من عاتس في أواسط عمرها . ولم تقبل ماريا الحكم ؛ وأصدرت أمراضا رسميا يوم تتويج هيو ، ثم رحلت والخلقة قبيلها إلى إيطاليا لتعرض قضيتها أمام الإدارة البابوية ، ووصلت روما في فترة تسق ثولي بابا حديد ؛ لكن حريهوري العاشر ، الذي انتخب سنة ١٢٧١م ، تعاملت معها وسمح لها بإثارة القضية في مجلس ليون سنة ١٢٧٤م . وظاهر ممثلون من عكا ، ودفعوا بأن المحكمة العليا في القدس هي السلطة القضائية الوحيدة التي تقرو الإحتلاف على المملكة ، وشكلت المسألة . وكان حريهوري - قبل أن يموت سنة ١٢٧٦م - قد أعد الوثائق لماريا لكي تبع قضيتها لتشارلز (أوف آينو) ، واستكملت الصيغة في مارس ١٢٧٧م ، واستلمت الأميرة ألف حنيه ذهبا ودعلا سنويا قدره أربعة آلاف حنيه تورى<sup>(٢١)</sup> . واعتمد تشارلز الثاني عامل نابولي ذلك الدحل السنوي ؛ غير أنه من المشكوك فيه كم من المال كانت تسلمه ماريا التي كانت ما تزال على قيد الحياة في سنة ١٣٠٧م<sup>(٢٢)</sup> .

وتأية عن الطريق ، قام أسقف اللد بتتويج هيو في ٢٤ ستمبر ١٢٦٩م . وكان هيو قبل تتويجه قد تمكن فعلا من تسوية الخلاف بين فيليب أمير مونتقورت والحكومة في عكا . وكان كيريا فيليب قد لحقته المهانة بضياغ مديرون ، ولم يعد يتوق إلى القيام بأي عمل بمفرده ؛ وعندما اقترح هيو تزويج أخته - مارجريت أميرة أنطاكية ولوسيبان ، أجهل بنات حيلها - من ابن فيليب الأكبر - جون - قبل فيليب للعرض

(٢١) (الترجم) : تورموسينوس ، صفة لعملة نقدية فرنسية قديمة مسكوكة في مدينة تور على الطراز الملكي

(٢٢) *Genes des Chipriotes*, pp. 390-3, *Assises*, li, pp.415-19. See La Motte, *Feudal Monarchy*, pp.77-9, and Hill, *History of Cyprus*, li, pp. 161-5

بسرور . وهكذا أصبح عقذور هيو الذهاب إلى صور لكي يتزوج في كسرايتها ، وهي التي باتت منذ سقوط القدس مكان التبرع التقليدي للملوك . وسرعان ما تزوج بعد ذلك إين فيليب الأصغر ، همفري ، من إيشينا (أوف إيلين)، وهي الإنة الصغرى لجون الثاني أمير بيروت . وكانت هذه المصالحة بين آل مونتفورت وآل إيلين أكثر بسرا ، إذ انتهى الجليل الأكبر لآل إيلين . وقد مات جون أمير بيروت سنة ١٢٦٤م، وجون أمير يافا سنة ١٢٦٦م ، وجون أمير أرسوف سنة ١٢٦٨م . وبعد حملات يبرس الأسيرة كانت الإقطاعية المدنية الوحيدة في المملكة بخلاف صور هي بيروت ، التي آلت إلى إبنه جون الكبرى ، إيزابلا . وكانت قد وُضعت وهي طفلة من الملك الطفل هيو الثاني ملك قبرص الذي مات قبل إيفاد الزواج . وكان هيو الثالث يأمل في استعادتها كورثة قانونية مناسبة لكي يُنتخب أحد الفرسان المشيرين إلى الشرق . وفي قبرص كان آل إيلين لا يزالون يمثلون أقوى عائلة ؛ وسرعان ما فاز الملك بولانهم بزواج إيزابلا أخرى من آل إيلين ، وهي إبنه الكونتسابل جوي<sup>(٢٦)</sup>.

وعلى الرغم من أنه رتب أمر الصلح فيما بين أتباعه القليلين الباقين من غير رحال الدين، فإن ضمان تعاون الأنظمة الدينية العسكرية ، وكميون عكا ، والإيطاليين كان أكثر صعوبة. أما جنوا والبنطية فلم تكف أي منهما عن الشجار للنية لنداء أي عامل ؛ وأما فرسان المعبد وفرسان التيرتوت فقد إزدروا مصالحة هيو مع فيليب أمير مونتفورت ؛ وأما أعضاء كميون عكا فكانوا يهرون بنفس القدر عما كانت تحظى به صور من محاربة ، وقد كرهوا أن يروا نهاية الملكية الغاية التي في ظلها زادت قوتهم . كما لم يكن بإمكان هيو استدعاء أتباعه القرويين لتعزيز سلطته . لقد كانت محاربه في جعل حكمه مقبولا محكوما عليها بالفشل<sup>(٢٧)</sup>.

ولم تكن الشؤون الخارجية مشجعة . إذ أن غلّ تشارلز (أوف أنجو) كان يقيم على عالم البحر المتوسط . وكانت هناك آمال عراض في الشرق معلقة على حملة القديس لويس الصليبية الموشبكة ؛ بيد أن تشارلز جوهنا في ١٢٧٠م لكي تُخدم اهتماماته ؛ وبموت لويس في تونس في ذلك العام ، قرر تشارلز من أحزمه للإشارة

(٢٦) . J. G. Cooper, *History of the Crusades*, pp. 192-3. (٢٧) . J. G. Cooper, *History of the Crusades*, pp. 192-3. (٢٨) . J. G. Cooper, *History of the Crusades*, pp. 192-3.

(٢٩) . J. G. Cooper, *History of the Crusades*, pp. 192-3. (٣٠) . J. G. Cooper, *History of the Crusades*, pp. 192-3.

الذي كان يتميز به لويس؟ وكان على علاقة ودودة مع السلطان بيوس ، وإن كان في أعماق نفسه يحمل العداءة للملك هيو ، وسبق أن انحاز ضده عندما أيد مطالبة هيو (أوف برانن) في عرش قبرص ، ومطالبة ماريya بعرض القدس . لقد كان من حسن حظ الشرق الغربي حقا أن كانت مطامع تشارلز الأساسية موجهة ضد برنطة ، إذ كان من الواضح أن أية حملة صليبية يسهم في مساعدتها سوف تتحول لتتناسب مع أهدافه الأليانية<sup>(٢٨)</sup>.

#### ١٢٦٩م : الحملة الصليبية لأطفال أراجون

ومع ذلك ، لم تكن الروح الصليبية قد ماتت تماما في أوروبا . ففي أول سبتمبر ١٢٦٩م أبحر الملك جيمس الأول ملك أراجون<sup>(٢٩)</sup> من برشلونة بأسطول قسوى لإقتحام الشرق . ولم يكن ذلك الأسطول يقطع حتى هكت ، لسوء حظه ، عاصفة عذيمة اضطرت الملك والجزء الأكبر من أسطوله إلى العودة . ولم يواصل الرحلة إلا أسطول صغير تحت إمرة ابن الملك من السفاح ، الطفلين فرناندو سانتشيز وبيدرو فرنانديز ، ووصلوا عكا في نهاية ديسمبر وكلهم نواق إلى محاربة الكفرة . وفي وقت مبكر من ديسمبر قطع بيوس المدينة مع هيو وظهر مع ثلاثة آلاف رجل في الخقول أمام عكا، وترك جنودا آخرين محتلين في التلال، ورغب الأطفال في الإسراع في الخيال لمهاجمة الأعداء ، ومارس فرسان المعسكر ما في وسعهم من مهارة لتهديتهم ، وقد ارتابوا في وجود كمين . وفضلا عن ذلك ، تقلصت أعداد المسيحيين بعد أن عرجت الكنيسة الفرنسية للقيام بغارة عبر مونتفورت، كان القهرمان جيوفري (أوف سارجين) يقودها حتى وفاته في ربيع ذلك العام ، مع فاندوها الجديد أوليفر (أوف تيريم) ، والقهرمان الجديد روبرت (أوف كريسليك) بانصرافها إلى غارة عبر مونتفورت . ولمح هؤلاء اللغويون لدى عودتهم القوات الإسلامية . ورغب أوليفر (أوف تيريم) في التسلل دون أن يلاحظه أحد خلال حداثق الفاكهة عائدا إلى عكا ، لكن القهرمان روبرت أصر على مهاجمة الأعداء . وسقط الفرنسيون مباشرة في الكمين الذي نصبه بيوس لهم ، ولم ينج منهم سوى قلّة ضئيلة ، وعندما تنادى الجنود داخل عكا للتغلب لإقتحامهم ، قام أطفال

(٢٨) أنظر تولا، ص ٣٤١.

(٢٩) (اللاتينية) أراجون: Aragón إقليم في شمال شرق إسبانيا . ومن القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر كان ملكة تضم في أوقات مختلفة سردينيا وصقلية ودمشق وأجزاء أخرى من البحر المتوسط.

أرجحون - وقد لقنوا القوس - بكبح جهاسهم . ثم سرعان ما عادوا فيما بعد إلى أرجحون دون أن يثقلوا شيئاً<sup>(٣٠)</sup>.

وبرغم عدم كفاية مساعدة الغرب ، كان لا يزال هناك أمل في الشرق ؛ ذلك أن الخان أباقا في فارس كان يدين ، كشأن والده هولكو ، بالشامانية المزوجة بتعاطف مسيحي شديد<sup>(٣١)</sup> . وكان موت زوجة أبيه المسيحية - دوكوز خاتون - بمثابة انتزاع صديقة هام من إخوانها في الدين من كل اللذائب ؛ لكنهم وجدوا حاميا جديدا في شخص الأميرة ماريا البيزنطية ، التي كانت قد وصلت إلى بلاط الخان لتحدد هولكو ميتا ، وتزوجها أباقا علي الفور ، وسرعان ما أحاطها باحترام عميق ؛ وثقلها رعاياه جميعا لطيفتها وحصلتها ، وكانت معروفة لديهم على أنها ديسينا خاتون . وحشت أبناء حسن نوابا الخان ، ملك أرجحون مع البابا كلمنت الرابع ، على إرسال جيمس ألاريك (أوف يورينيان) في بعثة إلى الخان في ١٢٦٧م للإعلان عن الحملة الصليبية للزعمة الأراخونية وحملة الملك لويس الصليبية ، وإقراح تحالف عسكري . غير أن أباقا كان مشغولا للغاية بحربه مع القبيلة النعوية ، ولذا كان رده مجرد وعود غامضة<sup>(٣٢)</sup> . ويتضح عجزه عما وراء ذلك في فشله في إقناع أنطاكيا من الممالك في العمام السالي . وسرعان ما واجهته حرب جديدة مع أبناء عمومته من آل خاغاناي الذين غزوا أراضيه الشرقية سنة ١٢٧٠م وودوا بعد معركة عنيفة بالقرب من حيرات . وفي السنتين التاليتين كانت المهمة الرئيسية هي إعادة فتح خطوط المواصلات مع عمه وسيدته الأعلى الخان الأعظم قوبلاي في الصين<sup>(٣٣)</sup> . غير أنه في سنة ١٢٧٠م ، وبعد انتصاره في حيرات ، كتب للملك لويس يتعهد بتقديم مساعدة عسكرية فور ظهور الحملة الصليبية في فلسطين<sup>(٣٤)</sup> . ولكن الملك لويس ذهب إلى تونس حيث لا يستطيع المغول مساعدته . وكانت المساعدة العملية الوحيدة التي استطاع الخان تقديمها إلى المسيحيين هي تزويد

(٣٠) *Genes des Chrétiens*, pp. 183-5، في ذكر التاريخ في سنة ١٢٦٧م *Entiers*، *Annales de Terre Sainte*, p. 454، *Eracles*, ii, pp. 457-8.

(٣١) (لارسن) ، الشامانية *Shamanism* ، مائة شعوب معينة في شمال شرقي آسيا تقوم على أسس الإعتقاد في أرواح الخير والشر التي لا تترك إلا بالشامان ، أي رجل دين لشاماني.

(٣٢) D'Ohsson, *Histoire des Mongols*, iii, pp. 539-42, Howarth, *op. cit.* iii, pp. 278-80. وعن شهرة سارية لعل Bar-Hebraeus, p. 505.

(٣٣) D'Ohsson, *op. cit.* pp. 442 ff.

(٣٤) *Ibid* pp. 458-9.

هيتوم الأرمني بأسير مملوكي بارز ، هو شمس الدين سنقر الأشقر ، الصقر الأحمر ، الذي أسره القوئل في حلب . ولإطلاق سراح ذلك المملوك ، وافق بيبرس على إطلاق سراح ليو ، وورث هيتوم ، وعقد هدنة مع هيتوم شريطة أن يتنازل الأرمن عن حصون الأمانوس في درياسك ، ونيستا ، وريجان ، ووقعت الهدنة في شهر أغسطس ١٢٦٨م وفي العام التالي عاد ليو إلى أرمينيا ، بعد أن سُحِبَ له بالبحر في القنس . وعلى القوئل تنازل ليو عن العرش لصالحه وتقاعد في أحد الأديرة حيث مات في العام التالي . واندحرف الشخان أباضا بلقب ليو الجديد كملك ، وذهب ليو شخصيا إليه لتقديم الجزية<sup>(٣٥)</sup>.

#### ١٢٧٠م : قتل فيليب أمير مونتفورت

ظل بيبرس هادئا طوال صيف سنة ١٢٧٠م ، لاحتمال الدفاع عن مصر ضد ملك فرنسا. غير أنه لكي يُضعف الفرنج ، أعد ترتيبات اغتيال البارون البارز الوحيد لديهم، فيليب أمير مونتفورت . وكان الحشاشون في سوريا يشعرون بالإمتنان للسلطان الذي حررهم بغزواته من ضرورة دفع إتاوة لفرسان المستشفين ، كما أنهم ازدروا بشدة المفاوضات الفرنجية مع القوئل الذين دمروا مقرهم الرئيسي في فارس . وبناء على طلب بيبرس أرسلوا أحد متعصبهم إلى صور ، وهناك ادعى أنه متحول إلى المسيحية وتوغل يوم الأحد ١٧ أغسطس إلى داخل الكنيسة الصغيرة حيث كان فيليب وابنه جون بصليان ، وفجأة انقض علىهما ، وقبل أن تصل المساعدة كان فيليب قد أصيب بجرح مميت ، وامتد به الأجل إلى أن عرف أن قاتله قد اعتقل وأن ورثته سليم بلا أذى . وكان موته بمثابة ضربة موجعة للشرق الفرنسي ؛ إذ أن جون ، برغم تكريس نفسه للملك هو ، زوج أخته ، كان يفتقر إلى خبرة أبيه وهيبته<sup>(٣٦)</sup>.

وكان موت الملك لويس أمام تونس من بواعمث الإرتياح الكبير للسلطان الذي كان علي استعداد لتسليم المساعدة الأمير التونسي . وعلم أن ليس هناك ما يبقيه من

(٣٥) *Genes des Chiprois*, p. 191; *États d'Enoch*, pp. 457, 463; *Bar-Hebraeus*, pp. 446-447; *Vahram, Blynd Chronicle*, pp. 523-4; *Hayton, Flor des Estres*, p. 178. See Cohen, *op. cit.* p. 718.

(٣٦) *Genes des Chiprois*, pp. 194-8; *Annales de Terre Sainte*, p. 454; *Maqrûsi, Sultans*, I, pp. 80-3.

تشارلز (كوف ألبو) . وفي ١٢٧١م توغل مرة أخرى في الأراضي الغرناقية ؛ وفي فبراير ظهر كمام صافقنا، الحصن الأبيض لفرسان المعبد . وبعد أن دافعت الحامية الصغيرة دفاعا حماسيا ، نصحبها السيد الأعظم للنظام بالإستسلام ؛ وشجع اللياقين على قيد الحياة بالانسحاب إلى طرطوس ، ثم واصل السلطان تقدمه إلى القلعة الضخمة لفرسان المستشفى Kerk des Chevaliers ، التي وصل إليها يوم ٣ مارس . وفي اليوم التالي انضمت إليه فصائل من الخشاشين وكذلك المنصور صاحب حمص وحبيشه ؛ وهطلت أمطار غزيرة لمدة أيام منعه من تثبيت آلات الحصار ؛ غير أنه في ١٥ مارس ، وبعد قصف قصير مركز فكن المسلمين من شق مدخل إلى برج الرواية في الحامير الخارجي . وبعد أسبوعين شقوا طريقهم إلى الحامير الداخلي ، وراحوا يتنقلون الفرسان الموجودين هناك ويأسرون الجنود الوطنيين ، وصعد الكثير من المدافعين لعشرة أيام آخر في برج الكبر جنوب الحامير ؛ وفي ٨ إبريل استسلموا وأرسلوا بسلام إلى طرابلس . إن الإستيلاء على حصن الكرك ، الذي تعدى صلاح الدين نفسه ، مكّن بيرس من السيطرة على المداخل المؤدية إلى طرابلس . ولقد تابع زحفه عليها واستولى على حصن عكار ، وهو حصن فرسان المستشفى جنوب القلاع الذي سقط في كوف مايو بعد حصار أسبوعين<sup>(٣٧)</sup>.

وكان بوهمند في طرابلس . وخشيته من أن تشارك طرابلس مصر عاصمته الأخرى أنطاكية ، أرسل إلى بيرس بتوسل إليه عقد هدنة . وسخر السلطان من اقتضائه إلى الشجاعة وطلب أن يدفع كافة نفقات هذه الحملة الملوكية ، وكانت هناك بقية باقية في معنويات بوهمند تعينه على رفض هذا الشرط المهين . وفي ذلك الوقت لم يتنجح هجوم بيرس على قلعة مراقبة المينة على صحرة قبالة الشاطئ بين بولونياس وطرطوس ، وكان سيدها ، بارتولوميو ، قد ذهب إلى البلاط الفخول ساعيا إلى طلب المساعدة . وملك الغضب بيرس لفشله حتى أنه حاول اغراء الخشاشين لقتل بارتولوميو أثناء رحلته<sup>(٣٨)</sup>.

وفي نهاية مايو عرض بيرس فجأة على بوهمند هدنة لعشر سنوات ، بسلا شروط سوى الاحتفاظ بما استولى عليه مؤخرًا . وبعد أن قبلها شرع في رحلة العودة إلى مصر

(٣٧) Magrisi, *Silva*, t. II, pp. 84-5; al-Azri, pp. 237-9; Abu'l Feda, p. 154; *Genes des Chanoines*, p.159; *Etudes d'Orient*, II, p. 460.

(٣٨) Irich, Magrisi, *Silva*, t. II, pp.86, 100; *Annuaire de Terre Sainte*, p. 455, R. 'Derniers Temps' in *Archives d'Orient Latin*, II, pp. 400-3.



ولم يتوقف إلا لكي يحاصر قلعة نظام التبتون في متفورت التي استسلمت يوم ١٢ يولية بعد حصار أسبوع واحد<sup>(٢٩)</sup>. والأل لم يبق للفرنج أية حصون داخل البلاد ، وفي نفس الوقت تقريبا أرسل أسطولاً من سبع عشرة سفينة لمهاجمة قبرص بعد أن سمح أن الملك هيو غادر الجزيرة إلى عكا . وعلم أسطول فحاة أمام ليماسول ، غير أنه نظرا لسوء المهارة للملاحية شحطت إحدى عشرة سفينة ووقع بحارها أسرى لدى القراصنة<sup>(٣٠)</sup>.

#### ١٢٧١م : وصول إدوارد الإنجليزي

وعزى تسميح السلطان مع يوحنا إلى وصول حملة صليبية جديدة . وكان هنري الثالث ملك إنجلترا قد أخذ الصليب منذ أسد بعيد ، ولكنه الآن شيخ عجوز ألهيكة الحروب الأهلية فتشجع ابنه ووريثه الأمير إدوارد على أن يبل غله وينطلق إلى الشرق . وكان إدوارد في بداية الثلاثينات من عمره ، ذا قوة والمقدار وبرود ، سبق له أن أظهر مواهبه كرجل دولة في تعامله مع الكنديين على والده . واتخذ قراره بالخروج بمشقة الصليبية بعد أن سمع بسقوط أنطاكية ، لكنه عطلها بحملة وبصورة منظمة . ورغم أن النبلاء الإنجليز وافقوا على مصاحبة ، إلا أنهم بدأوا يعتنقون الواحد تلو الآخر لسوء حظه ؛ وفي نهاية الأمر غادر الأمير إنجلترا في صيف ١٢٧١م ومعه مجرد ألف رجل وزوجته إليشور (أوف كاستيل) . وبعد أشهر قليلة تبعه أخوه إدmond (أوف لانكاستر) بالتعزيزات ، وكان أحد المرشحين فيما سبق للعرش الملكي . كما صحبته فصيلة صغيرة من الفرير<sup>(٣١)</sup> بقيادة الكونت الذي يتبعونه ، وفصيلة أخرى من هولاندة بقيادة تيدالدو فيسكونتي ، وليس أساقفة ليخ . وكان إدوارد ينوي الانضمام إلى الملك لويس في تونس ومواصلة الإبحار معه إلى الأراضي المقدسة ، لكنه وصل أترقية ليحد الملك ميتا، والجنود الفرنسيون على وشك العودة إلى بلادهم ؛ فأمضى الشتاء في صقلية مع الملك شارل الذي كانت زوجته الأولى عاتقه ، وواصل الإبحار

(٢٩) *Genes des Chiprois*, pp. 199-200; *Estoire d'Eracles*, loc. cit.

(٣٠) Magrioi, *Saltara*, t. II, p. 88; Abel Feza, p. 154; al-Aini, pp. 239-40; *Genes des Chiprois*, p. 199; *Estoire d'Eracles*, loc. cit.; *Annales de Terre Sainte*, loc. cit.

(٣١) (الفرير) ، الفرير : *Britanni* قبل برتاني *Britanni* ، إقليم شمال غرب فرنسا يشغل شبه جزيرة تقع بين القنال الإنجليزي وخليج بسكاي

في الربيع التالي إلى قبرص ثم إلى عكا حيث حبط إلى البحر يوم ٩ مايو ١٢٧١ م . وسرعان ما انضم إليه الملك هيو والأمير برعمند<sup>(١٢)</sup>.

ولرئاع إدوارد من الحيلة التي وجد عليها الشرق الغربي . وكان يعلم مدى صغر جيشه ، لكن الأمل كان برواده في توحيد مسيحي الشرق ليصبحوا قوة مرعبة ثم يستعدهم مساعدة المغول في القيام بهجوم فتال على يبرس . وكانت صدمته الأولى أن للبادقة تجارة مزدهرة مع السلطان ، يزودونه بكل ما يحتاجه من أششاب ومعادن للأسلحة، بينما يبدل الجنود ما في وسعهم لإيجاد طريق لهم في هذه التجارة المربحة وقد سيطروا فعلا على تجارة الرقيق في مصر . وعندما وُتِعَ التجار على سلوكهم الذي يعرض مستقبل مسيحي الشرق للخطر ، أنههوا له التصاريح التي حصلوا عليها من المحكمة العليا في عكا لهذه الأفراس . ولم يكن يوسعه أن يفعل شيئا لمعهم<sup>(١٣)</sup>. ثم ولودته الآمال في أن يأتي جميع فرسان فيرس إلى ملكهم في فلسطين ؛ غير أنه برغم بحىء بعض الإقطاعيين إلا أنهم أفسروا على أنهم متفوعون ، وعندما طلب منهم الملك هيو البقاء في سوريا طوال فترة وجوده هناك ، أعلن المتحدث باسمهم في صرامة، وهو ابن عم زوجته، جيمس (كوف إيلين) ، أنهم لا يلتزمون بالخدمة إلا للدفاع عن الجزيرة، وأضاف متكررا أنه لا ينبغي للملك أن يحتسب ذهاب النبلاء القبارصة للحرب في ذلك البلد سابقة ، لأنهم كانوا كثيرا ما يفعلون ذلك بناء على طلب آل إيلين بصورة أكثر مما كانوا يفعلونه بناء على طلب أى ملك ، وألح إلى أن طلبه كان مطلقا بأن يُلْتَمَسَ لو أن هيو طلبه بطريقة أكثر مهارة . وطال الجدل حتى عام ١٢٧٣ م ، عندما وافق القبارصة - بروح مصالحة نافذة - على أن يمضوا أربعة أشهر في البلد الرئيسي إذا تواجد الملك أو وريثه مع الجيش . وفي ذلك الوقت كان السيف قد سبق العذل ولم ينفق إدوارد هدفه<sup>(١٤)</sup>.

ولم يكن الأمير الإنجليزي أكثر نجاحا مع المغول . ذلك أنه ما أن وصل عكا حتى أرسل سفارة إلى الخان ، تتألف من ثلاثة من الإنجليز هم رينالد روسيل ، وجودفري ويليس ، وجون باركر . وكانت جيوش كيانا الرئيسية تصارع في التركستان ، ومع

(١٢) *Genes des Chiprois*, pp. 199-200; *Essai d'Eracles*, pp. 460-1..  
المسألة أنظر H. Powicke, *King Henry III and the Lord Edward*, ii, pp. 597 ff.

(١٣) Ibricht, 'Derniers Tempi', p. 622; Powicke, *op. cit.* ii, pp. 604-5; Dardano, p. 380; R.

(١٤) *Assizes*, i, pp. 347, 626, ii, pp. 427-34; *Essai d'Eracles*, ii, pp. 462-4. See Hill  
*History of Cyprus*, ii, pp. 168-70.

ذلك ولحق على أن يرسل ما يستطيعه من مساعدة. وفي ذات الوقت أرضى إدوارد نفسه بوضع غارات صغيرة عبر الحدود مباشرة. وفي منتصف أكتوبر ١٢٧١م وفي أياها بوعده بأن تقتلع عشرة آلاف خيال من حامياته في الأناضول، انسحوا جنوباً مرووا بعبثاب داخل سوريا وهزموا التركمان الذين كانوا يحرسون حلب، وهربت حامية حلب المملوكية أمامهم إلى حماة؛ وواصلوا زحفهم مرووا بحلب إلى معرة النعمان وأقنابا. ودب الذعر بين المسلمين الفارين، لكن بيرس الذي كان في دمشق لم يفاجأ بالشعور بالحظر؛ إذ كان معه جيش ضخم واستدعى التعزيزات من القاهرة. وعندما بدأ في الزحف شمالاً يوم ١٢ نوفمبر تفكك المفلول عائلين، إذ أنهم لم يكونوا من القوة بما يكفي لمواجهة الجيش المملوكي كله بينما ظل أتباعهم الأتراك في الأناضول ماكتين حيث كانوا. وانسحبوا إلى ما وراء الفرات يحملين بالأسلح<sup>(١٤٥)</sup>.

وبينما كان بيرس منشغلاً بالمفلول، قاد إدوارد الفرنج عبر جبل الكرمل للإغارة على سهل شارون، لكن جنوده كانوا من القليلة بحيث يحجز عن قصف قلعة قاقون المملوكية الصغيرة التي تحرس الطريق العابر للتلال. وإنّ، فالملوك غزو مغول أكثر فعالية وحملة صليبية أكبر إذا أراد إدوارد استعادة أي أرض<sup>(١٤٦)</sup>.

#### ١٢٧٢م: هدنة بين إدوارد وبيبرس

وفي ربيع ١٢٧٢م تحقق الأمير إدوارد من أنه ينفق الوقت بلا طائل، وكل ما كان يستطيعه في غيبة قوة بشرية أكبر وفي غيبة الحلفاء هو أن يربط هدنة تفصل الشرق الغربي للوقت الراهن، وكان بيرس من ناحيته على استعداد للهدنة، إذ أن بقايا المملكة الفرنجية الباقية والقلعة تحت رحمة طائلاً لا تعرفه تعقيدات خارجية. وكانت أول مهام جيشه هي التصدي للمفلول الذين ينفي كبح جماحهم بالطرق الدبلوماسية في الأناضول وفي الشهبوب. وإلى أن يشعر بالأمان في تلك المنطقة، فإن الإستيلاء على آخر القلاع الفرنجية لا يتطلب منه جهداً كبيراً، وفي الوقت ذاته ينبغي له منع التدخل من الغرب، ولذا يتعين المحافظة على حسن العلاقة مع تشارلز وأوف ألجو) وهو الوحيد الذي جلب مساعدة فعالة إلى عكا. غير أن منوح تشارلز الرئيسي

(١٤٥) *Entire d'Eracles*, ii, p. 461; Abel Feda, p. 154; Dénison, op. cit. iii, pp. 459-60; Pontick, op. cit. ii, pp. 601-2.

(١٤٦) *Gestes des Chyprais*, pp. 200-1; *Entire d'Eracles*, ii, p. 461.

هو غزو القسطنطينية ، وُلّا ثمل سوريا سوى امال اهتمام ثاتوي بالنسبة له ، وكان ضم سوريا إلى امبراطوريته مجرد أفكار غامضة في رأسه ، ولذا كان يرغب في الحفاظ على وجودها ولا يفعل ما من شأنه زيادة قوة اللثك غير الذي كان يأمل في أن يمل حله يوما ما! وكان مهتاً للوساطة بين يبرس وإدوارد ، وفعلًا لم توفيق معاهدة سلام يوم ٢٢ مايو ١٢٧٢م في قبرصية بين السلطان وحكومة هكبا ، تضمنت للمملكة الاحتفاظ لعشر سنوات وعشرة أشهر بملكاتها الرأبنة التي تتألف أساسا من سهل ساحلي ضيق يمتد من عكا حتى صيدا ، إلى جانب الحق في استخدام طريق الحج إلى الناصرة دون عائق . أما كونية طرابلس فكانت معاهدة ١٢٧١م تضمن سلامتها<sup>(١٧)</sup>.

وكان المعروف عن الأمير إدوارد رغبته في العودة إلى الشرق على رأس حملة صليبية أكثر ، ومن ثم ، وبرغم المساعدة، قرر يبرس القضاء عليه . وفي ١٦ يونية ١٢٧٢م ، تنكر أحد الحشاشين في هيئة مسيحي وطني وتوغل إلى غرفة نوم الأمير وطمعه بخنجر مسموم ، ولم يكن المرح يمينا ، وإن ظل إدوارد مريضا بمرض عظيم لعدة أشهر . وسارع السلطان بالكار ضلوعه في هذا العمل بأن أرسل نهبته بنحاة الأمير الذي ما أن تمائل للشقاء حتى أعد العدة للإبحار إلى وطنه ، وقد اعتلت صحته، ولم يعد هناك ما يفعله ، فالتهم من عكا يوم ٢٢ سبتمبر ١٢٧٢م<sup>(١٨)</sup> عائدا إلى المملكتا ليحد نفسه ملكها.

#### ١٢٧٢-١٢٧٤م : البابا جورج العاشر يجمع تقاير عن الحملات الصليبية

وكان رئيس أساقفة ليح ، الذي صاحب إدوارد إلى فلسطين ، قد رحل في الشتاء الفائت لدى سماعه بأناء غير متوقعة بأنه قد انتخب بابا . ومنذ أن تسوق البابوية باسم جورج العاشر لم يفقد اهتمامه بفلسطين قط ، وجعل مهمته الرئيسية العمل على إحياء الروح الصليبية ، فعممت في سائر أنحاء أوروبا منشأته الرجال بشأن بدأعنتوا الصليب ويحاربوا ، ووصلت بعيدا حتى فنلندا وأيسلندا ، وربما وصلت جرينلاند وساحل أمريكا

(١٧) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 461-2; *Annales de Terre Sainte*, p. 455; Maqrisi, *Solhass*, i, ii, p. 102; al-Azri, p. 247. See Delaville le Roulx, *Hagiographies en Terre Sainte*, p. 225.

(١٨) *Genes des Chiprois*, p. 201; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 462; *Saada*, p. 225. ذكر *Philly of Lucan* بعد مرور قرن من الزمان ، وأول مرة ، أسطورة أن زوجة إدوارد ، *Powicko*, op. cit. p. 603. أنقل . من حرجه .

الشمالية<sup>(١٩)</sup> لكن لم تكن هناك استجابة. وفي ذلك الوقت جمع تقارير توضح عدووة الرأي العام؛ وقد أعدت هذه التقارير نهارة، فلم يحس أحدنا المشكلة الأساسية وهي أن فكرة الحملة الصليبية نفسها قد هانت. ذلك أن الثواب الروحاني موهود لم يحارب الوثنيين، الألبيجينيين Albigensians والموهيشترين، فسات الحروب المقدسة مجرد وسيلة للسياسة البابوية العدوانية الضيقة؛ بل إن مناصري البابوية المخلصين لم يجدوا ما يبرر القيام برحلة شاقة إلى الشرق في الوقت الذي تتاح فيه الفرص السهلة للفوز بتكاسب مقدسة في حملات ذات متطلبات أقل في شذتها.

وعلى الرغم من أن التقارير المرسلة إلى البابا توخعت جانب المحرص في انتقادها للسياسة البابوية، إلا أنها كانت صريحة بما فيه الكفاية في تأكيد أخطاء الكنيسة. وهناك أربعة تقارير جذيرة بالنظر: أولاً (عمل المفضائع الكنسية) Collectio de Scandalis Ecclesiae، وربما كان كاتب التقرير هو جيلبرت (أوف تورناي) وهو أحد الرهبان الفرنسيسكان الذي يذكر ما لحق بالحملات الصليبية من ضرر بسبب مشاجرات الملوك والنبلاء، ركز على فساد رجال الدين وإساءة استخدام منح الغفران الذي تمنحه الكنيسة. وبينما كان كبار رجال الدين ينفقون أموالهم على اقتناء الجياد الأصيلة والقرود للسانسة، كان عملاؤهم يجمعون الأموال في مقابل الإعفاء من التعهد بأخذ الصليب. ولم يسهم أحد من رجال الدين في دفع الضرائب المفروضة من أجل الحملات الصليبية، رغم أن القديس لويس سبق أن أثار غضبهم برفض استثنائهم. هذا في الوقت الذي فرضت فيه الضرائب على عوام الناس المرة تلو الأخرى من أجل حملات صليبية لم تحدث أبداً<sup>(٢٠)</sup>.

أما التقرير الذي أرسله برونو أسقف لويلوتز فقد اتخذ مساراً مختلفاً؛ إذ تحدث برونو كسابقه عن فضائح الكنيسة، لكنه كان سياسياً. وقال إنه ينبغي أن يكون هناك سلام وإصلاح شامل في أوروبا، وهذا لا يتحقق إلا عن طريق امراطور قوي، وجاء في تقريره ضمناً أن سيده الملك أوتو كار ملك بوهيميا هو المرشح المثالي لهذا المنصب. وأكد أن الحملات الصليبية في الشرق لا معنى لها الآن وقد فلت أوائها، وتعين توجيه الحملات الصليبية لمحاربة الملحددين على الحدود الشرقية لأوروبا. وكان فرسان التيوتون

(١٩) A. Riant, *Les Scandinaves en Terre Sainte*, pp. 361-4.

(٢٠) قام Strick بنشر وتحرير the Collectio في تاريخ معطولات الفرنسيسكان *Archivum Franciscanum Historicum*, vol. xciv. See Theop., op. cit. pp. 69-104.

يسلّون التصرف لما هم عليه من حبس وشهوة إلى السلطة ، أما إذا كانت موجهة  
توجيها سليما عن طريق عامل مناسب ، فهي خليفة بأن تسمى بحسب مادية وديانة  
كذلك<sup>(٥١)</sup>.

وقدّم وليم الطرابلسي ، وهو راهب دومينيكي يعيش في عكا ، تقريرا بناءً عليها،  
تضاربت فيه آماله في حرب مقدسة في الشرق تُدار من أوروبا ، غير أنه كان متأثرا  
بنوعات تقول إن نهاية الإسلام قد اقتربت بل في متناول اليد ، وكان اعتقاده أن المغول  
سيكونون هم مخلصو الإسلام ؛ وقد حان وقت النشاط التبشيري ، وهو كعضو في  
نظام تبشيري فإنه يؤمن بقوة اللواعظ ، وهو مفتتح بإمكان المغول بالشرق عن طريق  
العتات التبشيرية وليس السيف . وكان يؤده في رأيه هذا مفكر عظيم للغاية ، وهو  
روجر بيكون<sup>(٥٢)</sup>.

أما أكثر التقارير اكتمالا فقد كتبها راهب دومينيكي آخر ، هومبرت أوف  
رومانز ، وهو الرئيس العام السابق للنظام . وقد كتب تقريره (العمل الثلاثي) *Opus*  
*Tripartitum* لهذا لإتقاد مجلس عام لمناقشة الحملة الصليبية ، وانفصال الكنيسة  
اليونانية ، وإصلاح الكنيسة . وهو لا يعتقد في إمكانية تحويل المسلمين إلى المسيحية ،  
رغم الوعد الإلهي بتحويل اليهود وإمكان تحويل ملحدى أوروبا الشرقية . وإرتأى أن  
ذهاب حملة صليبية أخرى إلى الشرق أمر أساسي ؛ وأورد شروط الكسل والبخل والخبث  
التي تُثبّت همم الرجال عن الإنجاز شرقا . وتأشّى لب الوطن الذي يمنعهم من الرحيل  
إلى الشرق والتأثر الأتوني الذي يحاول ربطهم بمحسى الوطن . والأسوأ من كل ذلك  
أن لا أحد يات يؤمن الآن في المزايا الروحية الموعودة لمن يصبح صليبا ، اللهم سوى  
القليل . وبقينا فإن هذا الإنكار الذي يورده هومبرت وهو حزين كان متشيرا انتشارا  
واسعا ؛ وظهرت قصائد شعبية عديدة تركز على ذلك ، وكان هناك الكثير من  
المشدين الذين أعلنوا صراحة أن الرب لم يعد في حاجة إلى الحملات الصليبية .  
واعتفت مقروحات هومبرت في مناهضة تلك الظاهرة وبعت روح حماسية جديدة ؛  
فلا جدوى في مواصلة الإدعاء - كما يؤمن القديس لويس - بأن المزاكم والإهانات

(٥١) نشر Hoffer مذكرات برون في *Proceeding of the Bavarian Academy of Science*, 1846, pp. 105-14.  
وتنظر Throop, op. cit. pp. 105-14.

(٥٢) See Williams of Tripoli, *De Statu Saracorum*, *passim*; also Roger Bacon, *Opus*  
Magnum, III, pp. 120-2.  
بها في المصانف التبشيرية.

تعتبر شيئا طيبا للروح ؛ وإن محاولة إقناع الرجال بأن الحملة الصليبية هي أفضل وسيلة للتوبة من آثامهم أسست محاولة متأخرة للغاية . وأما إصلاح رجال الدين ، الذي أهداه هومبرت بشدة ، فربما كانت فيه بعض الفائدة . على أن نصيحة هومبرت ، كحكمة عملية لاستمالة عواطف العوام ، كانت ضئيلة القيمة ، ومن ثم جاءت توصياته بالإعداد لحملة صليبية كانت سابقة لأوانها ، وهي توصيات تشمل ضرورة وجود برنامج للصلوات والصوم وإقامة الطقوس ؛ وضرورة دراسة الشارخ ؛ وتعيين وجود هيئة من المستشارين المدنيين والمترجمين ؛ وينبغي أن يكون هناك جيشا مرابطا من الصليبيين . أما عن التمويل ، فقد أُلغى هومبرت إلى أن الوسائل البابوية بخاية الأموال لم تكن دائما تغطي بالتعبئة ، وأُعرب عن اعتقاده أنه في حالة قيام الكنيسة ببيع جزء من كنوزها الشخصية ووسائل تربيتها المزمعة فلسوف تتحقق نتائج سيكولوجية طيبة فغسلا عن النتائج المادية . غير أنه ينبغي للأمرء وكلشك القاتنين على الكنيسة القيام بدورهم<sup>(٢٦)</sup>.

#### ١٢٧٤ م : مجمع ليون

بعد أن تسَلَّح البابا جريجوري العاشر بكل هذه النصائح ، التي لم تظلمته كثيرا ، أعلن عن عقد مجمع يعقد في ليون ، وافتتحت دوراته في شهر مايو ١٢٧٤ م . وكثير المظاضرون من الشرق بقروهم بول (لوف سيني) أسقف طرابلس ، كما حضر ولهم (لوف بيخو) المنتخب حديثا سيدا أعظم لنظام فرسان المجد . غير أن ملوك العالم المسيحي تعاملوا الدعوات الملحة المرسله اليهم ؛ إذ اعتذر فيليب الثالث ملك فرنسا عن الحضور ، وحتى إدوارد الأول الذي كان البابا جريجوري يعتمد عليه بصورة حاسمة احتج بشواغل في الوطن ؛ ولم يظهر سوى جيمس الأول ملك أراغون ، وهو عضو ثرثار ، لم يحفل شيئا في محاولته الأولى مع حملة صليبية شرقية ، لكنه كان صديق التلطف على وسيلة مدوية للإطلاق في مغامرة أخرى ، لكنه سرعان ما أصابه الضجر من المناقشات وسارع عائدا إلى أحضان عشيقته اللادي برينجاريا . ووعدت وفود من الإمبراطور البيزنطي ميخائيل بالعمل على إيعضاع كنيسة المسيحية ؛ إذ كان ميخائيل مرغوبا من طموحات تشارلز (لوف آخو) ، بد أنه كان وعدا لا سبيل

(٢٦) فيما تصل بحسابة الضرائب الواردة في *Opes Tripartite* لفر. p.147. Throop, op. cit. p.147. and Throop مالمما مكثلا حنا للمحويات. ibid. pp. 147-213.

لتحقيقه ، فليس لرعايا الامبراطور ضلع فيه . وكان النجاح الوحيد للمجمع هو اتحاد الكنائس الذي ولد ميتا . ولم يتحقق شيء له جدواه من إصلاح الكنيسة <sup>(٥١)</sup> وبينما كان الجميع على استعداد للحديث عن الحملة الصليبية ، لم يتقدم أحد بعروض ذات فائدة بصورة خاصة تعتبر ضرورية لإطلاق تلك الحملة الصليبية.

ومع ذلك ، تشبث جريجوري وسعى إلى جعل حل حكاهم أوروبا يتخذون القرارات المصطنعة بالورع التي أصدرها المجمع . وفي ١٢٧٥م أخذ فيليب الثالث الصليب ؛ وفي وقت لاحق من تلك السنة حذوه رودولف الهابسبورغي <sup>(٥٢)</sup> ، لقاء وعدد بتوجيه معرفة البابا في روما . وفي ذات الوقت حاول جريجوري تهينة الأراضي المقدسة لشيء الحملة الصليبية ؛ فأمر بتوسيع القلاع وإرسال المزيد والأفضل من المرتزقة . ومن ثمرة الشخصية في الشرق بدأ أنه انتهى إلى أن حكومة الملك هي لا أمل برغى منها؛ ولذلك كان متعلقا مع مطالب ماريا الأنطاكية وشجعها على بيع مطالبها لتشراف (أوف آتور) الذي أراد أن يهتم بالشرق الغربي بصورة أكثر فعالية ، ليس فقط من أجل دفاعه هذا الشرق الغربي وإنما أيضا ليحول انتباهه عن طموحاته في بيزنطية <sup>(٥٣)</sup> . بيد أن خطط البابا جريجوري كلها قد نابت بالفشل . وعندما مات في ١٠ يناير ١٢٧٦م لم تكن هناك حملة صليبية في طريقها إلى الشرق ، ولا أحد يرغب في الرحيل.

أما الملك هو في قبرص فكانت له رؤية أخرى أكثر واقعية ؛ فلا هو ينتظر حملة صليبية ولا يرغب فيها، وإنما يريد همد الحفاظ على المقدسة مع قبرص ، ومع ذلك لم تفعل المقدسة سوى القليل لتحسين وضعه . وفي سنة ١٢٧٣م فقد السيطرة على إقطاعيته الرئيسية بيروت ؛ فبرقة جون الثاني الإيليني انتقلت لوردية بيروت إلى ابنته الكبرى إيزابيلا ، ملكة قبرص الأرملة التي تركت أرملة عشرين في ١٢٦٧م ، ولكن عشرينها لم تدم طويلا ؛ ذلك أن اختفائها إلى العفة وخاصة علاقتها ببوليان أمير صيدا بصورة خاصة تسببا في إصدار مرسوم بامري حثها بشدة على الزواج مرة أخرى ، وفي ١٢٧٢م وهبت نفسها ولورديتها الإنجليزي - هانو الأجنبي - وكان أحد وفاق الأمير إدوارد فيما يبدو . وكان يرثاب في الملك هو فعندما حضرته الوفاة في العام التالي وضع زوجته وإقطاعيتها تحت حماية قبرص ، وعندما حاول هيو القصور بالأرملة

(٥١) (الترجم) رودولف الهابسبورغي Rodolph of Habsburg ، أسرة هابسبورج أسرة حاكمة حكمت النمسا ثم النمسا-وهنغاريا (١٢٧٨-١٩١٨) ، وأستيا (١٥١٦-١٧٠٠) ، والإمبراطورية الرومانية المقدسة (١٨٠٦-١٩١٨).

(٥٢) See Hefele-Leclercq, op. cit. VI, i, pp. 67-8, 153 ff.; Throop, op. cit. pp. 262-82.



وإعادتها إلى قوص لزوجها لأحد الرشحين ممن اختارهم ، استشهد السلطان على القور بالعهد الذي أوصى به هامو وطالب عودتها ، ولم يجد الملك أية مساعدة من المحكمة العليا ، وانظر إلى إعادة إزيابلا إلى بيروت حيث عُين حارس عكرسي حمايتها<sup>(٢٦)</sup> ولم يتمكن هو من استئناف سيطرته على القنطرة ببيروت إلا بعد وفاة بيوس بوقت طويل . وتزوجت إزيابلا من زوجين آخرين قبل وفاتها في سنة ١٢٨٢م تقريباً عندما انتهت بيروت إلى أختها إيشيفاء، زوجة همفري (أوف موتفورت) الذي كان صديقاً وياً للملك<sup>(٢٧)</sup>.

#### ١٢٧٥م : الوصاية في طرابلس

كانت انتكاسة هيو الثانية في طرابلس . فقد مات برهمند السادس - أخير أسراء أنطاكية - في ١٢٧٥م تاركاً ابنه برهمند عن حوالى أربعة عشر عاماً وابنته الأصغر لوسيا . وطالب الملك هيو بالوصاية على طرابلس باعتباره الوريث الذكر التالي لبيت أنطاكية ؛ غير أن الأميرة المسنة سيبلا الأرمنية باشرت لتصب على القور إذ أن تقاليد العائلة تقول لها ذلك ، وعندما وصل الملك هيو إلى طرابلس لتحقيق مطالبته وجد أن برهمند السابع الصغير قد أرسل إلى بلاط خاله الملك ليو الثالث الأرمني ، ووجد أسقف طرطوس ، بارتولوميو ، يباشر إدارة المدينة باسم سيبلا ، ويبدو أن بارتولوميو هذا ينتمي إلى عائلة مانسل الأنطاكية العظيمة ، ولم يساعد أحد في طرابلس الملك هيو إذ أن بارتولوميو كان يهوى بشعبية كبيرة آنذاك ، وكان عدواً لثيودا لأسقف طرابلس بول (أوف سيني) وهو عمال برهمند السادس ، وعقدوا كذلك لجميع الرومان الذين عيّنهم في الكونتية بالإشتراك مع لوسين . وبشأيد من النبلاء المحليين قامت سيبلا وبارتولوميو بقتل بعض الرومان ونفى البعض الآخر . ولسوء الحظ كان أسقف طرابلس ، بول ، يهوى بأبيد نظام فرسان النجد وقد قابل السيد الأعظم للنظام في

(٢٦) *Essai de l'Érécite*, ii, p. 462, Ibn al-Furat, in Reinard, *Chroniques Arabes*, p. 532. ويظهر بواك ١.1 p.6006 أن باسم زوج إزيابلا كان همسو وليس إسوفند . ويقل هيل ١.2 p. 137 Hill, op. cit. أن علاقتهما كانت بحسن سوء بها . غير أن ذلك يترصو باتفاق تاريخ الأحداث ؛ فقد مات جون كبير لها سنة ١٢٦٦م . وعصلا عن ذلك ، كان جون ينتسج بأحرام كبير ، بينما كان الشهير عن جوليان أن حياته كانت سيئة المصلا . وكانت زوجة جون هي أخت الملك هيو الذي مات في ١٢٦٩م ، بينما كانت زوجة جوليان هي أخت حليفه هيو . والأرجح كثيراً أن للرسم بيانوي أخطأ حول الأميرة

(٢٧) *Lignages*, p. 462, Daouze-Rey, *Familles d'Outremer*, pp. 235-6.

مجمع ليون. وعندما حثاه برهمند السابع من أرمينيا سنة ١٢٧٧م لإستلام الحكم وأجهته عداوة النظام التي لا هوانة فيها<sup>(٥٨)</sup>.

و فقط في اللاذقية الأبعد إلى الشمال فاز هيو بنصر ضليل - إذ كانت اللاذقية هي كل ما تبقى من إمارة أنطاكية ، واعتبر بيرس أنها لا تخرج تحت أي من معاهدته مع طرابلس أو عكا ، وكانت جيوشه تحيط بها عندما استنجد مواطنوها مباشرة بالملك هيو الذي استطاع التفاوض على هدنة مع السلطان الذي سحب بدوره جنوده نظير إثارة سنوية قدرها عشرين ألف دينار وإطلاق عشرين أسيرا من المسلمين<sup>(٥٩)</sup>.

ولم يمض وقت طويل حتى امتدت مشكلات هيو إلى عكا نفسها . فقد كان كوميون عكا مستاءً من حكمه المباشر ، بينما أجمعت العداوة لتزايد ضده من جانب نظام المعبد الذي شعر بالإحتجاج من مصالحته مع آل مونتفورت ، وعارض توليه العرش؛ أما نظام المستشفى ، الذي لا بد وأنه كان يعتمد على حسن نواياه ، فقد تضاعلت أهميته بعد خياع مقره الرئيسي في الكرك؛ وكانت القلعة العظيمة الوحيدة الباقية لفرسان المستشفى هي قلعة المرقب التي تشرف من قمة تلها العالي على بولونياي. وقد سبق أن كتب السيد الأعظم لنظام المستشفى ، هيو (أوف ريفيل) في ١٢٦٨م قائلا إن النظام يحتفظ الآن بثلاثة فارس وحسب في الشرق الغربي بعد أن كانوا عشرة آلاف في الأيام الخوالي ، غير أن النظام كان لا يزال يملك مقره الرئيسي في طرطوس وكذلك في صيدا وقلعة عثليت العظيمة ، بينما زاد من قوته علاقته المصيرية مع العالم الشرقي كله<sup>(٦٠)</sup>. وكان توماس بيرار ، السيد الأعظم للنظام من سنة ١٢٥٦ إلى ١٢٧٣م، مخلصاً في أيامه الأولى للأوصياء القبارصة ، ورغم أن كراهيته للملك هيو كانت أمثلة في التزايد إلا أنه لم يتحدها صراحة قط ؛ لكن حليفته وليس (أوف بروجو) كان من معبد آخر ؛ إذ كان من أقرباء البيت الملكي الفرنسي ، وكان عزيز النفس طموحا نشيطاً . وعندما انتخب كان في أبوليا في أراضي ابن عمه تشارلز (أوف أنجو) وجاء إلى الشرق بعد ذلك بستين وقد عقد العزم على دفع مشاريع

(٥٨) *Envois d'Eracles*, in, pp. 466-7, 481; *Genes des Chinois*, p. 202.

(٥٩) Maspin, *Silves*, 1, ii, p. 125, *Mahé ad-Din* in Michaud, *Bibliographie des Croisades*, ii, p. 685.

(٦٠) (الترجمة) العالم الشرقي: Levant؛ لفظ مشتق من الكلمة اللاتينية *levare* تعني يرفع أو يشارك. وتسمية تنطلق على منطقة شرق البحر المتوسط بما في ذلك جميع البلاد المطلة على البحر وهي اليونان وتركيا والشام ومصر.

تشارلز ولنا عارض الملك هيو من البداية.

#### ١٢٧٦م : الملك هيو يتقاعد في قبرص

وفي أكتوبر ١٢٧٦م اشترى نظام المريد قرية تسمى لافوكوناري - تقع على بعد أميال قليلة جنوب عكا - من مالكيها توماس (أوف سانت برنين) ، وتعهد ألا يطلب موافقة الملك على الصفقة ، وتجاهل شكواه . ومع هذه الضائقات من الأنظمة الدينية العسكرية ، ومن كوميون عكا ، ومن للمستعمرات التجارية ، عقد هيو العزم على مغادرة تلك المملكة المأحذة . وفجأة جمع مقتنياته وانسحب إلى صور متوردا الإبحار منها إلى قبرص ، وغادر عكا دون أن يعين وكيلًا . واجهج فرسان المريد وكذلك البادقة حلقاهم الموثوقين ؛ بيد أن المطريق توماس (أوف ليتينسو) وفرسان المستشفى وفرسان التيونون وكذلك الكميون وأبناء جنوا أصيبوا بصدمة وأرسلوا الوفود إلى صور يتوسلون إليه على الأقل أن يعين نائبًا ؛ لكنه كان من الغضب لول الأمر بحيث لم يستمع إليهم ؛ ورعا أفعته حجاج جون (أوف مونتفورت) فعين باليان الإبليني - ابن جون أمير لوصوف - وكيلًا كما عين قنصله لحاكم المملكة . وبعد ذلك مباشرة أبحر إلى قبرص لئلا دون أن يخطر أحدا . ومن قبرص كتب إلى البابا ليبر نصرة<sup>(١١)</sup>.

وكانت مهمة باليان عسوة . إذ كانت هناك أعمال شغب في شوارع صور بين تجار مسلمين من بيت لحم تحت حماية فرسان المريد وتجار نساطرة من الموصل كان رؤسائهم فرسان المستشفى . واشتعلت العداوات مرة أخرى بين البادقة والمجوسين ؛ ولم يستقم أمر أي حكومة إلا بمساعدة المطريق وفرسان المستشفى<sup>(١٢)</sup>.

وفي سنة ١٢٧٧م استكملت ماريا الأنطاكية بيع حقوقها لتشارلز (أوف آنجو) الذي اتخذ على الفور لقب ملك القدس . وأرسل روجر (أوف سان سيفيرينو) كونت مارسيكو مع قوة مسلحة إلى عكا ليصبح وكيلًا له ، وبفضل مساعدة نظام المريد والبادقة ، تمكن روجر من لفيوط إلى البر في عكا حيث قدم أوراق اعتماده للوقفة من تشارلز ومن ماريا ومن البابا جون الحادي والعشرين . وأخرج باليان الإبليني حرجًا

(١١) *Estoire d'Eracles*, II, pp. 474-5; *Genes des Chiprois*, p. 206 (peut-être le début de l'épisode). See Delaville le Roulx, op. cit. pp. 210-29.

(١٢) *Estoire d'Eracles*, loc. cit.; *Genes des Chiprois*, loc. cit.

شديداً ؛ فليس لديه تعليمات من الملك هيو ، وكان يعلم أن فرسان المعبد والبادقة على استعداد لحمل السلاح نيابة عن روجر ، بينما لم يكن هناك وعد من البطريرق ولا من فرسان المستشفى بالتدخل ؛ ولكي يتجنب إهانة السماء سلم القلعة للألمانيين<sup>(٦٣)</sup>. ووقع روجر علم تشارلز وأعلن أنه ملك القدس وصقلية ثم أمر بارونات المملكة أن يقدّموا الولاء له هو نفسه باعتباره وكيل الملك . وتزدد البارونات برازخ من جهم هيو أقل من كراهيتهم لقبول انتقال التاج بلا قرار من المحكمة العليا . ولكي يحافظوا على بعض الشرعية أرسلوا الوفود إلى فرانسيسكو ما إذا كان هيو يبروهم من الولاء له ؛ ورفض هيو أن يرسل ردا . وأخيرا هدد روجر الذي كان يسهه الأمر والنهي بمصادرة ضياع الذين يرفضون تقديم ولائهم له ، لكنه أتاح فرصة أخرى للرجوع إلى هيو ، وكانت عقوبة بنفس القدر ؛ ولذا خضع البارونات لروجر ، وسرعان ما اعترف به يوهان السابع وكيلا قانونيا. وعيّن روجر بعض الفرنسيين من سلاط تشارلز كمسؤولين رئيسيين أمامه ؛ فأصبح لويس بوالشيان قهرمانا، وريتشارد (أوف نيوبلاتز) كونستابل، وجيمس فيدال رئيسا عسكريا<sup>(٦٤)</sup>.

وجاءت هذه الوثبات على هوى بيرس؛ فبماكانه أن يثق في أن يمثل تشارلز لن يستتحت حملة عسكرية جديدة ولن يتأمر مع القول ، وبهذا الشعور بالأمان كان على استعداد للسماح للشرق الفرنسي بالبقاء لسنوات أخرى قليلة ، وفي الوقت نفسه يستطيع المبادرة بالهجوم على الخان . وكان أبابا مدركا للخطر ، ولذا كان توافقا لإقامة تحالف مع الغرب . وفي ١٢٧٣م أرسل خطابا إلى عكا موجه إلى إدوارد ملك إنجلترا ، يسأل متى تمسك حملته الصليبية التالية . وقام بنقل الرسالة إلى أوروبا دايفد وهو دومينيكي كان راهبا للبطريق توماس (أوف ليتشيس). وأرسل إدوارد ردا ودودا اعتذر فيه قائلا إنه لا هو ولا البابا قد قرر متى يمكن أن تذهب حملة أخرى إلى الشرق . وفي العام التالي ظهر معززون مغول في جميع اليون ، وقام كردبيل أوستيا - الذي صار لاحقا البابا إينوسنت الخامس - بتعميد اثنين منهم . وكانت السردود التي تلقاها من البابا وإدارته مرة أخرى ودودة ولكنها غامضة . وفي خريف ١٢٧٦م عبّاد الخان

(٦٣) (الترجمة) الألمانين : Angevins نسبة إلى آخر Anjou التي بنى إلى ملوك الخط الإنجليزي من عائلة بلاتاجين (١١٥١-١٢٩٩).

(٦٤) *Estoire d'Eracle*, pp. 478-9; *Genes des Cheroix*, pp. 206-7; *Amal*, p. 214; *Sansdo*, pp. 227-8; *John of Ypres in Martine and Dumas, Thesaurus Novus* *Anecdotorum*, vol. iii, col. 755.

الغزاة مرة أخرى ؛ فقد هبط إلى البحر في إيطاليا الثاني من المورجيين ، هما الأخوان جون وجيمس فاسيلي ، لزيارة البابا ومعهما أوامر بالذهاب إلى بلاطى فرنسا والمجلا ، وكانا يحملان رسالة شخصية من أباغا إلى إدوارد الأول ، اعتذر فيها عن أن مساعدته في سنة ١٢٧١م لم تكن فعالة على نحو أكثر . ولم يسفر أى من هذه الأنشطة الدبلوماسية عن أية نتيجة . وكان الملك إدوارد يأمل مخلصاً في الذهاب في حملة صليبية أخرى ، بيد أنه لم يكن هو ولا فيليب الثالث ملك فرنسا مستعد لذلك بعد . وكانت الإدارة البابوية تحت النفوذ الشرير لتشارلز (أوف أنمو) الذي كان يكره المرسوم باعتباره أمسقاء أعدائه البيزنطيين والمجريين ، والذي كان يقيم سياسته كلها على أساس التفاوض مع بيرس . وكان الباباوات يرادهم أمل متفائل في الترحيب بالفرع في حفلة الكنيسة ، لكنهم لم يحتفلوا من أن الوعد بالثوبة في السماء لم يكن بقرءاً كتابيا للبحان . بل حتى الدعايات التي أطلقتها ليو الثالث الأرميني ، الذي كان في الوقت نفسه تابعاً مخلصاً للبحان وعلى اتصال وثيق بروما ، لم تسفر عن أية نتيجة عملية من البابوية<sup>(٦٥)</sup>.

#### ١٢٧٧م : بيرس يغزو الأناضول

تمكن بيرس من تنفيذ مخططاته دون تهديد من الغرب بالتدخل . ففي ربيع ١٢٧٥م قاد بنفسه غارة داخل كليكيا حرب فيها مدن السهل ، بيد أنه لم يتمكن من التوغل إلى العاصمة سيس . وبعد سنتين قرر غزو الأناضول . وكان السلطان السلجوقي الآن طقلاً هو فيحوسرو الثالث ، وكان وزيره سليمان حامل الأختام بمثابة القوة الرئيسية في البلاد، غير أنه كان عاجزاً عن السيطرة على الإمارات المحلية التي كانت أخذت في الظهور ، وأهمها إمارة الكارامانيين ؛ وكان للبحان أهمية واسعة في السلطة ، يفرض وجودها حامية مغولية كبيرة . وفي ١٨ إبريل ١٢٧٧م احتلت المساليك شتلة هذه الحامية في البستان ؛ وبعد خمسة أيام دخل بيرس فيضربة مائراكا ، فسارع وزير السلطان - سليمان - والأمير الكاراماني إلى تهينة للتصبر ؛ غير أن أباغا استشاط غضباً وقاد بنفسه جيشاً مغولياً في استعراضات شاقة إلى داخل الأناضول . ولم يتحضر بيرس وصوله ، وإنما تقهقر إلى سوريا ، واستعاد أباغا بسرعة السيطرة على السلطة

(٦٥) William of Nangis, pp. 540, 564; D'Ohsson, op. cit. iii, pp. 543-9; Powicks, op. cit. p. 602 n.1; iii, pp. 280-1 op. cit. Howarth.

السلجوقية . وألقى القبض على سليمان الخائن وقتله ، وقالت الشائعات إن لحمه قُدم مطهيًا في أطباق على مائدة الخان الرسمية التالية<sup>(٦٦)</sup>.

#### ولادة بيبرس

و لم يمت بيبرس طويلًا بعد مغامرته في الأناضول. وهناك قصص كثيرة رويت حول وفاته ؛ فاستنادًا إلى بعض المؤرخين مات متأثرًا بجراحاته التي أصيب بها في حملته الأخيرة ؛ واستنادًا إلى البعض الآخر لفرط في شراب الفخّر ، وهو لبن الفرسه المخمر الذي يجه الأتراك والمغول . غير أن الشائعة السائدة هي أنه أهدم القنّص السمووم للأمر الأيوبي صاحب الكرك ، القاهرة ابن الناصر داود الذي كان مع جيشه واقدى أسماء أبيه، ثم شرب بالعسل من نفس الكأس قبل تنظيفه . ومات يوم أول يولية ١٢٧٧م<sup>(٦٧)</sup>.

ولقد أزعج موته أعداء المسيحية منذ صلاح الدين . فعندما أصبح بيبرس سلطانًا كانت الأراضي القبرانية تمتد بطول الساحل من غزة إلى كيليكية، مع وجود قلاع ضخمة في داخل البلاد لحمايتها من الشرق . وعلى مدى حكمه الذي استمر سبع عشرة سنة حصر الفرنج في مدن قليلة بطول الساحل ، عكا وصور وصيدا وطرابلس وجبل وطبرطوس ، مع مدينة اللاذقية المعزولة ، وقلعت عثليت ومرقب . ولم يطل به العمر ليشهد إزالتها بإزالة كاملة ، بيد أنه جعل إزالتها أمرا حتميا. وكانت شخصيته تتميز بقليل من الفضائل التي اكتسبت صلاح الدين الإحزام حتى من أعدائه . لقد كان قاسيا، غير عنفي، حذونا ، بأخلاقه غلظة ، وفي كلامه عشوائية . ولم يكن يوسع رعاياه أن يعبوه ، لكنهم منحوه أمحبوا به بحق، إذ أنه كان حديدا حاد الذكاء. وسياسيا ماهرا، وإداريا حكيما، سريعا في اتخاذ قراراته وكنماتها ، وكانت أهدافه واضحة له تماما . ورغم أنه كان مسوقا في الأصل فقد رعا الفنون وتوسع في البناء، فعمل الكثير لتحصيل مدته وإعادة عمارة قلاعه . وكرجل كان شريفا ، لكنه كحاكم كان من بين أعظم حكام زمانه.

(٦٦) Abul Fida, p. 165; Magrini, Salwans, i, ii, pp.144-5; Bar-Hebraeus, pp. 456-9; D'Ottavio, op. cit. pp. 486-9. See Horwerth, op. cit. iii, pp. 252-6.

(٦٧) Magrini, Salwans, i, ii, p.150; Abul Fida, pp. 165-6; *Gesta der Cypriotes*, pp. 208-9; Hayton, *Fleur des Etoiles*, p. 193; Bar-Hebraeus, p. 458.

---

## الباب الرابع:

### نماية الشرق الفرنجى





---

## الفصل الأول:

### تجارة الشرق الفرنجى

---

## تجارة الشرق الفرنجي

"بِكْرَة تجارِكم ملاقوا جوفك علّما فأخطأَتْ"  
(حزقيال ١٦: ٢٨)

على مدى تاريخ الشرق الفرنسي ، كانت القضية المباشرة فيها بين المسيحية والإسلام يتورها شيئ من الغموض أو العسج. ذلك أن المستعمرات الفرنسية كانت واقعة في منطقة تشتهر بالغنى ، وبأنها بقيت تسيطر على بعض أعظم الطرق التجارية في العالم. وكانت طموحات المستعمرين وحلفائهم المالية والتجارية تتعارض أحيانا مع الانتماء الديني، وكانت هناك مناسبات تطلبت فيها احتياجاتهم الإنسانية الأساسية مصادقة حوزاتهم المسلمين.

ولم تكن هناك قوة تجارية دافعة وراء إطلاق الحملة الصليبية الأولى . أما المدن البحرية الإيطالية ، التي كان تجارتها تعيش حامي الأوسال في عصرهم ، فقد استشعرت الخطر بادئ الأمر نتيجة لتلك الحركة التي كان يمكن أن تقضي على العلاقات التجارية التي أقيمت مع مسلمي الشرق ؛ وحينما نجحت الحملة الصليبية

وأنشئت المستوطنات القروية في سوريا ، عرض الإباطليون مساعدتهم وقد تحققوا من إمكان استخدام المستعمرات الجديدة لصالحهم . وكان الحجاز التجاري الذي دفع الصليبيين ، يمثل في شدة الرغبة في الأرض فيما بين النبلاء الأقل في فرنسا والبلاد الواقعة ، وشوق الدلاحين هناك إلى الفرار من بيوتهم الوحشة القروية ، ومن العيشات والمخيمات التي حدثت في السنوات الأخيرة ، والمخيرة إلى الأراضي ذات الثراء الأسطوري . وقد وجد كثيرون من البسطاء غموطاً شديداً في التمييز بين هذه الحياة التي يعيشونها والحياة الأخرى ؛ واحتلوا بين أورشليم الدنيوية وورشليم للكنوت<sup>(١)</sup> ونوغموا أن يجدوا مدينة مرصوفة بالذهب تفيض لبناً وعسلاً . ولقد خدعهم أساطيرهم ولم يفيقوا من الوهم إلا شيئاً فشيئاً ؛ إذ أن حصاراً مدن الشرق ومستوى معيشتها الأعلى ، أثبتت مظهر الثراء الزور ، وهذا ما كان الحجاج العائدون يقصونه على أصدقائهم . على أنه مرور الوقت تناقص بريق تلك الأقاصيص . وبعد الحملة الصليبية الثانية لم تعد جماعات غفيرة من فلاحى المغرب تذهب باسحة عن بيروت الجديدة في الأراضي المقدسة . وغلب النبلاء الفاسدون يذهبون إلى الشرق لاكتساب الثروات ، ومن بين الصعوبات التي عرقلت تنظيم الحملات الصليبية المتأخرة غيبة الحافز الاقتصادي<sup>(٢)</sup>.

ولم تكن الأقاليم القروية في الشرق القريب غنية بطبيعتها وفي حقيقة الأمر . وقد كانت هناك مناطق خصبة ، مثل سهل بزرعيل (إزدراليون) وسهل شارون وسهل أريحا ، والشرط الساحلى الضيق الواقع بين جبال لبنان والبحر ، ووادي القناع ، وسهل أنطاكية . بيد أنه بالمقارنة بما وراء الأردن وسوران والقناع ، كانت فلسطين بلداً حديثاً غير ذي زرع . وكانت أهمية الأردن للقرنح تكمن فيما تزرعه من حبوب بنفس قدر سيطرتها على الطريق اللذهب من دمشق إلى مصر<sup>(٣)</sup> . وبدون مساعدة

(١) (الترجم) أورشليم للكنوت ، أو أورشليم الجديدة New Jerusalem ، المذكورة في الإنجيل ، سفر الرؤيا ٢١: ٢ "وأما يوحنا وأبنت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة تبارك من السماء من عند الله مهياً كعروس مزينة لرجلها"

(٢) يعتبر التاريخ الذى كتبه Heyl ، وسمي *Histoire de Commerce du Moyen Age* ، العمل الرئيسى التاريخ الاقتصادى للحملات الصليبية . ولقد توفقت حيداً المسألة برمتها في مقال هام كتبه Cabaret في *Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient Latin, III* منشور في *Bulletin de la Société des Études de Strasbourg* مايو -يونيو ١٩٥١ ، وديور Cabaret أسباب لتقليل أهمية التجارة لتدريبات الصليبية إلى أدنى حد لها

(٣) أنظر أيضاً ، لغراء ، الثاني ، الصفحين ٢٧-٢٨.

الأردن، لم يكن الأمر سهلاً دائماً على مملكة القدس في أن تُطعم نفسها . وفي حالة الحصار السيئ ، كان يتعين استيراد الخبثوب من سوريا المسلمة<sup>(١)</sup> . وفي العُقد بين الأيوبيين للشرق الغربي ، عندما كان الفرنج محصورين في مدن الشريط الساحلي ، كان لزاماً استيراد الخبثوب دائماً.

#### منتجات الشرق الغربي

وكانت إمدادات المواد الغذائية الأخرى كافية . فكانت اللؤلؤ توفر المراسي لأعداد كبيرة من الأغنام والماعز والخنزير . وكانت هناك حدائق للفاكهة والخضروات تحيط بكل المدن ، كما كانت أشجار الزيتون . وربما كان زيت الزيتون في واقع الأمر يَصْنَعُ بكميات قليلة إلى الغرب ، بينما كانت الفواكه الفلسطينية النادرة ، كالليمون الخلو أو شراب الرمان أو الزبيب الأحمر ، تشاهد أحياناً على موائد أثرياء إيطاليا<sup>(٢)</sup> .

ومع ذلك ، كانت هناك منتجات قليلة يستطیع الشرق الغربي تصديرها على نطاق كبير يكفي جلب قسار كبير من التوابل إلى البلد . وأهم تلك المنتجات هو السكر ؛ فعندما وصل الصليبيون إلى سوريا وحدوا أن قصب السكر يزرع في مناطق ساحلية كثيرة وفي وادي الأردن ، فواصلوا زراعته وتعلموا من أبناء البلد طريقة استخلاص السكر من القصب . وكان هناك مصنع سكر ضخم في عكا ، ومصانع في أغلب المدن الساحلية ، وكانت صور هي المركز الرئيسي لتلك الصناعة . وكان السكر المستهلك كله في أوروبا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر يأتي من الشرق الغربي<sup>(٣)</sup> . وتأتي الملابس يشي أنواعها في القرية الثانية من مراتب التصدير الرئيسية ؛ فكانت دودة القز تُربى حول بيروت وطرابلس منذ نهاية القرن السادس ، بينما كان

(١) E.g. in 1185 . الجزء الثاني ، الصفحتين ٤٩٦-٤٩٧ .

(٢) كان رئيس أساقفة صور يملك ٢٠٠٠ شجرة زيتون في قرية واحدة في فلسطين. Cohen, "Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient", p. 299. Latin III, in Bulletin de la Société des lettres de Strasbourg (April, 1951), p. 293. Burchard of Reims, Les Colomes Fleuves, p. 245; Heyd, op. cit. pp. 177-8. Mosat, Siens, الأرض المقدسة وصف الأرض المقدسة. ٣٠٠ - ٣٠٠ يزارت تسمى الله P.P.T.S. p. 16

(٣) Heyd, op. cit. i, p. 179, ii, pp. 680-6; Cohen, op. cit. ii, p. 293; Rey, op. cit. pp. 248-9



## التجارة العابرة

وكان حكام الشرق الغربي يحصلون على أكبر الإيرادات من البضائع التي كانت تمر عبر البلاد؛ فكان هناك طلب متزايد في أوروبا العصور الوسطى على البضائع الشرقية والخطارة والأصباغ والأخشاب المعطرة والخزير والخزف، وكذلك بضائع من البلدان الإسلامية الواقعة على حدود الشرق الغربي. بيد أنه كان لزاماً على هذه التجارة أن تتوقف على الظروف السياسية في آسيا؛ فعندما بدأت الحملات الصليبية كانت أغلب تجارة الشرق الأقصى تأتي بمرأ عبر المحيط الهندي فالبحر الأحمر إلى مصر، وقد جذبت إليها ما كانت عليه المدن المصرية من ثراء وما كان الحكيم الفاطمي يوفيه من أمان، ومما بعدت التجارة عن طريقها السابق أهلى الخليج الفارسي إلى بغداد. وكانت الموانئ السورية تستخدم في تصدير البضائع المحلية دون غيرها كأصباغ البقلة من العراق أو الأدوات المعدنية الدمشقية، وأية خطارة من جنوب الجزيرة العربية تحمل في فواصل بدلا من القوارب. وفي نهاية القرن الحادي عشر، لم تجد التجارة أو الصناعة في داخل سوريا تشجيعاً بسبب الحروب الصغيرة التي أعقبت الغزوات الزكية؛ ولم ترجع سوريا إلى سابق ازدهارها إلا عندما جعل نور الدين، ومن بعده صلاح الدين، من سوريا ومصر وحدة منظمة، فزادت الشحنات المحلية، وأمكن نقل البضائع الآتية من العراق وفارس بأمان إلى حلب أو حمص أو دمشق ومن أيتها إلى البحر، وكان تجار حلب يستخدمون ميناء السويدة، الذي يصلون إليه من خلال أنطاكية، وميناء اللاذقية؛ أما طرطوس وطرابلس فكانتا مينائي حمص وعكا ودمشق<sup>(١٢)</sup>.

وعلى الرغم من أن الإيطاليين ساعدوا الصليبيين في غزو كل ميناء من تلك الموانئ، بقيت مصالحهم التجارية الرئيسية في مصر؛ فكانت القوافل التجارية الصادرة في البندقية خلال القرن الثاني عشر تذكر دائماً الإسكندرية أكثر مما تذكر عكا، وبصورة خاصة بعد طرد البنادقة من القسطنطينية. كما أن سجلات جنوا في الفترة من ١١٥٦ إلى ١١٦٤م تظهر أن عدد العملاء الذين هم مصالح في الإسكندرية يبلغ

(١١) Heyd, op. cit. ii, pp. 577-8.

(١٢) Heyd, op. cit. i, pp. 168-77.



طبعاً عدد من لهم مصالح في الشرق الغربي تقريباً . والجدير بالملاحظة كذلك في النصف الأول من القرن الثاني عشر أن أغلب المسافرين من أوروبا إلى فلسطين يذهبون أولاً في سفن بندقية أو جنوبية إلى القسطنطينية ومنها براً ، أو في سفن ساحلية يونانية إلى سوريا ؛ أو أنهم يبحرون مباشرة من جنوب إيطاليا في سفن مملكة صقلية ، ولذا يبدو أنه لم تكن هناك سفن كثيرة تبحر في رحلات منتظمة من الموانئ التجارية الإيطالية إلى سوريا حتى السنوات الأخيرة من القرن<sup>(١٣)</sup> . وحتى ذلك الوقت لم يكن حجم البضائع التي تمر خلال الموانئ السورية كبيراً ؛ ولأن الرسوم الجمركية على هذه البضائع العابرة كانت مجرد عشرة في المائة من قيمتها تقريباً ، فمن اليسير أن نفهم علّة عدم امتلاء عزارة الشرق الغربي في أغلب الأحوال، وعلّة إغراء الملوك بالإغارة دائماً في الوقت الذي كان حروباً بهم لدواعي الشرف والديبلوماسية الخفايا على السلام<sup>(١٤)</sup> .

ومن اليسير كذلك أن نفهم علّة تردد المدن البحرية الإيطالية في مساعدة الحملات الصليبية . ذلك أن الواجب المسيحي على عليهم تقديم العون إلى الفرنج ضد المسلمين يد أن الأزدحام الكامل لتلك المدن كان يتوقف على احتفاظها بعلاقات طيبة مع المسلمين ، وكلمة أسهمت بالمساعدة في مغامرة مسيحية ، كانت تحازف بحساسة حقوقها التجارية مع الإسكندرية . ومع ذلك، وفي غيبة تعاونها لم يكن الصليبيون قادرين البتة على غزو المدن الساحلية ؛ وتظهر حقيقة تعاونها أن مشكلتها لم تكن بالمشكلة الفنية على كل حال . فقد أرسل المغنوبون مساعدتهم بينما كانت الحملة الصليبية الأولى ما تزال في أنطاكية ؛ وأمر أسطول من بيزا قبل أن تنصل إلى الغرب أثناء الاستيلاء على القدس ؛ وكان سلوكها اللاحق الذي اتصف بالبرود تجاه مملكة القدس يُعزى إلى شجار بلبون الأول مع دياميرت ، الذي كان رئيس أساقفتها ، أكثر من كونه يعزى إلى أية حسابات تجارية ؛ وحتى البنادقة ، الذين كانت لهم أوثق العلاقات مع مصر ، قدموا المساعدة إلى جودفري (أوف لورين) قبل موته مباشرة . ولم تكن هذه السياسة تنصف تماماً بالمجازفة بنفس القدر الذي يبدو من الوهلة الأولى ؛ إذ لا توجد تجارة ما لم تعد بالنفع على كلا الجانبين . ولم تكن السلطات الإسلامية في مصر ترغب - شأنها في ذلك شأن الإيطاليين - في قطع العلاقات التجارية لقسوة طويلة . ورغم أن تلك السلطات كانت في خلفات الغضب تعلق الإسكندرية في وجه السفن

(١٣) Cohen, op. cit. III, p. 330-3 . ويورد إحصائيات

(١٤) Cohen, op. cit. III, pp. 330-3 . لا تستهدف سوى الحصول على المال (أنظر أملاء ، الجزء الثاني ص ٣٨٨).

المسيحية ، فقد كانت تعاني من ترقف الأعمال ، ومن ثم لم تكن تنأثر بصورة بالغة الصرامة . فضلا عن ذلك ، وجد الإيطاليون مرابا كثيرة في الحصول على حصص من اللواتي التي توحد حديثا ، و لم يتوفر لديهم أبدا شعور بالأمن في المدن الإسلامية ولا حتى في القسطنطينية ؛ ففي حالة قيام الجماعير بأعمال شغب ، ربما تندشر منشآتهم ، أو ربما يتدخل حكام غرباء بتزويدهم في أعمالهم ؛ ورغم أن حجم التجارة الفعلي المقرر لموانئ سوريا المسيحية ربما كان أقل منه في القسطنطينية أو الإسكندرية ، كان بتقديرهم الاعتماد على عدم انقطاع أعمالهم . و لم يكن لديهم من صعاب سوى منافسة رفاقهم الإيطاليين وليس عداوة الحكام المحليين . وكانت هناك أيضا ميزة أخرى ذات أهمية متزايدة تتصل باللواتي الفرنجية ؛ إذ كانت الصعوبة الرئيسية للإيطاليين هي العثور على بضائع في أوروبا يوفر بيعها من البضائع التي يرغبون في شرائها من الشرق . وحتى السنوات الأولى من القرن العاشر كانت الصادرات الرئيسية للندفية هي العبيد من أوروبا الوسطى ، بيد أن تقول السلاف والجناريين إلى المسيحية أنهى هذه التجارة . وفي النصف الأخير من القرن الثالث عشر أحيا الجنويون تجارة العبيد التي كانت تقوم على نقل العبيد الأتراك والشر من موانئ البحر الأسود ليعملهم لمساكن مصر ، على أنه في السنوات التي تلت ذلك لم يكن هناك من العبيد سوى القليل . وكانت الصادرات الخاصة الوحيدة من الغرب هي المعادن والأخشاب ، ولأن هذه المواد كانت تستخدم أساسا في صناعة الأسلحة ، فكان من الطبيعي أن ترفض السلطات الدينية في أوروبا بيعها للمسلمين . غير أن الإيطاليين تعلموا تدريجيا أن الحركة الصليبية ووجود الشرق الفرنسي قد جذبا إلى الشرق عددا كبيرا من الجنود والديبلوماسيين ، والأهم منهم ، الحجاج ؛ فإذا تولى الإيطاليون نقلهم على سفنهم ، فمكن أصحاب تلك السفن من استغلال عائدات نقل المسافرين ومصرفاتهم في اللواتي السورية لشر البضائع المستوردة من الأساكن الأبعد إلى الشرق . وأخيرا ، وبرغم تمسك التجار الإيطاليين بمصالحهم ، فإنهم لم يتجاهلوا كلية هواجسهم الدينية ؛ فكان الكثير منهم حتى في جنوا أو البندقية ، يفضلون ممارسة تعاملاتهم في اللواتي المسيحية وليس الإسلامية ؛ فضلا عن أن الكنيسة تعارض بشدة من الناحية العملية التجارة مع الكفرة ، وقد كان للكنيسة قوتها السياسية في إيطاليا ، ومن شأن معاداتها أن تنسب في حرج خطير<sup>(١٥)</sup>.

(١٥) . 340-4. and pp. 340-4. Cohen يُقضى قليلا من تعبئة الشرق الفرنسي الإيطاليين بصورة عامة . وفي التاريخ ما يرحى بلدة أعضائهم بالشرق الفرنسي بصورة تفوق ما تخصصه لحداد

### دور التجار الإيطاليين

وكانت الفترة التي شهدت ذروة ازدهار التجارة في الشرق الغربي هي فترة السنوات العشر السابقة مباشرة على استعادة صلاح الدين للقدس والمقدود الأولى من القرن الثالث عشر . وكان العالم الإسلامي متحدا مزدهرا وقد اكتشف الإيطاليون مزايا التجارة من خلال الموانئ المسيحية ، وفي ذات الوقت تعلم المستعمرون الفرنج كيف يصادفون حوائثهم الكثرة . وبين الحاج المسلم المؤرخ ابن خلدون ، الذي ارتحل مع قافلة من التجار المسلمين من دمشق إلى عكا ، أن تلك القوافل كانت متواترة بصورة منتظمة ، وأعرب عن استحسانه لسلسلة ترتيبات جمع الرسوم الجمركية<sup>(١٦)</sup> . وكانت عكا أكثر موانئ الساحل ازدحاما بمركبة الأعمال ، إذ كان الميناء الطبيعي لدمشق ، ولذا كان يستخدم لمتنحات الصائغ الدمشقية والريف الغني المحيط بسموران ، ليس هذا وحسب وإنما تقدم كذلك تجمار اليمن الذين دأبوا على الخشء بطريق الخجاج بطول ساحل الجزيرة العربية كما أن عكا هي الميناء الوحيد الآمن في فلسطين كلها ، وكان المسافرون إلى الأماكن المقدسة يفضلون النزول إلى البر فيه أكثر من تفضيلهم النزول في ميناء يافا ذات المرسى المفتوح حيث كانت تقع الحوادث بكثرة قبل استيلاء الصليبيين على عكا . وكانت المئذنة الوحيدة لمعكا هي حائله المرفأ الماعطى بحيث لم يكن يتسع للسفن الكبيرة في ذلك الوقت التي كانت تضطر إلى الرسو خارج حواجز الأمواج حيث تتعرض للرياح الجنوبية الغربية ، أو تضطر إلى أن تبحر شمال الساحل حيث مرفأ صور الأكبر والأكثر أمانا<sup>(١٧)</sup> . وفي شمال سوريا كان أفضل مرفأ هو مرفأ اللاذقية الذي كان يناسب جميع الأحوال الجوية ، رغم أن مرفأ السويدية الواقع على مصب نهر العاصي كان ملائما بصورة أكبر لأخطاكية وحلب وكان يستخدم للسفن الأصغر<sup>(١٨)</sup> .

لأورخ

(١٦) Ibn Jubayr (ed. Wright), pp. 306-7.

(١٧) Ibn Jubayr, pp. 307-8 الذي يلاحظ أن ميناء صور أفضل من ميناء عكا للسفن الأكبر

(١٨) كتب الجغرافيون المسلمون جميعا على مرفأ اللاذقية باعتباره مرفأ جيدا بصورة خاصة (مثل الإبراهيمي ٢٣ ، Wüstenfeld, iv, p. 338 ، والدمشقي 209 ، ed. Mehren ، Dinuzhki ، ويبدو أن ميناء صان سميرود (السويدية) كان يستخدم بصورة أقل كثيرا بعدا التجارة الذاعية إلى أخطاكية ذاتها . وربما كان المرفأ قد بدأ يفتيء بالتفنين فعلا . كما يقولت 385 ، p. 385 ، Yākut ، الذي كان يكتب قبل ظهور بحري ، فقد أشار إليه على أنه ميناء أخطاكية الذي كان المرفأ مستخدمونه

وتذكر قوانين القلمى عددا من البضائع التي كانت تمر في جمارك الشرق الغربي ؛ وإلى جانب الحرير وغيره من المنسوجات كانت هناك شتى أنواع العطاراة مثل القرصنة والجهان والقرنفل وخماء حوزة الطيب والإسك وتبات الخلدجان وحوزة الطيب ، وكذلك التبغ و أصباغ القوة وعود نبات الد والعا<sup>(١٩)</sup>. وكان للقرنج دور ضئيل جدا في هذه التجارة . وكان التجار ، مسلمون أو مسيحيون وعلليون ، يُحضرون البضائع إلى الساحل من داخل البلاد ؛ وفي شمال سوريا كان يُحضرها من أنطاكية أيضا اليونانيون والأرمن ، وكان التجار الزائرون يُعاملون معاملة طيبة ؛ فُسحح للمسلمين أداء عباداتهم في المدن المسيحية ، وفي واقع الأمر كان هناك في عكا ذاتها جزء من الجامع الكبير - الذي حولوه إلى كنيسة - مخصص كى مباشر للمسلمون ملوسهم . وكانت هناك أنزال يتكلمهم البقاء فيها ، كما كانت هناك دور مسيحية تضم سكانا مسلمين . وكان التجار الإيطاليون يشترون مباشرة من المستوردين المسلمين ؛ وفضلا عن الإيطاليين يبدو أن كان هناك عدد معون من المسلمين الأتئين بحرا إلى عكا لشراء البضائع من الداخل ، وخاصة المغاربة الأتئين من شمال غرب أفريقيا وكانوا يرتحلون إلى أماكن بعيدة تصل إلى دمشق أو غيرها من المدن الإسلامية الداخلية<sup>(٢٠)</sup>.

#### الطرق التجارية في ظل المغول

أدى توسع الإمبراطورية المغولية في القرن الثالث عشر إلى تغيير الطرق التجارية الرئيسية الآتية من الشرق الأقصى . وبعدما استولى المغول على داخل آسيا شجعوا التجار على اتخاذ طريق برى من الصين ينفذ إلى تركستان ثم يتجه شمالا بحر قزوين إلى الموانئ الواقعة على الساحل الشمال للبحر الأسود مثل كافيا ، أو جنوبا بحر قزوين خلال إيران إلى طرابزون الواقعة على الساحل الجنوبي للبحر الأسود ، أو إلى أبس غى مملكة أرمينيا الكليكية . ونتيجة لنظام المغول الشمال أصبح هذا الطريق مفضلا على الطريق البحرى المقطوف بالمخاطر عبر المحيط الهندي<sup>(٢١)</sup>. وفي القرن الثاني عشر كانت

(١٩) *Asiatic*, ii, pp. 174-6. See Heyd, *op. cit.* pp. 563 ff. The *Asiatic* mention (ii) datable articles.

(٢٠) *Ibn Jubayr*, pp. 307-9.

(٢١) Heyd, *op. cit.* ii, pp. 70-3.

السفن الصينية تنحدر دائما غرب سيلان إلى الموانئ العربية ، أما الآن فلم يعد الأمر يستحق الذهاب إلى أبعد من الساحل الشرقي للهند<sup>(٢٢)</sup> وقد أسفر الغزو المغولي للعراق عن وصول بعض التجارة الهندية إلى الغرب عن طريق البحر أعلى الخليج الفارسي ، وكانت نسبة منها تمر خلال دمشق أو حلب إلى الموانئ الفرغية . غير أن أغلب التجار كانوا يفضلون البقاء داخل الأراضي الواقعة تحت السيطرة المغولية ومنها بصرون إلى البحر المتوسط عند أبياس بينما تنقل أغلب التجارة الهندية برا خلال أفغانستان وفارس<sup>(٢٣)</sup> . وكانت مصر ما تزال سوقا رائجة للبضائع الشرقية ، لكنها لم تعد تقع على كفل الطرق تكلمة من الشرق الأقصى إلى أوروبا<sup>(٢٤)</sup>.

وفي ذات الوقت كانت كل من البندقية وجنوا يريدان تجارتهما تدريجيا ، وأخذت المنافسة بينهما تزداد حدة ، وميزا تنافسا خلفهما . وقد زادت المنافسة بين تلك المدن نتيجة لتحويل طرق التجارة ؛ فكانت البندقية أول الأمر تتحكم في البحر الأسود نظرا لسيطرتها على الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، ولذلك لم تتأثر بقيام القوة المغولية ، ولكن عندما استعاد البيزنطيون عاصمتهم سنة ١٢٦١م بالمساعدة الفعالة من جنوا ، تمكن الجنويون من استبعاد البنادقة من البحر الأسود واحتكار تجارة آسيا الوسطى ، وكذلك التجارة الجبلية المرشحة - تجارة العبيد بين السهول الروسية ومصر - ولأن حكام المماليك كانوا يعتمدون على إمدادات منتظمة من عبيد الكيبيشاك والقبائل التركية المغاورة ، كان من الحال على البنادقة باستبعاد الجنويين من الإسكندرية ؛ ورغم أن الملك الأرميني سمح للبنادقة بالمشاركة في التجارة للمغولية الآتية إلى أبياس ، كان من الضروري للبندقية أن تحاول طرد الجنويين من الموانئ الفرغية ؛ فأسا في عكس ، فقد أصابوا النجاح ، وأما صور التي انسحب إليها الجنويون فكان موقعها يقل في جودته. وأصبحت السياسة العامة للبندقية - في كراهيتها لجنوا - معارضة المغول ، إذ كانت جنوا تقصد من استراتيجيتهم تلك الأرباح الطائلة ؛ ونتيجة لذلك ، كان البنادقة يستخدمون نفوذهم في عكس اتجاه بعض حكومتها على موازنة المماليك ضد المغول<sup>(٢٥)</sup>.

(٢٢) يقول الإمبريسي إن السفن الصينية كانت تلعب في القرن الثاني عشر حتى ذهاب الواقعة على حسب نهج الإمبريسي ، لكنها في القرن الثالث عشر لم تكن تنقب إلى أبعد من سوسطرة . ثم تولت السفن العربية تجارة المحيط الهندي التي كانت ما تزال مزدهرة. أنظر: ٥-١٠٤٤ *Heyd, op. cit.*

(٢٣) *Heyd, op. cit.* pp. 73 ff.

(٢٤) *ibid.* وكان للمغريون بقاءهم كذلك رسوما حركة أعلى (ibid. p.78)

(٢٥) أنظر أيضا من ٢٢٢ وما بعدها أيضا: *Boisjars, Commerce Génové dans la Mer Noire*

ومن الطبيعي أن يتسبب تطوير ميناء أبياس - باعتباره الميناء الرئيسي لتجارة القنول في البحر المتوسط - في تقليل أهمية الموانئ المغربية ؛ غير أن الزيادة العامة في التجارة الأسبوعية في ظل القنول كانت تعني استمرار وجود فائض في التجارة يستخدم للطرق الأقدم . ودأب تجار القنول على زيارة عكا أثناء النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ولم تكن الحروب الدائرة بين المماليك والقنول تعرقل كثيرا مرور القنول من العراق وإيران إلى فلسطين . وكانت عكا حتى السنوات الأخيرة من عمرها ، وباعتبارها العاصمة للساحية ، مليئة بالنشاط التجاري ، بينما كانت الضائع التي تتناولها اللادقية في الشمال والأية من حلب من الضخامة بحيث توصل تجار حلب بصورة خاصة سلطان المملوكي للإستيلاء على الميناء الذي لا ينبغي - يمثل مكانه هذا القيس - أن يبقى في أيدي الكفرة<sup>(٢٦)</sup>.

#### ثروة البازونات

ومع ذلك ، كانت كل هذه التجارة المزدهرة ذات نفع ضئيل للفرنج . ذلك أنه جعل الموانئ البحرية بمثابة ميدان قتال بين المستعمرات الإيطالية المتنافسة ، خدعت تلك الموانئ مصدرا لضعف سياسي فعال ؛ وحتى لو ظل الإيطاليون في سلام ، لم يكن حكم الشرق الفرنجي ليجعلوا من التجارة على أموال كثيرة . فكان يفتق للملك ومحبها الحصول على عشرة في المائة تقريبا من المكوس الجمركية ، غير أنه كان يبيع حصصا ضخمة من تلك النسبة لأتباعه أو للكنيسة أو للأنظمة الدينية العسكرية ، وبهذا لم يكن يبقى له الكثير . وكان لمرء أنطاكيا وكونتات طرابلس أفضل حالا بقبائل لأنهم لم ينجحوا غيرهم سوى القليل من عوائد الإقطاعيات، غير أن الشرق الفرنجي لم يكن بالمكان الذي تجمع فيه الثروات الضخمة ؛ إذ كان هناك لوردات على قدر من الثراء يتيح لهم العيش في وقاية، مثل آل إيبيلين في بيروت الذين كانوا يمتلكون مناجم الحديد الغنية ، أو آل متونفورت في صور بما لهم من مصانع السكر . وكان مواطنو الشرق الفرنجي يظهرون في أعين المسافرين الغربيين البسطاء، مظاهر الإزدهار الرائع ؛ غير أن تلك المظاهر كانت مظاهر زائفة عن الحاجة ومصطنعة . وكانت المدن أكثر نظافة وترتيا في مابناها ، وبما كان ساكنها شراء الملابس الحريرية والتعطر بالمعطر والطيب

esp. pp. 79 ff

(٢٦) For Aqas, called by the Italians Lajazzo, see Bratiana, op. cit. pp. 158-62.

بأسعار لا يقدر عليها سوى الغريب الأثرياء في أوروبا الغربية ، بيد أن تلك الأشياء كانت من المنتجات المحلية ولذلك كانت رخيصة نسبياً<sup>(٢٧)</sup>.

وليس لدينا سوى القليل من المعلومات المتصلة بأنشطة الطبقات البورجوازية في الشرق العربي التي يبدو أنها لم تلعب دوراً في التجارة الدولية وإنما قصر أفرادها جهدهم على إدارة المحلات وتصنيع البضائع للإستهلاك المحلي . وكانت لهم بعض القوة السياسية ؛ ذلك أن كومبون عكس - الذي يتألف من البورجوازية العربية - كان عتصراً هاماً في الدولة ، بيد أنه انتهى بنفسه حالاً بعيداً عن المجتمعات الوطنية فيما يبدو ، حتى عن الأرثوذكس الذين كانوا يعملون كوكلاء منفصل<sup>(٢٨)</sup> . وفي أنطاكية ، حيث كان الكوميون أكثر تأثيراً ، كانت البورجوازيات الشرقية واليونانية تعملان معاً ، وربما كان هناك تزاوج أكثر ، ولم يكن الفرع هناك بأعداد كبيرة كما هي حالهم في عكا أو في طرابلس التي يبدو أنها حدثت حذو عكا<sup>(٢٩)</sup> . أما الطبقات العاملة فكانت في أغلبها من أصل وطني أو من أصول مختلطة ؛ وكثيراً ما كانت هناك أعداد كبيرة من العبيد ، من المسلمين المأسورين في الحروب ، للعمل في المناجم أو في تشييد المباني العامة أو في الضياع الملكية أو ضياع النبلاء<sup>(٣٠)</sup>.

وكان الحكم يفتقر إلى المال دائماً . وحتى في وقت السلم كان يتعين على البلد أن يكون مهياً لإندلاع حرب مفاجئة ، وعادة ما كانت الحرب تسفر عن غريب متعلق كثيرة من الرف . ولم تكن إيرادات المكوس والضرائب كافية ؛ وكان من العسير مجابهة الطوارئ المفاجئة في غيبة المساعدة الخارجية ، مثل أسر الممتلك أو قسم بكامله من أقسام الجيش . ولحسن الحظ كانت المساعدة الخارجية دائماً قادمة ؛ ذلك أنه بالإضافة إلى الأموال التي يحصل عليها الفرنج - عادة بطرق غير حكيمة - عن طريق الإغارة في الأراضي الإسلامية للتهب ، كانت القبايل ترسل من أوروبا بلا انقطاع ؛ إذ

(٢٧) حسب أمادي أرنولتي أن قيمة إقطاعية نابلس (أوف مونتفورت) الرجوعة في طورون في عام ١٢٤٦ م هي ستين ألف بيزنت شرقى (p. 180) غير أن جوى أسو صيل كان تقاطعه بقرص حيين ألف بيزنت شرقى إلى ليوبرله دول النمسا وتلحين ألف بيزنت شرقى لفرديريك الثاني أنظر أمادي ، ص ١٤٩ و ١٨٢ . أنظر أيضاً La Monte, Feudal Movements, pp. 171-4.

(٢٨) أنظر Cabot, op. cit. iii, pp. 335-7, also Prætor "L'Etablissement des Costumes du Marché à Saint-Jean d'Acre" in Revue Historique de Droit Français, 1951.

(٢٩) بالنسبة لأنطاكية أنظر Cabot, La Syrie du Nord, pp. 549 ff., 153 ff. وبالنسبة لطرابلس أنظر Richard, La Conquête de Tripoli, pp. 71 ff.

(٣٠) Bay, Les Colonies Françaises, pp. 305-8.

أن فلسطين هي الأرض المقدسة ، والصليبيون والمستعمرون كانوا عموماً يمتدحون جنود المسيح . وكان الزائرون يدفعون ضريبة غور وموهم ؛ و لم يتوقف الأمر عند ما كان يمتدحونه المحتاج من أموال إلى البلد لإغنائها أو التصديق بها ، وإنما كان لكثير من المزارات والأديرة أراضٍ منحوة لها في الغرب كانت إيراداتها تُرسل إليها في فلسطين . وكانت الأنظمة الدينية العسكرية تعمل على إغلب دموعها من هبات الغرب التي أتاحت له أن تظل على ثرائها الفاحش حتى وإن فقدت كل ممتلكاتها في سوريا . وكان كل فرد من مواطني الشرق الغربي ، يبدأ من الملك هبوطاً إلى المواطن العادي ، يلقى الحيات من حين لآخر من آثاره في الغرب أو من المتعاطفين معه ؛ وكانت تلك الإعانات تساعد بدرجة كبيرة في موازنة مالمية الشرق الغربي ، وهكذا فإن رغد العيش في المدن السورية ، الذي كان يبرز بإعجاب الزائرين من الغرب، كان بموكله جزئياً أبناء جلدتهم في موطنهم<sup>(٣١)</sup>.

#### حرب العملة في الشرق الغربي

كان حرب العملة في الشرق الغربي مصدراً آخر من مصادر القوة الاقتصادية يصعب تقييم آثاره . فعندما بدأت الحملات الصليبية لم يكن هناك ضرب للعملة الذهبية في غرب أوروبا باستثناء صقلية والأندلس المسلمة ، وكانت القنصة هي لكين المادون المستعمدة ، كما لم تكن الدولات الإسلامية في سوريا تصدر عملات ذهبية في ذلك الوقت رغم أن الخلفيتين في بغداد والقاهرة كانتا يتنافسان في ذلك . ومع ذلك ، ما أن أنشئت الدولات الصليبية حتى بدأ ملك القدس وأمير أنطاكية وكونست طرابلس في سك الدينار الذهبية التي كانت تعرف باسم (البرانتات الشرقية) و كانت مقلدة من دنانير الفاطميين ، لكن عتواها الذهبية كان مجرد التلحين تقريباً . وكانت هذه العملات ، خاصة عملات مملكة القدس التي كان المسلمون يطلقون عليها (الصوري) نسبة إلى مدينة صور ، سرعان ما انتشر تداولها انتشاراً واسعاً في أنحاء الشرق الأدنى . ومن الصعب معرفة المصدر الذي حصل الفرج منه على الذهب ؛ إذ أن السلب والغلبة لم يوفرنا سوى قدر ضئيل غير متناظم ، وكان المصدر الرئيسي للذهب في ذلك الوقت هو السودان ، ويحتمل أن يكون التجار المغاربة قد أحضروا منه بعض الذهب . بيد أنه لتفسير ظهور ضرب العملة ، لابد وأن كانت هناك حركة عامة



للذهب من البلدان الإسلامية إلى البلدان المسيحية ؛ ولابد أن المستوطنين الأوروبيين كانوا يشترون الذهب من المسلمين - بأسعار باعطة بلا شك - في مقابل القصة التي كانت وفيرة في أوروبا ؛ لابد وأن إصدارات هذه العملات الذهبية المنخفضة القيمة قد ساعدت في حركة الذهب كلها . ولابد أن تكون مقادير كبيرة من الذهب قد انتقلت إلى الغرب ؛ إذ تجدر ملاحظة أن كانت هناك عملات ذهبية من سبائك رائعة بدأت تظهر خلال القرن الثالث عشر في أوروبا الغربية<sup>(٢٢)</sup>.

وكان حكام الشرق الفرنسي يحتفلون بفسامة بحق إصدار العملات الذهبية ؛ ولم يكن مسموحاً للمستعمرات الإيطالية هناك ولا للأنظمة الدينية العسكرية بالتعدى على هذا الاحتكار . وكان باستطاعة كبار مستأجرى الأرض سلك مجرد العملات الفروزيمة للإحتياجات المحلية.

وكان للأنظمة الدينية العسكرية مصدر إضافي للثروة مشتق من أنشطتها المصرفية. ذلك أنها عملكتها الشاسعة في سائر أنحاء العالم المسيحي ، كانت في موضع شبح الإغصاف يمكنها من تحويل الحملات الصليبية ؛ فلم يكن الإشتراك الفرنسي في الحملة الصليبية الثانية يمكن التحقيق إلا بمساعدة نظام فرسان المعبد الذي دفع مبالغ طائلة للويس السابع في الشرق ثم تسديدها في فرنسا . وبنهاية القرن الثاني عشر ذك نظام فرسان المعبد على ممارسة الإقراض المنظم للأموال بأسعار فائدة مرتفعة ، غير أن سمعتهم المالية كانت من الشهرة الواسعة بحيث جعلت المسلمين يتفوق فيهم ويستفيدون من خدماتهم . وكان لفرسان المستشفى وفرسان التيرتوت معاملات مالية مماثلة ، وإن كانت على نطاق أصغر ؛ ولم تكسب حكومات الشرق الفرنسي شيئاً مباشراً من تلك الأنشطة التي زادت من قوة تلك الأنظمة وفردتها ؛ غير أنها كانت تعود بالنفع المالي على البلد ككل<sup>(٢٣)</sup>.

(٢٢) (٣٢٧-٣٣٧) Cabon, *Notes sur l'Histoire des Croisades*, III, pp. 337-8 الذي يورد مناقشة هامة جداً حول الموضوع. انظر أيضاً: Schönbberger, *Les Principaux Français du Levant*, pp. 15-16. انظر أيضاً: Schönbberger, *Les Principaux Français du Levant*, pp. 15-16. انظر أيضاً: Schönbberger, *Les Principaux Français du Levant*, pp. 15-16.

(٢٣) تصاعدي قورين القدس *The Antics of Jerusalem* الأصل المصرفية رغم أن قورين أملاكها تعترف بها أنظر: Cabon, *op. cit.* p. 339. انظر أيضاً: Piquet, *Les Banquiers de Moyen Age*, *passim* كانت حملة لويس التاسع الصليبي، وفقط أيضاً: Melville, *La Vie des Templiers*, pp. 75-83. انظر أيضاً: Piquet, *op. cit.* pp. 71-8.

### معضلة الشرق القرني الاقتصادية

لا يزال التاريخ الاقتصادي للحملات الصليبية غامضاً جداً . فالملومات غير كافية، وهناك الكثير من التفاصيل لا سبيل إلى تفسيرها الآن . ومن غير الممكن أن نفهم تاريخها السياسي دون أن ننصع في الاعتبار إحتياجات المستوطنين والتجار الإيطاليين التجارية منها والمالية . وعادة ما كانت تلك الإحتياجات تسير بالتضاد مع الدافع الأيديولوجي الذي بدأ الحركة الصليبية وحافظ عليها . وكان الشرق القرني دائماً تحت سيف المعضلة للسلط ؛ فقد أنشأ خليط من ذوى الحمى الدينية والمغامرين من المتعطشين للامتلاك الأرض . وإذا كان للشرق القرني أن يدمر في حالة صحية فمن غير الممكن أن يظل معتمداً على الإمدادات المتكسمة من الرجال والأموال من الغرب ؛ فلا بد أن يبت وجوده اقتصادياً ، ولا سبيل لأن يتحقق ذلك إلا بالراضى مع جيرانه ، فإذا كانوا ووديين ومزدهرين فسوف يزدهر هو أيضاً ؛ غير أن السعي إلى صداقة المسلمين بدأ عبادة كاملة للمثل الصليبية . ولم يكن المسلمون من جانبهم قادرين أبداً على التصالح مع دولة غربية ومتكسمة في الأرض التي يعتبرونها ملكهم ؛ فكانت معضلتهم أخف إيلاماً ، إذ لم يكن وجود المستعمرين المسيحيين ضرورياً لتجارهم مع أوروبا ، مهما بدأ وجودهم ملاماً أحياناً ؛ ولذا كانت العلاقات الحسنة متقلقة دائماً . وكانت المشكلة الكبرى الثانية التي كان على الشرق القرني مواجهتها هي علاقته بالبلدان التجارية الإيطالية ، إذ كانت عنصراً لا غنى لبقاء الشرق القرني عنه ، فيدون تلك المدن يوشك الاتصال بالغرب أن يكون مستحيلاً ، وليأت مستحيلاً تماماً تصدير منتجات البلد أو الفوز بأي نوع من التجارة من الشرق الأبعد . وقد نسب الإيطاليون في إلحاق أضرار لا سبيل إلى إصلاحيها بما كان لهم من حيرة وتناقض فيما بينهم وما كانت سياستهم تتصف به من عدم اكتمال ؛ فكانوا يتألمون بأنفسهم جانباً . إن الحملات الصليبية ، ويظهر جواراً لغتت العالم المسيحي . وقد زودوا المسلمين بمواد الحرب الأساسية ، وكانوا يقومون بأعمال الشغب ويضربون بعضهم بعضاً في شوارع المدن . ولابد أن كان حكام الشرق القرني بأسفون لهذه التجارة الغنية التي أتت بمثل هؤلاء الخلفاء الجاهلين الخطيرين إلى شواطئهم ؛ ومع ذلك ، وبدون هذه التجارة ، تصبح قصة الشرق القرني أقصر وأكثر عنامة . ليس من السهل في أية حال الفصل بين ما للرعاة المادي من مطالب عدوانية وبين . بنة الأيديولوجية . ولا تستطيع أية حكومة أن تأمل في إشباع أي من الطرفين إحد . كاملاً ، فليس يوسع المرء أن يعيش على الأيديولوجية وسدحها ، بينما يتوقف الإزدهار على قضائها أوسع من أن تنحصر في

شرعاً أرضي ضيق . ولقد ارتكب الصليبيون أخطاء كثيرة ، وكانت سياساتهم دائماً  
تتصف بالتزدد والتغير ، بيد أن اللوم كله لم يكن يقع عليهم لقشاهم في حل مشكلة لم  
يكن لها حل في الواقع.

---

## الفصل الثانى:

**العمارة والفنون فى  
مملكة الشرق الفرنجى**

---

## العمارة والفنون في مملكة الشرق الفرنسي

"نُزِن الآن بالجلال والبز واليس الجند والنها"  
(أوب: ٤ : ١٠)

سمح فريج كورتيجيه للحجارة ، التي كان ينبغي لها أن تقيم بالعمى ، بأن تنزل من قبضتهم . غير أنهم احتفظوا في بعض مجالات الفنون بمحتجاتهم ، وكانت إماراتهم هذا جديرة بالملاحظة ؛ إذ لم يكن المستعمرون كثيرون العدد ، والقليل منهم فقط هم القادرون على أن يكونوا فنانين . فضلا عن ذلك ، فقد ساءوا إلى الأراضي التي كانت تقاليدنا الفنية أقدم بكثير من تقاليدهم ، ولم يجدوا فيها المواد التي اعتادوا عليها ؛ ومع ذلك ، بدلوها بطورون فقط بجماري احتياحاتهم بصورة مُرضية .

وقد اندثرت أغلب أعمالمهم الصغيرة ؛ فلم يسمح تاريخ سوريا وفلسطين المضطرب ببقاء الأشياء الرقيقة الهشة ، وأما كانت هندسة عمارتهم أقوى على البقاء برغم ندرة مانيق - كشأن أغلب بلدان العصور الوسيطة - فيما عدا الآثار العسكرية والكنسية . وحتى تلك الآثار تبدل شكلها الأصلي من جراء التغيير والتحلل . وبخلاف

أكثر مزارات العالم المسيحي قداسة ، وهي التي لم يلمسها المسلمون لشدة حرصهم ، والتي أصلحها المسيحيون فيما بعد ، كانت الكنائس الباقية حتى الآن تُصانة فقد أُنسى عليها تمثيلها إلى مساجد ، واستحال غيرها أملالاً . أما القلاع والحصون الفرجية فقد دُفرت كلها تدميراً شديداً في عتيم الحروب ، بحيث كان المسلمون المغزاة مضطرين - إذا رغوا في استخدامها - إلى إعادة تشييد الكثير منها وحاصلة الأسوار الخارجية والبرابات . وما تركه الإنسان وشأنه ساعدت الطبيعة على تدميره في الأماكن التي ضربتها الزلازل . وسيمما يجتهد علماء الآثار المحدثون بما لهم من معرفة في أعمال الترميم والتجديد - كما حدث في قلعة الفرسان *Kerk des Chevaliers* ليس من الممكن دالماً التمييز بوضوح بين ما هو صليبي وما هو مجلوكي.

وكانت أول المباني التي احتاج الصليبيون إلى تشييدها هي ما يدافعون به عن أنفسهم . ووجب على الكنائس والقصور أن تنتظر إلى أن تصبح البلاد آمنة ؛ فكان يعين ترميم أسوار المدن ، وبناء الحصون لمراقبة الحدود ولكي تكون بمثابة مراكز إدارية آمنة لمقاطعات البلد . ولم تكن تحصينات المدن الرئيسية تستدعي سوى ترفع هنا وهناك ، فيما عدا حالات قليلة كان الصليبيون فيها قد شقوا مدخلا بهدم الأسوار . أما في أنطاكية ، فإن نظام الدفاع العظيم الذي شيده البيزنطيون عند نهاية القرن العاشر لم يعان سوى القليل من الأضرار ، ولم يكن الأمراء اللاتين في حاجة إلى إضافة أي شيء لنظام الدفاع قاك . وبالمثل ، لم يكن هناك سوى أعمال ترميم طفيفة لأسوار القدس الفاطمية ، رغم ما يبدو من أن الصليبيين قد أحدثوا من فورهم تغييرات وتحسينات في برج داود ؛ لكنهم سرعان ما بدأوا في بناء قلاع في المدن رغم ما فيها من تحصينات كافية ، وقد بُنيت تلك القلاع كلها على حافة المدينة يمكن الدفاع عنها بصورة مستقلة . وكان الدافع لبناء تلك القلاع ليس فقط رغبة أسراء المدن في تحقيق القدرة على استمرار المقاومة حتى في حالة سقوط المدينة في أيدي الأعداء ، وإنما ليكوتوا أيضا في موضع يهيون به المدينة إذا ما بدرت منها بواحد حمرة أو عصابة . والقلعة الأولى التي يمكن تعديدها تاريخياً بصورة مؤكدة هي قلعة الكونت ريموند على جبل الحاح التي بُنيت سنة ١١٠٤م لتكون له بمثابة مقر أنشاء حصانه طرابلس ؛ وكانت خارج المدينة ورغم أن طرابلس الإسلامية بُنيت فيما بعد عند قاعدتها ، على أن الذي تبقى إلى الآن مما شيده ريموند يجاوز السور الغربي بقليل . ولا بد أن قلاع أمراء الجليل في طبرية وطورون قد بُنيت في نفس الوقت تقريبا . وقد بدأ العصر العظيم الأول لبناء القلاع في العقد الثاني من القرن الثاني عشر في ظل بلدوين الثاني واستمر في ظل فولك ،

وفيه شيدت قلاع عظيمة مثل قلعة مواب وقلعة بيرفورت ، ومثالا قلعة صهيون، وكذلك القلاع الأصغر في يهودا مثل الصالفة وبيت<sup>(١)</sup>.

#### القلعة البيزنطية

ولقد وجد الصليبيون هندسة معمارية عسكرية متقدمة تقدما بالغا في الشرق عنها في الغرب الذي بدأت فيه القلعة المحرقة في الظهور الآن فقط . فقد درس الرومان الدفاع العسكري باعتباره علما من العلوم ، وقام البيزنطيون ، الذين قلدهم غزاة أحيانا لا نهاية لهم ، بتطويره ليناسب احتياجاتهم ، وتعلم منهم العرب . على أن مشاكل البيزنطيين لم تكن هي نفسها مشاكل الصليبيين ؛ إذ كان البيزنطيون يتعرضون أن القوة البشرية متاحة دائما ، ووسعهم توفير سمات كثيرة ، وكانوا يلاقون العنت كي يدافعوا عن مدنتهم دفاعا جيدا ؛ وكانت أسوار القسطنطينية ما تزال قادرة - بعد بنائها بألف عام - على تحدي أحدث مدافع العثمانيين ، ولما أسوار أنطاكية فقد كذهلت الصليبيين إصعابا بها . على أن القلعة البيزنطية لم ترد كثيرا عن كونها معسكرا حصينا ، وكانت مصممة للتعامل مع عدو نقل أسلحته هولا عن أسلحة البيزنطيين . أما العرب ، وهم أخطر منافسيهم ، فكانوا أقل تقدما في آلات الحصار ولم يكن ضروريا أن تكون أسوار القلعة البيزنطية قوية ؛ إذ كانت هناك شبكة من التحصينات الخارجية من أهم ملاحظتها عندئذ واحد على الأقل بالتساع كبير يمنع العدو من إحصار المناطق أو שלא لم تسلق بالقرب من القلعة ؛ وكانت الأبراج نائمة بصورة طفيفة على مسافات منتظمة بطول الأسوار ، وتستهدف توفير مجال أطول لأفراد الحامية من رماة سهام وقاذفي الحنادق يصل إلى خطوط الأعداء أكثر من كونها تستهدف الدفاع عن الأسوار ذاتها . ولم يكن الوجود المركزي في وسط القلعة مصمما كآثر خط دفاعي ، وإنما ليكون غزاة للأسلحة والمؤن . وباستثناء أمثلة قليلة على الحدود الأرمينية حيث كان يعيش يارونات الحدود عيشة شبه مستقلة ، لم يكن مقصودا من القلعة البيزنطية أن تكون مكان إقامة ؛ إذ كان أمر القلعة جنديا محروفا يترك زوجته وأولاده في منزله . وأخيرا ، ورغم الاستفادة من الدفاعات الطبيعية ، لم يكن الاعتبار الأول هو الخيلولة دون الوصول إلى الموقع ، وإنما كانت الاستفادة الرئيسية بالقلعة هي أنها بمثابة ثكنة

(١) انظر ، الجزء الثاني ، ص ٨٨-٨٩ و ١٢٣ و ٢٦٣-٢٦٥ . وانظر Deschamps, *La Défense de Jérusalem*, pp. 5-19, and *Le Croc des Chevaliers*, pp. 43-4.



عسكرية. ولم يكن من اللازم إخبار الجنود على الكدح في صعود الجبل وهبوطه في كل مرة يتحركون فيها<sup>(١)</sup>.

ومال العرب إلى اتباع النمط البيزنطي رغم أنهم كانوا أقل اهتماما بمشاكل الدفاع، إذ كانت جيوشهم أساسا متحركة وهجومية<sup>(٢)</sup>.

وعكف الصليبيون على دراسة هندسة العمارة العسكرية التي كانوا يقابلونها في ترحالهم باتجاه الشرق وتعلموا منها الكثير، غير أن احتياجاتهم الأساسية كانت مختلفة؛ إذ كانت تمرزهم القوة البشرية دائما ولا يستطيعون الاحتفاظ بجوامع كثيرة، ومن أجل ذلك كان لابد لللاعهم أن تكون أقوى بكثير وأبصر في الدفاع عنها، ويتعين اختيار موقع القلعة بخصائصه الدفاعية، ويجب استغلال كل منحدر وكل تل صغير بأقصى استغلال ممكن؛ ولما لم يكن هناك من يمكن الاستغناء عنه وتكليفه بالاستطلاع وحمل الرسائل كان لابد لكل معقل أن يتمكن من مشاهدة حاربه وتبادل الإشارات معه. وكان لابد للأسوار أن تكون سمكة ومرفعة حتى تكون قادرة على الصمود للهجوم المباشر، لأن الدفاع عن التحصينات الخارجية يتطلب الكثير من الرجال. وفي الوقت نفسه، ينبغي الإتيان بالقلعة كمكان إقامة لأمرها ومركز إداري له. وقد أحضر الصليبيون معهم وسائلهم الإنشائية ولما كانوا يتمكنون أناسا قريبا، كانت القلعة مركزا للحكم المحلي. ولابد أن يكون برحبها المراكز الذي يتوسطها من الكثير مما يمكن الحماية للقطعان والأسراب في حالة الغارات العدائية المتكررة. وفي واقع الأمر، كانت القلعة بالنسبة للفراعنة للعب دورا هاما يفوق كثيرا دورها عند البيزنطيين والعرب<sup>(٣)</sup>.

(١) Le Crac, pp. 45-57; Ebersolt, *Monsuments d'Architecture Byzantine*, pp. 101-6; Fedden, *Crusader Castles*, pp. Deschamps 22-6.

(٢) Deschamps, *Le Crac*, p. 51; Fedden, *op. cit.* p. 26.

(٣) Deschamps, *Le Crac*, pp. 89-103; Small, "Crusader Castles of the Twelfth Century", in *Cambridge Historical Journal*, vol. 2, حيث ترد مناقشة رائعة حول أعمال القلاع.

## قلاع القرن الثاني عشر

أما في الغرب ، فكانت القلعة حتى ذلك الوقت لا تزيد عن كونها برجاً مربعاً صلباً وقد يكون محصناً من النوع الذي بلغ به النورمانديون حده الكمال<sup>(٥)</sup>. ولم تكن هذه القلعة ملائمة لمتطلبات الشرق الفرنسي. وقد أحرص الصليبيون على أن يكونوا رواداً في ذلك المجال ، فانتسروا من البيزنطيين الكثير من الأفكار ؛ فمنهم تعلموا استخدام الكرة لإطلاق القذائف على المهاجمين ، والاستفادة من تشييد الأبراج بطول الأسوار ، رغم أنهم سرعان ما أدخلوا تعديلاً في ذلك بعد أن اكتشفوا أن البرج المستدير يتيح نطاقاً أوسع من النيران القائم الزوايا الذي كان البيزنطيون يفضلونه. وكانت الحصون الأصغر المبنية في أوائل القرن الثاني عشر ، مثل حصن الكوكب ، قد بُنيت على الطراز البيزنطي المعتاد بأسوار خارجية متسللة قائمة الزوايا تقريبا ، وقد رُتبت بأبراج ، وشُيِّطت بحُرُوف في الوسط يضم البرج المركزي . وقد اختيرت المواقع بحيث يمكن الإستغناء عن أعمال التحصينات الخارجية ، وكان البناء كله متينا للغاية . ودائما ما كانت الأعمال البيزنطية متكاملة . وفي قلعة صهيون كانت الخنادق البيزنطية مستكملة بقناة ضيقة عميقة تسمحون قدما حفورة في الصخور الصلبة<sup>(٦)</sup>. كما أضاف الفرنج الأبواب الحديدية المدلاة التي لم تكن مستعملة في الشرق منذ عصور الرومان ، وكذلك للدخول اللئيم الذي بدأ العرب في تعديله وإن لم يكن البيزنطيون يستعملونه إلا نادرا ، ربما لأنه لم يكن مناسباً للألوات الثقيلة التي كانوا يستخدمونها داخل القلاع<sup>(٧)</sup>.

ومن الطبيعي أن تكون القلاع الأكثر أكثر تعقيدا . فلم تكن قلعة الكرك مثلا تقتصر على إيواء قائدتها وأسرته ، وإنما كذلك الجنود والكنيسة الذين يتولون إدارة القلعة ؛ وفي مثل هذه القلعة في القرن الثاني عشر كان موقع البرج المركزي والأماكن السكنية في أبعد الأماكن وأكثرها يسرا في الدفاع عنها من الحُرُوف المركزي . وعادة ما كان موضع المخازن والكنيسة الصغيرة في الحُرُوف المركزي، بينما الأبراج الأخرى المحيطة بالخيز كبيرة بحيث تضم حجرات السكنات والمكاتب . وكان تصميم

(٥) ولترجم) نورمانديون Normans : أباء، نورماندي Normandy وهو إقليم تاريخي يقع شمال غرب فرنسا على القنال الإنجليزي.

(٦) للإطلاع على خطط قلعة الكوكب انظر Deschamps, *La Défense*, p.121 « ولإطلاع على خطط أسط للقلعة الحمراء (Chapel Rouge) انظر Le Croc, p. 57. ولتقريب القلعتين الترتيبين انظر ويكلي إنداء صناعية مثل صهيون (Le Croc, pp. 80-1).

(٧) Deschamps, *Les Entrées de Châteaux des Croisés*, in Syria, vol. XII.

القلعة يختلف باختلاف المنطقة التي تقع فيها . وكان برج المركزى ما يزال برجا مكنيا بسيطا - على الطراز النورماندى - بمدخل واحد فقط عادة . وكان البناء نفسه صلبا وبسيطا بلا زخرفة وإن كانت هناك بعض المحاولات لزخرفة أماكن الإقامة والكبسة الصغيرة . ولأسوء الحظ لم تبق أية زخارف للقلاع القرن الثاني عشر ؛ أما الحصون التي ظلت مسيحية بعد عصر صلاح الدين فقد أعيدت زخرفتها في القرن الثالث ، وقد غير العرب الحصون التي احتلوها ؛ واستحال ما تبقى إلى كلال<sup>(٨)</sup>.

ويتقدم سنوات القرن الثاني عشر طرأت بعض التغييرات على غطط القلعة . من ذلك أن وضع برج المركزى - وهو أقوى جزء في القلعة - أصبح في أضعف قسم من الحيز المركزى ، بدأ يعتبر من الأمور المنطقية ، وأصبح برج المركزى نفسه مستندرا عادة وليس مشغلا لأن السطح المستدير يمارم القصف بطريقة أكثر فعالية من السطح المثلث ؛ وأزهدت في برج الأبراج والأبواب السرية . وكان حجم القلعة يميل إلى الزيادة خاصة عندما كانت الأنظمة الدينية العسكرية تبني القلاع لنفسها أو عندما تستولى على قلاع من النبلاء العثمانيين ؛ ولم يكن في قلاع الأنظمة الدينية العسكرية سيدات مقيمات، ورغم إمكان توفير أماكن إقامة رائعة لكبار المسؤولين فقد كان كل مقيم فيها يؤدي فرضا عسكريا . ولما القلاع الأكبر مثل قلعة الكرك أو عنتلث فكانت مدنا عسكرية قادرة على إسكان عدة آلاف من الفارين وما يلزمهم من خدم . وسافرا ما كانت تملئ هذه القلاع عن آخرها . وكانت الدفاعات الآن تقوى عن طريق حيز مركزى مزدوج متحد المركز ؛ وكان للقلاع العظيمة التي يملكها فرسان المستشفى - مثل الكرك ومواب - حزام مزدوج . واتبع فرسان المعبد نفس النظام في صافينا، وإن كانوا يفضلون كمبدأ عام الحيز المركزى الواحد ؛ ومثلها للطراز الأول بُنيت قلعتهم الرئيسية طرطوس وعنتلث في القرن الثالث عشر ، على أنه في كل من الحالتين كانت الأقسام الأطول من الأسوار تنتصب من البحر مباشرة ، وعمر شبه الجزيرة التي كانت تصل عنتلث بالبابسة كان هناك حيط مزدوج معتد . كما أن قلعة فرسان التيوتون في مونتفورت ذات حيز مركزي واحد . ولم تكن فكرة الحيز المركزى فكرة جديدة ؛ ذلك أن الأسوار الأرضية للقسطنطينية كانت مبنية بخط مزدوج في القرن الخامس ، وفي القرن الثامن أحاطت الخليفة للصور مدنته الدائرية بخيط مزدوج .

(٨) انظر على سبيل المثال فرانسيسكو ديسكازا وتصميم قلعة الكرك في مواب و الصبية في بابلس في Deschamps, *La Defense*, pp. 8093, 167-75. وانظر أيضا القلعات .

بد أن فرسان المستشفى كانوا هم أول من طبق فكرة الخيز المزدوج في قلعة صغيرة رغم عدم إمكان استخدامها إلا لقلعة كبيرة الحجم<sup>(٩)</sup>.

وكانت التحسينات الأخرى للقلاع القرن الثالث عشر تتمثل في العمومة الشديدة لواجهة الأسوار الخارجية التي تحول دون تثبيت السلاالم ، وفي الإستخدام الأوسع للمزافل والفتحات لرملة السهام ذات حواف منحذرة عمادة إلى أسفل وأحيانا قواعد تشبه الركاب - وفي تعقيدات أكثر في بوابات الدخول ؛ ففي قلعة الكرك هناك مدخل طويل مغطى تسيطر عليه فتحات لرملة السهام في جداريه الجانبين ، تعقبه ثلاثة أركان قائمة الزوايا ، ثم باب حديدي مدكلى ، ولربعة بوابات منفصلة. وكانت الحماية تتوفر للأسوار الخلفية من أركان غير متوقعة ، وهي وسيلة كان البسيزنطيون أول من قدمها<sup>(١٠)</sup>.

#### خضع دفاعات القلاع

إن هذه القلاع الضخمة ، بأبنيتها القوية ، ومواقعها الرائعة على الصخور الشامخة وقسم الجبال، بدت منيعه قبل أن تعرف البوارود . وكانت طبيعة الأرض تحول دائما دون أن يصبح استعمال السلاالم كمرأ عمليا ، وليس في الإمكان إحضار أسراج الحصار للسيطرة على الأسوار إلا إذا كانت هناك أرض مسطحة في الخارج تغلظ من الحصادق . وكان من الصعب دائما على المهاجمين أن يجدوا موقعا قريبا بما فيه الكفاية يضعون فيه الملاحق أو الرماحات للقذف الصخور . وكان الخطر الفنى الرئيسى هو النفق ؛ إذ كان المهندسون يجهزون النفق تحت الأسوار ، يستدون سقفه أثناء توغلهم بثمء خشبية ثم يشعلون فيها النيران في نهاية الأمر بفروع الأشجار ، مما يتسبب في انهيار النفق . ومعهم أصبح الأسوار من فوقه . غير أن حفر النفق كان مستحيلا في حالة بناء القلعة فوق الصخور الصلبة ، كقلعة الكرك . وعلى الرغم من وجود المحارز والصهاريج ، كانت الحماية والعيش هما الخطر الحقيقي . وكان نقص القوة البشرية يعنى عدم القدرة

(٩) Rey, *Architecture Militaire des Croisés*, pp. 70 ff. استخدمها فرسان القيد وفرسان المستشفى ؛ Fedden, *op. cit.* pp. 28-9. Deschamps, *Le Temple*, *op. cit.* pp. 279 ff. وذلك للإعلاج على مراحل كل لسط والتغيرات الشاملة عليه . انظر أيضا Melvin, *Le Pire des Templiers*, pp. 136-42.

(١٠) Fedden, *op. cit.* pp. 29-30.

على الدفاع بصورة جيدة ؛ إذ ليس يوسع المملكة دائما إرسال قوة محوّصة ، وكانت معرفة هذه الحقيقة تسبب في إثارة التشاؤم بين أفراد الحامية؛ ذلك أنه في ذروة انتصارات صلاح الدين ، لم تستطع قلعة صهيون العظيمة - التي اشتهرت بأنها أقوى القلاع في زمانها - مقاومة المسلمين إلا ثلاثة أيام<sup>(١١)</sup>.

إن أهمية القلاع الصليبية تقع في نطاق التاريخ العسكري أكثر مما تقع في نطاق التاريخ الفني؛ ذلك أن الصليبيين العائدين إلى أوروبا أتوا معهم بأفكار عبرت عن نفسها عمليا هناك ؛ قلعة ريتشارد قلب الأسد التي تُعرف بقلعة حِيار قدمت تلك الأفكار إلى العالم الغربي. غير أن القلاع في الشرق كانت لها قيمتها الجمالية، فكانت تعد من أروع أمثلة العمارة الكنسية في الشرق الغربي؛ وقاعاتها الضخمة - وأجملها في قلعة الكرك - تقارن بأروع القاعات القوطية الأولى في غرب أوروبا ؛ وتظهر أحيانا السكينة الرفقة والجمال ، وقد بقيت لتعطينا فكرة عن فصور البلاء في الشرق الغربي . أما غرفة السيد الأعظم في قلعة الكرك ، التي ترتفع عالية في الترح المحنوس الغربي من الحيز المركزي الداخلي ، يفتتها الضلّعة ، وأعمدتها الرقبة ذات النحان والقواعد ، وإبريزها السبط كامل الاستدارة بحيث يُظهر زيتته الزهرية خمس زهرات بتلاتها ، وبما كانت هي الغرفة الأكثر بهاءً دون أغلب غرف قلاع وقصور المدن الأخرى . وطرازها هو الطراز القوطي لشمال فرنسا في القرن الثالث عشر ، بينما للقاعة الضخمة زخارف قوطية حجرية مماثلة للخاروف الموجودة في كنيسة سانت نيكولاس المعصرة في ريم<sup>(١٢)</sup>.

وكانت القلاع عملا هندسيا في أساسه ، بينما كان المقصود بالكتل أعمالا فنية . وعندما وصل الصليبيون إلى الشرق وحلوا فيه تقاليد قديمة للبناء تناسب البلاد . وكان الخشب سلعة نادرة ؛ وكل ما تقدمه الغابات يستغل في بناء السفن وصناعة الأسلحة ، ولذا كان على المهندسين أن يقوموا بالبناء دون دعامات خشبية ، وكانت الأسقف من الحجارة وغالبا مسطحة كي تكون بمثابة شرفات للقضاء الأمسيات . وكان نظام التفتية يستخدم لدعم السقوف ، وكانت الأقواس المديبة القادرة على حمل الأوزان الثقيلة من التلامح المعصرة آنذاك . وكان الطراز الوطني للبياتين السوريين هو

(١١) Oron, *History of the Art of War in the Middle Ages*, II, pp. 29 ff.; Foulden, *op. cit.* pp. 34-40.

(١٢) (الرحم) : ريم Reims : مدينة شمال شرق فرنسا شهدت استسلام قلعتها للحلفاء عام ١١٤٥.

الطرار العربي - البيزنطي الذي بلغ الكمال في ظل الخلفاء الأمويين، والذي امتد أثره إلى ما حدث من تطور في العصر العباسي بعد ذلك، وفي فن العمارة الفاطمية وما تأثرت به من عمال أمريقيين وكان البيزنطيون قد شاهدوا مؤرخي الأعمال البيزنطية في الأماكن المقدسة وفي أنطاكية، كما كان هناك تدفق للحرفيين الأرمن المهرة بقرائهم الخاص بهم.

#### عمارة الأماكن المقدسة

كانت أول كنيسة بناها الصليبيون في الشرق هي كاتدرائية القديس يوحنا في طرسوس التي استكمل بناؤها قبل عام ١١٠٢ م. وهي عبارة عن مبنى ينقسم بالخشونة والقفظة على طراز كنائس عمال فرنسا الرومانيسكية الأسطورية، ولكن أقواسها مدنية؛ وهي كاتدرائية مستطيلة الشكل ذات جناحين وصحن تحده أعمدة وركائز بالتبادل. وقد أحضرت الأعمدة من بعض المباني القديمة؛ وتيجان الأعمدة مكعبات حجرية بسيطة مثلثات، منحوتة من زوايا المكعبات، وهو شكل من الزخرفة يوجد في الراينلاند الألمانية، وكذلك في أرمينيا، وربما قام العمال الأرمن بعمل هذه الأشكال هنا. وكان لطريقها الفخمة أثر في ذوق العمارة الصليبية بعد ذلك<sup>(١٣)</sup>.

وما أن استقر المستعمرون أميني حتى كان أول اهتمامهم بإصلاح الأماكن المقدسة، وبعد ذلك إنشاء الكنائس المناسبة في مدنهم الرئيسية. ومن أقدم المزارات التي بقيت في حالة جيدة كنيسة الميلاد في بيت لحم التي بناها قسطنطين ورمها جسيبيان؛ والإضافات المعمارية الوحيدة التي أنشأها الصليبيون رواق بسيط مسقوف ذو أعمدة على النمط القوطي أقيم سنة ١٢٤٠ م بقرية، ومدخل عمالي جنوبي إلى مغارة الميلاد، بُني سنة ١١٨٠ م تقريباً على الطراز الرومانيسكي المتأخر، له فوس مدبب وعلى تيجان الأعمدة زخرفة على هيئة أشواك من صحن سورى فيما يبدو. كما بنى الصليبيون مقاراً للرهبان حول الكنيسة دُمرت الآن<sup>(١٤)</sup>. أما الكنيسة الأكثر قداسة عملاً سواها، وهي كنيسة القبر المقدس في القدس، فقد بنيت لهم غير ملائمة؛ فبعد أن دُمرها الخليفة الحاكم بأمر الله، أعاد البيزنطيون بناء القاعة المستديرة المحيطة بالقبر

(١٣) Erlant, op. cit. ii, pp. 378-9

(١٤) Erlant, op. cit. ii, pp. 66-8

نفسه، غير أنهم جعلوا الطرف الشرقي مسطحاً وبنا هناك ثلاثة عمارب مقببة، وألحق بمصلى القديسة ماري العذراء بشمال القاعة المستديرة، أما مصلى القديس جون، ومصلى الثالث، ومصلى القديس جيمس فقد أُلحقت بجنوب القاعة المستديرة. وأعيد بناء موضع جُلُثَّة<sup>(١٤)</sup> كمصلى منفصل، كما أعيد بناء مصلى القديسة هيلينا في كهف اكتشاف الصليب<sup>(١٥)</sup>. وكانت المباني مزخرفة في ترف بالرخام والفسيفساء. وقرر الصليبيون وضع كافة المباني معا تحت سقف واحد. ومن الواضح أن الأعمال الرئيسية قد نُفذت بعد زلزال سنة ١١١٤م وقبل سنة ١١٢٠م برغم عدم انتهاء بعض الأجزاء عند موت بلدوين الثاني سنة ١١٣١م، ولم يتم تكريس المسرح الجديد حتى ١٥ يولية ١١٤٩م، وهو الذكرى السنوية الخمسين للإستيلاء على المدينة، وأضيف برج الجرس في حوالى سنة ١١٧٥م.

وكان لا بد أن يتأثر عخطط البنى الجديد بالموقع الذى كان يحده من الجنوب صخرة الجمجمة ومن الشرق بالبحر الذى يؤدى إلى مصلى القديسة هيلينا الذى يقع أسفل القاعة المستديرة بعدة أقدام، ولذلك هدم الفرنج الجدار الشرقي للقاعة البيزنطية، ودمروا عماربها للقبّة، مستبدلين أوسطها بقوس كبير يؤدى إلى داخل كنيسة جديدة تتألف من مكان مخصص بطرقة النشدين له قبة تقوم على ركائز بالقرب من الطرف الغربى، وجناح يحيط به جدران مستوف، والطرف الشرقي متحن وبه ثلاثة عمارب مقببة. وبين الحراب الأوسط والخراب الجنوبي سلم ينحدر مؤدياً إلى كنيسة القديسة هيلينا مباشرة. وأما الجناح الجنوبي فيقع قبالة مصلى الجمجمة الذى أعيد بناؤه برغم بقاء الفسيفساء البيزنطية على أعمدة المدخل. وفي ناحية الغرب من حلقة، وفيما بينها وبين القاعة المستديرة ومصلى القديس جون، بُنيت قاعة جديدة لتضم في غرب مصلى الجمجمة حجر المسحة<sup>(١٦)</sup> وقري جودفري وبلدوين الأول. وكان هناك حجر - وهو المدخل الرئيسى الحالى - يؤدى من القاعة الجديدة إلى قاعة. وامتد بطول الجناح الشمالى جناح خارجى شيد البيزنطيون معقله، يفتح على قاعة آخر يفرع منه حجر

(١٤) (الترجم): جُلُثَّة Golgetha: وفي الإنجيل: الموضع الذى شُيِّد فيه المسيح: "وساموا به إلى موضع حلقة ذى فسوره موضع شُيِّد" (إنجيل مرقس ١٥: ٢٢).

(١٥) (الترجم): اكتشاف الصليب Invention of the Cross، استبدل الثالث من سائر حلقات الذكرى سا تروى عن اكتشاف الصليب الحلقى في القدس عام ٣٢٦م بواسطة هيلينا أم قسطنطين العظيم.

(١٦) (الترجم): البسطة Anointing: من القورس للبيسبة يبرى لمسح الشعب خاصة عند العماد أو الذى يختصر في القري يجرى عطر وما إلى ذلك.

بجوار كنيسة القديسة ماري ويؤدي إلى شارع الطريق. وهناك فناء ثالث يحيط بمصلى القديسة هيلينا وتُحيط به مبان حديثة لسكنى كبار الرهبان الأرمن الذين عُهد إليهم آنذاك بالكنيسة.

وهذه الأعمال الصليبية - التي تجاوزت تقريبا الحوازمين سنة ١٢٤٤م ، ومرور الزمن ، والحريق الفاجع في ١٨٠٨م - تبدو وثيقة الصلة بالكنائس الكاثوليكية الكبيرة التي بناها الخنجا ، وخاصة كنيسة القديس سيرين في تولوز التي كرسها البابا إتيان بعد مؤتمر كايرومونت مباشرة . وبذكرنا المصلى المسقوف بشدة بأمداله في كلوني نفسها وكنيسة القديس سيرين ١ وإن كان هناك فارق فواته فارق في الحجم . فقد حرص مهندسو القصر المقدس على جعل أعمدهم أقصر وأقوى حتى تتسق مع القاعة المستديرة البيزنطية ، التي ربما كان المقصود بتصميمها مقاومة صدمات الزلازل . وفي الإسكان مقارنة التفصيصا الزخرفية - باستثناء ما تبقى من السيلسياه البيزنطية وتيجان الأعمدة - بالكثير من مثيلاتها في جنوب فرنسا وجنوبها الغربي . وتبدو أعمال النحت ، وبخاصة تحت الأشكال المنحوتة على الأضراس العليا للأبواب والوحدات ، في أغلبها من مدرسة تولوز وإن كانت قد نُحتت محليا . وعلى وجه العموم يبدو أن المهندسين والفنانين الذين قاموا بالعمل كانوا فرنسيين ، ومن جنوب غرب فرنسا على الأرجح ونشروا التراث الكلاسيكي . والمعروف أن المهندس الذي كان يصمم برج جرس الكنيسة يدعى جوردان (الأردن) ، وهو اسم عادة ما يُطلق على الأطفال الذين يُعمدون في النهر المقدس . وربما كان من مواليد فلسطين<sup>(١٨)</sup>.

#### الكنائس في القدس

وكانت كنيسة القصر المقدس هي الضريح الأقدم الوحيد الذي أدخل عليه الصليبيون تغييرات واسعة . وربما هذه كنائس صغيرة ، مثل كنيسة صعود المسيح الواقعة على جبل الزيتون ، وقصر المدراء في الجثمانية<sup>(١٩)</sup> . وعندما صارت قبة الصخرة كنيسة فرسان المعبد لم يضيفوا إليها سوى زخارف وأعمال حديدية زخرفية ، كما لم يُبنى المسجد الأقصى برغم إعادة تهيئة المنطقة التي يعلوها لتصبح حظائر

(١٨) Zaluski op. cit. ii, pp. 144-80. Duckworth, *The Church of the Holy Sepulchre*, pp. 203-58; Harvey, *Church of the Holy Sepulchre* pp. ix-x.

(١٩) (لوحسم) الجثمانية : المنطقة التي اعتزل فيها المسيح خارج القدس.



للحياد وعازن ، وشيّدت المباني حول المسجد لإيواء فرسان النظام ، بينما أضيف جناح في الجهة الجنوبية الغربية أصبح مكان الإقامة المفضل للنبوك . وفي أغلب المدن التي استعمروها وجدوا أن الكنائس قد أصابها من شدة الدمار ما لا يجعلها تستحق الإصلاح ، فكانوا يتركونها لأصحاب الطوائف من السكان الأصليين الذين كانوا يملكونها فعلاً . واستولوا على بعض الأديرة القديمة ، وإن كانوا يقتطعون بصورة عامة تشييد مبانيهم الخاصة بهم. وفي بعض الأحيان كانوا يستخدمون المراتع السابقة وقواعدها النجنية ، كما حدث في كنيسة البازيليكا ذات القاعدة الرومانية الكبيرة في جبل صهيون ، وفي أحيان أخرى كانوا يقيمون التجمعات الترميم السابق تغييراً متديداً، كما حدث في كنيسة الجثمانية . وفي أغلب الأحيان كانوا يبنون المرافق الخاصة بهم أو يعيدوا بناء الكنيسة برمتها في مواقع تقليدية<sup>(٢٠)</sup>.

وعلاوة على كنائس فرسان المعبد التي كانت ذاتية الشكل ، كان التصميم الثالث للكنيسة الصغيرة هو الشكل المستطيل مع وجود نوء دائري أحياناً في المناطق الخارجية في الطرف الشرقي . وكان البناء قوياً ذا عقد مدبب واحد متقاطع الأضلاع يدعم سقفها حجرياً مستطوحاً . وكانت هذه الكنائس الصغيرة مبنية في كل قلعة، حتى في القلاع المعزولة مثل القلعة الواقعة على تل الوعرة بجوار أطلال البهاء القديمة<sup>(٢١)</sup>.

وكانت الكنائس الأكبر مستطيلة كذلك ، ولها أجنحة جانبية بطول المبني تفصلها عن صحن الكنيسة أعمدة أو قوائم. وكانت هناك ثلاثة محاريب متوليفة في عمق الجدار . وكان في الكاتدرائية الكبرى في صور وفي كنيسة أو كنيسةين آخرين أجنحة فرعية قصيرة تجعل صحن الكنيسة يتخذ هيئة صليب، وإن لم يكن لذلك مدلولاً معمارياً. وتوجد في كاتدرائية طرطوس غرفة للأضياء المقدسة وأخرى لأدوات التناول مبيتان في الركنين الجنوبي الشرقي والشمالي الشرقي . وكان للكنائس ، مثل كنيسة القديسة آه في القدس، وكاتدرائية قبرصية فيما يبدو غياب تقويم على أعمدة وتغطي الحيز الواقع أمام الحرم ، وكان السقف في العادة مسطحاً أو برميلبي الشكل .

(٢٠-) Enlart, op. cit. II, pp. 207-11, 214-21, 233-6, 243-5, 247-9.

(٢١) لم يبق من كنيسة الوعرة سوى ما يزيد قليلاً على ثلثه البندقي في المحيط الخارجي . كما لا يوجد سوى بقايا شاهية لأبرز محصور ولا أثر هناك للوعرة . وليس أحسن استخداماً في تشييدها أصغر من أبعاد الصليبيون على استعماله في المباني . ويبدو أن كان لها دوائر خارجة ومزودة . أما كنيسة قلعة الكرك فكانت أكبر بكثير ولها أربع نوافذ . ويقال إن لها زخارف جميلة وإن لم يبق منها شيء الآن . أما كنيسة فرسان المعبد في قلعة عكايت فلم تكن ذاتية وإنما بنيت عشر سنوات قبل القرن الثالث عشر.

وكانت الأعمدة الجانبية مغطاة في معظم الأحوال بألوانية ذات حنايا ؛ وكان الصحن مغطى إما بقبر ذى حنايا أو بقبر برمالي طويل مذهب مقلع . وإذا كانت الأجنحة أقل ارتفاعا من بقية أجزاء الكنيسة ، تعددت النوافذ حول المنور ، وكانت النوافذ كلها ، بما في ذلك تلك التي تقع في الشرف الشرقي ، صغيرة لتدري ضوء الشمس سوربا البهر . وكانت الأفراس مديبة باستثناء القليل منها . وكانت الأبراج بادرة ؛ وكان للكنيسة القبر في جبل الطور برجان على جانبي المدخل الغربي ، بجو كلى منهما مغطى على هيئة محراب في الدور الأرضي . وكانت تلحق بالكنائس أحيانا أبراج أبراس ، ولكنها لم تكن جزءا مكملا لها<sup>(٢٢)</sup> .

#### زخرفة الكنائس

كانت زخارف كنائس القرن الثاني عشر بسيطة ؛ ودائما ما كانت تستخدم في ذلك أعمدة مأسودة من الباني القديمة ؛ وتوعدت رؤوس تلك الأعمدة ، فكان بعضها قديما ؛ واتخذ البعض النمط الكورينثي والستلي لرؤوس الأعمدة البيزنطية والعربية ، الذي كان يتبعه البناءون أو الفرنج الذين ساهروا الأنماط المحلية ؛ كما اتخذ البعض النمط الرومانيكي الغربي<sup>(٢٣)</sup> . وكانت توجد في بعض الكنائس ، مثل كنيسة قرية الباب ، لوحات حدارية على النمط البيزنطي<sup>(٢٤)</sup> ، وكانت هناك أعمال من القسيفساء

(٢٢) أنظر Enlart, op. cit. p. ١٠١١ و. أنعمت بدرجة كبيرة على المعلومات الشخصية المتصلة بالمباني.

(٢٣) أنظر Enlart, op. cit. p. ٧٥-٧٠.

(٢٤) أنظر كندة ، ص ٤٣٩ .

في حجرة المشاء الأحمر على جبل صهيون ، وفي كنيسة الرقاد<sup>(٢٥)</sup> الملاصقة لها<sup>(٢٦)</sup> . ولا بد من أن يكون الفنانون البيزنطيون الذين أرسلهم الاسم الطور متاول ومعههم أدواتهم قد مارسوا فنيهم هناك ، كما مارسوه بالفعل في كنيسة الميلاد في بيت لحم<sup>(٢٧)</sup> ، وإن كانت الزخرفة التصويرية نادرة . وكان للزخارف المحيطة بالأيقونسطاف مدنية ، أي على شكل أبواب الكلب . ولم يبق إلا القليل من الأشكال المنحوتة ، وكانت لبناث عسوة الألقواس مرتبطة في الغالب ، وكانت الحليات وردية الشكل البسيطة من الزخارف الأخرى المعشقة<sup>(٢٨)</sup> .

وكان الموقع العام لكنائس القرن الثاني عشر يتميز بالحمية إلى حد ما ، ولم يبلغ شأو العمارة للمعاصرة في الغرب ، ويرجع ذلك إلى الخرص على احتساب استخدام الأخشاب والإحارار من الزلازل ، وإن جاءت النتيجة حسنة التناسب . ولا شك في أن الصليبيين قد جاءوا معهم مهندسين معماريين نشروا الأنماط الفرنسية ، والفروغانيسي والفيلووزي منها على وجه الخصوص ، بيد أنه من الواضح أنهم أخذوا بأراء البنايين المحليين ؛ وتعلموا في الشرق طريقتهم في استخدام القوس المدب . وأول مثالين للقوس المدب في الغرب يتمثلان في كنيستين قامت ببنائهما حوالي سنة ١١١٥م إيندا اللورونية ، وهي أم أول حاكين فرجين للقدس ، وكان ابنها الأكبر إيوستاس الفيلووني

(٢٥) (والزخرف) الرقاد أو الموت Dermition : ويقصد به وفاة السيد العذراء في نزعها الأحمر ، ويقتل فيها الرقاد موتوها فيها لقوله الفنانون المسيحيون تباركاً مختلفاً غير المعمور . ويرجع الاختلاف في لوحات أو تلك اللوحات إلى أن فنون موضوع موت السيدة العذراء جاء في الأسماء المكتوبة من الكتاب المقدس . وهذا الموضوع الفني بطور حول فكرة تقول إن ثلاثة للمسيح المذبحين في أرض الأرض جاءوا بعد موت العذراء إلى فراش مولها بطريقة إيجازية واثقوا حول . كما حيط المسيح نفسه من السماء وانضم إليهم ليأول رفع روحها بدمه . وفي اللوحات الأولى التي تناولت هذا الموضوع ، ظهر السيد المسيح بعمل روحها على شكل طفل في آكام بفضاء ، بينما ظهر للسيد بولس وانما رأسه على صدرها منتصاً إلى دقة القلب الأخيرة . وفي لوحات ثالثة تقديرات روحها شكل ملاك ، ثم احتفى السيد والمسيح والروح في لوحات لاحقة . ولم يكن ليتم هؤلاء الفنانين هذا النوع المذهب في معالجة هذا الموضوع ما لم تكن تلك الرواية قد وردت في الأسماء المكتوبة من الكتاب المقدس .

(٢٦) في سنة ١١٠٦م شاهد دانيال ليجونين Daniel the Hymnographer في حجرة المشاء الأحمر 36 p. في Khitrovo, Fiodorova-Barso, وفي حوالي سنة ١١٦٠م كانت John Wierberg تصف لوحات الرسل الكنيسانية هناك بما عليها من كتابات لاهوتية تصف جود الروح القدس ، وكانت المسموفاة في كنيسة الرقاد التي تصور الرقاد نفسه والكتابات المنونة عليها للكنيسة بملاتية وإذاً تستخدم مصطلحات يونانية P.P.T.S. pp. 42-3 .

(٢٧) أنظر كند ، ص ١٢٩ .

(٢٨) Enlart, op. cit. t. pp. 93 ff.

قد عاد حديثاً من فلسطين . ومن العسير ألاّ نتفقد أن المهندسين العالدين أشاعوا الطريقة الجديدة في الغرب ، حيث طوّرت كي تناسب الحاجات المعمارية المحلية<sup>(٢٩)</sup>.

ويستحيل على المرء أن يلجأ إلى التعميم في تناوله لأصول شئ الوجه المعمارية والزخرفية ؛ ذلك أن قبة كنيسة المدينة آن في القدس شديدة الشبه بالقباب التي بناها المهندسون الفرنسيون في Périgord ، وإن كان نفس نمط القبة الثالثة على أعمدة بلا استوائية موجود في الشرق<sup>(٣٠)</sup>. وغالباً ما يقارب الحفر الرومانسكي الحفر البيزنطي والأرميني بحيث تظهر التفرقة الواضحة بينها ؛ ومن المحتمل أن حفر الأشكال ، والحبال الزائدة الذي تنسم به رؤوس الأعمدة ؛ من شاح القناتين القرنج ، على أن زخارف أوراق الأفتشا أو الكروم نشأت عنها . ويبدو أن نموذج الأطراف للمدينة كان ينتقل من الشمال إلى الجنوب حتى في أوروبا ؛ وكان نمط أبواب الكلب معروفاً في المشرق من قبل ، ويوجد هذا النمط ، ونمط لبنات العقود المبطنة ، على البرابطة الفاطمية العتيقة بباب الفتوح في القاهرة ، التي بناها مهندسون أرمينيون من الرها ، وهي المدينة التي سبق أن كان البيزنطيون مسؤولين فيها لعدد من العقود عن إقامة كثير من المباني الجديدة<sup>(٣١)</sup>.

#### القيسقاء واللوحات الجدارية

وتُظهر الأمثلة الباقية من فنون التصوير تأثراً شديداً بالمثاق البيزنطي بتشكك قيسا يبين في أن فناناً فرقياً واحداً قام بعمل في الشرق . ومن القيني أن أعمال القيسقاء

(٢٩) . East, op. cit. i, pp. 3-4, 67-8. إلى بعض الحراف في كنيسة لندا في West and Saint Winser في بولونيا المذكور في وضوح بالأعمال العربية . ولقد وجدت الأقواس المدية في كنيسة Chany في نفس التاريخ تقريباً . والدور الذي قام به المهندسون الأرمين في نشر القوس القصب وهي تلة أفراس المقود التي بلغ Strzowski في استكارها جدير بالإعبار . انظر Le Bahrastis, problème de l'Orgue de l'Arménie, pp. 45 ff. esp. pp. 68-70. يقال عن أعمال الأرمين في أرتزيم . انظر أيضاً Clapham, Romanesque Architecture, pp. 107-12.

(٣٠) . Clapham, loc. cit. . وفي المدينة صوفيا في القسطنطينية بلا اسطوانات . وكانت الاسطوانات دائرية في العمارة الفارسية.

(٣١) . Clapham, op. cit. pp. 110, 112-13. وهو يرفض قبول أن القناتات الأرمينية ذات صلة ؛ بسبب التشكك المعطى بالتاريخ . على أن زخارف الكنائس في أرمينيا الكبرى يمكن تحديد تاريخها بشيء من الدقة . انظر Der Neuenstein, Armenia and the Byzantine Empire, pp. 84. الذي يظهر عموماً مدعياً بتبع أصول الأنماط الفرعية

في بيت لحم صنعها ونفذها فنانان من القسطنطينية هما بازل وإفريم ، وإن كانا قد قاما بعملهما بالتعاون مع السلطات اللاتينية المحلية . وبمدت في تلك الأعمال صورا القديسين الغربيين وكذلك الشرقيين ، وحسات الكتابات عليها في اللغة القلاينية وكذلك اليونانية، ويحتفل أن يكون رسم المسيح بالقسيساء في الكنيسة اللاتينية في الجمجمة من عملهم<sup>(٢٢)</sup>. وخط اللوحات الجدارية ، التي يتورها اليلى سرىعا في فريس الباب ، خط بيزنطى والنقوش عليها لاتينية ، وإن كان اختيار موضوعها شرقيا<sup>(٢٣)</sup>. وكان هناك ، على وجه اليقين ، فنانون يونانيون يعملون في فلسطين حوالي سنة ١١٧٠م تحت رعاية الامبراطور مانويل ، وكانوا مسؤولين عن اللوحات الجدارية في الأديرة الأرثوذكسية في كلامون وسان إيدليميوس ، ولا شك في أن الآباء اللاتينيين في قرية الباب كانوا يستخدمونهم في زعرفة كنيستهم<sup>(٢٤)</sup>. وأحيانا ما توحد الكنيسة الصغيرة في ليمون ، على مقربة من طرابلس ، على أنها أثر صليبي استدلالا من معمارها ، ولكن تكريسها باسم قديس يوناني فوكاس وكتابتها اليونانية ، ولوحاتها الجدارية البيزنطية، تظهر أنها مزار أورثوذكسي في كل حال ، وهي تدل على الصعوبة البالغة في التفريق بين النسخين الفرغى والملى<sup>(٢٥)</sup>. ولقد انتفع كثير من كتابس الفرغند بالهدايا التي منحها الامبراطور في القسطنطينية لأساقفتها، وبخزنا كبير الأساقفة العظيم ولهم قصورى بأن الامبراطور مانويل أفدق عليه هدايا فاخرة لكنيسة<sup>(٢٦)</sup>. ولقد زار أسقف الناصرة كشارد للجنة الإمبراطورية لمفاوض في أمر زواج بلدوين الثالث ، ومات هناك ، وعاد حسانه عملا بالهدايا كذلك<sup>(٢٧)</sup>. وكان هناك اتصال مستمر طوال القرن الثاني عشر ، خاصة في عهد مانويل، بين أوترمييه وبيزنطة ، ولا بد

(٢٢) *Church of the Nativity at Bethlehem* (ed. Schult), pp. 11-7, 65-6; John Phocas's description; Enlart, op. cit. i, p. 159, ii, pp. 65-6; Dalton, *Byzantine Art and Archaeology*, pp. 414-15. See above, vol. ii, pp. 391-2 and n. i. The mosaic Christ in Glory from the vault of the Latin Chapel of Calvary is reproduced as the frontispiece of Harvey, op. cit. Very little has been written about it. It may be Byzantine work of the previous century.

Enlart, op. cit. ii, pp. 323-4.

(٢٤) *أصل الجزء الثاني من ٣٣٦ مخطوطة*.

Enlart, op. cit. ii, pp. 35-7.

(٢٥) William of Tyre, xxii, 4, p. 1008.

(٢٦) *Ibid.* xxii, 22, p. 857.

من أن يكون لبيزنطة تأثير فني عظيم آنذاك ، واستمر هذا التأثير عبر القرن التالي ويوحى الوصف الذي أورده ويلبراند (أوف أولينبرج) للقصر آل إبلين في بيروت بلوحاته التخيلية وروحانه ، بأنه عمل بيزنطي ؛ والفرود العجوز حيون الإلبنسي الذي بناه كانت أمه أميرة بيزنطية<sup>(٣٨)</sup>.

وكان ذلك القصر = في بيروت - استثناءً - فعمارة القرن الثالث عشر في أوترجمه القزيت من المزايا الفرنسية أكثر من عمارة القرن الثاني عشر - وبالنسار للداكنات الفرغية فيما لا يتجاوز المدن الساحلية إلا قليلا، هذا أن دور الصناع الوطنيين والمزايا الخلى قد أخذ في التقلص . وكانت كثرانية البشارة في الناصرة هي أحمر الكنائس التي اكتملت قبل فتوحات صلاح الدين ثم حطّم بيوس ميناها ، بيد أن الشكل النحوت البقي هناك فرنسي صرف ، ويشو أن مدخلها الكبير ، وهو أكثر المداخل زخرفة ، كان يشبه إلى حد كبير مداخل كثير من الكنائس الفرنسية في ذلك الوقت ، وكان المبنى بأسره يقرب فيما يشتمل من النمط الفرنسي أكثر مما يقرب من النمط المحلي السابق<sup>(٣٩)</sup>. وكانت الكنيسة الرئيسية التي بنيت في القرن الثالث عشر - وهي كنيسة القديس أندرو في عكا - عبارة عن مبنى فوطيا عاليا ورشيقا ، لا يبقى منه الآن إلا بقايا قليلة، ولكن الأوصاف والرسوم التي تركها الرحالة القدامى تؤكد ارتفاعها ؛ وكانت أجنحتها الجانبية عالية تنورها نوافذ طويلة وضيقة مدببة من أعلاها، ويلتف أسفلها حول الأسوار الخارجية عبر مقفل عند الأطراف ذو أعمدة أربعة.

ولا يمكننا أن نعرف كيفية إضاءة السور والمطرف الشرقي ، أما الباب الغربي فكانت تعلوه ثلاث نوافذ أكبر تعلوها ثلاث نوافذ أخرى تتخذ شكل عيون البقر . وكل ما يبقى من الكنيسة الآن رواق من جانبا الغربي فيما يشتمل ، نقل بعد فتح عكا على ظهور الجمال إلى القاهرة حيث أُنجز مدخلا لمسجد كليم تقليدا للكرسي السلطان أشرف فاتح عكا ؛ ويتخذ هذا الرواق أبعادا مرتفعة وأنيقة ، وتعمل سقفه الملقوس من جانبيه سلسلة من الأعمدة تتألف كل منها من ثلاثة أعمدة أسطوانية يعيقها عمودان كفل استدارة وهكذا ، ويتلاقى جانبا السقف الملقوس في تناسق مع

(٣٨) Wilbrand of Oldenburg in Laurent, *Peregrinatores Medii Aevi Quatuor*, pp. 166 ff. (نظر الجزء الثاني ص ٣٦١).

(٣٩) Eilat, op. cit. pp. 298-310.

رؤوس الأعمدة ، ويتوزع في باطن هذا السقف سقف آخر على شكل ورقة شجر ثلاثية الأطراف تفرقه عين بقرة . وهذا النمط هو النمط القوطي المتبع في جنوب فرنسا<sup>(٤٠)</sup> .

ويُقسم أسلوب عمارة القرن الثالث عشر في قلعة الكرك بنفس النمط التشامبيك . وكانت غرفة السيد الأعظم الشامقة وقاعة الطعام العظيمة تصطفان كتيبة بالصيغة الغربية ، والثانية رواق شديد الشبه برواق كنيسة القديس أندرو في عكا ، وإن كانت أعمدها أقل أناقة ، وله نافذة وردية الشكل تتوسط سقفه القوس ، تقابل عين البقرة التي تتوسط سقف رواق كنيسة القديس أندرو<sup>(٤١)</sup> .

ومن المؤسف أنه لم يبق من آثار القرن الثالث عشر إلا القليل ، على أن غطى أوترنيجه في عسومه كان يقارب النمط الفرنسي القوطي المعاصر للفتح في قبرص في ظل حكم آل لوسينيان ، متبعدا عن النمط الأكثر محلية الذي ساد في القرن السابق . وتوحى الأعمال الباقية في الناصرة بأن الفن الصليبي كان على صلة بالحركة القوطية في الغرب . ولقد حفرت فتوحات صلاح الدين كثيرا من الخرفيين المحليين بأن يجاولوا الاستفادة من النمط الإسلامي . ومن المهم أن يقلص النهار بيزنطة عند منعطف القرن من تأثير أنماطها ، وقد جلبت الحملة الصليبية الثالثة إلى الشرق أعدادا كبيرة من الفنانين والصناع الغربيين . ويبدو أن العداء المتزايد بين الكيبستين اللاتينية والأرثوذكسية أوحى في نفس الوقت بتباين أشد بين أنماطهما.

#### مزمارير الملكة ملبسيند<sup>(٤٢)</sup>

ولا يوجد من مخطوطات القرن الثاني عشر سوى مخطوطة مزمارير الحروف يُعرف أنها انتهت إليها من أوترنيجه ، وهي "سفر المزمارير" المعروف باسم مزمارير الملكة ملبسيند . وتنتمي هذه المخطوطة بلا شك إلى أمركة ، وقد جاء فيها ذكر موت بلدوين الثاني والملكة موريفيا ، ولم تذكر موت الملك فولك ، مما يدعو إلى الافتراض أنها تنتمي إلى ملبسيند وأنها كتبت قبل موت الملك فولك . ومع ذلك ، فإن هناك ما يدور الافتراض أنها كتبت لشقيقة ملبسيند ، جوفيتا ، ربة دير بيتالي ، وفي هذه الحالة ، وبالافتراض

(٤٠) - Enlart, op. cit. ii, pp. 15-23 .

(٤١) - Enlart, op. cit. i, pp. 134-7 .

(٤٢) - (والترجيح) نسبة إلى سفر المزمارير في العهد الجديد من كتاب الملوك.

أن ذكر فولك لا محل له ، يمكن أن يرجع تاريخ هذه المخطوطة إلى أمة سنة منحصرة في القدة التي عاشتها جوفينا ، أي حتى سنة ١١٨٠م. وقد كتب النص كاتب لاتيني مقتدر ، وتبدو العناوين المزعومة لائنية أكثر مما تبدو بيزنطية ، وإن كانت زهرقة الصفحة الكاملة بيزنطية تتخذ أسلوب المقاطعات الشرقية من الامبراطورية ، يظهر عليها توقيع رسام يدعى مارل ، ومن الممكن أن يكون مارل هذا هو نفسه الذي قام برسم التراحات الجدارية في بيت لحم سنة ١١٦٩م. وتشابه صور المخطوطة إلى حد ما صور كتاب فنان عثر عليه في سوريا قام برصفته جوزيف الذي كان يعيش في ملطية في عهد أسقف يدعى جون ، الذي يرى أنه نفس الأسقف الذي كان يحكم من سنة ١١٩٣م إلى سنة ١٢٢٠م ، ومن ثم يمكن أن يكون الفنان الذي زخرف مرامير ملبسند سورثا قدرب في مدرسة بيزنطية ، ويحتمل أن تكون المخطوطة قد كتبت لجوفينا رئيسة الدير في السنوات الطويلة من عمرها الطويل<sup>(١٠٧)</sup>.

وهناك مجموعة مثيرة من المخطوطات يُنظر إليها في العادة على أنها نتاج مقلتي ، وبشت البحث الحديث أنها كتبت في عكا في الوقت الذي كان يقسم فيه القديس لويس هناك على وجه التقريب من سنة ١٢٥٠م إلى سنة ١٢٥٤م ، فأسلوبها بيزنطي ، وقد اشترى لويس مقتنيات كثيرة من امبراطور القسطنطينية بلطون الثاني ، وربما كان من بينها مخطوطات أرسلت إليه في عكا وكلفت الفنانين الذين كانوا يعملون هناك . ومن المستحيل أن يقال إن تلك المدرسة قد بقيت بعد عودة الملك إلى فرنسا<sup>(١١٠)</sup>.

لم يبق من الفنون الصغرى إلا أقل القليل ، ومن المستحيل أن تعرف ما شئ منها عتيا وما استعلب من الشرق أو الغرب ، فالأثاث والأشياء التي تستخدم في الحياة اليومية جاءت ولا شك من ورش محلية ، ويحتمل أن تكون مواد الزينة قد جاءت من الخارج ، من القسطنطينية أو من المدن الإسلامية الكبرى ، أو جاء بها زوار من فرنسا .

(١٠٧) Basse, 'The Arts in the Latin Kingdom of Jerusalem', in *Journal of the Warburg Institute Art and Archaeology*, vol. ii, pp. 14-15. في مؤلفه *Dalton's Facsimile*, vol. ii, pp. 471-3. يعتقد أن صور الصفحة الكاملة بيزنطية القسطنطينية ولكنها شُملت لعمل آخر . ورؤوس الصفحات من عمل فنان آخر ، وربما كانت رومانيسكية فريسة واث كانت «كثيرات شرقية» مثلاً القديس جون الإنجيلي بلطون. والفنان الثاني أكثر رقة من الأول ، وإن كانت كوت أسقف . وفي *Our Christian Art* p. 309. وأشار Buchthal, 'The Painting of Syrian Facsimiles in Syria' vol. vi, pp. 136 ff. esp. p. 138.

(١١٠) أي يمكن حتى هذه المجموعة من المخطوطات لا بد أن ينظر بنظر العمل القويك الذي كتبه Dr. H. Buchthal.



أو إيطاليا . وهناك مجموعة من الأشياء عُثِرَ عليها في القرن التاسع عشر تحت أبنية الأديرة في بيت لحم تضم حوزتين نحاسيين يبدو أنهما يرجعان إلى المدرسة القروينية في القرن الثاني عشر ، جُلبت عليها مجموعة من الرسوم تصور حياة القديس توماس الرسول ، وشتمتا من فضين يبدو أنهما من صنع بيزنطي في نهاية القرن الثاني عشر ، وآخرين مطليين بحمات مدنية ليموج الفرنسية يرجعان إلى نهاية القرن الثاني عشر كذلك ، وآخر أكبر من سابقيه ، ورأس صولجان أسقف ، مطليين بحمات مدنية ليموج كذلك<sup>(٤٦)</sup> . وربما يكون الحائز الخديدي الذي أقامه الصليبيون في قبة الصخرة من صنع محلي ، وإن كان شديد الشبه بالمشغولات الحديدية الرومانسكية الفرنسية<sup>(٤٧)</sup> .

#### الفنون الصغرى

وربما كانت الثريات الحديدية المستخدمة في الكنائس مصنوعة محليا ، وإن جاءت تصميماتها على غرار تصميمات أوروبا الغربية المتأخرة<sup>(٤٨)</sup> ، ولم تبقى أدوات فخارية أو زجاجية يمكن إرجاعها إلى تلك الأيام . وكانت العملات والأختام تصنع محليا ، وكانت تلك العملات تصك بقصد استخدامها في الشرق ، ومن ثم أخذت الأختام الإسلامية المحلية ، وصارت عليها نقوش عربية . وأختام القرن الثاني عشر بسيطة وبداية ، أما أختام القرن الثالث عشر فتتميز بركة واتقان أكثر<sup>(٤٩)</sup> . وهناك وعاء بلوري على هيئة ركاب في إطار من الفضة المزينة بالخواهر ويغوي صندوقا داخلياً من الخشب المشغول ، وهو محفوظ الآن في القنس وربما كان من صنع محلي ، وإن كانت أجزاءه الفضية أو البلورية قد جاءت من وسط أوروبا<sup>(٥٠)</sup> . وهناك لوحتان من الصاج منقوشتان في رقة ، وهما بمثابة خطاين لسفر مزامير الملكة مليسند ؛ على أحدهما مقلبات تفكيكية قصة داود وفي أركانها رسوم أرواح ، وعلى الآخر عرش المرحمة وفي أركانها حيوانات خرافية . ورسوم الأيقونات غربية أكثر منها بيزنطية برغم أن اللباس الملكي بيزنطية ، أما الحيوانات ف ذات طابع أتلنسي ، والزخارف أرمينية الإجماء . ولا يمكننا فيما يبدو أن

(٤٥) - Erlant, op. cit. ١, pp. 172-201 .

(٤٦) - Ibid. ii, pp. 310-11 .

(٤٧) - Ibid. i, pp. 175-9 .

(٤٨) - See Schliemann, Sigillographie de l'Orient Latine, esp. introduction by Blanchet .

(٤٩) - Erlant, op. cit. ١, pp. 197-8 .

نفترض أن صانع عجاج على هذا القدر من المهارة كان يعيش في القدس في ذلك الوقت، وربما كانت هاتان اللوحتان هدية من مكان آخر<sup>(٥٠)</sup>.

ولا ينبغي أن يستخلص الباحث من ضالة الشواهد أن اليهود لم يكن كبيراً ذلك أنه إذا ما ازدهرت العمارة ازدهرت الفنون الأخرى كذلك وعكست صورة الحياة في أوترجميه؛ فالعمارة في القرن الثاني عشر عمارة مستعمرين كانوا على استعداد للتوافق مع البلاد التي جاءوا إليها، وإن كانوا يستمدون العون والمسا من الغرب. على أن الكوارث التي حلت في نهاية القرن الثالث عشر قضت على التوازن القديم؛ ففي القرن الثالث عشر لم يبق من الأسر المنظمة القديمة في أوترجميه سوى القليل، وحلت محلها الأنظمة الدينية العسكرية التي كانت بُنيت أساساً من الغرب ولم تكن تتعاطف كثيراً مع التراث المحلي. والعناصر الموضنية في المدن تفرقت الآن، وانتهت عنها بانظريتها إلى الغرب، وركزت الثروة لدى الإيطاليين، بينما كانت القوة في العادة في أيدي ذوي النفوذ من الغرب أو من يربون عنهم. ولجأ النبلاء - أكثر فأكثر - في اللجوء إلى قروص حيث كانت تنبثق حضارة غوطية. وكانت هناك أصداء بيزنطية قليلة تتلوى إلى الأسفار، وإن كانت تتعاملت شيئاً فشيئاً، فبيزنطية أصبحت في الأقوال، وقضت المغول على الثقافة العربية الأخرى، وكانت ثقافة مصر المملوكية الأحداث معادية. وربما استمر تلافي الثقافات في أنطاكية، غير أن النهب والزوال واليأس قضت على شوارعها. وفي الجنوب من أنطاكية، فإن محاولة أوترجميه النفاذ نحو مبرزها قد قضى عليها في ميدان القتال في حعلان. ولم يكن اليهود الشديد المتواضع في أوترجميه إبان القرن الثاني عشر سوى اختناحية لم تلد إلى شيء، وما كانت أوترجميه في القرن الثالث عشر إلا إقليماً نائياً لعمالم البحر المتوسط القوطي.

(٥٠) Endart, op. cit. i, pp. 199-200; Dalton, *Byzantine Art and Archaeology*, pp. 221-3, and *East Christian Art*, p. 218 points out the Oriental affinities and believes that the cover was local. Basse, loc. cit.

---

---

## الفصل الثالث:

### سقوط عكا

\_\_\_\_\_

\_\_\_\_\_

## مستوط حكا

"نهاية. قد جاءت النهاية على زوايا الأرض الأربع"  
(حزقيال ٧:٢)

عم الفرع الشرق القريش لأبناء وفاة يبرس . وكان خليفته إنه الأكبر بركة القند . كان شابا ضعيفا يقضى وقته في محاولة السيطرة على أسراء المماليك . وكانت مسؤوليات السلطنة فوق احتماله . وفي أغسطس ١٢٧٩م تمرد عليه أمير الجنود السوريون قلاوون وزحف على القاهرة ، وتنازل بركة عن العرش لأخيه البالغ من العمر سبعة عشر سنة ، وتولى قلاوون الحكومة، وبعد ذلك بأربعة أشهر حلق قلاوون السلطان الصبي ونصب نفسه سلطانا ، ورفض حاكم دمشق ، سنقر الأشقر ، الاعتراف بسلطته ونصب نفسه هو الآخر سلطانا هناك في شهر إبريل التالي ، لكنه لم يستطع الصمود أمام المنصرين ، وبعد معركة قريبة من دمشق «ارت رحاها في يوتبة ١٢٢٨م ، تقاعد في شمال سوريا وسرعان ما تصالح مع قلاوون الذي استولى بذلك

على موات بيرس كنه<sup>(١)</sup>.

ولم يستغل الفرنج المدة؛ إذ عشا حثهم الحان كيانا وتابعه ليو الثالث ملك أرمينيا على عقد تحالف والقيام بحملة صليبية. ولم يكن لهم من مناصب سوى نظام فرسان المستشفى. وكان تشارلز (أوف أنجو) بكرايته ليزنطة وسيلانها الجنوبيين، قد أسر وكنهه في عكا روجر (كوف سان سفيريس) باحزام التحالف المعقود مع البنادقة وفرسان المعبد والباط للكنوكني. أما البابا، الذي وعده الإمبراطور ميخائيل بأعضاخ الكنيسة البيزنطية، فقد شجع تشارلز في غنططاته السورية كي يشتت انتباهه عن المحجور على القسطنطينية. وأبدى إدوارد الأول ملك إنجلترا تعاطفه مع المغول؛ ولكنه كان بعيدا في إنجلترا وليس لديه الوقت ولا المال لحملة صليبية جديدة<sup>(٢)</sup>.

وفي الشرق الفرغسي، كان يوهنن السابع على استعداد للتعاون مع عمه الأرميني، غير أنه كان على علاقة سيئة بفرسان المعبد؛ وفي ١٢٧٧م تشاجر مع كجوى أتياعه، حوى الثاني إمبراكو أمير جبيل الذي كان من أبناء عسوته وصديقا حميما له، وقد سبق أن حصل على وعد بتزويج إحدى القريبات الجليليات من عائلة أليسان لأخيه حوى. غير أن بارتولوميو أسقف طرطوس رغب في أن يكون الليرات لابن أخيه وحصل على موافقة يوهنن؛ وعلى الأثر احتطف حوى الفتاة وزوجها بلسون، وحشيته من انتقام يوهنن هرب إلى فرسان المعبد. ورد يوهنن بأن دمر مباني فرسان المعبد في طرابلس وقطع أشجار غابة لهم قرية في مونتروك. وعلى الفور فاد السيد الأعظم لفرسان المعبد، ولهم (أوف بوجو)، فرسانه إلى طرابلس وسار في استعراض خارج الأموار، وعندما عاد أحرق حنسن الططرون؛ غير أن محاولته قصف نيفين أسفرت عن أسر التي عشر فارسا من فرسانه ألقى بهم يوهنن في السجن؛ وعندما انطلق فرسان المعبد عائدين إلى عكا، زحف يوهنن على جبيل لهاجتها؛ خرج حوى للقاتلة ومعه كتيبة من فرسان النظام كان قد تركها له ولهم (كوف بوجو)، ودارت معركة عنيفة على أميال قليلة شمال الططرون، وكان في كل جانب مائتا مقاتل بالكاد غير أن القتل استمر، وفزع يوهنن هزيمة منكرة، ومن بين الفرسان الذين فقدتهم ابن عمه، وزوج أخت حوى، وباليان أمير صيدا، وهو آخر رجال بيت حارثيه

(١) Abel Fedu, pp. 157-8; Magrini, *Schaww*, t. II, p. 171, n. i, 26; d'Ohaum, *Histoire des Mongols*, pp. 519-22.

(٢) Hyston, *Flor des Estoire*, pp. 180-1.





## ١٢٨٢م : الحرب الأهلية في طرابلس

قبل بوهمند بعد هزيمته هذبة لمدة سنة ؛ غير أن حوى وفرسان المعبد عاودوا مهاجمته سنة ١٢٧٨م ؛ ومرة أخرى هُزم بوهمند ، بيد أن اثنين عشر غلبونا حاولت شق طريقها للدخول إلى مرفأ طرابلس لكن عاصفة بعثرتها . ثم أرسل بوهمند خمسة عشر غلبونا لمهاجمة قلعة فرسان المعبد في صيدا ، فنجحت في إحداث بعض الأضرار هناك قبل أن يتدخل السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، نيكولاس لورني ، الذي سارع إلى طرابلس ورتب هذبة أخرى . غير أن حوى أمير جبيل كان ما يزال على شراسته وقد عقد العزم على الاستيلاء على طرابلس ذاتها . وفي يناير ١٢٨٢م ، تمكن زعمه إخوانه وبعض أصدقائه من التسلل إلى حصن فرسان المعبد في طرابلس . وقد حدث شيء من سوء الفهم ، وكان قائد فرسان المعبد - رينيكور - غائبا إذ ارتاب حوى في وجود خيانة وكساه الذعر ؛ وبينما كان يحاول القيلاب بمقر فرسان المستشفى جاء شخص ما وحذر بوهمند ؛ وهرب المتآمرون إلى أحد أبراج فرسان المستشفى فحاصروهم جنود بوهمند . وبعد ساعات قليلة أخذوا بتسليم فرسان المعبد ووافقوا على الاستسلام شريطة الإبقاء على حياتهم ؛ غير أن بوهمند حث بوعده ، وفقاً لأهين رفاق حوى جميعاً ؛ أما حوى نفسه فقد أمض مع أخويه جون وبلدوين وابن عمه وليس إلى نيلين حيث دفنوا جميعاً في حفرة حتى أكتفاهم ، وأتركوا كي يموتوا جوعاً.

وارتاع أتباع بوهمند مما لاقاه المتآمرون من مصير بشع ؛ فضلا عن أن أسرة امويكاكو لم تنس أبداً أصلها الجنوي ، وقد كان هناك الكثير من أبناء جنوا بين النامرين . ولأن أبناء جنوا كانوا أصدقاء ودودين للأرمن ودعاة للتصالح مع الممولى ، فقد تباعد بوهمند عن سياستهم . وفي ذات الوقت خطط جون أمير مونتفورت - الذي كان حليفاً حميماً لأبناء جنوا - للخروج من صور كي يتنقم لأصدقائه ؛ لكن بوهمند وصل إلى جبيل قبله . وقد ثلكت أبناء يزا دون غيرهم مشاعر البهجة الخالصة من هذه الحكاية كلها لما يكتونه لأبناء جنوا من كراهية.

ولم تكن الأحوال السياسية أفضل حالاً في الجنوب . ذلك أن القبلاء المحليين كانوا

(٢) *Essai d'Études*, II, p. 481; *Genie des Croisés*, pp. 207, 210-13.

يزدرون حكم روجر (أوف سان سفيرينو) في عكا . وفي ١٢٧٧م حياول وليسم (أوف بروجو) أن يكسب إلى جانب حيون أمير مونتفورت وأطلق في مصالحته مع البادقة الذهب شمع لهم بالعودة إلى أحيانهم السابقة في صور . غير أن حيون ابتعد عن حكم عكا ؛ وفي ١٢٧٩م هبط إلى الزحف في صور الملك حيو ، وفي مأموله أن يجمع السلاء حوله . وسائند حيون ، لكن أحدا لم ينهض لخصرته . وكانت فترة الأشهر الأربعة - التي كان يتق له فيها قانونا المطالبة بأن يتواحد أتباعه القديسيون القادمون من وراء البحار - قد مرت بصورة عقيمة . وعندما عاد فرسانه إلى قبرص كان على الملك أن يتبعهم ؛ وألقى باللائمة لفشلته على فرسان المعبد - بحق - إذ أن وليسم (أوف بروجو) هو الذي أبقى عكا على إحصائها لروجر (أوف سان سفيرينو) . وانتقم من فرسان المعبد بمصادرة أملاكهم في قبرص مما في ذلك قلعتهم في حاسديا ، واشتكي نظام فرسان المعبد لدى البابا الذي كتب لهم بأنهم يبرء الممتلكات، لكنه لم يفعل الأمر البابوي . وعلى الرغم مما يبدو من موافقته على التحالف مع المغول ، بسبب معارضة روجر (أوف سان سفيرينو) في اللقاه الأول ، فإنه لم يكن في وضع يمكنه من القضاء أية عطفة عملية في الأراضي الرئيسية<sup>(١)</sup>.

وكان الحان مظهرها على مهاجمة الممالك قبل أن يتمكن قلاوون من ترسيخ وضعه؛ وكان سنقر - أمير دمشق السابق - ما يزال يتحدى المصريين في شمال سوريا إلى أن عبر جيش مغولي الفترات في نهاية سبتمبر ١٢٨٠م واحتل عنتاب وجرمس ودريسك ، وفي ٢٠ أكتوبر دحل حلب حيث نهب أسواقها وأشعل الحرائق في مساحدها ، فارتاع السكان المسلمون في المقاطعات وهربوا جنوبا إلى دمشق ؛ وفي ذات الوقت قام فرسان المستشفى في الرقب بغارة مثمرة على القلاع وتوغلو فيها حد . كادوا يصلون إلى قلعة الكرك ، وأثناء عودتهم هزموا جيشا إسلاميا بالقرب من مرقية كان قد أرسل لصنعهم . يد أن المغول لم يكونوا من القوة الكافية للإحتفاظ بحلب ؛ فعندما جمع قلاوون قواه في دمشق انسحبوا عبر القنرات ، واكتفى السلطان بإرسال قوة لمعاينة فرسان المستشفى الذين هزموها أمام الرقب<sup>(٢)</sup>.

وفي ذات الوقت تقريبا ، ظهر سفير مغولي في عكا ليخبر الفرنج بانقراض الحان

(١) *Genet des Chiprois*, p. 207; *Annales de Terre Sainte*, p. 457; *Amadi*, p. 214; *Max Latrie, Documents*, II, p. 109; *Raynolds*, 1279, p. 488.

(٢) *Maqdisi, Sulass*, v, i, p. 26; *Ahul Fida*, p. 158; *Bas-Hebreux*, p. 351; *Genet der Chiprois*, pp. 208-9.

ملاح

بإرسال جيش من مائة ألف رجل إلى سوريا في الربيع التالي ، ولوجوهم تعزيز الجيش بالرجال والذئب . وأحال فرسان المستشفى الرسالة إلى الملك إينوارد في إنجلترا ؛ أما في عكا نفسها فلم تكن هناك استجابة . وشعر قلاوون بالخوف من أبناء الغزو المغول القادم ، فتمسك مع سنقر في يولية ٢٨١١م ، مانعا إياه -بطاكية وأحماسيا كالفطاحيين ، وأرسل إلى عكا مقارضا عهد هدنة لعشر سنوات مع النظامين الدينين العسكريين ، وكانت الهدنة للمقودة مع حكومة عكا في ١٢٧٢م ما تزال سارية لمدة عام آخر ؛ ونصح بعض الأمراء من أعضاء السفارة للتصريح بالفرج بعدم قبول الهدنة مع قلاوون لأنه سرعان ما سيهاجم به ، وما أن سمع روجر (أرف سان سترينز) ذلك حتى كتب إلى السلطان بختيره ، وتمكن السلطان من القبض على المتأمرين في الوقت المناسب . وفي ذلك الوقت وافقت الأنظمة الدينية العسكرية في عكا على المعاهدة التي وقّعت في ٣ مايو . وفي ١٦ يولية وقع بوهمند على هدنة مماثلة . لقد كان ذلك نصرا دبلوماسيا للقلاوون ؛ فلو أن الفرنج اتخذوا من خلقه حتى بدون تعزيزات من الغرب ، لتسبب ذلك في تمقّد حملته ضد المغول تعقدا خطيرا<sup>(٦)</sup>.

#### ١٢٨١م : معركة حمص

في شهر سبتمبر ١٢٨١م ، توغل جيشان مغوليان في سوريا ؛ وكان الخان يهود أحمدما بنفسه ولكن من إخصاع الفلاح الإسلامية بطول الحدود مع نهر الفرات ، بينما كان يهود الثاني آخر الخان - مانغو تيمور - الذي بدأ بالاتصال بليو الثالث ملك أرمينيا ثم سار جنوبا بحلال عينتاب وحلب إلى داخل وادي العاصي . وكان قلاوون قد ذهب إلى دمشق حيث جمع قواته ثم سارع إلى الشمال . وانتهى الفرنج بجائنا فيما عدا فرسان المعبد في مرقب الذين رفضوا الالتزام بالهدنة التي عقدها نظامهم الديني العسكري في عكا ؛ وسار بعض فرسانهم للإلتزام إلى ملك أرمينيا . وفي ٣٠ أكتوبر تقابل الجيشان المغول والمملوكي خارج حمص مباشرة . وكان مانغو تيمور يهود قلب للمغول ، وعلى ميسرته أمراء مغوليون آخرون ، وعلى ميسرته قوات احتياطية جورجيا مع الملك ليو وفرسان المستشفى . وكانت ميمنة المسلمين تحت قيادة المنصور صاحب حمص ، وكان قلاوون يهود بنفسه للتصريح في القلب ، وإلى جانبه جيش دمشق بقيادة الأمير لاجين ، وفي ميسرته سنقر المتمرد السابق ومعه أبناء سوريا

(٦) Ibrida, Regesta, p. 374. Mapiri, Salove, ii, i, pp. 28-30; R.

## الشمالية والتركمان.

وما أن تشبث المعركة حتى نفيح المسيحيون في ميمنة القنول في اقتلاع سنقر من مكانه ومطاردته إلى داخل معسكره في حمص ، وبدأ قتلوا الإصعاليين بحر كرههم . وفي ذات الوقت ، وعلى الرغم من صعود مسيرة القنول ، سُرح مانغو تيمور نفسه أثناء هجوم مغولي على القاب ؛ وتخلت عنه رباطه جاشه فأمر بانسحاب متعجّل ؛ فوجد قيو ملك أرمينيا ورفاقه أنفسهم في عزلة فكان عليهم أن يشتقوا طريقهم عاددين إلى الشمال وتكبدوا خسائر جسيمة ، وحصر قلاوون الكثير من الرجال أثناء مطاردتهم للأكرمن . وعاد الجيش المغولي عبور نهر الفرات بسلام مزيد من الخسائر ، ونفى النهر العظيم بخانة الحشود بين الإمبراطوريتين ، ولم يخامر قلاوون معاقبة الأكرمن . وكان الراهب الإنجليزي لفرسان المستشفى - جوزيف (أوف تشانس) - حاضرا في المعركة، وفيما بعد كتب وصفها وأرسله إلى إدوارد الأول قائلا إن الملك هيو والأمير برهمند لم يتمكنوا من الانضمام إلى القنول في الوقت المناسب ؛ وربما كان يحاول حمايتها من سخط الملك الإنجليزي ، وهو العاهل الغربي الوحيد الذي ما زال مهتما بالخراب المقدسة ، والذي كان يساند التحالف المغولي بشدة . ولكن أحدا في الشرق في مثل فراسة إدوارد ؛ فلم يفعل الملك هيو شيئا ، وتهادن برهمند مع المسلمين ، بينما ذهب روجر (أوف سان سقرينو) ومدوب الملك تشارلز في رحلة خاصة لمقابلة قلاوون وتهنئته على انتصاره<sup>(٧)</sup>.

## ١٢٨٢ م : انهيار قوة تشارلز (أوف الجور)

وكان الصقليون ساحطين على غطرسه تشارلز (أوف الجور) وجنوده ، فخيروا فحاة مساء ٣٠ مارس ١٢٨٢ م وذهبوا جميع الفرنسيين في الجزيرة . وكان لصلوات النساء الصقلية أثرا يمازج مساء ما كان يتوقعه سكان الجزيرة الغاضبون . لقد ظهر أن الإمبراطورية المتوسطية العظيمة التي يزع عليها تشارلز كانت بلا قواعد تركر عليها. فطوال العقدين التاليين حاول هو وحلفاؤه عبثا استعادة صقلية من أمراء أراغون الذين

(٧) Magrisi, *Saltore*, it. i, pp. 35-7; Abul Feda, pp. 158-60; Bar-Hodemann, pp. 464-5; Hayton, *Flour des Errores*, pp. 182-4; *Gestes des Chiprois*, p. 210, letter of Joseph of bricht, *Regesta Chaucy*, and King Edward's reply (ed. Sanders), P.P.T.S. vol. v, II, p. 375; O'Hanlon, op. cit. pp. 523-34.

أصبحوا التولى عرشها ، ولم تعد مملكة الأنتيفين<sup>(٨)</sup> في نابلي قوة عالمية ؛ أما البابوية ، التي أمنت للأنتيفين مملكتهم الضعيفة ، فقد لعبت ولحق بها الدمار المالي في عازلاتها الإبقاء على عدائتها ، وتحلى الأنتيفينون عن مشاركتهم في البلقان وشرقه ، وفي القسطنطينية نفس الامور تطور الضعفاء ، فلم يعد مضطرا لإشارة حتى مواطنيه بأن يعرض خضوع كتبهم لروما إذا استطاعت روما كبح جماح طموحات تشارلز<sup>(٩)</sup> . وفي الشرق الغربي وحد روجر (أوف سان سفيرين) نفسه فجأة بلا أي نصير ، وقد استدعا سيده للعودة إلى إيطاليا ، فغادر عكسا في نهاية العام بعد أن عهد بحصيه كوكيل للمملكة إلى قهرمانه أودو بوالشين<sup>(١٠)</sup> .

وتلقى مهالك مصر أبناء انهيار قوة تشارلز عشائر الصدمة والارتجاج في آن . فقد كان كل من بجرس وفلازون يتشاه ويتزعم ولذا أحصوا عن مهاجمة إقليمه الجديد في كورنيجيه . والآن ، لم يعد يوسع أحد أن يكبح جماح السلطان طالما حيل بين القرنج وتحالفهم مع المغول . وفي يونيو ١٢٨٣ م ، وهو موعد انتهاء القعدة الموقعة في قيسرية ، عرض فلازون على أودو بوالشين تجديدها لعشر سنوات أخر ، فقبل أودو بسرور لكنه لم يكن والفا من سلطته ؛ ولذا قام كميون عكسا وفرسان العبد في عتليت وصيدا بالتوقيع في الجانب الغربي من المعاهدة التي ضمنت للقرنج مملكتهم في جبل الكرمل وعتليت وأبضا في صيدا ، واستبعدت صور وبيروت . كما نصت للمساعدة على الحق في حرية الحج إلى القاهرة<sup>(١١)</sup> .

وأهوج أودو أن يحافظ على السلام ؛ إذ أوشك لذلك هيو مرة أخرى على استعادة لراضى مملكته الرئيسية . وكانت اليدي إيزابيلا البيرونية قد ماتت مؤخرا ، وانتهت مدنتها إلى أختها إنيقا زوجة هينري أمير مونتفورت الذي كان الأخ الأصغر لسيد صور . ولإدراك هيو أن بإمكانه أن يلق في آل مونتفورت ، فقد أصر من حرص في

(٨) (التوسم) الأنتيفين : Angevin ؛ نسبة إلى (ألم آخر Azor) الفرنسي في غرب فرنسا والذي ساعد على ظهور الأسرة التي حكمت في انجلترا Plantagenet House من ١١٥٤ حتى ١٢٨٥ م .

(٩) في تاريخ أباري Azor حرب الصلوات النسيبة المملكتة Sicily-Neapolitan من ١٢٨٥ إلى ١٢٨٥ م . La Guerra del Peloponneso Sicily-Neapolitan .

(١٠) Gestes des Chiprois ، p. 214 ; Souda , Chroïque de Rouenne in Mus Latrie , Nouvelles Preuves , t. pp. 39-40 .

(١١) تولندا (أوف حرون) . Magrin, Subeuzat, t. p. 60, 179-85, 224-30. See 1581, History of Cyprus, t. p. 176.

نهاية برلية بصحبة اثنين من أبنائه - هنري وبوهمند - وفي ثيئه المبروط في عكا ، غير أن الرياح قنعت به إلى بيروت التي وصلها في أيلول أغسطس واستقبل استقبالاً حسناً . وبعد أيام قليلة وصل إبحاره إلى صور وقد أرسل جنوده برا جنوب الساحل . وفي الطريق تلقى الجنود أذى كثيراً من غارات المسلمين ، وظن هيو أن فرسان المعبد في صيدا هم الذين حرضوا المسلمين على ذلك ؛ وعندما هبط على الشرف في صور وقعت أحداث كانت بمثابة نذير شوم له ؛ إذ سقطت رايته في البحر ، وعندما جاء رجال الدين في موكبهم لمقابله اتزلق الصليب الضخم الذي كانوا يحملونه وهشمه هجمة طليب البلاط اليهودي . ومكث هيو منتظراً في صور ، غير أنه لم يبد أحد في عكا أبداً باترة للرحيب به هناك ؛ لقد كان كنيون عكا وفرسان المعبد يقتلون الحكيم غير المتفهم لأودو بوالشين . ولن يبق مع هيو نلاؤه القياصرة لأكثر من الفترة القانونية وقدرها أربعة أشهر ، وفي الثالث من نوفمبر - قبل انقضاء الفترة - مات بوهمند أحد ولديه الذي كان يعلق عليه الآمال العراض . وكان الحادث الأعظم بالنسبة له موت صديقه وزوج أخته جون (لوف مولفورت) الذي لم يترك ذرية ، ولذا سمح للملك بأن تكون صور إلى أخيه ووريثه - همفري - لورد بيروت ؛ غير أنه أضاف بهذا يصبح لأخيه - إذا رغب - شراء المدينة مرة أخرى للتاج نظير مائة وخمسين بيزانت ، غير أن همفري مات في فبراير التالي ، وبعد فترة مناسبة تزوجت أرملة من الإبن الأصغر هيو - جوى - ومنحته بيروت . وبقيت صور في ذلك الوقت تحت حكم أرملة جون ، مارجريت<sup>(١٢)</sup>.

وبقي هيو في صور حتى بعد أن تركه نبلاؤه ، وفيها مات يوم ٤ مارس ١٢٨٤م. ولقد بذل ما في وسعه للحفاظ على السلطة في مملكة الشرق القرمش وحالت دون ذلك صفاته الشخصية ، إذ برغم وسامته الطاغية وبعاديته كان سعيه الطماع وتعبه المهاراة - ومزى فشله بدراسة كثيرة إلى عدواة تجاه عكا والأنظمة الدينية العسكرية الذين كانوا يفتلون المعامل الغالب البعيد الذي لا يتدخل في شؤونهم<sup>(١٣)</sup>.

وعلى هيو على العرش ابنه الأكبر جون ، وهو صبي ومسيح في السابعة عشرة من عمره تقريباً . وتزوج ملكاً لقرص في نيقوسيا يوم ١١ مايو ، وبعد ذلك مباشرة عبر البحر إلى صور حيث تزوج ملكاً للقدس . بيد أن سلطته لم يُعترف بها خارج صور

(١٢) - *Genet des Chypriots*, pp. 214-16; *Assadi*, pp. 214-15.

(١٣) - *Genet des Chypriots*, pp. 216-17; *Assadi*, p. 216. See Hill, *op. cit.* p. 178.

وبروت . وحكم لسنة واحدة فقط ، ومات في قبرص يوم ٢٠ مايو ١٢٨٥م . وورثه  
العم هنتري الذي كان في الرابعة عشرة من عمره وتزوج ملكا لقبرص يوم ٢٤ يونيو .  
ولم يدام آنذاك بعبور البحر إلى سوريا<sup>(١٦)</sup>.

#### ١٢٨٥م : ضياع الرقب

كان فلاوون يتجهًا لمهاجمة القلاع الذين لا تسلمهم المدينة الواقعة سنة ١٢٨٣م .  
وسارعت السيدتان الأرملتان اللتان تحكمان بروث وصور - إيشيفيا ومرحريت -  
تطلبان منه العدة ، فأجابهما إلى طلبهما<sup>(١٧)</sup> . وكان هدف السلطان الاستيلاء على  
قلعة الرقب العظيمة التابعة لفرسان المستشفى الذين دأبوا على التحالف مع المغول .  
وفي ١٧ إبريل ظهر السلطان مع جيش عظيم في سفح الجبل الذي تعلوه القلعة وقد  
أتى بعدد كبير من الخاق يتجاوز أي عدد شوهد مجتمعًا من قبل ، وقام وحاله بمرها إلى  
أعلى التل وبدلًا فصف الأسوار . غير أن القلعة كانت مهيأة تجهيزًا جيدًا وكانت  
مناخقها في وضع أفضل، فشرت الكثير من آلات الأعداء ؛ ولم يبرز المسلمون تقدمًا  
طوال شهر . وفي نهاية الأمر نجح مهندسو السلطان في حفر نفق تحت برج الأمل  
الذي كان يرتفع في نهاية الزاوية الشمالية البارزة ، وسلاوه بالأخشاب القابلة  
للإحراق . وفي ٢٣ مايو تفجّر النفق وسقط برج حطاما . وتسبب سقوطه في عرقلة  
هجوم المسلمين واضطروا إلى التقهقر ، غير أن القلعة اكتشفت توغل النفق بعدا تحت  
دفاعاتها ، فنجحت من الفرقة واستسلمت . وسمح للقادة فرسان المستشفى في القلعة  
البالغ عددهم خمسة وعشرين قاتلا بالانسحاب مع منقولاتهم على صهوات الجياد  
وبكامل أسلحتهم . وسمح لباقي أفراد الحامية بفرقة الرحيل دون أن يحصلوا معهم شيئا  
فانسحبوا إلى طرموس ومنها إلى طرابلس . ودخل فلاوون القلعة دخول المنتصرين يوم  
٢٥ مايو<sup>(١٨)</sup>.

وشعر مواطنو عكا بالخطر لضياح الرقب ، وفي نفس الوقت تقريبا علموا بوقعة

(١٦) *Gestes des Chiprois*, p. 217; Anadi, loc. cit.; Magrini, *Sultans*, II, I, p. 80.

(١٧) *Magrini, Sultans*, II, II, pp. 212-13.

(١٨) *Gestes des Chiprois*, pp. 217-18; Anadi, loc. cit.; Magrini, *Sultans*, II, I, p. 80 (also in p. 85 but dated the following year); Abul Fida, p. 161; *Tale of Qalawun in Reinard, Bibliothèque des Croisés*, II, pp. 548-52.

تشارلز (أوف النور) ؛ وكان ابنه تشارلز الثاني (أوف نابول) متورطاً للغاية في الحرب الصقلية بحيث لم يعبأ بالشرق الغربي ، وكانت الحرب تتر الإضطراب شيئا فشيئا في أوروبا الغربية كلها . وقد حان الوقت كي يكون للشرق الغربي حاكم قريب متاح ؛ وبناء على نصيحة فرسان المستشفى أرسل هنري الثاني مبعوثا من قبرص يدعى جولييان الأصفر إلى عكا للتفاوض على الإعزاز به ملكا . فوافق الكميون ، وشعاطف نظاما المستشفى والنيوتون ، ووافق نظام المعبد - بعد بعض التردد - على مؤازرته؛ غير أن أودو بوالشين رفض التحلي عن منصب وكيل المملكة ، وكانت الكنيسة الفرنسية المعالة بأموال ملك فرنسا تسانده.

وفي الرابع من يولية هبط هنري إلى الر في عكا حيث استقبله الكميون بمشاعر الفضة ، وقد رشى السادة المعظام للأنظمة الدينية العسكرية - المستشفى والمعبد والنيوتون - أن المحكمة تقضى تعيينهم عن الإستقبال قائلين إن طبيعة مناصبهم الدينية تحرمهم على التزام حائب الجهاد . وأتمه هنري مباشرة إلى كنيسة الصليب المقدس حيث أعلن أنه سوف يقيم في القلعة كما كان يفعل الملوك السابقون ؛ لكن أودو بوالشين رفض مغادرة القلعة التي وضع فيها حامية من الفرنسيين ، فذهب إليه أسقف فاماغوستا ورأب المعبد الدوميني في عكا ليحاضونه ، لكنه رفض الإستماع إليهم وتقدم باعتراض قانوني . وأقام الملك موقفا في قصر أمير صيدا للتوفى وأعلن ثلاث مرات إمكان رحيل الفرنسيين عن القلعة مع كافة أمتعتهم دون أن يتعرض لهم أحد بأذى ؛ بينما أعد المواطنون بسخطون على أودو ونهتأوا لمهاجمته ، وعلى الأثر، نظير السادة الثلاثة المعظام للأنظمة الدينية العسكرية وتحققوا من الجاه وبناح الأحداث ، ونصحوا أودو بتسليمهم القلعة ثم أعطوها لهنري الذي دخلها في موكب وقور يوم ٢٩ يولية<sup>(١٧)</sup>.

#### ١٢٨٦ م : آخر أعياد الشرق الغربي

وبعد ذلك بسنة أسابيع ، يوم ١٥ أغسطس ، قام رئيس الأساقفة يوناكورسو (أوف جلوريا) ، نائبا عن البطريرك ، بتتويج هنري في صيدا . وبعد الإحتفال عاد البلاط إلى عكا حيث التقى أسبوعان في حفول تخللتها الألعاب ومسابقات القروسية،

(١٧) *Gestes des Chiprois*, pp. 218-20, *Annals*, pp. 216-17, *Saxo, Liber Secretorum*, p. 229; *Machaeras* (ed. Doukiss), p. 42; *Max Laune, Documents*, iii, pp. 671-3.





تبع إلى القدس . وبينما كان في العراق سنة ١٢٨١م خلا منصب البطريرك الأرمني وتم انتخابه ليشتغل . وكان له نفوذ قوى على الحان الجديد الذي كان نواحيا لإتخاذ أساكن العالم للسيحي المقدسة من أيدي المسلمين ؛ بيد أنه امتنع عن ذلك ما لم يساعده ملوك الغرب للمسيحيون<sup>(٢٦)</sup>.

#### ١٢٨٧م : سفارة راثان ساوما

وفي سنة ١٢٨٥م كتب أرغون إلى البابا هونوريوس الرابع يقترح القيام بعمل مشترك ، لكنه لم يتلق أي رد . وبعد عامين قرر إرسال سفارة إلى الغرب واعتار سفيراً له راثان ساوما ، وهو صديق مار بابيالا ؛ وانطلق السفير في وقت مبكر من سنة ١٢٨٧م وكتب قصة بعثته بأسلوب ينسج بالخيانة . وقد أصر من طرابزون ووصل إلى القسطنطينية في عيد الفصح تقريبا ، واستقبله الامبراطور أندرونيكوس استقبالاً ودوداً ، وزار كنيسة القديسة صوفيا وغيرها من اللزارات العظيمة في المدينة الإمبراطورية . وكان الامبراطور أندرونيكوس على علاقة ممتازة بالملوك وأبدى استعداداً لمساعدتهم بقدر ما تسمح له موارده الخاصة في التناقص . ومن القسطنطينية توجه راثان ساوما إلى نابولي التي وصلها في نهاية برتبة . وبينما كان هناك شاهد معركة حربية في المرفأ بين الأسطولين الأراخوني والبابوليتاني ؛ وكان ذلك شاهدته الأول على أن أوروبا الغربية مشغولة بنزاعاتها . وواصل طريقه إلى روما حيث وجد أن البابا هونوريوس قد مات لثوه ، ولم يجتمع الكرادلة بعد لإستخاب خليفة ؛ واستقبله الكرادلة الإثنا عشر المقيمون في روما ، غير أنه وحدهم جهلاء لا نفع يرجى منهم ؛ ذلك أنهم لا يعرفون شيئا عن انتشار المسيحية بين الملوك ، وصدمهم أن يعرفوا أنه يقدم عاجلاً وثيبا . وعندما حاول الحديث في السياسة ، بدؤوا معه استجواباً حول عقيدته وانتقدوا أوجه الخرافة عن عقيدتهم ؛ وانتهى الأمر بأن كاد يفقد السيطرة على انعصابه . ذلك أنه قال إنه قد جاء ليحرب للبابا عن إحزائاته ولكني بضع الخطط للمستقبل وليس لإحزاء مناقشة حول العقيدة . وبعد أن أدى طقوس عبادته في كنائس روما الرئيسية ذهب في حيرة إلى جنوا التي رحب بهاؤها به في احتفال كبير ، إذ كان التحالف الموعود على جانب من الأهمية بالنسبة لهم ، وقد أكتسبوا المفردات السفير بكل انتباههم.

(٢٦) See Budge, *The Monks of Khilaf Khari*, introduction, pp. 42-61, 72-3. (٢٦)

وفي نهاية أغسطس ذهب راثان ساوما إلى فرنسا ووصل باريس في وقت مبكر من شهر سبتمبر ، حيث كان في استقباله كل ما كان يتمناه ؛ إذ رافقه حرس خاص في دخوله العاصمة ، وفي مقابلته مع الملك الصغير فيليب الرابع ، حطى بالتشريفات الملكية ، ونهض الملك من على عرشه لتحيته وأولاه أذنا مصغية بمشاعر الاحترام العميق. وغادر القاعة ومعه وعد بأن يقوده فيليب بنفسه - إذا شاء الرب - جيشا لإنقاذ القدس . وكان لباريس أثرها المبهج في نفس السفير ، وعاصمة دامت بها التي كانت آنذاك في قمة مجدها في العصر الوسيط . وصحبته الملك شخصيا في جولة في كنيسة القديس<sup>(٢٢)</sup> لمشاهدة الآثار المقدسة التي احتلها القديس لويس من القسطنطينية. وعندما آذنت ساعة رحيل راثان ساوما من باريس عين الملك سفيرا - جورد هيلفيل - بتعليمات لأن يعود معه إلى بلاط الحان للترتيب لزيد من تفصيلات التحالف.

وكان المضيف التالي لرايان ساوما هو ملك إنجلترا إدوارد الأول الذي كان آنذاك في عاصمة مملكته الفرنسية بوردو ، وكان إدوارد قد حارب في الشرق وطالبا ناصر فكرة التحالف مع المغول ، ووجد راثان ساوما عنده استجابة ذكية وعملية لمقترحاته وألقى في روحه أن الملك هو أكثر رجال السياسة الذين قابلهم في الغرب ، وقد أحس بالرضا عندما طلبوا منه إقامة قداس في البلاط الإنجليزي . بيد أنه عندما حان الوقت لوضع جدول زمني ، راورع الملك ولم يستطع - كشأن ملك فرنسا فيليب - أن يحدد بدقة متى سيكون جاهزا للشرع في حملة صليبية . وعاد راثان ساوما إلى روما وفي صدره شيء يقلقه . ولقد توقف في جنوا للقضاء لأمير الميسلاد وتصادف أن قابل هناك الكاردينال جون (أوف توسكولوم) ممثل البابا وأخبره بما يحدث في صدره من مخاوف ؛ وكان الممالك يعدون العدة آنذاك للقضاء على آخر دولة مسيحية في سوريا، وليس هناك في الغرب من يأخذ التهديد مأخذ جاد.

وفي شهر فبراير ١٢٨٨م اختير نيكولاس الرابع لتتصب البابا ؛ وكان من بين أول أعماله استقبال السفير المغولي ، وكانت العلاقة الشخصية بينهما رائعة ؛ فقد خاطب راثان ساوما البابا على أنه الأسقف الأول للعالم المسيحي ، وأرسل نيكولاس بركاته إلى الكاثوليكوس أي بطريرق الأرمن النسطوري واعتُرف به بطريقا للشرق . وعلى مدى أسبوع الآلام السابق لعيد القصح كان السفير يقدم القداس أمام جميع

(٢٢) (الرحم) كنيسة القديس Salvo-Chapelle كنيسة في باريس بناها لويس التاسع سنة ١٢٤٥م تضم "كاج لشوك" وغيره من آثار الآلام". وفي سنة ١٩٠٦ لم تعد كنيسة

الكرادلة ، وتناول من يهدى البابا نفسه القربان للقسيس؛ وغادر روما مع جوهرات هيلينيل في أواخر ربيع ١٢٨٨ م محملاً بالهدايا ، الكثير منها آثار قيمة ، للبحان ولكاثوليكيوس بطريرك الأرمن النسطوري ، ومنحه خطابات لهما ولأميرين مسيحيين في البلاط ، ولأسقف تبرير اليعقوبي دينيس . بيد أن الغموض كان يكثف الرسائل ؛ إذ لم يستطع البابا أن يعد بعمل محدد في أي تاريخ محدد<sup>(٢٢)</sup>.

وفي واقع الأمر ، كان للوك العرب ما يصرفهم عن الحملة الصليبية ، وهذا ما بدأ رايتان سلوما يدركه ؛ ذلك أن شيخ تشارلز (أوف أنمو) المشهور المشرك مع ما كان للبابوية من رغبة في الانتقام ، وحالاً دون القيام بأية حملة صليبية . فقد أعطى البابا جزيرة صقلية للألمانيين ، والآن وقد انقلب الصقليون ضد الألمانيين ، فإن الخفايا على النهاية اضطر البابوية وفرنسا إلى عارية أقوى قوتين بحريتين في البحر المتوسط - جنوا وكراميون - لإعادة الإستيلاء على الجزيرة ؛ ولم يكن نيكولاس ولا الملك فيليب على استعداد للتفكير في حملة صليبية إلى أن تسوى المسألة الصقلية . ولقد أدرك إدوارد ملك إنجلترا الخطر المحدق بالمسألة الصليبية ، وتمكن في عام ١٢٨٦ من ترتيب هدنة بين فرنسا وكراميون ، غير أنها بقيت هدنة قلقة لاستمرار القتال في إيطاليا وفي البحر . وفضلاً عن ذلك ، كان لإدوارد مشاكله الخاصة به ؛ ورما رايوه الحين لإتخاذ الأراضي المقدسة ، لكنه وجد أن الأكثر إلحاحاً غزو ويلز ومحاربة غزو اسكتلندا . وبعد موت ألكسندر الثالث ملك اسكتلندا في سنة ١٢٨٦ م ، تحولت أنظاره باتجاه الشمال ، بينما كان يخطط للسيطرة على تلك المملكة المجاورة من خلال وراثتها العظيمة مرحية ، عبراء الروبيج ، ويجب على الشرق أن ينتظر . ولم يكن هناك أية قوة للراي العام حقيقة بأن تحت المعامل على المضي قدماً ؛ وكما تطلعت تحقيقات البابا جريجوري العاشر ، كانت الروح الصليبية تقتصر<sup>(٢٣)</sup>.

#### ١٢٨٩ م : الحان بحث حملة صليبية

ولم يكن الأرطون ليصدق أن مسيحيي الغرب ، بكل لاكدياتهم الفرعة المخلصية

(٢٢) بورد بوردج Budge, op. cit. pp. 164-97 ترجمة كاتلة لثال رايمان سلوما عن رحلاته في أوروبا

(٢٣) للإطلاع على الصورة العامة للوضع قبل ١٢٨٠-١٢٨١، pp. 71-21، Grousset, *Histoire des Croisades* ، وللإطلاع على أكثر الحرب المستترة على قيادة العامة أنظر أيضاً Lévi-Mercier/Philippe Le Bel, pp. 22 ff. وانظر أيضاً أعمال المدونات ١٢٨٢ وما بعدها.

على حينهم للأراضي المقدسة ، يمكن أن يُظهروا مثل هذه اللابالاة بحسبها المحفوف بالأخطار . وقد رجب برابان ساوما لدى عودته إلى الوطن باسمي آيات التشريف ، وأبدى مشاعر الود لجورج هيلفيل ؛ غير أنه كان يرغب في معلومات أكثر دقة مما أعطاه له جويرت . وبعد فصح سنة ١٢٨٩م مباشرة أرسل مبعوثا ثانيا من أبناء جنوا يدعى يوسكاريل (أوف جيسولف) كان قد استقر في أراضي الخان منذ وقت طويل ، ومعه رسائل إلى البابا وملوكي فرنسا وإنجلترا . ولا يزال الخطاب المرسل إلى فيليب موجودا حتى يومنا هذا ، وهو مكتوب باللغة اللاتينية باستخدام الخط الأوجوري . وباسم الخان العظيم قوبلاي ، يعلن أرغون إلى ملك فرنسا أنه يقترح - بمساعدة الرب - الزحف على سوريا في آخر شهر شتوي من سنة الفهد ، أي في يناير ١٢٩١م ، والوصول إلى دمشق في حوالى منتصف أول شهور الربيع ، فبراير . وإذا أرسل الملك قوات إضافية واستول القبول على القدس ، فسوف تُمنح القدس للملك ؛ لكنه إذا فشل في التعاون ، فسوف تذهب الحملة سدى . وهناك حاشية مضافة إلى الخطاب كتبها يوسكاريل بالفرنسية تعرب في مهارة عن مديح الملك الفرنسي وتضيف أن أرغون سوف يُحضر معه ملوك جورجيا للسيحيين وعشرين أو ثلاثين ألف جنرال ، وسوف يتضمن تزويد الغربيين بالموثوقية . ولا بد أن هناك رسالة مماثلة قد أرسلت إلى الملك إدوارد - وهي مفقودة الآن - وقد أضاف إليها البابا مذكرة توصية وتشجيع . ولم يصلنا رد فيليب ملك فرنسا ، وإنما لدينا رد إدوارد ؛ وهو يهين الخان على مشروعه للسيحي ويثنى عليه بصورة ودودة . بيد أن الرد جاء حلوا من تاريخ محدد ومن وعد مبدول ، وإنما أسبل الخان إلى البابا الذي لا يستطيع أن يفعل شيئا سوى القليل في غيبة تعاون الملوك<sup>(٢٤٥)</sup> . وفي تلك الأثناء كتب فرنسي مجهول الاسم بحثا يظهر مدى سهولة نزول قوة من الغربيين إلى القو في ألباس بأرمينيا التي سيكون ملكها غاية في التعاون ، ومنها تذهب القوة لتتضم إلى القبول . ولم يلتفت أحد إلى نصيحته<sup>(٢٤٦)</sup> .

وعلى الرغم من الرموز المتشعبة التي عاد بها يوسكاريل ، أرسله أرغون مرة أخرى مع اثنين من القبول المسيحيين هما أندرو زانغان وسامعدين ؛ فذهبوا أولا إلى روما حيث استقبلهم البابا نيكولاوس ، ثم انطلقا لزيارة ملك إنجلترا وقد تسلحوا برسائل عاجلة من البابا الذي اعتبر على ما يبدو أن ملك إنجلترا يحتفل أن ينحس للحملة الصليبية أكثر

(٢٤٥) Chatet, op. cit. pp. 593-4, 604-16. وقد نوره نص الرسالة

(٢٤٦) Kohler, "Deux Projets de Croisade en Terre Sainte", text and introduction, *Mélanges pour servir à l'histoire de l'Orient Latin*, pp. 316 ff.

من الملك فيليب، ووصلوا إليه في وقت مبكر من سنة ١٢٩١م. غير أن عدواء الروم كان قد ساد مانت في العام الثالث وعشر إدوارد في الشؤون الإسكندنافية، وعاد المبعوثون محزونين إلى روما حيث مكثوا طوال الصيف. وفي ذلك الوقت كان السيف قد سبق العدل، إذ تمجد مصر الشرقى الفرقي، ومات الختان أرغون<sup>(٢٧)</sup>.

ولو أن التحالف للمولى تحقق وشهد العرب بالخلاص، فلعل بقاء الشرقى الفرقي كان قد طال أكثر من ذلك، وليأت السالك في حالة من الشلل، إن لم يُعْمَرُوا، ولعلبت حامية فارس قوة كبرى صديقة للمسيحيين وللغرب. ولكن الذي حدث، أن بقيت الإمبراطورية البيزنطية لثلاثة قرون تقريباً، وفي غضون أربع سنوات من موت أرغون اتسع المعسكر الإسلامي ليشمل مغول فارس. إن إعمال الغرب لم يتسبب في خسارة القضية الفرنجية فحسب، وإنما في عسكرة قضية تجمعات العالم المسيحي الشرقى النامية. ويعزى إعمال الغرب هذا أساساً إلى الحرب الصليبية التي كانت من نتائج المزاورة البابوية والاستعمار الفرنسي.

وفي تلك الأثناء تركت لوترنجه انطباعاتها بتزايد الاستهانة المحلية؛ فلم يكف ذلك هنري يرجع إلى قبرص من احتفالات هكا حتى اندلعت حرب شعواء على الساحل السوري بين أبناء ييزا وأبناء جنوا. وفي ربيع سنة ١٢٨٧م أرسلت جنوا أسطولاً إلى الشرق بقيادة الأدميرالين توماس سينولا وأورلانو آشوري. وبينما كان سينولا في زيارة للإسكندرية للحصول على حياض مسالم من السلطان، كان آشوري محبوا أعلى وأسفل الساحل السوري يفرق أية سليبة أو يأسرها، إذا كانت لأبناء ييزا أو لفرنج من أصل بيزنطي. وكان تدخل فرسان المعبد هو وحده الذي حال دون بيع البحارة للأسرى كعبيد. ثم إن آشوري انسحب إلى صور ليخطط للهجوم على مرفأ هكا والحق البادقة أسطولهم المحلي بأبناء ييزا لحماية المرفأ؛ غير أن آشوري انتزع انتصاراً كاملاً حاصر الأمواج يوم ٣١ مايو ١٢٨٧م، ورغم أنه لم يتمكن من التوغل داخل لبناء. وعندما أتم سينولا محالاً من الإسكندرية، تمكن أبناء جنوا من محاصرة الساحل كله. وفي نهاية الأمر تمكن السيدان الأعظمان لفرسان المعبد وفرسان المستشفى، مع بعض النبلاء المحليين، من اقتناع أبناء جنوا بالإبحار إلى صور والسماح بحرية الملاحة<sup>(٢٨)</sup>.

(٢٧) Chabot, op. cit. pp. 617-69.

(٢٨) Genes des Chiprois, pp. 220-30, *Annales Savonnes*, p. 317.

## ١٢٨٧م : سقوط اللاذقية

وتجنب ميناء واحد هذا الصراع ، لأنه كان يواجه فعلا مصيرا أسوأ . ذلك أن قنار حلب دأبوا على الشكوى إلى السلطان منذ بعض الوقت من أنه من غير المناسب أن يضطروا إلى إرسال بضائعهم إلى ميناء اللاذقية المسيحي ، وهو آخر بقايا إمارة أنطاكية . وسنحت الفرصة لتقلاؤن في ذلك الربيع بعد أن دُشِرَ الزلازل أسوار المدينة يوم ٢٢ مارس تدميرا شديدا . وادعى السلطان بأن اللاذقية - باعتبارها حزاما الإمارة القديمة - لا تعطىها للمدينة المعقودة مع طرابلس ، وأرسل قائده الأمير حسام الدين طورانطاي للإستيلاء على المدينة التي سقطت بسهولة في يديه ؛ غير أن المدافعين عنها انسحبوا إلى القلعة الواقعة في ضفة المرفأ ، والتي يصلها بالأرض الرئيسية طريق مرتفع . ووسّع طورانطاي الطريق المرتفع وسرعان ما أقنع أخاياه بالاستسلام يوم ٢٠ إبريل ، ولم يحاول أحد أن ينجف شجدها<sup>(٢٤)</sup>.

ولم يمش سيدنا السابق ليوهند السابع طويلا بعد ضياعها ؛ فقد مات أبق يوم ١٩ أكتوبر ١٢٨٧م ، وورثته أخته لوتشيا التي سبق أن تزوجت الأميرال الكبير السابق لششاراز (أوف أنمو) المدعو ناراجوت (أوف توسي) ، وهي تعيش الآن في أوبليا . ولم يرغب نباله ومواطنو طرابلس في أن يستدعوا إلى الشرقي أميرة توشك ألا تكون معروفة ، وترتبط بالأهلين سبي السمعة ؛ فعمدوا الكونتية على السيدة المسنة الأميرة سيبلا الأرمينية التي ما أن تلقت العرض حتى كتبت إلى صديقها القديم الأسقف بارتولوميو أسقف طرطوس تدعوه ليكون وكيلها عن المملكة . غير أن رسالتها وقعت في أيدي فيلاء الكونتية الذين جابروها وأخبروها أن الأسقف غير مقبول . ورفضت أن تتحول عن موقفها . وبعد مشهد عاصف السحب البلاء وتشاوروا مع كبار التجار ؛ وأغلوا جميعا خلع الأسرة الحاكمة عن العرش وإنشاء كميون يصبح من الآن غلما هو السلطة السيادية . وكان رئيس الكوميون هو بارتولوميو إميرايكو الذي كان والده برتراند العدو الملود ليوهند السادس والذي سبق ليوهند السابع أن أعدم أخوه وألم بصورة بشعة مع ابن عمه لورد حيل.

(٢٤) Genes des Chiprois, p. 230; Abol Feda, p. 162; Magini in Reissad, op. cit pp.5612.

## ١٢٨٨ م : لوتشيا ، كوتنيسة طرابلس

ودعت الأميرة للسنة إلى أميها في أرمينيا . وفي وقت مبكر من سنة ١٢٨٨ م وصلت لوتشيا مع زوجها إلى عكا لكي تذهب إلى طرابلس لتسلم ميراثها . واستقبلها فرسان المستشفى استقبالاً طيباً ، فهم الحلفاء القدامى لأسرتها الحاكمة ، وصحبوها حتى مدينة نيقين الحدودية للكونتيسة ؛ وهناك تمسكت بيانا بإعلان حقوقها . وكان رد الكميون اصتار خاتمة طويلة تحوى اللأسي والشكاوى من أعمال القسوة والاستبداد التي ارتكبتها أميها وأبوها وحدها ، وأعلنوا عن عدم رغبتهم في هذه الأسرة الحاكمة ، ووضعوا أنفسهم تحت حماية جمهورية جنوا ؛ وقد أرسل رسول إلى جنوا لإطلاع الشيوخ الجنوي الذي أرسل على الفور الأدميرال بنينو زخاريا ومعه خمس سفن ليتفق مع الكميون . وفي ذات الوقت توجه السادة العظام للأنظمة الدينية العسكرية الثلاثة ، ومعهم وكيل البنادقة في عكا ، إلى طرابلس للدفاع عن قضية الوريثة ؛ وكان دافع فرسان المستشفى في ذلك هو الصداقة القديمة بين النظام وعائلتها ، ولما دفع فرسان المعبد وفرسان البينوتون في أنهم يساندون البندقية ضد جنوا . بيد أنه قد قيل لهم إنه يجب على لوتشيا أن تعترف بالكميون كحاكم للكونتيسة.

وعندما وصل الأدميرال زخاريا أصر على عقد معاهدة تعطي أبناء جنوا مزيداً من الشوارع في طرابلس ، والحق في وجود فاضل لقضاة المدينة ليحكم مستعمرتهم ، بينما ضمن حرية الكميون وامتيازاته . على أن مواطني طرابلس بدأوا يرتابون في نزاهة صديقتهم جنوا . أما يارثولوميو إمبرياكو ، الذي ضمن السيطرة على حبل ترويج ابنة أجنس من ابن عمه بطرس ابن حوى الشاسي ، فقد اشتبهى الكونتيسة لنفسه ؛ وأرسل رسالة إلى القاهرة ليخبر ما إذا كان فلاوون سوف يسانده إذا ما نادى بنفسه كونتسا . وبذلك الشكوك تقوم حول طموحاته ؛ وقول الرئي العام في طرابلس لمباشرة قضيت لوتشيا . وكتب الكميون في عكا رسالة لها ، دون إحصار أبناء جنوا ، يعرض فيها ما أكدته وضع الكميون وامتيازاته . وفي حركة لا تخلو من فطنة أصبحت لوتشيا زخاريا الذي كان في ألبس يرتب لعقد معاهدة تجارية مع ملك أرمينيا ، فسارع إلى عكا لتقابلتها . ووافقت على تأكيد امتيازات كل من الكميون وجنوا ، وبهذه الشروط تم الإعراف بها ككونتيسة طرابلس<sup>(٢٠)</sup>.

(٢٠) *Genet des Chypriotes*, pp. 231-4; *Amadi*, pp. 217-18; *Sinadis*, p. 229; *Armenica* (٢٠٠) *Armenica*, pp. 322-6.



ولم تلق تلك المزايا استحقاقا من البنادقة ولا من بارتولوميو إمبرياكو الذي كان على اتصال فعلي بفلادون . ووصل إلى القاهرة أثناء من الفرنج بلمسيان تدخل السلطان ، وليس في الإسكان الآن معرفة ما إذا كان بارتولوميو هو الذي أرسلهما أم بنادقة عكا ، وكان كاتم أسرار السيد الأعظم لفرسان المعبد يعرف أسماء المعوين لكنه فضل عدم الكشف عنهما . وقد حذروا السلطان من أنه إذا سيطرت جنوا على مراكس فسوف تهيم على الشرق كله وسوف تغزو بقارة الإسكندرية تحت رخصتها<sup>(٣١)</sup>.

وأبجح السلطان أن توجه إليه الدعوة للتدخل إذا كانت تلك الدعوة ذريعة لخرق الهدنة مع طرابلس . وفي فبراير ١٢٨٩م تقبل الجيش المصري كله إلى سوريا دون أن يكشف عن الهدف . غير أن أحد أمراءه ، بدر الدين بكشاش الفخري ، كان مأجورا لفرسان المعبد ، فأرسل كلمة إلى السيد الأعظم ، ولهم (كوف بوجو) أن حذف فلادون هو طرابلس - وسارع ولهم بخبر المدينة وبنادقها الإثبات وترتيب دفاعاتها . ولم يصفقه أحد ، إذ كان المشهور عن ولهم أنه مغرم بالكاثوليك السياسية ، وقيل إنه اعتلق تلك الفصحة لمصلحته الخاصة أملا أن توجه إليه الدعوة للوساطة ولم يتغير شيء وواصلت الأطراف نزاعاتها حتى أواخر مارس تقريبا عندما زحف الجيش الضخم للسلطان محترقا القلاع وقمع أمام أسوار المدينة<sup>(٣٢)</sup>.

#### ١٢٨٩م : سقوط طرابلس

وأخيرا ، أخذ التهديد مأخذا جادا . ففى داخل المدينة منح الكميون والنبلاء على السواء الكونتيسة لوتشيا السلطة العليا . وأرسل فرسان المعبد قوة عمالا بقيادة مارشالهم جيوفري (كوف فينداك) ، وأرسل فرسان المستشفى قوة بقيادة مارشالهم ماثيو (كوف كليرونت) . وسارت الكتبة الفرنسية عمالا من عكا بقيادة حيون (كوف مريلى) . وكان في البناء أربعة خلازين جنوبية وغربيان بندقية ، فحسلا عن قوارب أصغر بعضها لأبناء بيزا . ومن قريص أرسل الملك هنري أخاه الأصغر أميريك الذي كان قد عثبه ثروه كونستابل للقدس ، ومعه صحة من الفرسان وأربعة غلايين . وفي

(٣١) . 234. p. *Genes des Chypre* كوتول توماس. Abel Mahasin in Reissat, op. cit. p. 561. بارتولوميو حذر فلادون

(٣٢) . 234-5. p. *Genes des Chypre* كان المصري يقبـ (تسمير السلاح) ومن هنا يطلق عليه صاحب تاريخ *Genes* سلاح . انظر أبو الفدا . 159. p. *Abel Fezz*

نفس الوقت هرب الكثير من الرماطين غير القتالين عابرين البحر إلى قبرص.

كانت طرابلس العصور الوسطى تقع على البحر ، على شبه الجزيرة الجديباء التي تلقى عليها الآن ضاحية "البيتا" العصرية، وقد فصلت عن قلعة جبل نخاج التي لم تزد عازلة للدفاع عنها على ما يبدو . أما المدينة نفسها فقد كانت دفاعاتها رائعة . ورغم سيطرة المسيحيين على البحر ، إلا أن التفوق العددي الشاسع للمسلمين وضجاجة آلات حصارهم أثبت عدم إمكان المقاومة . وعندما دثر التصف برج الأسقف الواقع في الركن الجنوبي الشرقي من الأسوار الأرضية، وبرج المستشفى الواقع بين البحر ، قرر البنادقة استحالة الدفاع أكثر من ذلك ، وحلوا سائرهم على جبل بكل ممتلكاتهم وأثروا خارجين من المرفأ . وتسبب فرارهم في شعور أبناء جنسنا بالخطر ، وقد ارتأت قائدهم زاعاريا في أن البنادقة يحاولون سرقة بعض قواربه ؛ فجمع هو الآخر رجاله وتركوا المدينة بعدما أخذوا معهم كل ما أمتلكهم أحده . وتسبب رحيلهم في بث الفوضى بين المسيحيين ؛ وفي ذلك الصباح ، ٢٦ إبريل ١٢٨٩ م ، أمر السلطان بهجوم عام ؛ واحتشد للمالوك بمشود كثيفة على السور الجنوبي الشرقي المنهار داخلين للمدينة.

وفي المرفأ ، كاتفح الرماطين الذين أصابهم الذعر للوصول إلى القوارب ؛ وتمكنت الكونتيسة لوتشيا من الإبحار بأمان إلى قبرص ومعها أساتريك القبرصي ومارشالا النظامين الدينين العسكريين ، لكن قائد فرسان القيد لقي حتفه في القتال وكذلك مارثولوميو امويماكو . وكان المسلمون يقتلون على الفور أي رجل يهبطونه في مرفئهم؛ كما النساء والأطفال فكانوا يعذبون وقتلا . وتمكن بعض اللاجئين من العبور في قوارب تجديف إلى جزيرة سانت توماس الصغيرة الواقعة أمام اللسان الأرضي مباشرة ، لكن عمالة المالوك تقلعوا إلى المياه الضحلة وسبحوا إليها ، حيث لثت مذابح عمالة ، وعندما حاول اللورخ أبو القدا الحموي زيارة الجزيرة بعد أيام فلال صدته الرائحة النتنة المنبعثة من الجثث المتحللة<sup>(٢٢)</sup>.

وعندما انتهت المذبحة والنهب ، دمر قلاوون المدينة وسواها بالأرض حتى لا يمارق الفرنج استعادتها بما لهم من سيطرة على البحار . وأمر بتشييد مدينة جديدة في

(٢٢) *Genes des Chypres*, pp. 235-7, Anadol, p. 218; *Annales Savoyennes, loc. cit.*; *Annuaire*, *Annales de M.G.H. Scriptores*, vol. .cxi, p. 324; *Magasin, Volume* II, I, pp. 101-3, *Ab'/' Fela*, pp. 163-4.

سقط حبل الحاج تبعث عن الشاطئ أمبال قليلا<sup>(٣١)</sup>.

وذهب بعض جنود الماليك للإستيلاء على البطرون وتفين . ولم تكن هناك أية محاولة للدفاع عنهما . وعرض بطرس امبريماكو ، لورد جبيل ، خضوعه للسلطان ، وسمح له بالاحتفاظ بمدينة تحت الإشراف الصارم لعشر سنوات أخرى تقريباً<sup>(٣٢)</sup>.

وقع سقوط طرابلس من أمال عكا وقع الصدمة الريرة . وكانوا في السنوات القليلة الأخيرة قد كفحوا أنفسهم بأنه ظلوا أنهم ليسوا عدوانيين ، بل يعرض السلطان حقيقة على استمرار بقاء المدن المسيحية على طول الساحل . وربما يهاجم فلاهم التي تمثل فيها خطر كامن عليه . وربما يتبرج من الأنظمة الدينية العسكرية التي كان عملها الحرب من أجل عقيدتها ، حتى وإن كان المسلمون والمسيحيون على السواء يتعاملون مع فرسان المبد على أنهم أصحاب مصارف . غير أن ثمار المواني وأصحاب الموانئ لم يظلوا سوى السلام ، ومن الفاضح الجلي أن علاء كورتيجيه من عشاق الرفاهية لم تعد لديهم الرغبة في حملة صليبية وما يصاحبها من خرج . لذلك كانت عكا وأحوالها المواني أماكن ملائمة لتجارة المسلمين وكذلك المسيحيين ؛ وقد أظهر مواضعها حسن نواياهم برفضهم للتحاليف المغولي . أما هذا الفتح على طرابلس الذي لم يروا له ما يستتره فقد أظهر لهم مدى زيف حساباتهم . والآن أصبحوا على التيقن من أن هناك مصيراً مماثلاً ينتظر عكا.

وبعد سقوط طرابلس بثلاثة أيام وصل الملك هنري إلى عكا فوجد فيها مبعوثاً من قلاوون ، يحمل شكوى السلطان من أن الملك هنري والأنظمة الدينية العسكرية قد انتهكوا لفظة المعقودة معه بذهابهم لم يد العون إلى طرابلس . ورد هنري بأن المدينة تنطبق على مملكة القدس ؛ فإذا كانت طرابلس مشمولة بهذه المدينة ، فلم يكن ينبغي للسلطان أن يعتدي عليها . وقبل المسلمون هذا العذر ، وتم تعديد المدينة لتحتل مملكتي القدس وقبرص لفترة أخرى قدرها عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام . وسارع ملك أرمينيا وسيدة صور بإذنوا جنود الملك هنري<sup>(٣٣)</sup> ، على أن هنري لم يعد الآن يتق في كلمة السلطان ؛ وليس مقدوره مناصرة المغول ، فليبدأ سيحتر السلطان ذلك خرقاً

<sup>(٣١)</sup> *Genies des Chypre*, pp. 237-8.

<sup>(٣٢)</sup> *Mojini, Salomon*, II, 4, pp. 103-4, Barada, p. 239. See Grosset, op. cit. p. 745 n.3.

<sup>(٣٣)</sup> *Genies des Chypre*, p. 238; Anadi, loc. cit. See Steinsson, *Crusades in the East*, p. 351 n.3.

للهدنة ، غير أنه قيل أن يعود إلى قبرص في سبتمبر ، وقد ترك أسماء كوكيل للمملكة في هناك ، أرسل جون (أوف حربلي) إلى أوروبا لكي يصور لعراجل أوروبا مدى ما وصله الوضع من يأس<sup>(٣٧)</sup>.

#### ١٢٩٠م: صليبيون من شمال إيطاليا

ولقد صدم عراجل أوروبا كذلك بحصر طرابلس ؛ غير أن المسألة الصقلية كانت ما تزال تستحوذ على أذهان الجميع فيما عدا إدوارد ملك إنجلترا الذي كانت مشكلته الإسكتلندية قد بلغت حد الأزمة . أما البابا بيوكلاس الرابع فقد استقبل جون (أوف حربلي) بمشاعر العطف المخلص ، وكتب في حراسة الأوسى إلى مشبك الغرب يستعطفهم لإرسال المساعدة . غير أنه كان هو نفسه كان متورطاً في المسألة الصقلية ؛ ولم يكن يوسع إلا كتابة الرسائل وحث رجال الدين على التبشير بعملية صليبية . وكان الأمراء والنوروات الذين ناشطهم البابا يفضلون الانتظار إلى أن يصادر الملك إدوارد بحركة ماء إذ أنه رغم كل شيء قد أعد الصليب ولديه بعض الخبرة بالشرق<sup>(٣٨)</sup> . ولكن إدوارد لم يتحرك . أما جمهورية جنوا ، التي مُنبت بحسارة فادحة لضياح طرابلس ، فقد انتقلت بالاستيلاء على سفينة تجارية مصرية ضخمة كانت مبحرة قبالة الشاطئ جنوب الأناضول ، وبالإغارة على ميناء ثينه في القلص العازي من الحماية ؛ وعندما أغلق قلاوون الإسكندرية في وجه أبناء جنوا سارعوا إليه يطلبون السلام . وعندما وصل مبعوثهم إلى القاهرة ، وجدوا سفراء من الامبراطور البيزنطي والامبراطور الألماني منتظرين بباب السلطان<sup>(٣٩)</sup>.

و تم تجد مناقشات البابا صدى إلا في شمال إيطاليا ؛ ولم تات الاستجابة من البارونات ، وإنما جاءت من السوقة من الفلاحين والعاملين من سكان المدن الصغيرة في لومبارديا وتوسكانيا ، التواقين إلى مغامرة قد تعود عليهم بعض الفضل والخلص الروحي وما يحتمل من أسلاب . ولم يكن البابا سعيداً تماماً بذلك ؛ لكنه قبل مساعدتهم ووضعهم تحت إمرة أسقف طرابلس الذي سبق أن حذى إلى روما لاحقاً . وكان في

(٣٧) Raynolds, 1288, p. 43, 1289, p. 72.

(٣٨) brick, "Damian's Journey", p. 529. For Edwards' attitude, see Powicke, op. cit. R pp. 729 ff.

(٣٩) Heyd, op. cit. i, pp. 416-18.

مأمول البابا أنهم فلن يفعلوا شيئا يتصرف بالحق بعدما أصبحوا تحت يد كاتبة لأسقف يعرف الشرق . كما البنادقة ، الذين لم يأسوا لرؤية جنودا وهمي تفقد قاعدتها في طرابلس، والذين شعروا بخلاف ذلك حيال عكا التي كانت لهم فيها القيمة التجارية ، فقد قدموا عشرين غليوناً تحت قيادة إين الدوج - نيكولاس نيبولسو - وبمساعده ، بناء على طلب البابا ، جون (أوف حريثلي) وروكسي (أوف سالي) . وكان البابا قد عهد إلى كل فرد من هؤلاء القادة الثلاثة بألف قطعة ذهبية من خزائن البابوية ، بيد أنهم كانوا ينتفون المون . وعندما أبحر الأسطول فاصدا الشرق انضم إليه خمسة غلابيين أرسلها الملك جيمس ملك أراغون الذي كان نواظرا لتقديم المساعدة على الرغم من أنه كان في حرب مع البابوية والبنديقة<sup>(١٠)</sup>.

أعادت الهدنة بين الملك هنري والسلطان بعض الثقة إلى أهل عكا ؛ فعادت التجارة سولها الأولى . وفي صيف ١٢٩٠م بدأ قنصل دمشق يرسلون قوافلهم مرة أخرى إلى الساحل ؛ وكان الخصاص وفيرا في الجليل في ذلك العام ، واحتشد الفلاحون المسلمون بحاصلاتهم في أسواق عكا . ولم يسبق للمدينة قط أن شهدت مثل تلك الحيوية والنشاط . وفي أغسطس ، وفي قمة هذا الإزدهار ، وصل الصليبيون الإيطاليون . ومن لحظة نزولهم إلى البايعة أثبتوا أنهم مشار حرج كبير للسلطات ؛ إذ كانوا قرويين ، سكارى ، فاسقين ، ولم يستطع قادتهم السيطرة عليهم لمجرهم عن دفع رواتبهم بانتظام . ولأنهم قد حاربوا هاربة الكفرة ، فقد بدأوا يهاجمون التحار والفلاحين المسلمين المسلمين . وفي أحد الأيام في أواخر أغسطس اندلعت أعمال شغب ؛ قال البعض إنها بدأت في حانة شراب حيث يتواجد المسيحيون والمسلمون ؛ وقال البعض الآخر إن تاجرا مسلما ألقى سيدة مسيحية ، واستنجد زوجها بغيره للإنتقام . وفعاءة اندفع غرغاء الصليبيين في الشوارع وفي الضواحي يقتلون كل مسلم يقابلونه ، ولأنهم فرروا أن كل من له لحية فهو مسلم ، فقد هلك أيضا الكثير من المسيحيين المحليين ؛ وارتفع بارونات المدينة وفرسان الأنظمة الدينية العسكرية ؛ وكل ما استطاعوه هو اقتال القليل من المسلمين وأخذهم إلى القلعة حيث الأمان ، والتبش على القليل من بدا أنهم زعماء الشغب<sup>(١١)</sup>.

(١٠) *Gestes des Chiprois*, p. 238; Dandolo, p. 402; Sarras, p. 229; Attadi, pp. 218-19

(١١) *Gestes des Chiprois*, loc. cit.; Attadi, p. 219; Florio Bantua, p. 118; Magri, *Salmaria*, p. 109.

وسرعان ما وصلت أنباء اللذعة إلى السلطان الذي اشتد غضبه بحق ، وقرر أن الوقت قد حان ليقتلع الفروع من الزينة السورية . وسارعت حكومة عكا بإرسال اعتذاراتها وتأسفها ، غير أن السلطان أرسل مبعوثه إلى عكا وأصر على تسليمه اللذتين لمعاتيهم . وعقد الكونتسابل أمباريك مجلسا نهض فيه السيد الأعظم لفرسان المعبد ونصح بتسليم جميع المجرمين المسيحيين الموجودين آنذاك في سجون عكا إلى ممثلي السلطان على أنهم مرتكبوا الجريمة . غير أن الرأي العام لم يكن يسمح بإرسال مسيحيين إلى حتفهم على أيدي الكفرة . ولم يلق سقراء السلطان أبية ترضية ، وبدلاً من ذلك كانت هناك محاولة فاشلة لإثبات أن بعض كبار المسلمين مذنبون بإشعال الشغب وبذا يتعين أن يُلقى باللائمة عليهم<sup>(١٧)</sup>.

#### ١٢٩٠م : موت قلاوون

وكان رد قلاوون هو اللجوء إلى السلاح ؛ وحدثت مناقشة أحراراً قتهاؤه، جعلته يشعر بالرضى لتوفر الثور القانوني الذي يسمح له بتزوير اللدنه ؛ وأبقى مخططاته على الكتمان . وبينما كان يعين الجيش المصري ، صدرت الأوامر للجيش السوري بقيادة ركن الدين طوقسو وإليه على دمشق بالمسير إلى ساحل فلسطين بالقرب من قصيرة وإعداد آلات الحصار . وكان قد أذاع أن هدف الحملة هو الخربة<sup>(١٨)</sup> . ولكن مرة أخرى حذر الأمير الفخري ولیم (أوف بوجو) وفرسان المعبد من نوايا السلطان الحقيقية . ونقل ولیم التحذير ، غير أنه كما حدث في طرابلس لم يكن هناك من يصدقه . فأرسل من لقاؤه نفسه مبعوثاً إلى القاهرة . فعرض السلطان أن يقبض على المدينة لقاء مبلغ من السيكونيات<sup>(١٩)</sup> يعادل عدد السكان . على أنه عندما وضع العرض أمام المحكمة العليا رفضته باستهزاء ، وأنهم ولیم بالخيانة وأهانه الجميع بينما كان يغادر القاعة<sup>(٢٠)</sup>.

(١٧) *Gestes des Chiprois*, pp. 239-40; Amadi, loc. cit.

(١٨) *Gestes des Chiprois*, p. 240; Magriai, Salomon, i, p. 109; Madi ad-Din, in Reynaud, op.cit. pp.567-8.

(١٩) (التروسم) السكون من المغة مغة مغة كانت تستعمل في إيطاليا وتركيا

(٢٠) *Gestes des Chiprois*, loc. cit.; Ludolf of Suchen (trans. Stewart) < P.P.T.S., vol. xii, p.56.

ولقد رضى أهالي عكا عن أنفسهم في نهاية العام عندما وصلتهم الأنباء من القاهرة بموت فلاوون . وكان قد كتب لهما عن اعتناء نوابه في الزحف على عكا ، ففي رسالته للملك أرمينا ذكر قسمه بالا يترك مسيحيا واحدا على قيد الحياة في المدينة . وفي ٤ نوفمبر ١٢٩٠ م ، انطلق من القاهرة على رأس جيشه . لكنه ما أن شرع في السير حتى أصابه المرض ، وبعد ستة أيام توفي في مرحلة اثنين على مسيرة خمسة أميال من عاصمته . وبينما هو على فراش الموت أخذ من ابنه الأشرف خليل وعددا بمواصلة الحملة . ولقد كان سلطانا عظيما ، يضاهي بيوس في غلظته وقسوته ، وإنما يتميز عنه بالحسن ورفع بالإخلاص والشرف<sup>(١٦٧)</sup>.

وعلى غير شاكلة بيوس ، ترك فلاوون إينا حديرا بأن يثقله . وأعتقب موته مكيدة القصر المعتادة ؛ بيد أن الأشرف لم يكن ليؤخذ على غيرة ، ولم يكن من القسطنطيني زعيم المكيدة الأمير طورونطاي ، واستطاع ترسيخ ثبوته على العرش. والآن ، كان الوقت متأخرا جدا للزحف على عكا ، وتأجلت الحملة إلى الربيع<sup>(١٦٨)</sup>.

وانتهزت حكومة عكا هذه الأهلة السلمية وأرسلت سفارة أخرى إلى القاهرة قلادها أحمد وجهاه عكا ، غيليب مينيوف ، الذي كان دارسا متقنا للعلوم العربية ؛ ومعه فارس من فرسان المعبد يدعى بازنولوميز بيزان ، وفارس من فرسان المستشفى ، وكانهم أسرار يدعى جورج . ورفض السلطان مقابلتهم ، وكفى بهم في غيابة السحن حيث لم يبقوا طويلا على قيد الحياة<sup>(١٦٩)</sup>.

شرع جيش المسلمين في التحرك في مارس ١٢٩١ م ، وكان الأشرف قد التقى حوالب الحيلة في ترتيباته واستكملها ؛ إذ جمع آلات الحصار من سائر أنحاء السلطنة . وكان الجيش محتلا بكثير الكثير من حمات حتى أنه استغرق شهرا للإرتحال من الكرك - حيث توقف لأخذ منحنيق ضخيم يسمى المنصور - حتى عكا جنوبا في بحر مظهر ملتح بالعلمي ؛ فضلا عن مائة آلة حصار أخرى صنعت في دمشق ومصر . وكان هناك منحنيق ضخيم آخر يسمى الغاضب ؛ ومناحق أخرى أصغر ذات كفاية خاصة ، تعرف باسم الثيران السوداء . وفي ٦ مارس غادر الأشرف القاهرة قاصدا دمشق حيث ترك

(١٦٧) Magréti, Salomon, II, ٤, pp.110-12; Abul Feda, p. 163; Genes des Chypriotes, pp. 240-1; Arnaldi, p.219.

(١٦٨) Abul Feda, loc. cit.; Genes des Chypriotes, p. 241.

(١٦٩) Genes des Chypriotes, pp. 241-3; Magréti, Salomon, II, ٤, p.120.

الخرم . وفي ٥ إبريل وصل أمام عكا بكل قواته الضخمة . وتحدث البعض عن ستين ألف فارس ومائة وستين ألف راجل . ومهما قد تبدو هذه الأعداد مبالغاً فيها فقد جاوز جيشه بكثير ما كان باستطاعة المسلمين حشده<sup>(١٤)</sup>.

#### ١٢٩١ م : المدافعون عن عكا

تسببت آباء استعدادات السلطان في أن أرغمت أهل عكا أجمعاً على التحقق من وريثتهم . وأُرسلت أثناء الشتاء استعدادات عاجلة إلى أوروبا ، ولم يكن لها سوى نتائج طفيفة للغاية ؛ إذ كان قد وصل قليل من الفرسان المتفرقين خلال الحريف السابق، من بينهم أوتو (أوف جرانسون) السويسري ومعه بعض الإنجليز الذين أرسلهم إدوارد الأول ؛ وجمع فرسان اللند والمستشفى جمع رجالهم ؛ أما السيد الأعظم لفرسان التوتون ، بوركارد (أوف شواندن) ، فقد تسبب في توليد انطباع سيئ باختياره التحلي عن منصبه في تلك اللحظة بعينها ؛ غير أن حليفته ، كونراد (أوف فيوشتاين) ، استدعى عدداً من رفاقه الفرسان من أوروبا . وأرسل هنري ملك قبرص جنوداً قبرصيين وأعاد أماليك لقيادة الدفاع ، ووعد بالهجوم بنفسه مع تعزيزات. ولم يقد كل مواطن قادر بدنياً من مواطني عكا يلعب دوره<sup>(١٥)</sup>. على أنه حتى مع ذلك كانت الأعداد قليلة؛ إذ كان عدد سكان عكا للمدنيين جميعاً ثلاثين أو أربعين ألف نسمة ، بالإضافة إلى ما يقل عن ألف فارس أو مساعد فارس بمواد ، وحوالي أربعة عشر ألف جندي مشاة ، بما في ذلك الحجاج الإيطاليون . وكانت تحصينات المدينة حالة جيدة قد تمت تقويتها مؤخراً بأوامر من الملك هنري . وقد أصبح هناك الآن حشد أسوار مزدوج لحماية شبه الجزيرة التي تقع عليها المدينة وضاحيتها الشمالية مونتوسارت ، وسور واحد يفصل مونتوسارت عن عكا ، وتلعب القلعة على ذلك السور الأخير بالقرب من نقطة اتصاله بالسور المزدوج . وكان هناك اثنا عشر برجاً على مسافات غير منتظمة من الأسوار الخارجية والداخلية ، وقد شُيد الكثير منها على نفقة بعض الحجاج البارزين ، مثل الدرج الإنجليزي الذي بناه إدوارد الأول ، و برج كوتيسه بلوا التال له . وفي الزاوية التي تحرف فيها الأسوار من النضى شمالاً من خليج عكا لكي تغطي غرباً ناحية البحر ، قام برج ضخم على السور الخارجي بنه

(١٤) Al-Jaziri (ed. Saragat), pp. 4-5; Mayall, loc. cit.; Arabi Pasha, p. 163 .

(١٥) Ibrida, *Geographie*, pp. 1008 ff. ; *Genève des Chypriotes*, p. 241. See also R.



حدثنا الملك هنري الثاني في مواجهة البرج الملعون على السور الداخلي . وأمام برج الملك هنري كان هناك مدخل ضخم بناء الملك هيو<sup>(٥١)</sup> . وكانت هذه القروية بكامالها تضعف جزء في الدفاع ؛ ولذلك عُهد بها إلى جنود الملك تحت إمرته أسيرة أخيه أمالريك . وعلى مبعته تمركز الفرسان الفرنسيون والإنجليز بقيادة جون (أوف برينلي) ولوتو (أوف حراقدسون) ثم الجنود الباقية وأبناء بيزا وجنود كيبون عكسا . وعلى مسيرة أمالريك كان هناك أولا فرسان المستشفى ثم فرسان القيد ؛ كلٌ بقيادة سيده الأعظم ، وذلك لشغليته أسوار مونتوسارت ، أما فرسان الشيرتون ، فكانوا بمثابة تعزيز للكتاب الملكية عند البرج الملعون . أما في جانب المسلمين ، فقد تمركز جيش حماة - وكان معه المؤرخ أبو الفدا بنفسه - ناحية البحر في مواجهة فرسان القيد ؛ وقرنر جيش دمشق في مواجهة فرسان المستشفى ؛ وكان الجيش المصري في موضع يمتد من نهاية سور مونتوسارت ويلتف إلى خليج عكا ، وتصبحت عمدة السلطان على مسافة غير بعيدة من الشاطئ ، في مواجهة برج اللندوب الباهري<sup>(٥٢)</sup> .

#### ١٢٩١م : إتهامات بالجن

وفيما بعد ، عندما ضاع كل شيء ، توجهت جنود القسطنطينية وأشرن فأشعلت التتاعم وتبادل السباب . فراح المؤرخون المسيحيون ، بيلا ضابط ، يفتقدون الخافية باتهامات الجن<sup>(٥٣)</sup> لكن حقيقة الأمر أن المدافعين عن أوترنجه أنهلروا في تلك اللحظة

(٥١) انظر تولا، ص ٥٩ ، والخريطة ص ٥١ . وانظر أيضا H. F. Brown, *Colonia Frangipani*, pp. 451 ff. وكانت كنيسة بافرا المسماة كيسي (أوف برينلي) قد زارت عكا سنة ١٢٨٧م وسببت هناك (Annoles de Terre Sainte, pp. 459-60), Sarasin, p. 229).

(٥٢) Abu'l Fida, p. 164, *Gestes des Chrétiens*, p. 243.

(٥٣) المؤرخ العربي الرئيسية التي تناولت سقوط عكا هي:

١- *Gestes des Chrétiens* كنه للمؤرخ (فارس عبد سور) Templar of Tyre الذي كان كاتب أسرار السيد الأعظم للنظام ، وكان ضابط حيان . ورغم إيمانه بالسيد الأعظم ، لم يكن للنظام فرسان القيد . وكان على وجه العموم يصفا (انظر كتابه ص ٥٥٠).

٢- Marino Sanudo, the elder ، ولم يكن حاضرا وإنما بنى تاريخه على *Gestes*.

٣- *De Bello Urbis Aconis* (in Marini and Durand, *Aspersiones Collectae*, vol. ٢) وهو عمل مجهول كنه أحد المعاصرين ولكنه لم يكن ضابط حيان . وتمثلت لمسة العنان في هيئته بالجن والقسا.

٤- *Thodéas of Naples, Historia de Desolacione Civitatis Aconensis* (ed. Riazzi).

الخامسة من لحظات مصورهم شجاعة وإخلاصاً طويتها طيباً مؤسفاً كتابات السنوات الحديثة. وربما حدث أثناء تحميل السفن بالنساء والمسنين والأطفال لإرسالهم إلى قبرص قبل بداية الحصار أن حرب معهم بعض الرجال من القادرين على الحرب. وربما أنهى بعض التجار الإيطاليين مشاعر الأنانية المرتفعة حول ممتلكاتهم. ولم تشرك جنود في الصراع في الواقع، إذ كان قد استبعدوا القيادة فعلاً من عكا، وعقدت معاهدتها مع السلطان. غير أن القيادة وأبناء بيزا حاربوا مسألة وكان أبناء بيزا مسؤولين عن تشييد معبرتي خشم كان أكثر آلات للمسيحيين كفاية.

#### عكا سنة ١٢٩٩م

بدأ الحصار في السادس من أبريل. وبعدها بعد يوم راحت مناطق السلطان كيرها وصغيرها تقذف أحجارها أو حاربائها المبحارية وبها مزيج قابل للإستعمار، فتصطدم بأسوار المدينة، أو تجاوزها إلى داخل المدينة، وراح رماة سهام السلطان يصون سحب سهامهم على المدافع في أروقة الأبراج وشرفاتها، بينما راح مهندسوه يعدون للعدة لتلقيم الدفاعات الصعبة، وقيل إنه كان لديه كلف مهندس أسام كل برج. وكان المسيحيون لا يزالون مسيطرين على البحر، وكانت مؤن الطعام تصل بانتظام من قبرص؛ غير أنهم كانوا يقترون إلى التسليح، وبدلاً يتحللون من عدم وجود ما يكفي من الرجال لوضعهم على الأسوار لحماية الأعداء بإعدادهم للهولة؛ غير أنه لم يكن هناك حديث عن الإستسلام. وتبوا في إحدى سفنهم منجيقاً تسبب في إحداث أضرار جسيمة في معسكر السلطان. وفي ليلة ١٥ أبريل، والقمر ساطع في السماء، خرج فرسان المعبد، يساعدهم لوتو (كوف براتيسون)، واندفعوا في هجوم مباشر على معسكر رجال حماة؛ وبلغت المسلمون؛ غير أن الكثير من فرسان المعبد لغتوا في حبال الخيام في غمرة الليل وسقطوا وأسرروا، وأجبر الآخرون على أعتابهم إلى داخل المدينة بخسائر فادحة. وبعد ليال قليلة قام فرسان المستشفى بمزج آخر في غلام تام، كان ماله الفضل الزريع، إذ أشعل المسلمون على القوز مشاعلهم ونيرانهم. وبعد

وهو عمل مسيء بنفس القدر.

وهناك تاريخ كنه راعب يوثق يدعى *Arsenios*، استشهد به *Bartholomew of Meocastro*،  
نشره *Paladini* في 111، *Martini, Roman Byzantine Scriptores, new edition, xiii*،  
p.152، وهو ينهم لغزيت. المسوق والمطوون وليس بالحق. وقول كل المصادر تقريباً كلاماً طيباً  
عن الملك حزى

هذا الخروج الثاني تقرر أن ذلك باعتماد التكلفة في القوة البشرية . على أن التحلى عن المعارك المحورية لتحرر معتويات المسيحيين ، وتلشى بينهم الإحساس بانقطاع الأمل . لقد كان الوقت في جانب المسلمين.

وفي الرابع من مايو ، أى بعد حوالى شهر من بدء الحصار ، وحصل للملك هنرى من قبرص ومعه ما استطاع جمعه من حنود بلغ عددهم مائة خيال والفى راحل فى أربعين سفينة ؛ وكان يرفقته رئيس أساقفة نيقوسيا ، جون توركو (أوف أنكوشام)، ورجعا يعزى تأخره فى المين إلى المرض . واستقبل بمشاعر البهجة ، وما أن هبط إلى البر حتى تسلم القيادة ونفت قوة الحى الدفاع . غير أنه سرعان ما اتضح جليا أن تلك التعزيزات كانت غاية فى الضآلة ، فلم تحدث فرقا فى المحصلة العامة.

#### ١٢٩١ م : آخر محاولة للتفاوض

وحاول الملك محاولة أخيرة للسلام ، فأرسل فارسين هما وليم (أوف كافران) ووليم (أوف فيلير) من فرسان المعبد إلى السلطان يسأله لماذا يحرق القديسة ، ويعدده بالإنصاف من أية مظلالم . واستقبلهما الأشرف خارج خيمته ؛ وقبل أن يبدأ بتسليم الرسالة سألفها باقتضاب ما إذا كانتا قد أحضرتا مفاتيح المدينة ؛ وعندما أجابا بالنفى قال إنه إنما يريد المكان ولا يعبأ بمصير السكان . وتقديرا لشجاعة الملك الذى جاء للحرب وهو ضيفا ومرتبش، فإنه سوف يفتى على السكان إذا استسلموا له ؛ ورد لليوثلان بأنهما سوف يفتنران عائلتين إذا وعدا بالإستسلام ، وبعد أن قتالا ذلك مباشرة قذف منحنيق من الأسوار بحجر سقط بالقرب من المجموعة ؛ فاستشاط الأشرف غضبا واستل سيفه ليقتل السفيرين ، لكن الأمير الشجاعى قام إليه وهدأ قائلا إنه لا ينبغي أن يثوث سيفه بدماء الخنازير . وشجع للفارسين بالعودة إلى ملكهم.

كان مهندسو السلطان قد بدأوا فعلا فى تلقيم الأبراج . وفى ٨ مايو قرر رجال الملك أن برج الملك هو الضعيف لم يعد الدفاع عنه مجديا ، فأشعلوا فيه النيران وتركوه لينهار . وخلال الأسبوع التالى لثم البرج الإنجليزى وبرج كوتيسمة بلوا، وبدأ انهيار الأسوار المحاذرة لبرابة القديس أنطوان وبرج القديس نقولا . وصمد برج هنرى الثانى الحديد حتى ١٥ مايو، عندما انهار جزء من جداره الخارجى ؛ وفى الصباح التالى شق للماليك طريقهم فى الأطلال ، وكان لا بد للدفاع أن يتفتتس إلى الأسوار الداخلية . وفى نفس ذلك اليوم كان هناك هجوم مركز على بوابة القديس أنطوان ولم يمتنع

الأعداء من الدخول إلى المدينة سوى بسالة فرسان المعبد وفرسان المستشفى . وتمتدّ مارشال فرسان المستشفى ، ماثيو (أوف كليرمونت) ، بشجاعتهم الفاتحة.

وفي اليوم التالي عزز المسلمون قبعتهم على السور الخارجي ؛ وأمر السلطان بهجوم عام صباح الجمعة ١٨ مايو ؛ وشن الهجوم بطول الأسوار من بوابة القديس أنطران حتى برج الطريق لبحار الخليج ، غير أن الهجوم الرئيسي للمسلمين كان على برج الملعون عند زاوية الجزء الثاني؛ وألقى السلطان بكل إمكانياته في المعركة ، فلم تتوقف المناقح عن القصف، والهمزات سهام رماته - التي كانت أن تأخذ شكل كتلة متحدة - على المدينة ؛ واندفعت الكتبة تلج الكتبة بقدرها أمراؤها بعماساتهم البيضاء تهاجم الدخاعات ؛ وكانت الضوضاء كثير الرعب ، والمهاجمون يصرخون صرخات للمركة تستحثهم الأوراق والصبح للمدينة والمقبول التي يرفعها للامانة مشال على ظهور الجمال.

و لم يمض طويلا وقت حتى دق الداليلك طريقهم إلى داخل برج الملعون مما اضطر حاميته - المؤلفين من الفرسان السيويان والبارصة - إلى التقهقر غربا باتجاه بوابة القديس أنطران حيث حشد لمساعدتهم فرسان المعبد والمستشفى بحاربون جنبا إلى جنب ، وكأنه لم يكن هناك قط قرنان من التناقص بينهما . وحاول ماثيو (أوف كليرمونت) بالنسبة قيادة هجوم مضاد لاستعادة البرج ، بيد أنه على الرغم من أن السبعين الأعظمين لمعاد ، لم يجد ذلك فتيلا . وبعطول الأسوار الشرقية للمدينة تمكن جون (أوف جريلي) وكوتو (أوف جراندسون) من الصمود لبضع ساعات ؛ بيد أنه بعد سقوط برج الملعون استطاع الأعداء المرور من الأسوار للتهارة والاستيلاء على بوابة القديس نيقول ؛ وبلا ضاع السور بكامله ورشح للمسلمون وضعهم داخل المدينة.

#### ١٢٩١ م : اقرب من عكا

واستمر القتال في الشوارع ، و لم بعد هناك ما يمكن عمله لإنقاذ عكا . وأصيب وليم (أوف بوجو) السيد الأعظم لفرسان المعبد إصابات مميتة في هجومه المضاد العفيم على برج الملعون ، وحمله أتباعه إلى مبنى نظام المعبد حيث مات ، وكان معه ماثيو (أوف كليرمونت) ، لكنه عاد إلى المعركة وإلى حتفه . وخرج السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، جون (أوف فيلور) ، لكن رجلاه أحترقوا إلى الرقأ ووضعوه على متن سفينة وسط اعتراضاته . وكان الملك هنري وأخوه ألساريلك قد ركبا السفينة فعلا ؛

وفيما بعد أتتهم الملك هنري بالجنين لتخليه عن المدينة ، غير أنه كان فاقده الحيلة ، وكان واجبه إزاء مملكته يهتم عليه بتجنب الأسر . وفي القطاع الشرقي حرجح جون (أوف جريبللي) وتسلم القيادة أوتو (أوف جرانديسون) الذي صادر كل ما كان بيده من السفن البندقية ووضع عليها جون (أوف جريبللي) وجميع ما أمكن إقتاده من الخنود وكان هو آخر من انضم إليهم على ظهرها . وعزم اضطراب مقرع أرضية البناء ، واكتفلت قوارب التحديف بأخذود والمدنيين، وفيهم النساء والأطفال ، في سعي للوصول إلى الغلايين الراسية قبالة الشاطئ . وكان الطريق المحصور نيكولاس (أوف حثاي) ، قد حرجح حرجا بسيطا وحمله حذمه المخلصون ووضعوه على زورق شراعي صغير ، ومن قبل العطف سمح لكثير من اللاجئين أن يركبوا معه القارب إلى أن هبط الزورق بثقلهم وأغرقهم جميعا . وبعض الرجال أسعفتهم أذهانهم فاحتسبوا قاربا وراحوا يجمعون رسوما بأعطف من اليانسين على الأرضة من النجار والسيدات ، وقام المغامر الكتالوني<sup>(٥٤)</sup> روجر فلور ، الذي حارب بشجاعة كنفارس من فرسان المعبد أثناء الحصار ، بتولي قيادة غليون تابع لفرسان المعبد ، وكان بمثابة أسلحى لثروته الضخمة التي جمعها من ابتزازه لنبيلات عكا<sup>(٥٥)</sup>.

وكانت السفن فضيلة العبد للغاية بحيث لا تستطيع أن تفقد نظريين . وسرعان ما توجهت جنود المسلمين في المدينة مباشرة ، يظنون من يقابلهم ، المسجون والنساء والأطفال على السواء ، وانقسم الحظ لقليل من المواطنين الذين مكثوا في بيوتهم ، فقد أخذوا أحياء ليباعوا ورفقا ، ولكن لم ينج الكثير . وليس مقدور أحد أن يخبرنا بعدد الذين هلكوا ، وفيما بعد حاولت الأنظمة الدينية العسكرية وكذلك بيوتات التجار العظام وضع قوائم بالناجين من أفرادها، غير أن مصير أغلب أفرادها كان مجهولا . وتحدث من سافروا لاحقا إلى الشرق عن مشاهدتهم لبعض أعضاء فرسان المعبد المرتدين عن دينهم يعيشون عيشة حقيرة في القاهرة ، وآخرين يعملون في قطع

(٥٤) (المترجم) نسبة إلى كاتلونيا Catalonia ، وهو إقليم في شمال شرق إسبانيا عاصمته برشلونة.

(٥٥) هذه الرواية مأخوذة من 43-54 pp. Gestes des Chevaliers.

-Sarras, pp. 230-1; Arnald, pp. 220-3; De Evidis, cols. 760-82; Theobald, pp. 18-23; Ludolf of Suchen (F.P.T.S pp. 54-6); al-Jazari, p. 5; Mopria, Salama, II, pp. 125-6; Abel Feda, pp. 164-5; Abel Mubari in Beirut, op. cit. pp. 569-72. There is a picturesque account (unfortunately without references) in Schiltberger, *Byname of Croisades*, pp. 207-79. Mantzner, *Croisades* (ed. Carleu), p. 378, tells of Roger of Flor's conduct.

الأحشاش ناحية البحر الميت . وأطلق سراح بعض الأسرى وأبعدوا إلى أوروبا بعد تسع أو عشر سنوات . وقبل إن الرقيق من الفرسان وذريتهم كان أسيرهم يسمونهم بشئ من الإحترام . واعتقت نسوة كثيرات وأطفال إلى الأبد في حريم أمراء الماليك . وزاد العرض في سوق الرقيق بدمشق زيادة كبيرة ، فأنخفض سعر الفتاة إلى دراهمة واحدة<sup>(٥٦)</sup> . على أن عدد المسلمين الذين قتلوا كان أكبر<sup>(٥٧)</sup> .

وبحلول ليل ١٨ مايو باتت عكا كلها في قبضة السلطان ، فيما عدا قلعة فرسان المعبد الضخمة ذات التواء المثل على البحر في النقطة الجنوبية الغربية من المدينة ، حيث لاذ بها فرسان المعبد الناجون من الموت ومعهم عدد من المواطنين من الجنسين . ولعدة أيام تحدث جنرالها الضخم الأعداء ، والسفن التي أنزلت الفلاحين في قصير عبادت لمساعدتهم . وبعد أسبوع تقريبا عرض الأشرف على مارشال النظام ، بطرس وأوف سيفري ، السماح له بركوب البحر مع كل من كان معه في القلعة بمنحولاتهم إذا استسلموا له ؟ وقبل بطرس الشرط ، ودخل أحد الأمراء ومائة مملوك القلعة للإشراف على الوثائق ، بينما رقرقت راية السلطان على السرج . لكن هؤلاء الماليك كانوا خارج سيطرة المشرقي عليهم ، فبدلوا في إزعاج المسيحيات والأطفال وفي ملكهم ، الأمر الذي أثار حق الفرسان فانقضوا على المسلمين وقتلوه ، وأزلقوا راية الأعداء ونهبوا للمقاومة حتى الموت . وعندما هبط الطلام ، أرسل بطرس (أوف سيفري) عزانة نظام فرسان المعبد مع قائد الفرسان ، تبالد جودين ، مع قليل من غير المقاتلين ، في قارب إلى القلعة في صيدا . وفي اليوم التالي ، وعندما رأى الأشرف قوة القلعة وما كانت عليه حاميتهما من شجاعة بالسة ، عرض نفس الشرط المشرف كما سبق ؛ وخرج بطرس وقليل من رفقه بمرور آمن لمناقشة الإستسلام . غير أنهم ما أن وصلوا حيمة السلطان حتى حوصروا وقيدوا وحربت أعناقهم على القوار ؛ ولما رأى أفراد الحامية من فوق الأسوار ما حدث ألحقوا البوابة وواصلوا الحرب . غير أنهم لا يستطيعون منع المهندسين المسلمين من الزحف حتى الأسوار وحفر نفق ضخم تحتهم . وفي ٢٨ مايو بدأ جانب القلعة المثل على اليابسة في الإنهيار ، ودفع الأشرف ، الذي حذله صبره ، بالكفى لمجرك إلى داخل الفتحة الأسلة في الإتساع . ولم تتحملهم قواعد

(٥٦) (الترجم) قسرا : حملة برنانية غنية فنية ؛ وهي الآن العملة الرسمية للبرتغال الحديثة

(٥٧) *Genes des Chiprois*, pp. 254-5; Maqrissi, op. cit. p. 126; letter of Sultan al-Ashraf to beida, *Geackickie*, p. 11; *Hehson of Ammonia in Bartholomew Cotton*, p. 221. See R 1021 n.3.

البنى التي تزايد ميلها ؛ وبينما كانوا يشقون طريقهم قتالا إلى الداخل انهار الصرح كله وقضى على اللادنين والمهاجرين على السواء بالكس الخائل من الأحجار الشهارة<sup>(٢٨٨)</sup>.

#### ١٢٩١م : تدمير عكا

ما أن أصبحت عكا في يد السلطان حتى أخذ في تدميرها بصورة منتظمة وقد عقد الحزم على ألا تعود أبدا كركس حرة للملوك المسيحي في سوريا ؛ فنهبت البيوت والأسواق ثم حُرقت ؛ وهدمت مباني الأنظمة الدينية العسكرية ، وحُطِّلت تحصينات الأبراج والقلاع وتُركت أسوار المدينة للتفكك. وعندما مر بها الحاج الأتاني ليودولف (أوف سوشين) بعد ذلك بأربعين سنة ، لم يجد سوى بعض الفلاحين التمساء يعيشون بين أطلال ما كان مرة العاصمة الرائعة لمملكة الشرق القرطبي ؛ وما زال هناك كنيسة أو كنيسة لم تدمر كلية ؛ غير أن المدخل الرابع لكنيسة القديس أندرو قد أخذ لتفريق المسجد الذي بنى في القاهرة لتشريف السلطان المنتصر ؛ وفي وسط الجدران الشهمة في كنيسة سانت دومينيك ، لا يزال قبر الراهب الدومينيكي ، جوردان السكسوني ، باقيا لم يُمس ، إذ أن المسلمين قد حثكوا فيه ووجدوا أن البنية لم تقصد<sup>(٢٨٩)</sup>.

#### ١٢٩١م : موت مملكة الشرق القرطبي

وسرعان ما لقيت المدن القرطبية النقية نفس مصير عكا. فبعد أن أصبح أغلب عكا في قبضة الأشرف ، أرسل يوم ١٩ مايو فرقة جنود كبيرة إلى صور التي كانت أقوى مدن الساحل ، متبعة أمام أي عدو يفتقد السيطرة على البحر ؛ وفيما مضى تسببت مرتين في إحياء صلاح الدين. وقبل أشهر قليلة كانت الأسيرة مرجريت ، التي تنتمي إليها المدينة ، قد سلمتها لابن أخيها ، أخى الملك ، أسالريك . وكانت حاميتها صغيرة ، وما أن اقترب العدو حتى فملك الملح وكبل أسالريك ، آدم (أوف كارغان) ، وأجر هاربا إلى قبرص وتغلب على المدينة دون قتال<sup>(٢٩٠)</sup>. وفي صيفا قرر

<sup>(٢٨٨)</sup> *Genes des Chypriotes*, pp. 255-6; Bartholomew Cotton, p. 432; Ludolf of Suchem, loc. cit.; Sarrado, p.231. The Story is also told by Bar-Hebraeus, p. 493 (dated 1292)

<sup>(٢٨٩)</sup> Einak, *Monsaunt des Foists*, ii, pp. 9-11; Etienne de Lusignan, *Histoire de Chypre*, fol. 90; Ludolf of Suchem (P.P.T.S. p. 61)

<sup>(٢٩٠)</sup> *Genes des Chypriotes*, p. 254; Sarrado, loc. cit.; al-Iazzari, p. 6; Abul Fida, p. 164;

فرسان اللعد المقاومة . وكان تبالد جردين حاضرا مع ثروة نظام فرسان اللعد ، وكان الفرسان بالقون على قيد الحياة قد اعتبروه سيذا أعظم ليخلف ولهم أوف بوجو . ولقد تركوا في هدوء لمدة شهر . ثم جاء جيش مملوكي عرمرم بقيادة الأمير الشجاعى . وكان الفرسان من القلة بحيث لا يستطيعون الاحتفاظ بالدينة ، ولذا انسحبوا مع الكثير من وجهاء المواطنين إلى قلعة البحر التي بنيت على جزيرة صغيرة على بعد مائة ياردة من الشاطئ ، ثم ترميمها حديثا . وفي الحال أمر تبالد إلى قرض جميع الجنود لمساعدة القلعة ، لكنه بعدما أصبح هناك لم يفعل شيئا ، إشا لجينه أو لباسه . وحارب فرسان اللعد الموجودون في القلعة ببسالة ، ولكن عندما بدأ مهتدسو الماليك في بناء عمر مرتفع في البحر استأسروا وألقوا بحمال السائل إلى طرطوس . وفي ١٤ يولية دخل الشجاعى القلعة ونمر بتدميرها<sup>(١١)</sup>.

وبعد أسبوع ظهر الشجاعى أمام بيروت التي كان مواطنوها يعلقون الأسال على أن المعاهدة للمقودة بين السيدة إشيغا والسلطان سوف تحفظهم من الهجوم ؛ وعندما قام الأمير بتوجيه الأمر إلى قادة الحامية بالحضور للإعتراب عن احترامهم له انتصاعوا للأمر بقلبي ، لا شيء سوى ليحدثوا أنفسهم سجناء . ولا تستطيع الحامية أن تفكر في الدفاع في غيبة قوادها . فخرج كرادعا إلى سفنهم وولوا الأديار حاملين معهم ما في الكندراية من آثار ، ودخل الماليك المدينة يوم ٣١ يولية . ولقد هدموا أسوارها ونحلت الكندراية إلى مسحدا<sup>(١٢)</sup>.

وما أسرع ما احتل السلطان بعد ذلك حيفا دون مقاومة يوم ٣٠ يولية ، وحرق رحاله الأديرة على جبل الكرمل وقتلوا رهبانها . وما زال هناك قلعتا فرسان اللعد في طرطوس وفي عثليت ؛ ولم يكن في أي منهما الحامية ذات القوة الكفيلة بمواجهة الحصار ، فصار الجلاء عن طرطوس يوم ٢ أغسطس وعثليت يوم ١٤ من نفس الشهر . وكل ما بقي الآن لفرسان اللعد هو قلعة جزيرة إردوا على بعد حوالي ميلين

Magrîs, *Sûlana*, II, I, p. 126. كانت مرجعيت ما تزال سيده صبور في ١٢٨٩م. Gestez, HIL, رقم أن Gestez (ibid) يحدث عن كبريك بالعبارة سيد صبور في ١٢٨٨م. أنظر، op. cit. p. 182 n. 5.

(١١) Gestez des Chypriotes, pp. 256-7; *Annuaire des Terre Sainte*, p. 460; al-Jazari, p. 7; Magrîs, *Sûlana*, II, I, p. 131; Abul Feda, loc. cit.

(١٢) Gestez des Chypriotes, pp. 257-8; al-Jazari, loc. cit.; Magrîs, loc. cit.; Abul Feda, loc. cit.



من الساحل في مواجهة طرطوس<sup>(١٣٧)</sup> ، ولعلوا ماكين هناك طوال اثني عشرة سنة أخرى ، ولم يجلبوا عن الجزيرة إلا في سنة ١٣٠٣م عندما بدأت الشكوك تقوم حول مستقبل هذا النظام الديني العسكري<sup>(١٣٨)</sup>.

وراح جند السلطان لعدة أشهر يحرقون السواحل شمالا وجنوبا ، يدمرون بساتين أي شيء قد يقيد الفرنج إذا ما حاولوا النزول على الشاطئ مرة أخرى ؛ فراحوا يقطعون أشجار بساتين الفاكهة ، ويحصدون أنظمة الزرع . والقلاع الوحيدة التي تركت قائمة هي تلك القلاع البعيدة عن الساحل ، مثل قلعة جبل الخاج في طرابلس ، وقلعة الرقب على جبلها المرتفع . ولقد عمّ الخراب على طول البحر . وشاهد فلاحو المزارع - التي كانت ذات مرة غنية بالزروع - مزارعهم وقد دُثرت ، فلاحوا بالدمار . وسارع من كان من أمل فرنجي إلى الاندماج في العنصر الإسلامي ، وحول المسيحيون الوطنيين معاملة أفضل قليلا من العبيد ؛ لقد تم - كان للإسلام من تسامح كريم؛ ذلك أن مزارع الخروب الدينية (الزراعات) دُثرت من المتصرين ، فلم يعد لديهم مكان للرحمة إزاء الكفار<sup>(١٣٩)</sup>.

ولم تكن جماعة المسيحيين التي هربت إلى قبرص بأفضل حالا ؛ فقد عاش جبل حياة بؤسة ، حياة اللاجئين غير المرغوبين ، وبغضى السنين تقلص العطف عليهم واستحال إلى تعاملات هزيل ؛ وكانت قائلتهم الوحيدة أنهم كانوا يذكرون القبارصة بالذكارة للزوعة ، ولم يكن القبارصة بحاجة إلى مذكّر . وطوال القرن التالي كانت سيدات الجزيرة العنيمات، عندما يفرجن من دورهن ، يرتدين العصابات السوداء فتغطين من الرأس إلى القدم . لقد كانت علامة الحداد على موت الشرق الفرنجي<sup>(١٤٠)</sup>.

(١٣٧) *Genes des Chypriotes*, p. 250; *Annales de Terre Sainte*, loc. cit.; al-Isaari, p. 8; Mapiri, *Silence*, II, 1, p. 126; Abul Feda, loc. cit.

(١٣٨) *أنظر كند* ص ٣٧.

(١٣٩) *Savada*, p. 232; Cobham, *Excursions Cyprus*, pp. 17, 22.

## الباب الخامس:

خاتمة



## الفصل الأول:

### آخر الحملات الصليبية



## آخر الحملات الصليبية

"والفاهمون من الشعب يملكون كثيرين . ويشترون بالسيف  
واللهيب والسيف والنهب أياها"  
(دانيال : ١١ : ٣٣)

سقطت عكا ، ومُردة الفرنج من سوريا ، فبدأت الحركة الصليبية تتناهى عن نطاق السياسة الواقعية . وقبل ذلك بقرن ، وبعد فتوحات صلاح الدين ، كان الفرنج ما يزالون يحتفظون بقلاع ضخمة في الأراضي الرئيسية ، صور وطرابلس وأنطاكية ؛ وكانت هناك قواعد يستطيع أي جيش محلي أن يطلق منها . أما الآن فقد ضاعت القواعد ، ولم تكن جزيرة الرواد الصغيرة المزدحمة القيمة ، ولما كان لا بد من تنظيم مجيئها عبر البحر ، من قورص . ولم تق هناك أراضٍ مسيحية سوى مملكة أرمينيا في كيليكيا ؛ غير أن الرحلة من كيليكيا إلى سوريا كانت صعبة ، ولم يكن الأرمن غنى بمثلهم موضع ثقة . ومرة أخرى ، جاء ضياع القدس عام ١١٨٧م صدمة مرعبة للعالم المسيحي ، وبالنسبة لحداء النصارى المملوكة مياثتا . على أن الجميع كانوا يعلمون في ١٢٩١م أن مملكة الشرق القوي كانت تقوض ؛ وأبلى احتلالها بالخرن دون المفاصلة .

وتجهين على أوروبا الغربية الآن مشاكل ومشاحنات داخلية ، ولذا لن تتأبج حمرة الحمى التي تدفع عوائل أوروبا إلى الشرق كما كان عليه الحال أيام الحملة الصليبية الثالثة ؛ ويستبعد كذلك أن تطلق حملة شعبية ضخمة كالحملة الصليبية الأولى ؛ فتعوب العرب تستمتع الآن بموانب جديدة من الراحة والإدغار ولن يستجيب لأي تشير وروي لأي فرد من أمثال بطرس الناسك استجابة لأسلافهم في ووع ساذج جهول قبل ذلك بقرنين من الزمان ، فلم تعد تقنعهما وعود الغفران الكسبي بعدما صدمهما استغلال الحرب المقدسة لأغراض سياسية . ولم يعد في الإمكان تنظيم حملة عسكرية ضخمة بعدما أصبحت الإمبراطورية البيزنطية إلى غل باهت. لقد كانت نهاية الشرق القرعبي نياً عزتاً ، لكنه لم يستقر رد فعل عنيف.

على أن البابا نيكولاس الرابع وحده أخذ يحيل كساد إلى عمل ؛ لكنه لم يجد من يلجأ إليه ، وقد أصبحت هيئة البابوية بالشلل لإخفاق الحرب الصليبية ؛ فلم يجد الملوك يعاونون بتنفيذ الأوامر البابوية . وكان الإمبراطور الغربي - الذي تقصد الباباوات سلطته الدينية - مشغولاً للغاية في ألمانيا ؛ وإذا ما تحرك فلم يكن ذلك إلا القيام بحملة في إيطاليا . وكان فيليب الرابع ملك فرنسا مقتدراً ونشطاً ، غير أنه بعدما انتشل مملكته من الحرب الصليبية ، راح يلق طاقته في دعم السلطة الملكية . وكان إدوارد ملك إنجلترا غارقاً إلى أذنيه في اسكتلندا . وفضلاً عن ذلك ، كان التنافس الشديد بين إنجلترا وفرنسا يزداد حدة وسرعان ما تولدت عنه حرب ثلاثة عام . وكان عائل أقوى قوة بحرية في البحر المتوسط ، ألا وهو جيمس الثاني ملك أراخون ، ومعه أخوه فرديريك المطالب بصقلية ، في حرب مع عميل البابا تشارلز الثاني ملك نابولي الذي كان على استعداد كبير من الناحية النظرية للمساعدة في أمر الحملة الصليبية، بيد أنه يتعين عليه أولاً أن يطرد أبناء أراخون من صقلية . وفي الشرق ، كان الإمبراطور البيزنطي في شغل شاغل للتصدي للأتراك من ناحية، والتصدي لعللي البلقان الجديدين في بلغاريا والصرب من ناحية أخرى . وبالإضافة إلى ذلك ، كان الإنجليز في نابولي يحاربون على عاتقهم مطالب الأباطرة اللاتين الذين حرموا من أملاكهم . ولذلك ، لم يكن يوسع البابا ، وأعيهم ، أن يأمل في اكتساب تعاطف اليونانيين . وكانت المدن التجارية الإيطالية مشغولة للغاية في تكيف سياساتها مع الظروف المتغيرة ولم يكن يوسعها أن تعد بأية وعود قد تسبب بها المخرج . أما ملكا قبرص وأرمينيا فكانا شديدي الاهتمام بالمشكلة وثقة الصلة بهما ذلك أن مملكتيهما كانتا في حيط المواجهة الآن ، وكان على واحدة منهما أو الأخرى أن تكون قاعدة لأية حملة صليبية جديدة . يد أن الملوك

كانا حريصين بالغ الحرص على ألا يستغزا السلطان ؛ فكان على ملك كرمينيا أن يصارع الأتراك والمصريين ، وكان على ملك قبرص أن يجد حلاً لمشكلة اللاجئين ؛ وزيادة على ذلك ، فإن البيزنطيين للمكايين المذابطين الآن بروابط الزواج ، سرعان ما اضطرت أمورها بالمشاعرات العائلية والحرب الأهلية . وبقي الخان على فارس بمثابة حليف محتمل ؛ على أن الخان أرغون قد أصيب بخيبة أمل مريرة لفشله في تحريك الغرب ليفعل شيئاً قبل سقوط عكا ؛ ولن يقوم بشئ. وفي ١٢٩٥م ، وإثر موت أرغون ، اتخذ الخان عزان الإسلام دينا رسميا للعانية ، وتغلب عن ولاءه للخان الأعظم في الشرق ؛ وكان عزان صديقا ودودا للمسيحيين ، إذ أنه نشأ وتربى على يدي ديسينا خاتون ، زوجة الخان أبانغا الكريمة التي يجرمها الشرق كله ؛ ولم يقلل اعتناقه للإسلام بأي حال من كراهيته للمصريين والأتراك . ولم تعد هناك سفارات مغولية إلى روما ، وخبا الأمل في أن تصبح فارس قوة مسيحية . وصحيح أن كان هناك مبعوث بابوي في بكين ، وهو الأخ جون وأوف مونت كورفينو ؛ ورغم تمتع الأخ جون بصداقة الخان الأعظم قوبلاي ، إلا أن الخان فقد اهتمامه بشؤون الشرق الأدنى<sup>(١)</sup>.

#### الافتقار إلى حلفاء

ولا يبقى سوى الأنظمة الدينية العسكرية التي تأسست كي تحارب من أجل العالم المسيحي في الأراضي المقدسة ، وما يزال ذلك هو واجبها الأول . وبعد سقوط عكا هجر النظام البيرونتي الشرق إلى ممتلكاته في البلقان<sup>(٢)</sup> ؛ لكن نظام فرسان العبد ونظام فرسان المستشفى أقاما مقرهما في قبرص ؛ ولما كانا عاجزين هناك عن إنجاز مهامهما ، فقد انصرفا إلى التوسط في السياسات المحلية ؛ وربما كان باستطاعة البابا الإعتداد عليهما لتوفير المساعدة لأية حملة يرسلها ؛ إذ أن ما لحدا من هبات شاسعة في سائر أقطار

(١) Baluze, *Papae Papers Annuaire* (ed. Mollet), iii, p. 150; Atiya, *The Crusade in the Later Middle Ages*, pp. 34-6; Hill, *History of Cyprus*, ii, pp. 193 ff.; Browne, *Literary History of Persia*, iii, p. 40. For John of Monte Corvino, see Atiya, op. cit. pp. 248-52.

(٢) انقل مقر إقامة البيرونتي إلى القسطنطينية سنة ١٢٩١م ، ومنها إلى ماربرغ في مرسية سنة ١٣٠٩م . والاعتماد على التاريخ لاحق للنظام أنظر الفصل الذي كتبه Borwell في تاريخ كامبردج الوسيط. Cambridge Medieval History, vol. vii, pp. 248 ff.



أوروبا آثار من الغيرة ما قد يربط عليه نتائج خطيرة ما لم يكن هناك ما يبررها . غير أن نظامي المبدد والمستشفى لا يستطيعان القيام بمهمة صليبية بدون مساعدة<sup>(٣٧)</sup>.

ولقد فشل البابا نيكولاس في إثارة الغرب بعد سقوط طرابلس ؛ وكان على نفس القدر من العجز بعد كارثة عكسا التي تفوق كارثة طرابلس حساسة ، ولم يمتحبه مستشاروه أية مساعدة ؛ وقد أجد تشارلز الثاني ملك نابولي اقتراحا طرّح منذ بضعة سنين يدمج الأنظمة الدينية العسكرية لوضع حد للتنافس بينهم ، لكنه كان يعتقد أن القيام بعمل عسكري في الشرق من الخيال في هذه اللحظة ، وإنما أجد ضرب حصار اقتصادي على مصر وسوريا ، لسهولة ولائها للدمرة على السلطان<sup>(٣٨)</sup>. وكان ذلك أيضا أمرا غير عملي في الواقع ؛ إذ أن تعاون في الحصار قط المدن التجارية الإيطالية ولا البروفنسالية في جنوب شرق فرنسا ولا الأراغونية ، إذ أن إردنهاها يتوقف على التجارة الشرقية التي يمر أغلبها في أراضي السلطان . وفي واقع الأمر ، لو توقفت هذه التجارة لمعزت تلك المدن عن تسيير أساطيلها ، ولأصبح المسلمون يسيطرون على البحر المتوسط . وكان من حسن الحظ أن المصادرات الرئيسية التي كان المسيحيون يدفعون بها أثمان البضائع الشرقية تتألف من الأسلحة ؛ فهل كان الأمر يستحق حرمان أوروبا من المنافع النافعة من كل هذا النشاط التجاري ؟ لا بد وأن تعرض الكنيسة على هذا تضاد الشئع للبيضايع ؛ لكن المصالح التجارية باتت الآن أقوى من الكنيسة . ومات نيكولاس الرابع سنة ١٢٩١م وقد حابى آماله في مساعيه<sup>(٣٩)</sup>.

ولم يحقق أي من خلفائه نتيجة أفضل . بيد أنه على الرغم من انتقاد الجنود لحملة صليبية إلا أن الشعور بخذلان العالم المسيحي ولد موجبة جديدة من الدعاية ؛ غير أن القائمين بالدعاية لم يعودوا هم البشرون المرغولون كما كان الأمر في الماضي ، وإنما تولى ذلك الآن الأدباء الذين كانوا يكتبون الكتب والنشرات لتبيان الحاجة إلى حملة مقدسة ، وكان لكل كاتب ملكه في خطته . وفي ١٢٩١م ، قام الأخ الفرانسيسكاني فيدينتو (لوف بادوا) وهو الذي اعتاد البابا فيما سبق على استخدامه في البعثات الدبلوماسية ، والذي ارتحل كثيرا في الشرق ، بنشر بحث يسمى كتاب استعادة الأرض المقدسة Liber de Recuperatione Terre Sancte ، أعدها لسلفه نيكولاس الرابع . ويحتوى على

(٣٧) انظر أعلاه صفحة ٤٩١ وما بعدها

(٣٨) *Adya, op. cit.* pp. 35-6

(٣٩) *Ibid.* p. 45

تاريخ متعمق للأراضي المقدسة ، مع مناقشة أنواع الجيش المطلوب لاستعادتها ، بدائل الطرق التي ينبغي أن يسلكها هذا الجيش . وكان عملاً إخبارياً متفهماً غير أن قيديسترو الخوض أن هناك جيشاً متاحاً وأن قائده سوف يختار الطريق اختياراً نهائياً<sup>(٦)</sup>. وفي العام التالي ١٢٩٢م ، نشر المدعو Thaddeus of Naples مقالاً عن سقوط عكا ، وهو عمل روائي ينشئ بالحيلة ، موثقي باتهامات واغتراب بالطين لكل شخص كان هناك فعلاً. وكان الأسلوب العنيف الذي استخدمه تاديوس مقصوداً يستهدف إلحاق العار بالغرب استفزازاً له كي يُطلق حملة صليبية ؛ وأنهى كتابه بمناقشة عقلية للبابا والأمراء والتدبيرين للحاضرين كي ينفذوا الأرض المقدسة التي هي ثراث للمسيحيين<sup>(٧)</sup>.

#### ويعوند لئ

كان لكتاب تاديوس أثره اليقيني على الداعية الذي جاء بعده ، وهو من أبناء جنس ويدعى حالفاني (أرف ليفاني) ، الذي كان طبيباً في السلاط البايوي . وكان كتابه الذي نشره سنة ١٢٩٤م ، وأعداه الملك فرنسوا فيليب الرابع ، عبارة عن مزيج من التشبيهات للأعدوة عن لعبة الشطرنج ومواعظ باطنية ، وكان خلصوا من الآراء العملية<sup>(٨)</sup> . كما الشخصية التي حازت الآخرين في أهميتها فهي البشر الأسباب الكبرى ويعوند لئ ، الذي ولد في مايو ١٢٢٢م ، ورُجم حتى الموت في بوسيه في شمال إفريقيا سنة ١٣١٥م . ودأبت شهرته باعتباره صوفيًا ، وإن كان في الوقت نفسه سياسياً عملياً. وكان يجيد اللغة العربية ودأب على الإرتحال في البلاد الإسلامية . وفي سنة ١٢٩٥م تقريباً قدم للبابا مذكرة حول العمل المطلوب لخاربة الإسلام ، وفي سنة ١٣٠٥م نشر كتابه (كتاب النهاية) Liber de Fine الذي فصل فيه أفكاره وقدم برناه . يُنتفع به فينبغي عنده للمبشرين للتعليم تعليمًا جيداً أن يستعملوا للمسلمين ، ويشير الإمكان الكائن المسيحية الموطنية والمنشقة، وإن كانت الحملة المسلحة ضرورية ، ويجب أن يكون قائدها ملكاً Rex Bellator (الملك المحارب)، وينبغي لكافة الأنظمة الدينية العسكرية أن تتحد تحت قيادته في نظام ديني عسكري واحد جديد يكون بمثابة

(٦) Ibid. pp. 36-43. Golubovitch نشره في Biblioteca Bio - Bibliografica della Terra Sancta. II. pp. 9 ff

(٧) Atiya, op. cit. pp. 31-4; The Hystoria de Desolacione is edited by Riant

(٨) Atiya, op. cit. pp. 71-2 .

العمود القنرى للحيش. ويقترح أن تطرد الحملة الصليبية المسلمين من اسبانيا ، ثم تعبر البحر إلى أفريقيا وتنتجه شرقا إلى تونس ومنها إلى مصر ، ثم ينادى بعد ذلك بحملة بحرية كذلك، مدفوعا بضرورة الاستيلاء على جزيرتي مالطا ورودم لشكروا بمثابة قاعدتين لما لحما من موانئ جيدة . ثم يفضل بعد ذلك فيما يبدو أن تنتزع الحملة الرومية القسطنطينية من اليونانيين وترفعل نحو الأناضول . وهو على بصائر معدة حول تنظيم الجيش والأسطول ، وحول إمداد الطعام ومواد الحرب ، وكذلك حول تدريب المبحرين الذين يجب أن يصاحبوا الجيش. والكتاب مطول وأحيانا يتناقض نفسه ، إلا أنه من وضع رجل ذي ذكاء ملحوظ وخبرة واسعة ، ورغم أن موقفه إزاء المسيحيين الشرقيين يتسم بتعصب منفرد<sup>(٩)</sup>.

وفي الوقت الذي كتب فيه ريموند ل'إ ، بدا أن هناك حملة صليبية وشيكة بالفعل؛ إذ أعلن فيليب ملك فرنسا عن رغبته في إطلاق حملة ، وحرى رسم الخطط ودراساتها للتنفيذ في كل من البلاط البابوي وباريس . ولم يكن واضحا بعد الدافع الحقيقي للملك فيليب قد تبين بعد ، ألا وهو انتزاع الأموال من الكنيسة بهذه التكلفة الزائدة. وكان قد خرج لثوه ظاهرا من نزاعه مع البابا بونيفاس الثامن الذي وحد أن الأسلوب الذي سبق أن دمر أسرة هوهنشتوفن لا يجدي مع عوائل الغرب الجدد . وكان البابا كليمنت الرابع قد انتخب سنة ١٢٠٥م وكان فرنسا ، ورشح بابويته في ألبينون على حدود مملكة الملك الفرنسي ، ودأب على إظهار احترامه للملك . وسارع إلى جمع مذكرات يستشهد بها هو نفسه والملك كذلك<sup>(١٠)</sup>.

#### مقدمات الحملة الصليبية

وخصصت أكثر هذه المذكرات إثارة للاهتمام لاطلاع الملك وحده . ذلك أن قانونيا فرنسا هي بطرس دويوا ، قدم إليه رسالة الفقه على أن يطلق أمراء أوروبا على تصفها الذي يأمرهم بالإتصاف إلى الحركة تحت قيادة ملك فرنسا ، وبه بعض التوصيات حول الطريق الذي يتبع وطرق تمويل الحملة . وأوجبت الرسالة إلغاء نظام فرنسا القديم وضع ممتلكاته ، وإصدار تشريع بتحصيل ضريبة الزكوات من رجال

(٩) بورده 74-94 pp. *Attya, op. cit.* مقدمة كلمة ل'إ وأعمال فيما يتعلق بالحملة الصليبية

(١٠) Ibid. p. 48.

الدين. وأضاف كاتب الرسالة بعض الملاحظات العامة حول الاجتماع إلى السماح للفساوسة بالزواج وتحويل الأديرة إلى مدارس للبنات. وكان النصف الثاني لصيغة خاصة للملك توضح له كيفية ضمان السيطرة على الكنيسة بالتضيق على مجمع الكرادلة، ونحته على إنشاء امبراطورية شرقية يملئ أسد أرلاده على قمتها<sup>(١١)</sup>. وبعد ذلك مباشرة، في سنة ١٣١٠م، قام كبير المستشارين الدبلوماسيين للملك فليبيب بإرسال مدونة عن الحملة الصليبية إلى البابا، تحوى مقترحاتها استوائية خفيفة، وترتكز في أساسها على كيفية التمويل. فكان على الكنيسة تقديم كل الأموال، وكان إلغاء نظام فرسان المعبد هو كحل بند من البنود<sup>(١٢)</sup>. وفي ذات الوقت كان البابا يطلب المشورة. وكان الأمير الأرمني هيثوم أو هاثون كوربكوس، الذي تقاعد في فرنسا وأصبح رئيساً لدير رهبان بركونستازينسي بالقرب من بولانيه، قد طلب منه أن يقدم آرائه. ونشر كتابه "زهرة تاريخ أراضي الشرق" *Flos Historiarum Terre Orientis* سنة ١٣٠٧م الذي حقق انتشاراً واسعاً فور صدوره؛ وكان يضم إيجازاً مختصلاً عن تاريخ الشرق، مع مناقشة تتم عن اطلاع جيد على حالة الإمبراطورية المملوكية. وأوصى هاثون بمحلة مزدوجة تذهب بحراً وتتخذ قاعدة لها في قبرص وفي كرمينيا. وأوصى بالتعاون مع أرمينيا وتحالف وثيق مع المغول<sup>(١٣)</sup>. وبعد ذلك بقليل، أعرب الدبلوماسي البابوي ولیم آدم عن آراء مماثلة، وكان قد ارتحل إلى أسكن كثيرة في الشرق ثم ذهب إلى الهند؛ وأضاف الاقتراح بضرورة أن يحتفظ المسيحيون بأسطول في المحيط الهندي ليقطع تجارة مصر الشرقية. كما كان يعتبر أنه ينبغي ثلاثين إعادة الاستيلاء على القسطنطينية<sup>(١٤)</sup>. وفي سنة ١٣١٢م قدم أسقف ميندي، ولیم دورانت، بحثاً أوصى فيه بالطريق البحري وركز على عناصر تكوين الحملة وخاصة فيما يتعلق بمحورياتها<sup>(١٥)</sup>. كما أن الأدميرال المعجوز الجنوبي بيتو زاماريا، الذي كان ذات مرة قاضي قضاء طرابلس، كتب آراءه فيما يتصل بالقوات البحرية المطلوبة<sup>(١٦)</sup>.

(١١) Ibid. pp. 48-52; Hill, op. cit. ii, p. 239.

(١٢) Atiya, op. cit. pp. 53-5.

(١٣) Hayton's *Flos* is published in *Recueil des Historiens des Croisades, Documents Arméniens*, vol. ii. See Atiya, op. cit. pp. 62-4.

(١٤) Ibid. pp. 64-7.

(١٥) Atiya, op. cit. pp. 67-71.

(١٦) Ibid. pp. 60-1. See Mas Latrie, *Documents*, ii, p. 129.

وكانت هناك مقوّمات عملية أمدى، طرحها ثلاثة زعماء كان هم أن يلعبوا دوراً رائداً في أية حملة صليبية. ذلك أنه في سنة ١٣٠٧م كان السيدان الأعظمان لفرسان المعبد والمستشفى في أليبيون، ومطلب منهما البابا كلمنت أن يعربا عن آرائهما؛ فأرسل الأول - جيمس (أوف مولاي) - من فوره تقريراً أوضح فيه بعملية مسح أولي للبحار بواسطة عشرة غلايين كبيرة، يعقبها جيش لا يقل عن اثني عشر إلى خمسة عشر ألف حيّال وكرمين إلى خمسين ألف جندي مشاة. وإن يجد ملوك الغرب صعوبة في جمع هذه الأعداد، ويتعين إقناع الجمهوريات الإيطالية بتوفير وسائل النقل. وأعرب عن عدم موافقته على لفظ في كيليكيا؛ وإنما يترتب أن تتجمع الحملة في قبرص وتنهبط على الساحل السوري<sup>(١٧)</sup>. وبعد ذلك بأربع سنوات، وفي وقت انعقاد مجمع فيينا، كتب السيد الأعظم لفرسان المستشفى، فولك أوف فيلاريت، إلى الملك فيليب بقره بالترتيبات التي اتخذها نظامه الديني العسكري وغيرها من الترتيبات التي يستطيع أن يقوم بها من أجل الحملة الصليبية<sup>(١٨)</sup>. وفي نفس الوقت قدم هنري الثاني ملك قبرص آرائه إلى المجمع. وكان يرغب في ضرب حصار اقتصادي على الإمبراطورية المملوكية. وأعرب عن عدم ثقته في الجمهوريات الإيطالية، بأسباب ملقعة، وحث على ألا تعتمد الحملة الصليبية عليها في النقل البحري. وكان مؤيداً لمصر على مصر باعتبارها المنطقة الأسر احتلالاً من بين المناطق التابعة للسلطان<sup>(١٩)</sup>.

وبعد كل تلك المذكرات وكل ذلك الخمل، أخذت الجميع المفاجأة وخيبة الأمل - عدا الملك فيليب - لعدم القيام بحملة صليبية؛ فقد حقق فيليب هدفه الراسي للوجود ذريعة لجميع المال من الكنيسة؛ وسرعان ما كشف عن آرائه الحقيقية بهجوم على منظمة كبيرة تعتبر مساعدتها شيئاً أساسياً للحملة الصليبية<sup>(٢٠)</sup>.

١٣٠٨م : فرسان المستشفى يحتلون جزيرة رودس

إن ضياح الشرق الفرغى ترك الأنظمة الدينية العسكرية في حالة من عدم اليقين.

(١٧) Baluze, op. cit. ii, pp. 143 ff.

(١٨) Delville le Ruelx, *France en Orient*, ii, pp. 3-6.

(١٩) Mus Latrie, *Documents*, ii, pp. 118-25; Atiya, op. cit. pp. 58-60.

(٢٠) Atiya, op. cit. pp. 53, 73.

وقد وجد فرسان التوتون حلاً لمشكلتهم بتركيز كل مملكتهم لغزو «البلطيق»<sup>(٢١)</sup>. غير أن نظامي فرسان المبدد والمستشفى وحدا نفسيهما في فرض مبادئهم بتبوء معينة وميلا فريحيب. وبدأ نظام فرسان المستشفى، الأكثر حصانة من المبدد، في البحث عن وطن جديد. وفي ١٣٠٦م جاء إلى قبرص فرسان جنوي، فينولفو دي فينول، وكان قد استأجر جزيرتي كوس و ليروس من الأمباطور البيزنطي أندرونيكوس، واقترح على السيد الأعظم لفرسان المستشفى، فولك (أرف فيلاريم)، أن يشتركا معا في غزو جزر أرخبيل دوديكانيسيا كلها وتقسيمها بينهما، على أن يحتفظ هو بثلاثها. وبينما أتمر فولك إلى أوروبا للحصول على تأييد البابا على الخطة، رسا على ساحل جزيرة رودس أسطول صغير لفرسان المستشفى، تساعد به بعض غلايين جنودا، وبدأ في إخضاع الجزيرة شيئا فشيئا. وحازت الحماية اليونانية ببساطة، ولم تسقط قلعة فيلومو الضخمة في يد الغزاة سنة ١٣٠٦م إلا بالحيلة، وصمدت مدينة رودس لسنتين أخريين. وأخيرا، حدث في صيف سنة ١٣٠٨م أن أرسلت القسطنطينية بعثونا بمحمل التمزيقات للحامية، لكن حاصفة دافعه إلى فاماغوستا في قبرص حيث استولى عليه فارس قبرصي يدعى فيليب الأصغر الذي أحذه مع ركاياه وسلمه للمحاصرين. ولكن يقد قائد الحامية حياته، وكان من أبناء رودس، وافق على التفاوض على استسلام المدينة التي فتحت أبوابها لنظام فرسان المستشفى يوم ١٥ أغسطس. وعلى الفور أقام نظام المستشفى مقره في الجزيرة، وجعل من المدينة ومينائها الواقع على خليج قلعة في الشرق. وهنئ الغرب لذلك الغزو - الذي تحقق على حساب يونانيين مسيحيين باعتباره نصرا صليبا مؤزرا - وقد أعطى هذا النصر العمل قوة جديدة لنظام المستشفى الديني العسكري، كما منحه الوسيلة لمواصلة مهمته الموكلة بها إليه. بيد أنه كان على كمال رودس اليأس أن يتفقدوا لأكثر من ستة قرون ليستعيدوا حريتهم<sup>(٢٢)</sup>.

كما نظام فرسان المبدد فكان أقل إنداما وكمل حفظا، وكان دائما أكثر إثارة للعداوة من نظام المستشفى. وإن كان هو الأكثر غنى، وقد ظل لفترة طويلة بمثابة المصرف الرئيسي ومقرض الأموال في الشرق، تملق النجاح في مهنة لا تلهيهم المودة، وقد اشتهرت سياسته دائما بالأناحية والإستهانة. ورغم شجاعة فرسانه في قتالهم وقت الحرب، فقد أوجدت أنشطته المالية وشيخة قري بين فرسانه والمسلمين؛ واتخذ الكثير

(٢١) كلفر أملاء، ص ٣٣٩.

(٢٢) *Gestes des Chepoits*, pp. 319-23; Delaville le Roulx, *Hospitalliers en Terre Sainte*, pp. 273-9; Anadi, pp. 254-9.

من الفرسان أسبقاء مسلمين ، واعتنوا بالديانة والعلم الإسلاميين. ودأبت شائعات بأن النظام كان يدرس وراء أسوار قلعه فلسفة خفية، وأنه كان يخرط في طقوس ملطحة بالخرقة ؛ وقيل إنه كانت هناك طقوس تعليم تلمذية يعوزها الاحتشام ؛ وسرى همس عن حيلقات تمارس فيها ردائل شاذة. ومن غير الحكمة رفض هذه الشائعات على أنها امتلاجات من الأعداء لا أساس لها. وما كان في تلك الشائعات ما بنى عما يكنى لمهاجمة النظام عن اقتناع تام<sup>(٢٢)</sup>.

#### ١٣٠٨م : محاكمة نظام المعبد الديني العسكري

وعندما ذهب جيمس (أولف مولاي) إلى فرنسا سنة ١٣٠٦م لمناقشة البابا كلمنت في شأن الحيلة الصليبية المتوقعة ، صبح عن اتهامات موجهة إلى نظامه الديني العسكري، فطلب إجراء تحقيق عام ؛ وتردد البابا الذي تحقق من أن الملك فيليب قد عقد الحرم على إلغاء النظام ، ولم يجرؤ على الإساءة إلى الملك . وفي أكتوبر ١٣٠٧م قام الملك فيليب فجأة باعتقال جميع أعضاء النظام الموجودين في فرنسا وحاكمهم بتهمة لطمخة التي ساقها فارسان من ذوي السمعة السيئة كالسا قد طردا منه . وأدلى للتهمون بالإعترافات تحت التعذيب ، ورغم أن القليل منهم أنكر التهم كلها ، فقبل أغلب التهميين على الإقرار بما طلب منهم. وفي الربيع التالي ، وبناء على طلب الملك فيليب ، أمر البابا بأن يقوم كل حاكم يوجد في الأراضي التابعة لسلطته بآية ممتلكات نظام المعبد الديني العسكري باعتقال أعضاء النظام والبدء في محاكمة مماثلة ؛ وبعد شهر من الورد استجاب مختلف ملوك أوروبا فيما عدا ديتس البرتغال الذي لم يكن ليدخل في هذا الأمر المؤسف . وفي غير ذلك المكان صودرت ممتلكات نظام المعبد ، واقتيد الفرسان ليمثلوا أمام المحاكم . ولم يكن التعذيب يستخدم دائما ، ولكن كان هناك استجواب ثابت . وكان للتهمون يعرفون أنه يُنتظر منهم أن يعترفوا ، وقد اعترف

(٢٢) توجد مناقشة استدلالية حول السمعة المشهورة لنظام فرسان المعبد الديني العسكري في مؤلفه ومحاكمة فرسان المعبد ١١٥٠-١٢٤٠، pp. 18-24. *The Trial of the Templars*، ونسبت لـ هينري ماكنهم المؤرخة في أن قبل للزعمون بل رفع التهم عليهم كلها ، غير أنه من الواضح أن الرب الذي سكت حول عداوتهم لم تكن بلا أساس لها . وقد نشر *Liternel* للمستندات والقصص ذات الصلة في مؤلفه (المباراة مسألة فرسان المعبد. *Le Dossier de l'Affaire des Templiers*) واعتبر آخر مؤرخي علم ، الأتيسة ميلتون Mlle Milton، مناقشة مفهوم للغاية في مؤلفها حبة فرسان المعبد ( *La Vie des Templiers*, pp. 246 ff.)

وكان تعاون حكومة قبرص يمثل جانبا خاصا من اهتمامات البابا ؛ إذ كان مقر النظام يقع في الجزيرة . بيد أن محاكم الجزيرة الآن هو شقيق للملك هنري الثاني ، أمالريك ، الذي تمكن بمساعدة نظام المبعوث من ناحية الملك موقفا عن سلطاته ووصل رئيس الرهبان هاينون من أفينيون في مايو ١٣٠٨م بحمل عطايا من البابا بأسر فيه باعتقال كافة الفرسان على الفور إذ اتضح أنهم كسافرون . وتلكا أمالريك في تنفيذ الأمر بما أتاح للفرسان الوقت للاستعداد للدفاع عن أنفسهم بقيادة مارشالهم أيمى (أوف أوسيلير) ؛ على أنه بعد تناوش مسلح قصير استسلموا في أول يونيو . وكانوا قد أعفوا جزيا ضحفا من ثروتهم بعناية شديدة بحيث لم يُستزجع أبدا ؛ ونقل الجزء الباقى من ثروتهم من ليماسول إلى بيت أمالريك في نيقوسيا ، ووضع الفرسان تحت الحراسة في كبروكيتيا ويورماسويا أول الأسر ثم في ليفكارا ، حيث ظلوا ثلاث سنوات . وفي مايو ١٣١٠م ، وبعد عودة الملك هنري الثاني إلى السلطة ، حركهم فرسان المبعوث القصارصة نظرا لإصرار البابا على ذلك وبغاية السرعة . وقد سبق لكثير من إخوانهم أن حُرقوا في فرنسا ، وفي سائر أنحاء أوروبا كان أعضاء النظام يسحبون أو يجرعون من كل ما يملكون . ولم يكن الملك هنري يشعر بالرضا حيال الفرسان الذين حذبوا قضيتهم قبل سنوات قليلة ، بيد أنه أتاح لهم محاكمة عادلة . وتم توجيه الاتهام إلى ستة وسبعون فارسا منهم ، ولكنكروا جميعا تلك التهم ؛ وأقسم شهود بارزون على براءتهم ، وأعلن واحد من شهود قليلين معادين لهم أنه لم تساعد الرعية فيهم إلا بعد سماع رواية البابا عن جرائمهم . وبرت ساحتهم كذبة . وعندما وصلت أنباء براءتهم إلى أفينيون ، كتب البابا مغاضبا إلى الملك هنري لإجراء محاكمة ثانية ؛ وأرسل مندوبا بابويا شخصيا ، دومينيك باليسرينا ، للتأكد من إنفاذ العدالة التي أمر بها البابا . وأعيدت المحاكمة سنة ١٣١٩م ، لكن نتيجةها غير مستقلة . وكان البابا كلمت قد كمر - إذا ما أحرق خطر تركة ثانية - بأن يتدبر دومينيك الحضور على مساعدة الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان في اللجوء إلى التعذيب ؛ وقد أرسل المندوب البابوي في الشرق ، بطرس أسقف روديز ، إلى قبرص لمساعدة دومينيك في مساعيه . ولذلك احتفظ الملك بحكمه على مانيدو وأبقى المتهمين في السجن . وكانوا لا يزالون في السجن في سنة ١٣١٣م ، عندما وقف بطرس أسقف روديز أمام جميع أساقفة الجزيرة

(٢٤) Martin, op. cit. pp. 28-46, Melvin, op. cit. pp. 249-57.



وكبار رجال الدين فيها وقراً عليهم مرسوم البابا المنبثق في ١٢ مارس ١٣١٣م، بإلغاء النظام كله وتسليم كافة ثرواته وممتلكاته لنظام فرسان المستشفى، بعد تعرض السلطات المدنية عما تكبدته من مصروفات في شتى المحاكمات. ووجد الملوك في سائر أنحاء أوروبا أن هذه المصروفات مرتفعة على نحو كبير؛ ولم يتسلم نظام فرسان المستشفى سوى جزء ضئيل من الممتلكات الفعلية. ولم يخرج عن قادة فرسان المعبد في قبرص أبداً؛ بيد أنهم كانوا أسعد حظاً من سبلهم الأعظم الذي بعدما أمضى سنوات في السجن والتعذيب وفي الإذلاء بكثير من الاعتقالات والزرايع عنها، أحرق حتى الموت في باريس في مارس ١٣١٤م<sup>(٢٥)</sup>.

أرسل فرسان المعبد من قبرص وهاجر فرسان المعبد إلى رودس، فبالت المملكة القبرصية للحكومة المسيحية الوحيدة للهيئة فعلياً بالأراضي المقدسة. وكان الملك ملكاً للقدس من الناحية الإسمية؛ وظل الملوك لأجيال كثيرة لاحقاً يتربعون بالتاج القبرصي في قبرصاً ثم يتربعون بتاج القدس في فاماغوستا، وهي المدينة الواقعة على أقرب مسافة من أراضيهم المقدسة، وفضلاً عن ذلك، كان الساحل السوري ذا أهمية استراتيجية لقبرص؛ إذ أن وجود عدو شرس في سوريا علق بأن يجعل وجودها نفسه معرضاً للخطر. ولحسن الحظ، كان السلطان يمتشي حملة صليبية جديدة ولذا بقيت الرواى السورية دون الاستفادة بها، وفشل أن يتركها مكملة مهجورة. ومع ذلك، ظلت قبرص في خطر دائم من مصر. ولما كان الملك هنري يعتقد أن المحرم خير وسائل الدفاع، فقد أرسل في سنة ١٢٩٢م خمس عشرة غليوناً يساعدهم عشرة غلايين من البابا، للإغارة على الإسكندرية. بيد أنه كان جهداً عقيماً، ولم تكن له من نتائج سوى تصميم الأشرف على غزو قبرص؛ وعندما أمر ببناء مائة غليون صاح قائلاً "قبرص، قبرص، قبرص"، غير أنه كانت لديه مخططات أخرى أكبر. فبقي أولاً اقتلاع الملوك والإستيلاء على بغداد. وشعر أمراءه بالخطر من طموحاته فاغتنالوه يوم ١٣ ديسمبر سنة ١٢٩٣م؛ وكان اغتياله بمثابة جاذبة بالنسبة للأمير الشاب ذي العزم، الذي أتم ما بدأه صلاح الدين وتلقف سوريا من بقايا الصليبيين الأخيرة<sup>(٢٦)</sup>.

(٢٥) Hill, op. cit.ii, pp. 232-6, 270-4

(٢٦) *Genes des Chrétiens*, pp. 61-2; Thaddeus, p. 43; Sarado, p. 283; Wiet, *L'Egypte Arabe*, p. 461

## ١٢٩٩-١٣٠٨ م : المغول يغزون سوريا ثانية

كان الأشرف مصعبا في ألا يغفل عن المغول . ففي سنة ١٢٩٩ م ، وفي عهد الملك السلطان الناصر محمد ، الذي لم يعم بفترة سلام في كثير من الأحوال ، زحف غزان المغول - الذي غير لقبه من الخان إلى السلطان - على سوريا غازيا واحت شأفة قوات الدفاع للملوك في سلمية القريبة من حمص يوم ٢٣ ديسمبر . وفي يناير ١٣٠٠ م استسلمت له دمشق واعترفت بسيادته ؛ ورجع إلى فارس في الشهر التالي معلنا أنه سرعان ما سيعود لغزو مصر . وعلى الرغم من أن غزان كان مسلما إلا أنه فكان يرحب بالتحالف مع مسيحيين . وسارع ويوتد أل إلى سوريا قور سماعة بالكباء غزوه لسوريا ، لكنه وصل بعد مغادرة غزان لسوريا ، فعاد إلى قبرص والتمس من الملك مساعدته في الذهاب في بعثة لبشرية إلى أحكام المسلمين . وتعامل الملك هنري طلبه هذا ، لأنه لم يوافق على أن أفضل وسيلة لكسب صداقة الكفرة هي كشف أسلحتهم لهم ، والأحدى الباع لوج دبلوماسي ، غير أنه لم يتم شيء ، وانتهت الفرصة عندما هُزم الجيش المغولي سنة ١٣٠٣ م عند مرج السفر . وبعد ذلك بخمس سنوات ، في سنة ١٣٠٨ م ، دخل غزان سوريا مرة أخرى ، وتوغل هذه المرة حتى القدس . وأصبح عنه أنه كان على استعداد لتسليم المدينة المقدسة للمسيحيين إذا عرضت عليه أية دولة مسيحية التحالف معه . وفي ذلك الوقت كان البابا وفيليب ملك فرنسا يرفعان عقيرتهما بالدعابة لخطئتهما الصليبية المزعمة ، ورغم ذلك لم ترد للمغول أية عروض من الغرب ، بينما تسببت المشاحنات بين الملك هنري وأخيه في شوبل قبرص إلى دولة عاجزة . وعلى أية حال ، ربما وجد غزان - الذي حشّن إسلامه بعد تحوله إليه - صعوبة تنفيذ مثل ذلك الرعد<sup>(٢٧)</sup> . وبوفاته سنة ١٣١٦ م ، تددت فرص وجود تحالف مغولي مع المسيحيين . أما ابن أخيه وحليفته أبو سعيد ، فقد غير اتجاهه نحو للصالح مع مصر . وكان آخر الحكام للمغول المظالم الذين حكموا فارس ؛ وبعد وفاته سنة ١٣٣٥ م بدأت الخاتمة الأولى تتشكل<sup>(٢٨)</sup>.

وعلى الرغم مما كان يبدو من غزلة مملكة قبرص ، فلم يكن هناك من خطر عاجل

(٢٧) *Gestes des Chiprois*, pp. 296-306; Hill, op. cit. ii, pp. 212-15; Alipon, op. cit. pp. 90-91. أما فرج Felix Fabi ، الذي كتب بعد ذلك بقرنين تقريبا ، فذكر رواية أسطورية عن الأسطول البحري العظيم "كازانوس" Cassius الذي كان - بحسب قوله - مسيحا عرض إعانة القدس إلى اللاتين 372-8. trans. Stewart, P.P.T.S. vol. x, pp. 372-8.

(٢٨) Brown, op. cit. iii, pp. 51-61.

يتهددها ؛ إذ لم يكن لدى السلطان ، حتى بعدما ذهب عنه ما يشغله عن القبول ، ما يمكن من القوة البحرية للمحاذرة بالحملة على الجزيرة ؛ ولم يكن رغباً في الإساءة إلى الجمهوريات الإيطالية ، إذ أنه كان يكتسب هو الآخر منافع كثيرة من تجارتهم . وقد انتزع إردو من فرسان المبدد سنة ١٣٠٢ م ، وكان حرياً بأن يترك قبرص وشأنها لئلا أنها باتت قاعدة لحملة صليبية جديدة ؛ وحاولت الحكومة القبرصية من جانبها ، بقدر ما تسمح به الطامع الشخصية والأسر الحاكمة ، أن تكون على علاقة وثيقة بملوك أرمينيا في كيليكيا ، ومع ملكي أرمينيا وصلقية ، الذين كانت أساطيلهما تفرض الاحترام<sup>(١٩)</sup>.

بعد أن حيت جدوة حديث الغزو الصليبي الذي أوحى به فيليب ملك فرنسا ، كانت هناك فترة هدوء . غير أن فيليب السادس أعاد القيمة إلى هذا الحديث سنة ١٣٣٠ م . وكانت نوابه لتصف الإخلاص البالغ على خلاف نوابه معه ، وشجع نوابه تلك قبائل جون الثاني والعشرون . وسرة أخرى قدمت المذكرات إلى البلاطين البابوي واللكي ؛ وكتب طيب ملكة فرنسا ، جوى (أوف فيجيفانو) ، مقبلاً موجزاً عن الأسلحة المطلوبة<sup>(٢٠)</sup> . وكان هناك برنامج أطول وأكثر تفصيلاً أرسله إلى الملك للدعوة بوركارد ، وهو كاهن كان يعمل في كيليكيا من أجل ضمان ضم الكنيسة الأرمنية إلى روما . وكانت مقارحات بوركارد كثيرة ، لكنها عقيمة ؛ إذ أنه أظهر عدوة للمسيحيين الإنشقاقيين والمراطلة نفوذ عدوانه للمسلمين ، واعتبر أن غزو انصراب ويزنطة الأرثوذكسيين جزء أساسي في أية حملة صليبية . ولم تناقش مخططاته لإعتبارها . وقبل أن تنطلق أية حملة صليبية كان ملك فرنسا مشغولاً باندلاع حرب المائة عام مع إنجلترا<sup>(٢١)</sup>.

وفي تلك الأثناء كان هناك برنامج أجدى ، لا يتطلب أية حملة عسكرية ضخمة ، نشره المؤرخ مارينو سالودو Marino Sanudo الذي كان أحد أفراد بيت دوقية جزيرة ناكسوس<sup>(٢٢)</sup> ، وكانت الدماء اليونانية تجري في عروقه ، وكان مراقباً فطناً ورائداً في

(١٩) *Genes des Chrétiens*, p. 309, during the capture of Rhod 1303, Serrao, p.242, dating it 1302. See Hill, op. cit. ii, pp. 215-16

(٢٠) *Atiya*, op. cit. p. 96.

(٢١) *Ibid.* pp. 96-113.

(٢٢) (لترجم) جزيرة ناكسوس: Naxos أكثر الجزر في مجموعة Cyclades اليونانية جنوب بحر إيجه

علم الإحصاء . وكان مؤلفه *Secreta Fidelium Cracis* ، الذي ظهر سنة ١٣٢١م تقريباً، يضم تاريخاً للحملات الصليبية ، مصطبغة نوعاً ما بمقاصد القائمين على الدعاية، لكنه يتصل في أخيره بمناقشة مفصلة لوضع الشرق الاقتصادي . وكان يرى أن السبيل الأمثل لإنعاش مصر يكمن في حصار اقتصادي ، غير أنه تحقيق من استحالة منع التجارة الشرقية فجأة ؛ إذ يجب العثور على طرق ومصادر إمدادات بديلة . وكان تحليله متعمقاً ، وتميزت المزايا بعد الفترة والشمول . وأسوء الخطأ ، ليس هناك من سبيل لتتبعها إلا إذا تعازت كافة القوى الأوروبية ، وهو الأمر الذي يستحيل تحقيقه الآن<sup>(٣٢)</sup>.

#### ١٣٥٩م : استخلاف بطرس الأول القبرصي

وفي واقع الأمر ، كانت هناك محاولة وحيدة لإنقاذ الأراضي المقدسة من الكفرة . ففي سنة ١٣٥٩م اعتلى بطرس الأول عرش قبرص ؛ وكان أول تعامله بعد القديس لويس الفرنسي لتحرق وغبته العارمة للقاتل في حرب مقدسة . وكان قد أنشأ وهو شاب نظام فروسية جديد أطلق عليه اسم فرسان السيوف بهدف واحد معروف ألا وهو استعادة القدس ، واحترافاً على سخط والده الملك هيو الرابع ومحاولة السفر إلى الغرب لتفوز بمحدثين لحملته الصليبية . ودارت حروبه الأولى بعد اغتياله العرش ضد أتراك الأناضول حيث اكتسب موطئ قدم بمصولة على غابة كوريونكوس من الأرمن . وفي سنة ١٣٦٦م انطلق في جولة عارسة في العالم المسيحي لتعزيز هدفه ؛ وبعد زيارته طبرية وروم حيث حصل على وعدود بالمساعدة من فرسان المستشفى ، أبحر إلى البندقية ومكث فيها إلى ما بعد بداية العام الجديد ١٣٦٣م . وأبدى البندقيّة تعاطفهم رسمياً مع مخططاته . وبعد زيارته لبلالير ، ذهب إلى جنوا حيث انشغل بتسوية خلافات بين مملكته وجمهورية جنوا، وفاز بمناظرة يعززها القروض من أبناء جنوا . ووصل أجنيرين يوم ٢٩ مارس ١٣٦٣م ، أي بعد أشهر قليلة من انتخاب البابا إيريان الخامس . وكانت مهمته الأولى هي حماية حقه في عرشه من هيو أمير الجليل ابن أخته الأكبر الشرقي . وحصل هيو على تعويض في صورة راتب تقاعدي سنوي قدره خمسون ألف بيزانت . وبينما كان في أجنيرين ، زار المدينة جون الثاني ملك فرنسا ووعدته بتعاونه

(٣٢) . 1144. pp. 114-27; Hill, op. cit. iii. p. 1144. *Genoa Dei per Francos*, vol. II. *Sarado* الترجمة في: *Berguys*

الوثيق ، وأبعد الملكان الصليب معا في إربيل ومعهما الكثير من النبلاء الفرنسيين والقبازصة ؛ وفي ذات الوقت كان ليايا يشتر بالحرب المقدسة وعين الكاردينال تالوران مندوبا بانويا. ثم قام بطرس بجولة طواف فيها بفلاندرز وبرابنت والراينلاند<sup>(٣٤)</sup>. وفي أغسطس ذهب إلى باريس لمقابلة الملك جون مرة أخرى.

#### ١٣٥٦م : الملك بطرس يقطع حلفه الصليبية

وقرروا أن تنطلق الحملة في شهر مارس التالي . وغادر بطرس باريس قاصدا مدينتي روين وكاتين في شمال غرب فرنسا واتجه إلى الفلورا . وأضفى شهرا تقريبا في لندن حيث أقيم احتفال ضخم ومسابقة القروسية على شرفه في سميثفيلد . وأعداد الملك إدوارد الثالث سفينة حاملة تدعى كاترين وأموال ضخمة ما تكفيه مؤجرا من مصروفات ؛ ولسوء الحظ سُرقَت منه الأموال وهو في طريق عودته إلى الساحل . وعاد إلى باريس لتضحية أعياد الميلاد ثم اتجه جنوبا إلى إقليم أكييتان لمقابلة الأمير الأسود في بورندو<sup>(٣٥)</sup>. وأثناء وجوده هناك تلقى في أسى نبأ موت الكاردينال تالوران في يناير ١٣٦٤م ، ثم موت الملك جون الفرنسي في شهر مايو . وذهب إلى سانت ديس للمشاركة في جنازة جون ، ثم إلى ريم لحضور توزيع حليفته تشارلز الخامس ، ثم ذهب إلى ألتانيا حيث عرض فرسان ومواطنو مدينتي إيسلنجن وإيرفورت الانضمام إلى حلفه الصليبية ، غير أن مارشريف دوق فرانكونيا ورودولف الثاني دوق ساكسوني ، وبرغم استقباليهما له بحرايم التشرية ، قالوا إن قرارهما يتوقف على الإمبراطور ؛ ولذا ذهب مع رودولف إلى براغ حيث يقيم الإمبراطور تشارلز الذي أكد له حماسه ودعا بطرس لمصاحبته إلى كراكو حيث كان على وشك أن يعقد مؤتمرا مع ملكي هنغاريا وبولندا . وهناك اتفق على إرسال بيان إلى كافة أمراء الإمبراطورية يدعواهم إلى التعاون في الحرب المقدسة . وبعد أن زار بطرس فيينا ، حيث عهده رودولف الرابع دوق النمسا مجزء من المساعدة ، عاد إلى البندقية في نوفمبر ١٣٦٤م . وكان جنوده قد ساعدوا البنادقة مؤجرا في قمع تمرد في جزيرة كريت ، ومن ثم استقبله البندقية بأسمى ألبات

(٣٤) (لترجم) فلاندرز Flanders إقليم شمال غرب أوروبا على بحر الشمال يضم جزبا من شمال غرب فرنسا وأجزاء من بلجيكا . برابنت Brabant دولة سابقة في غرب أوروبا تشكلت في أواسط القرن الثاني عشر (وسنة ١٨٣٠م قسمت بين هولندا وبلجيكا . رايالاته Shireland تنقسم من ألتانيا الواقع غرب نهر الراين

(٣٥) (لترجم) الأمير الأسود : Black Prince إسم أمير ويلز ، ابن إدوارد الثالث ١٣٣٠-١٣٦٦م.

الشريف، ومكث هناك حتى نهاية يولية ١٣٦٥م . وأثناء تواجده هناك وقع على معاهدة مع حنوا بتسوية كافة الخلافات العامة<sup>(٣٦)</sup>.

وفي تلك الأثناء كان البابا إيربان يكتب بهمة لا تعرف الكلل إلى أمراء أوروبا يشجعهم على الانضمام إلى الحملة . وتبرزت جهوده بنشاط جديد أضفاه عليها للشعوب البابوي الجديد إلى الشرق بطرس وأوف ساليحتك دي لوسلي) وهو الطريق الإسمي للقسطنطينية ، الذي يتميز بشدة حرصه على التماسك ، ومعارضته للإنشقاقين وللهرطقة وللكنفار ، وتميز بولاء حاز احترام حتى من كان يضطهدهم . وكان يعمل معه تلميذ فيليب (أوف ميزير) ، وهو صديق حميم للملك بطرس ، الذي عينه مستشارا لقرص . ما اجتمعوا عليه ولم يسفر من نشاط عن أعداد المهندسين التي كان يتوقعها الملك بطرس وتلقى بها الوعود . فلم يتقدم أحد من الألمان ، ولا أحد من كبار نلاء فرنسا أو انجلترا أو الأراضي القنارية ، بخلاف يمي كونست جنيف ووليم روجر فيكونت تورين وإيرل هيرفورد . على أنه كان هناك الكثير من الفرسان الأقل شأنًا الأتني من أماكن قضية كاستيكلاندا ؛ وقبل أن يغادر الملك بطرس البندقية ، تجمع هناك جيش كبير عظيم . لقد كان الإسهام البندقي مقبدا على غير خاص ، إلا أن حنوا بقيت متناحية<sup>(٣٧)</sup>.

ولقد تقرر أن تتجمع الحملة الصليبية في رودس في أغسطس ١٣٦٥م ، وبقيت محطتها التالية سرا ؛ فلو أن بعض تجار البندقية أخبر المسلمين لكان هناك خطر حسيم . ووصل الملك بطرس إلى رودس في وقت مبكر من الشهر ، وفي الخامس والعشرين أبحر الأسطول القيصري كله ودخل المرفأ ، وكان قوامه مائة ومائتي سفن من كافة أنواعها ، غلايين وسفن نقل وسفن تجارية وزوارق صغيرة ؛ وبإضافة ما قدمته البندقية وفرنسا ؛ المستشفى من غلايين ضخمة ، بلغ عدد سفن الأسطول كله مائة وخمسين سفينة، كانت تعمل جيشا كاملا من الجنود مع حديد وفيرة ومزود وأسلحة ؛ ومنذ الحملة الصليبية الثالثة لم تخرج حملة تتناسب مع حجم هذا الجيش إلى الحرب المقدسة ؛ وعلى الرغم من عية الأمل لعية عواهل الغرب المعظام ، كانت هناك ميزة في المقابل ألا وهي أن الملك بطرس كان قتالدا بلا منازع . وفي أكتوبر كتب للملكه إليتر الأراجونية بأن كل شيء على أهبة الإستعداد ، وفي الوقت نفسه أصدر أمرا إلى جميع رعاياه في سوريا

(٣٦) للإطلاع على رسة بطرس لطر 324-7، Hill, op. cit. ii, pp. 330-7; Atiya, op. cit. pp. 337-41. (٣٧)

Atiya, op. cit. pp. 337-41. (٣٧)

بالعودة إلى الوطن مانعا إياهم من التناحرة هناك . كان يريد أن يظن أن هدفه هو سوريا<sup>(٣٨)</sup>.

#### ١٣٦٥ م : الحملة لهاجم الإسكندرية

بعدما أتخذ القرار بمهاجمة السلطان ، كان اختيار الإسكندرية كهدف اختيارا ذكيا . ذلك أنه من غير المجدى غزو سوريا أو فلسطين بدون قاعدة على الساحل ، وكان للصربون قد دمروا الموالي هناك عندما باستثناء طرابلس ؛ وقد أظهرت الخبرة السابقة أنه عندما فقد حاكم مصر دمياط كان على استعداد للتخلي عن القدس لاستعادتها ؛ وكانت الإسكندرية بمثابة حاضرة الكمين من دمياط ، وبإمكان غزاتها أن يصحروا في وضع تفاوضي للفضل ، كما أن الإسكندرية مشكون قاعدة رائعة لمزيد من التقدم ؛ وبقيتها بها اللون الوفيرة ، وقواتها تجعل الدفاع عنها يسيرا من البأسية ، فضلا عن أنها المياه التي من حلاله تمر كل تجارة السلطان تقرضا عبر البحار ، ولسوف تسبب قلعاها في احتضار أراضي نوع من الحصار الاقتصادي الشديد ، ومن غير المحتمل كذلك أن يتوقع السلطان هجوما على مدينة تتوفر فيها للتجار المسيحيين مثل هذه المصالح الضخمة ، كما اعتبرت اللحظة اختيارا جيدا . وكان السلطان شعبان صبا في الحادية عشرة من عمره وكانت السلطة في قبضة الأمير يلبغا الذي كان مكروها من رفاقه الأمراء ومن الشعب . وكان والي الإسكندرية خليل بن عزام متغيبا يؤدي فريضة الحج في مكة ، وكان نائبه على الإسكندرية حنفره ضابطا صغيرا بحرية لا تكفي ولا أمل فيها . ومن الناحية الأخرى ، كان المشهور عن أسوار الإسكندرية قوتها ؛ وحتى لو استولى الأعداء على مينائها وعلى شبه جزيرة قساروس التي تتوسطهما، فما زالت هناك تحصينات ضخمة بطول جبهة المياه.

ووصل الأسطول أمام الإسكندرية في مساء التاسع من أكتوبر ، وشن المواطنين يادئ الأمر أنه أسطول بحاري ضخم وتجهزوا للخروج للمساومة . ولم تنضح نوابيا الأسطول إلا في الصباح التالي عندما دخلت السفن المياه الغربية ولم يدخل من المياه الشرقية الذي كان يستقبل وحده السفن المسيحية . وسارع نائب الوالي حنفره بتركيز رجاله على الشاطئ الأمامي لبحول دون لقيوط عليه ؛ ورغم بسالة بعض الجنود

(٣٨) Atiya, op. cit. pp. 341-4; Hill, op. cit. ii, pp. 329-31

المغاربة ، شق الفرسان المسيحيون طريقهم على الشاطئ. وبينما تدفق التحصن الوطنيون خارجين من المدينة عبر البوابات المؤدية إلى داخل البلاد، تفهقر حنفرة إلى ما وراء الأسوار وجمع حاميته الصغيرة للسيطرة على القطاع المواجه لكان الإنزال . وكان الملك بطرس يتنوى التوقف عن الهجوم لرغبته في هبوط جميع رجاله وحيلولة على مهل في شبه جزيرة فاروس ، غير أنه عندما امتدح قادته وجد أن الكثير منهم يعارض اعتبار الإسكندرية كهدف قاتل إنهم من الوثلة حيث لا سبيل لهم للإحتفاظ بمثل هذه القلعة الضخمة ، ولا التقدم منها إلى المغارة ، وأغربوا عن رغبتهم في الإنحياز إلى مكان آخر، لكنهم سوف يتقنوا إذا تم الإستيلاء فوراً على المدينة بقصفها قبل أن يتمكن السلطان من إرسال قوات تخلصها. واضطر بطرس إلى النزول على رغبتهم وبدأ في تشو الهجوم على السور الغربي كما توقع حنفرة ، وأثناء التصدي لهم هناك ، انتقل المهاجمون إلى القطاع المواجه للميناء الشرقي . وكان المكان الموصول بين القسمين بين الأسوار بحر عسر مبنى الجمارك الضخم، وكان أحد ضباط الجمارك غير الرسميين قد أقام للتأريس عبر الأبواب خشية السرقة. ولم يستطع حنفرة نقل رجاله في الوقت المناسب لمواجهة الهجوم الجديد ، ونشوا أن المدينة قد فقدت فيدخلوا في التحلي عن مواقعهم والمهرب في الشوارع قاصدين البوابات الجنوبية حيث الأمان ، وبحلول ظهر يوم الجمعة العاشر من الشهر كان الصليبيون قد وطئوا مراكزهم داخل المدينة ، وتواصل القتال في الشوارع. وفي ليل الجمعة شن المسلمون هجوما مضادا شرسا من خلال إحدى البوابات الجنوبية التي حرقها المسيحيون في غمرة هجائهم ، وسد الهجوم المضاد ، وبحلول عصر السبت باتت الإسكندرية كلها في قبضة الصليبيين.

#### ١٣٦٥م : نهب الإسكندرية

واحتفل الغزاة بنصرهم في وحشية لا مثيل لها . إن قرنين ونصف من الحرب المقدسة لم تعلم الصليبيين شيئا من الإنسانية ؛ فلم يكن هناك ما يضاهي المذابح سوى مذبحه القديس سنة ١٠٩٩م ومذبحه اللسقطانية سنة ١٢٠٤م . ولم يكن للمسلمون بهذه الوحشية لا في أنطاكية ولا في عكا . وكان ثراء الإسكندرية ثراء غير عادي ، وقد حن جنون المنتصرين لرؤية تلك الأسلاب الوفيرة ، ولم يُبقوا على أحد ، وعانى المسيحيون واليهود نفس القدر الذي عاناه المسلمون ، وحتى التجار الأوروبيين المستقرين في المدينة شاهدوا مصائبهم وعازلهم نهب بلا رحمة ؛ وأغار المنتصرون على





كان موضع القلب . وذكر انتصاره في تقريره للبابا الانتصاره ، كما ذكر حيلة أمته المبررة<sup>(١٠٠)</sup>.

استقبل الغرب أبناء نهب الإسكندرية استقبالا متبابا ؛ فقد هُلب له بمادئ الأمر على أنه نصر عسكري وإذلال للإسلام . ولقد انتهج البابا ، لكنه رأى ضرورة إرسال تعزيزات على الفور إلى بطرس ليحلوا محل الذين ثلوا عن الحملة، ووعد تشارلز ملك فرنسا بإرسال جيش ، وأخذ الصليب أيرز فرسانه برتراند دو جوسلين ؛ كما أن أماديوس ، كونت ساكوي ، المعروف في القصص بالفارس الأخضر ، والذي كان يهتأ للإتحام إلى الشرق ، قرر الإتحام إلى قبرص . غير أن التناقض أعلتوا أنك أن بطرس عقد معاهدة سلام مع السلطان ؛ فكث تشارلز ملك فرنسا عن إعداد جيشه ، وذهب دو جوسلين ليحارب في أسبانيا ، وذهب أماديوس إلى القسطنطينية<sup>(١٠١)</sup> . أما البدقة ، فلم يندروا للحملة نتائج تبحث على السور ، على خلاف البابا ؛ إذ كانوا يأملون في استخدامها لتعزيز قبضتهم التجارية على الشرق ، والذي حدث هو أن ممتلكاتهم الوفيرة في الإسكندرية قد دمرت ، وتوقفت كل تجارتهم مع مصر . وكاد تخريب الإسكندرية أن يشرهم كقوة تجارية ، وهو الأمر الذي أدخل البهجة على أبناء حنوا الذين كوفوا على ثقلهم . وسرعان ما وقعت على الغرب كله آثار الحملة الصليبية ؛ فقد ارتفعت للتغاية أسعار التوابل والحرير وغيرها من البضائع الشرقية التي كان الجمهور قد اعتاد عليها الآن<sup>(١٠٢)</sup>.

ووقع الأمر أن بطرس شرع في التفاوض مع مصر ، لكن المروءة الشديدة مملكت الجانبين بحيث ذهبت برغبة كل منهما في السلام . فبينما كانت كراهية الشعب تعوق الأمير بلغا ، الذي كان يحاول كسب الوقت حتى يتمكن من بناء أسطول يغزو به قبرص ، كان بطرس يغالي في مغازله بالتنازل عن الأراضي المقدسة ، وأغلب ذلك بقرارات على الساحل السوري . على أن أتباعه بدأوا يشعرون بالخطر لما أصابه من هوس الحملة الصليبية ، وكانوا يخشون نزوب موارد الجزيرة في قضية بالسة ؛ وعندما دير فارس - سبق أن تشاجر معه بطرس - أمر اغتياله سنة ١٢٦٩م لم يترك حتى إخوانه ساكنا لإفخاده . وفي العام التالي لوفاته عقدت معاهدة مع السلطان ، وتم تبادل

(١٠٠) Atiya, op. cit. p. 309.

(١٠١) Atiya, op. cit. p. 370; Hill, op. cit. ii, p. 335-6.

(١٠٢) Machoux, pp. 115-16; Heyd, *Histoire de Commerce du Levant*, ii, pp. 52-3.

الأسرى ؛ وانتهى الأمر بحصر وقصر إلى سلام مقلقل<sup>(١٢)</sup>.

كان هولو كوست الإسكندرية بمثابة علامة على انتهاء الحملات الصليبية التي كان هدفها المباشر استعادة الأراضي المقدسة . وحتى لو كان جميع الصليبيين على نفس الفكر من الحماس كما كان لذلك بطرس ، فمن المشكوك فيه ما إذا كانت الحملة ستحلب النفع على العالم المسيحي بأي حال من الأحوال ؛ فعندما بدأ تنفيذها كانت مصر في سلام مع الفرنج لما يزيد على نصف قرن ، وقد بدأ المساليك يفقدون كانوا عليه من تعصب ، وكان رعاياهم المسيحيون يمدلون معاملة أكثر طيبة ؛ وكان يُسمح للحجاج بحرية الحج إلى الأماكن المقدسة ؛ وكانت التجارة تزدهر بين الشرق والغرب. والآن عادت الحياة إلى مرارة للمسلمين ؛ فعانى المسيحيون الوطنيون من قذوة اضطهاد جديدة برغم براعتهم من الذنب ؛ ودُمّرت الكنائس ، وحتى كنيسة القصر المقدس أغلقت لثلاث سنوات ؛ وأحدث توقف التجارة أضراراً جسيمة من كل ناحية في عالم لم يبرأ بعد مما أحدثه المطاعون الأسود من خراب<sup>(١٣)</sup> ؛ وعندما كان المساليك على استعداد لتحمل وجود مملكة قبرص ، باتت الآن عذراً بتعين لؤائسه . وانقضت مصر مدة ستين سنة لتأخذ بنارها ، وكان التخریب الشنيع الذي حدثت للجزيرة سنة ١٤٢٦م بمثابة عقاب مباشر لتخریب الإسكندرية<sup>(١٤)</sup>.

#### ١٣٧٥م : انهيار المملكة الأرمنية

ولقيت للمملكة المسيحية الوحيدة الأخرى في الشرق حتفها قبل قبرص . ولم يشرك أرمين كيليكيا في حملة الملك بطرس الصليبية ؛ لكن بينهم للثكنة أسمى الآن فرنجيا ، وللكثير من البلاء علاقات وثيقة مع قبرص ، واهتزت كنيستهم بسيطرة روما. وطوال القرن الرابع عشر كان الصربيون يضغطون على الأرمن ، إذ كانوا يرثابون بحق في أنهم أسدقاء الفرنج والقوقل وأنهم غيرورون من الثروة التي كانت تمر عبر طريق التجارة في مصر الذي يصل إلى البحر عند أبلنس. ولقد أدى انهيار الخانية

(١٢) Atiya, op. cit. pp. 371-6; Hill, op. cit. ii, pp. 345-67; Heyd, op. cit. pp. 55-7.

(١٣) (لوحج) الطاعون الأسود Black Death طاعون وبقي الكسبح أوروبا وأسيا فيما بين عااا ١٣٤٧ و ١٣٥١م ، وربما كان كلا من الوباء الشنلي والوباء الروي ، وقد أهلك عددا من البشر فريد على أي وباء آخر معروف في حرب.

(١٤) Atiya, op. cit. pp. 377-8.

للغزوة إلى حرمانهم من أهم مبادئهم ؛ وضم الأتراك أغلب أراضيهم في سنة ١٢٣٧م. وفي سنة ١٢٣٧م ، وبينما كان الفارصة مستغرقين في حرب مريرة مع جنوا ، أكمل المسلمون الغزوة من الممالك وحلفائهم الأتراك إخضاع البلاد ؛ وهرب آخر ملك أرمني ، ليو السادس ، إلى الغرب حيث مات كلاجي في باريس ، وبذا انتهى الاستقلال الأرمني<sup>(١٦)</sup>.

وحقيقة الأمر ، أن حملة صليبية كذلك التي عطلت لها الملك بطرس لم تكن في لوانها ؛ فلم يكن يوسع العالم المسيحي أن يحتمل هذا التقريب ؛ إذ كان عليه أن يواجه تهديدا بالغ الخطورة في الشمال . ذلك أن محطتي الحملة الصليبية الأولى قد أفركتوا بوضوح أن انقاذ الأراضي المقدسة يتوقف على الاحتفاظ بقوة مسيحية في الأناضول . غير أنه منذ أن مات البابا إيربان الثاني ، لم يتوفر لأي سياسي غربي أي قدر من الحكمة يوقفه على أن الاحتفاظ بالأناضول يعتمد على بزنطة . ولقد سببت الحركات الصليبية في القرن الثاني عشر حرجا للأباطرة البيزنطيين . وأضاعت تلك الحركات الصليبية مشاكل جديدة كان على بزنطة مواجهتها ، ولم تنجح للأباطرة قط الفرصة لإخضاع الغزاة الأتراك . وربما كانت المهمة مستحيلة تماما ، ذلك أن أسلوب الغزو التركي ، في تدمير الزراعة والاتصالات ، جعل استعادة الأناضول عملا عسيرا ؛ بينما أدت طموحات الأباطرة للتنوع ، مثل مانويل وأندرونيكوس ، إلى مزيد من تدهور الطاقة . وقد سمحت كارثة ميزيكوت سنة ١٠٧١م بدخول الأتراك إلى الأناضول ؛ وأما كارثة ميروسيغالوم سنة ١١٧٦م فضمنت لهم البقاء هناك . غير أن الحملة الصليبية الرابعة ، وما سببت من دمار للنظام الإمبراطوري البيزنطي لا يرحى له إصلاح ، كانت هي الحملة التي أتاحَت للأتراك فرصة للقضي إلى أبعد من ذلك . وفي القرن الثالث عشر أتيح للعالم المسيحي الفرصة الأخيرة للتعامل مع الأتراك ؛ فكانت قواتهم في الأناضول حتى ذلك الوقت تعتمد على سلطنة قونية المسلحة ؛ وقد أدت الغزوات للغزاة التي بدأت سنة ١٢٤٢م إلى تقويض الدولة السلجوقية وتدميرها في نهاية الأمر ؛ وكان الأباطرة البيزنطيون للقيوم في التقى في نيقية مدركين أن فرصتهم سانحة ، غير أن ما عرقل جهودهم مشاكلهم الأوروبية وتلهفهم على استعادة عاصمتهم

(١٦) أنظر : Toussaint, *Histoire Politique et Religieuse de l'Arménie*, pp. 644 ff., esp. pp. 644-30. تاريخ الفتح النهائي للشركة الأرمنية بتوفيق أساسا على تاريخ الفرنسييكتي جون دارديل. the Franciscan John Dardel (published in R.H.C., *Documents Arméniens*, vol. II).

الإمبراطورية في مجابهة عدوة الغرب اللاتيني الذي كانت تعززه البصيرة والخبرة ليههم الوضع. وما أن أعاد البيزنطيون ترسيخ أنفسهم في القسطنطينية حتى طاعت الفرقة . وكان على أباطرة آل باليولوجوس أن يواجهوا الممالك الصغيرة القوية في البلقان ، ومطالبات الجمهوريات الإيطالية وعطر إعادة الغزو اللاتيني ، الذي كان أمرا واقعا إلى أن أعادت صلاوات النساء الصغيلة لشارلز أوف أنجو ، وفي نهاية القرن الثالث عشر كان الوقت متأخرا جدا ؛ فقد ذهب السلاحقة، ولكن مكناتهم شغلته عدة إرسارات نشطة وطموحة ، تنويها هجرة القبائل التركية التي كانت خاضعة للمغول . وكان اقتلاعهم يحتاج إلى جهود طويلة متواصلة . وكان من بين أهم الأمراء كرمسان الكبير ، الذي امتدت أراضيه عند بطول البلاد من فيلادلفيا حتى جبال طوروس القابلة . وكان هناك أمراء آخرون مستقرين في أسياليا ، في ألبانيا (تراقيا) وفي مانيصة (مغربية) . وكان الساحل الشمالي ما يزال في قبضة بيزنطة وأحتها إمبراطورية طرابزون ، وكان الروكمان يمتنون البلاد الواقعة جنوب طرابزون ؛ وفي الشمال الغربي كانت هناك إمارة جديدة عتية تبرز تحت أمير مقدم يدعى عثمان<sup>(١٧)</sup>.

#### ١٣٤٤ م : الاستيلاء على أزمير

كان إدراك اللاتين بأهمية الأناضول يتزايد الآن ، ورغم أنهم كانوا ينظرون إليها كشاعدة للعثوان عليهم بأقل مما كانوا ينظرون إليها على أنها منطقة يتصاحون فيها إلى قواعد للسيطرة على البحر المتوسط . ولقد كان احتلال فرسان المستشفين لجزيرة رودس بعض مصادفة ؛ غير أن ذلك كان ينطوي على توجه جديد . وكانت الجمهوريات الإيطالية مهتمة منذ زمن طويل بجزر بحر إيجه ، وكان من الطبيعي أن يحد قلقها ، وقلق العالم اللاتيني كله ، إلى الأراضي الرئيسية المقاتلة لتلك الجزر . وعندما قام الأمير عمر صاحب ألبانيا ، الذي كان في حوزته ميناء أزمير الواقع ، ببناء أسطول للفرصة في مياه بحر إيجه ، لم يترك البنادقة والفرسان في رودس الأمر يمر دون أن يفعلوا شيئا . وفي سنة ١٣٤٤ م أبحر أسطول صغيرا على أزمير أسهم فيه البنادقة ومن في رعايتهم بحوالى عشرين سفينة ، والفرسان بست سفن ، واليابا وملك قبرص بأربع

(١٧) Kaptan, Les, Gibbons, The Foundation of the Ottoman Empire, pp. 15-34; Willek, The Rise of the Ottoman Empire, pp. 33-51.

قطع. وكان القائد هو بطريق القدس (الابن هري (أوف آستي)، وهزم كسير أهدين في معركة بحرية في يوم الصعود أمام مدخل الخليج. ورفض الخلفاء المسيحيون، بناء على طلب البابا، دعوة تقدم بها لورد جزيرة قبرص السابق واستولى الأسطول، في طريقه إلى أرمير، على جزيرة قبرص، فطلب صاحبها السابق إعادتها إليه، ولكن الخلفاء المسيحيين رفضوا ذلك بناء على طلب البابا واستوزوا في الانضمام شمالاً إلى أرمير التي قاومت مقاومة فسيوة ثم وقعت في أيدي المسلمين يوم ٢٤ أكتوبر ورغم صعود القلعة. ويعزى هذا النصر اليسير في أساسه إلى أن الأسير عمر لم يكن مستعداً وأنه يغار ويتحشى وفاقه الأكراد، فجهاد يهيشه لانتفاذ المدينة بعد فوات الأوان. غير أنهم استدرجوا إلى محاولة غزو البلاد. فتلحت بهم هزيمة منكرة على بعد كميات قليلة من المدينة، وقتل هري (أوف آستي) ومارتين زاندربا. وبعد أن فشل الأتراك في استعادة أرمير تم توقيع معاهدة في سنة ١٣٥٠م قضت بأن يعهد بالمدينة إلى فرسان المستشفى رغم بقاء القلعة في أيدي الأتراك. واحتفظ فرسان المستشفى بأرمير حتى سنة ١٤٠٢م عندما قصفها تيمور<sup>(١٨)</sup>.

وبما كان مصر أرمير ما يزال في اليونان، أعلن نيبيل فرنسي يدعى هموت الثاني، «دوفين (أوف فيين)<sup>(١٩)</sup>» عن رغبته في القهاب في حملة صليبية إلى الشرق. وكان رجلاً ضعيفاً لا خير فيه، وإن كان ذا ورع أصيل وبلا طموحات شخصية. وبعد شن من التفاوض مع البابا، تقرر أن يذهب لاستكمال الجهد المسيحي في أرمير؛ وفي مايو ١٣٤٥م انطلق من مرسلها مع صحبة من الفرسان والقساوسة، وانضم إليه في رحلته للتجهة شرقاً جنود من شمال إيطاليا وبعد مغامرات شتى عديمة الفعالية، وصل أرمير سنة ١٣٤٦م، وهزم جيشه الأتراك في معركة عارح الأسوار. ولم يبق هناك طويلاً، وإنما عاد إلى فرنسا في صيف ١٣٤٧م. ولقد كانت الحملة كلها فريدة في عمقها، وتكمن أهميتها في أن الكنيسة باتت الآن مستعدة لأن تعتبر أية حملة ذاهبة إلى الأناضول بمثابة حملة صليبية<sup>(٢٠)</sup>.

وفي سنة ١٣٦٦م، نال بطرس القروصي مساعدة فرسان المستشفى في هجوم

(١٨) Aja, op. cit. pp. 290-300.

(١٩) (الرحم) دوفين: Dauphin لقب الابن الأكبر للملك فرنسا، وهو لقب استُخدم من ١٣٤٩ إلى ١٨٣٠م.

(٢٠) Ibid pp. 300-18.

على ميناء أدياليا الفاركي، بعد أن حصل مؤمرا على كورينكوس من الأرمن؛ وبعد قتال قصير سقط الميناء في يديه في الرابع والعشرين من أغسطس؛ وسارع أمراء البلغار في علايا ومونوفحات وتيكي إلى تقديم ولائهم له، وهم يحسبون أن صداقته قد تكون نافعة ضد عدوهم الرئيسي كرمان الأكبر. وسرعان ما غلبوا على عضدوهم وحاولوا غير مرة استعادة أدياليا التي بقيت، مع ذلك، في القفصة القرمزية لتنين عام<sup>(٥١)</sup>.

#### تنامي السلطة العثمانية

وفي تلك الأثناء وجدت أوروبا نفسها مضطرة إلى تقويل انبعاثها إلى الشمال. ذلك أن العقود الأولى من القرن الرابع عشر شهدت تناميا غير عادي في قوة الإمارة التركية التي أسسها عثمان بن أرطغرل وفتحت لقبها "عثمانية أو عثمانية" من اسمه؛ وكان عثمان في سنة ١٣٠٠م زعيما ضئيل الشأن له لراض في جنوب بيشنيا، وعند وفاته سنة ١٣٢٦م كان سيد بروصا وأغلب الأراضي الواقعة بين أدراميتوم ودوريليسوم ونجر مرمرة. وبعزى توسعه جزئيا إلى دبلوماسيته الماهرة والرنه إزاء رفاقه الأسراء، والأهم من ذلك، إلى ضعف بيزنطة. وفي سنة ١٣٠٢م، استباح الإمبراطور أندرونيكوس الثاني في حركة طائشة مجموعة من الكالان برأسها روجر فلور، فارس المعبد السابق الذي جمع ثروته بسلوكه المشين أثناء نهب عكا. وحارب روجر الأتراك بنجاح، وإن حارب بمزيد من الشجاعة سيده الإمبراطور. وقُتل سنة ١٣٠٦م، لكن جماعة كلال بقيت في الأراضي الإمبراطورية في تعاديتها حتى ١٣١٥م. وأثناء حروبها أحضرت إلى أوروبا كتبة تركية سبق أن استخدمها الإمبراطور في آسيا<sup>(٥٢)</sup>. واثرا ذهاب مجموعة كلال، اندلعت الحرب الأهلية في الإمبراطورية بين أندرونيكوس الثاني وجليته أندرونيكوس الثالث، ولم تنته إلا بوفاة الأول سنة ١٣٢٨م. وقد استخدم كل من الجانبين الأتراك كمرتقة. وفي تلك الأثناء، واصل ابن عثمان - أورهان - ما بدأه والده فأكسب لنفسه هيمنة غامضة على أمراء الأراضي الواقعة جنوب أراضيها، وواصل غزوه لبشيا. واستولى على نيقية سنة ١٣٢٩م وعلى

(٥١) Ibid. pp. 323-30; Hill, op. cit. ii, pp. 318-24.

(٥٢) . 605-8. See Vasiliev, *History of the Byzantine Empire*, pp. 605-8. (٥٢)  
Mantener مجموعة كلال في سرد بعض تاريخه

نيكوميديا سنة ١٣٣٧م<sup>(٥٣)</sup>. واندلعت الحرب الأهلية في الإمبراطورية مرة أخرى سنة ١٣٤١م بين جون الخامس وزوج أمه جيون كاتشاكوزينوس ، بينما كان تنامي قوة متين دوشان في الصرب يجذب انتباه كافة شعوب البلقان<sup>(٥٤)</sup>.

وفي سنة ١٣٥٤م أرسل كورمان ، الذي اتخذ لقب سلطان ، جنودا عبر الحدود لاحتلال مدينة جاليبولي وبعد ذلك بستين نقل عدة آلاف من بني جلديته عبر المضيق وجعلهم يستقرون في ترس<sup>(٥٥)</sup>، وفي العام التالي استطاع أن يتقدم داخل البلاد ويستولى على قلعة أدرينوبل العظيمة التي أصبحت عاصمته الثانية . وعند وفاته سنة ١٣٥٩م كانت ترس كلها تقريبا في يده ، وشملت القسطنطينية عن ممتلكاتها الأوروبية . وكان ابنه وخليفته مراد الأول ذا اقتدار كبير على أن يواصل ما بدأه أبوه وحده . وكانت أولى مهامه تأسيس هيئات حائيساري (أو الجندي الجديد) من اعتقال الرقيق للسيحيين الذين أجبروا على التحول إلى الإسلام والمرسلين اليه كإثارة<sup>(٥٦)</sup>.

ولم يمر توسع الأتراك العثمانيين دون أن يُلاحظ في الغرب . ويبدو أنه لم يكن هناك معطر على القارة الأوروبية حتى ذلك الوقت ، إذ بدت الإمبراطورية الصربية العظمى قادرة تماما على صد أي تقدم . بيد أنه من الواضح أن القسطنطينية ذاتها كانت مهددة ، ومعها مصالح الإيطاليين التجاريين ومع ذلك كان اليونانيون منشغلين وكانت سياسة الكنيسة الغربية هي الإصرار على خضوعهم لروما قبل إمكان البحث في مسألة إرسال المساعدة لهم . وحقيق أن يفشل هذا النوع من الإحتراز المعنوي . وكان من الخيال أن يوافق اليونانيون على هيمنة الكنيسة اللاتينية ، حتى وإن كان يحكمهم على امتداد للإلتزام بها ، ليس فقط بسبب عقيدتهم الدينية وإنما أيضا لما يشعرون به من اعتزاز وطني وما لا يقب عن ذاكرتهم من المفاتيح السابقة<sup>(٥٧)</sup>.

(٥٣) Vasiliev, op. cit. pp. 608-3; Gibbons, op. cit. pp. 54-70.

(٥٤) Vasiliev, op. cit. pp. 608-13.

(٥٥) (الترجم) ترس: إقليم القديم الواقع شرقي شبه جزيرة البلقان ، أو الإقليم الحالي الواقع جنوب شرقي شبه جزيرة البلقان وهو ملتحق حاليا بين اليونان وتركيا.

(٥٦) Gibbons, op. cit. pp. 100-3, 110-21.

(٥٧) Vasiliev, op. cit. 670-2.



## ١٣٦٦م: حملة كونت سالفي الصليبية

كان أماديوس السادس كونت سالفي قد أخذ الصليب سنة ١٣٦٥م. وكان البابا إيمان السادس منشغلا في التيسير بالحملة الصليبية نيابة عن بطرس ملك قبرص. وكان ذهاب أماديوس إلى الأرض المقدسة قد ملك عليه ليه ؛ بيد أنه كان ابن عم الإمبراطور البيزنطي جون الخامس وكان يرغب في مساعدته ؛ ولأن له البابا بيان يبدأ حملته بحاربة الأتراك شريطة أن يتضمن إحصاع الكنيسة اليونانية . وبدل الباذقة ما في وسعهم لوقف حملة الصليبية تحثيتهم من أن تتدخل في سياستهم التجارية ؛ كما أنهم لا يريدونه بصورة خاصة أن ينضم إلى بطرس القبرصي ، وتنفسوا الصعداء عندما أحدثت شائعاتهم عن معاهدة بطرس مع المصريين أثرها لديه وقرر التركيز على بيزنطة، واتفق مجموعة متميزة من الفرسان ، وإن صادفه مصاعب التمويل منذ البداية . ووصلت الحملة مضيق الدردنيل في أغسطس ١٣٦٦م ، وعلى الفور حاصر جاليبولي التي سقطت يوم ٢٣ أغسطس . على أن أماديوس بدلا من أن يهبط في ترميس ويظهر للقاطعة من الأتراك ، أتمر إلى القسطنطينية حيث وجد أن الملك البلغاري شيشمان الثالث قد حان الإمبراطور واعتقله ؛ ولذا كرس كسل طاقته في انقاذ ابن عمه ، ولم يتحقق ذلك إلا بهجوم على ميناء فارنا التابع لشيشمان . وعندما تم إنقاذ جون ، وجد أماديوس أنه قد أنفق كل أمواله ، وكذلك الأموال التي جباها عليها وما اقترضه من الإمبراطورة ، فاضطر إلى العودة إلى الوطن ؛ بيد أنه قبل أن يرحل أخذ من الإمبراطور وعدا بأن يجعل كنيسة حاضنة لروما . وجاء إلى غلبونه بطريق القسطنطينية فيلوبيوس ومعه فارس بورتاني وأخبره بأن الشعب اليوناني سوف يخلص الإمبراطور إذا وافق على ذلك ، فما كان من أماديوس إلا أن استألفهما وأخذهما معه إلى إيطاليا ، وعاد إلى وطنه في نهاية ١٣٦٧م . على أن حملته الصليبية كانت عديمة القيمة أو تكاد ؛ إذ أن الأتراك استعادوا جاليبولي بعد رحيله مباشرة<sup>(٥٨)</sup>.

وفي ظل حكم مراد ، زاد الأتراك من قوتهم بسرعة . فقد أضعف مراد لمراد غازي الأناضول وشيخه عليهم ، ثم تقدم في أوروبا . وبعد انتصاره على الصرب في ماريتسا سنة ١٣٧١م ، أصبحت بلغاريا دولة تابعة وسرعان ما ضمها كلها. وفي ١٣٨٩م ، نشبت معركة حاسمة بين الصرب والأتراك في كوسوفو ؛ وقبل المعركة مباشرة اغتيل مراد بيد أحد الصربيين . لكن جنوده الذين قاتلت أعدادهم أعدائهم للغاية انتصروا

انتصارا كاسحا . وأصبح الأتراك الآن سادة البلقان<sup>(٥٩)</sup>.

وعلى الرغم من أن جهد الغرب الصليبي قد تحول في سنة ١٣٩٠م في حملة فاشحة قادها لويس الثاني دوق بوربون إلى الهدية بالقرب من تونس<sup>(٦٠)</sup>، كان من الواضح أنه لابد من صد الأتراك العثمانيين حتى تبقى أوروبا المسيحية آمنة . وعندما ضم السلطان بايزيد مدينة فيدين على نهر الدانوب ، وكان أميرها قد اعترف بسيادة هنجاريا ، ناشد الملك الهنغاري سيغيسموند اللوكسمبرجي ، أخو الإمبراطور ونتريل ، جميع رفاقه المعاهل ليقدموا له للمساعدة . وأصدر كل من البابا الروماني بوليفاس التاسع ، والبابا الأفينيوني بيديكت الثالث عشر مراسيم بأبوية ترضى بحملة صليبية ، بينما كتب فيليب (أوف ميزيه) ، وهو عجز من القائلين على الدعاية ، خطابه علنيا إلى ريتشارد الثاني ملك إنجلترا يدعو إلى التعاون مع تشارلز السادس ملك فرنسا من أجل الحملة الصليبية القادمة . وما كان لسيغيسموند من علاقات مع الألمان مكنه من أن يجد مؤازرة في ألمانيا ، أما أميرا الإثيوبيا وترانسيلفانيا<sup>(٦١)</sup>، فقد أخذ منهما الرعب كل ماخذ من التقدم التركي فانضما إليه برغم كراهيتهما الشديدة للهنغارين . وفي الغرب أعلن دوق برجندي ودوق أورليانز ودوق لانكاستر جميعا رغبتهم في المساعدة . وفي مارس ١٣٩٥م وصلت إلى فينقية سفارة هنجارية يرأسها رئيس أساقفة حبران ، نيكولاس (أوف كاتينواي) لضمان تنفيذ عهد دوح البندقية بتوفير وسيلة النقل ؛ ثم واصل السفراء ترحابهم إلى ليون حيث استقبلهم دوق برجندي فيليب المقدام ، استقبالا مفرط الخفاوة ، ووعدهم بمساعدته في حملته . وبعد أن قاموا بزيارة دييجون لتقديم احتراماتهم للدفقة مرخريت الفلاندرزية ، ذهبوا إلى بورغو للمقابلة مع ملك الفلندا جون (كوف لانكستر) الذي تعهد بتجهيز كتيبة الفانيزية . وانطلقوا من بورغو إلى باريس . وكان الملك الفرنسي تشارلز السادس يعاني من نوبة جنون ، ولأن الأوصياء وعدوا بإلقاء بتشجيع النبلاء الفرنسيين على الانضمام إلى الحملة الصليبية . وبدأ تجمع جيش دول ضخم لإنقاذ العالم المسيحي . ومن أجل تمويله فرض دوق برجاتني ضرائب خاصة أدت إلى جمع مبلغ ضخم قدره سبعة آلاف ألف فرنك ذهبي ، وكضاف النبلاء الفرنسيون إسهاماتهم كل بدوره ؛ وقدم جنوي السادس كونت لا

(٥٩) Vasiliev, op. cit. p. 624, Gibbons, op. cit. pp. 174-8.

(٦٠) رد الوصف الكامل لحملة لويس في Asyng, op. cit. pp. 398-434.

(٦١) (ترجم) والألمانية: Wallachia إقليم في شرق أوروبا يقع جنوب الألب فونسيكافية ، تتمتع مع مولدافيا سنة ١٨٦٦م ليكويا رومانيا

تربواي أربع وعشرين ألف فرنك . ووافق اللوردات الفرنسيون والرجانديون على قبول قيادة الإمبراطور لودويك برجندي ، جون كوت بفرس ، وهو شاب في الرابعة والعشرين مثلاً الخيرية<sup>(١٢)</sup>.

#### ١٣٩٦م : حملة ليكو بوليس الصليبية

بينما عاد السفراء لجنارايون مسرعين إلى بودا لإطلاع الملك على ما حققوه من نجاح ، وليلفوا له التسمية بالفضي قدما في ترتيباته ، أصدر دوق برجاتندي مراسيم دقيقة لتنظيم تصرفات الجنود الفرنكو هنجارين . وقد استدعوا للتحقق في دجون في العشرين من إبريل ١٣٩٦م ، وتقرر أن يفرد الحملة جون الفرنسي ، ونظرا لصغر سنه تشكل مجلس استشاري مؤلف من فليب ابن دوق بار ، وجوي (أوف لا تريمواي) ، وأغيه وليم ، والأدمسوال جون (أوف فينا) ، وأردارد لورد شاسيرون . وفي نهاية الشهر انطلق جيش من عشرة آلاف رجل وأرتمل حلال للاتباع إلى بودا ، وفي طريقه انضم إليه ستة آلاف لاني برأسهم الكونت بالاتين روبرت ابن روبرت الثالث كونت ويلسباخ ، وليرهارد كونت كاترنيلينوجين . وسار خلفهم على مقربة ألف مقاتل المجلسيز بقيادة الأخ غيسر الشقيق للملك ريتشارد ، جون هولاند ، إيسرل هينجندون<sup>(١٣)</sup>.

ووصلت الجيوش الغربية في نهاية بولية تقريبا إلى بودا حيث وجدت الملك سيحيسوند في انتظارها ومعه قوة تتألف من نحو ستين ألف رجل ، وانضم إليه تابعه مرسيا حاكم الإشيا ومعه عشرة آلاف رجل آخرون وحوالي ثلاثة عشر ألف مغامر جاءوا من بولندا وبوهيميا وإيطاليا وأسبانيا ، وكان هذا الجيش المتحد الذي اقترب من مائة ألف جندي أكثر تجمع على الإطلاق دحل مجال الحرب ضد الكفرة . وفي تلك الأثناء توغل أسطول في البحر الأسود وألقى مراسيه عند مصب نهر الدانوب ، وكان رجاله من فرسان المستشفى تحت قيادة السيد الأعظم فليبيرت (أوف نابلاك) ومن البنادقة وأهل جنوا.

و لم يبق السلطان عثماني بايزيد من حاليه في الجانب الآخر مكتوف اليدين .

(١٢) Alijn, *Crusade of Nicopolis*, pp. 1-34, a fully referenced account.

(١٣) *Ibid.* pp. 41-8, 67-8, 184 nn.

وعندما وصلت الأنباء بتجمع الحملة الصليبية ، كان يحاصر القسطنطينية ؛ وعلى الفور استدعى جميع رجاله وسار شمالا إلى الدانوب ، وكان تعداد جيشه يُقدَّر بما يتجاوز مائة ألف.

غير أن فرسان الغرب لم يلتقوا شيئا مما مروا به عبر ثلاثة قرون من الحقبة. وعندما نوقشت خطة الحملة في بوزا نصح الملك سيجموند بالثبات استراتيجي الدفاع ، وكان يعرف قوة عدوه . ولقد ارتأى أنه من الأفضل أن يستدرج الأتراك إلى داخل هتجاريا ثم يهاجمهم من مواقع أعلى ؛ وكان سيجموند يعتقد ، ككثيره من الأساطرة البيزنطيين إسان الحملات الصليبية المبكرة ، أن سلامة العالم المسيحي تتوقف على الحفاظ على مملكته ؛ على أن حلفائه ، كشأن الحملات الصليبية المبكرة ، كانوا يفضلون هجوما كبيرا ؛ فمن شأن ذلك أن يعلم الأتراك وأن يجعل الجيوش المسيحية تتقدم منتصرة خلال الأناضول إلى سوريا وإلى المدينة المقدسة ذاتها ؛ وكان الحلفاء على قدر كبير من الحماس لرأيهم بحيث رشح سيجموند . وفي وقت مبكر من شهر أغسطس انطلقت جيوش التحالف جنوب الضفة اليسرى لنهر الدانوب حتى أوردوسقا عند البوابات الحديدية ، وهناك عبرت إلى داخل أراضي السلطان.

وقضى الجيش ثمانية أيام ليعبر النهر ، ثم سار بطول الضفة الجنوبية إلى مدينة فيدن التي كان حاكمها أميرًا بلغاريا يدعى جون-سراشيمير ، بيد أنه كان تابعًا للسلطان الذي كان قد ترك حامية صغيرة هناك . وبوصول المسيحيين انضم إليهم جون-سراشيمير وفتح لهم البوابات ، وقُتل الأتراك . وكانت المدينة التالية الواقعة إلى الجنوب على النهر هي مدينة راعوفا ، وهي قلعة قوية يحيطها خندق مائي وسور مزدوج وفيها حامية تركية كبيرة . وعلى الفور اندفع للهجوم أكثر الفرسان القرنين حماسا بقيادة فيليب (أوف أرتوا) كونت إيزر ، وجون لو مانغر الذي كان يشتهر بلقب مارشال بوسيكوت ، وكانوا أن يهلكوا جميعا لولا أن سيجموند أدركهم بالهتجارين . ولم تستطع الحامية الصمود طويلا أمام الجيش المسيحي كله . وقُصفت المدينة وقتل جميع سكانها وأُقلعهم من البلغارين المسيحيين ، فيما عدا ألف من الأترياء احتجزوا من أجل الفدية.

#### ١٣٩٦م : معركة نيكوبوليس

وتحرك الجيش من راعوفا قاصدا نيكوبوليس التي كانت المعقل الدوكي الرئيسي

على الدانوب ، في موقع يصل الطريق الأتي من وسط بلغاريا إلى النهر ، وقد بُنيت بجانب النهر على تل توجت قسم منحدراته الشديدة بتعطين من الأسوار المائلة . وقد جاء الصليبيون بدون آلات للحصار ؛ إذ لم يتحقق الغريون من ضرورتها ، ولم يكن سيحسون قد أعد العدة إلا لأعمال الدفاع . وعندما فشلت السلام التي سارع الفرنسيون بإقامتها ، وكذلك الأتقال التي حفرها المهندسون المنحاريون ، قبع الجيش على أمل تجويع المدينة كي تستسلم ، وقد ساعدتهم على ذلك وصول أسطول فرسان المستشفى الذي أبحر باتجاه الشمال في نهر الدانوب وكفى مرابه أمام الأسوار يوم ١٠ سبتمبر ؛ على أن يكوپوليس كانت مزودة جيدا بالبلون ، ولم يكن حاكمها التركي دوحان بيك يتوى الإستسلام وكان قد جمع بمصر أبناء جلدته في فيدين وراغوا.

كان التأمير ميمتا لمعويات الجيش المسيحي ؛ إذ راح الفرسان الغريون يتسلون بالخمر والميسر وكافة أنواع الفسق . ونجراً جنود قليلون وقالوا إن الأتراك عدو مخيف فأمر المارشال بوسيكوت بعلم أذانهم عقابا لهم على الروح الإنهزامية . ونشبت مشاجرات بين مختلف الفصائل ، بينما بدأ أتباع سيحسون الدانسلقانيون وحلفائهم الولاشيون يتحدثون عن التخلي عن الحصار .

وبعدما أفضت الحملة الصليبية أسوعين أمام يكوپوليس ، حاولت الأبياء باقتراب الأتراك . فقد انطلق جيش السلطان بسرعة من ترمس باتجاه الشمال ؛ وكان تسليحه خفيفا وخياله أسرع بكثير في تحركها من الفرنج ، وكان رماته على مستوى رفيع من التسريب ، وتفوقون بحيزة النظام الأمل والطاعة الشامة لقيادة السلطان وحده الذي كان هو نفسه ذا القدار غير عادي . ولقد أرسل أمامه بعض الجنود الذين هزمتهم كتيبة فرنسية بقيادة اللورد كوسي في أحد مجرات البلقان ؛ لكن غيرة المارشال بوسيكوت ، الذي اتهم كوسي بمحاولة سرقة شرف النصر من جون النفري ، حالت دون بذل أية محاولة أخرى لوقف تقدم الأتراك ؛ وفي ذات الوقت قرر الفرسان قتل الأسرى المأسورين في راغوا.

وفي الخامس والعشرين من سبتمبر ١٣٩٦ م ، بدت للبيان طليعة الجيش التركي التي عسكرت في التلال الواقعة على بعد ثلاثة أميال تقريبا من المسيحيين . وقبل شروق الشمس في الصباح التالي زار سيحسون جميع رفاقه القادة ورجاعهم أن يتنوا في حالة الدفاع . ورغم أنه أخبرهم صراحة أنه لا يستطيع أن يمنع ثقتهم في أتباعه من الدانسلقانيين والولاشين ، لم يسانده سوى كوسي وحبون (أوف فيين) ، أما القادة

الأخرون فكانوا عاكدي الحرم على فرض معركة على القور ؛ وعرض سبيسموند في ضلعه ، وقسم جيشه إلى ثلاث فرق جاعلا جنوده المحاربين في القلب والواشين في الميسرة والراشيلقاتين في الميمنة ، وكانت الطليعة تتألف من الغربيين جميعهم بقيادة جون النفريسي.

وعندما اتلج الصبح كان كل ما يمكن رؤيته من الأتراك فرقة من الفرسان غير النظاميين حفاف الحركة ، فرق منحدر التل مباشرة ، وحلفها مشاة الأتراك مع فصيلة من الرماة ، جميعهم محطوط من الأوتاد ؛ أما الجزء الرئيسي من فرسان السباهي<sup>(٦٤)</sup> التي يقودها السلطان بنفسه فكانت مختبة وراء قمة التل . وكان على ميسرته فرقة من فرسان المصرب بقيادة الأمير شيفن لازروفيتش ، وهو أحد الأتباع المخلصين للسلطان.

وأظهرت المعركة ، كمهددا في الإستراتيجيات السابقة ، أن الصليبيين لم يتعلموا شيئا طوال القرون . فلم يبق الفرسان الغربيون في المقدمة ليطلقوا سبيسموند على عطفهم ، وفي حماس بالغ فائق الثقة هاجموا قمة التل وقرقوا فرسان الأتراك الخفاف أمامهم ؛ وبينما عازد فرسان الأتراك لجميع أنفسهم خلف مشاتهم ، وجد الفرسان أن الأوتاد تعرضهم ، فزحلوا على القور ، وواصلوا هجومهم واصلين وهم يتزعجون الأوتاد أثناء تقدمهم ، يدفعهم في ذلك أن مشاة الأتراك تبعثرت هي الأخرى ، وكان باستطاعة بعض الأتراك التفهقر خلف الفرسان التي كانت تتجمع ، غير أن كثيرين قتلوا أو طردوا أسفل السهل . غير أنه عندما كان الصليبيون المتصرون الشهبكون يسرعون في هجومهم هذا إلى أن وصلوا إلى قمة التل ، وجدوا أنفسهم وحدهم لوجه أمام فرسان السباهي السلطانية وقوات المصرب ؛ وجاء هجوم هؤلاء الجنود الجدد مائغا للصليبيين الراحلين المنهكين العطشى الثقليين بأسلحتهم ، فسرعان ما اندفعوا مبعثرين في فوضى هارمة واستحال نصرهم هزيمة شعواء . وشما فرسان قلبلون من القتلى ؛ وكان من بين المهلكين وليم (ألف لاتفيموي) وأنه فليب جون (ألف كافزود) آدميرال فلاندرز ، والمعلم الأكبر لفرسان القيتوتون . وسقط جون (ألف فيين) آدميرال فرنسا الكبير متشبها برأية نوردام الكبيرة التي شهد بها إليه ، ولم يتقد جون النفريسي من القتل سوى صياح مصاحبه بالتعريف بشخصه وحشه على الإستسلام ، واقتيد معه

(٦٤) (الرجوع) فرسان السباهي: Sipahi Cavalry فرسان نظاميون في الإمبراطورية العثمانية كانوا يولفون لقلب الجيش العثماني حتى حول منتصف القرن السادس عشر.

كونت إيمو وكونت لاساروش وجوي (أوف لا ترموي) وإيثوراند (أوف كوسى) والمارشال بوسيكوت.

#### ١٣٩٦م : انتصار السلطان

عندما ترحل الفرسان اندفعت جيوشهم عائداً إلى المعسكر ولا يعلم صهيواتها أحد؛ وعلى الفور قرر الولاشيون والفرانسهاليون أنهم خسروا المعركة وسارعوا بالانسحاب بعدما استولوا على كل ما يجذبه من القوارب كي يعبروا النهر، غير أن سيحيسموند أمر جنوده بالتقدم لإيقاظ الغربيين؛ وقتلوا كثيرين من مشاة الأتراك المبعثرين أثناء تحركهم باتجاه أعلى التل. وعندما اقتربوا من ساحة القتال وجدوا أنهم وصلوا بعد قوات الأكران، إذ هجم فرسان السلطان هائعين عليهم ورددهم بتسائر حسيمة حتى ضغاف النهر.

ولما شعر جيش سيحيسموند، أغرته نفسه بالكف عن القتال، فلتجأ إلى سفينة بنديقة راسية في النهر حملته إلى القسطنطينية ومنها إلى وطنه عدلاً بحر لينة والبحر الأدرياتيكي؛ وكان يخشى الإرتحال براً لرجسه من خيانة الولاشين. أما جنوده فقد انطلقوا مع قليلين من الصليبيين الغربيين الباقين على قيد الحياة وانفذوا طريقهم إلى بلادهم بأية طريقة يستطيعونها، يضاهقهم الوطنيون المعادون والوحوش والسباعيات برد الشتاء المبكر؛ فوصل الكونت بلاتين إلى قلعة أبيه في أسبالة المزعقة ومات بعد ذلك بأيام قليلة، وكان قليل من وفاته اللاجئين أكثر حفاً منه<sup>(١٤٠)</sup>.

ولقد نال يازيد نصراً عظيماً وإن كانت خسائره حسيمة؛ فأمر في سورة غضبه، وفي ذاكرته كذلك ما ارتكبه الصليبيون من مذابح، يقتل ثلاثة آلاف من سجنائه عمداً، ولم يبق إلا على قليل من الدلاء يمكن الحصول منهم على فدية كبيرة؛ وقد كتف فارس فرنسي يدعى جيمس (أوف هيلس)، وكان يتحدث التركية، بالاعتراف عليهم ثم شجح له بالرحيل إلى الغرب للترتيب بجمع مال الفدية الذي لم يسمع إلا في بونية المثالي، ووصلت سفارة غربية إلى السلطان في بروسيا وسألته المبالغ الضخمة التي طلبها؛ وقد أرسل كثير من الشعاعطين في سائر أنحاء العالم للتسبيح إسهاماتهم، لكن الجزء الأكبر دفعه الملك سيحيسموند ودوق برساندى الذي قدم ما يزيد على

(١٤٠) Atiya, *Crusade of Nicapoli*, pp. 50-59.

مليون فرنك . ووصل الأسرى الذين أطلق سراحهم إلى بلادهم في نهاية ١٣٩٧م تقريباً<sup>(٦٦)</sup>.

كانت حملة نيكوبوليس الصليبية أضعف وأخر الحملات الصليبية الدولية الكبيرة . واقتلح تاريغنها للوسف في دقة تبعث على الحزن ، سيرة الحملات الصليبية الملهمة الكبيرة في الماضي، مع غارق يتمثل في أن ميدان قتالها كان في أوروبا وليس في آسيا . وحايث الأخطاء والحدقات كما هي دون تغير ؛ وتدد نفس الحماش في المشاحات والغيرة ونقاد الصير . إن كل ما تعلمه الغرب من هذا الفشل الأسير أن الغرب المقدسة قد انتهت عملياً إلى غير رجعة.

ولم بعد هناك مجال للحملات الصليبية ؛ لكن الكفرة ظلوا يهددون قلب العالم المسيحي ؛ فقد وصلوا إلى البانوب وشواطئ البحر الأدرياتيكي . وكانت القسطنطينية ما تزال مسيحية ، وإن كانت معزولة ، وقد ظلت مسيحية لا لشئ سوى أن السلطان لم تتوفر له بعد المدفعية القوية بما يكفي لتقصف أسوارها الضخمة الكثيفة ، ولا ما يكفي من السفن لقطع وسائل اتصالها بحرا . ووجد فرسان المستشفى في رودس ولوردات أرخبيل بحر إيجه الإيطاليون أنهم عند الحدود وإن قبرص موقع بعيد ؛ وراح ملك صقلية ، وحكام ولاشيا ومولدافيا ، وزعماء ألبانيا ، يبحثون عن العون للدفاع عن حدودهم ؛ ودأبت الجمهوريات الإيطالية على محاولة معرفة أي السياسات التي يتعين اتباعها للحفاظ على مصالحها التجارية ؛ وكان البابا عميل الإدراك للخطر الذي يهدد العالم المسيحي ، لكن القوى الغربية لم تعد تهتم ، إذ كانت تفرطها الأخيرة بالغة الحرارة ، وليس في الإمكان بحث الحماش الذي عمّل بتلك التحرية بعد هذه الكارثة . ودأب حتى البابا نفسه على أن يترك المكائد بلا توقف كي يحمل لاديسلاش الباوليتاني عمل سيحسموند بغض النظر عما سوف تفتته الحرب الأهلية من أضرار بدفاعات أوروبا الوسطى<sup>(٦٧)</sup> . أما الملك الفرنسي ، الذي وجد نفسه من سنة ١٣٩٦ إلى ١٤٠٩م سيد جنوا ، فكان قلقاً بما فيه الكفاية على مصير المستعمرة الجنوبية في سيرا الراجحة للقسطنطينية ، فأرسل المارشال بوسيكورت مع ألف ومائتي رجل إلى البوسفور سنة ١٣٩٩م ؛ فحال وجوده دون القيام بمحاولة غير متحمسة للهجوم على المدينة

(٦٦) Ibid. pp. 102-11.

(٦٧) *Atiya, Crusade in the Later Middle Ages*, pp. 463-4; Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles*, vi, 2, pp. 1253-4.



الإمبراطورية من جانب الأتراك ؛ لكنه سرعان ما انسحب عندما لم يجد من يحوله هو أو رحاله<sup>(٦٨)</sup> ثم إن الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني ارتحل إلى الغرب لتدوينه الأمان كما يطلب المساعدة ؛ وسُدد الإيطاليون لرونيهم مدى اليأس الذي وصل إليه ورويت القيصرية . وأعطاه دوق ميلانو هدايا رائعة كتي تناسب حاله مع مكانته ؛ واستقبل استقبالاً فخيماً في باريس ولندن ، غير أنه لم تعرض عليه مساعدة مادية ؛ ولم تبعاً به الباقية لأن مانويل كان بالغ الأمانة فلم يعد ياحتضن كنيسته لروما لإدراكه أن شعبه لن يصبر على ذلك . غير أنه في سنة ١٤٠٢م أسرع عساكره إلى عاصمته وقد أُنشئت صدره آباء تنشر فيما يبدو بالتهيار الإمبراطورية العثمانية<sup>(٦٩)</sup>.

#### تيمور الأعرج (تيمور ليك)

ولد تيمور ليك سنة ١٣٣٦م بالقرب من سمرقند ، أسيراً ضمن قبائل التشان من قرية الأتراك المغول ، وفي سنة ١٣٦٩م كان سيد جميع الأراضي التي تنتمي للفرع باغاناي المغولي ؛ ومنذ ذلك الوقت قُدِّمَ وسَّعَ أراضيه بخروب قاسية لا رحمة فيها بادئها بطيئة أول الأمر ، ثم بقوة دفع متزايدة . ومن سنة ١٣٨١م إلى سنة ١٣٨٦م اكتسح أراضي الخانية المغولية في فارس ، وفي ١٣٨٦ استولى على تبريز وتغليس ، وطوال السنوات الأربع التالية كان منشغلاً على حدوده الشمالية ، وفي سنة ١٣٩٢م استولى على بغداد . وفي السنوات التالية أثار على روسيا ضد مغول القبيلة الذهبية متوغلاً في الأراضي الروسية حتى موسكو ، وفي ١٣٩٥م ظهر في شرقي الأناضول حيث سقطت في قبضته أذربيجان وسيفاس ؛ وفي ١٣٩٨م استولى على شمال الهند في حملة رائعة زاد من فعاليتها منافع شنيعة . وفي سنة ١٤٠٠م استدار غرباً مرة أخرى وزحف على سوريا وهزم الجيوش الملوكية المرسله لمحاربه ، أولاً في حلب ثم في دمشق ، ثم أحل وحرب كل المدن الكبيرة في الأقاليم . وفي ١٤٠١م عاقب تمرداً حدث في بغداد بأن دمر المدينة تدميراً كاملاً وهي لم تكن تنهض من آثار غزو هولاكو قبل ذلك بقرن ونصف من الزمان . وفي ١٤٠٢م عاد إلى الأناضول وقد عقد العزم على أن يهزم السلطان العثماني الذي كان المعامل الوحيد الباقي الذي لم يلحق به الإهانة في العالم الإسلامي . ووقعت المعركة الخامسة في أفرقة يوم ٢٠ يولية ، هزم فيها بياتريد هزيمة

(٦٨) Atilya, op. cit. pp. 465-6; Vasiliev, op. cit. pp. 632-3.

(٦٩) Vasiliev, op. cit. pp. 631-4.

كاملة واقتيد أسيرا ومات في الأسر بعد ذلك بأشهر قليلة ، وفي تلك الأثناء سقطت مدن الأناضول العثمانية في قبضة الغازي الذي طرد فرسان المستشفى من أرضهم في ديسمبر ١٤٠٢م<sup>(٧٠)</sup>.

وكان في مأمول الامبراطور مانويل أن تكون الكارثة التي حلت بالسلطان بيزايد بمثابة نهاية الخطر العثماني ؛ غير أنه لم يكن من القوة بما يكفي لإنقاذ إحصاء دون مساندة . وكانت الجمهوريات الإيطالية قد انقلبت جانب الخضر ؛ إذ سارع أبناء جنسنا إلى عقد معاهدة مع تيمور للحفاظ على تجارتهم الآسيوية ، غير أنهم كانوا يشنون على تجارتهم في البلقان والمستقل أسامهم مشكوك فيه ، عاونوا في الحفاظ على القوة العثمانية بأن ساعدوا بقايا جيش بيزايد في الصور بجرا إلى أوروبا . أما الباقية فقد تناهوا عن ذلك<sup>(٧١)</sup> ، وكان لموقفهم الجار ما يبرره ؛ ذلك أن غزو تيمور قد حال في واقع الأمر دون قيام السلطان العثماني بمهاجمة القسطنطينية ، وساعد ذلك على بقاء بيزنطة لنصف قرن آخر ؛ ولو أن أوروبا كلها تدخلت في الحال لكان في ذلك نهاية الامبراطورية العثمانية ، بيد أن الأتراك كانوا مستقرين بأحسانهم في الأناضول وسياساتهم في البلقان فلم يكن من اليسر اقتلاعهم ؛ كما لم يكن لتيمور ما كان لجنكيز خان من عبقرية سياسية . وعندما مات تيمور سنة ١٤٠٥م بدأت امبراطوريته تتفكك في الحال . وسرعان ما استعاد اللياليك سوريا ، وفي أذربيجان نهضت أسرة حاكمة من تركمان الأفغان السود وأقامت لها سلطاناتا تمتد من الأناضول إلى بغداد . وكانت هناك في فارس إرهابيات وعلمية سرعان ما أدت إلى ظهور الأسرة الحاكمة الصفوية . وفي ما وراء النهر<sup>(٧٢)</sup> استمرت ذرية تيمور لما يقرب من قرن ولم يؤسسوا امبراطورية دائمة إلا في الهند باسم مغول دلهي العظام<sup>(٧٣)</sup>.

وفي الأناضول ، كان الأثر الوحيد والأخير لغزو تيمور هو التدفق الجديد للأتراك

(٧٠) للإطلاع على سيرة تيمور أنظر: Beauv, *L'Empire Mongol, 2<sup>e</sup> phase, passion*, esp. pp. 58-63.

(٧١) Heyd, op. cit. II, pp. 65-7.

(٧٢) (الترجم) ما وراء النهر: Transoxiana or Transcasia: إقليم إيراني في وسط آسيا شرق نهر جيحون (Amu Darya (Oxus River) ، وغرب نهر جيحون (Syrdarya (Jaxartes River) وهي حاليا في جمهورية أوزبكستان وأجزاء من جمهوريات تركمانستان وكازاخستان . كان مركزا معارضا عظيما في القرن الخامس عشر ومركز الإمبراطورية التيمورية.

(٧٣) Beauv, op. cit. pp. 84 ff.

والزكمان ومن ثم تعزيز حضور القوة العثمانية . وعندما مات تيمور تولى أولاد صبازيد ميراث أبيهم . وراحوا بحاربون بعضهم البعض لست سنوات ، وتباحث المحرورب الأهلية للقوى المسيحية فرصة أخرى لوقف مزيد من النمو في القوة العثمانية ، إلا أن القوى المسيحية لم تهتبل هذه الفرصة . واستعاد الامبراطور البيزنطي بديلماسيته قليلا من المدن الساحلية ، وشجع لفرسان رودس بناء حصن على الأرض الرئيسية المواجهة لجزيرتهم ، في بودرون ، وهي هاليكارناسوس القديمة . ولم يُكسب شيء آخر . وعندما أصبح عماد الأول السلطان الوحيد سنة ١٤١٣م ، كانت الإمبراطورية العثمانية سليمة لم يحسها أذى . وكان عماد حاكما مسالما يجنب الحروب العدوانية ، وقد أعاد تنظيم سلطانه في حزم ؟ وعندما مات سنة ١٤٢١م كان العثمانيون أقوى من ذي قبل<sup>(٧١)</sup>.

#### ١٤٤٤م : الحملة إلى فارنا

بدأ خليفة عماد الأول ، مراد الثاني ، عهده بمحاولة الاستيلاء على القسطنطينية ، بيد أنه كان ما يزال يفتقر إلى المدفعية الثقيلة والسفن . وبعد أن دافع البيزنطيون عن عاصمتهم في شجاعة بدون مساعدة خارجية ، من يونيو إلى أغسطس ١٤٢٢م ، تنحى مراد عن الحصار وركز انتباهه على غزوات في شبه الجزيرة اليونانية ، وفي آسيا ، وفي القنوب<sup>(٧٢)</sup> . وفي مجمع فلورانس الذي عقد في ١٤٣٩م وافق الامبراطور جون الثامن - خليفة مانويل - في حالة من اليأس على إخضاع كنيسته لروما ، وأنكر شعبه هذا الاتحاد ، وكانت مكافأته ضئيلة في المقابل<sup>(٧٣)</sup> . وفي ١٤٤٠م نادى البابا إيريدينوس الرابع بحملة صليبية جديدة ؛ وبعد ذلك بأربع سنوات أعلن الزعيم الألباني سكاتادريج الحرب على الأتراك وانضم إليه سيده ملك الصرب جورج ، ووعد البابا نفسه وملك لرامون بأن يرسل كل منهما عشرة غلايين إلى الشرق ؛ وقام إرين سيجيسموند من السفاح ، جون كورفينوس ، الملك الهنغاري ، حاكم ترانسيلفانيا باسم الملك فلاديسلاف ، باعداد العدة للقيادة الجيش لفتحاري عبر القنوب . بيد أنه بعد مناورات قليلة شعر الحلفاء باليأس ووافقوا على هدنة لعشر سنوات تم التوقيع عليها في

<sup>(٧١)</sup> Hammer, *Histoire de l'Empire Ottoman* (trans. Helbert), II, pp. 120 ff.

<sup>(٧٢)</sup> Ibid. II, pp. 159 ff.

<sup>(٧٣)</sup> Vasiliev, op. cit. pp. 672-4.

زنجيدى فى يونيو ١٤٤٤م<sup>(٧٧)</sup> ثم أعد مراد الحدة للإعداد بجيشه للتعامل مع أعداءه فى الأناضول ؛ وعلى الأثر فتح المدون البابرى المصاحب للجيش - الكاردينال حوليان سيزارىنى - قادة الجيش بأن القسم الذى يُقسم لكافر يُعدّ غسما باطلا، وجنهم على التقدم. ورفض ملك الصرب الأرثوذكسى هذه الفتوى وأعلن أنه لن يسمح لترعيم الألبانى سكندربرج بالبقاء مع الجيش ، واعرض جون هونيدى على الفتوى ولكنه ظل فى موقع المهادنة ؛ وقاد جيش التحالف المؤلف من عشرين ألف جندي تقريبا إلى فارنا حيث وصلوا فى وقت مبكر من نوفمبر ١٤٤٤م ؛ وعلى إثر التجهيزات التى حاصرت مراد عن انتهاكهم للمعاهدة ، سارع إلى مقابلتهم على رأس جيش يفرق جيشهم ثلاثة أضعاف . ونشبت المعركة فى العاشر من نوفمبر . وفاز المسيحيون بشجاعة ، وكان مراد قد علم المعاهدة المنتهكة فى رايته وهو فى المعركة ، وفى اللحظة الحاسمة كان صوته يندى قائلا : "يا مسيحي ، إن كنت ربما كما يدعى أتباعك ، فصاحهم على تقضيم العهد" ، واستجيب دعاؤه وانتصر جنوده ؛ وكان الحلفاء المسيحيون أن يبادوا ، وقتل الملك فلاديسلاف الذى كان مع جنوده ، كما قتل الكاردينال الحضور . وهرب هونيدى مع حفنة من بقايا جيشه<sup>(٧٨)</sup>.

وترتب على ما بذله سكندربرج من جهود شجاعة انقاذ استقلال ألبانيا لعشرين سنة أخرى ؛ وعلى الرغم من لفظة الفاجعة التى لحقت بجون هونيدى فى معركة الأيام الثلاثة فى ساحة كوسوفو للشوومة سنة ١٤٤٨م ، فقد حال بين السلطان وعبور البانوب طوال حياته<sup>(٧٩)</sup> على أنه عند وفاته سنة ١٤٥٦م ، كان الأتراك قد حققوا ما كان يتطلع إليه العالم الإسلام منذ أيام النبي ﷺ. ذلك أنه فى سنة ١٤٥١م كان مراد الثانى قد خلفه ابنه محمد الثانى ، وهو شاب فى الحادية والعشرين من عمره. ذو طاقة وإقدام واقتدار لا تحدهما حدود ، وقد حدد لنفسه هدفه الأول ، ألا وهو الإستيلاء على القسطنطينية . ولا مجال فى هذه الصفحات لسرد القصة الرائعة الفاجعة لآخر أيام بيزنطة . فأما اليونانيون ، الذين انقسموا على أنفسهم فى معاداتهم لحكامهم الذين باعوا كنيستهم لروما ، فقد انتظروا فى شجاعة فائلة لاحتفال الألف الأخير ؛ ولما العرب فقد أرسل من عونا خشيلا ما يبحث على البأس على ما فيه من اقدام ؛ وكما

(٧٧) Hanner, op. cit. ii, pp. 288-302.

(٧٨) See Hölck, The Crusade of Varna, passim.

(٧٩) Hanner, op. cit. ii, pp. 322-7.

السلطان ، فكان له من وفرة الموارد وحسن الاستعداد وغلبة الإدارة، ما جعل العصر مآله . وما كان انتصاره انتصاراً لهيبته وحسب ، فقد كانت بزنطة تختصر منذ وقت طويل ، وحتم موتها دوام بقاء الأتراك في أوروبا . ومكثهم من السيادة على البحار الشرقية ، وكان يؤذن بانتقضاء امبراطوريتي جنسوا والبندقية ، ومملكة قبرص ، وفرسان المستشفى في رودس ، وأتاح للسلطان حرية الاندفاع نحو برصه حتى يوابات فيينا<sup>(٨٠)</sup>.

#### ١٤٦٤م : البابا بيوس الثاني آخر الصليبيين

تحقق الجميع في سائر أنحاء أوروبا من أن سقوط القسطنطينية كان علامة على انتهاء عصر . ولم يكن نبأ سقوطها غير متوقع ، وإن أدى إلى ندم مرير . ومع ذلك ، ومخلاف الأمراء الذين تنهدوا الأحمقار حدودهم مباشرة ، لم يعبأ أحد بأن يتخذ إجراء سوى الكاردينال تومسيو في ألمانيا ، وهو عالم الإنسانيات الكبير إيسلم سيكفيوس ، الذي حاول إقناع الغرب لأداء واجب تأخر عن مواعده . بيد أن خطبه التي ألقاها في المجلس الألماني لم تسفر عن شيء ، وأبانت خطباته التي أرسلها إلى البابا عن خلاصه من الهم . وفي ١٤٥٨م أصبح هو نفسه البابا تحت إسم بيوس الثاني ، ودأب طوال فترة بابويته على أن يخلق من جديد حملة صليبية على غرار ما كان يرسله أسلافه ، وفي ١٤٦٣م بدأ أن مشروعه على وشك بلوغ الغاية فقد جاء اكتشاف مناجم النشء في الولايات البابوية في الوقت المناسب لتزويده بعوائد غيرة متوقعة تهدد بكسر احتكار الأتراك للنشء . وكان دمج البندقية الجديد بؤيد الحروب على ما يبدو ؛ وكان ملكه هتاجاً قد سالم الامبراطور أخيراً ، فبات توافها إلى تحالف مسيحي ، وأظهر دوق برجندي ، جون العقيب ، اهتماماً مرتعياً . وقد كان القرار الكسبي الصادر في أكتوبر بمثابة انعكاس للتداول البابوي . على أنه بمرور الشهور حيث جذوة الحملان ، ولم يقدم للبابا مساندة مادية سوى الفتحاريين اللذين كانوا يراجهون حرباً تركية على نحو أو آخر . وتردد البنادقة ؛ ولم تكن أي من المدن الإيطالية على استعداد للمحافظة عما سوف يجلبه قطع العلاقات مع السلطان من ضياع للتجارة . وكتب دوق برجندي بأن مكافئ ملك فرنسا تجعل من المستحيل عليه مغادرة أراضيها ؛ وقرر البابا بشجاعة أنه سوف يمول الحملة الصليبية ويقودها بنفسه ؛ وبناء على أوامره استجمع وكلاؤه أسطولاً من

(٨٠) لا يزال نقول تاريخ سقوط القسطنطينية هو ما أورده Pears في "سقوط الإمبراطورية البيزنطية" The Destruction of the Greek Empire, pp. 237 ff. See also Van Lier, op. cit. pp. 647-55

الغلايين في أنكونا ؛ وفي ١٨ يولية ١٤٦٤م ، وبرغم ما كان يبدو عليه من الإتهام  
وضعف الصحة ، أخذ الصليب في وفار أثناء قداس في كنيسة القديس بطرس.

وبعد أيام قليلة انطلق قاصدا ميناء الإيمار . ورأى فيه المخطون به رجلا ميتا ،  
واستقوا عنه حقيقة موطنها أنه لم ينجُ حذوه أي من أسراء أوروبا ، وأنه ليست هناك  
جيوش تزحف وراءه إلى البناء لركب غلايينه المنجحة إلى الشرق ؛ بل إنهم عندما  
اقرب من ميناء أنكونا أسدلوا ستائر صفته حتى لا يرى الطرقات وقد اكتظلت بحجارة  
أسطوله بعدما هجروا سجنهم وقد غلبوا السور عائدتين إلى أوطانهم . ووصل أنكونا يوم  
١٤ أغسطس ، لا شيء إلا ليموت فيها . وخلفه الرحمة بأن عثقت عليه حقيقة انهيار  
حملته الصليبية الهيارها تمام<sup>(٨١)</sup>.

وقبل أربعة قرون تقريبا ، كان تيسر البابا إيرمان الثاني بالحملات الصليبية يرسل  
الرجال بالآلوف عاظرين بغياتهم في الحرب المقدسة ؛ أما الآن ، فكان كل ما في وسع  
البابا ، الذي أخذ هو نفسه الصليب ، أن يجمع حفنة من المرتزقة الذين هجروا القضية  
من قبل أن تبدأ الحملة . لقد ماتت الروح الصليبية.

(٨١) For Pius II see Aliya, op. cit. pp. 227-30, Hefele-Lecroq, *Histoire des Conciles*,  
vii, 2, pp. 1291-352.

---

## الفصل الثاني:

### إجمال



100%

## إجمال

"والذي يزيد علما يزيد حُزنا"  
(إجماعة ١ : ٨١)

كانت الحملات الصليبية قد أطلقت لإنقاذ العالم المسيحي الشرقي من المسلمين ؛ وعندما انتهت الحملات الصليبية بات العالم المسيحي الشرقي كله تحت حكم المسلمين. وعندما خطب البابا ليربان عظيمه العظيمة في كليرمونت بدأ الأتراك وقد أوشكوا على تهديد البوسفور ، وعندما بشر البابا بيوس الثاني بأمر حملة صليبية كان الأتراك يعبرون نهر الدانوب . ومن بين أمر التماس التي ألغرتها الحركة أن سلطت جزيرة رودس في أيدي الأتراك سنة ١٥٢٣ م ؛ كما قرص ، فقد دمّرتها حروبها مع مصر وجنوا إلى أن ضمها البندقية ، ثم آلت في نهاية الأمر إلى الانسحاب كذلك سنة ١٥٧٠ م ؛ ولم يبق لغزاة الغرب سوى حفة من الجور البوتانية غلّت البندقية تحتفظ بها بصورة مقلقة . ولم يتوقف التقدم التركي بأي جهد متناقص بذله العالم المسيحي ؛ وإنما أوقفته اقرب

الدول اعتمادا بالقضية وهي البندقية وامبراطورية هابسبورج<sup>(١)</sup>، بينما دأبت فرنسا ، وهي الزعيم القديم للحرب المقدسة ، على مساندة الكفرة . ولقد بدأ انهيار الإمبراطورية العثمانية لنشلها في إبعاد حكومة على كفاية تعيينها على إدارة ممتلكاتها الشاسعة ، إلى أن باتت غير قادرة على أن تصمدى لطبوحات حرائقها ولا أن تحشد الروح الوطنية في رعاياها للمسيحيين ، وهي الروح التي يرجع الفضل في بقائها للكنايس التي حاول الصليبيون جهنم التدمير استقلالها.

ولست الحركة الصليبية برمتها ، من المنظور التاريخي ، سوى إحقاق تمام ذلك أن يحاح الحملة الصليبية الأولى ، وهو عبارة معجزة ، أو يكاد ، قد أنشأ الدويلات الفرعية في كورنيجي ؛ وبعد ذلك بقرن من الزمان ، عندما بدأ أن كل شيء قد ضاع ، جاءت الحملة الصليبية الثالثة بمعهدا الشجاع لحفاظ على تلك الدويلات لثلاثة عام آخر . على أن مملكة القدس الضعيلة وأمواتها الإمارات كانت تنحس وإعيا لطاقة لها حماس كبير . فطوال ثلاثة قرون لم يكدها ذلك زعيم في أوروبا إلا وأقسم بحمل في وقت ما على الذهاب إلى الحرب المقدسة ؛ ولم يكن هناك بلد تقاس عن إرسال الجنود للحرب من أجل العالم المسيحي في الشرق ؛ وكانت القدس في ذهن كل رجل وكل امرأة ؛ ومع ذلك ، كانت اليهود المبدولة للإستيلاء على المدينة المقدسة أو لاستعادتها بحكمها القوي والبلادة على غير خاص . ولم يكن لتلك اليهود ما كان يُرعى من الأوروبيين الغربيين من أثر على التاريخ العام . إن عصر الحملات الصليبية وأحد من أهم المعصور في تاريخ الحضارة الغربية ؛ فعند بدايته ، كانت أوروبا الغربية تنهض لتوها من فزة طويلة من الغزوات البربرية التي نطقت عليها المعصور للظلمة ، وعند نهايته ، كانت الزهرة العظيمة التي نطقت عليها "النهضة" قد بدأت تنفتح لتوها ؛ غير أننا لا نستطيع أن نعزو أي شق من هذا التطور إلى الصليبيين مباشرة ، فلا شأن للصليبيين بما ساد الغرب من أمن جديد ممكن التعثر والدارسين من الإرتحال كما يملو لهم . لقد أتاحت بالتفعل إمكانية الحصول على ما تنهض إليه العالم الإسلامي من علم عن طريق أسبانيا ؛ وكان الطلاب ، مثل جريرت (أوف أوريلاك)<sup>(٢)</sup>، يرتادون مراكز

(١) (الترجم) هابسبورج : Hapsburg إسم أسرة حاكمة سكبت فرنسا ثم النمسا والمجر (١٢٧٨-١٩١٨) وأسبانيا (١٥١٦-١٧٠٠) والإمبراطورية الرومانية المقدسة (١٢٧٨-١٨٠٦)

(٢) (الترجم) جريرت (أوف أوريلاك) : Gerbert of Aurillac هو البابا سيلستور الثاني Sylvester II ، ولد في ٩٤٥ تقريبا في أوريلاك بفرنسا ، ومات يوم ١٢ مايو ١٠٠٣ م في روما . اشتهر بالقرارة الدراسية ومخاللات الشفم التي أدخلها في التعليم ، وأسبغته السياسية القيصرة



التعليم الأسبانية . وطوال الحقبة الصليبية ذاتها ، كانت صقلية ، وليس أراضى أوترنجيه ، بمثابة مكان اللقاء الثقافي العربية واليونانية والغربية ؛ ومن الناحية الفكرية لم تنصف أوترنجيه شيئا على وجه التقريب<sup>(٢٣)</sup> . وليس أدل على ذلك من أن رجلا له وزنه مثل القديس لويس يحضى سنوات عدة هناك دون أن تنضج شيئا إلى نظريته الثقافية . وإن كان الامبراطور فريديريك الثاني قد اعتمد بالحضارة الشرقية ، فإنها يعزى ذلك إلى نشأته في صقلية . ولم تسهم أوترنجيه في تقدم الفن الغربي ، خلا عما لم الحضارة العسكرية ، وربما في تقديم القوس المدبب وفي مجال فن الحرب - بخلاف بناء الحصون - أظهر الغرب القوة تلو الأخرى أنه لم يتعلم شيئا من الحملات الصليبية ؛ إذ تكررت نفس الأخطاء في كل حملة من الحملة الصليبية الأولى إلى حملة نيكوبوليس الصليبية . لقد كانت ظروف الحرب في الشرق تختلف اختلافا شاسعا عنها في أوروبا الغربية بحيث كان الفرسان المقيمون في أوترنجيه هم الذين اعتنوا وحدهم بأسلحة الحروب السابقة . ومن الجائز أن يكون مستوى المعيشة العام في الغرب قد ارتفع نتيجة لرغبة الجنود والحجاج المعاندين في تقليد لوجته الفارحة التي لمسوها في أوترنجيه ؛ على أن التجارة بين الشرق والغرب لم تكن تعتمد عليهم في وجودها ، برغم ازديادها نتيجة للحملات الصليبية.

#### الحملات الصليبية والبابوية

و لم تترك الحملات الصليبية بصماتها إلا على بعض جوانب التطورات السياسية لأوروبا الغربية . ذلك أن أحد الأهداف التي أعرب عنها البابا إيمان في تيشويه بالحملات الصليبية هو أن يجد البازونيات المشاغبون المخاريون شيئا مقبدا يفعلونه بدلا من إتفاق طاقاتهم في الحروب الأهلية في الوطن ؛ وليس هناك من شك في أن إزاحة قطاعات كبيرة من ذلك المنصر المباح وإرساله إلى الشرق قد ساعد على تنامي السلطة الملكية في الغرب ، مما كان له أكبر الآثار الضارة بالبابوية . على أن البابوية ذاتها قد أصابت هائلة في الوقت نفسه ؛ ذلك أن البابا قد أطلق الحملة الصليبية كحركة مسيحية دولية تحت قيادته ، وكان لنجاحها الأول أن ازداد كثيرا من سلطته ومكانته . وكان الصليبيون جميعا ينتمون إلى رعيته ؛ وفرواقتهم هي غزواته . ولأن البطريرقات القديزة في أنطاكية والقدس والقسطنطينية أئدرجت تحت سلطانه الواحدة تلو

(٢٣) لاجتماع على حياة أوترنجيه المذكورة نظر أدناه لمرق الثاني.

الأخرى ، فقد بدا أن مطالبته بأن يكون رئيس العالم المسيحي كان لها ما يبررها . وفي الشؤون الكنسية السبع سلطانه الساعا كثيرا ؛ فقد اعترفت المذامع التي تعتقد في أي مكان من العالم المسيحي بسيادته الروحية ؛ وكان المبشرون التابعون له يرتحلون إلى أنفاس الأرض كاثوليكيا والصين . وكانت الحركة كلها بمثابة حافز لتنظيم المحكمة العليا البابوية على أساس دولي يتجاوز للغاية عما كان عليه فيما سبق ، وقد لعبت دورا كبيرا في تطوير القانون الكنسي<sup>(١)</sup>. ولو أن البابوات قدموا بمصداق الشائع الكنسية وحسب، لتوفر لهم الثور القوي للرضا عن أنفسهم ؛ بيد أن الآونة لم تكن مهتمة بعد للتفصيل الواضح بين السياسة الدينية والدينية ؛ وفي السياسة الدينية اعترى البابوية خداع النفس ؛ فليست الحملة الصليبية جديدة بالاحترام إلا إذا كانت موجهة ضد الكفرة ؛ والحملة الصليبية الرابعة تم ترحيبها ، إن لم يكن لبشرها ، ضد مسيحي الشرق ، تلتهما حملة صليبية ضد هراقلية جنوب فرنسا ومن أنشئ التعاطف معهم من النبلاء ، وأعقب ذلك حملات صليبية تم التبشير بها ضد هرهشتوف ؛ إلى أن انتهى الأمر بالحملة الصليبية على أنها تعنى أية حرب ضد أعداء السياسة البابوية ، واستخدمت ما تملكه الكنيسة من روحانيات غفرانية وثواب أسري لدعم طموحات الكرسي البابوي. وأفلح البابوات في تدمير أباطرة الشرق والغرب على السواء ، مما زج بهم في أوضاع مشيئة في الحرب الصليبية والأسر الألبانيون. لقد غلقت الحرب المقدسة لتصبح مسرحية هزلية مأساوية.

#### الحملة الصليبية والإسلام

وبغض النظر عن الساع سلطنة روما الرومانية ، فإن أهم فائدة حصل عليها العالم المسيحي الغربي من الحملات الصليبية كانت فائدة سلبية . ذلك أنه قبل ابتداء الحملات الصليبية كانت أهم مراكز الخطاسة في الشرق متمركزة في القسطنطينية وفي القاهرة ، وقبل انقضائها نقلت الخطاسة مراكزها إلى إيطاليا وبلدان الغرب الصغيرة . ولم تكن الحملات الصليبية السبب الوحيد لإضمحلال العالم الإسلامي ؛ فالغزوات التركية دمرت فعلا الخلافة العباسية في بغداد ، وحتى بدون الحملات الصليبية كان لا بد للغزوات التركية أن تسقط في نهاية الأمر الخلافة الفاطمية في مصر؛ ولولا استغزات الحرب المتواترة ضد الفرنج لإكتمل اندماج الأتراك في العالم

(١) See Ullmann, *Medieval Papacy*, pp. 120-1, 128-9.

الغربي ولقدسوا له حيوية وقوة جديدين دون تدمير وحدته الأساسية . وكانت الغزوات للغولية أشد تدميراً للحضارة العربية ، وليس في الإمكان إلقاء اللوم على الحملات الصليبية لمجرد المغول . على أنه لولا الحملات الصليبية لكان العرب أقدر بكثير على التصدي للعدوان المغولي ، وكانت الدولة الفرنجية الدعيلة بمثابة قرح متفتح لا سبيل للمسلمين إلى نسيانه ؛ ومثلما شغلهم القرح فلا سبيل قط لأن يركزوا كل انتباههم على المشاكل الأخرى.

يبد أن الضرر الحقيقي الذي ألحقته الحملات الصليبية بالإسلام كان أكثر خطراً . كانت الدولة الإسلامية قائمة على الحكم الديني ، ويتوقف صلاحها السياسي على الخلافة المشتقة في حط من الملوك الدينيين وعبثهم الأعراف استخفافاً وراثياً . ولقد جاء الهجوم الصليبي عندما كانت الخلافة العباسية عاجزة سياسياً كجفافها عن قيادة الإسلام للتصدي له ؛ ولم تستطع الخلافة الفاطمية - بالنظر إليها من منظور يتخالف التطور السني - أن تسيطر على نطاق واسع يغطي ما يكفي من الولاء . وكان الرجال الذين نهضوا لإحباط الفرقة بالمسيحيين ، مثل نور الدين وصلاح الدين ، شخصيات بطولية جسورة تالت الإحترام والولاء ، ذلك أنه لم يكن ممكناً قط قبول الأيوبيين ، برغم ما كانوا عليه من المناد بالبح ، كأعلى قيادة للإسلام لأنهم ليسوا بملأء ؛ ولم يكونوا من نسل النبوة ولم يكن لهم مكان ملائم في الحكم الديني الإسلامي . ولقد يسر تدمير المغول لعدد مهممة المسلمين على نحو كرو آخر ؛ فقد تمكن المماليك من إقامة دولة دائمة في مصر لأنه لم يعد في بغداد خلافة شرعية ، سوى عهد مصطفع قابع في الظل تحت الحجر التشريفي في القاهرة . وفي نهاية الأمر حل سلاطين آل عثمان المشكلة بأن تولوا الخلافة هم أنفسهم ؛ وقبلهم للمسلمون لشدة قوتهم ، ولكنه لم يكن قبولاً بكل الإخلاص لأنهم كانوا كذلك مختصين ولا يتسبون إلى بيت النبوة . ولقد صمحت المسيحية منذ البداية بالتفصيل بين ما لقيصر وما للرب ، ومن ثم ، لم تفقد المسيحية حيويتها عندما انهار مفهوم مدينة الرب السياسية غير المقسمة الذي كان سائداً في العصر الوسيط ، لم تعطل حيويتها ؛ لكن الإسلام وحده سياسية ودينية فسي أن واحداً وقد تصدعت هذه الوحدة قبل الحملات الصليبية ، وقد تسببت أحداث تلك القرون في توسيع الصدع بحيث لم يكن هناك سبيل إلى رتقه . وقد أنجز سلاطين عثمان العظام إصلاحاً سطحياً ولكن إلى حين ؛ فقد دام الصدع حتى يومنا هذا.

غير أن الضرر الأكبر تمثل فيما تركته الحرب المقدسة من آثار على روح الإسلام . فأي دين يقوم على أساس تنزيلي شامل لابد من أن يظهر بعض الإزدراء لغير المؤمنين ؟

ولكن الإسلام لم يكن متعصبا في أيامه الأولى ؛ واعتبر النبي أن اليهود والمسيحيين تلقوا شيئا من التنزيل ولذلك لا ينبغي اضطهادهم ؛ وفي ظل الخلفاء الأوائل لعب المسيحيون دورا مشرفا في المجتمع الإسلامي ، وكان هناك عدد كبير لاقى للنظر من المفكرين والكتاب العرب من المسيحيين الذين قدموا دافعا فكريا مقبولا ؛ ذلك أن المسلمين ، باعتمادهم على كلام الله ، انصرفوا بكل وقتهم وجهدهم إلى القرآن ، وركبوا إلى السكون ولم ينهضوا بتفكيرهم مذاهب شتى. كما أن التنافس بين الخلافة وبيزنطة المسيحية لم يكن يخلو من الورد ؛ فقد كان المدارس والتفكير في جبهة وذهوب بين الإمبراطوريتين مما عاد بالفائدة المتبادلة . وكان في الحرب المقدسة التي بدأها الفرنج دمار تلك العلاقات الحسنة ؛ وما أظهره الصليبيون من تعصب وحشي ود عليه المسلمون بتعصب أعمى في النزاع ، أما ما كان يتحلى به صلاح الدين وأسركه من إنسانية واسعة الأفق ، فسرعان من صاق نفاقه وأصبح شيئا نادرا بين المؤمنين. وبحلول عصر المماليك بات المسلمون كالمصلبيين على نفس القدر من ضيق الأفق ، وكان رعاياهم المسيحيون من بين أول الذين عاثوا ؛ ولم يستعيدوا قط ما ساد بينهم وبين جيرانهم وأسيادهم المسلمين من ألفة ؛ فحيت حياتهم الفكرية ، وانطلقا معها ما كان لها من تأثير واسع على الإسلام . وباستثناء فارس بما لها من تقاليد هرطيقية مزعجة ، تولى المسلمون حلف أشر عقيدتهم ؛ وليست العقيدة التعصبة بقادرة على التقدم.

#### الحملات الصليبية والعالم المسيحي الشرقي

كان ما ألحقته الحملات الصليبية من ضرر بالإسلام ضيالا بمقارنته بما ألحقته من أضرار بالعالم المسيحي الشرقي . وقد أسر البابا إيريمان الثاني الصليبيين بالذهاب إلى الشرق هونا واستنقذا لمسيحي الشرق ؛ وكان استنقاذا غريبا ؛ إذ عند اتهامه كان العالم المسيحي الشرقي يعيش في ظل سيطرة الكفرة ، ولم يرد ما بذله الصليبيون من جهد جهيد إلى تقليصه. وعندما استقر الصليبيون في الشرق لم تكن معاشهم أربابهم المسيحيين بأفضل مما كان يفعل الخليفة من قبلهم ، ولا شك في أن الصليبيين كانوا في واقع الأمر أشد قسوة لأنهم تدعوا فيما كانت تمارسه الكنائس المحلية من ممارسات دينية ؛ وحينما طردوا تركوا المسيحيين المحليين بلا حماية يتحملون مسخطة الغزاة المسلمين . وبما لا خلاف عليه أن المسيحيين الوطنيين تلقوا الصاع صاعين من هذا المسخطة بسبب اعتقادهم الجاثس بأن الغزاة سوف يعطونهم الحرية الدائمة التي لم



بمصلوا عليها من الأتراك ، وكان عقابهم قاسيا وكاملا ؛ إذ أنقذتهم القيود القاسية والمهانة، وانتهى بهم الأمر إلى العياض. حتى أراضيهم لم تسلم من العقاب ؛ فقد حُرِبَ الخط السورى الساحلى الجليل واستحال قفرا . أما المدينة المقدسة ذاتها فقد عرقت مهتلة في اضمحلال طرل لا اطمئنان فيه.

وواكبت مأساة المسيحيين السريان فشل الحملات الصليبية ؛ لكن تدمير بيزنطة ترتب على سوء تية عمدي . إن الكارثة الحقيقية للحملات الصليبية تتمثل في عزز العالم المسيحي الغربي عن فهم بيزنطة. وطوال العصور كان هناك دائما سياسيون آمنون يعتقدون أن شعوب العالم سوف يتحابون ويتفاهمون لو أنهم تفاهروا . وذلك وهم مأساوي . ذلك أنه طالما كان هناك تفاعل بين بيزنطة والغرب ، وإن قل ، ظلت العلاقة بينهما علاقة ودودة ؛ وقد وجد الحجاج المرتزقة الغربيون الترحيب في المدينة الامبراطورية وعادوا إلى أوطانهم بقصص الكبر عن روايتها ، غير أنهم لم يكونوا كثيرة يمكنها أن تحدث تلاحيا؛ وكان هناك بين الامبراطور البيزنطي والقوى الغربية ما يثقلون عليه أحيانا؛ فكان موضوع الخلاف ينتهي في الوقت المناسب أو تبتكر مهادنة صيغة ما لتخزينه . وكانت هناك مسائل دينية مستتبعة يداقم من حلها مطالب البيروسة المقدنراتية<sup>(٥)</sup>؛ وحتى مع ذلك ، كان بالإمكان الاتفاق على بعض ترتيبات العمل . على أنه في وجود إصرار من النورماندين على التوسع في شرق البحر المتوسط ، بدأ عصر جديد باعث على الللق . وتناطحت المصالح البيزنطية في صراع حاد مع مصالح الغرب، وقد تم صد النورماندين ، وأطلقت الحملات الصليبية كحركة مصالحة. على أنه كان هناك سوء فهم منذ البداية ؛ إذ ظن الامبراطور البيزنطي أن واجب المسيحي المحافظة على حدوده لتكون بمثابة الحصن ضد الأتراك الذين اعتبر أنهم هم الأعداء ؛ وكان الصليبيون يرغبون في مواصلة التقدم حتى الأراضي المقدسة ؛ إذ حاربوا لينصلوا في حرب مقدسة ضد الكفرة من كافة الأجناس . وبينما فشل قادة الصليبيين في تفهم سياسة الامبراطور ، وجد الأتراك من الخنود والحجاج أنهم في أرض يداقم فيها أن اللغة والعرف والدين أشياء غريبة تستعصى على فهمهم ومن ثم فهم في المكان الخطأ؛ لقد توقعوا أن يجدوا الملاحين والمواطنين في الأراضي التي يحرون فيها لا يخالطونهم

(٥) (الترجم) المقدونية نسبة إلى البابا Eudokimos وهو البابا جرجوريوس السابع (١٠٧٣-١٠٨٥) ويتنهر بصراره لفرط على سلطة الكنيسة . أصبح الكنيسة وأرض البيروية (بحر الدانوب) الكنيسة ويعودها وطره الامبراطور هري الرابع من كنيسة برلين ، وأعطى كنائس الامبراطور من شولاه له

وحسب، وإثنا يرحلون بهم كذلك ؛ لقد أصابهم حيرة أمل مزدوجة ؛ ولأنهم قاتلهم أن يتركوا أن ما أتوه من سرقة وما اعتادوه من تقريب، لم يكن ليكنسهم إعجاب ضحاياهم أو أحزانهم ؛ فقد شعروا بالأذى والغضب والحقد ؛ ولو قد أتيح الإختيار للحندي الصليبي العادي ، لاختار مهاجمة القسطنطينية وتربيتها قبل ذلك بكثير. غير أن قادة الحملة الصليبية كانوا ينادى الأمر مدركين غاية الإدراك لواجبهم المسيحي وسيطروا على أتباعهم ، ورفض لويس التاسع قبول ما تصح به بعض نبلاته وأساقفته من حمل السلاح ضد المدينة المسيحية ؛ ورغم أن هذه الفكرة دأبت فريديريك بارباروسا ، إلا أنه سيطر على محالك نفسه وتجاوز المدينة . وترك أمر مهاجمتها للأوغاد الخشعين الذين وجَّهوا الحملة الصليبية الرابعة ، فاستهزوا فرصة ضعف بيزنطة للوقت لاحتلوا تدميرها ونفذوه.

#### دمار بيزنطة

كانت امبراطورية القسطنطينية اللاتينية ، وقد تصور الغربيون أنها آتية ، طغيا سلبيا للغرب الذي دفعه الخرس على رعايته إلى التضحية باحتياجات أبنائه في الأراضي المقدسة . وكان الباباوات أنفسهم متلهفين على إبقاء اليونانيين الكاثوليك تحت سيطرتهم الكنسية أكثر من تلهفهم على إنشاء القدس ؛ وعندما استعاد البيزنطيون عاصمتهم ، دأب كبار الكهنة والسياسيون الغربيون سواء بسواء على العمل الجاد معا لاستعادة السيطرة الغربية . إن الحملات الصليبية لم تعد حركة لحماية العالم للمسيحي، وإثنا أصبحت حركة لإقامة سلطة الكنيسة الرومانية.

لقد كان إصرار الغربيين على غزو أراضي بيزنطة واستعمارها بمثابة كارثة على مصالح أوترقيه ؛ بل كانت كارثة أكبر على الحضارة الأوروبية ؛ وكانت القسطنطينية ما تزال مركز العالم المسيحي المتحضر . ونرى في صفحات وليلهاردوين الأثر الذي طبعته على القرسان الآتين من فرنسا وإيطاليا للإستيلاء عليها ؛ لم يكن عقدهورهم أن يصدقوا أن مثل هذه المدينة الضخمة موجودة على ظهر الأرض ؛ لقد كانت دون المدن

كلها المحاصرة الشديدة<sup>(١)</sup>، ولم يكن رجال الحملة الصليبية الرابعة - كشأن أغلب الغزاة الوافرة - يتوون تدمير ما وجدوه، وإنما كانوا يرغبون في المشاركة فيه والسيطرة عليه، بيد أن ما كان يتسلط عليهم من حشع وحرق ساقهم إعمال معول التخريب في المدينة حتى دمروها تدموا. وكان الباقية دون غيرهم، بما هم عليه من قدر أعلى من الإستتارة، هم الذين تعرفوا على أكثر الأشياء نفعا فأقتنوها؛ ولقد حصدت إيطاليا في الواقع بعض النافع من اضمحلال بيزنطة وسقوطها، وأما الفرنج الذين استوطنوا الأراضي البيزنطية، وبرغم ما أوجدوه في تلال اليونان وأوديتها من حروبة رومانية مصطنعة، فقد استمسى عليهم أن يلهموا تقاليد الثقافة اليونانية التي طال عليها الزمن؛ وأما الإيطاليون، الذين لم تنقطع فقط علاقتهم باليونانيين طويلا، فكانوا أقدر على تقدير قيمة ما أصبلوه. وعندما أذن اضمحلال بيزنطة برحيل علمائها وتفرقهم، فتحت لهم إيطاليا ذراعيها مرحبة بهم. لقد كان انتشار الدراسات الإنسانية في إيطاليا نتيجة غير مباشرة للحملة الصليبية الرابعة.

كانت النهضة الإيطالية فخارا للإنسانية. غير أنه من الأفضل لو أنها تحققت بغير تدمير العالم المسيحي الشرقي. وقد نجت الثقافة البيزنطية من صدمة الحملة الصليبية الرابعة. وفي القرن الرابع عشر وبما كورة القرن الخامس عشر ازدهر الفن والفكر البيزنطيين على نحو رائع الوفرة، لكن القواعد السياسية للإمبراطورية لم تكن آمنة؛ وفي واقع الأمر، لم تعد بيزنطة إمبراطورية منذ سنة ١٢٠٤م، وإنما دولة بين دول كثيرة تضاعفها في القوة أو أقوى؛ ولما واجهتها عداوة الغرب ومناقسة جيرانها في البلقان، لم تعد قادرة على حراسة العالم المسيحي ضد الأتراك. إن الصليبيين أنفسهم هم الذين أقدموا عمدا على هدم دفاعات العالم المسيحي، ومن ثم يسروا للكفرة عبور المضائق والتوغل إلى قلب أوروبا. إن الشهداء الحقيقيين في الحملات الصليبية ليسوا هم الذين سقطوا في حطين أو أمام أبراج عكا، وإنما هم الأبرياء من مسيحيي البلقان، وكذا مسيحيي سوريا والأناضول، الذين كان مصيرهم القتل والإسترقاق.

أما عن الصليبيين أنفسهم، فإن ما حققوه من أوجه القتل البين لا تفسر له. لقد كانوا يماربون لفسرة قضية الرب؛ ولو أن الإيمان والمنطق كانا صحيحين لانتصرت

(١) "De poez savoir que mal enquerdesent Costantiaople cil qui onques mais l'avoient veue, quo il ne poient mie oïoir que si riche ville peist estre en tot le monde... Mais nel point estre se il ne le veist a foiz le leue et là de la ville, qui de notes les autres ere souveraine" (Villedieu, ed. Fauré, t. I, p. 130)

قضية الرب تلك . وفي فترة الحاح الأول وضعوا عبواتنا لنوارثهم Gesta Dei per Francos ، أي (الفرنج قاموا بعمل الرب) ، غير أن الحملة الصليبية الأولى أعقبتها سلسلة طويلة من الكوارث ، وحتى انتصارات الحملة الصليبية الثالثة لم يكتب لها نجاح ولا يقين . لقد كانت هناك قوى شريرة أحبطت عمل الرب . وفي بادئ الأمر أمكن إلغاء اللامعة على بيزنطة ، وعلى الإمبراطور المنتشق بكريسته ، وعلى الشعب الكثود الذي رفض الإعراف برسالة الصليبيين الإلهية . وبعد الحملة الصليبية الرابعة لم يعد ممكنا لهذه التهمة أن تظل قائمة ، ومع ذلك أخذت الأحوال تسوء بصورة مطردة ؛ ورما زعم المبشرون الأخلاقيون أن الرب كان غاضبا على محاربه لما ارتكبه من آثام ؛ وانطوى ذلك الزعم على شيء من الصدق وأن شتا نفسوا كاملا فدان الحملة انهضت عندما قاد القديس لويس جيشه إلى واحدة من أعظم الكوارث التي مر بها الصليبيون في تاريخهم ؛ ذلك أن القديس لويس كان رجلا يظن عالم العصور الوسطى أنه طاهر الذيل بلا آثام . إن ما قضى على الحروب المقدسة في واقع الأمر لم يكن الشر بقدر ما كان الغباء ؛ ولا خير ، فكل هي الطبيعة البشرية ، إذ يعترف المرء طواعية أنه أثم ولا يعترف بأنه أحق ؛ وليس في الصليبيين من يعترف بأن ما ارتكبه فعلا من جرائم لم يكن سوى جهل ضائق ألقه وبصيرة عمياء مستهزئة .

كانت العقيدة أهم الدوافع التي استحدثت الجيوش المسيحية على الإنشاء شرقا . ولآقت من الصعاب ما لا يخطر على قلب بشر كي تقسو بالنصر على الحملة الصليبية الأولى التي بدأ نجاحها معجزة من المعجزات ، ولذا توقع الصليبيون أن تستمر المعجزات لتتقدم في أوقات الشدة ، ولأنهم كانوا على ثقة من تدخل المعجزات ، فقد أصبحوا متهورين . وغلوا حتى النهاية في نيكيوبوليس - كما كان حلقم في أنطاكية - على يقين من أن السماء ستمد إليهم يد العون . وسرة أخرى ، جعلتهم عقيدتهم - بكل بساطتها - متعصين . لقد كان ربهم ربا غيورا ، ولم يكن يسمعهم يتلهفون أن ربهم يمكن أن يكون بنفس قوة اله للسلين ، وكان كل من يظهر تسامحا للكفار حائلا في نظرهم ، وحتى أولئك الذين يمارسون طقوسا تغاير ملقوسهم في عبادة كانوا مشارا أرياب وناسي .

ودائما ما كانت هذه العقيدة الأميالة مرتبطة بتمسح لا حياة فيه . وقليل هم المسيحيون الذين يعتقدون دوما أنه من غير المناسب الربط بين عمل الرب واكتساب المزايا الدادية ، وأن الصواب أن ينتزع حنود الرب الأرضي والثروة من الكفرة ، وأن سرقة المراقبة والإشفاقين لها ما يبررها كذلك . لقد ساعدت الطموحات الدنيوية في

إنجاد روح الأقدار التي كانت بمثابة الأساس للكثير من نجاح الحركة في أول أمرها. غير أن الجشع وشهوة القوة سيدان فيهما عطر ؛ إذ أنهما يولّدان قلة الصبر ، ذلك أن حياة الإنسان قصيرة وهو يتعمّل النتائج ؛ ويولّدان الغيرة ، ذلك أن المناصب والممتلكات محدودة ، ومن الحال إرضاء كلّ طالب . ولقد استندت العداوات بين القرنين اللذين استقروا في الشرق وبين أولئك الذين جاؤوا لغارة الكفرة والبحث عن الثروة ؛ ونظر هؤلاء وأولئك إلى الحرب من وجهة نظر مختلفة ، وفي حضن الحسد وانعدام الثقة والمكائيد ، لم تنهت فرصة النجاح الكبير إلا للقليل من الحملات ، وفاسم البهيل المشاهير والإفتخار إلى القدرة . وشيئا فشيئا راح المستعمرون يكتفون أنفسهم مع أسلوب الحياة والشاغ في الشرق ؛ وبدأوا يتعلمون كيف يشارب أعدائهم وكيف يصادفونهم . أما الصليبي الولفد حديثا ، فقد وجد نفسه في عالم غريب عليه تماما ، وهو عادة على قدر من التكبر يحول دون أن يسلم بنقاته؛ فاندلج نفورا من أبناء عمومته المستقرين في أوتربرجيه وأعرض عن الإستماع إليهم ؛ وهكذا وقعت الحملة تلر الأخرى في نفس الأخطاء وفي نفس النكسات النهائية المؤسفة. وربما كان يوسع مستعمري أوتربرجيه أن يملؤوا نظرة أوسع ولكن جنود الغرب حادوا ليحاربوا من أجل الرب المسيحي.

#### الانفجار إلى قائد

ولو كانت هناك قيادة قوية وذكية لكانت خليفة بأن تنفذ الحركة . غير أن الخلقية الإقطاعية التي جاء منها الصليبيون جعلت من الصعب قبول قائد من القواد . لقد كانت الحملات الصليبية من شأن البابا ، ونادرا ما كان للتدويون البابويون جنرالات أكفاء . وكان هناك الكثير من الرجال المقتدرين بين ملوك القدس ، لكن سلطتهم على رعابهم كانت ضئيلة ، وانعدمت سلطتهم على حلفائهم الزرئيين . أما الأنشطة الدينية العسكرية ، التي كانت توفر أروع الجنود وأكثرهم حمرة ، فكانت مستقلة وقد سادت الغيرة فيما بينها . وبدا في وقت من الأوقات أن الجيوش الوطنية التي يقودها الملوك بمثابة سلح أفضل ؛ ولكن ، على الرغم من أن الملك ريتشارد الإنجليزي ، ذا الصقربة العسكرية ، كان واحدا من القادة الناجحين القلائل بين الصليبيين ، كانت الحملات الملكية الأخرى مشؤومة كلها بلا استثناء . وكان من العسير على أي عامل أن يخرج في حملة لمدة طويلة في أماكن تعد كثيرا عن أراضيهم ؛ وكانت إقامة قلب الأسد وإقامة

القديس لوييس في الشرق على حساب دفاعية القلعة وفرنسا . وكانت التكلفة المالية عاصمة بالعظة. وكان بمقدور المدن الإيطالية أن تجعل من الحملات الصليبية شيئا مربحا ، ورعا كان النبلاء المستقلون الآملون في العثور على الضياع أو الزواج من الورثات في كوترنجيه يجدون عوضا عما تكبدوه من أموال ، أما إرسال الجيش للكنيسة إلى ما وراء البحار فكان مشروعا بالعظ التكلفة بأقل القليل من الأصل في التعويض لئلا ، ومن ثم يتعين جمع ضرائب عاصمة في سائر أنحاء المملكة ، ولا غرابة في أن يقتل بعض اللصوص من ذوي التفكير العملي ، مثل فيليب الرابع الفرنسي ، أن يجمع الضرائب ثم يقتل ماكتا في بلده ولم يكن ممكنا في أي حال المرور على القائد الثالث الجندى والدبلوماسي العظيم الذي يتوفر له وقت ومال يتلقه في الشرق ، وإدراك واسع بالأساليب الشرقية. ولم يكن لنا في واقع الحال أن نلاحظ تنامي الحركة الصليبية إلى الفتش بقدر ما تلاحظ أنه كان عليها أن تصيب نجاحا، وأن على كوترنجيه أن تفي لمئات عام بعد أن تعجز سوى نصر واحد بعد تأسيسها للشهود.

إن انتصار الحملات الصليبية إنما هو انتصار للعقيدة . وما العقيدة بلا حكمة إلا خطر مائل . ومنطق قوانين التاريخ الصارمة، فإن العالم كله يكتسح عما يرتكبه كل مواطن فيه من جرائم وجماعات . وفي سياق نضال وتلاشي الشرق والغرب الطويل الذي تمت فيه حضارتنا ، كانت الحملات الصليبية حدثا فاجعا ومدمرا . وإذا بنظر المؤرخ وراهه عبر القرون إلى قصتها الرائعة، لا بد وأن يجد أن إعجابه بها تغلبه سحابة من الأسى لكونها شاعدا على تصور الطبيعة البشرية . لقد كان فيها كثير من الشجاعة وقليل من الشرف ، كان فيها كثير من الإخلاص وقليل من الفهم . لقد لوتت القتل العليا بالقسوة والجشع ، ولطعت المسارة والمقلد بالمورع الأعشى الضيق؛ ولم تعد الحرب المقدسة أن تكون ترستا طويلا من التعصب باسم الرب ، وما ذاك إلا إثم في حق الروح القدس.



---

## المرفقات:

المرفق الأول: المراجع الرئيسية لتاريخ الحملات  
الصلبية المتأخرة  
المرفق الثاني: الحيلة الفكرية في أوترمييه



---

## المرفق الأول

## المراجع الرئيسية لتاريخ الحملات الصليبية المتأخرة

### (١) المراجع اليونانية

ليست المراجع اليونانية بقات معنية إلا في تاريخ الحملة الصليبية الرابعة . ولعم مؤرخ هذه القصة هو<sup>(١)</sup> Choniatas Nictas ويتناول المؤرخ<sup>(٢)</sup> George Acropolites الحملة الصليبية الرابعة والفترة حتى الإسراعاج البيزنطي للمدينة . أما الفترة التي تلت ، فإن لعم تاريخ هو تاريخ George Pachymer<sup>(٣)</sup> ويتناول تاريخاً للمؤرخين القسوسيين اليونانيين<sup>(٤)</sup> George و Leontius Makhoeras و Bastron<sup>(٥)</sup> باقتضاب كبير الفترة السابقة على القرن الرابع عشر<sup>(٦)</sup> .

(١) انظر أعماله ، الجزء الثاني ، ص ٢٧٧

(٢) Edited by Meiserberg in the Teubner series

(٣) Published in the Bonn Corpus

(٤) *Racial concerning the Sweet Land of Cyprus*, edited with a translation by Dawkins

(٥) edited in Sathas, vol. ii.

(٦) *De Colocutionibus Cypri*, edited by نيور ونيشيزو الأول تشرس في نيور Neophytus Stubbs and published as preface to the *Itinerary* (see above, vol. ii, bibliography)

## (٢) المراجع اللاتينية والفرنسية القديمة

تعتبر أهم مجموعة تواريخ تتناول أوترجمه من الحملة الصليبية الثالثة حتى سقوط عكا هي مجموعة أسبوسالات ولهم الصوري William of Tyre الفرنسية القديمة . وحتى سنة ١١٩٨ م يبدو أن تاريخ إرنول Ernoul وهو المصدر الرئيسي ، يبدو أنه مفقود ، ومنه التاريخ الموجود Ernoul or Bernard the Treasurer والمخطوطتان C و G لتاريخ هرقل Herculius d'Eracles تعتبر أقرب النسخ ، والمخطوطات A and B المتماثلتان ، و D التي تختلف عنهما اختلافا طفيفا ، تعتبر مسودات أخرى . ومن سنة ١١٩٨ م إلى سنة ١٢٠٥ م تعتبر كل النسخ متطابقة . ومن سنة ١٢٠٥ م قُدِّمَ تطابق كل من 'Ernoul' و C و G و D من التاريخ Estoire حتى سنة ١٢٢٩ م التي ينتهي فيها 'Ernoul' . ثم تتبع المخطوطتان C و - G باختلاف طفيف - المخطوطتين A و B من الـ Estoire الذي لا علاقة له منذ سنة ١٢٠٥ م سوى القليل بتاريخ 'Ernoul' وتنتهي المخطوطة A في سنة ١٢٤٨ م ، وتستمر المخطوطات B, C and D حتى السنوات ١٢٦٦ م و ١٢٧٥ م و ١٢٧٧ م . وفي تلك الأثناء يوجد أسبوسال آخر ، يعرف باسم مخطوطة Rothelin ، يغطي الفترة من ١٢٢٩ م إلى ١٢٦٦ م ، ويتبين نشر في مكان ما في فرنسا<sup>(٧)</sup> . وأما النسخة الموحدة من حوليات الأرض المقدسة Annals de Terre Sainte فيبدو أنها تجمع مختصر لإحدى مصادر أسبوسالات وليس . وأما مخطوطات الفترة من ١٢٤٨ م قُدِّمَ فتكاد أن تكون مطابقة لـ<sup>(٨)</sup>

أما التجميع الذي تم في بدايات القرن الرابع عشر ، والمعروف باسم Gestes des Chiprois ، فيبدأ بتاريخ مقتضب للأرض المقدسة Terre Sainte ، من ١١٣١ م إلى ١٢٢٢ م ، وهو يقوم على أساس حوليات الأرض المقدسة Annals de Terre Sainte والنقسم الثاني عبارة عن تاريخ الحروب التي دارت بين آل إيلين والإمبراطوريين ، وقد كتبها فليبيس التوفاري Philip of Novara سنة ١٢٤٥ م تقريبا ، بتعليقا من ترجمته الذاتية ، وهو إيطالي . يجيش في فقرص ويكتب بالفرنسية . وليبدو كتابات فليبيس نابضة بالحياة ولها طلاقة خاصة ، وهو يدرج في سرده قصائد شعرية طويلة من نظمته هو نفسه ، فيها غضايدة سارة وقطعة ، برغم عدوها من الراعة الشعرية

(٧) أنظر كحلان ، الجزء الثاني ، الصفحتين ٥١٨-٥٢٩ و 2١-5 . *Cahiers de la Terre Sainte*

(٨) أنظر كحلان ، الجزء الثاني ، ص ٢٣٦ ، الخاتمة ١٢ .

الكبيرة . وكان فيليب صاحب ولاء متحمس لآل إيلان ، لكنه صادق ودقيق بقدر ما يسمح له ولاؤه . والنسب الأخير من "كالتار Geses" عبارة عن تاريخ لوترنجيه من سنة ١٢٤٩م إلى سنة ١٣٠٩م ، كتبها رجل تعرفه التقاليد على أنه فارس اللحد الصوري Templar of Tyre . وبينما لم يكن من فرسان المعبد هو نفسه ، لكنه شغل فيما يبدو منصب أمين سر السيد الأعظم لنظام المعبد الديني العسكري ، وليس (أوف بوجر) . ومن الواضح أنه قد عرف المصدر الذي يقوم على أساسه استرسالات Continuations . ولهم الصوري . والأرجح أن رجلا معينا هو جيرار المونريال قد جمع "كالتار Geses" في سنة ١٣٢٥م تقريباً<sup>(٩)</sup>.

ولكن واحدة من الخسائر الصليبية الرئيسية مجموعة مؤرخيها . فكان يغطي الحملة الصليبية الثالثة مؤرخون مختلفون من الأنجلو-نورمان ، وأهمهم Benedict of Peterborough, Richard of Devizes, Ralph of Diceto and William of Newburgh. وتعتبر هذه التراجم ، مع Libellus de Expeditione على جانب خاص من الأهمية للفترة المبكرة من الحملة الصليبية قبل وصول ريتشارد قلب الأسد إلى الشرق . كما أنها تحتوي على نسخ من رسائل تشارلز شيزون الشرق الأدنى . وفيما يتعلق بالحملة الملك ريتشارد وحده ، فإن أسم الرابع هي: الترجع اللاتيني Itinerarium Regis Ricardi ، كتبه على ما يبدو أحد مواطني لندن ، ريتشارد ريتشارد للقدس Richard of the Holy Trinity والشعر الفرنسي القديم الذي تعلقه<sup>(١٠)</sup> Ambroise, L'Estoire de la Guerre Sainte. والمؤرخان مرتبكان بعضهما البعض ارتباطاً وثيقاً ، وربما كان الإنسان قد اشتق من مفكرة يومية فلقها جندى في الجيش الإنجليزي ، وقد كرسها بحساس للملك ، وهي صادقة بحسب إيفانجيله اللحنزة<sup>(١١)</sup> . وترد وجهة النظر الفرنسية فم.

(٩) نشر كالتار Geses ، جاستون ريبود في نشرة معينة : أنظر pp 25-6. Cahan, op. cit. وتظهر أيضاً Hill, History of Cyprus, iii, p. 1144 .

(١٠) نشرت تراجمهم جميعاً في سلسلة Rolls كالتار تحت الترجع أدناه ، ص. ١١٧-١١٨ ، ولقد اكتفى ص. ١١٣ و ١١٥ .

(١١) كالتار الجزء الثاني ، تحت الرابع ، ص ٥١٧ .

(١٢) كتب Gaston Paris في مبادت لنشرة Ambroise عن اشتقاق أن في Itinerarium تعتمد على Ambroise. أما الأسس Ambroise and the Song of the Crusades. Miss Norgate, "The Itinerarium Pergrinorum and the Song of the Crusades" English Historical Review, vol. xiv. The Itinerarium Regis Ricardi andro المنشور في Edwards في ١٩٠٩. Essays in Honour of James Tait (pp. 39-77). ويحاول جدلاً متعمداً بأن الاثنين يقومان على أساس مصدر مشترك ضائع . ويبدو على وجهه

المقالة المختصرة التي كتبها<sup>(١٧)</sup> Rigord, Gesta Philippi Augusti. أما التواريخ الألمانية التي تصف الحملة الصليبية لفرديريك الأول ، مثل "Ambert, Expeditio Friderici" فتنتهي بوفاة الإمبراطور<sup>(١٨)</sup>.

وأهم مصادر الحملة الصليبية الرابعة هو Geoffrey of Villehardouin's<sup>(١٩)</sup> Conquête de Constantinople وقد كتبه سنة ١٢٠٩ م تقريبا فarris قام هو نفسه بتدوين بارز في الحملة وكان عما لقاهر Morea وMorica أقسام Villehardouin قصته على أساس ملاحظات أعداء أتراك ؛ وبعض النظر عن تميزه الشديد إلى الغرب ، يمكن اعتباره شاعرا يعتمد عليه . ويعتبر Conquête de Constantinople الذي كتبه Robert of Clari بمثابة شاهد عيان آخر ، غير أن كتابه كان أكثر بساطة وجفافا<sup>(٢٠)</sup>.

وأهم مصادر الحملة الصليبية الخامسة بخلاف ما كتب في أوتربرجه هو رسائل الكاردينال Oliver of Paderborn<sup>(٢١)</sup> Historia Damiatina التي كتبها Oliver الذي كان أمين سر الكاردينال بيلاجيوس . ورغم ولاء أوليفر لسيدته ، فإن ما كتبه نابض بالحياة وموضوعيا بشكل مقلوب<sup>(٢٢)</sup>.

ولم تلهم حملة فرديريك الثاني الصليبية أي كاتب متخصص ؛ غير أن لدينا لحيلة القديس لويس الصليبية لتاريخ ألفه John : Histoire de Saint Louis : الذي كتبه John Sireur of Joinville الذي كان حاضرا في الحملة ؛ ولم يمنعه إعصابه البالغ بالملك من أن يكتب سرقا لمينا وحيا وشخصيا جدا<sup>(٢٣)</sup>.

نقدم كل من Hubert و La Motte في مقدمة ترجمة كل منهما ل'Anthonio

Edited by Delaborde. (١٧)

Edited by Chrast. See Cahen, op. cit. p.19 n. 3. (١٨)

الشارة في ترجمته Furl مقدمة فرنسية صعبة) هي الأكثر ملاءمة ، ولها مقدمة مفيدة. (١٩)

نشره : Laus. أما الترجمة الأحدث إلى الفرنسية المعاصرة Polmes et Récits de la Vieillesse France, vol. xvi ، فهي غير كافية وحاصلة فيما يتعلق بتفاصيلها. (٢٠)

ترجمته : Zeitschrift für Kirchengeschichte (for Kirchengeschichte) كلفر ثبت المراجع لوند. (٢١)

Edited, with his letters, by Hooeweg. The volumes of the Scriptores Amissores Quaint bricht, contain all the lesser authorities covering the fifth, by R. Grande. (٢٢)

أحسن نشرة هي نشره : de Wailly. وأهم موزج آخر لحيلة لويس التاسع الصليبية هو William of Nangis الذي كتب بعد الحملة بجمعة عقود. (٢٣)



John Plan del Carpine and William of Rubruck  
الأراضي المقدسة الذي كتبه James of Vitry والوصفين اللاتين الذين كتبهما Ludolf  
of Suchem and Felix Fabri.

### (٣) المراجع العربية

سبق ذكر المؤرخين العرب الذين تناولوا حروب صلاح الدين والعقود الأولى من  
القرن الثالث عشر ، وذلك في المرفق الأول من المجلد الثاني من هذا التاريخ . وينتهي  
التاريخ القمّي الذي كتبه بهاء الدين بركة صلاح الدين ، لكن إسن الأكبر ، وأما شامة  
(الذي ينقل عن عماد الدين) ، وكمال الدين ، بأخذنا إلى داخل القرن الثالث  
عشر<sup>(٢٥)</sup> وللقرة الشافية من ذلك القرن ، هناك مؤرخون عديدون معاصرون ؛ غير أن  
الكثير من أهم تلك التواريخ لم ينشر بعد وليس في الإمكان قراءتها إلا في مخطوطاتها .  
ذلك أن أعمال ابن واصل ، التي تضم حياة الصالح التي تعود حتى سنة ١٢٥٠م  
وتاريخ الأيوبيين حتى ١٢٦٢م ، موجودة في عدة مخطوطات ، وأيس منها ما هو  
منشور سوى عدد قليل من المقتضات المتباعدة التي اقتبسها Reimond في *Recherches*  
*Bibliothèque des Croisades* ، vol. iv ومع ذلك ، استعان المؤرخون اللاحقون بهابن  
واصل كما نجلوهم ، مثل ابن القسطنطيني<sup>(٢٦)</sup> وقد فقدت لها ، أو تكاد ،  
حياة بيروني التي كتبها ابن شداد الجغرافي ؛ كما أن حياة قلوبون التي كتبها بيروني  
للمصري مخرّاة وإن استخدمها ابن القسطنطيني<sup>(٢٧)</sup> وسورد Reimond في (الرجع للشارح  
اليه)<sup>(٢٨)</sup> مقتطعات مما كتبه ابن عبد الظاهر عن حياة بيروني وقلوبون . ويرد في تاريخ  
ابن العميد القبطي معلومات أصلية عن القرة حتى ١٢٦٠م<sup>(٢٩)</sup> كما التاريخ المجهول  
ليطارقة الإسكندرية الذي يتوقف عند نفس التاريخ تقريبا ، فيعطي معلومات جديدة

(٢٥) انظر لعل ، الجزء الثاني ، ص ٢٢٤ .

(٢٦) انظر . *La Syrie du Nord* , pp. 68-70 .

(٢٧) انظر . pp. 75, 78-9 .

(٢٨) *Ibid.* p. 74 .

(٢٩) Edited by Cheikh in *Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium*, vol. iii .  
الترجمات في قام ١٤١٨ *Expositio and Echelensis* في القرن السادس عشر ، فلا تجوز سنة  
١٢٢٢ هجرية (١٨١٨م) .

مأخوذة من مصادر قبطية<sup>(٣٠)</sup>، كما ما ورد في تاريخ أبو القضاة<sup>(٣١)</sup> فهو كله عبارة عن تجميع من مصادر تقدم إلى أن يصل تاريخه إلى أحداث عصره، من حوالي ٢٩٠١م قُدِّمًا<sup>(٣٢)</sup>. ولما تاريخ يوسيني Younisi فلا يوجد إلا قسٍ معطوبة ، ويستمر حتى سنة ١٣١١م، وإن كان يضم نفس المعلومات الواردة في التاريخ المعاصر للبحري<sup>(٣٣)</sup> Jaziri.

ومن بين المؤرخين المتأخرين ، بخلاف ابن خلدون والموسوعي ابن خلكان<sup>(٣٤)</sup>، فإن ابن الفرائض يعد الشخصية الأهم ، وقد كتب تاريخه في نهاية القرن الرابع عشر ، وهو بدرجة كبيرة تجميع من التاريخ السابقة التي فقد الكثير منها ، ولكنه موضوع باحساس حقيقي بلف التاريخ<sup>(٣٥)</sup>، وأما معاصره المقريزي فيقتصر إلى حمزة ككتاب . وتختلف بعض معلومات بعضه عن مصر ، فإن تاريخه الذي يتناول مصر الأيوبية والمملوكية مشتقة بكاملها من أعمال سابقة ؛ لكنها مكتملة ويعتمد عليها وسهلة للنال<sup>(٣٦)</sup>. أما تاريخ العيني للكتاب قرب منتصف القرن الخامس عشر فهو بالمثل ليس سوى تجميع منقول فيما عدا الفصول الأخيرة<sup>(٣٧)</sup>.

#### (٤) المصادر الأرمينية

المؤرخون الأرمينيون الذين أُرعدوا للمملكة الكليكية مذكورون في المرفق الأول للمجلد الثاني من هذا التاريخ . وأكثرهم فائدة هو المؤرخ Vartan وخاصة في الشؤون

(٣٠) النص فكتل ليس منشور. وقد منقطعت تتناول بأكثر من القرن الثالث عشر على عدة ترجمة قرب . قام بها Blochet في (Revue de l'Orient Latin, vol. xi).

(٣١) التقطعات منشورة في: Recueil, Historiens Orientaux, vol. III.

(٣٢) انظر الجزء الثاني ص ٣٤.

(٣٣) انظر Saconnet بعضا من تاريخ البحري بدءا من سنة ٦٨٩ هجرية (١٢٩٠م) بدرجة فرنسية.

(٣٤) انظر الجزء الثاني ص ٣٤.

(٣٥) لم تُشر الفصول التي تغطي القرن الثالث عشر . انظر: Cahen, op. cit. pp.85-6.

(٣٦) انظر الجزء الثاني ص ٣٩. تزد مقتضات كاملة من "تاريخ مصر" للمصري Magriri's History of Egypt.

(٣٧) Blochet في Revue de l'Orient Latin, Vols. VIII, IX and X cited above as Magriri, VIII, IX and X vols. cited above in Magriri, Sultans I and II.

(٣٨) تزد مقتضات في: Recueil, Historiens Orientaux, vol. II, p. 2.



المغولية التي تتوفر لديه بشأنها معلومات شخصية مألوفة<sup>(٣٨)</sup> ولا بد من أن يُذكر ضمن المصادر الأرمنية *Flor des Etoires de la Terre d'Orient* الذي كتبه بالفرنسية الأسير الأرمني Hayton (Hethoum of Corycous) بعد تقاعده في فرنسا في وقت مبكر من القرن الرابع عشر ؛ وبعد تاريخنا فيما يخصه . كما كتب حوليات الأرمنية تعتمد على مصادر أرمنية وعلى *Annales de Terre Sainte*<sup>(٣٩)</sup>.

ولهم مؤرخي القرن الثالث عشر هو (Bar-Hebraeus ابن العبري) الذي كتب بالسريانية ، وقد مات سنة ١٢٨٦م عن ستين سنة ، وعلى الرغم من وجود الكثير من الشائعات والأساطير فيما أورده عن الفترات المبكرة ، فإنه عندما يكتب عن الأحداث التي عاصرها في حياته ، يقدم قدرا كبيرا من المعلومات القيمة لا توجد في أي مكان آخر<sup>(٤٠)</sup>. أما تاريخ رابان سابوما عن حياة الكاثوليكوس السبطوري مار ياهبهاللاha the Nestorian Catholicus Mar Yabballaha وعن سيرة حياته هو نفسه ، التي كتبت بالأويعورية Ouighur وترجمها مجهول إلى السريانية بعد ذلك بسنوات قليلة ، فهي ذات لما ورد فيها عن الحياة السبطورية في ظل الملوك ، والأهم من ذلك لما تحويه من قصة سفارة رابان سابوما إلى أوروبا الغربية<sup>(٤١)</sup>.

#### (٥) المصادر القارصية

يعتبر تاريخ صلاحقة الروم ، الذي كتبه ابن يبي ، ورغم إفراميه في التفصيلات ، تاريخنا فيما للأناطول أثناء النصف الأول من القرن الثالث عشر<sup>(٤٢)</sup> كما أن "تاريخ العالم" الذي كتبه رشيد الدين ذو أحمية بالغة لما يحويه من تاريخ المغول . ولقد كتب

(٣٨) أنظر نظره الثاني ، ص ٥٣٧-٥٣٨ . وليس الأرمني الكامل لهذا النوع Vahagn الذي نشر Ertse سابق نشره في موسكو سنة ١٨٦٦م.

(٣٩) نشرت Flor في . ii. Recueil, Documents Arméniens vol. ii. وقد نشر Anchor للحوليات الأرمنية في السلسلة سنة ١٨٩٢م . وترد مقتضات منها في . Recueil, Documents Arméniens, vol. i.

(٤٠) أنظر نظره الثاني ص ٥٣٨.

(٤١) ترجم Budge ما قام به رابان سابوما Rabban Soma وتلك في *The Monks of Khabli Khado* ، وأما النص السرياني فقد نشره Bodjian.

(٤٢) نشرت ترجمة تركية ومختصرات الروسية في *Histoire des Bostana, Tatars Religiés & Thistoire des Seljoukides*, vol. iii and iv.

مدىها لحائات فارس وعرض فيه وجهات نظرهم<sup>(١٣)</sup>.

#### (٦) المصادر الأخرى

علاوة على التاريخ الجورجى Georgian Chronicle ذا أهمية في تاريخه للشؤون القوقازية<sup>(١٤)</sup>. وأما التاريخ الروسية القديمة ، وخاصة إصدارات Novgorod Chronicles، فتتعمق بالشؤون البيزنطية ، وهي أساسية لدراسة المغول . كما توجد مصادر مغولية مختلفة مفيدة ، أهمها Yuan Ch'ao Pi Shih ، تاريخ المغول الرسمي ، أو السرى<sup>(١٥)</sup>.

(١٣) نشر Berezin العمل كله بترجمة روسية ، ونشر Quatremère الجزء الثاني من تاريخ الحفلات مع ترجمة فرنسية.

(١٤) أنظر الجزء الثاني من «٥٢٨».

(١٥) أنقل إصدارات Novgorod Chronicle هي التي نشرها Nasonov (Moscow, 1950).

(١٦) أنظر أملاء ، ص ٢٨٧ ، حاشية ١.



## المرفق الثاني

### الحياة الفكرية في أوترمييه<sup>(١)</sup>

كانت الحياة الفكرية في أوترمييه حرة للأمال، بخلافها بالحياة الفكرية في صقلية أو أسبانيا . وربما كان للتوقع - كشأن الحال في باليرمو - أن يكون التلاقى بين الفرنج والشرقيين حافزا لإثارة النشاط الفكري ؛ غير أن الحقيقة هي أن مجتمع أوترمييه، الذي يتألف في عمله تقريبا من الجنود والتجار ، لم يكن مناسباً لخلق حياة فكرية عالية المستوى أو المحافظة عليها . وكان هناك الكثير من المثقفين بين الأمراء والسلاة ؛ وعلى سبيل المثال ، يقال لنا إن الملك بلدوين الثالث والملك أسالريك الأول كرسا نفسيهما للأدب ، واشتهر رينالد كير صبيدا باهتمامه بالعلم الإسلامي ، بينما كان همفري الرابع أمير طورون ذا معرفة فائقة باللغة العربية<sup>(٢)</sup>، وقد أثبتت أوترمييه واحدا من أعظم مؤرخي العصور الوسطى في شخص وليام الصوري<sup>(٣)</sup> William of Tyre غير أننا لا نعرف سوى النذر اليسير حول التعليم في أوترمييه . ولا شك أنه كانت هناك - كما هي الحال في الغرب - مدارس ملحقة بأهم الكندراتيات ؛ وإن كان من الأسور ذات المغزى أن وليام الصوري قد ذهب في صباه إلى فرنسا ليتلقى العلم ، فضلا عن ذلك ،

(١) انظر أعماله ، الجزء الثاني ، صفتي ٤٦٠ و ٤٢١ .

(٢) انظر أعماله ، الجزء الثاني ، الصفحات ٤٦٠ و ٤١٢ و ٤٢٢ ، والجزء الثالث من ٩٧ .

(٣) انظر أعماله ، الجزء الثاني ، الصفحتين ٥٢٧-٥٢٨ .

فإن جميع رجال الكنيسة الذين لعبوا دورا بارزا في تاريخ أوترجميه وُلِدُوا ونشأوا في الغرب ؛ وكان الكثير من هؤلاء الأساقفة يهتمون بالأدب ، مثل بطريق أنطاكية إيمري<sup>(١)</sup>، أو بالحياة العلمية السائدة ، مثل أسقف عكا في القرن الثالث عشر ، جيمس (كوف فيزي)<sup>(٢)</sup>؛ وكانت شتى مشاريع الحملات الصليبية للتأامرة تشجع تنشيط الإهتمام بـجغرافية المشرق<sup>(٣)</sup>. بيد أن الثقافة الفرنجية في أوترجميه ظلت في عمومها استيرادا من الغرب ، مع القليل جدا من الإتصال بالثقافة الوطنية ، عبدا الفنون . وترك الطب برمته في أيدي الوطنيين ؛ وقد كان الأسراء يستخدمون الأطباء المسيحيين السوريين على ما يبدو ؛ وعنتا رفض الملك أمالريك الأول نصيحة أطبائه السوريين وأخذت نصيحة طبيب فرنجي ، مات بسبه ؛ وما أورده المؤرخ أسامة من أنشطة على الطب الفرنجي يُظهر أنه كان بداية على نحو واضح<sup>(٤)</sup> ويبدو أن الفرنج لم يحاولوا التعلم من الطب الوطني ، كما كانت عليه الحال في جنوب إيطاليا ، رغم ما يبدو من أن شخصا يدعى ستيفن الأنطاكي قد ترجم نشا طبيا من اللغة العربية سنة ١٢٢٧م<sup>(٥)</sup>. ولا توجد سجلات تدل على أن الفرنج بذلوا أي جهد لدراسة الفلسفة المحلية أو المعرفة العلمية ، بخلاف تلك من البلاد.

ويتدرج ما أكتشفته أوترجميه الفرنجية من إنتاج أدبي تحت ثلاثة عناوين . أولا ، هناك وهذه - باستثناء التاريخ العظيم الذي كتبه ولهم الصوري ، وأعمال بعض من تابعوه من أمثال إيرول Emoul - كتبها رجال ولدوا في الغرب ، وتنتمي إلى التراث التاريخي لكتابة التواريخ<sup>(٦)</sup>. وثانيا ، هناك حصيلة كبيرة من الأعمال القانونية ؛ إذ كان المستعمرون وذريعتهم عميلي الإهتمام بالأمور القانونية والدستورية ، وكانوا حريصين على كتابة آرائهم وما انتهوا إليه إلى حد لا يبارى في الغرب ؛ غير أن ما أعادوا صياغته

(١) كان إيمري (كوف ليموج Aimery of Limoges) لينا في بكاء ، لكنه دأب على مراسلة الأديباء الأوربيين مثل جوسو كورمانوس . وترد رسائل في *Maritiae and Duned, Theorae* . *Anecdota*, vol. 1.

(٢) يُظهر الوصف الذي أورده James of Vitry للأراضي المقدسة اعتمادا بالطرقيات المحلية المتصلة بالفرانز . (ed. P.P.T.S. pp. 91-2) غير أنه كان شديد الإعجاب للمسلمين والمسيحيين المحليين بحيث لم يكن له أي تعاليل مباشر بهم.

(٣) أنظر *Rey, Les Colonies Françaises*, pp. 177-8.

(٤) أنظر *أنطاكيا* ، الجزء الثاني ، الصفحتين ٣٩٤ و ٤٩٩ .

(٥) *Leclerc, La Médecine Arabe*, II, p. 38.

(٦) أنظر *أنطاكيا* ، الجزء الثاني ، الصفحتين ٥٢٧-٥٢٩ والجزء الثالث ، الصفحتين ٥٥٠-٥٥١.

من قوافل كان غربا صرغا ، وإن أدخلوا عليه بعض التعديلات الضرورية<sup>(١٠)</sup> . وأخيرا كانت هناك أشعار شعبية ورومانسية؛ إذ كان المستعمرون في أوترجييه يحسون القصدات الحماسية الرومانتيكية في ذلك العصر . وقد وافق الحملات الصليبية أعداد من المنشدين التحويلين وشعراء الألمان الغضائين ، مثل رودولف أو كورت وألف جوهانيدورف<sup>(١١)</sup> . وكان ريموند أمير أنطاكية يأن الشاعر الغضائي البارز وليسم التاسع الأكيثاني . وكانت أحداث الحملات الصليبية المثيرة مناسبة كل تناسب لإثراء المواضيع التي يتخلى بها الشعراء ؛ فسرعان ما أصبح جودفري اللورينسي بظلا أسطورية أدخلت مغامراته في قصائد فارس البجمة (cycle of the Chevalier au Cygne) ؛ وكانت القصائد التي تتناول حياة ونسبه متداولة قبل أن يكتب وليسم القصوى تاريخه<sup>(١٢)</sup> . على أن هذه القصائد نُقلت في الغرب . وبالمثل ، نُقلت القصصين الشعريين المتصلتين بالحملات الصليبية الأولى في الغرب بصورة شبه يقينية وهما أنشودة أنطاكية وأنشودة القدس Chanson الصليبيون العالمون<sup>(١٣)</sup> . والملمحة الوحيدة التي نُظمت أصلا في أوترجييه هي أنشودة النساء Chanson des Chétifs وهي قصة عجيبة عن صليبيين أسرههم كبريوسا (Corbora) تخلطت فيها أحداث الحملة الصليبية الأولى والحملات الصليبية سبعة ١١٠١م على نحو وثير القصل بينها . وهذه الملمحة نظمها شاعر مجهول استجابة لرقعة ريموند أمير أنطاكية الصريحة ، وإن لم تتم قبل وفاة ريموند سنة ١١٤٩م<sup>(١٤)</sup> . ويوحى الأساس التاريخي للشوش غير الدقيق لهذه القصة أن المؤلف كان قد وصل حديثا إلى

(١٠) تقوم على أساس الشاؤون العربي مختلف القوافل Assises والأعمال التي كتبها جون الإيليس وجنوب شوماري . أنظر: La Monte, *Feudal Monarchy*, passim.

(١١) من المؤكد أن رودولف Rodeli زار الشرق على ما يبدو ، إذ أعدها للشعر النحول مار كاريون Marcarion قصيدة كرسها له بكلمات "كل حوروى رودولف هو البحار" . غير أن قصة شبه مع الأميرة لوتلين ، مبلستة الفارسية (Melisende of Tripoli) لا بد . لا بد وأن تعتبر شبه تراثية على الأقل أنظر: Chyotte, *The Troubadours*, pp. 44-46 . ويغال إن بطرس بيدال Peter Vidal رافى الحملة الصليبية الثالثة حتى قرع حيث تروج بلاد يونانية وتضع لها ورشة القسطنطينية . (Ibid. pp. 98-9, 102) . ومن بين الشعراء الألمان الغضائين ، داخل كورت أرف جوهانيدورف (Albert of Johandorf) الحملة الصليبية الثالثة ، كما فعل فريديريك (أرف هوسين Frederick of Hosen) الذي مات على أية حال قبل وصول الجيش الألماني إلى تونس.

(١٢) أنظر: Hosen, *Les Poemes Epiques des Croisades*, pp. 395-400.

(١٣) أنظر: Cahen, op. cit. pp. 12-16.

(١٤) Ibid. pp. 569-70; Hosen, op. cit. pp. 375 ff.

الشرق . وكان لمسير الأسرى المسيحيين لدى المسلمين سحر حيال على الفرنج، ومن ثم نال موضوع اليوساء Chrétiens شعبية كبيرة في أوترجمه وكذلك في أوروبا<sup>(١٥٩)</sup>.

وكان لأوترجمه أعمال شعرية أخرى ، وإن لم يكن من تعرف من شعراتها قد ولد في الشرق . وكان فيليب النوفاري (Philip of Novara) سياسيا ومؤرخا وفقهيا قانونيا، وكان لبطال المولد ، لكنه كان يكتب بالفرنسية، وقد أورد في تاريخه شعرا ينهض بالحيلة وإن لم يكن شعرا رائعا<sup>(١٦٠)</sup>، وكتب Philip of Nateuil ، عندما كان أسيرا في القلعة قصائد تفيض حينا إلى وطنه الفرنسي<sup>(١٦١)</sup>، وعلى الرغم من أنه يمكن إعتبار فيليب النوفاري واحدا من أوجدوا الثقافة الفرنسية الإقليمية في قبرص ، فليس أدب أوترجمه يساغة سوى فرع من الأدب الفرنسي ؛ إذ لم يكن هناك أدب محلي بين وعابها الفرنج في سوريا لأبناء البلد الأصليين من وعابها للفرنج في سوريا، على الرغم من أنه في قبرص واليونان نفسها نشأ في ظل السيادة الفرنسية أدب يوناني شبه شعبي متأثر تأثرا قويا بالثقافات الفرنسية.

وفي واقع الأمر ، لم تجاور الحياة الفكرية في أوترجمه حياة مستعمرة فرنجية . وكان لبلاد تلك أو بلاط الأمير سحرا شاملا عابا، لكن عدد الدارسين المقيمين في أوترجمه كان ضئيلا ، وقد حثالت الحروب والصعاب المالية دون وجود مؤسسات كمراكز دراسة حقيقية يمكنها أن تستوعب المعارف الوطنية المجاورة. وكان غياب هذه المراكز سببا في أن أُنسى إسهام الحملات الصليبية في أوروبا الغربية ضئيلا على نحو عجيب للأمال

(١٥٩) قارن تراث الخيال سراج بوهنت من الأسر (أعماله ، الجزء الثاني ، ص ١٦٥ ، حاشية ١١ والتعليق على مقدمة أن ليدا (سأجرافين المستعارة) كانت أم زنتي (أعماله ، الجزء الثاني ، ص ٥٢) وأن أعت بوترقد التولوزي تروخت نوردين وكذلك أم زنت الصالح (ibid. p. 288 n.1)

(١٦٠) تشارل تيلو ، الصفحتين ٢٤٢ و ٥٥٥ ، pp. 1112-15 Hill, *History of Cyprus*, iii. وعلى ما يبدو ، فإن ولم (ألف مانشوت) William of Mochout مؤلف لشعر الخماسي خميلة بطرس القروسي على مصر ، لم يتم رواية الشرق مطلقا (ibid. 1115)

(١٦١) انظر أعماله ، ص ٢٦٦.

## BIBLIOGRAPHY

(NOTE. This bibliography is supplementary to the bibliographies in vol. 1 and vol. 2 of this History, and does not include works mentioned there, except when different editions have been used. The same abbreviations are employed; and a few additional abbreviations, used in the footnotes and bibliography of this volume, are given at the end of certain items.)

### I. ORIGINAL SOURCES

#### I. COLLECTIONS OF SOURCES

- Acta Imperii Selecta* (ed. J. F. Bohmer). Innsbruck, 1870.  
*Annales Monastici* (ed. H. R. Luard), Rolls Series, 5 vols. London, 1864-9.  
 BALUZIUS, S. *Collectio Veterum Monumentorum*, 6 vols. Paris, 1678-1713.  
 BALUZIUS, S. *Vitae Paparum Avinionensium* (ed. Mollat), 4 vols. Paris, 1914-27.  
 BARTHOLOMAEUS, V. DE. *Poesie Provenzale Storiche relative all' Italia*. 2 vols. Istituto Storico Italiano, Rome, 1931.  
 BONGARS, J. *Caesa Dei per Francos*, 2 vols. Hanover, 1611.  
*Chronicles: Stephen, Henry II and Richard I* (ed. Howlett), Rolls Series, 4 vols. London, 1885-90.  
 CHRODIT, A. *Quellen zur Geschichte des Kreuzritters Kaiser Friedrichs I, M.G.H.St.*, new series. Berlin, 1928.  
 COBBHAM, C. D. *Excerpta Cyprica*. Cambridge, 1908.  
 COTILLERUS, J. B. *Ecclisiae Graecae Monumenta*, 4 vols. Paris, 1677-92.  
 DELAVILLE LE ROUX, G. *Cronaca generale de l'Ordre des Hospitaliers de St Jean de Jerusalem*, 4 vols. Paris, 1894-1904.  
 DE CRESSA, A. *Historiae Francorum Scriptores*, 5 vols. Paris, 1636-49.  
 GOLUBOVICH, G. *Biblioteca Bio-bibliografica della Terra Santa e dell' Oriente Francese*, 5 vols. Florence, 1906-27.  
 HEISENBERG, A. *Neue Quellen zur Geschichte des lateinischen Kaiserthums*. Munich, 1923.  
*Historia Diplomatica Frederici Secundi* (ed. J. L. A. Houllard-Bethoullat), 6 vols. Paris, 1852-61.  
 KOHLER, C. *Mélanges pour servir à l'Histoire de l'Orient Latine et des Croisades*. Paris, 1906.  
 MARTENS, E. and DURAND, U. *Thesaurus Novus Anecdotorum*, 5 vols. Paris, 1717.  
 MARTENS, E. and DURAND, U. *Veterum Scriptorum et Monumentorum Amplius Collectio*, 9 vols. Paris, 1727-31.



- MAS LATRE, L. DE. Documents, see Bibliography II.
- MAS LATRE, L. DE. *Nouvelles Preuves de l'Histoire de Chypre*, in *Bibliothèque de l'Ecole des Chartes*, vols. XXXII, XXXIV and XXXV. Paris, 1871-4.
- POTTRAST, A. *Regesta Pontificum Romanorum*, 2 vols. Berlin, 1874-5.
- RAYNALDUS, O. *Annales Ecclesiastici*, 15 vols. Lucca, 1747-56.
- Regesta Honorii Papae III* (ed. P. Fournier), 2 vols. Rome, 1888-95.
- Regimen Innocentii Papae super Negotio Romani Imperii* (ed. P. Kempf), *Miscellanea Historiae Pontificiae*, vol. XII. Rome, 1947.
- Regimes des Papes*, Bibliothèque des Ecoles Françaises d'Athènes et de Rome. Paris:
- Alexander IV (ed. Bourel de la Roncière), 2 vols. 1903, 1917.
- Gregory IX (ed. Auvray), 2 vols. 1896, 1907.
- Gregory X (ed. Guiraud), 2 vols. 1892, 1906.
- Innocent IV (ed. Berger), 4 vols. 1884-1911.
- Nicholas III (ed. Gay and Vitte), 2 vols. 1898, 1918.
- Nicholas IV (ed. Langlois), 2 vols. 1886, 1905.
- Urban IV (ed. Guiraud), 4 vols. 1892-1909.
- RIANT, P. *Excursus Saraceni Constantinopolitane*, 2 vols. Geneva, 1877-8.
- RÖHRICHT, R. *Scriptores Minores Quinti Belli Sacri*, Société de l'Orient Latin. Série Historique, n. Geneva, 1879. (Röhricht, S.M.Q.B.S.).
- RÖHRICHT, R. *Testimonia Minora de Quinto Bello Saraceni*, ibid. m. Geneva, 1882.
- RYMER, T. *Fœdera, Conventiones, Litterae et Acta publica inter Reges Angliae*, 4 vols. in 7. London, 1816-69.
- SCHWANDTNER, J. G. *Scriptores Rerum Hungaricarum*, 3 vols. Vienna, 1746-8.
- STREHLKE, E. *Tabulae Ordinis Teutonici*. Berlin, 1869.
- TAFEL, G. L. and THOMAS, G. M. *Urkunden zur älteren Handels- und Staatsgeschichte der Republik Venedig*, 3 vols. Vienna, 1856-7.
- THEINER, A. *Vetera Monumenta Historiae Hungariae Saraceni Illustrantia*, 2 vols. Rome, 1859-60.
- WATERSCH, J. M. *Pontificum Romanorum qui fuerunt inde ab exunte saeculo IX usque ad finem saeculi XII Vitae*, 2 vols. Leipzig, 1862.
- WINKELMANN, E. *Acta Imperii Inedita Saeculi XIII*, 2 vols. Innsbruck, 1880-5.

## 2. WESTERN SOURCES, LATIN, OLD FRENCH AND GERMAN

- Adam, William. *De Modo Saracenis Exterpandi* (ed. Kohler), *R.H.C. Ann.* vol. II.
- Alberic of Trois Fontaines. *Chronicon*, in *R.H.F.* vol. XVII.
- Amadi, Francesco. *Chroniques d'Amadi et de Strambaldi*, ed. Mas Latre. Paris, 1891.
- Annales Claustroneoburgenses*, in *M.G.H.Ss.* vol. IX.
- Annales de Dunstapla*, in *Annales Monastici*, vol. III.

- Annales Jonensis*, in *M.G.H.St.* vol. xviii.  
*Annales Marbacenses*, in *M.G.H.St.* vol. xvii.  
*Annales Romani*, in Watterich, *Pontificum Romanorum Vitae*.  
*Annales Stadeni*, in *M.G.H.St.* vol. xvi.  
Anonymus Halberstadensis. *De Peregrinatione in Greciam*, in Riant, *Excerptae*, vol. i.  
Ansbert. *Expositio Fridrici Imperatoris*, in Chroust, *Quellen*.  
*Antiquities of Romanie* (ed. Recours), Paris, 1930.  
Auria, Jacobus. *Annales*, in *M.G.H.St.* vol. xviii.  
Bacon, Roger. *Opus Majus* (ed. Bridges), 3 vols. Oxford, 1903.  
Baldwin I, Emperor of Constantinople, letter, in *R.H.F.* vol. xviii.  
Bartholomew of Neocastro. *Historia Stiada*, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, new edition, vol. xiii, 3.  
Bonomet, Ricard. Poems, in Bartholomaeis, *Poesie Provenzale*.  
Bruno, Bishop of Olenitz, *Bericht* (ed. Hüster), *Abhandlungen der historischen Klasse der Bayerische Akademie der Wissenschaften*, series 1, iv, Munich, 1846.  
Burcard (Brocard). *Directorium ad Philippum Regem*, in *R.H.C. Arm.* vol. ii.  
Bustros, Florio. *Chronique de l'île de Chypre*, ed. Mas Latrie. Paris, 1886.  
*Chronica Regis Colimani* (ed. Waitz), *M.G.H.St.* in *usum scholarum*, 1880.  
*Chronicle of Malibus* (ed. Stevenson). London, 1836.  
*Collectio de Scandalis Ecclesiae* (ed. Suroick), in *Archivum Franciscanum Historicum*, vol. xxv, Rome, 1931.  
Cotton, Bartholomew, *Historia Angliana* (ed. Luard), *Rolls Series*. London, 1839.  
Dandel, John. *Chronique d'Arménie*, in *R.H.C. Arm.* vol. ii.  
*De Exilio Urbis Accusis*, in Martène and Durand, *Amplissima Collectio*, vol. v.  
*De Inere Frionum*, in Röhrich, *S.M.Q.B.S.*  
*Devastatio Constantinopolitana*, in *Annales Hieropolitanae*, *M.G.H.St.*, vol. xvi.  
Dubois, Peter. *De Recuperatione Terre Sancte* (ed. Langlois). Paris, 1891.  
Durand, William. *Informatio brevis de Passagio sancto* (ed. Viollet), *Historie Littéraire de la France*, vol. xxxv, Paris, 1921.  
Edward I, King of England. Letter to Joseph of Chauncy, in *P.P.T.S.* vol. v.  
*Epistola de Morte Fridrici Imperatoris*, in Chroust, *Quellen*.  
*Epistola de Morte Fridrici Imperatoris*, in Chroust, *Quellen*.  
*Epistola de Morte Fridrici Imperatoris*, in Chroust, *Quellen*.  
*Epistola de Morte Fridrici Imperatoris*, in Chroust, *Quellen*.  
Fabri, Felix. *Book of the Wanderings*, trans. Stewart, 3 vols. *P.P.T.S.* vols. vii-ix.  
Fidenzio of Padua. *Liber Recuperationis Terrae Sanctae*, in Golobovich, *Biblioteka Bio-bibliografica*, vol. ii.  
Figuera, Guillem. "Dun Servientes Par", in Bartholomaeis, *Poesie Provenzale*.  
*Fragmentum de Captione Damiate*, Provençialia textus, in Röhrich, *S.M.Q.B.S.*  
Frederick II, Emperor. Letter to King Henry, in Bohmer, *Acta Imperii Selecta*.  
Galvano. *Liber Sancti Passagii Christianorum contra Saracenos*, extracts (ed. Kohler), in *Revue de l'Orient Latin*, vol. vi, Paris, 1898.  
*Gesta Crutigerorum Rhenanorum*, in Röhrich, *S.M.Q.B.S.*

- Gesta Innocentii III*, in *M.P.L.* vol. cccv.  
*Gesta Obidientis Daviete*, in Röhrich, *S.M.Q.B.S.*  
*Gesta des Chypriots* (ed. Raynaud). Geneva, 1887.  
 Gregory IX, Pope. Letters, in *M.C.H. Epistolae Sacerdotum*, xiii, vol. 1.  
 Gunther of Paris. *Historia Constantinopolitana*, in Riant, *Revue*, vol. 1.  
 Guyot of Provins. *Clavier* (ed. Orr). Manchester, 1915.  
 Haymar Monachus. *De Expugnata Acre* (ed. Riant). Lyons, 1876.  
 Hayton (Hethoum). *Flos Historiarum Terre Orientis*, in *R.H.C. Arm.* vol. 11.  
 Hayton (Hethoum). *La Flor des Estoires de la Terre d'Orient*, *ibid.*  
 Henry II, King of Cyprus. *Informatio ex parte Nunciosum Regis Cypri*, in *Mus. Latine*, Document.  
*Historia Pergrinorum*, in Chroust, *Quellen*.  
 Humbert of Romans. *Opus Tripartitum*, in E. Brown, *Appendix ad fasciculum rerum expectandarum et fugiendarum*. London, 1690.  
 Innocent III, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vols. ccciv-cccvi.  
 John of Ypres. *Chronicon Sythiense Sancti Bertini*, in Martine and Durand, *Thesaurus Anecdotorum*, vol. 11.  
 John of Tullia. *De Domino Johanne Rege Jerusalem*, in Röhrich, *S.M.Q.B.S.*  
 Joinville, John, Sieur of. *Histoire de Saint Louis* (ed. Wailly). Paris, 1874.  
 Joseph of Chaucy. Letter to Edward I, in *P.P.T.S.* vol. 1.  
 La Broquière, Bertrand of. *Voyage d'Outremer* (ed. Schefér). Paris, 1892.  
 Lettre des Chrétiens de Terre Sainte à Charles d'Anjou (ed. Delaborde), in *Revue de l'Orient Latin*, vol. 11. Paris, 1894.  
*Liber Duellum Christiani in Obidientis Daviete exacti*, in Röhrich, *S.M.Q.B.S.*  
 Louis IX, King of France. Letter in Baluzius, *Collecta*, vol. iv.  
 Ludolph of Suchem (Sudheim). *Description of the Holy Land* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. 11.  
 Lull, Ramon. *Liber de Fide*, in Götze, *Ramon Lull's Kreuzzugideen*, see Bibliography II.  
 Machaut, William. *La Prise d'Alexandrie* (ed. Mus. Latine). Geneva, 1877.  
*Memoire de Rochelin*, in *R.H.C. Occ.* vol. 11.  
 Matthew Paris. *Chronica Majora* (ed. Luard), Rolls Society, 7 vols. London, 1872-84.  
 Matthew Paris. *Historia Minora* (ed. Madden), Rolls Society, 3 vols. London, 1866-9.  
 Matthew of Westminster. *Flores Historiarum* (ed. Luard), Rolls Society, 3 vols. London, 1890.  
*Memoria Terre Sancte*, in Kohler, *Mélanges*, vol. 11.  
 Molay, James of. Report to Clement V, in Baluzius, *Vitae Paparum*, vol. 11.  
 Munster, Ramon. *Cronica* (ed. Caroleu). Barcelona, 1836.  
*Narratio Itineris Navalis ad Terram Sanctam* (ed. da Silva Lopez). Lisbon, 1844.

- Oliver Scholasticus. *Opera*, I. *Historia Damiatina*; II. *Epistolae* (ed. Hoeweg). *Bibliothek des Literarischen Vereins in Stuttgart*, vol. ccm. Tübingen, 1894.
- Otto of Saint Blaise. *Chronica* (ed. Hofmeister), *M.G.H.St. in usum Scholarum*, 1912.
- Philip of Novara. *Le Livre de Foire de Plait*, in *R.H.C. Lévi*, vol. 1.
- Philip of Novara. *Mémoires*, in *Gestes des Chiprois* (English translation by La Monte and Hubert, *The Wars of Frederick II against the Infidels in Syria and Cyprus*. New York, 1916).
- Pian del Carpine, John. *Historia Mongolorum* (ed. Palle). Florence, 1913.
- Richard of Devizes. *De Rebus Gestis Ricardi Primi*, in *Chronicles* (ed. Howlett), vol. III.
- Richard of San Germano. *Chronicon* (ed. Perz), *M.G.H.St.* vol. XXX.
- Rigord. *Gesta Philippi Augusti* (ed. Delaborde). Paris, 1882.
- Robert de Monte (appendix), in *R.H.F.* vol. XXV.
- Robert of Clary. *La Conquête de Constantinople* (ed. Lauer). Paris, 1924.
- Roger of Wendover. *Chronica* (ed. Hewlett), *Rolls Series*, 3 vols. London, 1866-9.
- Rutebeuf. *Quatre Poèmes concernant la Croisade* (ed. Bastin and Faral). Paris, 1946.
- Salimbene de Adam. *Cronica* (ed. Holder-Egger), in *M.G.H.St.* vol. XXXII.
- Sanudo, Marino. *Chronique de Rémus*, in *Ms. Latine, Nouvelles Preuves*.
- Sanudo, Marino. *Liber Secretorum Fidelium Crucis*, in *Bongars, Gesta Dei per Francos*, vol. II.
- Sequentia Andegavorum*, in *Riant, Exuviae*, vol. II.
- Sicard of Cremona. *Cronica* (ed. Holder-Egger), in *M.G.H.St.* vol. XXXI.
- "Templar of Tyre." *Chronique*, in *Gestes des Chiprois*.
- Thaddæus of Naples. *Historia de Desolatione et Conuulsione Civitatis Accurrit et totius terre sancte* (ed. Riant). Geneva, 1873.
- Thomas of Spalato. *Historia Sclavonica*, in *Schwandner, Scriptores Rerum Hungaricarum*, vol. III.
- Thwrocz, Joannes de. *Illustratio Hungariae Regum Chronica*, in *Schwandner, Scriptores Rerum Hungaricarum*, vol. I.
- Vie ad Terram Sanctam*, in *Köhler, Mélanges*, vol. II.
- Villaret, Fulk. *Mémoire* (ed. Petit). *Bibliothèque de l'École des Chartes*. Paris, 1839.
- Villehardouin, Geoffrey of. *La Conquête de Constantinople* (ed. Faral), 2 vols. Paris, 1938-9.
- Vincent of Beauvais. *Speculum Historiale*. Douai, 1624.
- Vitry, James of. *Epistolae* (ed. Röhrich), *Zeitschrift für Kirchengeschichte*, vols. XIV-XVI. Gotha, 1894-6.
- Vitry, James of. *History of Jerusalem* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. XI.
- Wilbrand of Oldenburg. *Reise* (ed. Laurent). Hamburg, 1839.
- William le Breton. *Gesta Philippi Regis and Philippis* (ed. Delaborde), 2 vols. Paris, 1882, 1885.

- William of Newburgh. *Historia Rerum Anglicarum*, in *Chronicles* (ed. Howlett), vol. II.  
 William of Rubruck (Rubruquis). *Itinerarium* (trans. Rockhill), Hakluyt Society, series II, vol. IV. London, 1900.  
 William of St. Pathus. *Vie de Saint Louis* (ed. Delaborde). Paris, 1859.  
 William of Tripoli. *Tractatus de Statu Saracenicorum*, in Prutz, *Kulturgeschichte der Kreuzzeit* (see Bibliography II).  
 Zaccaria, Benito. *Mémoire*, in Mas Latrie, *Documents*.

### 3. GREEK SOURCES

- Acropolita, George. *Opera* (ed. Heisenberg). Leipzig, 1903.  
 Bustron, George. Χρονικὸν Κύπρου, in Sathas, *Μεσαιωνικὴ Βιβλιοθήκη*, vol. II.  
 Germanus, Patriarch of Constantinople. Ἐπιστολαί, in Sathas, *Μεσαιωνικὴ Βιβλιοθήκη*, vol. II.  
 Letter of Greek clergy to Innocent III, in Contelinius, *Ecclésiastes Graecae Monumenta*, vol. III.  
 Makris, Leonidas. *Retinal concerning the Sweet Land of Cyprus, entitled Chronicle* (ed. with translation Dawkins), 2 vols. Oxford, 1932.  
 Mesarites, Nicholas. *Opera*, in Heisenberg, *Neue Quellen*.  
 "Narrative of the thirteen holy fathers burnt by the Latins", in Sathas, *Μεσαιωνικὴ Βιβλιοθήκη*, vol. II.  
 Pachymer, George. *De Michael et Andronico Palaeologis*, 2 vols. C.S.H.B. Bonn, 1835.

### 4. ARABIC AND PERSIAN SOURCES

- Al-Aini. *Perles d'Histoire*, extracts in R.H.C.O. vol. II, 2.  
 Dimashki. *Geography* (ed. Mehren). St Petersburg, 1866.  
*Histoire des Patriarches d'Alexandrie*, extracts (trans. Blochet), *Revue de l'Orient Latin*, vol. XI. Paris, 1908.  
 Ibn al-Arabi. *Chronicle* (ed. Cheikho), *Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium*, vol. III, 1.  
 Ibn Baruta. *Voyages* (ed. with French translation Defremery and Sanguinetti), 4 vols. Paris, 1879.  
 Ibn Bibi. *History of the Seljuks*, Turkish translation (ed. Houtama), *Textes relatifs à l'histoire des Seljoukides*, vols. III, IV. Paris, 1902.  
 Ibn al-Farid. *Chronicle* (part ed. Zourziq). Beirut, 1935-7.  
 Ibn Khartikan, Ibn Shetad. *Geography*, extracts (ed. by Cahen), in *Revue des Etudes Islamiques*. Paris, 1936.  
 Ibn Wail. *History of the Ayyubids*, selections in Reinand, *Extraits*, in Michaud, *Bibliothèque*.  
 Idrisi. *Geography*, ed. Gildemeister, *Zeitschrift für Deutsche Palästina Verein*, vol. VII. Leipzig, 1835.

- Al-Jazeli. *Chronique de Damas* (trans. Sauvaget). Paris, 1949.  
 Juwaini, Sa'd ad-Din Ishaq Hamawiya, extracts (trans. Cahen), 'Une Source pour l'Histoire des Croisades', in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, 28e année, no. 7, 1950.  
 Maqrîsi. *Histoire des Sultans Mamelouks* (trans. Quatremère), 2 vols. Paris, 1837-45.  
 Muhi ad-Din Ishaq Abdazzahir. *Lives of Babars and Qalauwn*, selections in Reynaud, *Extraits*, in Michaud, *Bibliothèque*.  
 Rashid ad-Din. *History of the Mongols* (Russian trans. by Berzin), 4 vols. St Petersburg, 1861-88; Part IV, *History of the Mongols of Persia* (ed. with French translation Quatremère). Paris, 1836.  
 Yakut. *Alphabetical Dictionary of Geography* (ed. Wattenfeld), 6 vols. Leipzig, 1866-73.

#### 5. ARMENIAN, SYRIAC, SLAVONIC AND MONGOL SOURCES

- Ballad on the captivity of Leo, son of King Hethoum I, in *R.H.C.Arm.* vol. 1.  
 Hayton (Hethoum of Corycus). *Chronological Table*, in *R.H.C.Arm.* vol. 1.  
 Hethoum II, King of Armenia, *Poem*, in *R.H.C.Arm.* vol. 1.  
 Kirakos of Ganzag. *History* (trans. Brouzet). St Petersburg, 1870.  
 Orbelian, Stephen. *History of Siania*, Armenian text. Moscow, 1861.  
 Vartan. *History of the World*, Armenian text. Moscow, 1861.  
 Rabban Sauma. *History of Rabban Sauma and Mar Yohannallaha* (trans. Budge), in Budge, *The Monks of Khubilai Khan*, see Bibliography II.  
*Novgorod Chronicle* (*Novgorodskaya Pervaya Letopis*, ed. Nasonov), Academy of Sciences of the U.S.S.R. Moscow/Leningrad, 1950.  
*Histoire Secrète des Mongols* (Yuan Ch'ao Fu Shih), Mongol text transcribed in Latin letters, with partial French translation and ed. Pelliot. Paris, 1949.

#### II. MODERN WORKS

- ALBRANDY, P. 'Les Croisades d'Enfance', in *Revue de l'Histoire des Religions*, vol. LXXIII. Paris, 1916.  
 AMARI, M. *La Guerra del Vespro Siciliano*, 3 vols. Milan, 1886.  
 ATIYA, A. S. *The Crusade in the Later Middle Ages*. London, 1938.  
 ATIYA, A. S. *The Crusade of Nicopolis*. London, 1934.  
 BALTRUŠAITIS, J. *Le Problème de l'Olype et l'Arménie*. Paris, 1936.  
 BARTHOLO, W. Articles, 'Cingis Khan' and 'Khwarezm', in *Encyclopaedia of Islam*.  
 BOASS, T. S. R. 'The Arts in the Latin Kingdom of Jerusalem', in *Journal of the Warburg Institute*, vol. 2. London, 1933-9.  
 BOUVAT, L. *L'Empire Mongol, 2me Phase*, vol. VII, 3, pt. 2 of Cavaignac, *Histoire du Monde*. Paris, 1927.

- BRATIANU, G. I. *Recherches sur le Commerce Génois dans la Mer Noire au XIII<sup>e</sup> Siècle*. Paris, 1929.
- BREITENHEDER, E. *Medieval Researches from Eastern Asiatic Sources*, 2 vols. London, 1888.
- BUCHTHAL, H. 'The Painting of Syrian Jacobites in its relation to Byzantine and Islamic Art', in *Syria*, vol. xx. Beyrouth, 1929.
- BUDER, E. A. W. *The Monks of Kühlān Khān, Emperor of China*. London, 1928.
- CARRE, C. 'Notes sur l'Histoire des Croisades et de l'Orient Latin, III, Orient Latin et Commerce du Levant', in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, 9<sup>e</sup> année, no. 8, 1931.
- CARRAS, C. 'Turcomans de Roum', in *Byzantion*, vol. xiv. Brunsch, 1930.
- CARTLIERH, A. *Philipp II August und der Zusammenbruch des angevinischen Reiches*. Leipzig, 1913.
- CHADOT, J. B. 'Relations du Roi Aigoun avec l'Occident', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. II. Paris, 1894.
- CHAYTOR, H. J. *The Troubadours*. Cambridge, 1912.
- CLAPHAM, A. W. *Romanesque Architecture in Western Europe*. Oxford, 1936.
- COGNASSO, F. *Un Imperatore Bizantino della Decadenza*, in *Bessarione*, vol. xxxii. Rome, 1915.
- DALTON, O. M. *Byzantine Art and Archaeology*. Oxford, 1911.
- DALTON, O. M. *East Christian Art*. Oxford, 1925.
- DELAVILLE LA ROULX, J. *La France en Orient au XIV<sup>e</sup> Siècle*, Bibliothèque des Ecoles Françaises d'Athènes et de Rome. Paris, 1886.
- DER NERSESIAN, S. *Armenia and the Byzantine Empire*. Cambridge, Mass., 1945.
- DESCHAMPS, P. *La Diffense du Royaume de Jérusalem*, 2 vols. Paris, 1939.
- DESCHAMPS, P. *Le Crac des Chevaliers*, 2 vols. Paris, 1914.
- DIEHL, C. *Une République Patricienne, Venise*. Paris, 1915.
- D'ONISION, M. *Histoire des Mongols depuis Tchingiz Khan jusqu'à Timur Bék*. 2 vols. Amsterdam, 1834-5.
- DONOVAN, J. P. *Pelegrus and the Fifth Crusade*. Philadelphia, 1950.
- DUCKWORTH, H. T. F. *The Church of the Holy Sepulchre*. London, 1922.
- EDERSOLT, J. *Monuments d'Architecture Byzantine*. Paris, 1914.
- EDWARDS, J. G. 'The Itinerarium Regis Ricardi and the Estoire de la Guerre Sainte', in *Essays in honour of James Tait*. Manchester, 1933.
- ENLART, C. *Les Monuments des Croisés dans le Royaume de Jérusalem*, 4 vols. Paris, 1925.
- FEDDEN, R. *Crosser Castles*. London, 1950.
- FICHE, A. *La Chrétienté Romaine*, vol. x of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise*. Paris, 1950.
- FOREVILLE, R. and ROUSSET DE PINA, J. *Du Premier Concile de Latran à l'Avènement d'Innocent III*, vol. ix, 2, of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise*. Paris, 1952.

- GIBSON, H. A. *The Foundation of the Ottoman Empire*. Oxford, 1916.
- GOTTRON, A. 'Ramon Lull's Kreuzzugsideen', in *Abhandlungen zur Mittelalterlichen und Neueren Geschichte*, vol. XXXIX. Berlin/Leipzig, 1912.
- GREGOR, H. 'The Question of the Diversion of the Fourth Crusade', in *Byzantion*, vol. XV. Boston, 1941.
- GRIKOV, B. and IAKOUBOVSKI, A. *La Harde d'Or* (trans. into French by Thuret). Paris, 1939.
- GREVEN, J. 'Frankreich und der Fünfte Kreuzzug', in *Historisches Jahrbuch*, vol. XLII. Munich, 1923.
- GROUSSET, R. *L'Empire des Steppes*. Paris, 1941.
- GROUSSET, R. *L'Empire Mongol, Sixième Phase*, vol. VIII, 3, of Cavaignac, *Histoire de l'Empire*. Paris, 1941.
- HARDING, E. 'Die letzten Feldzüge Gengis Khans und sein Tod', in *Asia Major*, vol. IX. Leipzig, 1937.
- HALLACK, O. *The Crusade of Varna*. New York, 1943.
- HAMMER-PURGSTALL, J. VON. *Histoire de l'Empire Ottoman* (trans. into French by Hellert), 18 vols. Paris, 1843.
- HILL, G. *History of Cyprus*, vols. II and III. Cambridge, 1948.
- HOFF, K. *Geschichte Griechenlands vom Beginn des Mittelalters bis auf die neuere Zeit*. Leipzig, 1867.
- HOWARTH, H. H. *History of the Mongols*, 5 vols. London, 1876-88.
- JORDA, N. *Philippe de Mézières et la Croisade au XIV<sup>e</sup> Siècle*. Paris, 1896.
- JORDAN, E. *Les Origines de la Domination Anglaise en Sicile*. Paris, 1909.
- KANTOLOVICH, E. *Fredrik the Second*. London, 1937.
- KARAMZIN, N. M. *History of the Russian Empire* (in Russian), 3 vols. St Petersburg, 1851.
- KINGFORD, C. L. 'Ocho de Grandison', in *Transactions of the Royal Historical Society*, 3rd series, vol. III. London, 1909.
- KUHL, M. F. *Les Origines de l'Empire Ottoman*. Paris, 1935.
- LA MONTA, J. L. 'John d'Ibelin', in *Byzantion*, vol. XII. Brussels, 1937.
- LANGLOIS, C. V. *La Vie en France au Moyen Age*, 3 vols. Paris, 1927.
- LECLERC, L. *La Médecine Arabe*. Paris, 1876.
- LEVI-MASSEPOIX, DUC DE. *Philippe le Bel*. Paris, 1936.
- LEVY, R. *A Baghdad Chronicle*. Cambridge, 1929.
- LEZARD, G. *Le Dossier de l'Affaire des Templiers*. Paris, 1928.
- LONGNON, J. *L'Empire Latin de Constantinople*. Paris, 1949.
- LONGNON, J. *Les Français d'Orient au Moyen Age*. Paris, 1929.
- LUCHAIRE, A. *Innocent III. La Question d'Orient*. Paris, 1911.
- MAKHOUY, N. *Guide to Acre*. Jerusalem, 1941.
- MARTIN, E. J. *The Trial of the Templars*. London, 1928.
- MARTIN, H. D. *The Rise of Chingis Khan and his Conquest of North China*. Baltimore, 1930.



- MAS LATRE, L. *Histoire de l'île de Chypre sous le Règne de la Maison de Lusignan*, vol. 1, *Histoire*; vols. II and III, *Documents*. Paris, 1852-61.
- MELVIN, M. *La Vie des Templiers*. Paris, 1951.
- MUNRO, D. C. 'The Children's Crusade', in *American Historical Review*, vol. XIX. New York, 1914.
- NORGATE, K. *Richard the Lion Heart*. London, 1924.
- NORGATE, K. 'The *Itinerarium Peregrinorum* and the *Song of Ambras*', in *English Historical Review*, vol. XXV. London, 1910.
- OMONT, H. 'Peintures d'un Évangélaire Syriaque', in *Monuments et Mémoires publiés par l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, vol. XIX. Paris, 1911.
- PELLIOT, P. 'Chrétiens d'Asie Centrale et de l'Extrême Orient', in *T'oung Pao*, vol. XL. Leiden, 1914.
- PELLIOT, P. 'Les Mongols et la Papauté', in *Revue de l'Orient Chrétien*, vols. XXXII, XXXIV, XXXVIII. Paris, 1922-32.
- PIQUET, J. *Les Banquiers du Moyen Âge: Les Templiers*. Paris, 1939.
- POWICK, F. M. *King Henry III and the Lord Edward*, 2 vols. Oxford, 1947.
- PRAWER, J. 'Etude de Quelques Problèmes Agraires et Sociaux d'une Seigneurie Croisée au XIII<sup>e</sup> Siècle', in *Byzantion*, vol. XXX. Brussels, 1952.
- PRAWER, J. 'L'Établissement des Coutumes du Marché à Saint-Jean d'Acre', in *Revue Historique de Droit Français et Étranger*. Paris, 1951.
- PAUTZ, H. G. *Kaiser Friedrich I.*, 3 vols. Danzig, 1871-4.
- PAUTZ, H. G. *Kulturgeschichte der Kreuzzüge*. Berlin, 1883.
- RAY, E. G. *Les Monuments de l'Architecture Militaire des Croisés en Syrie et dans l'île de Chypre*. Paris, 1871.
- RÖHRICHT, R. 'Der Kinderkreuzzug 1212', in *Historische Zeitschrift*, vol. XXXVI. Munich, 1876.
- RÖHRICHT, R. *Études sur les Derniers Temps du Royaume de Jérusalem*, *Archives de l'Orient Latin*, vol. II. Paris, 1884.
- RÖHRICHT, R. *Studien zur Geschichte des Fünften Kreuzzuges*. Innsbruck, 1891.
- SACERDOTYRANO, A. *Marea Invasie Tatars si Sud-estul Europei*. Bucarest, 1933.
- SCHLUMBERGER, G. *Byzance et Croisades: Pages Médévales*. Paris, 1927.
- SMITH, R. C. 'Crusaders' Castles in the Twelfth Century', in *Cambridge Historical Journal*, vol. X, 2. Cambridge, 1951.
- SORENSEN, M. Article 'Baibars', in *Encyclopaedia of Islam*.
- STERNFELD, R. *Ludwigs des Heiligen Kreuzzug nach Tanis 1270*. Berlin, 1896.
- STRACKSCH-GROSSMANN, G. *Der Einfall der Mongolen in Mitteleuropa in den Jahren 1241 und 1242*. Innsbruck, 1893.
- THROOP, P. A. 'Criticism of Papal Crusade Policy in Old French and Provençal', in *Speculum*, vol. XIII. Cambridge, Mass., 1938.
- THROOP, P. A. *Criticism of the Crusades*. Amsterdam, 1940.
- VAN OBTROT, F. 'Saint François et son Voyage en Orient', in *Analecta Bolandiana*, vol. XXXII. Brussels, 1912.

- VASILIEV, A. A. *History of the Byzantine Empire*, new edition. Madison, 1952.  
 VASILIEV, A. A. "The Foundation of the Empire of Trebizond", in *Speculum*,  
 vol. XL. Cambridge, Mass., 1936.  
 VERNADSKY, G. *Kievan Rusia*, vol. II of Vernadsky and Karpovitch, *History of  
 Rusia*. Newhaven, 1948.  
 WINKELMANN, E. *Kaiser Friedrich II*, 2 vols. Leipzig, 1889-97.  
 WINKELMANN, E. *Philipp von Schwaben und Otto IV von Braunschweig*, 2 vols.  
 Leipzig, 1873-8.  
 WITTE, P. *The Rise of the Ottoman Empire*. London, 1838.  
 YULE, H. *Cathay and the Way Thither*, 2 vols. Hakluyt Society, no. 37.  
 London, 1866-7.

